تمهيد

مجتمعات العرب فى الجاهلية

وتفاوتها فى الحضارة

١

موطن العرب ، فى جاهليتهم ، يمتد فى رقعة من الأرض واسعة[١] ، ذات بقاع متباينة ، تختلف بيئاتها الطبيعية اختلافاً يكاد يجعل منها مواطن متعددة وإن كانت ، مع ذلك ، وطناً واحداً متماسكاً . فما بين البحر الهندى فى أقصى الجنوب إلى ما بعد دمشق فى أقصى الشمال ، وما بين بحر فارس ونهرىْ دجلة والفرات فى الشرق إلى البحر الأحمر بل إلى نهر النيل فى الغرب[٢] — كانت تسبح

(١) « ليس فى خريطة الأرض شبه جزيرة تضاهيها حجماً ، فهى أكبر من شبه جزيرة الهند ، ومساحتها ثمانية أضعاف الجزر البريطانية ، وأربعة أضعاف فرنسا . . . » تاريخ العرب (مطول) لحتى وجرجى وجبور ١ : ١٥ . « وهى تعادل ربع أوربا أو ثلث الولايات المتحدة مساحة . . . » المرجع السابق ص : ١ .

(٢) تحديد البلاد التى سكنها العرب ليس بالأمر اليسير المتفق عليه ، وإنما يحتاج إلى تحديد المراد بلفظ العرب أولا وإلى تحديد الزمان الذى تدور فيه أحداث البحث ثانياً :

(ا) كان الفراعنة والآشوريون والفينيقيون يقصدون بالعرب أهل البادية فى البقعة الممتدة بين الفرات فى الشرق والنيل فى الغرب ، ويدخلون فيها — عدا بادية العراق والشام وشبه جزيرة سيناء — صحراء مصر الشرقية ما بين وادى النيل والبحر الأحمر . وقد كانت بلاد العرب فى عصر جيولوجى مبكر متصلة فى جنوبها عند اليمن بإفريقية عدا اتصالها بها فى شمالها ، فكان البحر الأحمر آنذاك بحيرة داخلية ، (انظر : De Lacy O'Leary, Arabia Before Mohammad, 1927, p. 11) وكان بذلك نهر النيل هو الحد الغربى لبلاد العرب .

(ب) وكان اليونان القدماء يعدون جنوبى جزيرة العرب بين خليج فارس والبحر الأحمر من الحبشة ، فيجعلون الحبشة واليمن وضفاف خليج فارس إقليما واحداً يسمونه « إثيوبيا آسيا » . ثم أطلق اليونان فى عهد البطالسة على الجزيرة كلها اسم بلاد العرب ، وقسموها ثلاثة أقسام : البادية =

هذه الأمة العريقة : فى الأغوار والأنجاد ، وفى السهول وفوق قنن الجبال ، وفى أجواف الصحارى وعلى سواحل البحار . وكان لا بد لهذه الرقعة المترامية الأطراف ، المتباعدة الأقطار ، من أن يختلف مناخها كما اختلفت طبيعة أرضها : ففيها شواظ من لهيب الحر يشوى الوجوه ، وسموم تلوح الأبدان ؛ وفيها ثلوج تكلل الجبال ، وصقيع يجمد الدم فى أطراف الأحياء ويقفقع الجلود[1] ؛ وفيها ما بين

= Arabia Deserta ، والحجرية Arabia Petra ، والسعيدة Arabia Felix .

(م) وأما جغرافيو العرب فهم يقصدون ببلاد العرب الجزيرة العربية كلها ، ويدخلون فيها بادية سيناء وبلاد الشام جميعها وجزءاً من العراق ؛ فيحددها الهمدانى بقوله : « جنوبيها اليمن ، وشماليها الشام ، وغربيها شرم أيلة وما طردته من السواحل إلى القلزم وفسطاط مصر ، وشرقيها عمان إلى البحرين وكاظمة والبصرة ، ووسطها الحجاز وأرض نجد والعروض . وتسمى جزيرة العرب لأن اللسان العربى فى كلها شائع وإن تفاضل . . . » (صفة جزيرة العرب ص : ١) . ويفصل ياقوت القول عند كلامه على تحديدها تفصيلا فذكر مبتدأه ومنتهاه قال : « قد اختلف فى تحديدها ، وأحسن ما قيل فيها ما ذكره أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب مسنداً إلى ابن عباس ، قال : اقتسمت العرب جزيرتها على خمسة أقسام ؛ قال : وإنما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها ، فصاروا منها فى مثل الجزيرة من جزائر البحر . وذلك أن الفرات أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين ، ثم انحط على أطراف الجزيرة وسواد العراق حتى وقع فى البحر فى ناحية البصرة والأبلة . . . ثم ساحل الطور وخليج أيلة وساحل راية حتى بلغ قلزم مصر وخالط بلادها ، وأقبل النيل فى غربى هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلا معارضاً البحر معه حتى دفع فى بحر مصر والشام ، ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين فمر بعسقلان وسواحلها وأتى صور ساحل الأردن وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنسرين والجزيرة إلى سواد العراق » (معجم البلدان — جزيرة العرب) .

وبلاد العرب فى هذا البحث هى الجزيرة العربية التى يحدها من الغرب البحر الأحمر ، ومن الجنوب البحر العربى ، ومن الشرق خليج فارس ، وتمتد فى الشمال حتى تشمل هذه البقاع التى قامت فيها دولات عربية كالمناذرة فى الحيرة ، والغساسنة فى الشام ومن قبلهم الأنباط فى بترا وتدمر .

(١) يبلغ ارتفاع أعالى الجبال فى اليمن أكثر من اثنى عشر ألف قدم ، ونحو عشرة آلاف قدم فى كل من مدين وجبال السراة فى الحجاز والجبل الأخضر فى عمان . بل إن فى نجد — وهى هضبة متوسط ارتفاعها ٢٥٠٠ قدم — جبلا يبلغ ارتفاعه ٥٥٠٠ قدماً وهو جبل أجأ (انظر تاريخ العرب — مطول — ١ : ١٦) . وقد ذكر عرام بن الأصبغ السلمى فى كتابه « أسماء جبال تهامة وسكانها » بعض هذه الجبال الشاهقة ، وأشار إلى ارتفاعها وذهابها فى السماء ، من ذلك قوله عن جبل ورقان : « جبل أسود عظيم كأعظم ما يكون من الجبال » (ص : ١٥) وقال عن جبل آرة « جبل من أشمخ ما يكون » (ص : ١٩) . وقال عن جبل شمنصير : « جبل ململم لم يعله أحد قط ولا درى ما على ذروته » (ص : ٢٦) . وقال عن جبل يسوم وفرقد « لا يكاد أحد يرتقيهما إلا بعد جهد » (ص : ٤١) =

هذا وذاك مناخ معتدل فيه دفء لايغلو فيصبح حرًّا، ولا يقصر فيصبح بردًا .. وفيها مع ذلك أمطار غزار تنساب أنهاراً وجداول[1]، تقوم على حفافيْها مدن

= وقد كان الماء يجمد على بعض قمم الجبال وذلك مثل جبل صنعاء وجبل غزوان بجوار الطائف (انظر الهمدانى : الإكليل ص : ٩ ، والإصطخرى : مسالك الممالك ص : ١٩). « ومكثوا سنة جرداء، وسموها سنة الجمود لجمود الرياح فيها » (الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص : ٢١٤) . وكانت الثلوج تسقط على جبل حضور الشيخ في اليمن فى شتاء كل عام تقريباً ، وأما الصقيع فهو أكثر من ذلك شيوعاً (انظر تاريخ العرب – مطول ١ : ٢١) .

(١) كانت الأمطار فى جزيرة العرب فى العصر الجاهلى غزيرة غزارة لا تعرفها الجزيرة الآن ، ولغزارة الأمطار فى الجاهلية آيات : أولاها – وهى أهمها فى نظرنا – ما يحفل به الشعر الجاهلى من وصف السيول الدافقة ، وذلك أكثر من أن يشار إليه . وثانيتها : كثرة الأودية ومسايل المياه التى تشاهد فى الجزيرة – ليومنا هذا – غائرة غائضة . وقد عقد الهمدانى فصلا عن أودية السراة ومسايل المياه فيها فى صفة جزيرة العرب (من ص : ٧١ إلى ٧٨) حيث يفصل القول فيها تفصيلا ويعد منها شيئاً كثيراً ، وانظر كذلك ص : ٢١٤ وما بعدها . وثالثة هذه الآيات ما يذهب إليه بعض العلماء فى قولهم : « وكانت الرياح الغربية التى تروى غيومها الآن مرتفعات سورية وفلسطين تصل فى الأزمنة الغابرة إلى الجزيرة قبل أن تفقد هذه الغيوم رطوبتها » (تاريخ العرب – مطول – ١ : ١٥) . والعلماء هؤلاء يشيرون إلى أن ذلك كان فى عصور جيولوجية سحيقة فى القدم – ولكن ما ذكرناه من أمر الشعر الجاهلى دال على أن ذلك كان مألوفاً فى العصر الجاهلى الأخير . ومما يؤيد ذلك أن ديودوروس الصقلى – فى القرن الأول قبل الميلاد – يذكر أن بلاد العرب التى تقع فى الشمال من العربية السعيدة وتمتد حتى تجاور سورية « يتخللها كثير من الأنهار ويهطل عليها مطر غزير فى الصيف فيكون لسكانها بذلك موسمان زراعيان فى السنة الواحدة» (انظر : Diodorus Siculus, London, Book 2, p. 54)

وقد ذكر عرام السلمى أسماء كثير من القرى الزراعية وأنواع فواكهها وثمارها وأشار إلى كثرة مائها ، من ذلك قوله من جبل رضوى وعزور : « فى الجبلين جميعاً مياه أوشال ، والوشل : ماء يخرج من شاهقة لا يطورها أحد ولا يعرف منفجرها . . ويصب الجبلان فى وادى غيقة ، وغيقة تصب فى البحر ، ولها سك : وهى مواضع تمسك الماء ، واحدها ساك » (ص : ٦) ويذكر « ينبع » فيقول : « قرية كبيرة غناء . . . فيها عيون عذاب غزيرة الماء وواديها يليل يصب فى غيقة . . . وفى يليل هذه عين كبيرة تخرج من جوف رمل من أعذب ما يكون من العيون وأكثرها ماء . . . » (ص : ٨ – ٩) ويذكر « الصفراء » فيقول : « قرية كثيرة النخل والمزارع وماؤها عيون كلها ، وهى فوق ينبع مما يلى المدينة ، وماؤها يجرى إلى ينبع » (ص : ٨) ويذكر قرية السوارقية وفواكهها فيقول : « قرية غناء كثيرة الأهل . . ولهم مزارع ونخيل كثيرة وفواكه وموز وتين ورمان وعنب وسفرجل وخوخ . . . » (ص : ٦٥) .

وهو يذكر كثرة المطر فيقول : « وغدير خم هذا . . لا يفارقه ماء أبداً من ماء المطر » (ص : ٣٣) ويذكر الآبار التى فى بعض الجبال فيقول عن مائها إنه « ماء سماء لا تنقطع هذه المياه لكثرة ما يجتمع فيها » (ص : ٥٤) .

=

وقرى ، وتهتز الأرض فتخرج من ثمرها وبقلها وفاكهها ما شاء لها الله ؛ ويكون من كل ذلك تلك الحضارة الزراعية التي عرفها التاريخ في العرب والأمم الأخرى ذات طابع واضح ومعالم مميزة . وقد تضنّ الطبيعة بمائها فلا تكاد ترسله إلا بمقدار ، ثم تمسك إمساك الشحيح يندم على ما بسط من يده ؛ فيكون من هذا الرذاذ الهيّن الليّن سهوب ومراع ينتجعها قطّان الصحارى بأنعامهم يلتمسون الكلأ ، ثم لا تكاد تطمئن بهم النوى حتى تقتلعهم اقتلاعاً ، وتقذفهم إلى مرعى جديد يكون أوفر حظّاً وأوفى نصيباً . فتنشأ من ذلك طبقة اجتماعية عرفها التاريخ كذلك في سيره الطويل بطابعها الواضح ومعالمها المميزة .

وهذه الصحراء العربية يضيق جوفها عن أن يمد لقُطّانها من أسباب العيش غيرَ ما كان يعيش عليه رجل الغابة الأول : يتنكّب قوسه ويعلّق كنانته ، أو يحمل رمحه ويتقلّد سيفه ، ثم يضرب في الأرض باحثاً عن قُوته بين حيوان الصحراء . وقد يؤوب بصيد سمين وقد يكون هو الصيد ، أو قد يفوته ما أمّل ، فلا يجد له بُدّاً من أن يجعل هدفه أخاً له يفتك به ويجرّده مما يحوز . فتكون من ذلك طبقة اجتماعية ثالثة هي أولى الجماعات التي عرفها التاريخ منذ أن وُجد الإنسان .

ولقد كانت هذه البلاد في مكان سُوًى بين أمم العالم ، يتوسط الشرق والغرب ، ويصل الجنوب بالشمال ، فلا بدّ إذن من أن تكون طريقاً تجتازه التجارة من الشرق والجنوب إلى الشمال والغرب . وكان لا بد أن يكون لهذه التجارة قوّامون يبذلون من مالهم ومن جهدهم في شرائها ونقلها وحراستها ثم بيعها ما يضطرهم إلى تنظيم أمرها وتهيئة وسائلها ، فنشأت من ذلك تجارتان : تجارة داخلية محلية ،

= بل إن هذه الأمطار ما زالت إلى يومنا هذا تهطل على الصحارى نفسها - بله السهول والجبال - كصحارى النفود والربع الخالي حتى إنها لتغطيها «ببساط من الخضرة يحولها إلى جنة للإبل والأغنام» ، «وتغنى الأرض بالمراعي» (انظر تاريخ العرب - مطول - ١ : ١٧) وانظر كذلك ص : ٢٠ - ٢١ ففيهما وصف للخصب والخضرة في هضبة نجد وفي الحجاز وعسير واليمن في أيامنا هذه .

وتجارة خارجية عالمية . وكان لا مفرّ من أن تقوم طبقة اجتماعية رابعة بجانب الطبقات الثلاث المتقدمة .

وكانت ثَمَّة حِرَفٌ صغيرة ، وصناعات كثيرة ، تتناول من الأمور دقيقَها وجليلَها ، وكانت بعض المدن تختصّ بضرب من هذه الصناعات دون غيره ، فتشتهر به ، ويؤمها الناس يتعلمون هذه الصناعة من أهلها ، ثم يعودون إلى موطنهم بطريف لم يكونوا يعهدونه[1] . وكان لا بدّ من أن يقوم على هذه الحرف والصناعات رجال مختصون : من العرب الخُلَّص ، ومن الرقيق المجتلب ، فكانت منهم جميعاً طبقة اجتماعية خامسة ، ذات طور حضاريّ يختلف عن الطبقات السابقة .

ولعل آخر هذه الطبقات هؤلاء السادة المترفون من الملوك والأمراء والحكام والأثرياء ممَّن كان يجتمع لهم السلطان والمال .

٢

والقبيلة عند العرب فى حاجة إلى دراسة مستفيضة خاصة ، لا يتسع لها مثل هذا العرض التمهيدى ، وبحسبنا أن نشير إلى أن الشائع المتعارف أن القبيلة كانت فى الجاهلية جماعات من الأعراب البدائيين : يسكنون الخيام ويقطنون الصحراء ، لا همّ لهم إلا الغزو وانتجاع الكلأ . وقد يَصْدُق ذلك على بعض تلك القبائل ، أو على أقسام منها . غير أن الذى لا يتطرق إليه ريب ، فيما نرى ، أن قبائل كثيرة كان منها من يسكن فى الحواضر والقرى مستقرًّا ثابتاً : فالأوس والخزرج

---

(١) من أمثلة ذلك ذهاب عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة من الطائف إلى جرش فى اليمن ليتعلما بعض الصناعات الحربية . قال ابن إسحق : « ولما قدم قل ثقيف الطائف أغلقوا عليهم أبواب مدينتها — وصنعوا الصنائع للقتال . ولم يشهد حنيناً ولا حصار الطائف عروة بن مسعود ولا غيلان بن سلمة ، كانا بجرش يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والضبور » (السيرة ٤ : ١٢١)

كانتا تسكنان المدينة ، وثقيف كانت تسكن الطائف ، وقريش البطاح كانت تسكن بطحاء مكة ، وتغلب وبكر وإياد كان بعضها حاضرةً تسكن الجزيرة وما بين النهرين ، وعبد القيس كان منها حاضرةٌ تسكن عُمَان والبحرين ، وغيرها وغيرها من القبائل التي كانت تستوطن قرى اليمامة وقرى اليمن . فهذه وأشباهها من قبائل العرب كان أكثرها أهلَ مَدَر ، مستقرّةً في موطنها ، لا يُعْجِلها التنقُّل والارتياد عن أن تقيم لنفسها من حولها حياة مدنية لا تختلف في شيء عما نعرفه من حياة سكان المدن في بلاد العرب لذلك العهد . وما أوضح ما رُوِي لنا عن أحد أحلاف الجاهلية من أن ذلك الحلف كان « في أهل الوَبَر في الجاهلية فلما جاء الإسلام –وكانت حَنيفة بقيت من قبائل بَكْر لم تكن دخلت في الجاهلية في هذا الحلف– قال : وذلك أنهم أهل مَدَر – فدخلوا في الإسلام مع أخيهم عِجْل فصاروا لِهِزْمة »[١].

ونصٌّ آخر لا يقل وضوحاً وإبانة ، قالوا[٢] : « قريشُ الأباطح أشرفُ وأكرمُ من قريش الظواهر ، لأن البطحاويين من قريش حاضرةٌ وهم قُطّان الحرم ، والظواهر أعراب بادية ، وضاحية كل بلد ناحيتها البارزة » .

فكثيراً ما نجد إذن قبيلة واحدة تحيا حياتين مختلفتين : كان قسم منها يتحضر ويستقرّ ويسكن المدر ، على حين يبقى قسم منها بادياً في أهل الوبر ، في أطراف القرى والمدن . وقد كان هذا شأن القبيلة في الجاهلية والإسلام معاً ؛ فمن ذلك : جُهَيْنَة ، كان قسم منها يسكن في الوبر دون المدر في نواحي جَبَلَيْ رَضْوَى وعَزْوَر[٣] ، على حين يسكن قسم آخر منها في المدر في ينبع « وهي قرية كبيرة غنَّاء . . . فيها عيون عِذاب غزيرة الماء . . »[٤] ويسكن قسم ثالث منها في

---

(١) النقائض : ٧٢٨ .

(٢) اللسان (ضحا) .

(٣) عرام بن الأصبغ السلمي ، كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها ، ص : ٧ .

(٤) المصدر السابق : ٨ .

الصَّفْراء « قرية كثيرة النخل والمزارع وماؤها عيون كلها ، وهى فوق ينبع مما يلى المدينة ، وماؤها يجرى إلى ينبع »[١] .

ومثال آخر : نَهْد ، كانت كجُهَيْنة تسكن فى الوبر دون المدر فى جبَلَىْ رَضْوَى وعَزْوَر[٢] ، وكان قسم منها يسكن فى قرية الصَّفْراء .

ومثل ثالث : مُزَيْنَة ، كان قسم منها يسكن فى جبل وَرْقان[٣] ، وقسم آخر فى جبلى القُدْسَيْن[٤] ، وقسم ثالث فى جبلى تَهْبَان[٤] على حين يسكن قسم منها فى قرية الفُرْع « وهى قرية غناء كبيرة »[٥] .

ومثل رابع : هُذَيْل ، كانت أقسام منها تسكن ضرعاء وهى « قرية بها قصور ومنبر وحصون »[٦] ، وقسم يسكن فى قريتى رُهاط والحديبية[٧] ، وقسم يسكن فى مَرّ الظَّهْران وهى « قرية فى واديها عيون كثيرة ونخيل وجُمَّيز » ، إلى آخر ما شئت من الأمثلة .

وإذا كان يحلو لبعض الباحثين أن يجعلوا « لأهل الكتاب » فى الجاهلية سهماً فى الحضارة أوفر من مهام « الأُمِّيِّين » — ولعلهم على شىء من الحق فى ذلك — فمن يكون أهل الكتاب أولئك ؟ وكيف يغرب عنا أن نصارى بلاد العرب ويهودَها لم يكونوا — ما عدا قلة قليلة من الوافدين — غير قبائل قد تنصرت وتهوَّدت — قبائل كاملة بِقَضِّها وقضيضها[٨] .

---

(١) عرام بن الأصبغ : ٨

(٢) المصدر السابق : ٧

(٣) المصدر السابق : ١٦

(٤) المصدر السابق : ١٨

(٥) المصدر السابق : ١٩

(٦) المصدر السابق : ٢٥ — ٢٦

(٧) المصدر السابق : ٢٧ — ٢٨

(٨) ابن حزم ، الجمهرة : ٤٥٧ — ٤٥٨ « فيقال إن إياداً كلها ، وربيعة كلها ، وبكر ، وتغلب ، والنمر ، وعبد القيس كلهم نصارى ، وكذلك غسان ، وبنو الحارث بن كعب بنجران ، وطيء ، وتنوخ ، وكثير من كلب ، وكل من سكن الحيرة من تميم ولخم وغيرهم.=

ثم إن القبائل البادية نفسها التي لم تستوطن الحواضر والقرى ، ولم تتنصر أو تهوّد ــ هذه القبائل كانت تتفاوت تفاوتاً كبيراً في نظام حياتها ، وطرق معيشتها وطبقتها الاجتماعية ؛ وبحسبنا أن نشير إلى ما رُوِيَ عن عائشة ، قالت : لما قدمنا المدينة نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقبل هدية من أعرابي ، فجاءت أم سنبلة الأسلمية بلبن ، فدخلت به علينا فأبينا نقبله ؛ فنحن على ذلك إلى أن جاء رسول الله معه أبو بكر ، فقال : ما هذا ؟ فقلت : يا رسول الله هذه أم سنبلة أهدت لنا لبناً ، وكنت نهيتنا أن نقبل من أحد من الأعراب شيئاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذوها ، فإن أسْلَمَ ليسوا بأعراب هم أهْلُ باديتنا ، ونحن أهل قَارِيَتهم ، إذا دعوناهم أجابوا ، وإن استنصرناهم نصرونا[1] .

وثمة نَصَّان لا يقلان عن هذا النصّ وضوحاً وقيمةً : أولهما ما ذكره عَرَّام ابن الأصبغ في حديثه عن السُّوَارِقيَّة قال : « قرية غناء كثيرة الأهل » ثم قال : كان لبني سُلَيم فيها « مزارع ونخيل كثيرة وفواكه من موز وتين ورمان وعنب وسفرجل وخوخ . ولهم خيل وإبل وشاء كثير ، وهم بادية ، إلا من وُلِدَ بها فإنهم ثابتون بها ، والآخرون بادون حواليها ويميرون طريق الحجاز ونجد في طريق الحاج »[2] .

وثانيهما ما ذكره عرّام أيضاً في حديثه عن قرية خَيْفِ سَلَام قال : « .... وفيه منبر وناس كثير من خزاعة ، ومياهها فُقُرٌ أيضاً ، وباديتها قليلة ، وهي : جُشَم وخُزَاعة وهُذَيْل »[3] .

فنحن نفهم من هذه النصوص الثلاثة المتقدمة أن المقصود بالبادية إنما هو

= وكانت حمير يهوداً ، وكثير من كندة » . وذكر أبو عبيد (معجم ما استعجم ١ : ٢٩) أن قبيلة من بلي نزلت أرضاً بين تيماء والمدينة « فأبت يهود أن يدخلوهم حصنهم وهم على غير دينهم ، فتهودوا ، فأدخلوهم المدينة . . . »

(١) ابن سعد ، الطبقات ٨ : ٢١٥ ، والقارية : الحاضرة الجامعة .

(٢) كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها : ٦٥ .

(٣) المصدر السابق : ٣٥ ؛ والفقر : فُقَر الماء ، واحدها : فقير .

ظاهر القرية ، أو ضاحيتها وما أحاط بها ، وأن كثيراً من القبائل كانوا يقطنون فى هذه البوادى قريبين من الحواضر ، مُطيفين بها ، مُتّصلين بسكّانها ؛ فهم إذن غير تلك القبائل الموغلة فى الصحراء ، الضاربة فى الفيافى ، البعيدة عن العمران ، الذين قست قلوبهم وغلظت أكبادهم فوصفهم القرآن الكريم بشدة الكفر والنفاق ، هؤلاء هم الأعراب ؛ أما القبائل القريبة من القرى ، المطيفة بها « فليسوا بأعراب ، هم أهل باديتنا ونحن أهل قاريتهم » .

٣

ونحب أن نخلص من كل ما قدّمنا من أمر عرب الجاهلية وبلادهم إلى أنهم لم يكونوا مجتمعاً واحداً ، بل كانوا طبقات اجتماعيةً مختلفة متباينة تمثل المجتمعات الإنسانية التى مرت بها البشرية فى تاريخها الطويل .

وقد استبانت هذه الفروق الاجتماعية بين تلك المجتمعات منذ القدم لمن كتب عن العرب من مؤلفى اليونان والرومان. فهذا ديودوروس الصقلّىّ — فى القرن الأول قبل الميلاد — يُفيض فى حديثه عن الحضارة الزاهية التى قامت فى بعض أنحاء الجزيرة العربية ، ويصوّر لنا الحياة المترفة الراقية التى كان يحياها عرب اليمن ؛ ثم يتحدث عن الأجزاء الداخلية المتوسطة فى بلاد العرب فيقول : إنه « كان يقطنها جمهور كبير من العرب الرُّحَّل الذين اتخذوا لأنفسهم حياة الخيام ، وكانت لهم قطعان كثيرة من الأنعام ، وينصبون مضاربهم فى السهول الواسعة المنبسطة . . » ثم يقول : « إن الأجزاء الباقية من بلاد العرب المتاخمة للبحر والتى تقع إلى الشمال من العربية السعيدة وتمتد حتى تجاور سورية — يقطنها جمهور من المزارعين والتجار على اختلاف أنواعهم ، يبيعون ما عندهم ويبتاعون ما عند غيرهم فى مواسم وأسواق تجارية . . . وتتخلل هذه البلاد كثير من الأنهار ، ويهطل عليها مطر غزير فى

الصيف ، فيكون لهم بلدك موسمان زراعيان فى السنة الواحدة »[١] .

وقد لحظ بعض الذين كتبوا فى العصور الإسلامية عن العصر الجاهلى هذه الفروق فى المجتمعات الجاهلية — فهم يقسمون عرب الجاهلية قسمين رئيسيين : الملوك ، وغير الملوك . ثم يقسمون غير الملوك قسمين رئيسيين : أهل مَدَر وأهل وَبَر ، ويقسمون أهل المدر إلى زراع وتجار . قال ابن العبرى[٢] « وأما سائر عرب الجاهلية بعد الملوك فكانوا طبقتين : أهل مدر وأهل وبر . فأما أهل المدر فهم الحواضر وسكان القرى ، وكانوا يحاولون المعيشة من الزرع والنخل والماشية والضرب فى الأرض للتجارة . وأما أهل الوبر فهم قُطّان الصحارى وكانوا يعيشون من ألبان الإبل ولحومها ، منتجعين منابت الكلأ ، مرتادين لمواقع القطر ، فيُخَيِّمُون هنالك ماساعدهم الخصب وأمكنهم الرعى ، ثم يتوجهون لطلب العشب وابتغاء المياه ، فلا يزالون فى حلٍّ وترحال . . »

٤

ولذلك كان من الإخلال الفاضح بالمنهج السديد أن يُنْظَر إلى العصر الجاهلى نظرة واحدة ، وأن يُحكم عليه حكمٌ عامٌّ مطلق ، وأن يُوصَمَ عرب الجاهلية جميعاً بالبداوة والجهالة ، فلا تُراعى هذه الفروق الواسعة فى البيئات الاجتماعية المتباينة . فإن صحّ أن بعض الأعراب فى صحراوات الجزيرة كانوا فى معزل عن العالم المتمدين آنذاك ، فإنه من الصحيح كذلك أن بعض البيئات الاجتماعية الأخرى كانت متصلة بمعالم المدنية لذلك العهد ، مواكبةً لركب الحضارة .

والحضارة فى العصر الجاهلى موضوع يحتاج إلى شىء من البحث المتعمق

---

(١) Diodorus Siculus, London, William Heinemann Ltd. Cambridge, Book 2, p. 54

(٢) مختصر الدول — ط . بيروت ص ١٥٨ — ١٥٩ ، وكذلك صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ص ٦٥ — ٦٦ .

الدقيق ، ويستحق منا فى هذا المجال وقفة قصيرة نُلم به إلمامة سريعة .

وأول ما يلفت نظرنا من أمر هذه الحضارة الجاهلية الأخيرة أنها حضارة ظاهرية تأثرية (سلبية) ، لم تبلغ من العمق أولاً ومن القوة ثانياً ما يجعل لها طابعها الخاص الذى تتسم به ، وما يبعث فى حناياها الحياة القوية حتى تتدفق على الحضارات الأخرى فتؤثر فيها أو تتفاعل معها . وتعليل ذلك أن هذه الحضارة فى الجاهلية الأخيرة إنما انحدرت من جدولين : أولهما تليد موروث ، وثانيهما طريف مقبوس .

أما الجدول الأول فهو صورٌ مطموسة ، وأطلال مدروسة ، وظلال باهتة ، كان يحس بها عرب هذا العصر إحساساً غائماً ، ويسمعون بها سماعاً غامضاً ، ويرون من آثارها ما لم يحسنوا الانتفاع به أو ما لم تطق حالتهم آنذاك أن تبعث فيه الحياة دافقة كما كانت . ومعالم تلك الحضارة التليدة قائمة فى بلاد العرب فى هذه النقوش والآثار التى اكتُشف بعضها فى اليمن حيث قامت دول معين وسبأ وحمير ، وفى الحِجْر حيث وجدت لحيان وثمود ، وفى بترا حيث قامت دولة الأنباط .

وقد أشار كثير من المعنيين بالدراسات الشرقية من الأوروبيين إلى هذه الحضارة العربية القديمة بعد استقراء النقوش واستنطاق الآثار . فقال ونكلر Winckler[1] إن تاريخ الجزيرة العربية كما توضحه النقوش يُظهر لنا مجموعة من الحكومات والدول المنظمة منذ أقدم القدم. وقال سايس A.H. Sayce « لم يكن المسلمون الذين انطلقوا من الجزيرة العربية وفتحوا العالم المسيحى وأسسوا الممالك إلا من نسل أولئك الذين كان لهم فى القدم أثر عميق فى مصير الشرق »[2] . وقال هومل Hommel : «إن الحضارة العربية الجنوبية بآلهتها ومذابحها ذات البخور ونقوشها وحصونها وقلاعها لا بد أن تكون مزدهرة متحضرة منذ الألف الأول قبل الميلاد . . » وقال : « إن أهمية العرب فى الشرق القديم تكمن فى مجال الحضارة

---

(١) Margoliouth, Relations Between Arabs and Israelites Prior to The Rise of Islam, 24.

(٢) A.H. Sayce, Early Israel, 128.

والدين ، ويكفى أن نذكر كلمتى : البخور وعبادة النجوم ، لندرك أثر العرب فى الأمم المجاورة لهم ولا سيما العبرانيين واليونان »[١] .

أما نحن فحسبنا هذه الاستشهادات ، ولن نعرض بالقول المفصل لهذه الدول ، فما زال الحديث عنها مبتوراً يحتاج إلى استكمال التنقيب والكشف فى مجاهل الصحراء وبطون الرمال . ولكننا نحب أن نشير إلى أن المستشرق أوليرى قد فصل القول ، فى فصول كتابه « بلاد العرب قبل محمد » ، عن علاقة الأمة العربية بغيرها من الأمم المجاورة لها منذ أقدم الأزمنة ، وكشف عن الروابط القوية التى كانت قائمة بين العرب وبين دول ما بين النهرين والمصريين والأحباش والهنود والفرس واليونان والرومان[٢] .

٥

فإذا ما انتقلنا بعد ذلك إلى العصر الجاهلى الأخير وجدنا أن هذه الحضارات العربية جميعها قد انحطت وانقرضت منذ أزمان متفاوتة . ويذهب فريق من الباحثين إلى أن انحطاط هذه الدول العربية وانقراضها إنما يرجع إلى عوامل اقتصادية ؛ وهم يرون أن هذا الانحطاط قد بدأت بوادره منذ ابتداء التاريخ المسيحى ، واستمرت تقوى حتى قوضت أركان هذه الحضارات . وأهم الأسباب التى يوردها هذا الفريق لتعزيز رأيه : زوال المدن العظيمة فى سهول جزيرة الفرات بعد سقوط بابل وآشور ، وما لهذا الزوال من أثر فى الممالك العربية التى كانت منذ القدم السحيق تسيطر على الطرق التجارية . وتلا ذلك زوال الأسواق الفينيقية ؛ وأهم

---

(١) نقلا عن Farmer, History of Arabian Music, Introduction : Hommel
Ancient Hebrew Tradition, 77

(٢) وانظر أيضاً : الدكتور جواد على ، تاريخ العرب قبل الإسلام ٢ : ٢٧٧ — ٤٢٤ ؛ ٣ : ٢٧٤ — ٤٢٣ .

من ذلك كله فتح الرومان الطريق التجارى البحرى خلال البحر الأحمر فى نحو القرن الأول الميلادى . وكان من أثر هذا أن تضاءلت تجارة القوافل البرية فى الجنوب ، وكانت هذه التجارة عماد الممالك العربية الجنوبية . وزادت المشكلاتُ السياسيةُ هذه العواملَ قوةً : ففى الشمال قضى الرومان على بترا سنة ١٠٦م بقيادة تراجان ، ثم قضوا على تدمر سنة ٢٧٢ م بقيادة أورليان ، وقد كان الأنباط مستودع تجارة القوافل الشمالية . ولم تنتعش الممالك العربية بعد هذا الاضطراب السياسى والاقتصادى ، فانتشرت الهجرة وترك الناس المدن التى كانت عظيمة فزالت . ويعقب فارمر H.G. Farmer على هذا بقوله[1] : «ومع ذلك كله فإن الجزيرة العربية لم تُصَب بالعقم ، فمن هذه البلاد التى كانت مهد الساميين وُلدت الحضارة الإسلامية التى صارت بحق خير خلف لحضارة الساميين العظيمة فى القدم» .

* * *

ونحن نرى أن هذا العصر الجاهلى الأخير الذى توسط بين الحضارتين : العربية القديمة والإسلامية الناشئة ، لم يكن فجوة عميقة واسعة بحيث تقطع الأواصر بين الحضارتين . فقد كان العرب فى هذه الجاهلية الأخيرة يعرفون عن ماضيهم قبسات أوصلها إلينا المؤرخون الإسلاميون غائمة غامضة تشوبها الأساطير والخرافات .

وهذا القرآن الكريم فى خطابه لعرب الجاهلية الأخيرة حافل بالإشارات التى تدل على ما كان يرفل فيه أولئك الأقوام ودولهم فى الجاهلية الأولى من نعيم وترف ، وما كانوا يتمتعون به من قوة ومنعة . وفيه أيضاً تأنيب لعرب الجاهلية الأخيرة الذين كانوا يسيرون فى الأرض فيمرون بآثار منازل هؤلاء الأسلاف الأقدمين ، ويعلمون من أمرهم ما يعلمون ، ولكنهم مع ذلك لا يتعظون بمصيرهم ، ولا يعتبرون بما آلوا إليه . فالقرآن الكريم يصف سبأ بالحياة الزراعية المستقرة الناعمة ، ويصفهم فى الأرض آمنين ، وذلك قوله تعالى :

---

(١) H.G. Farmer, History of Arabian Music, Introduction 13

﴿لقد كان لِسبَأ في مَسْكَنِهم آيةٌ : جَنّتَان عن يَمينٍ وشِمَالٍ ، كُلُوا من رزق رَبِّكم واشكرُوا لَهُ ، بَلْدةٌ طَيِّبَةٌ ورَبٌّ غَفُور﴾ .

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهمْ وَبَيْنَ القُرَى التي بَارَكْنَا فيها قرى ظاهِرَةً وقَدَّرْنا فيها السَّيْرَ ، سِيرُوا فيها لَيَاليَ وأيَّاماً آمِنِين﴾[1] .

فإذا ما عرض للذكر عرب الجاهلية الأخيرة وصفهم بأنهم لم يبلغوا معشار ما أوتيت الدول من قبلهم :

﴿وَكَذَّبَ الَّذِين مِنْ قَبْلِهِمْ وما بَلَغوا مِعْشارَ ما آتَيْنَاهُمْ ، فَكَذَّبُوا رُسُلِي ، فَكَيْفَ كانَ نَكِير﴾[2] .

ويصف القرآن الكريم قوم عاد بفنّ العمارة وبالصناعة ، وذلك قوله تعالى :

﴿أتَبْنُون بِكل رِيعٍ آيةً تَعْبَثون ؟ وتَتَّخِذُون مَصَانِع لعَلَّكُمْ تَخْلُدُون ! وإذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جبَّارِين . فاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُون، واتَّقُوا الذى أمَدَّكُمْ بما تعْلَمُون ، أمدَّكُمْ بِأنْعَامٍ وبَنِين وَجنَّاتٍ وَعُيُون﴾[3] .

ويصف ثمود بالحياة الزراعية المستقرة الخصبة وبفن العمارة كذلك ، وذلك قوله تعالى :

﴿أتُتْرَكُون فِي مَا هَا هُنَا آمِنِين ؟ فى جنَّاتٍ وَعُيُون ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيم ، وَتَنْحِتُون مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فارِهِين ؟﴾[4] .

وأما إشارات القرآن الكريم إلى مرور عرب الجاهلية بديار أولئك الأقوام

(١) سورة سبأ ، آية ١٥ وآية ١٨
(٢) سورة سبأ ، آية ٤٥
(٣) سورة الشعراء ، آيات ١٢٨ — ١٣٤
(٤) سورة الشعراء ، آيات ١٤٦ — ١٤٩

من أسلافهم ومعرفتهم أخبارهم وأحوالهم فكثيرة ، منها :

﴿ وَعَادًا وثَمُودَ وقَدْ تَبيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أعْمَالَهمْ فَصَدَّهُمْ عنِ السَّبِيلِ وكَانُوا مُستَبْصِرِين ﴾[1] .

﴿ وَلَقَدْ أتَوْا عَلَى القَرْيَةِ التى أُمطِرَتْ مَطَرَ السَّوْء ، أفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ؟ بل كَانُوا لا يرْجُون نُشُورًا ﴾[2] .

﴿ أفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ القُرُونِ يَمْشُونَ فى مَساكِنِهِمْ ؟ إنَّ فى ذٰلك لآيات لأُولِى النُّهَى ﴾[3] .

﴿ أوَ لَمْ يَسِيرُوا فى الأرْضِ فَيَنْظُرُوا كيف كان عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم ؟ كَانُوا أشَدَّ مِنْهم قُوةً ، وَأثَارُوا الأرضَ وَعَمَرُوها أكْثر مِمَّا عَمَرُوهَا وَجاءتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبيِّنَاتِ ، فَمَا كان اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، ولكنْ كانوا أنفُسَهُمْ يَظْلِمُون ﴾[4] .

﴿ أوَلَمْ يَسِيرُوا فى الأرض فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِم ؟ كانوا هُمْ أشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وآثارًا فى الأرضِ ، فأخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ومَا كَانَ لَهمْ مِن اللهِ مِنْ واقٍ ﴾ .

ولا ريب أن القرآن الكريم ليس كتاباً تاريخياً يقصد إلى ذكر الحوادث مفصَّلاً القول فى أجزائها ، ولكنه يعرض للحادثة التاريخية ليُبين عن العظة والعبرة . وإنما عرضنا هذه الآيات لنلل على أن عرب الجاهلية الأخيرة كانوا يدركون طرفاً من أخبار أسلافهم ، ويعرفون شيئاً عن هذه الحضارات التليدة التى ورثوا

(١) سورة العنكبوت : ٣٨
(٢) سورة الفرقان : ٤٠
(٣) سورة طه : ١٢٨
(٤) سورة الروم : ٩
(٥) سورة غافر : ٢١

بعض بقاياها ورواسبها ؛ وذلك هو ما أشرنا إليه بالجدول الأول لحضارة العصر الجاهلى الأخير .

وأما الجدول الثانى — وهو ما سميناه بالحضارة الطريفة المقبوسة — فيكفينا منه ما كفانا فى سابقه : إشارات عامة تكشف لنا عن خطوطه الكبرى . وتتمثل هذه الحضارة فى ذلك الاتصال الوثيق الذى كان يربط عرب الجزيرة بالحضارات القائمة فى جوارها من فارسية ورومية ومصرية إلخ . . وربما كانت أهم سبل هذا الاتصال هى :

أولاً : هاتين الإمارتين العربيتين اللتين كانتا تتاخمان الحضارتين الكُبْرَيَيْن لذلك العهد ، واللتين كانتا أشبه ما تكونان بالثغور على الحدود ، وهما : المناذرة فى الحيرة ، والغساسنة فى الشام . فقد كان اتصال هاتين الدولتين بالفرس والروم من جانب ، وبالجزيرة العربية من الجانب الآخر، اتصالاً وثيقاً . فكانتا لذلك قناتين كبيرتين انسرب منهما أثر هاتين الحضارتين إلى الجزيرة العربية .

ثانياً : هذه الطرق التجارية المنظمة التى كانت تتخلل صحراوات بلاد العرب ، وتلك المواثيق والعهود التى كانت تربط العرب الذين تمر تلك القوافل ببلادهم فيتعهدون بالمحافظة عليها لقاء جُعْل يدفع إليهم .

ثالثاً : هذه الأسواق والمواسم العربية التى كان العرب يقيمونها فى أطراف الجزيرة حيناً وفى قلبها حيناً آخر . فكان يؤمها العرب من مختلف بقاعهم وعلى تباين حظوظهم من الحضارة والمدنية . وكان يؤمها كذلك بعض التجار الفرس والهنود والمصريين والرومان ، فكان كل أولئك يلتقون فى صعيد واحد ، يأخذون ويعطون ويتبادلون ما عندهم من متاع وعروض ، ومن آراء وأفكار ، ومن مظاهر الحضارات المختلفة[١] .

---

(١) كان كثير من تجار الأمم المحيطة ببلاد العرب — سواء فى ذلك الأمم القريبة والنائية — ينتقلون إلى جزيرة العرب ، فكان بعضهم يوافى أسواق العرب ويجتمعون فيها للتجارة ، كما كانت=

رابعاً : هذه الجاليات الأجنبية الكبيرة التي كانت تفد على الجزيرة العربية فتقيم فيها وتطيل المقام ، بل تتخذ منها موطناً آخر تقضي فيه حياتها وتنشئ فيه ذريتها . فكانت هذه الجاليات مختلفة الأديان والأجناس والأهداف : فمنهم النصراني واليهودي والمجوسي والوثني ؛ ومنهم الفارسي والرومي والمصري والهندي والحبشي ؛ ومنهم من جاء الجزيرة للتجارة فافتتح فيها دوراً للهو من غناء وشراب وبغاء ، ومنهم من جاءها فانشأ فيها مستعمرات زراعية فعمر الأرض وأثارها هناك ؛ ومنهم من جاءها لغير هذا وذاك كالبعثات التبشيرية الدينية التي انبثت في أنحاء الجزيرة وجاست خلالها وانتشرت بين أهلها وأقامت البيع والصوامع والأديرة في المدن والصحراء[1] .

خامساً : هذه الجماعات والأفراد من العرب أنفسهم الذين كانوا يفدون على فارس وبلاد الروم والحبشة ومصر للتجارة حيناً ، وللتعرض لعطاء الملوك والسادة حيناً آخر ، ولطلب العلم والهداية حيناً ثالثاً . أما التجار العرب فكانوا يضربون في الأرض ضرباً بعيداً فيصلون إلى أقصى ما كان يعرف من عالمهم آنذاك[2] .

= تفعل فارس حينا كانت توافى بسوق المشقر يقطعون البحر إليها ببياعاتها (ابن حبيب ، المحبر ص: ٢٦٣ — ٢٦٥) وكان يجتمع في دبا تجار الهند والسند والصين وأهل المشرق والمغرب فيشترون بها بيوع العرب والبحر ثم يسيرون بجميع من فيها من تجار البحر والبر إلى الشحر ، شحر مهرة ، ويبيعونهم ما ينفق بها من الأدم والبز وسائر المرافق ، ويشترون بها الكندر والمر والصبر والدخن (أبو علي المرزوقي الأصفهاني ، الأزمنة والأمكنة ، ط . الهند ، الباب الأربعون) .

(١) عقد ابن حبيب النسابة (في المحبر ٣٠٦ – ٣٠٨) فصلا ذكر فيه أبناء الحبشيات في الجزيرة العربية ، غير ما نجده من أسماء الحبشيات مبثوثاً في بطون المراجع الأخرى . وفي سيرة ابن هشام (ط بولاق ١ : ٥٧) ذكر لجالية حبشية من النصارى . وفي أسد الغابة أسماء كثير من الروم والروميات (١ : ٢١٢ ، ٤ : ٢٣٢ ، ٥ : ١٩٤ ، ٤٦٢ ، ٤٨٠) وفي سيرة ابن هشام (١ : ٦٥) ذكر لرجل قبطي نجار بمكة ، وفي (١ : ٦٢) ذكر ليهودي من الشام قدم على بني قريظة وأقام عندهم ، وفي (١ : ١٤٧) ذكر لنصراني من أهل نينوى ، وفي (٣ : ٤٥) ذكر لنبطي من نبط الشام قدم بالطعام يبيعه بالمدينة .

(٢) مثل : هاشم وكان متجره إلى الشام فهلك بغزة ، وعبد شمس وكان متجره إلى الحبشة ، والمطلب وكان متجره إلى اليمن ، ونوفل وكان متجره إلى العراق . وهم أصحاب الإيلاف من قريش (راجع لذلك المحبر لابن حبيب ص ١٦٢ — ١٦٤ ، والسيرة ، بولاق ١ : ٤٧) .

وأما المتعرضون للعطاء فكانوا من الشعراء ورؤساء القبائل وأصحاب الرأى فيها ، يفدون إلى ملوك المناذرة أو الغساسنة أو بلاط كسرى أو بلاد مصر والحبشة ، فيقيمون هناك ما شاء لهم الله أن يقيموا يرون ما لم يروا فى بلادهم ، ويتزودون بالجديد الطريف من ألوان الحضارة المتباينة . وأما طالبو العلم والهداية فقد كانوا ممن استبدت بهم نزعات نفسية أو خواطر فكرية فكانوا يطلبون فيما نأى عن ديارهم ما يفيدهم علماً أو يكسبهم يقيناً واطمئناناً (١) .

٦

وبعد ، فإن حياة العرب فى الجاهلية — فيما بدا لنا — بعيدة كل البعد عما يتوهمه بعض الواهمين ، أو يقع فيه بعض المتسرعين الذين لا يتوقفون ولا يتثبتون ، فيذهبون إلى أن عرب الجاهلية لم يكونوا سوى قوم بدائيين ، يحيون حياة بدائية فى معزل عن غيرهم من أمم الأرض . ونحن لا نحب أن نغلو كما يغلون ، ونسرف على أنفسنا وعلى الحقيقة كما يسرفون ، ونذهب إلى أن عرب الجاهلية الأخيرة كانوا من الحضارة بمنزلة لا سبيل إلى تجاوزها ، ولا مزيد عليها لمستزيد ، وإنما نحب أن نشير إلى ما قررناه من أمر اتصال العرب بالحضارات المجاورة لهم أولاً ، ومن أمر حضاراتهم التليدة الموروثة ثانياً . ونزيد أن تليدهم هذا إنما كان حضارات متعاقبة موصولة ذات حلقات ، آخذ بعضها برقاب بعض ، بدأت منذ شاء الله لها أن تبدأ ، وانتهت قبيل الإسلام بزمن لا يعدو مائة ، أو خمسين ومائة ، من السنين . وكان من ذلك الحضارات المعينية والسبئية ، والعادية والثمودية ، والنبطية : التى ازدهرت فى شمال الحجاز وجنوب الشام أربعة قرون ، وزال سلطانها السياسى فى القرن الثانى بعد الميلاد ؛ ثم الحميرية التى استطالت حتى أشرفت على أوائل

(١) مثل : زيد بن عمرو بن نفيل الذى شك فى الأوثان ورحل يطلب دين إبراهيم حتى بلغ الموصل والجزيرة ثم جال فى الشام (السيرة ١ : ٧٦ والأغانى — دار الكتب ٣ : ١٢٦ – ١٢٧) ومثل الحارث بن كلدة الثقفى الذى تعلم الطب وضرب العود بفارس واليمن (طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٧٤) .

القرن السادس للميلاد . فلم يكن إذن ما ذكرناه من هذه الحضارات أمراً جمح إليه الخيال ، وأثبته الوهم ، ولم يكن شيئاً قد تطاول عليه الزمن حتى عفّى عليه ، واندرست معالمه ، وانمحى أثره ، وخلّف من بعده أحقاباً طوالاً ، وقروناً ممتدة ، أرجعت هؤلاء العرب على أعقابهم ، وأعادتهم إلى النشأة الأولى والحياة البدائية . وما ينبغي لمتثبّت أن يغفل عن الفروق الكثيرة فى المعالم الاجتماعية بين قوم لم يكن لهم فى حياة الجماعة سابقة من حضارة أو علم ، أو كانت لهم ثم عفّى عليها الزمن ، فعادت كأن لم تكن . . فأولئك هم البدائيون حقّاً ؛ وبين قوم قد كان لهم ما كان ثم تقلص ظله ، وتسرب الوهن إلى كيانه ؛ ولكنه لم يزل حيّاً فى نفوسهم وضمائرهم ، قائماً فى خيالهم وتصوّرهم ، مبثوثة معالمه فى حيث كانوا يجوسون خلال ديارهم .

ولقد تكلفنا ما تكلفنا من القول ، وحشدنا له ما حشدنا من الأمثلة والشواهد فى إيجاز شديد واقتضاب من القول ، لأننا إنما عُنينا — فى هذا البحث التمهيدى — بتبيان الخطوط الرئيسية التى نستدل بها على أن عرب العصر الجاهلى ليس بمستنكر عليهم — بما كان لهم من حظ موروث فى حضارات أصيلة سامقة ، وما كان لهم من سهم موفور فى الاتصال بالحضارات المنتشرة لعهدهم — أن يحيوا ، على تفاوت بيئاتهم ، حياة حضارية ، من ألوانها : معرفتهم بالكتابة معرفةً سنفصل القول فيها فيما سيتلو من صفحات .

وإذا كنا لا نقصد بما قدمنا أن نُثبت — ابتداءً ومن غير سند من نص أو رواية — انتشار الكتابة فى الجاهلية ، فإننا نريد أن ننبه على سقوط حُجة من يسرع ابتداءً — كذلك — إلى نفى أىّ نص أو رواية فيهما ما يدلّ على انتشار هذا اللون من الحضارة ، بحجة أن الجاهلية جاهلة ، وأن العرب كانوا قوماً بدائيين لم يعرفوا هذا الضرب من الحضارة . أما وقد أسقطنا الحجة بما قدمنا من القول فقد سقط بذلك الاحتجاجُ كله ، وأصبحنا نحن وهم على أرض سواء لا يغنى فيها إلا دليل من نص ، أو برهان من رواية ؛ وذلك ما نسأل الله تعالى أن يعيننا على الوفاء به فيما يلى من أبواب وفصول .

الباب الأوّل

الكتابة في العصر الجاهلي

الفصل الأول

انتشار الكتابة بين العرب فى العصر الجاهلى

نشأة الخط العربى وتطوره :

أصل الخط العربى مشكلة كانت مستعصية تتأرجح حولها الآراء ولا تكاد تستقرّ. وللعرب القدامى فى ذلك روايات مختلفة ، وللمستشرقين المحدثين آراء متباينة ، لا يعنينا منها جميعاً إلا هذه الإشارة العابرة إليها[1] . فسواء عندنا فى هذا البحث ،

---

(١) انظر أصل الخط العربى فى :

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان: ٤٧٦ — ٤٧٧ .

(٢) ابن أبى داود السجستانى ، كتاب المصاحف: ٤ - ٥

(٣) ابن عبد ربه ، العقد ٤ : ٢٤٠ وما بعدها .

(٤) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب: ١ ، ١٢ — ١٤

(٥) الصولى ، أدب الكتاب: ٢٨ — ٣٠

(٦) ابن فارس ، الصاحبى فى فقه اللغة ص ٧ وما بعدها .

(٧) حمزة بن الحسن الأصفهانى ، التنبيه على حدوث التصحيف (مصورة فوتوغرافية) أدب تيمور ٨٩٦، ص ٢٠ — ٣٥ .

(٨) القلقشندى ، صبح الأعشى ٣ : ١١ وما بعدها . وغيرها كثير .
أما من كتب من المحدثين فى ذلك فمنهم :

(٩) الكتانى ، التراتيب الإدارية ص ١١٤ وما بعدها — المطبعة الأهلية بالرباط سنة ١٣٤٦ .

(١٠) ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية:١٦١ — ٢٠٦ .

(١١) خليل يحيى نامى ، أصل الخط العربى وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام-مجلة كلية الآداب مايو ١٩٣٥ =

أن يكون الخط العربى توقيفاً علّمه اللهُ آدم ثم أصابه إسماعيل بعد الطوفان[١] ، — وأن يكون اختراعاً أخذته العرب عن الحيرة ، والحيرة أخذته عن الأنبار ، والأنبار أخذته عن اليمن[٢] ، أو أخذته عن العرب العاربة الذين نزلوا فى أرض عدنان[٣] ، — وأن يكون مشتقاً من الخط الآرامى كما كان يذهب بعض المستشرقين[٤] ، أو مشتقاً من الخط النبطى كما يذهب المستشرقون اليوم ، وهو أرجح الآراء عند الباحثين فى هذا الموضوع .

فأصل الخط العربى إذن مرحلة سابقة لبحثنا هذا متقدمة عليه فى الزمن ، لا نحب أن نضلّ فى تيهها ، ونبعد بذلك عن موضوع بحثنا . وإنما الذى يعنينا من كل ذلك أن نصل إلى معرفة أمرين ؛ الأول : صورة الحروف التى كان يكتب بها عرب الجاهلية الأخيرة ؛ والثانى : أقصى زمن نستطيع أن نؤرخ به وجود الكتابة العربية فى الجاهلية بهذه الحروف التى عرفنا صورها . وسبيلنا إلى معرفة هذين الأمرين أن نتتبع النقوش العربية الجاهلية التى اكتُشفت حتى الآن ، ونستقرئها فلعل فيها الخبر اليقين .

وتفصيل ذلك أن المنقبين من المستشرقين قد عثروا على نقوش عربية شمالية : ثمودية ولحيانية ونبطية كثيرة . ولا يعنينا منها هنا إلا النقوش النبطية وحدها .

= (١٢) إبراهيم جمعة ، قصة الكتابة العربية ، رقم ٥٣ من سلسلة اقرأ .
(١٣) طه باقر ، أصل الحروف الهجائية — مجلة سومر تموز ١٩٤٥ ص ٥٦ — ٦٠
(١٤) ناصر النقشبندى ، منشأ الخط العربى وتطوره لغاية عهد الخلفاء الراشدين — مجلة سومر — كانون الثانى ١٩٤٧ ص ١٢٩ — ١٤٢.
(١٥) جواد على ، تاريخ العرب قبل الإسلام ١ : ١٨٦ وما بعدها ؛ ٢ : ٤٣٦ وما بعدها .
(١٦) بلاشير ، تاريخ الأدب العربى ص : ٧٠ — ٧٦ .
(١٧) N. Abbott, The Rise of The North Arabic Script..., Chicago 1939

(١) ابن فارس ، الصاحبى : ٧ .
(٢) ابن النديم ، الفهرست : ٦ — ٧ ، والصولى ، أدب الكتاب : ٣٠ ، والقاموس (جزم)
(٣) الفهرست : ٦ .
(٤) ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية : ١٧١ .

ونستطيع – بعدما بذله العلماء المختصون فى الكشف عنها وقراءة حروفها – أن ندرسها دراسة توضح بعض الغموض الذى غشّى تاريخ الكتابة العربية فى الجاهلية . ولن نتعرض فى دراستنا للجوانب اللغوية ، ولكننا سنقصر حديثنا على الجانب الخطّىّ المتصل بصورة الحروف وأشكالها . وقد رأيت أن أقسم هذه النقوش إلى ثلاث مجموعات تتدرج تدرجاً تاريخيًّا . فالمجموعة الأولى هى نقوش القرن الثالث الميلادى ؛ والمجموعة الثانية : نقوش القرن الرابع ؛ والمجموعة الثالثة : نقوش القرن السادس .

وقد أهملت الإشارة إلى النقوش المؤرخة قبل القرن الثالث لأنى – بعد دراستى لها بالقدر الذى أستطيعه – لم أجد فيها من الكلمات الكاملة ما تتفق صورةُ حروفها فى الخطّ مع الخط العربى الإسلامى ؛ وإن كان فيها من الحروف المفردة المنفصلة ما يتفق مع حروف الخط العربى ، أو ما يصح أن يكون أصلاً تطورت عنه هذه الحروف لقرب الشبه بينهما .

١ – نقوش القرن الثالث الميلادى :

وهى خمسة ، وقد جمعتها فى ضرب واحد معاً لأنى رأيت أن الكلمات التى تشبه صورةُ حروفها فى الخط صورةَ كلمات اللغة العربية قليلةٌ جداً تتراوح فى النقش الواحد بين كلمة وثلاث كلمات . وهذه النقوش جميعها لا تتصل بموضوعنا إلا من حيث هى تمهيد لنقوش المجموعتين التاليتين ، وربما كانت أصلاً لها .

(ا) فالنقش الأول مؤرخ سنة ١٠٦ من سقوط سلع ، أى سنة ٢١٠ للميلاد . وقد اكتشف فى وادى المكتب فى شبه جزيرة طورسينا . وكلماته التى تشبه صورتها صورة كلمات اللغة العربية هى : « بن » (الكلمة الرابعة فى السطر الأول) و « بعلى » (الكلمة الخامسة فى السطر الأول كذلك) .

(ب) والنقش الثانى مؤرخ سنة ١٢٦ من سقوط سلع ، أى سنة ٢٣٠ الميلاد . وقد اكتشف فى وادى فران فى شبه جزيرة طور سينا كذلك . وكلماته

رقم (١) نقش ودى المكتب

رقم (٢) نقش وادى فران

رقم (٣) نقش طور سينا

رقم (٤) نقش مدائن صالح

رقم (٥) نقش أم الجمال

التي تعنينا هي : « سلم » أو « سلام » (الكلمة الأولى في السطر الأول) و « بن » (الكلمة الأخيرة في السطر نفسه) .

(حـ) والنقش الثالث وُجِد كذلك في طور سينا ، وتاريخه سنة ١٤٨ من سقوط سلع ، أي في سنة ٢٥٣ للميلاد . وكلماته هي « كلب » (الكلمة الثانية في السطر الأول) « وبن عمرو » (الكلمتان الأخيرتان في السطر نفسه) .

(د) نقش اكتشف في الحجر (مدائن صالح) وتاريخه سنة ١٦٢ من سقوط سلع ، أي سنة ٢٦٧ للميلاد . وكلماته هي « بن » (الكلمة الأخيرة في السطر الأول) و « عبد » (الكلمة الأولى في السطر الثالث) و « لعن » (الكلمة الأخيرة في السطر السادس ، وكررت في السطر التاسع — الكلمة الثانية) .

(هـ) والنقش الأخير من هذه المجموعة نقش اكتشف في بلدة أم الجمال — في حوران — وهو غير مؤرخ ، ولكن الكونت De Vogue وليتمان يرجحان أن تاريخه سنة ٢٧٠ للميلاد . وكلماته هي : « سلى » — وهو اسم علم (الكلمة الثانية في السطر الثاني) و « جذيمة » (الكلمة الأخيرة في السطر نفسه) و « ملك » (الكلمة الأولى في السطر الثالث) .

٢ — أما القرن الرابع الميلادى : فلم يُعثر فيه إلا على نقش واحد ، كشف في مدفن امرئ القيس بن عمرو ملك العرب في النمارة — وهي من أعمال حوران . وتاريخه سنة ٢٢٣ من سقوط سلع ، أي في سنة ٣٢٨ للميلاد .

ولهذا النقش قيمة كبيرة في بحث تاريخ الكتابة العربية ، وذلك أن كثيراً من كلماته ، بل ربما كانت جميع كلماته ، ذات صورة تشبه شبهاً كبيراً صورةَ الخط العربي الإسلامي ، وحسبنا أن نشير إلى بعضها :

السطر الأول : نفس مرالقيس بن عمرو ملك العرب (من الكلمة الثانية حتى السابعة) .

السطر الثاني : وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو (من الكلمة الأولى إلى السادسة) .

رقم (٦) نقش النمارة

رقم (٧) نقش زبد

رقم (٨) نقش حران

السطر الرابع : الشعوب . . . فلم يبلغ ملك مبلغه (الكلمة الأولى ، ثم من الخامسة إلى آخر السطر) .

السطر الخامس: عكدى (أى فى القوة) هلك سنة (الكلمات الأولى والثانية والثالثة) .

فهذا نقش عربى بيِّنُ العربية ، عربى فى أكثر لغته ، عربى فى صورة خطه . وهو فى مرحلة تاريخية تُظهر فى وضوح جلىّ تطور الخط العربى إذا ما قيس بالنقوش التى ذكرنا أنها ترجع إلى القرن الثالث الميلادى .

٣ ـ أما القرن السادس الميلادى : فقد اكتشف فيه نقشان :

أولهما : نقش وجد فى خربة زَبَد ـ بين قنسرين ونهر الفرات ـ وتاريخه سنة ٥١١ للميلاد ؛ وعليه ثلاث كتابات : اليونانية والسريانية والعربية . وخطه قريب الشبه بالخط الكوفى الإسلامى ـ وإن كانت بعض كلماته ما زالت غير مقروءة ، وهى لا تعدو كلمة واحدة فى السطر الأول وكلمة أو كلمتين فى آخر السطر الثانى ؛ أما سائر كلماته فهى عربية الخط على اختلاف العلماء فى قراءتها . وهى :

السطر الأول : . . . الإله شرحو بر . . منفو و . . بر امرئ القيس

السطر الثانى : وشرحو بر سعدو وسترو وشريحو . . .

وثانيهما : نقش مؤرخ فى سنة ٤٦٣ من سقوط سلع أى سنة ٥٦٨ للميلاد . عليه كتابتان باليونانية والعربية . وقد وجد منقوشاً على حجر فوق باب كنيسة بحرّان اللجا فى المنطقة الشمالية من جبل الدروز ، وهذا النقش كما يلى :

السطر الأول : أنا شرحيل بن ظلمو بنيت هذا المرطول

السطر الثانى : سنة (٤٦٣) بعد مفسد

رقم (٩) نقش القاهرة

رقم (١٠) رسالة رسول الله إلى المنذر بن ساوى

السطر الثالث : خيبر

السطر الرابع : بعام[١]

• • •

ولكن لا بد لنا من أن نعترف، اعترافاً واضحاً لا لبس فيه ، أن كل دراسة لموضوع الكتابة فى العصر الجاهلى ستبقى دراسةً مبتورة ناقصة ما دامت رمال الجزيرة العربية تضن بهذه الكنوز ، التى ترقد فى بطونها ، عن أن تجلوها لأبصار الدارسين ، حتى يسائلوها أخبار هؤلاء الأسلاف الذين شاء لهم جحود التاريخ أن يوصموا بالجهل والبداائية[٢] . ولا بد لنا من أن نقرّر كذلك أن فى هذه النصوص التى بين أيدينا — على جليل قدرها وعظيم نفعها للدارس — ثلاثَ نقائص :

الأولى : قلة عددها قلةً تلجئ الدارس إلى أن يحتاط فى حكمه ويلقى القول إلقاء مقيداً بعيداً عن التعميم .

والثانية : تباعُدُ فتراتها ، وانفصال أوائلها عن أواخرها ، لوجود فجوات زمنية عريضة . فقد أغفلنا ذكر قرن كامل بسنيه المائة ، هو القرن الخامس الميلادى ، لأننا لم نجد نقشاً عربيّاً يرجع تاريخه إلى هذا القرن . وكذلك لم نعثر فى القرن الرابع إلا على نقش واحد يرجع إلى ثلثه الأول ، وأما ثلثاه الأخيران فخاليان أصمّان . ولم يعثر فى القرن السادس إلا على نقشين : أولهما فى سنواته الأولى (سنة ٥١١ م) ، والآخر بعد منتصفه (سنة ٥٦٨ م) ، وما بينهما نصف قرن صامت مُصمَت . ومن هنا كان لا بد للدارس الذى يريد تتبع البحث من أن يملأ هذه الفجوات بالاستنتاج والاستنباط .

---

(١) يقول ليتمان : إن مقصد خيبر إنما يشير إلى غزوة أحد أمراء بنى غسان لخيبر ، ويستدل بقول ابن قتيبة (المعارف — طبعة وستنفيلد : ٣١٣) : ثم ملك بعده الحارث بن أبى شمر . . . وكان غزا خيبر ، فسبى من أهلها ثم أعتقهم بعد ما قدم الشام (ولفنسون : تاريخ اللغات السامية : ١٩٢)

(٢) انظر : جواد على ، تاريخ العرب قبل الإسلام ١ : ١٩٥ — ١٩٦ ، ٢٠١ .

وأما النقيصة الثالثة — وهي أخطرها في نظرنا — فهي أن هذه النقوش كلها قد اكتشفت في المنطقة الشمالية من بلاد العرب التي تمتد من العُلا ومدائن صالح إلى شمال بلاد حوران، وأما مُوَسَّط بلاد العرب وصميمها : الحجاز ونجد، فلم يُعثر — حتى الآن — على شيء من النقوش الجاهلية فيها . فإذا كانت هذه النقوش بكلماتها الفصيحة وخطها العربي قد اكتشفت في منطقة كانت مسرحاً لآثار ورواسب من الثمودية والآرامية والنبطية لغةً وخطًّا، فكيف تكون هذه النقوش التي قد تكتشف في الحجاز ونجد ؟ وإذا كانت اللغة الفصيحة والقلم العربي قد نُقِشا في تلك المنطقة منذ أوائل القرن الرابع الميلادي — بل ربما قبله — فإلى أيِّ عهد ترجع بنا نقوش الحجاز ونجد ؟

ومن تمام هذا البحث أن نشير إلى الكتابات العربية التي يرجع تاريخها إلى صدر الإسلام — عصر الرسول الكريم وخلفائه الراشدين — وذلك ليستبين لنا مدى الشبه — بل المطابقة — بينها وبين هذه النقوش الجاهلية ، وخاصة في طورها الأخير : نقش حرَّان . وهذه الكتابات الإسلامية على ضربين : نقوش وكتابة .

١ — النقوش :

(ا) نقش القاهرة ، وهو مؤرخ في سنة ٣١ للهجرة — أي في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه — وهو محفوظ في دار الآثار العربية (انظر صورة رقم ٩) .

(ب) وقد كان يُظَنّ أن نقش القاهرة أقدم نقش إسلامي عُثِر عليه، ولكن الدكتور محمد حميد الله عثر على عدة نقوش على قمة الطرف الجنوبي لجبل سلع في المدينة المنورة خارج سورها الشمالي. ويرجح الدكتور حميد الله أن هذه النقوش ترجع في تاريخها إلى غزوة الخندق في السنة الخامسة للهجرة[١] .

---

(١) M. Hamidullah, Some Arabic Inscriptions of Medinah of The Early Years of Hijrah, Islamic Culture, Vol. 13 No. 4, October 1939, p. 427 Seq.

٢ ــ الكتابات : وهى ثلاث رسائل أرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر ، وإلى المنذر بن ساوى ، وإلى النجاشى فى الحبشة . وقد عُثِر على ما يُظَنّ أنه الأصول الحقيقية لهذه الرسائل . وقد كتب الدكتور حميد الله بحثاً قيماً فى مجلة "Islamic Culture" عرض فيه صورتين لرسالتى المنذر والمقوقس (انظر رسالة المنذر صورة رقم ١٠) وتحدث مفصّلاً القول فى اعتراضات بعض المستشرقين على صحة هذه الرسائل وأصالتها ، وفندها جميعها ، وانتهى إلى أن هذه الاعتراضات لا تثبت أمام البحث العلمى الدقيق . ومع ذلك فهو ، فى بحثه السليم ، يتوقف توقف العالم المتثبت ، فلا يقطع بصحة هذه الأصول ، بل يكتفى برد تلك الشبهات التى حامت حول صحتها ، ثم يدعها قائمة تنتظر نفياً أو إثباتاً جديدين .

ومهما يكن من أمر ، فنحن ــ فى بحثنا هذا ــ فى موقف بعيد عن هذه المزالق ، وذلك أننا نكتفى بهذه النقوش الإسلامية التى اكتشفت على الحجر والصخر والتى ترجع إلى صدر الإسلام ، وهى أصول ثابتة يقينية ــ مهما يكن تاريخ نقوش جبل سلع ــ نعتمد عليها فى أمر واحد لا نعدوه ، هو تبيان هذا التشابه بين كتابة صدر الإسلام وكتابة العصر الجاهلى الأخير ، وإظهار أنه ليس بينها من فروق إلا ما يقتضيه عامل الزمن من تطور .

• • •

فقد كان العرب إذن يكتبون فى جاهليتهم ثلاثة قرون على أقل تقدير بهذا الخط الذى عرفه بعد ذلك المسلمون . وقد أصبحت معرفة الجاهلية بالكتابة ، معرفة قديمة ، أمراً يقينيّاً ، يقرّره البحث العلمى القائم على الدليل المادىّ المحسوس ؛ وكل حديث غير هذا لا يستند إلا إلى الحدس والافتراض . ولا ريب فى أن ما سيُعثر عليه فى مُقبل الأيام من نقوش فى قلب الجزيرة سيدعم رأى الذين يذهبون إلى أن عرب الجاهلية كانوا يعرفون الكتابة منذ قرون قبل الإسلام ، وسيلقى كثيراً من النور على ما لا يزال خافياً من أجزاء الموضوع .

• • •

النقط والشكل والإعجام :

وهذه النقوش تقودنا إلى الحديث فى نقطة أخرى لها خطرها الكبير فى تاريخ الكتابة العربية فى الجاهلية . ونحن نعرض فى هذا الموضوع ما وصلنا إليه فى بحثنا ، وسنكتفى بالعرض المجرّد وحده ، لا نثبت ولا ننفى ، فحسبنا أن نثير هذا الموضوع ونجعله ميداناً للبحث لعل مُقبل الأيام يتكفل بجلائه ويُمدنا بما نستطيع أن نلقى به القول الفصل مطمئنين واثقين .

تلك هى مسألة النقط والإعجام . فهذه النقوش التى عرضناها جميعاً خالية من النقط خلواً كاملاً ، فليس فيها حرف واحد منقوط ، وكذلك كانت الكتابة النبطية — التى يرجح أن الخط العربى مشتق منها ومتطور عنها — لا تعرف النقط والإعجام [1] . وقد كان من الجائز أن نقف عند هذا الحد الذى أوقفتنا عنده هذه النقوش ، وأن نردّد مع جميع الباحثين قبلنا رأيهم فى أن الكتابة العربية ، فى أول نشأتها ، كانت غير منقوطة ، بل إنها استمرت خالية من النقط حتى زمن عبد الملك بن مروان [2] . ولكن وجهاً آخر استبان لنا فى أثناء الدراسة فوجدنا حقاً علينا أن نعرضه . وخلاصة ذلك أننا عثرنا فى خلال بحثنا على قول أورده القاضى أبو بكر بن العربىّ فى كتابه « العواصم من القواصم » ، قال [3] : « وكان نقل المصحف إلى نسخه على النحو الذى كانوا يكتبونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم كتابةَ عثمان وزيد وأُبىّ وسواهم من غير نقط ولا ضبط . واعتمدوا هذا النقل ليبقى بعدَ جمع الناس على ما فى المصحف نوع من الرفق فى القراءة باختلاف الضبط » .

---

(١) خليل يحيى نامى ، أصل الخط العربى وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام ، ص : ٨٧ .

(٢) انظر كتاب التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة الأصفهانى (ورقة ٣٧ — ٤٠) حيث يذكر أن الحجاج أمر كتابه أن يضعوا للحروف المشتبهة — مثل الباء والتاء والثاء والنون — علامات تميزها .

(٣) ج ٢ ص ١٩٦ — ١٩٧ (ط . الجزائر) .

وقد استوقفنا كلام ابن العربي على غموضه وحاجته إلى فضل بيان يوضحه، فلما قرأنا ما سنعرضه من كلام ابن الجزري كان خير موضح، قال[١] « . . . ثم إن الصحابة رضي الله عنهم لما كتبوا تلك المصاحف جرّدوها من النقط والشكل ليحتمله ما لم يكن في العرضة الأخيرة مما صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم. وإنما أخلَوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلُوّين شبيهةً بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين. فإن الصحابة رضوان الله عليهم تلقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمر الله تعالى بتبليغه إليهم من القرآن: لفظه ومعناه جميعاً، ولم يكونوا ليسقطوا شيئاً من القرآن الثابت عنه صلى الله عليه وسلم ولا يمنعوا من القراءة به ».

وقول ثالث رُوِيَ عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال[٢] « جرِّدوا القرآن ليربوَ فيه صغيركم ولا ينأى عنه كبيركم . . . » وقد ذكر الزمخشري شارحاً قول ابن مسعود أنه « أراد تجريده من النقط والفواتح والعشور لئلا ينشأ نشءٌ فيرى أنها من القرآن ».

وهذه الأقوال الثلاثة يُفهَم منها أن النقط أمر قد كان معروفاً قبل كتابة مصحف عثمان، ثم عُدل عنه عدلاً مقصوداً، وجُرِّد القرآن منه تجريداً متعمداً. والقول في « تجريد » القرآن طويل، ونحن نعلم أن من ضمن ما يقصد من « التجريد » أن يُكتب القرآن وحده في الصفحة لا يختلط به شيء من التفسير أو الحديث أو القصص أو أية كتابة أخرى، لئلا يختلط على القارئ فيتوهم أن جميع المكتوب هو من القرآن الكريم. ولكن كلام الزمخشري وابن العربي وابن الجزري واضح وضوحاً لا لبس فيه، وهو ينص على أن « تجريد القرآن » يتضمن تجريده من النقط أيضاً.

وقد يكون المقصود من النقط هنا « النقط بالنحو » أي نقط أبي الأسود

---

(١) النشر في القراءات العشر (ط . دمشق) ص ٣٢ – ٣٣ .

(٢) الزمخشري، الفائق ١ : ١٨٦

الدؤلى ، وهو بيان حركات أواخر الكلام بوضع نقطة فوق الحرف للدلالة على الفتحة ، ونقطة تحت الحرف للدلالة على الكسرة ، ونقطة بين يدى الحرف للدلالة على الضمة ، بحبر يخالف لونُه لونَ حبر الكتابة نفسها [١] .

ومع تقريرنا لهذا المعنى فإننا نرى فى قول ابن الجزرى : « وإنما أخلوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوَّيْن شبيهةً بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين » — تفريقاً بين النقط والشكل ، وذكراً لكل منهما وحده ؛ ونرى كذلك أن تجريد الكلمات من النقط لاحتمال الكلمة القراءات المختلفة يقتضى أن يكون من معانى النقط المعنى الذى نفهمه منه اليوم . وللقراءات التى تحتملها الكلمة الواحدة الخالية من النقط أمثلة كثيرة[٢] ، لعل أوضحها وأشهرها ما ورد فى سورة النساء آية ٩٤ :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا ضَرَبْتُم فى سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إليكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾.

وفى قراءة : « فتثبتوا » ورسم هذه الكلمة « فسوا » محتمل للقراءتين .

كانت إذن هذه الأقوال الثلاثة : قول الزمخشرى وابن العربى وابن الجزرى ، أول ما وَقَفَنا عند أمر النقط ، فضينا فى أثناء بحثنا نجمع من الروايات والنصوص والأدلة ما قد يدعم هذا الوجه ؛ فكان من ذلك :

---

(١) انظر لبيان المقصود بنقط المصحف : السجستانى ، كتاب المصاحف : ١٤٣ ؛ وانظر لبيان نقط أبى الأسود : ابن النديم — الفهرست ص ٦٠ ، والسيرافى : ١٥ — ١٨ .

(٢) انظر بعض هذه الأمثلة فى كتاب جولد تسيهر : المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ، ترجمة على حسن عبد القادر ، ص : ٤ — ٦ .

١ ــ ما رواه الفرّاء قال(١) : « حدثنى سفيان بن عُيَيْنة ، رفعه إلى زيد ابنِ ثابت ، قال : كتب فى حجر : يسرها ، ولم يسن ، وأنظر إلى زيد بن ثابت فنقط على الشين والزاى أربعاً ، وكتب " يتسنه " بالهاء » .

٢ ــ وروى عن ابن عباس قال(٢) : « أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان ، وهى قبيلة سكنوا الأنبار ، وأنهم اجتمعوا فوضعوا حروفاً متقطعة وموصولة ، وهم : مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة ــ ويقال مروة وجدلة ــ فأما مرامر فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام » .

وقد ذكرنا فى صدر هذا البحث أن صحة هذه الرواية وأمثالها عن أصل الخط العربى لا تعنينا فى شىء ، ونحن هنا لا نسوقها إلا لأمر واحد لا نعدوه ، وذلك أن فى هذا القول لابن عباس ــ إن كان قاله ــ دليلاً واضحاً على أن ابن عباس كان يعرف الإعجام، وأنّ مَن قبله كانوا يعرفونه ؛ وأما إن لم يكن قاله فما زال يحمل من الدلالة ما لا يصح معها أن نغفله ، وذلك أن واضع هذا القول وناسبه إلى ابن عباس كان لا بد يعرف أن ابن عباس كان يعرف الإعجام ــ وإلا لما قَبل الناس قوله .

٣ ــ وقد ذكر السجستانى أن « الحجاج بن يوسف غيَّر فى مصحف عثمان أحد عشر حرفاً، قال : ... وكانت فى يونس (آية ٢٢) "هو الذى ينشركم" فغيَّره " يسيِّركم » " .

وقد نقبل أن يكون الحجاج هو الذى نقط هذه الكلمة وكانت من قبلُ غيرَ منقوطة كما يزعمون ، ولكنْ أن يكون غيَّر نقطها فذلك هو ما نقف عنده ،

(١) معانى القرآن ١ : ١٧٢ ــ ١٧٣ .
(٢) مصاحف السجستانى : ٤٩ ، ١١٧ .

ونفهم منه أنها كانت منقوطة قبله ، ثم غير هذا النقط ، وإلا فالكلمة من غير نقط تحتمل الوجهين ولا سبيل إلى ذكر أن الحجاج قد غيّر نقطها .

٤ ــ ولقد كانت الكتابة الحميرية والصفوية والثمودية واللحيانية ، والكتابة النبطية التي يرجّح أن الكتابة العربية مشتقة منها ــ كانت كل هذه الكتابات غير منقوطة[١] ، ولكن المدقق فيها يجد أن الكثرة الغالبة من حروفها يختلف بعضها عن بعض اختلافاً يمنع اللبس والاختلاط ، ومن هنا لم تكن في حاجة إلى نقط . وأما الخط العربي فكثير من حروفه متشابهة في الكتابة تشابهاً كاملاً ، مختلفة في الصوت اختلافاً تامّاً ، ولا سبيل إلى التفرقة بينها إلا بالنقط ، بل إن هذا التشابه العجيب بين الحروف ليكاد يجعلنا نظن أن الحرف منذ أن وُجِد وُجِد معه نقطُه ، وأن النقط ضرورة من ضرورات هذه الحروف منذ نشأتها[٢] ، إلا إذا كان يفرق بينها بوسيلة أخرى من وسائل الخط توضحها وتمنع اختلاطها مع غيرها . وإلا لكانت الكتابة ، وخاصةً الطويلة منها ، عسيرة القراءة لا سبيل إلى فهمها . ولا عبرة في تجريد القرآن الكريم فإن الأصل فيه أن يكون محفوظاً في الصدر ، وأن يرجع الحافظ إلى الكتاب للتذكر ، أو أن يتلقاه المتعلم من معلم يحفّظه إياه ثم يعود إلى الكتاب للاستذكار .

٥ ــ ومن أوضح الأحاديث وأصرحها عن النقط ما أورده ابن السِّيد البطليوسي وهو يتحدث عن الكتاب ، قال[٣] : « . . . فإذا نقطته قلت : وشمته وشماً ،

---

(١) انظر جرائد حروف هذه اللغات في ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية ص ١٧٩ وص ٢٠٠ .

(٢) وفي ذلك يقول القلقشندي (صبح الأعشى ٣ : ١٥٥) « والظاهر ما تقدم ــ يعني : أن الإعجام موضوع مع وضع الحروف ــ إذ يبعد أن الحروف قبل ذلك مع تشابه صورها كانت عرية عن النقط إلى حين نقط المصحف » ، وانظر كذلك كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم للمولى أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زادة ج ١ ص ٨٠ .

(٣) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب : ٩٣ .

ونقطته نقطاً، وأعجمته إعجاماً ، ورقَّشته ترقيماً». وكان من اليسير علينا أن نمر بهذا القول مرًّا هيناً ثم نتجاوزه من غير أن نقف عنده ، معتقدين أنه ينصرف إلى أزمنة تالية للقرن الأول الهجرى– لولاأن ابن السِّيْد نفسه يستشهد – بعد قوله المتقدم – بأشعار جاهلية فقد أورد – دليلاً على هذه الألفاظ الدالة على النقط – أبياتاً لأبى ذؤيب والمرقِّش وطَرَفة . قال أبو ذؤيب :

برقْمٍ وَوَشْمٍ كَمَا نَمْنَمتْ   بِمِيشَمِهَا المُزْدهَاةُ الهَدِىُّ

وقال المرقِّش :

الدَّار قَفْرٌ والرُّسُومُ كَمَا   رَقَّشَ فى ظَهْرِ الأَدِيمِ قَلَمْ

وقال طرفة :

كَسُطورِ الرَّقِّ رقَّشَهُ   بالضُّحَى مُرَقِّشٌ يَشِمُه

وقد كدنا ننسب قول ابن السيد إلى التعجل والتسرع وإغفال الدقة فى تحديد أزمان الألفاظ – فقد كان يبدو لنا أن الوشم والرقم والترقيش ، فى هذه الأبيات ، لا تعنى أكثر من تجويد الخط وتحسينه – لولا أن الأعلم الشَّنْتَمَرِىّ يذكر ما ذكره ابن السيد . قال الأعلم فى شرح بيت طرفة المتقدم[1] «وقوله : كسطور الرق : شبه رسوم الرَّبع بسطور الكتاب ، ومعنى رقشه : زينه وحسنه بالنقط» – ولولا أن أبا علىّ القالىّ قد ذهب إلى ذلك أيضاً، قال[2] : «رقشت الكتاب رقشاً ورقَّشته : إذا كتبته ونقطته» . ثم استشهد ببيت طرفة .

٦ – وربما كان أخطر ما يوجه إلى من يدعى نقط الكتابة فى الجاهلية هو هذه النقوش الجاهلية الخالية من النقط . وهو دليل لا سبيل إلى إنكاره ، وإن كان لا بأس فى التحدث عنه حديثاً قد يكون فيه بعض حجة ؛ وذلك أن

---

(١) ديوان طرفة (ط . شالون سنة ١٩٠٠) ص : ٦٩ .
(٢) الأمالى ٢ : ٢٤٦ .

جميع ما عثرنا عليه من الكتابة الجاهلية كان نقوشاً على الحجر والصخر ، وكان سطوراً قلائل بل كلمات معدودات ؛ ولم نعثر على كتابة جاهلية على الرق أو البردى مثلاً كثيرة السطور والكلمات . فربما كان عدم النقط ناجماً عن اطمئنان الكاتب إلى أن كلماته هذه المنقوشة فى نجاة من التصحيف والخلط فى القراءة ، لأنها أسماء أعلام ، وسنوات ، وكلماتٌ بينهما من اليسير معرفتها ؛ وربما كان مما يسوغ له إهمال النقط فوق ذلك صعوبةٌ فنية ومشقة عملية فى النقش .

٧ — ولعل خير ما يدعم هذه النقطة السابقة من حديثنا : تلك الوثيقة البردية التى يرجع تاريخها إلى سنة ٢٢ هجرية على عهد عمر بن الخطاب وهى مكتوبة باللغتين العربية واليونانية [١]. والذى يعنينا من هذه البردية أن بعض حروفها منقوط مُعجم وهى حروف : الخاء والذال والزاى والشين والنون . وكذلك الشأن فى نقش وُجد بقرب الطائف ومؤرخ فى سنة ٥٨ هجرية على عهد معاوية ابن أبى سفيان ، فإن أكثر حروفه التى تحتاج إلى نقط منقوطة مُعجمة[٢] .

فنحن نرى إذن أن تاريخ الوثيقة البردية وهو سنة ٢٢ هجرية سابق بسنوات كثيرة على ما ذكره الكُتّاب العرب فى نشأة النقط والإعجام ، وكذلك هذا النقش المؤرخ فى سنة ٥٨ هجرية . وثمة أمر آخر يجدر بنا أن ننبه عليه وهو أن أكثر الوثائق البردية — التى عُثر عليها مؤرخةً فى القرن الأول الهجرى — غيرُ منقوطة ولا معجمة ، وذلك يعنى أن إهمال النقط فيما عثرنا عليه من نقوش جاهلية لا يعنى ضرورةً أن النقط لم يكن معروفاً مستعملاً ، لأن إهمال النقط فى النقوش وأوراق البردى الإسلامية لم يمنع وجودَ وثائقَ ونقوش منقوطة . وجدير بالذكر أن إهمال

(١) صورة هذه البردية فى كتاب الدكتور جروهمان From The World Of Islamic Papyri, Pl. 11 (a) ووصفها ونصها مع ترجمتها فى ص ١١٣ — ١١٤ ؛ ثم انظر ص ٨٢ من الكتاب نفسه .

(٢) انظر مقالة : ج . س . مايلز من : النقوش الإسلامية المبكرة بقرب الطائف فى الحجاز G.C. Miles. Early Islamic Inscriptions Near Taif in The Hijaz. JNES. 7 (1948). وصورة النقش هناك رقم 18 .

النقط أمر كان شائعاً فى العهود الإسلامية قروناً متوالية ، بل لقد عد بعضهم الإعجام والنقط مما لا يليق فى الكتب والرسائل لأنه يدل على أن الكاتب يتوهم فيمن يكتب إليه الجهل وسوء الفهم[1] .

* * *

وحسبنا ما قدمنا عن النقط ، ونحن أول من يعرف أن هذا كله لا يقوم وحده دليلاً قاطعاً على وجود النقط قبل الإسلام ، ولكننا أحببنا أن نثبته للأسباب التى قدّمناها ، فلعل غيرنا قادر من بعدنا على الوصول إلى مفصل من الأمر يُتم به ما بدأنا .

* * *

تعلم الكتابة فى الجاهلية وشيوعها :

١

لم يُعنَ القدماء من المسلمين — فيما وصل إلينا من كتبهم — بدراسة مناحى الحياة الجاهلية دراسةً مفصلة ، تتناول أجزاءها ودقائقها فى كتب أو رسائل مفردة ، يختصّ كل كتاب بمنحى من مناحى تلك الحياة المتشعبة . ولا يَعْنى ذلك أن هؤلاء القدامى قد أغفلوا الجاهلية إغفالاً ، بل لا يكاد كتاب عربى قديم يخلو من ذكر الجاهلية وحياة أهلها — ولكن الحديث عن هذه الجاهلية لم يكن يُقصد لذاته ، فتُسْبَر أغوارُه ويُلَمّ شتاته ، وإنما كان يُقصَد لغيره من موضوعات العصور الإسلامية التى كانوا يكتبون فيها ، فيستطردون للحديث عن الجاهلية : متمثلين مستشهدين ، أو مقابلين موازنين ، أو واعظين منذرين ،

---

(١) قال أبو بكر الصولى فى كتابه أدب الكتاب ص ٥٧ — ٥٨ : « كره الكتاب الشكل والإعجام إلا فى المواضع الملتبسة من كتب العظماء إلى من دونهم ، فإذا كانت الكتب ممن دونهم إليهم ترك ذلك فى الملتبس وغيره ، إجلالا لهم عن أن يتوهم عنهم الشك وسوء الفهم ، وتنزيهاً لعلومهم وعلو معرفتهم عن تقييد الحروف » .

أو ممهّدين بين يدى حديثهم الأصيل تمهيداً موجزاً يدخلون منه إلى الحديث عما يقصدون . فيكاد يكون حديثهم عن الجاهلية حديثاً عابراً منثوراً نثراً متباعداً فى تضاعيف كتبهم وثنايا رسائلهم . ومن هنا كان لا بد للدارس المدقق ، الذى يبحث فى العصر الجاهلى ، من أن يقرأ الكتاب العربى القديم قراءة متمعنة دقيقة ، يجرُدُه فيها جرداً كاملاً من عنوانه حتى ختامه ، لا يغنيه عن ذلك تبويب الكتاب، ولا هذه الفهارس الدقيقة الشاملة التى يضعها المحدثون للطبعات الحديثة من تلك الكتب القديمة .

وكان من أثر هذا الذى قدمنا أن أخبار حضارة الجاهلية جاءت فى هذه الكتب ناقصة شائهة ، ثم متناقضة متنافرة فى الكتاب الواحد للمؤلف الواحد . ولكن الصفة الغالبة والسمة الظاهرة التى لايكاد يشذُّ عنها كتاب قديم ، هى وصف تلك الجاهلية بأنها كانت قليلة الحظ من كل عمران ورقىّ ، بعيدةً عن كل مظهر من مظاهر الحضارة والمدنية ، وأن العرب كانوا أمة أمّيّة جاهلة لا حظ لها من علم أو معرفة أو كتابة .

ولتجهيل الجاهلية فى الكتب العربية أمثلةٌ عديدة أكثر من أن تُستقصى ، وحسبنا منها بعضها الذى يشير إلى أميتهم وجهلهم بالكتابة :

قال الجاحظ [١]: «وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال . . ثم لا يقيده (العربى)على نفسه ولا يدرّسه أحداً من ولده. وكانوا أميين لا يكتبون». مع أن الجاحظ نفسه ، الذى ينكر على العرب معرفتهم بالكتابة، ويتهمهم بوصف الأمية ، لا ينكر على أى جنس من الأجناس وأمة من الأمم ذلك ، فيقول [٢]: «وليس فى الأرض أمة بها طِرق أو لها مُسكة ، ولا جيل لهم قبض وبسط ، إلا ولهم خط . . . »

وابن سعد فى طبقاته يسمّى عدداً كبيراً من الرجال كانوا يكتبون فى الجاهلية ،

(١) البيان والتبيين ٣ : ٢٨ .

(٢) الحيوان ١ : ٧١ .

ولكنه لا يكاد يذكر ذلك حتى يعقب عليه بقوله : «وكانت الكتابة فى العرب قليلة» . وهو يقول ذلك فى كل مرة يذكر فيها كاتباً فى الجاهلية ، لا يكاد يُخِلُّ بذلك مرة واحدة ، ذلك مع أننا جمعنا من كتابه وحده عدداً وافراً من الأخبار عن الكتابة فى الجاهلية وأسماء الذين كانوا يكتبون .

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما يردده بعضهم من أنه لم يكن أحد يكتب بالعربية حين جاء الإسلام إلا بضعة عشر نفراً [١].

وهذا عبد القادر البغدادى صاحب الخزانة يورد بيت الحُطَيئة [٢] :

سيرى أُمامَ فإن الأكثرين حصاً ... والأكرمين ، إذا ما يُنسبون ، أبا

ثم يقول : «معنى الحصا : العدد ، وإنما أطلق على العدد لأن العرب أميون لا يقرءون ولا يعرفون الحساب ، إنما كانوا يعدون بالحصا ، فأطلق الحصا على العدد !!» أفبعد هذا تجهيل ؟ أو بعد هذا أمية وبداية ؟[٣] .

وكان من أثر هذه المحاولة التى ترمى إلى تجهيل الجاهلية أن امتد أثرها إلى تجهيل الصحابة أنفسهم — رضى الله تعالى عنهم — بالكتابة ، ونعتهم بالأمية . وما ذلك إلا مبالغة فى وصم الجاهلية نفسها بهذا الجهل ، لأن هؤلاء الصحابة ، أو كثرتهم الكاثرة ، إنما نشأوا وتم تكوُّنهم الثقافى الفكرى فى الجاهلية . فقد قال عالم جليل هو ابن قتيبة حين تعرض فى حديثه لسماح الرسول الكريم لعبد الله ابن عمرو بتقييد الحديث ، قال ابن قتيبة [٤]: «لأنه (أى عَبد الله بن عمرو) كان قارئاً للكتب المتقدمة ، ويكتب بالسريانية والعربية ، وكان غيره من الصحابة

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد ٤ : ٢٤٢ .

(٢) الخزانة — سلفية ٣ : ٢٦٠ — ٢٦١ ، والبيت فى ديوان الحطيئة : ٦ .

(٣) ومع ذلك فإن فى هذا الكلام وجه حق لو أنه حدد ووضح ونص على أن كلمة «أحصى» من أقدم الكلمات تاريخاً فى اللغة العربية لأنها شاهدة على أنها كانت تعيش فى الزمن الأول البدائى الذى كان العرب فيه لا يعرفون الحساب وإنما يعدون بالحصى .

(٤) مختلف الحديث (ط . مصر) ١٣٢٦ ص : ٣٦٥ — ٣٦٦

أميين ، لا يكتب منهم إلا الواحد والاثنان ، وإذا كتب لم يتقن ولم يُصب التهجّى » .

ولا ريب أن هذا القول من ابن قتيبة افتئات على الحقيقة التاريخية ، وتعميم لا سند له من الحق . ولو قال ابن قتيبة إن بعض الصحابة كان أميًّا لكان قوله سليماً لا ريب فيه ،أو لو قال إن أكثر الصحابة كان أميًّا لقبلنا هذا القول على أنه حق أو على أنه تجوُّزٌ وتعميم لا يبعدان عن الحق كثيراً . أما أن يقول إن الصحابة كانوا « أميين لا يكتب منهم إلا الواحد أو الاثنان » ثم لا يلبث أن يستنكر عليهم أن يكون منهم كاتب واحد أو كاتبان فيستدرك بقوله « وإذا كتب لم يتقن ولم يصب التهجى » فذلك هو الإسراف الذى ننكره . وكيف لا ننكره وكتب الطبقات والرجال تعُدُّ من الصحابة عشرات بعد عشرات كلهم كاتب ضابط لما يكتب ؟ وقد نسى ابن قتيبة فى سَوْرة رغبته فى تجهيل الجاهلية أن هؤلاء الصحابة الكاتبين إنما تعلم أكثرهم الكتابة فى الإسلام — لا فى الجاهلية ، وأن حَضَّ الرسول الكريم المسلمين والصحابة على التعلم ،وأمْرَه إياهم بتعلم الكتابة خاصةً ، وعناية المسلمين والصحابة بذلك — كلها أمور فى غنى عن الإفاضة فى الشرح والاستشهاد .

* * *

ولا بد لنا من أن نستدرك قبل أن نمضى ، وننبه على أن القرآن الكريم قد وصف العرب فى جاهليتهم بأنهم أميون ، وورد ذلك فى ثلاث آيات ، قال تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ والأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُم ﴾ (آل عمران : ٢٠) ، وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قالوا : لَيْسَ علينا فى الأُمِّيِّينَ سَبِيل ﴾ (آل عمران : ٧٥) ؛ وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنهُمْ ﴾ (الجمعة ٠ ٢) .

غير أن هذا الوصف بالأمية لا يعنى – فى رأينا – الأمية الكتابية ولا العلمية ، وإنما يعنى الأمية الدينية ، أى أنهم لم يكن لهم قبل القرآن الكريم كتاب دينى ، ومن هنا كانوا أميين دينيًّا ، ولم يكونوا مثل « أهل الكتاب » من اليهود والنصارى ، الذين كان لهم التوراة والإنجيل .

ومن الأدلة التى نسوقها للاحتجاج لهذا الرأى أن القرآن الكريم قد وصف فريقاً من أهل الكتاب بالأميين ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ومِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إلاَّ أَمَانِىَّ وإنْ هُمْ إلا يَظُنُّون . فوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بأَيْدِيهِمْ ثم يَقُولُونَ هذا من عِنْدِ اللهِ لِيشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، فويلٌ لَهمْ مِمَّا كَتَبَتْ أيْدِيهِم وَوَيْلٌ لهُمْ مِمَّا يَكْسِبُون﴾ (البقرة : ٧٨ ، ٧٩) . فأمية هذا الفريق ليست أمية كتابية ، لأنه قد أخبر أنهم كانوا يكتبون بأيديهم ، وإنما هى أمية دينية أى جهل بالدين وإنكارٌ له وعدم تصديق ، ومن أجل هذا فسر ابن عباس هاتين الآيتين فيما رواه ابن جرير الطبرى بإسناده إليه[١] ، قال : « ومنهم أميون » قال : الأميون قوم لم يصدقوا رسولاً أرسله الله ، ولا كتاباً أنزله الله ، فكتبوا كتاباً بأيديهم ، ثم قالوا لقوم سفلة جهال : هذا من عند الله . وقال : قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم ، ثم سماهم أميين ، بجحودهم كتب الله ورسله » .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » . فلا ينقض ما قدّمنا من رأى ، وذلك لأنه قال ذلك فى حديث الصيام عن رؤية الهلال ، وفى الحديث بقية ، وهو كاملاً : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا وهكذا » .

---

(١) تفسير الطبرى ، تحقيق محمود محمد شاكر ٢ : ٢٥٨ – ٢٥٩ ؛ وانظر كتاب « المرأة فى الشعر الجاهلى » للدكتور أحمد محمد الحوفى ، ص ٣٣٣ – ٣٣٤ .

فهذا الحديث — أولاً — لا يعني إلا ضرباً خاصاً من الكتابة والحساب ، هو حساب سير النجوم ، وتقييد ذلك بالكتابة لمعرفة مطلع الشهر ، فقد أخبر أن هذا الضرب من العلم المدوّن المسجل القائم على الحساب والتقويم لم يكن للعرب عهد به ، ومن هنا علق الحكم بالصوم وغيره بالرؤية لرفع الحرج عنهم فى معاناة حساب التسيير .

وهذا الحديث — ثانياً — لا يعني نفي الكتابة والحساب نفياً عاماً شاملاً ، وذلك لأن عرب الجاهلية قد كانوا يكتبون ويحسبون ، وإنما هو نفي لأن تكون الكتابة وأن يكون الحساب نظاماً عاماً متبعاً فى كل الشئون كما كان ذلك عند بعض الأمم الأخرى ذات التقاويم الفلكية .

ومن أجل هذا رأينا أن الحديث لا ينقض ما قدّمنا من أمر معرفة العرب بالكتابة بعد أن أقمنا عليها من الشواهد والأدلة ما أقمنا .

٢

لقد فرغنا منذ قليل من الإشارة إلى أن عرب الجاهلية قد عرفوا الكتابة العربية بهذا الخط الذى عرفه الصحابة ، رضوان الله عليهم ، فى صدر الإسلام ، وأن معرفة الجاهليين بهذه الكتابة قد امتدت ، فى الجاهلية ، ثلاثة قرون على أقل تقدير ، وأن ذلك ثبت بالبرهان القاطع ، والدليل المادى الملموس الذى لا سبيل إلى دفعه . وسنفصل القول هنا ، وفيما سيتلو من صفحات ، فى معرفة الجاهلية بالكتابة — تفصيلاً يدعم ما أظهرته لنا النقوش الجاهلية ويزيد جوانب الأمر جلاءً ووضوحاً [١].

---

(١) من خير ما كتب فى هذا الموضوع الفصل الذى عقده الدكتور أحمد محمد الحوفى فى كتابه « المرأة فى الشعر الجاهلى » من ص : ٣٢٧ — ٣٣٥ .

ونحب أن نبدأ حديثنا بإيراد نصّ لابن فارس ، مشرق العبارة ، ناصع الحجة ، هو خير ما قرأناه فى هذا الموضوع . قال ابن فارس بعد أن عرض لذكر بعض الأعراب ممن كان لا يحسن الكتابة [1] : « . . . فأما من حُكىَ عنه من الأعراب الذين لم يعرفوا الهمز والجر والكاف والدال ، فإنا لم نزعم أن العرب كلها ، مدراً ووبراً ، قد عرفوا الكتابة كلها والحروف أجمعها . وما العرب فى قديم الزمان إلا كنحن اليوم : فما كلٌّ يعرف الكتابة والخط والقراءة ، وأبو حية (النُّمَيْرِىّ اللبق لم يعرف الكاف) كان أمس ، وقد كان قبله بالزمن الأطول من يعرف الكتابة ويخط ويقرأ ، وكان فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتبون . . أفيكون جهل أبى حية بالكتابة حُجة على هؤلاء الأئمة ؟ والذى نقوله فى الحروف هو قولنا فى الإعراب والعروض . والدليل على صحة هذا وأن القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرئُ قصيدة الحطيئة التى أولها :

شَاقَتْكَ أَظْعانُ لِلَيْـ ... لَى دُونَ ناظرةٍ بَواكِرْ

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجىء مرفوعة ، ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها لأن تساويها فى حركة واحدة — اتفاقاً من غير قصد — لا يكاد يكون .

فإن قال قائل : فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية ، وأن الخليل أول من تكلم فى العروض ، قيل له : نحن لا ننكر ذلك ، بل نقول إن هذين العلمين قد كانا قديماً ، وأتت عليهما الأيام ، وقلاَّ فى أيدى الناس ، ثم جددهما هذان الإمامان ، وقد تقدم دليلنا فى معنى الإعراب . وأما العروض فمن الدليل على أنه كان متعارفاً معلوماً اتفاق أهل العلم على أن المشركين لما سمعوا

---

(١) الصاحبى : ٨ — ١١ .

القرآن قالوا — أو من قال منهم — : إنه شعر . فقال الوليد بن المغيرة منكراً عليهم : لقد عرضت ما يقرؤه محمد على أقراء الشعر : هزجه ورجزه وكذا وكذا ، فلم أره يشبه شيئاً من ذلك. أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر ؟ . . .

ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم بالعربية كتابتهم المصحف على الذى يعلله النحويون فى ذوات الواو والياء والهمز والمد والقصر . فكتبوا ذوات الياء بالياء ، وذوات الواو بالواو ، ولم يصوروا الهمزة إذا كان ما قبلها ساكناً فى مثل " الخبء " و " الدفء " و " الملء " فصار ذلك كله حجة ، وحتى كره من العلماء ترك اتباع المصحف من كره » .

فابن فارس يذهب إذن إلى تقرير معرفة بعض العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام بالكتابة معرفةً دقيقة ، ثم يذهب إلى أبعد من هذا حين يقرر معرفتهم بعلوم اللغة وقواعدها وعروضها ؛ ويرد على من يذهب إلى استحداث هذه العلوم بعد الإسلام بدهر — رداً يغنينا عن أن نتصدى نحن له . ومع أن ابن فارس قد قيد كلامه هذا بقوله : « فإنا لم نزعم أن العرب كلها : مدراً ووبراً ، قد عرفوا الكتابة كلها والحروف أجمعها ، وما العرب فى قديم الزمان إلا كنحن اليوم : فما كل يعرف الكتابة والخط والقراءه . . . » ، نقول : مع أن ابن فارس قيد كلامه وحصر معرفة العرب بهذه العلوم فى أهل المدر والبيئات المتحضرة ، إلا أننا ، فضلاً عن ذلك ، نستبعد أن يكون العرب ، حتى أهل المدر منهم ، قد عرفوا النحو والعروض من حيث هما علمان لهما مصطلحات وقواعد ، بالمعنى الذى عرفه المسلمون بعد ذلك . والأرجح أن ابن فارس يقصد أن العرب كانوا يعرفون من أمر النحو ومن أمر العروض وعيوب القافية ما يستطيعون به أن يميزوا الصحيح من الخطأ ، وما أصبح بعد ذلك أساساً لعلمى النحو والعروض . فإن كان ابن فارس يعنى هذا الذى قدمناه ، فإننا نحب أن نضيف إلى ما أورد أمثلةً أخرى تسند أمثلته وتقويها .

فمن أمثلة ما ذكره عن معرفة الجاهليين بالعروض ما أورده ابن سعد والزمخشري في حديث إسلام أبي ذر الغفاري (١) ، وذلك قول أبي ذر : « قال لي أخي أنيس : إن لي حاجةً بمكة . فانطلق ، فراث ، فقلت : ما حبسك ؟ قال : لقيت رجلاً على دينك يزعم أن الله أرسله . قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : ساحر كاهن شاعر . وكان أنيس أحد الشعراء فقال : والله لقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلا يلتئم على لسان أحد . . »

ومثل ثان لمعرفتهم بالعروض وعيوب القافية ، ما ذكره أبو عبيدة قال (٢) : « حدثني أبو عمرو بن العلاء قال : فحلان من الشعراء كانا يقويان : النابغةُ وبشر بن أبي خازم : فأما النابغة فدخل يثرب فغُنِّي بشعره ، ففطن فلم يعد إلى إقواء . وأما بشر فقال له سوادةُ أخوه : إنك تقوى . فقال له : وما الإقواء ؟ . » وفي رواية أخرى « فقال له أخوه سمير : أكفأت وأسأت . فقال : وما ذاك ؟ » .

فقد كان القوم إذن يعرفون الإكفاء والإقواء ، وإن جهله أحدهم أو بعضهم فاحتاج إلى من يذكّره به ويعرّفه إياه .

ومثل ثالث : تلك القصة التي جرت بين النابغة الذبياني وحسان بن ثابت (٣) ولا يعنينا منها إلا قول النابغة لحسان حين أنشده قصيدته التي فيها :

لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ في الضُّحَى ... وأَسْيَافُنا يَقْطُرن من نَجْدَةٍ دَمَا

قال النابغة : « أقللت جفانك وأسيافك ! » وذلك لأن « أسيافاً » جمع لأدنى العدد ، والكثير « سيوف » ، و « الجفنات » لأدنى العدد ، والكثير « جفان » . فهل كان النابغة يعرف جموع القلة وجموع الكثرة ؟ لست أدري لم ننكر عليه ذلك بالمعنى الذي أوضحناه ، إلا أن يكون إنكارنا ضرباً من ضروب « تجهيل الجاهلية » الذي أسلفنا الإشارة إليه .

---

(١) الطبقات الكبير ٤/١ : ١٦١ – ١٦٢ ، والفائق ١ : ٥١٨ .

(٢) المرزباني ، الموشح : ٥٩ .

(٣) الموشح : ٦٠ .

فإذا كان القوم ، أو بعض القوم ، يعرفون الكتابة وبعض ضروب المعرفة الأخرى فأين تراهم تعلموها ؟ أتناقلوها تناقلاً شفهيًّا عابراً من غير أن يقصدوا إلى تعلمها قصداً ، ومن غير أن يعمدوا إلى معرفتها عمداً ؟ أم أخذوها عن معلمين كانوا منقطعين إلى تعليمها فى أماكن خاصة أُعِدَّتْ لتلقّى هذه الضروب من المعرفة ؟

أما وجود المعلمين فى الجاهلية فأمر ثابت منصوص عليه فى وضوح لا يقبل الشك ، فقد عقدت بعض المصادر العربية فصلاً خاصًّا أثبتت فيه جريدة بأسماء المعلمين فى الجاهلية والإسلام[1] . فمن هؤلاء المعلمين فى الجاهلية : عمرو ابن زُرَارة ، وكان يسمَّى كذلك الكاتب ، وغيلان بن سلمة بن مُعَتِّب ، جاهلى أسلم يوم الطائف ، ـــ والطائف هى التى أخرجت ، بعد غيلان ، يوسف بن الحكم الثقفى ، وابنه الحجاج بن يوسف المعلمين فيها ، وشهرة الطائف ، وقبيلة ثقيف خاصة ، بالكتابة وإتقانها منذ الجاهلية ، دعت عمر بن الخطاب إلى أن يجعل كَتَبَة المصحف من قريش وثقيف ، ودعت عثمان بن عفان إلى أن يقول : « اجعلوا المُمْلِيَ من هذيل والكاتب من ثقيف » . بل إن هذه المصادر لتذكر أن بشر بن عبد الملك السكونى لم يمنعه شرفه ، ولا كونه أخا أكيدر صاحب دومة الجندل ، من أن يكون معلماً فى الجاهلية .

وأما تعلم الكتابة فى مدارس خاصة بهذا الغرض فأمر لا يقلّ عن سابقه يقيناً وثباتاً ، فقد ذكر ابن سعد والطبرى[2] أن جفينة ـــ وكان نصرانيًّا من أهل الحيرة ظئْراً لسعد بن أبى وقاص ـــ أقدمه للصلح الذى بينه وبينهم ، وليعلم بالمدينة الكتابة .

وذكر البلاذرى نقلاً عن الواقدى أنه[3] : « كان الكتاب فى الأوس

---

(١) ابن حبيب ، المحبر : ٤٧٥ ؛ وابن رسته ، الأعلاق النفيسة : ٢١٦ .

(٢) الطبقات ٣/١ : ٢٥٨ ، وتاريخ الطبرى (مصر) ٥ : ٤٢ .

(٣) فتوح البلدان (مصر) : ٤٧٩ .

والخزرج قليلاً ، وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية ، وكان يعلمه الصبيان بالمدينة فى الزمن الأول ، فجاء الإسلام وفى الأوس والخزرج عدة يكتبون » .

وذكر الطبرى أنه[1] « حين نزل خالد بن الوليد الأنبارَ رآهم يكتبون العربية ويتعلمونها » . وقال ياقوت[2] : إن خالد بن الوليد لما خرج إلى عين تمر وجدوا فى كنيسة صبياناً يتعلمون الكتابة فى قرية من قرى عين التمر يقال لها النُّقَيْرة ، وكان فيهم حُمران مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وقال أمية بن أبى الصلت يمدح بنى إياد[3] :

قَوْمٌ لهُمْ ساحَةُ العراق إذا   سَارُوا جَميعًا والقِطُّ والقلَمُ

وذكروا كذلك أن عدى بن زيد العبادىّ حين نما « وأيفع طرحه أبوه فى الكُتَّاب »[4] حتى حلق العربية .

وكما كانت الكتابة فى الجاهلية تُدَرَّس وتُعلَّم فى الكُتَّاب ، كانت للعلم مجالس تعقد فتُتَدارس فيها الأخبار والأشعار والأنساب . قال ابن عباس رضى الله عنه [5] : « كانت قريش تألف منزل أبى بكر رضى الله تعالى عنه لخصلتين : العلم والطعام ، فلما أسلم أسلم عامة من كان مُجالسه » .

وكان فى الجاهلية من ينصب نفسه لتعليم الأخبار وقصص التاريخ ، فيقصده من يقصده يستمليها ويكتبها ، وقد أنبأنا النبأ اليقين بذلك كتاب الله ، قال تعالى [6] :

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ .

(١) تاريخ ٤ : ٢٠ .
(٢) معجم البلدان (نقيرة) .
(٣) ابن هشام ، السيرة ١ : ٤٨ .
(٤) الأغانى ٢ : ١٠١ .
(٥) الجاحظ ، البيان والتبيين ٤ : ٧٦
(٦) سورة الفرقان : ٥ .

وذهب المفسرون والمؤرخون إلى أن هذه الآية نزلت فى بعض من كان يقول ذلك ، مثل : النضر بن الحارث ، الذى « كان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فدعا فيه إلى الله تعالى ، وتلا فيه القرآن ، وحذّر فيه قريشاً ما أصاب الأمم الخالية — خلفه فى مجلسه إذا قام ، فحدثهم عن رستم السنديد ، وعن اسفنديار ، وملوك فارس ، ثم يقول : والله ما محمد بأحسن حديثاً منى ، وما حديثه إلا أساطير الأولين ، اكتتبها كما اكتتبتُها »[١] .

فقد كان إذن فى الجاهلية معلمون يعلمون القراءة والكتابة وضروباً من العلم ، منها : أخبار الأولين وقصص التاريخ ؛ وقامت فى البيئات الجاهلية المتحضرة مثل : مكة والمدينة والطائف والحيرة والأنبار وغيرها — مدارس يتعلم فيها الصبيان الكتابة العربية .

٣

ولشيوع الكتابة فى الجاهلية أمثلة أخر كثيرة ، لعل من أنصعها بياناً ماأورده الجهشيارى[٢] ، وابن عبد ربه[٣] ، والمسعودى[٤] ، من ذكر أسماء الذين كتبوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد جعلوهم مراتبَ ، وقدّروهم منازل : فكُتّاب يكتبون بين يديه صلى الله عليه وسلم فيما يعرض من أموره وحوائجه ، وآخرون يكتبون بين الناس المداينات وسائر العقود والمعاملات ، وآخرون يكتبون أموال الصدقات ، وكاتب يكتب خرْص الحجاز[٥] ، وآخر يكتب مغانم رسول

---

(١) ابن هشام ، السيرة ١ : ٣٨٣ — ٣٨٤ .
(٢) كتاب الوزراء والكتاب : ١٢ — ١٤ .
(٣) العقد ٤ : ٢٤٦ .
(٤) التنبيه والإشراف : ٢٤٥ — ٢٤٦ .
(٥) الخرص (بفتح الخاء) : حزر ما على النخل من الرطب تمراً (أى تقديره) ؛ وكم خرص أرضكم (بكسر الخاء) ، أى : ما خرص فيها . فالمصدر بالفتح ، والاسم بالكسر .

الله صلى الله عليه وسلم ، وثالث يكتب إلى الملوك ويجيب رسائلهم ويترجم بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية ، وكتاب آخرون يكتبون الوحى . ثم يعقب المسعودى بعد أن ينتهى من ذكر أسماء هؤلاء الكتاب واختصاصهم بقوله : « وإنما ذكرنا من أسماء كُتَّابه صلى الله عليه وسلم من ثبت على كتابته ، واتصلت أيامه فيها ، وطالت مدته ، وصحت الرواية على ذلك من أمره ، دون من كتب الكتاب والكتابين والثلاثة إذ كان لا يستحق بذلك أن يُسمَّى كاتباً ويضاف إلى جملة كُتَّابه » .

فأى شيوع نرجوه للكتابة أكثر من أن يبلغ الكاتبون من الكثرة منزلةً تجعلهم يتخصصون فى أنواع ما يكتبون ، يستقل كل فرد منهم أو كل جماعة بضرب واحد ؟ وما أكثر هؤلاء الكتاب اللذين يورد المسعودى ماشاء من أسمائهم ثم يقول إنه أغفل تسمية الذين كتبوا الكتاب الواحد والكتابين والثلاثة إذ كانوا لا يستحقون بذلك أن يُسَمَّوْا كتاباً !! إن هذه الكثرة فى عدد الكاتبين هى التى دعت عمر بن الخطاب إلى أن يقول[1] : « لا يُمْلِيَنَّ فى مصاحفنا إلا غلمانُ قريش وثقيف » ، ودعت كذلك عثمان بن عفان إلى أن يقول : « اجعلوا المملى من هُذَيل والكاتبَ من ثقيف » . إذ لو كانت الكتابة قليلة بين العرب لقبل عمر وعثمان من أى كاتب أن يكتب ، فحسبهما أن يعثرا على كاتب ، ولما كان لهما هذا المجال للانتقاء والاختيار .

وعلى ضوء ما قدمنا نستطيع أن نفهم فداء الأسرى فى بدر حين أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لمن كان كاتباً من الأسرى أن يفدى نفسه بتعليم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة والقراءة[2]. إذ لا ريب أن هذا الإذن لم يكن منصبًّا على حالة فردية ، وإنما يدلّ على أن هؤلاء الكاتبين من الأسرى كانوا جماعات.

ثم ما قيمة هذه الكتب التى كان يكتبها رسول الله صلى الله عليه وسلم للأفراد

---

(١) ابن فارس ، الصاحبى : ٢٨

(٢) ابن سعد ، الطبقات ٢/١ : ١٤

والقبائل يؤمِّنهم فيها — إذا لم يكن القوم يعرفون القراءة حتى يتم للمؤمَّن هدفُه من بلوغ الأمن عند من يتعرض له[١] .

وكانت الكتابة فى الجاهلية شرطاً لا بد منه للعربى ليكون ذا مكانة فى قومه . فقد كان من يحسن العوم والرمى والكتابة يُسمَّى كاملاً[٢] ؛ وقد زاد بعضهم أن الكامل لا بد أن يكون — مع معرفته العوم والرماية والكتابة — شاعراً شجاعاً[٣] . وهذه الخصال ، متفرقةً ، كثيرةٌ شائعةٌ بين القوم آنذاك ، وإن كانت ، مجتمعةً ، أقل من ذلك شيوعاً وكثرة . فكم كان فى العرب آنذاك من شاعر ! وكم كان فيهم من شجاع ! وكم كان فيهم من رام ! وكم كان فيهم ممن يعرف العوم؛ فلِمَ تكون الكتابة وحدها — من بين هذه الخصال كلها — عزيزةً نادرة؟ ولم لا نقول — كما قلنا فى الخصال الأخرى — : وكم كان فى العرب آنذاك من كاتب ! ثم إذا كانت الكتابة شرطاً لا بد منه ليكون المرء من الكَمَلة ، فلِمَ لا يكون الساعون إلى الكمال كثيرين ؟

٤

ولم يكن العربى يكتفى بمعرفة الكتابة العربية وحدها ، بل لقد تجاوز — فيما يبدو — هذه المرحلة الأولى من تعلم الكتابة ، واضطرته أحوال معاشية تجارية ، وأخرى فكرية ثقافية ، إلى أن يتعلم كتابة اللغات الأخرى . فقد مرّ بنا أن عدىّ ابن زيد العبادىّ تعلم فى الكُتَّاب الخط العربى ثم الخط الفارسى « فصار أفصح

---

(١) انظر مثلا كتابه صلى الله عليه وسلم لبنى زهير بن أقيش فى ابن سعد ١/٢ : ٣٠ ، وكتابه إلى ماعز البكائى فى ابن سعد ٧ : ٣١

(٢) ابن سعد ٣/٢ : ١٣٦ ، ١٤٢ ، ١٤٨ وغيرها .

(٣) أبو الفرج الأصفهانى ، الأغانى (ط . دار الكتب) ٢ : ٢٥

الناس وأكتبهم بالعربية والفارسية ، ثم انتقل إلى بلاد فارس فأصبح كاتباً بالعربية ومترجماً في ديوان كسرى »[١]. وكذلك كان لَقِيطُ بن يَعْمُرَ الإيادىُّ كاتباً بالعربية ويحسن الفارسية ، فكان من أجل ذلك مترجماً فى ديوان كسرى . وكان ورقة بن نوفل « يكتب الكتاب العبرانى فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب »[٢] . وكان عبد الله بن عمرو بن العاص كثير العناية بكتب أهل الكتاب [٣] ، وكان يقرأ بالسريانية[٤] . وزيد بن ثابت تعلّم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتابة العبرانية[٥] والسريانية[٦] والفارسية والرومية والقبطية والحبشية ، تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن [٧]. ويبدو أن كتب أهل الكتاب ، سواء أكانت مترجمة إلى العربية أم مكتوبة بغيرها من اللغات ، كانت تلقى من العناية لدى بعض العرب ما يحملهم على مدارستها ؛ ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما ذكره خالد بن عُرْفُطَة قال[٨] : كنت جالساً عند عمر ، إذ أُتِيَ برجل من عبد القيس ، سكنه بالسوس ، فقال له عمر : أنت فلان بن فلان العبدى ؟ قال : نعم . قال : وأنت النازل بالسوس ؟ قال : نعم . فضربه بقناة معه . فقال الرجل : ما لى يا أمير المؤمنين ؟ فقال له عمر : اجلس . فجلس ، فقرأ عليه « بسم الله الرحمن الرحيم ، الـر ، تلك آيات الكتاب المبين ، إنا أنزلناه قرآنا عربيًّا لعلكم تعقلون ، نحن نقصُّ عليك أحسن القصص » إلى « لمن الغافلين » . فقرأها عليه ثلاثاً ، وضربه ثلاثاً . فقال له الرجل : ما لى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أنت الذى نسخت كتاب دانيال ؟ قال : مرنى بأمرك أتّبعْه . قال : انطلق

(١) الأغانى ٢ : ١٠١ — ١٠٢ .
(٢) الأغانى ٣ : ١٢٠ .
(٣) ابن حجر ، فتح البارى ١ : ١٨٤ ؛ وأبو نعيم ، حلية الأولياء ١ : ٢٨٥ .
(٤) ابن سعد : الطبقات ٤/٢ : ١١ ؛ وابن قتيبة ، المعارف : ١٢٥ .
(٥) البلاذرى ، فتوح البلدان : ٤٧٩ .
(٦) السجستانى ، كتاب المصاحف : ٣ .
(٧) المسعودى ، التنبيه والإشراف : ٢٤٦ .
(٨) الخطيب البغدادى ، تقييد العلم : ٥١ .

فامحه بالحميم والصوف الأبيض ، ثم لا تقرأه ولا تقريه أحداً من الناس — فلئن بلغني عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأنهكنّك عقوبة[١]. ثم قال له : اجلس . فجلس بين يديه ، فقال : انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب ، ثم جئت به في أديم ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هذا في يدك يا عمر ؟ قال : قلت : يا رسول الله كتاب انتسخته لنزداد به علماً إلى علمنا . فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احمرت وجنتاه . . .

وكما كان بعض العرب يعرفون اللغات الأخرى ويكتبونها فقد كان بين الأقوام الأخرى من يعرف العربية ويكتبها ، فقد كان بعض اليهود في المدينة يعرف الكتابة العربية[٢] ، وكان في مصر من يكتب العربية كذلك[٣] ، كما كان في بلاط كسرى كتاب ومترجمون يكتبون العربية ويترجمون منها إلى غيرها من اللغات ، ومن تلك اللغات إلى العربية .

ولم يكن الرجال وحدهم هم الكاتبين القارئين ، وإنما كان بعض النساء كذلك يكتبن[٤] ، ومنهن : الشفاء بنت عبد الله العدوية ، من رهط عمر بن الخطاب ، «وكانت الشفاء كاتبة في الجاهلية» ؛ وهي التي علمت الكتابة حفصة بنت عمر زوج الرسول الكريم .

* * *

(١) النهك : المبالغة في العقوبة .

(٢) ابن قتيبة ، المعارف : ١٩٢ ؛ والبلاذري ، فتوح البلدان : ٤٧٩ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها : ٤٧ .

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان : ٤٧٧ — ٤٧٨ .

٥

وحقيق بنا ، ونحن نتحدث عن الكتابة فى الجاهلية وشيوعها ، ألا نغفل الإشارة إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى ذكرت الكتابة . أما الآيات الكريمة التى تضمنت الإشارة إلى معرفة الجاهلية العربية بالكتابة معرفة واسعة عميقة ، فحسبنا أن نقتصر على ذكر ثلاث منها ، والحق أن قيمة هذه الآيات لا تقتصر على وضوح دلالتها ، وإنما تتجاوز ذلك إلى قيمتها التاريخية إذ أنها وثيقة أولى لا سبيل إلى التشكيك فيها .

أما الآية الأولى فقد أشرنا إليها من قبل فى معرض حديثنا عن مجلس العلم فى الجاهلية ، إذ أنها تبين عن أن بعض الجاهليين كانوا يدوّنون الأخبار والقصص والتاريخ ، وأن هناك من كان يملى هذه الموضوعات فى مجالسه ، قال تعالى [١] :

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ، فهى تُمْلَى عليه بُكْرَةً وأَصِيلاً ﴾ .

والآية الثانية تبين عن أن عرب الجاهلية كانوا يطالبون الرسول بآيات ومعجزات تقنعهم بنبوته ، ومن هذه الآيات والمعجزات ، أن ينزل عليهم كتاباً من السماء يقرءونه ، قال تعالى [٢] :

﴿ وقالوا لن نُؤْمِنَ لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأَرضِ يَنْبُوعاً ... أو يكونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أو تَرْقَى فى السَّماء ، ولن نؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حتى تنَزِّلَ علينا كتاباً نقْرَؤُهُ . قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هلْ كنتُ إلَّا بَشَرًا رَسُولاً ﴾ .

وفى الآية الثالثة يشير تعالى إلى أن هؤلاء العرب مكابرون ، وسيشكون فى هذا الكتاب ولو نزل عليهم فى صورة مادية يرونها ويلمسونها . قال تعالى [٣] :

---

(١) سورة الفرقان ، آية : ٥ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٩٠ – ٩٣ .

(٣) سورة الأنعام : آية : ٧ .

﴿ولو نَزَّلْنا عليك كتاباً فى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بأَيْدِيهِمْ لقال الذين كَفَرُوا إنْ هذا إلا سِحْرٌ مُبِين﴾ .

أما الأحاديث فكثيرة ، متضاربة فى ظاهرها . تناولها علماء الحديث والفقه بالبحث ، وسنعود إليها فى مكان آخر حين نتحدث عن نشأة التدوين فى الفصل التالى . وحسبنا الآن أن نشير إلى كتاب « تقييد العلم » للخطيب البغدادى ؛ فقد قسم المؤلف كتابه أقساماً ، عرض فى أحدها الأحاديث الناهية عن الكتابة ، وعرض فى قسم آخر الأحاديث المبيحة للكتابة الحاثة على تقييد العلم . ثم خلص من هذا وذاك إلى ما يراه فى هذا الموضوع فيقول[1] : « فقد ثبت أن كراهة من كره الكتاب من الصدر الأول ، إنما هى لئلا يضاهَى بكتاب الله تعالى غيره، أو يُشْتَغل عن القرآن بسواه، ونُهِيَ عن الكتب القديمة أن تُتَّخَذ، لأنه لا يُعْرَف حقها من باطلها وصحيحها من فاسدها ، مع أن القرآن كفى منها ، وصار مهيمناً عليها. ونُهِيَ عن كَتْب العلم فى صدر الإسلام وجِدَّته لقلة الفقهاء فى ذلك الوقت ، والمميزين بين الوحى وغيره ، لأن أكثر الأعراب لم يكونوا فقهوا فى الدين ، ولا جالسوا العلماء العارفين ، فلم يُؤْمَن أن يلحقوا ما يجدون من الصحف بالقرآن ، ويعتقدوا أن ما اشتملت عليه كلام الرحمن » .

فالخطيب البغدادى إذن إنما يرجع سبب النهى عن الكتابة فى الحديث النبوى إلى « قلة الفقهاء فى ذلك الوقت » ، ولم يرجعها إلى قلة الكاتبين أو إلى أن العرب والصحابة كانوا أميين كما ذهب كثير من الذين يلقون الكلام إلقاءً عاماً لا تحقيق فيه ولا تدقيق . بل إننا لنزيد على ذلك فنرى أن هذه الأحاديث نفسها الناهية عن الكتابة إنما تدلّ على وجود الكتابة وشيوعها آنذاك شيوعاً جعل الرسول الكريم ينهاهم عن كتابة الحديث . ولولا ذاك لكان فى غنى عن هذا النهى .

---

(١) الخطيب البغدادى ، تقييد العلم : ٥٧

الفصل الثانى

موضوعات الكتابة وأدواتها

موضوعات الكتابة فى الجاهلية :

١

وصلنا – بعد الذى قدمنا من شواهد وأدلة – إلى مفصل من الأمر نطمئن عنده إلى أن الكتابة كانت شائعة عند عرب الجاهلية شيوعاً يكفى لأن ينفى عنهم ما ألحقه بهم تاريخنا الأدبى من وصمة الجهل والأمية . ولعلنا فى غنى عن أن نقرر أننا – فى حكمنا هذا بشيوع الكتابة فى الجاهلية – لا نملك الوسيلة التى تحدّد لنا مدى هذا الشيوع . ولعلى لا أجانف الحق إذا ذكرت أن التاريخ لم يحفظ لنا هذه الوسيلة عند سائر الأمم التى سبقت عرب الجاهلية أو عاصرتهم أو تلتهم . فعلم الإحصاء علم حديث النشأة لم نعرفه إلا فى عصرنا الحديث ، وبغيره لا سبيل إلى القطع الجازم فى مدى شيوع الكتابة عند أية أمة من أمم الأرض [1]. وحكمنا على عرب الجاهلية لا يختلف عن حكمنا على الإغريق أو

---

(١) لقد أدرك الباحثون فى هذا الضرب من الموضوعات كثرة العقبات التى تعترض سبيلهم فيقول بول مونرو Paul Monroe فى مقدمة كتابه The Educational Renaissance of The Sixteenth Century « إنه لمن الشاق العسير أن يحاول الإنسان أن يحصل على معلومات دقيقة عن النشاط التعليمى فى العهود الماضية وبخاصة ما يتعلق بتفاصيل عن الحياة المدرسية » . وقد أورد الدكتور أحمد شلبى هذا القول فى كتابه « تاريخ التربية الإسلامية » (ط . دار الكشاف ١٩٥٤ ص : ١) ثم عقب عليه بقوله : « وقد لمست أن ما قرره بول مونرو عن صعوبة الحصول على هذه المادة فيما يتعلق بالتعليم فى أوربا ، ينطبق تمام الانطباق على النظم التعليمية عند المسلمين » .

فإذا كانت هذه الصعوبة قائمة عند المسلمين بعد أن كثر العلم وشاعت الكتابة وانتشرت المدارس ، وإذا كانت كذلك قائمة عند الأوربيين ، فما أحرى أن تكون قائمة عند دراستنا لهذا الموضوع فى العصر الجاهلى .

البابليين أو الفينيقيين أو المصريين القدماء فى إبان حضارتهم . فهل كانت الكتابة شائعة عند الإغريق والفينيقيين والمصريين القدماء؟ أحسب أنْ نعم . وهل كان شيوعاً عامًّا يشمل كل فرد فى تلك الأمم ؟ أو كان تعميميًّا غالباً يشمل الكثرة الكاثرة منها ؟ سؤال لا سبيل إلى القطع فيه ، ولكنّ المنطق المادى لتاريخ أدوات الكتابة وآلاتها يجعلنا نرجح أن الشيوع العام الشامل أو التعميمى الغالب عسيرُ المنال فى مثل تلك الأطوار التاريخية . بل ما لنا نُبعد والأمثلة قريبة بين أيدينا ؟ فهل الكتابة شائعة الآن فى البلاد العربية ؟ لا ريب أنها كذلك ، وأمثلة شيوعها واضحة فى هذه الجامعات والمعاهد العالية ، والمدارس المختلفة ، والمطبوعات والمنشورات والصحف ؛ فهل شيوعها عام شامل لكل فرد ، أو هو تعميمى غالب يشمل الكثرة الكاثرة ؟ الحق أنه لا هذا ولا ذاك . ومع أننا نفتقد الإحصاء الدقيق إلا أن المعروف أن شيوع الكتابة فى البلاد العربية ، لعصرنا هذا ، لا يشمل إلا نسبة ضئيلة من قُطّان هذه البلاد تتراوح بين عشرين وثلاثين لكل مائة . أما الثمانون أو السبعون الباقون من كل مائة فما زالوا بعيدين عن أن تصل إليهم معرفة الكتابة . ومع أن هذه النسبة للكاتبين نسبة ضئيلة إلا أن عددهم كبير ، فهم — على قلتهم — يُعدّون بالملايين .

فنحن إذن لا نقصد بشيوع الكتابة بين عرب الجاهلية أنّ كل عربى آنذاك كان كاتباً ، بل لا نقصد أن الكثرة الغالبة كانت كاتبة ، وإنما نقصد أن الكتابة كانت أمراً معروفاً مألوفاً شائعاً عند قومنا آنذاك ، كما كانت الأمية شائعة منتشرة ؛ وأن عدد الكاتبين كان كبيراً ، كما كان عدد الأميين كبيراً . أما تحديد العدد وتحديد النسبة فأمران لا سبيل لنا ولا لغيرنا إلى بيانهما .

بقى أمران يتم بهما هذا الفصل ، أولهما : استقراء الموضوعات التى كان عرب الجاهلية يكتبونها ، وثانيهما : الكشف عن أدوات الكتابة وآلاتها آنذاك .

٢

أما موضوعات الكتابة فى العصر الجاهلى فقد كانت — فيما يبدو لنا من استقرائنا — كثيرة متنوعة ، فقد كان القوم آنذاك يكتبون كثيراً من شؤون حياتهم وألواناً متعددة من الموضوعات التى يفرضها عليهم نشاطهم العملى أو العلمى أو الوجدانى . ومع اعترافنا بأن استقراءنا ناقص — بسبب إغفال المصادر العربية هذا اللون من النشاط العلمى فى الجاهلية — فقد وصلنا إلى أمور نراها جديرة بالذكر والتسجيل . وسنسردها هنا غير مراعين فى ترتيبنا لها تقديم الأهم على المهم ، ولا الأكثر على الكثير ، لأن الحكم على أهمية هذه الموضوعات أو كثرتها حكم لا نملك الآن وسائله .

وأول هذه الموضوعات التى كانوا يدوّنونها : الكتب الدينية : — ونحن لا نشك فى أن أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، كانت كتبهم مدوّنة بين أيديهم يتلونها ، وأن هذه الكتب لم تكن نسخاً قليلة العدد موقوفة على الرهبان والأحبار وحدهم ، وإنما كانت مصاحف كثيرة يتداولها أهل هاتين الديانتين ، حتى إن المسلمين بعد فتح خيبر وجدوا مصاحف فيها التوراة فجمعوها ثم ردوها على اليهود [1].

وقد مرّ بنا أن ورقة بن نوفل « كان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب » [2]. ومع أن هذا النص يشير إلى أن التوراة والإنجيل كانا مكتوبين بالعبرية أو السريانية [3] ، وأن بعض العرب كان يقرأهما بهذه اللغة فإنه — مع ذلك — لا ينفى أن هذين الكتابين كانا يكتبان بالعربية ، وأن بعض العرب كان يقرأهما بهذه اللغة . فنحن نعلم أن قبائل عربية

---

(١) المقريزى ، إمتاع الأسماع : ٣٢٣

(٢) الأغانى (دار الكتب) ٣ : ١٢٠ .

(٣) يذكر الأب لويس شيخو عند حديثه عن كتابة ورقة بالعبرانية أن « عبرانية ذلك العهد هى الآرامية أو السريانية » انظر كتابه « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » ص : ١٥٧ .

كاملة كثيرة العدد كانت قد تهودت أو تنصرت[١] . فهل كان هؤلاء العرب لا يقرأون كتبهم الدينية ؟ أو هل كانوا يقرأونها باللغة العبرية أو بغيرها من اللغات ؟ وهل من المعقول أن نفترض أن هؤلاء العرب كانوا ، حين يتهودون أو يتنصرون، يشترط فيهم أن يتعلموا العبرية أو الآرامية ؟ الأقرب إلى المعقول أن نفترض أنهم كانوا يقرأون كتبهم الدينية مترجمة إلى لغتهم العربية . وليس هذا في الحق فرضاً أو استنتاجاً لا تدعمه النصوص ، وإنما هو نتيجة أملتها علينا — مع سلامة المنطق — شواهد من الروايات :

فى حديث سُويد بن الصامت أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لعل الذى معك مثل الذى معى ! فقال : وما الذى معك ؟ قال سويد : مجلة لقمان[٢] — يريد كتاباً فيه حكمة لقمان [٣]. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضها على . فعرضها عليه، فقال له : إن هذا الكلامٌ حسن والذى معى أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى ، هو هدى ونور [٤] .

وقد مر بنا حديث خالد بن عُرفُطة حين كان جالساً مع عمر بن الخطاب فأتى برجل من عبد القيس نسخ كتاب دانيال ، فضربه عمر وقال له : انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض ، ولا تقريه أحداً من الناس ، فلئن بلغنى عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأنهكنك عقوبة . ثم قال عمر : انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب ، ثم جئت به فى أديم ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هذا فى يدك يا عمر ؟ قلت : يا رسول الله كتاب

---

(١) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب : ٤٥٧ — ٤٥٨ .

(٢) الزمخشرى ، الفائق ١ : ٢٠٦ .

(٣) لسان العرب (جلل) .

(٤) ابن هشام، السيرة ٢ : ٦٨ .

انتسخته ، لنزداد به علماً إلى علمنا . فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احمرت وجنتاه[١] .

وقال عمرو بن ميمون الأوديّ[٢] : كنا جلوساً بالكوفة فجاء رجل ، ومعه كتاب ، فقلنا : ما هذا الكتاب ؟ قال : كتاب دانيال . فلولا أن الناس تحاجزوا عنه لقُتِل ، وقالوا : أكتاب سوى القرآن !

وقال عمر بن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم[٣] : إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا ، أفترى أن نكتب بعضها ؟ فقال : أمُتَهَوِّكون أنتم كما تَهَوَّكَتْ اليهود والنصارى ؟

وقال مُرّة[٤] : بينا نحن عند عبد الله بن مسعود إذ جاء ابن قرة بكتاب قال : وجدته بالشام ، فأعجبني فجئتك به . فنظر فيه عبد الله ثم قال : إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم الكتب ، وتركهم كتابهم . ثم دعا بطست فيه ماء فماثه فيه ثم محاه. فقال مُرّة[٥] : أما إنه لو كان من القرآن أو السنة لم يمحه ولكن كان من كتب أهل الكتاب .

يفهم من هذه الأخبار والأحاديث أن هذه الكتب كانت مكتوبة بالعربية لغة القوم ، وإلا فهل كان سويد بن الصامت يحمل معه مجلة لقمان وهي مكتوبة بغير العربية ؟ وهل قرأها على رسول الله بتلك اللغة وفهمها رسول الله ؟ ثم هل كان هذا الرجل العربي من عبد القيس قد نسخ كتاب دانيال من لغة غير عربية ؟ وهل نهاه عمر أن يقرأه وأن يقرئه أحداً من الناس بتلك اللغة غير العربية ؟ وهل كان ذلك شأن عمر حينما نسخ كتاباً من كتب أهل الكتاب فأغضب رسول الله ؟ ثم هذا الكتاب الذي جاء به ابن قرة من الشام « فنظر فيه » عبد الله بن

---

(١) تقييد العلم : ٥١ — ٥٢ .
(٢) تقييد العلم : ٥٦ — ٥٧ .
(٣) الفائق ٣ : ٢١٨ .
(٤) تقييد العلم : ٥٣ .
(٥) سنن الدارمي ١ : ١٢٣ .

مسعود ثم محاه لأنه لم يكن من القرآن أو السنة وإنما كان من كتب أهل الكتاب — أترى عبد الله بن مسعود نظر فيه وعرف ذلك وهو مكتوب بغير العربية ؟

فلعل القوم كانوا يكتبون الكتب الدينية بالكتابة العربية كما كانوا يكتبونها بغير العربية .

ومن الشعر الجاهلي الذي يشير إلى معرفة عرب الجاهلية بهذه الكتب الدينية قول خُزَّز بن لوذان[1] :

وكذاكَ لا خَيْرٌ ولا شَرٌّ على أحَدٍ بدائمْ
قد خطَّ ذلك في الزُّبُو رِ الأوَّليــات القدائمْ

ومنه قول امرىء القيس[2] :

أتَتْ حِجَج بَعْدى عليها فأصبحتْ كَخطِّ زَبُورٍ في مَصاحفِ رُهْبان

وقول السموءل يصف اليهود[3] :

وبقايا الأَسْباطِ أسباطِ يعقو بَ دِراسِ التوراةِ والتابوت

وقول النابغة يمدح الغساسنة النصارى ويذكر الإنجيل[4] :

مجلَّتُهم ذاتُ الإِله ودينُهم قويمٌ فما يَرجُون غيرَ العواقب

---

(١) لسان العرب (حتم) ، وانظر خزانة الأدب ٣ : ١١ حيث يذكر أن خزز بن لوذان السدوسى جاهلى .

(٢) ديوانه ط . هندية سنة ١٩٠٦ ص : ١٢٥ .

(٣) ديوانه (ط . شيخو) ص : ١٢

(٤) ديوانه (خمسة دواوين سنة ١٢٩٣) ص: ٨ ، ويروى فى عجز البيت : « خير العواقب » برفع « خير » خبر « ما يرجون » .

٣

ولعل الموضوع الثانى الذى كانوا يكتبونه ، حريصين على كتابته ماوسعهم الحرص ، هو هذه العهود والمواثيق والأحلاف التى يرتبطون بها فيما بينهم أفراداً وجماعات . قال الجاحظ[1] : « كانوا يدعون فى الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيماً للأمر ، وتبعيداً من النسيان» . وقد ورد ذكر هذه العهود المكتوبة فى الشعر الجاهلى ،قال الحارث بن حلزة اليشكرى فى شأن بكر وتغلب[2] :

وَاذْكُرُوا حِلْفَ ذِى المَجَازِ وما قُدِّمَ فيه ، العُهُودُ والكُفَلاءُ[3]

حَذَرَ الجَوْرِ والتَّعدِّى ، وهل يَنْـ قُضُ ما فى المهارق الأَهْوَاءُ؟

وذكر الجاحظ أنه « لا يقال للكتب : مَهارق ، حتى تكون كتب دين أو كتب عهود وميثاق وأمان » .

ومن الشعر الجاهلى الذى تذكر فيه هذه المهارق قول الأعشى[4] :

رَبِّى كَرِيـمٌ لا يُكَدِّر نِعْمَةً وإذا يُنَاشَد بالمَهَارق أَنْشَدَا

وربُّه هذا إنما يعنى به سيداً كريماً متفضلاً عليه — كما يتضح من البيت السابق لهذا البيت — والمهارق هنا قد تعنى الكتب الدينية ، فيصف هذا السيدَ بالتدين وبأنه يلبى داعى الدين إلى صلة المحروم وإعطاء المحتاج ، وقد تعنى المهارقُ كتبَ العهود والأحلاف ، فيكون معنى البيت أن هذا السيد الكريم لا يخفرُ ذمتهُ ولا ينقض عهده ، وإنما يفى بما عاهد عليه ، فإذا ما ذكّره بهذه العهود المكتوبة فى المهارق بادر إلى المحافظة عليها والوفاء بها .

---

(١) الحيوان ١ : ٦٩ — ٧٠

(٢) شرح المعلقات للتبريزى : ٢٦٨ — ٢٦٩ ، وقد شرح التبريزى البيتين بقوله : إن كانت أهواؤكم زينت لكم الغدر والخيانة بعد ما تحالفنا وتعاقدنا ، فكيف تصنعون بما هو فى الصحف مكتوب عليكم من العهود والمواثيق والبينات فيما علينا وعليكم ؟

(٣) الكفلاء : الرهائن .

(٤) ديوانه : قصيدة : ٣٤، بيت : ١٣

ومن أوضح الشعر الجاهلي الذى يذكر هذا الضرب من تسجيل الأحلاف والعهود : قول درهم بن زيد الأوسيّ يُذكّر الخزرج ما بينهم من عهود مكتوبة على الصحف [١] :

وإنّ ما بيننا وبينكمُ   حين يُقال: الأرحامُ والصُّحُفُ

وقول قيس بن الخطيم[٢] :

لما بدت غُدْوَةً جِباهُهُمُ   حَنَّتْ إلينا الأرحامُ والصُّحُفُ

يعنى بالصحف : العهود والمواثيق والأحلاف المسجلة فى الصحائف .

ومن الأحلاف التى كتبت فى الجاهلية حلف خزاعة ، بين عبد المطلب ابن هاشم جدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجال من خزاعة ، وكتب لهم الحلف أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة ، وعلقوا الكتاب فى الكعبة[٣] ؛ وقد جاء خزاعةُ رسولَ الله يوم الحديبية بكتاب جده فقرأه عليه أبىّ بن كعب[٤] .

وقد زعم أبو حنيفة الدينورى [٥] أن عمر بن إبراهيم من ولد أبرهة بن الصباح ملك حمير أرسل إلى الكرمانى نسخة حلف اليمن وربيعة الذى كان بينهم فى الجاهلية . ثم أورد نص هذا الحلف .

ومن أشهر هذه العهود والمواثيق : صحيفة قريش التى تعاقدوا فيها « على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا يُنكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم . فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم[٦] » .

---

(١) ديوان حسان بن ثابت . مخطوط فى مكتبة أحمد الثالث بإسطنبول ، رقم ٢٥٣٤ ، وميكرو فيلم فى معهد المخطوطات ، ورقة : ٢٠ .

(٢) ديوانه : ١٩ .

(٣) ديوان حسان — مخطوطة أحمد الثالث ، ورقة : ١٥ — ١٦ .

(٤) محمد حميد الله ، الوثائق السياسية : ٥٠ وقد خرج هناك مصادره .

(٥) الأخبار الطوال (ط . السعادة ١٣٣٠ هـ) ص : ٢٣٦ .

(٦) ابن هشام ، السيرة ١ : ٣٧٥ — ٣٧٦ .

وكما كانوا يكتبون العهود والأحلاف بين الجماعات ، كانوا كذلك يكتبون العهود والمواثيق بين الأفراد . ومن أمثلة ذلك حديث عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال [١] : كاتبتُ أمية بن خلف كتاباً فى أن يحفظنى فى صاغيتى بمكة وأحفظه فى صاغيته بالمدينة [٢] .

ويبدو أنهم كانوا يسجلون كل أمر عامّ ذى بال يتصل بمجموع الناس أو بجماعات منهم — إذا أرادوا لهذا الأمر توكيداً أو أرادوا أن يشهدوا عليه الملأ — ولا يقتصرون فى ذلك على الأحلاف والمواثيق . فمن أمثلة هذه الأمور العامة التى كانوا يسجلونها ما قاله أبو جهل للعباس بن عبد المطلب حين شاعت فى مكة رؤيا أخته عاتكة بنت عبد المطلب ، قال [٣] : « يا بنى عبد المطلب ، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ! قد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال [٤] : انفروا من ثلاث . فسنتربص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقًّا ما تقول فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شىء ، نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذبُ أهل بيت فى العرب » .

ومما يتصل بكتابة العهود والمواثيق والأحلاف كتابة كتب الأمان ، وربما كانت أقل من سابقتها إذ أنها لا تصدر إلا فى حالات لا تتكرر كثيراً . فمن ذلك كتاب النعمان الذى أرسله إلى الحارث بن ظالم وهو فى مكة يؤمّنه [٥] ، فلما ذهب إليه الحارث ودخل عليه قال : أنعم صباحاً أبيت اللعن . قال النعمان : لا أنعم الله صباحك . فقال الحارث : هذا كتابك ! قال النعمان : كتابى والله ما أنكره أنا كتبته لك . . .

---

(١) الزمخشرى ، الفائق ٢ : ٢٦

(٢) الصاغية : هم الذين يصغون إلى المرء ويميلون إليه ، أى : جماعته .

(٣) ابن هشام ، السيرة ٢ : ٢٥٩ — ٢٦٠ ؛ وانظر أيضاً ابن سعد ، الطبقات ٨ : ٣٠ ؛ والأغانى (دار الكتب) ٤ : ١٧٢ .

(٤) القائل هنا راكب رأته عاتكة فى نومها مقبلاً على بعير له حتى وقف بالأبطح .

(٥) الأغانى ١١ : ١٢٠ .

٤

وموضوع ثالث لعله أكثر هذه الموضوعات اتساعاً ، وألصقها بحاجات المرء وحياته المعاشية ، هو الصكوك التى كان عرب الجاهلية يكتبون فيها حساب تجاراتهم وحقوقهم على غيرهم . وأوضح ما ورد فى ذلك كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لثقيف ، فقد جاء فيه[1] : « وما كان لهم من دَيْن فى رهن فبلغ أجله فإنه لواط مبرأ من الله . وما كان من دَيْن فى رهن وراء عكاظ فإنه يقضى إلى عكاظ برأسه . وما كان لثقيف من دَيْن فى صحفهم اليوم الذى أسلموا عليه فى الناس فإنه لهم » .

ومن أغرب ما جاء فى هذه الصكوك ما ذكره ابن النديم قال[2] : « وكان فى خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم فى جلد أدم فيه : ذِكْر حق[3] عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان بن فلان الحِمْيَرىّ من أهل وزل صنعا عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة ، ومتى دعاه بها أجابه ، شهد الله والملكان . قال : وكان الخط شبه خط النساء . »

ووجه الغرابة فى هذا النص أنه يوهم أن ابن النديم — أو الذى روى عنه ، إذ أن فى أول النص خرماً — رأى هذا الصك ، ولكن قوله بعد ذلك : على فلان ابن فلان الحميرى من غير ذكر للاسم ، يدعونا إلى الشك فى أنه رآه ، وإلى ترجيح أن غيره هو الذى رآه ثم نسى اسم المدين وهو يروى الخبر . ووجه ثان للغرابة أنه ينص فى أول الخبر أن الكتاب بخط عبد المطلب بن هاشم ، ولم يذكر فى الكتاب ما يدل على ذلك ، فكيف أتيح له أن يقطع بأنه بخطه ، وهل قوله

---

(١) الدكتور محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية : ١٦٠ وفيها مصادره .
(٢) الفهرست : ٧ — ٨ .
(٣) « ذكر حق » معناه « صك الدين » انظر مجالس ثعلب ١ : ٢٧ .

فى آخر الخبر : « وكان الخط شبه خط النساء » ناقض لقوله إنه بخط عبد المطلب؟ أو أنه يقصد إلى القول إن هذا الخط الذى هو خط عبد المطلب شبه خط النساء؟ فنحن إذن نضعّف ذلك الخبر على هذا الوجه الذى ورد عليه ، وإن كنا مع ذلك لا نستطيع أن نقطع بنفيه ، لأننا نرى أن الخبر فى جوهره : وهو أن ثمة صكًّا ما فيه حق لعبد المطلب على رجل حميرى — لا سبيل إلى الطعن فيه .

وقد كان كثير من القوم آنذاك تجاراً ، فكان من الطبيعى أن يكثر عندهم هذا الضرب من الكتابة يحفظون به حقوقهم أن تضيع ، حتى لقد كانت النساء التاجرات يلجأن إلى هذه الوسيلة ، شأنهن فى ذلك شأن الرجال . فقد روى أن عبد الله بن أبى ربيعة كان يبعث بعطر من اليمن إلى أمه أسماء بنت مُخرِّبة ، وهى أم أبى جهل — فكانت تبيعه إلى الأعطية ، فذهبت إليها الرُّبَيِّع بنتُ مُعَوِّذ فى نسوة من الأنصار ليشترين منها العطر ؛ قالت الربيع : فلما جعلت لى فى قواريرى ، ووزنت لى كما وزنت لصواحبى ، قالت : اكتبن لى عليكن حقى . فقلت : نعم ، اكتب لها على الربيع بنت معوذ . . .[1]

وقد حفظ لنا الشعر الجاهلى ذكر هذا الضرب من الصحف التى يسجل فيها الدين ، قال علباء بن أرقم بن عوف من بنى بكر بن وائل[2] :

أَخَذْتُ لِدَيْنٍ مُطْمَئِنٍّ صحيفةً وخالفت فيها كلَّ من جار أو ظَلَمْ

وقال أبو ذؤيب الهذلىّ يصف كاتباً من اليمن يكتب دينه على رجل آخر يُثنى عليه الناس بالوفاء[3] :

عرفتُ الديارَ كرَقْمِ الدَّوا ةِ يَزْبُرُه الكاتبُ الحِمْيَرىُّ

(١) الواقدى ، المغازى : ٦٥ ؛ وابن سعد ، الطبقات ٨ : ٢٢٠ .

(٢) الأصمعيات (برلين ١٩٠٢) ص : ٦٣ ، وانظر اسم الشاعر وبيتين من القصيدة فى معجم المرزبانى : ٣٠٤ .

(٣) ديوان الهذليين ١ : ٦٤ .

بِرَقْم ووَشْيٍ كما زخرِفَتْ ... بِمِيشَمِها المُزْدَهاةُ الهَدِيُّ
أدانَ وأنْبـــأهُ الأوَّلُـــو ... نَ أنَّ المُدانَ المَلِيُّ الوَفِيُّ
فَنَمْنَمَ فى صُحُف كالرِّيَا ... طِ فيهنَّ إرْثُ كتابٍ مَحِيُّ

وثمة ضرب آخر من الصكوك ، وهى التى يسجل فيها ما كان يقطعه الأمير أو السيد للمتعرض لنواله ، وكان هذا الصك يُسمى : الوِصْر ، والإصر ، والأوصر ، والوَصَرَّة . ووصره : أقطعه أرضاً وكتب له الوِصْر[1] . قال عدى ابن زيد[2] :

فَأَيُّكُمْ لم يَنَلْهُ عُرْفُ نائِلِهِ ... دثْرًا سَواماً وفى الأرياف أوْصَارا

أى : أقطعكم وكتب لكم السجلات.

وذكر شاعر ، بعده ، هذا الضرب من الصكوك فقال — يشير إلى فرسه : صِـدام، ويخاطب خاتمه[3] :

وما اتخذت صِداماً للمُكُوثِ بها ... ولا انْتَقَشْتُكَ إلا لِلْوَصرّات

وهذا الضرب من الصكوك قد يسمى أيضاً القِـط ، وجمعها : قطوط . قال الأعشى[4] :

ولا المَلِكُ النُّعْمانُ يومَ لَقِيتُهُ ... بإمَّتِهِ يُعْطِى القُطُوطَ وَيَأْفِقُ

أى : يدفع إلى الناس صكوكهم بما أقطعهم أو بما قسم لهم من جوائز .

وقال المتلمس لما ألقى الصحيفة المشهورة فى نهر الحيرة[5] :

---

(١) الزمخشرى ، أساس البلاغة (وصر) .
(٢) الزمخشرى ، الفائق ٣ : ١٦٦ ، والدثر : المال الكثير .
(٣) أساس البلاغة (وصر) ، وصدام : اسم فرسه .
(٤) ديوانه ق : ٣٤ ، ب : ١٣ ، والإمة : النعمة ؛ ويأفق : يطبع القطوط (أى : صكوك الجوائز) ويختمها .
(٥) ابن السيد البطليوسى ، الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب : ٩٣ .

وألقيتها بالثنى من جنب كافر كذلك ألقى كل قِطٍ مُضلّلِ

وقد جاء ذكر القط أيضاً فى التنزيل الحكيم ، قال تعالى :

﴿ وقَالُوا : ربّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحِسَاب ﴾[1] .

٥

وضرب رابع أحسبه لا يقصّر عن الضروب السابقة كثرةً واتساعاً وخطراً ، وهو كتابة الرسائل بين الأفراد ، يحمّلونها أخبارهم ، ويضمّنونها ما تتطلبه شؤون حياتهم . ومن يقرأ أخبار الجاهلية فى كتب الأدب أو كتب التاريخ يعجب لكثرة رسائلهم آنذاك ، ويكدْ يلمس أن كتابة الرسائل فى الجاهلية أمر مألوف ميسور شائع فى شتى الشئون . وسنكتفى — توخياً للإيجاز — بذكر أمثلة قليلة ، ثم لا نثبت نصوصها بل نشير إشارة مقتضبة إلى موضوعها .

فمن رسائلهم التى كانوا يحمّلونها أخبارهم ما كتبه حنظلة بن أبى سفيان إلى أبيه — وكان أبو سفيان مع العباس بن عبد المطلب بنجران فى اليمن — فكتب حنظلة إليه يخبره بقيام محمد بن عبد الله يدعو إلى الله[2] .

ومنها كتاب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمرهم ، وكان كتابه إلى ثلاثة نفر : صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل ، يقول فيه : إن رسول الله قد أذن فى الناس بالغزو ، ولا أراه يريد غيركم ، وقد أحببت أن يكون لى عندكم يد بكتابى إليكم[3] .

(١) سورة « ص » آية : ١٦ .
(٢) الأغانى (دار الكتب) ٦ : ٢٥٠ .
(٣) المقريزى، إمتاع الأسماع : ٣٦٢ .

ومنها رسالة الوليد بن الوليد بن المغيرة إلى أخيه خالد بن الوليد ، وذلك أن خالداً خرج من مكة فراراً أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى عمرة القضية ، كراهةً للإسلام وأهله ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه الوليد ، وقال : لو أتانا لأكرمناه ، وما مثله سقط عليه الإسلام فى عقله . فكتب بذلك الوليد إلى خالد أخيه ، فوقع الإسلام فى قلب خالد ، وكان سبب هجرته[1] .

وقدم على الحارث بن مارية الغسَّانى الجفنى رجلان من بنى نَهْد بن زيد يقال لهما : حزن وسهل ابنا رزاح . وكان عندهما حديث من أحاديث العرب ، فاجتباهما الملك ، ونزلا بالمكان الأثير عنده ، فحسدهما زهير بن جناب الكلبى — وكان ينادم الحارث ويحادثه — فقال له إنهما عين عليه للمنذر الأكبر — جد النعمان بن المنذر — « وهما يكتبان إليه بعورتك وخلل ما يريان منك »[2] .

وكانوا يكتبون الرسائل يطلبون فيها العون والنصرة ، ومن أمثلة ذلك : كتاب قُصىّ بن كلاب إلى أخيه ابن أمه رزاح بن ربيعة بن حرام العذرى يدعوه إلى نصرته[3] ، وكتاب السموءل إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى يوصى بامرئ القيس لعله يمدّه بما يحقق له أمله[4] .

وكان المسافرون النازحون يكتبون إلى أهلهم بما يعرض لهم من أمور . فهذه أم سلمة لما قدمت المدينة ، وذلك قبل زواجها برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخبرتْهم أنها بنت أبى أمية بن المغيرة ، فكذبوها ، وقالوا : ما أكذب الغرائب ! « حتى أنشأ ناس منهم للحج ، فقالوا : أتكتبين إلى أهلك ؟ فكتبت معهم . فرجعوا إلى المدينة فصدقوها »[5] .

---

(١) نسب قريش : ٣٢٤ .

(٢) الأغانى (دار الكتب) ٥ : ١١٨ .

(٣) ابن هشام ، السيرة ١ : ١٢٤ ؛ وابن سعد ، الطبقات ١ : ٣٨ .

(٤) الأغانى (دار الكتب) ٩ : ٩٩ .

(٥) ابن سعد ، الطبقات ٨ : ٦٥ .

وكتب الزبرقان بن بدر إلى زوجته أن تحسن إلى الحطيئة وتستوصى به خيراً[١] .

وقد كانوا يبدأون كتبهم هذه بـ « باسمك اللهم » ، ويقال إن أمية بن أبي الصلت هو الذى علم أهل مكة ذلك فجعلوها فى أول كتبهم[٢] . فكانت قريش تكتب فى جاهليتها « باسمك اللهم » وكان النبى صلى الله عليه وسلم كذلك ، ثم نزلت سورة « هود » وفيها « بسم الله مجراها ومرساها » ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بأن يكتب فى صدر كتبه « بسم الله » ، ثم نزلت فى سورة « بنى إسرائيل » : « قل ادعو الله أو ادعوا الرحمن أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى » فكتب « بسم الله الرحمن » ثم نزلت فى سورة « النمل » : « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » فجعل ذلك فى صدر الكتب إلى الساعة[٣] .

٦

وضرب سادس من الكتابة لا ندرى عنه إلا النزر اليسير ، ولكنا مع ذلك لا نستبيح إغفاله لأننا فى هذا الاستقصاء إنما نثبت كل ما عثرنا عليه ، وعسى أن يكمل غيرنا ما فيه من نقص ، أو يفصّل ما فيه من إيجاز . وهذا الضرب السادس هو : مكاتبة الرقيق . وذلك أن يتفق العبدُ وسيّده على قدر معلوم من المال يكون فى الغالب مساوياً لثمنه ، فإذا أداه لسيده عتق وأصبح حرًّا .

وأغلب الظن أن هذا الاتفاق كان يتم فى بعض الأحوال شفاهاً لا تسجيل فيه ، ولكنه كان فى حالات أخرى يسجل ويكتب ، فقد روى أن أبا أيوب

---

(١) الأغانى ٢ : ١٨٠ .

(٢) الأغانى ٣ : ١٢٣ .

(٣) الصولى ، أدب الكتاب : ٣١ ؛ وابن السيد البطليوسى ، الاقتضاب ١٠٣ – ١٠٤ .

الأنصاريّ ندم على مكاتبة مولاه أفلح ، فأرسل إليه فقال : إنى أحب أن ترد إلىّ الكتاب ، وأن ترجع كما كنت . فقال لأفلح ولدُه وأهله : أترجع رقيقاً وقد أعتقك الله؟ فقال أفلح : والله لا يسألنى شيئاً إلا أعطيته إياه . فجاءه بمكاتبته فكسرها[١] .

وكذلك قال بكار بن محمد : « مكاتبة أنس بن مالك سيرينَ الصك فى صحيفة حمراء عندنا : هذا ما كاتب عليه . . . » قال بكار : الطينة التى فيها الخاتم وسط الصحيفة والكتاب حولها »[٢] .

والمرجح أن هذه المكاتبة لم تكن أمراً مستحدثاً فى الإسلام ، وإنما كانت من أمور الجاهلية التى أقرّها الإسلام وثبّتها ، وإنما كانت فى الجاهلية تتوقف على رغبة السيد أو المالك ، فقد يأذن لعبده أن يكاتبه وقد يمنعه . فلما جاء الإسلام فرض على المسلم أن يستجيب لعبده إذا أراد المكاتبة ، وذلك فى قوله تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم . . . »[٣]

ودليل وجود هذا الضرب من الكتابة فى الجاهلية ما تذكره كتب التفسير من أسباب نزول هذه الآية ، وذلك أنها نزلت فى غلام لحويطب بن عبد العزى يقال له : صبح — وقيل صبيح — طلب من مولاه أن يكاتبه ، فأبى ، فأنزل الله تعالى هذه الآية فكاتبه حويطب[٤] . فقد طلب الغلام المكاتبة إذن قبل نزول هذه الآية ، وذلك امتداد لما ألفوه قبل الإسلام ، ولكن مولاه أبى عليه ، حتى إذا نزلت الآية كاتبه . وبذلك أصبحت المكاتبة نظاماً مُلزِماً فى الإسلام .

---

(١) ابن سعد ٥ : ٦٢ .
(٢) ابن سعد ٧ : ٨٧ .
(٣) سورة النور ، آية : ٣٣ .
(٤) تفسير القرطبى ١٢ : ٢٤٤ .

٧

وثمة موضوعات أخرى للكتابة فرعية جزئية ، آثرنا أن نجمعها معاً ونقرنها فى عقال واحد . فمنها : النقش فى الخاتم . والخاتم على أنواع :

(١) فمنها الخاتم الذى تختم به الرسائل ، وقد ورد ذكره فى الشعر الجاهلى ، فمن ذلك قول امرئ القيس [١] :

تَرَى أَثَرَ القَرْحِ فى جِلْدِهِ   كَنَقْشِ الخَوَاتِمِ فى الجِرْجِسِ

والجرجس هنا : إما الطين الذى يختم به ، وإما الصحيفة نفسها .

وقال المخبل السعدى يذكر رجلاً أعطاه النعمان بن المنذر خاتمه — ويقال لخاتم الملك الحلق [٢] :

وأَعْطِيَ مِنَّا الحِلْقَ أَبْيَضُ مَاجِدٌ   رَدِيفُ مُلوك ما تغبُّ نوَافِلُهْ

ويقال إن أول من ختم الرسائل وطبعها عمرو بن هند [٣] وذلك بعد الذى حدث من المتلمس فى صحيفته .

وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم من وَرِق نقش عليه « محمد رسول الله » [٤] ؛ وكذلك اتخذ الصحابة رضوان الله عليهم نقوشاً مختلفة [٥] .

---

(١) ديوانه (السندوبى) : ١٠٢ ، وقد ورد البيت فى الاقتضاب للبطليوسى ص : ٩٧ هكذا :

ترى أثر القرح فى جلدتى   كما أثر الختم فى الجرجس

(٢) البطليوسى ، الاقتضاب : ٩٧ .

(٣) الاقتضاب : ١٠٤ .

(٤) الصولى ، أدب الكتاب : ١٣٩ ؛ والزمخشرى ، الفائق ٢ : ٧٢ — ٧٣ .

(٥) ابن سعد ، الطبقات ٣/١ : ١٩ — ٢٠ ، ١٥٠ ، ٢٨٠ ، ٣٠٠ ؛ وج ٦ : ٢٦ ، ٥١ ، ٩٦ ، ١٤٦ ؛ وج ٧ : ٥ ، ١١ ، ١٤ .

وكانت هذه النقوش إما كتابة عربية وإما علامات وصوراً [١].

(ب) ومن أنواع الخاتم: الطابع الذى تُطبع وتختم به أوعية الطعام أو الشراب ، قال الأعشى [٢] :

وَصَهْبَاء طَافَ يَهُودِيُّها   وأَبْرَزَهــا وعليها خَتَمْ

ومن أسماء هذا الضرب من خاتم الطعام : الرَّوْسَم ، وهى خشبة مكتوبة بالنقر يختم بها الطعام والأكداس . والرواسيم كتب كانت فى الجاهلية [٣].

ومن أنواع النقش : الحفر والكتابة على الخشب ، فقد روى أن أبا سفيان حين أراد الخروج إلى أحُد امتنعت عليه رجاله . فأخذ سهمين من سهامه ، فكتب على أحدهما : نعم ، وعلى الآخر : لا ، ثم أجالهما عند هُبَل ، فخرج سهم الإنعام ، فاستجرّهم بذلك [٤] !

ومن تمام الحديث عن النقش أن نشير إلى موضوع آخر كانوا ينقشونه وهو : شواهد القبور على الحجارة والصخور . وقد مر بنا طرف من ذلك حين تحدثنا عن نشأة الخط العربى ، ونزيد عليه ما ذكره ابن النديم [٥] من أن حجراً عُثر عليه بمسجد السور عند قبر المريين حينا حسم السيل عن الأرض ، وفيه كتابة نقشها أسيد بن أبى العيص تشبه أن تكون شاهد قبر .

* * *

بقى موضوع أخير هو كتابة النسب والشعر والأخبار : وقد أخرنا الإشارة إلى هذا الضرب من موضوعات الكتابة ، لأننا نقصد إلى أن نخصّه وحده بحديث واف سنجعله موضوع الباب الثانى .

* * *

---

(١) ابن سعد ٦ : ٩٦ ، ١٤٦ ، وج ٧ : ٥ ؛ ويذكر الأستاذ جروهمان أنه عثر على ورقة بردى كتبها عمرو بن العاص نفسه وعليها خاتمه وهو صورة ثور هائج ، انظر :
Dr. A. Grohmann, From The World of Arabic Papyri, Cairo, 1952, P. 115.

(٢) ديوانه ق : ٤ ، ب : ١٠ .

(٣) لسان العرب والتاج (رسم) .

(٤) الفائق ٣ : ١٩٠ .

(٥) الفهرست : ٨ .

أدوات الكتابة فى الجاهلية :

١

سيتناول حديثنا عن أدوات الكتابة ثلاث نقط ، الأولى : المواد التى كانوا يكتبون عليها ، والثانية : المواد التى كانوا يكتبون بها ، والثالثة . أنواع كتابتهم .

أما المواد التى كانوا يكتبون عليها فضروب شتى ، منها :

الجلد : وكانوا يسمونه : « الرّقّ » و « الأديم » و « القضيم » . والفرق بينها غير واضح من النصوص والروايات نفسها ، ولكن المعاجم تجعل « الرق » : الجلد الرقيق الذى يسوّى ويرقق ويكتب عليه ؛ وتجعل « الأديم » : الجلد الأحمر أو المدبوغ ؛ وتجعل القضيم : الجلد الأبيض يكتب فيه . وقد ورد ذكرها كلها فى الشعر الجاهلى .

فنى الرقّ : قول طرفة[1] :

كَسُطُورِ الرَّقِّ رَقَّشَــهُ   بالضُّحَى مُرَقِّشٌ يَشِمُهْ

وقول معقل بن خويلد الهذلى[2] :

وإنى كما قال مُمْلِي الكِتا   بِ فى الرَّقِّ إذ خطَّه الكاتِبُ

وقول الأخنس بن شهاب التغلبىّ[3] :

---

(١) ديوانه — شالون سنة ٩٠٠ ص : ٦٨ .
(٢) ديوان الهذليين ٣ : ٧٠ .
(٣) الآمدى ، المؤتلف والمختلف : ٢٧ .

لابنَةِ حِطَّانَ بنِ عَوْفٍ مَنَــازِلٌ ... كَما رَقَّشَ العُنْوَانَ فى الرَّقِّ كاتِبُ

وقول حاتم الطائى [١] :

أتَعْرِفُ أطلالاً ونُؤْياً مُهَدَّمَا ... كَخَطِّكَ فى رَقٍّ كتاباً مُنَمْنَمَا

وقد جاء ذكر « الرق » فى القرآن الكريم ، قال تعالى[٢] :

﴿والطُّورِ وكِتابٍ مَسْطُورٍ فى رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ .

وفى « الأديم » : يقول المرقش الأكبر [٣] :

الدَّارُ وَحْشٌ والرُّسُومُ كَمَا ... رَقَّشَ فى ظَهْرِ الأَديمِ قَلَمْ

وقد ورد ذكر الأديم فيما رُوِىَ لنا من كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم : « عن رافع بن خديج . . . فإن المدينة حرام ، حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مكتوب عندنا فى أديم خولانىّ »[٤] . وذكر ابن سعد[٥] أن النبى صلى الله عليه وسلم أقطع العباس السلمىّ ركيةً بالدثينة ، قال أبو الأزهر : وكان نائل — حفيد العباس السلمى — نازلاً بالدثينة وكان أميرهم ، فأخرج إلىّ حقةً فيها كراع من أدَم أحمر فكان فيه ما أقطعه » . وكانوا يكتبون الوحى فى زمن رسول الله على الأديم « قال عثمان :

. . . فأعزم على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله شىء لما جاء به ،

---

(١) ديوانه (لندن) : ٢٣

(٢) سورة الطور ، آيات : ١ — ٣ .

(٣) البيان والتبيين : ٣٧٥ ؛ الأغانى ٦ : ١٢٧ ؛ معجم المرزبانى ٢٠١ .

(٤) مسند أحمد ٤ : ١٤١ ؛ وانظر تقييد العلم : ٧٢ .

(٥) الطبقات ٧ : ٥٤ .

وكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن . . . (١)، وذكر عمر بن الخطاب أنه انتسخ — على عهد رسول الله — كتاباً من أهل الكتاب ثم جاء به فى أديم(٢) . وكذلك كتب سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص ديناً على نفسه فى قطعة أديم ابتغاها عند خرّاز قريب من بيته(٣) .

وفى القضيم : يقول النابغة الذبيانى(٤) :

كَأَنَّ مجرَّ الرَّامِسَاتِ ذُيُولَها عليْه قَضِيمٌ نَمَّقَتْهُ الصَّوانِعُ

وقد ذكر شارح الديوان الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب أن القضيم هو الأديم المخروز ، ثم قال إن القتبى قال : القضيمة : الصحيفة البيضاء تقطع ثم ينقش بها النطع .

ويقول امرؤ القيس(٥) :

وَعَادَى عِداءً بيْنَ ثَوْرٍ ونَعْجَةٍ وَبَيْنَ شَبُوبٍ كالْقَضِيمَةِ قرْهبِ

ويقول زهير(٦) :

كَأَنَّ دِماءَ المُؤْسِداتِ بنَحرِها أَطِبَّةُ صِرْفٍ فى قَضيمٍ مُسرَّدِ

والقضيم : الجلد الأبيض ، فلعله شبه طرائق الدم بنحرها بطرائق جلد أبيض مكتوب عليه أو منقوش عليه باللون الأحمر .

وقد ورد أن الوحى كان يكتب لعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على

---

(١) السجستانى ، المصاحف : ٢٣ — ٢٤ .
(٢) تقييد العلم : ٥٢ .
(٣) المصعب الزبيرى ، نسب قريش : ١٧٧ —١٧٨ .
(٤) ديوانه (خمسة دواوين) ٥٠ . الرامسات . الرياح .
(٥) ديوانه (مطبعة هندية ١٩٠٦) : ٨٦، الشبوب والقرهب : الثور الفتى الكبير .
(٦) ديوانه (ثعلب) : ٢٣١ . المؤسدات : المغريات بالصيد . أطبة (مفردها : طبابة) : السيور والجلود . صرف : صبغ أحمر تصبغ بشرك النعال . المسرد : المخروز .

القُضُم ، قال الزهرى: قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن فى العسب والقضم والكرانيف [١] .

قال الزمخشرى فى تفسير الكلمة : القضم جمع قضيم ، وهى جلود بيض ، ثم استشهد ببيت النابغة الذى ذكرناه .

وربما كتبوا على جلد لم يُعَدّ للكتابة ، وإنما تلجئهم الحاجة الملحة إلى أن يكتبوا عليه ، قال سعيد بن جبير « كان ابن عباس يملى علىّ فى الصحيفة حتى أملأها وأكتب فى نعلى حتى أملأها »[٢] .

٣

القماش : وهو إما حرير وإما قطن ، ويطلقون على الصحف إذا كانت من القماش: المهارق ، مفردها: المُهْرَق . قال الأصمعى[٣] « هو فارسى معرب ، وكان أصله خرَق حرير تصْقَل وتكتب فيها الأعاجم ، تسمى : مهركرد ، فأعربته العرب وجعلته اسماً واحداً فقالوا : مهرَق . . . وقال الأصمعى أيضاً: المهارق :كرابيس كانت تصْقَل بالخرز ويكتب فيها، فأراد: مهركرد، أى : صقل به » . والكرابيس جمع كرباس — بالكسر — : ثوب من القطن الأبيض ، معرب ، فارسيته بالفتح[٤] .

وقال التبريزى[٥] : « المهارق : الصحف ، واحدها : مهرق ، فارسى معرب ، خرزة يصقلون بها ثياباً كان الناس يكتبون فيها قبل أن يصنع

(١) الفائق ٢ : ١٥٠ ، والكرانيف (مفردها : كرنافة ، بضم الكاف وكسرها) : أصول السعف الغلاظ العراض اللاصقة بالجذع .

(٢) تقييد العلم:١٠٢ .

(٣) المفضليات (ليال) : ٢٥ .

(٤) القاموس (كرباس) .

(٥) شرح المعلقات : ٢٦٨ — ٢٦٩ .

القراطيس بالعراق »، وقال الزوزني (١) : « المهارق : يأخذون الخرقة ويطلونها بشيء ثم يصقلونها ثم يكتبون عليها شيئاً » . وقال ابن السكيت(٢) : « المهرق : ثوب جديد أبيض يسقى الصمغ ويصقل ثم يكتب فيه » .

ويبدو لنا أن هذا الضرب من مواد الكتابة يحتاج إلى إعداد خاص فكان عزيزاً نادراً غالي الثمن ، ولذلك كانوا لا يكتبون فيه إلا الجليل من الأمر، قال الجاحظ(٣) : « لا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين أو كتب عهود وميثاق وأمان » .

وقد ورد ذكر المهارق في الشعر الجاهلي ، فمن ذلك ما ذكرناه من بيتي الحارث بن حلزة في معلقته :

واذكروا حِلفَ ذِي المَجَازِ وما ... قُدِّمَ فيه ، العُهودُ والكُفَلاء

حَذَرَ الجَوْرِ والتعدِّي ، وهل ... يَنْقُضُ ما في المهارقِ الأهواء

وقال الحارث أيضاً(٤) :

لمن الديارُ عَفَوْنَ بالحُبُسِ ... آياتُها كمَهَارِقِ الفُرْسِ

وقال الأعشى (٥) :

ربِّي كَرِيمٌ لا يُكَدِّرُ نِعْمَةً ... وإذا يُنَاشَدُ بالمَهَارِقِ أَنْشَدا

وقال الأعشى أيضاً(٦) :

(١) المعلقات: ٢٠٠ – ٢٠١ .
(٢) ابن سيدة ، المخصص ١٣ : ٨ – ٩ .
(٣) الحيوان ١ : ٦٩ – ٧٠ .
(٤) المفضليات : ٢٥ .
(٥) ديوانه ق ٣٤ ب ١٣ .
(٦) الصولي،أدب الكتاب : ١٠٦ ، ولم أجده في ديوانه . والسملق (وزان جعفر) : القاع الصفصف .

سَلَا دارَ لَيْلَى : هَل تُبِينُ فتَنْطِقُ وَأنّى تَرُدُّ القولَ بَيْضَاءُ سَمْلَقُ
وَأنّى تَرُدُّ القولَ دارٌ كأنّهـــا لِطُولِ بِلاها والتّقَادُمِ مُهْرَقُ

وقال شُتَيم بن خويلد الفزاري[1] :

تَسْمَعُ أصواتَ كُدْرِىٍّ الفِراخ بهِ مثل الأعاجمِ تُغْشِى المُهرَقَ القَلَمَا

وقال الأسود بن يعفر :

سُطُورُ يَهُودِيَّيْنِ فى مُهْرَقَيْهِما مُجِيدَيْنِ مِن تَيْماءَ أوْ أهْلِ مَدْيَنِ

وقال سلامة بن جندل[2] :

لبس الرواملُ والجديدُ بِلاهما فَتَرِكْنَ مِثْلَ المُهْرَقِ الأخْلاقِ

وقال سلامة أيضاً[3] :

لِمَنْ طَلَلٌ مثلُ الكِتابِ المُنَمَّقِ خَلَا عهدُهُ بين الصُّلَيْبِ فَمُطْرَقِ
أكَبَّ عليـــه كاتبٌ بدَوَاتِهِ وَحَادِثُه فى العَيْنِ جِدةُ مُهْرَقِ

٤

النبات — وأشهر أنواعه : العسيب ، وجمعه : عسب ، بضمتين — وهو السعفة أو جريدة النخل إذا يبست وكشط خوصها ، فمن الشعر الجاهلى الذى ورد فيه ذكر العسيب قول لبيد يصف كاتباً[4] :

---

(١) النقائض : ١٠٦ .
(٢) ديوانه : ١٥ .
(٣) ديوانه : ٥ .
(٤) ديوانه — الأول — ط . فينا سنة ١٨٨٠ ق ١٣ ب ٢ .

مُتَعــوِّدٌ لَحِنٌ يُعِيدُ بكَفِّهِ قَلمًا على عُسُبٍ ذَبُلْنَ وَبَان

وقول امرئ القيس [١] :

لِمَنْ طَلَلٌ أبْصَرْتُه فَشَجَانى كَخَطِّ الزَّبورِ فى العَسِيب اليمانى

وقريب من العسيب : الكُرْنافة ، وجمعها : كرانيف ، وهى أصول السعف الغلاظ العراض اللاصقة بالجذع [٢] . وقد ورد أن الوحى كان يكتب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على العسب والكرانيف [٣] .

ومما يتصل بهذا الكتابةُ على الخشب ، والخشب على أنواع أيضاً ، منه :

الرحل : قال زيد بن ثابت : فاتبعتُ أجمع القرآن من الرقاع والأكتاف والأقتاب . . . [٤] . فالأقتاب : جمع قتب — بفتحتين أو بكسر فسكون — وهو الإكاف الصغير على قدر سنام البعير .

وقد رُوِى لنا أيضاً أن المرقش بن سعد بن مالك كتب على رحل أبياتاً من شعره [٥] . وقد استمر الرحل أداة من أدوات الكتابة فى صدر الإسلام ، فهذا سعد بن سعد بن مالك — وهو أنصارىّ شهد بدْراً — أوصى للنبى صلى الله عليه وسلم فكتب وصيته فى مؤخر رحله ، فأوصى له برحله وراحلته وخمسة أوسق من شعير . . . [٦] .

بل لقد قال سعيد بن جبير [٧] : كنت أسمع من ابن عمر وابن عباس الحديث بالليل فأكتبه فى واسطة رحل حتى أصبح فأنسخه .

---

(١) ديوانه : ١٢٠ .
(٢) القاموس (كرب ، وكرناف) .
(٣) الفائق ٢ : ١٥٠ .
(٤) مصاحف السجستانى : ٢٠ .
(٥) المفضليات: ٤٥٩ — ٤٦٠ ، والأغانى ٦ : ١٣٠ .
(٦) ابن سعد ٣/٢ : ١٥١ .
(٧) تقييد العلم: ١٠٢.

وواضح من هذه الأخبار أن الرحل لم يكن أداة ثابتة من أدوات الكتابة ، إنما كان مما يضطر إليه المرء اضطراراً حين لا يجد غيره يكتب عليه .

ومن أنواع الخشب التى كانوا يكتبون عليها : الروسم . وقد مر بنا أن الروسم خشبة مكتوبة بالنقر يختم بها الطعام والأكداس فى الجاهلية[١] .

ومن أنواع الخشب التى كانوا أحياناً يكتبون عليها أو يخطون علامات تميزها : السهام ، وقد مر بنا خبر أبى سفيان حين أراد الخروج إلى أحُد فامتنعت عليه رجاله فأخذ سهمين من سهامه ، فكتب على أحدهما : نعم ، وعلى الآخر : لا . ثم أجالهما عند هُبَل ، فخرج سهم الإنعام فاستجرَّهم بذلك[٢] .

وقد استمروا يكتبون أحياناً على هذا الضرب من الخشب بعد ذلك ، فالحكم بن عبدل الشاعر كان يكتب حاجته على عصاه ويبعث بها مع رسله فلا يحبس له رسول ، ولا تؤخر له حاجة[٣] .

وقد رأيت كلمة « ألواح » تتردد فى بعض ما جمعت من أخبار ، منها : ما ذكره عبيد الله بن أبى رافع قال : كان ابن عباس يأتى أبا رافع فيقول : ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كذا ؟ ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كذا ؟ ومع ابن عباس ألواح يكتب فيها[٤] .

ومنها ما قاله ابن أبى مليكة[٥] : رأيتُ مجاهداً يسأل ابنَ عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه ، فيقول ابن عباس : اكتب . قال : حتى سأله عن التفسير كله .

---

(١) تاج العروس (رسم) .
(٢) الفائق ٣ : ١٩٠ .
(٣) الأغانى ٢ : ٤٠٤ .
(٤) تقييد العلم : ٩١ – ٩٢ ، وانظر أيضاً ص : ١٠٩ .
(٥) الطبرى ، التفسير ١ : ٣١ .

ولست أدرى ما هذه الألواح ؟ أمن خشب هى ؟ أم من جلد ؟ أم أنها من عظم عريض ؟ أم لعلها من رصاص كما ذكر الفيروزبادى عن ألواح الرقيم [١] .

٥

العظام — وأشهر أنواع العظام التى كانوا يكتبون عليها : الكتف والأضلاع وكان يكتب عليها الوحى ، قال زيد بن ثابت[٢] « . . . فجعلت أتتبع القرآن من صدور الرجال ومن الرقاع ومن الأضلاع . . . » وقال زيد أيضاً[٣] : لما نزلت هذه الآية « لا يستوى القاعدون من المؤمنين » دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتف ، ودعانى ، وقال : اكتب . . . ويروى أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ثقل دعا عبد الرحمن بن أبى بكر فقال : ائتنى بكتف حتى أكتب لأبى بكر كتاباً لا يختلف عليه [٤] .

وكان صحابة رسول الله يكتبون كذلك على الكتف ، قال عمر بن الخطاب لابنه عبد الله[٥] : يا عبد الله ائتنى بالكتف التى كتبت فيها شأن الجدّ بالأمس . . . وعن هانئ قال[٦] : كنت عند عثمان رضى الله تعالى عنه ، وهم يعرضون المصاحف فأرسلنى بكتف شاة إلى أبىّ بن كعب فيها : « لم يتسن » و « فأمهل الكافرين » و « لا تبديل للخلق » . قال فدعا بالدواة

---

(١) القاموس (رقم)

(٢) أبو عمرو الدانى ، المقنع فى معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار (ط . الترقى بدمشق ١٩٤٠) ص : ٣ .

(٣) ابن سعد ٤/١ : ١٥٤ .

(٤) ابن سعد ٣/١ : ١٢٨ .

(٥) ابن سعد ٣/١ : ٢٤٦ و ٢٤٧ .

(٦) ابن فارس ، الصاحبى : ١٠ .

فحا إحدى اللامين وكتب «لخلق الله» ، ومحا «فأمهل» وكتب «فمهّل» ، وكتب «لم يتسنه» ألحق فيها هاء .

واستمروا أيضاً يكتبون فى الكتف بعد ذلك بدهر : رُوِىَ أن عمر بن أبى ربيعة وابن أبى عتيق كانا جالسين بفناء الكعبة إذ مرت بهما امرأة من آل أبى سفيان ، فدعا عمر بكتف فكتب إليها شعراً[١] . بل لقد بقى العظم مادة من مواد الكتابة حتّى العصر العباسى الأول — فى النصف الأخير من القرن الثانى الهجرى — قال الشافعى[٢] . . . فكنت أجالس العلماء وأحفظ الحديث أو المسألة ، وكان منزلنا بمكة فى شِعْب الخَيْف ، وكنت أنظر إلى العظم يلوح ، فأكتب فيه الحديث أو المسألة ، وكانت لنا جرة قديمة ، فإذا امتلأ العظم طرحته فى الجرة .

وقال الشافعى كذلك[٣] : طلبت هذا الأمر عن خفة ذات يد ، كنت أجالس العلماء وأتحفظ ، ثم اشتهيت أن أدوّن ، وكان لنا منزل بقرب شعب الخَيْف ، وكنت آخذ العظام والاكتاف فأكتب فيها ، حتّى امتلأ فى دارنا من ذلك حُبّان .

٦

الحجارة : وقد مضى لنا من القول فى الكتابة والنقش على الحجارة والصخور ما حسبنا أن نشير إليه هنا إشارة عابرة مذكرين به ، فقد فصّلنا فيه الكلام فى موطنين ، الأول : عند حديثنا عن نشأة الخط العربى وتطوره ، والثانى : عند حديثنا عن موضوعات الكتابة . ونزيد على ما قدمنا

(١) الأغانى ٩ : ٢٤٠ .
(٢) ابن أبى حاتم ، آداب الشافعى ومناقبه : ٢٤ .
(٣) المصدر السابق : ٢٥ .

أن الكتابة والنقش على الحجر كانا يسميان : الوحى ، قال لبيد[١] :

فَمَدَافِعُ الرَّيَّانِ عُرِّيَ رَسْمُهَــا خَلَقاً كما ضَمِنَ الوحِيَّ سِلَامُهَا

وقال زهير[٢] :

لِمَنِ الدِّيارُ غَشِيتُهَا بالْفَــدْفَدِ كَالْوَحْيِ فى حَجَرِ المَسِيلِ المُخْلِدِ

وقال أيضاً[٣] :

لِمَنْ طَلَلٌ كالوَحْيِ عَافٍ مَنَازِلُهْ عَفَا الرَّسُّ مِنْهُ فَالرُّسَيْسُ فَعَاقِلُهْ

وكانت آيات القرآن تكتب ــ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ على حجارة رقيقة ، قال زيد بن ثابت حينما أمره أبو بكر أن يجمع القرآن[٤] : فجعلت أتتبعه من الرقاع والعسب واللخاف . واللخاف : حجارة بيض رقاق ، واحدته : لخفة ، بفتح اللام . قال ابن النديم[٥] « والعرب تكتب فى أكتاف الإبل ، واللخاف ، وهى الحجاة الرقاق البيض ،وفى العسب عسب النخل » .

ومن تمام الحديث عن النقش على الحجارة أن نشير إلى النقش والكتابة على البناء . فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدخل الكعبة يوم الفتح حتى أمر بالزخرف فمحى ، وأمر بالأصنام فكسرت ــ أراد النقوش والتصاوير[٦] . وقد روى كذلك أن ابن الكلبى أخذ بعض علمه بأنساب

---

(١) شرح المعلقات للتبريزى : معلقة لبيد . الوحى (بضم الواو وتشديد الياء) جمع ، مفردها الوحى (بفتح الواو وسكون الحاء) وهو : الكتابة . السلام : الحجارة ، واحدتها : سلمة (بفتح السين وكسر اللام) .

(٢) ديوانه (ثعلب) : ٢٦٨ . الفدفد : الأرض المرتفعة المستوية . المخلد : المقيم .

(٣) ديوانه : ١٢٦ .

(٤) الفائق ٢ : ١٥٠ .

(٥) الفهرست : ٣١ .

(٦) الفائق ١ : ٥٢٥ .

العرب مما وجده على جدران كنائس الحيرة[١] ، مما سنفصّله فى حديثنا عن تدوين الشعر الجاهلى فى الباب الثانى .

٧

الورق : وقد آثرنا أن نؤخر الحديث عن الورق ، وكان حقه التقديم ، وذلك لأن حديثنا عنه قد يطول ويتشعب . فمن المعروف المتداوَل عند المعنيين بمثل هذه الأبحاث أن الورق لم ينتشر استخدامه للكتابة إلا منذ أواخر القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ، وذلك أن الجيوش الإسلامية انتصرت فى سنة ١٣٣ هجرية (٧٥١ م) بقيادة والى سمرقند — على إخشيد فرغانة الذى كان يناصره ملك الصين . وقد أسر المسلمون عشرين ألف رجل فيهم صينيون كانوا يعرفون صناعة الورق . ويقال إن الصينيين عرفوا هذه الصناعة منذ مطلع القرن الثانى الميلادى . فأدخل هؤلاء الأسرى صناعة الورق إلى العالم الإسلامى بعد أسرهم بسنوات قليلة ، ثم انتشرت بعد ذلك هذه الصناعة حتى دخلت أوربا بعد قرون[٢] .

فهذه الرواية التاريخية إذن لا تشير إلا إلى صناعة الورق ، ونحن إذا سلمنا بصحتها — وليس عندنا ما يضعّفها غير ما أورده ابن النديم من حديث عن الورق الخراسانى يذكر فيه تاريخ معرفة العرب به ، وهو حديث يشتمل على هذه الرواية التاريخية ، ولكنه يذكر معها أقوالاً أخرى متناقضة تجعلنا نتوقف عن قبول أحدها ، قال[٣] « فأما الورق الخراسانى فيعمل من الكتان ،

---

(١) الطبرى ، تاريخ ٢ : ٣٧ .

(٢) انظر لذلك :

Dr. A. Grohmann, From The World of Arabic Papyri, Cairo 1952, P. 51.

وكذلك دائرة المعارف البريطانية مادة Paper

(٣) الفهرست : ٣١ .

ويقال إنه حدث أيام بنى أمية ،وقيل فى الدولة العباسية ، وقيل إنه قديم العمل ، وقيل إنه حديث ، وقيل إن صُنَّاعاً من الصين عملوه بخراسان على مثال الورق الصينى . . . » — نقول إن هذه الرواية التاريخية عن الورق الخراسانى والصينى — على فرض صحّتها — لا تشير إلا إلى صناعة الورق ، ولا تعنى أن الورق لم يكن معروفاً قبل هذا التاريخ فى بلاد العرب — وإنْ لم يكن يُصْنَع فيها . فإذا كانت بعض البلاد المجاورة للصين كالهند وجارتها بلاد فارس قد عرفتا الورق الصينى — سواء أكانت صنعته فى بلادها أم اجتلبته مصنوعاً من الصين — فليس ثمة ما يمنع أن يعرفه العرب فى جاهليتهم ، وقد كانت صلاتهم التجارية وثيقة بفارس والهند بل بالصين نفسها . على أن هذا ليس فرضاً عقليًّا مجرداً حسبُ بل إننا عثرنا على ما نسترْوح منه أنه يدعم هذا الفرض :

فابن النديم يذكر أنه رأى أوراقاً يحسبها من ورق الصين بخط يحيى ابن يعمر[1] ، ويحيى بن يعمر توفى فى سنة ٩٠ للهجرة ، وقد يكون كتب هذه الأوراق قبل وفاته بسنوات ، وبذلك يكون العرب قد عرفوا الورق الصينى — على ما يروى ابن النديم — قبل أسر هؤلاء الصينيين بنحو نصف قرن على الأقل .

وليس عندنا ما نزيده على ما قدمناه عن الورق الصينى ، وإن كان لنا حديث طويل عن الورق بعامة . فكلمة « الورق » تتردد فى الشعر الجاهلى وأخبار صدر الإسلام ، وقد ذِهب بعضهم إلى أنها تعنى الجلد الرقيق الذى يشبه فى رقته ورق الشجر ، وليس عندنا ما يدعم هذا المذهب ، وهو فى رأينا لا يعدو أن يكون استنتاجاً استنتجه من ذهب إليه بعد أن فرض أن العرب فى جاهليتهم لم يعرفوا الورق . وهذا — كما نرى — فرض على فرض ، واستنتاج مبنىٌ على استنتاج .

وسأعرض بعض ما عثرت عليه من أخبار الصدر الأول ومن الشعر الجاهلى

---

(١) الفهرست : ٦١ .

مما فيه ذكر للورق ، وسأبدأ برواية تتصل بعهد عثمان بن عفان يُفرّق فيها بين الورق والأديم ، وبذلك يقوى ما ذكرناه آنفاً من أنهما شيئان لا شيء واحد . وذلك أن عثمان بن عفان عزم على كل رجل معه من كتاب الله شيء أن يذهب به إليه «وكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن [١]» .

وقال عمرو بن نافع مولى عمر بن الخطاب[٢] «كنت أكتب المصاحف في عهد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستكتبتني حفصة بنت عمر مصحفاً لها . . . فلما بلغت إليها حملت الورقة والدواة» . وسئل ابن الحنفية عن بيع المصاحف فقال[٣] «لا بأس إنما تبيع الورق» . وكان مَطَر بن طهمان مولى عليّ بن أبي طالب يُعْرَف بمطرٍ الورّاق[٤] . وقال أبو عبيدة إن المهلب قال لبنيه في وصيته [٥] «يا بَنِيّ لا تقوموا في الأسواق إلا على زرّاد أو ورّاق» .

وهذه أحاديث قد تطول ، ولا غَناء في سردها ، وأهمها عندنا هو الخبر الأول الذي فُرّق فيه بين الورق والأديم ؛ وسنذكر ثلاثة شواهد فيها ما يقوّي الخبر الأول في التفريق بين الجلد والورق . أما الأول فقول عبد الله بن عامر لمعاوية بن أبي سفيان حينا طلق هند بنت معاوية ، قال له[٦] : «فرأيت أن أردها إليك لتزوّجها فتى من فتيانك كأن وَجهَهُ وَرَقةُ مصحَف» . وأما الثاني فقول حسان بن ثابت[٧] :

عَرَفْتُ دِيارَ زَينَبَ بالكَثِيبِ ... كخَطِّ الوَحْيِ في الوَرَقِ القَشِيبِ

(١) المصاحف : ٢٣ – ٢٤ .
(٢) المصاحف : ٨٦ .
(٣) المصاحف : ١٧٥ .
(٤) المصدر السابق : ١٧٧ ، وانظر ترجمة مطر في التهذيب ، وفي ابن سعد ٧ / ٢ / ١٩ .
(٥) الجاحظ ، الحيوان ١ : ٥٢
(٦) نسب قريش : ١٤٩ .
(٧) ديوانه (مطبعة النيل ١٩٠٤) : ١١ .

والثالث قول أبى ذؤيب [1] :

فَنَمْنَمَ فى صُحُفٍ كالريَا   طِ فيهنَّ إرثُ كِتابٍ مَحِيُّ

فما نحسب أن ابن عامر كان يقصد إلى تشبيه وجه ذلك الفتى بالجلد ، وإلا لكان وجهاً صفيقاً متيناً !! ولكنه — فى رأينا — قصد إلى أن ذلك الوجه فى نضارته ورونقه وبهائه وصفائه ومائه ، وما شئتَ من هذه الأوصاف — يشبه الورقة ، ولا بد أن تكون هذه الورقة التى يشبَّه بها هذا الوجه فيها من هذه الصفات النضرة الصافية الرقيقة ما يصح معه التشبيه . ونرى كذلك فى وصف حسان للورق بأنه « ورق قشيب » ، وتشبيه أبى ذؤيب الصحف بأنها « كالرياط » ما يتسق مع ما قدمناه عن قول ابن عامر .

فقد استقام عندنا إذن أن الورق فى هذه الأمثلة كلها شىء آخر غير الجلد أو الأديم ، شىء أرقّ وأصفى ، فما عسى هذا الورق أن يكون ؟

إذا كنا ما زلنا فى شك من أمر معرفة الجاهليين بالورق الصينى أو الخراسانى بعد الذى قدمناه من حديث عنه ، فإننا نكاد نظن أن عرب الجاهليه قد عرفوا ورق البردى . فقد رُوى أن خالد بن الوليد كتب كتاب الأمان لأهل الشام فى سنة ٦٣٥ م على القرطاس [2] . ويسمى ابن النديم ورق البردى القرطاسَ المصرى والطومار المصرى [3] . والقرطاس وارد فى الشعر الجاهلى وأخبار الصحابة ، ولكننا لا نستطيع أن نقطع بأن المقصود بالقرطاس فيها كلها هو ورق البردى ، لأن من معانى القرطاس : قطعة من أديم تنصب للنضال فإذا أصابه الرامى قيل : قرطس [4] .

---

(١) ديوان الهذليين ١ : ٦٤

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان (مصر) : ١٢٧ .

(٣) الفهرست : ٣١ .

(٤) القاموس واللسان (قرطس) .

فالقرطاس ، فى رأينا ، كلمةٌ عامةٌ تطلق على كثير من مواد الكتابة ومنها ورق البرْديّ . ولعل من الأمثلة التى يرد فيها القرطاس بمعنى ورق البرديّ خاصةً قول طرفة يصف ناقته[١] :

وَخَدٌّ كقِرْطاسِ الشّآمى وَمِشْفَرٌ كَسِبْتِ اليَمَانِى قِدُّه لم يُجَرَّدِ

قال الأعلم فى شرحه الديوان «وقوله: وخد كقرطاس الشآمى، شبه بياض خدها ببياض القرطاس، ويقال : أراد أنه عتيق لا شعر فيه، وإنما قال: الشآمى، لأنهم نصارى أهل كتاب ». وقال أبو زيد القرشى[٢] : « شبه خدها بالقرطاس وهو الورق من جهة الشام » .

ونحن نرجح أنه أراد بالقرطاس هنا ورق البردى — لا الجلد — لأنه ذكره فى مقابل « السبت » وهو جلد البقر المدبوغ بالقرظ ، فحينما أراد تشبيه خدها شبهه فى نقائه وبياضه بالورق ، ثم شبه مشافرها بالجلد المدبوغ بالقرظ .

ولعل من الأمثلة التى يرد فيها القرطاس بمعنى الورق ما ذُكر من أن أبا بكر الصديق « كان جمع القرآن فى قراطيس » .

فنحن نرجح إذن أن المقصود بالورق وبالقرطاس — فى بعض أنواعه — ورق البردى . وحسبنا هذا القدر من الحديث عن الورق .

• • •

فها نحن نرى أن العرب لم يغادروا وسيلة يكتبون عليها إلا التمسوها ، سواء عندهم أن تكون قد أعدّت للكتابة وأن تكون عارضة طارئة . فكتبوا على ورق البردى ، والحرير الناعم ، والقطن المصقول ، والجلد الرقيق ، وكتبوا على السعف والخشب والعظام والحجارة ، بل لقد كتبوا حين ألجأتهم

---

(١) ديوانه ١٩ — ٢٠ . المشفر من البعير كالشفة من الإنسان . السبت : جلود البقر المدبوغة القد : ما قد من الجلد ، وهو هنا : النعل نفسها . وخص اليمانى لأنهم ملوك ونعالهم أحسن النعال .

(٢) جمهرة أشعار العرب : ١٧٧ .

الضرورة على أكفهم ونعالهم ، قال سعيد بن جبير[١] « كنت أكتب عند ابن عباس فى صحيفتى حتى أملأها ، ثم أكتب فى ظهر نعلى ، ثم أكتب فى كفى » . وعن عبد الله بن حنش قال[٢] « رأيتهم يكتبون على أكفهم بالقصب عند البَرَاء » . وقال معمر[٣] إن الزهرى ربما كتب الحديث فى ظهر نعله مخافة أن يفوته .

٨

ولقد كانت لهذه المواد المكتوبة أسماء عامة يطلقونها عليها ليدلوا على المكتوب وما كتب عليه معاً ، لا يخصصون بذلك نوعاً بعينه ، ولا يقصدون إلى ضرب منها بذاته . ومن أشهر هذه الألفاظ وأكثرها وروداً :

١ ــ الصحيفة : فنحن نعثر على هذه الكلمة فى القرآن الكريم ، وفى كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبار صحابته رضوان الله عليهم ، وفى الشعر الجاهلى ، ولكننا لا نستطيع أن نصرفها إلى مادة بعينها من هذه المواد التى عددناها للكتابة ، وإنما هى لفظة قد تدل على أىّ من هذه الأنواع ، فقد تكون جلداً أو قماشاً أو نباتاً أو حجراً أو عظماً أو ورقاً .

فى القرآن الكريم وردت ثمانى مرات كلها بصيغة الجمع « صحف[٤] » . وأما ورود هذه الكلمة فى كتب رسول الله والصحابة فيفوت الحصر ، ومن أمثلته ما جاء فى كتابه صلى الله عليه وسلم « بين المؤمنين والمسلمين من قريش

---

(١) تقييد العلم : ١٠٢ .
(٢) تقييد العلم : ١٠٥ .
(٣) المصدر السابق : ١٠٧ .
(٤) التكوير ١٠ ، الأعلى ١٨ ، ١٩ ، النجم ٣٦ ، عبس ١٣ ، طه ١٣٣ ، البينة ٢ ، المدثر ٥٢ .

وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم » . فقد تكررت فيه كلمة الصحيفة سبع مرات كلها بلفظ الإفراد(١) .

ومما وردت فيه من الشعر الجاهلي : أبيات لقيط (٢) وأبي ذؤيب(٣) وعلباء ابن أرقم(٤) وقيس بن الحطيم(٥) . وقد أشرنا إلى هذه الأبيات في مواطن سابقة .

٢ ــ الكتاب : وهي لفظة قد تكون أعمّ من الصحيفة ، وأكثر منها شيوعاً فيا نقرأ ، إذ أنها مصدر كالكتابة ، ولكنها أطلقت على الشيء المكتوب حتى كادت لا تنصرف إلا إليه . وقد وردت في القرآن الكريم إحدى وستين ومائتي مرة ، إفراداً وجمعاً(٦) . ووردت أيضاً في كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ، وحسبنا أن نشير إلى الكتاب نفسه الذي ذكرناه منذ قليل والذي كتبه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود فقد وردت فيه كلمة « الكتاب » مرتين . واللفظة من الكثرة والشيوع في كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبار صحابته بما لا مجال لتتبعه والاستكثار بسرد أمثلته .

أما في الشعر الجاهلي فقد جاءت في شعر لتميم بن أبيّ بن مقبل العامريّ قال (٧) :

منهنّ معروف آيات الكتاب وقد تعتاد تكذب ليلى ما تُمَنِّينا

وقال لقيط بن يعمر الإياديّ (٨) :

---

(١) الدكتور محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية : ١ – ٧ .
(٢) الشعر والشعراء ١ : ١٥٢ .
(٣) ديوان الهذليين ١ : ٦٤ .
(٤) الأصمعيات : ٦٣ .
(٥) ديوانه : ١٩ .
(٦) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن من ص ٥٩٢ إلى ص ٥٩٥ .
(٧) جمهرة أشعار العرب : ٣١٨ .
(٨) مختارات ابن الشجري : ٧ .

هذا كتابى إليكم والنذير لكم لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا

وقال عَبيد بن الأبرص[١] :

لمن الدّارُ أقفرت بالجَناب غيرَ نُؤْيٍ وَدِمْنَةٍ كالكتاب

وقال عدىّ بن زيد[٢] :

نعْرِفُ أمْسِ مِنْ لَمِيسَ الطَّلَلْ مِثْلَ الكتاب الدارسِ الأحْوَلْ

وقال عدى أيضاً[٣] :

ناشدْتَنا بكتاب الله حُرْمَتَنا ولم تَكُنْ بكتاب الله تَرْتَفِع

وقال سلامة بن جندل[٤] :

لمن طللٌ مثلُ الكتاب المُنَمَّقِ خلا عهده بين الصُّلَيْب فَمُطْرَقِ

وقال زهير[٥] :

يُوخَّرْ فيوضَعْ فى كتاب فَيُدَّخَرْ ليوم الحسابِ أو يُعجَّلْ فَيُنْقَمِ

٣ ــ الزبور : وجمعها زُبر . وقد يراد بها الكتاب الدينى ، ولكنها تطلق أيضاً على غيره من الكتب ، فمن الضرب الأول قول أمية :

وأبْرِزُوا بصَعِيد مُسْتَوٍ جُرُزٍ وأنْزِلَ العرشُ والميزانُ والزُّبُرُ

---

(١) مختارات ابن الشجرى : ١٠٥ .
(٢) الأغانى ٢ : ١٥٣
(٣) شعراء النصرانية : ٤٧٢ .
(٤) ديوانه : ١٥ .
(٥) ديوانه (ثعلب) : ١٨

وقول امرئ القيس (١) :

أتت حِجَجٌ بعدى عليها فأصبحت   كَخَطِّ زَبُورٍ فى مصاحفِ رُهْبان

وقول عمرو بن أحمر (٢) :

أم لا تُزال تُرَجِّى عيشــةً أنُفاً   لم تُرْجَ قبلُ ولم يُكتبْ بها زُبُرُ

ومن الضرب الثانى الذى لا إشارة فيه تخصصه بالكتاب الدينى وإنما يدل على مطلق الكتاب قول لبيد (٣) :

وجلا السيولُ عن الطلول كأنّها   زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أقْلامُها

وقول امرئ القيس (٤) :

لمن طلــل أبصرته فشجانى   كخط الزبور فى العسيب اليمانى

وقول لبيد أيضاً (٥) :

فنِعافِ صَارَةَ فالقَنَان كأنَّها   زُبُرٌ يُرَجِّعُهــا وَلِيدٌ يَمَانِ

ومن الزبور اشتقوا الفعل : يزبر ، بمعنى : يكتب ، قال أبو ذؤيب (٦) :

عرفتُ الديارَ كرقم الدَّوا   ةِ يَزْبُرُها الكاتب الحِمْيَرِىُّ

وقد وردت الزبور فى القرآن الكريم فى تسعة مواطن (٧) كلها بمعنى

---

(١) ديوانه : ١٢٥ .

(٢) جمهرة أشعار العرب : ٣١٥ . أنف : بمعنى مستأنفة .

(٣) شرح المعلقات للتبريزى : ١٣٤ .

(٤) ديوانه : ١٢٠

(٥) ديوانه ق ١٣ ب ٢ .

(٦) ديوان الهذليين ١ : ٦٤ .

(٧) الأنبياء ١٠٥ ، الإسراء ٥٥ ، النساء ١٦٣ ، الشعراء ١٩٦ ، القمر ٤٣ ، ٥٢ ، النحل ٤٤ ، آل عمران ١٨٤ ، فاطر ٢٥ .

الكتاب الديني ، وجاءت في موطنين منها خاصةً بكتاب داود [1] ، وكان ورودها إفراداً وجمعاً .

٩

ذلك ما يُكتَب عليه ، أما ما يكتب به فسيدور حديثنا عنه على ثلاثة أمور : القلم ، والدواة ، والحبر .

١ ــ القلم : فالقلم حديثه طويل ، ولو أوردنا ما ذكره ابن قتيبة وابن النديم والصولي وابن السيد البطليوسي والقلقشندي في وصفه وأنواعه لملأنا صفحات ، ونكون بذلك قد انحرفنا عن النهج الذي خططناه لأنفسنا منذ بدء هذا البحث ، واتكأنا على غيرنا حيث كان يجدر بنا ألا نتكئ إلا على استقصائنا وحده . فنحن إنما نؤرخ العصر الجاهلي ، وما كتبته هذه الكتب العربية عن مواد الكتابة عامٌ لا يحدُّه عصر ، مطلق لا يقيده زمن ، وهو منصبٌّ على ما عرفوه من العصور الإسلامية . ومن الإخلال بمنهجنا أن نسحبه على العصر الجاهلي . ولذلك لم نورد فيما مضى من الحديث ، ولن نورد فيما سيستقبلنا منه ، إلا ما استنبطناه من الشعر الجاهلي ، أو من أحاديث الرسول وأخبار الصحابة ؛ وبذلك تضيق علينا رقعة البحث ، وتقلّ بين أيدينا مادته ، وقد تنقطع بنا المسالك ، ولكن هذا هو بحثنا ، وتلك هي طبيعته ، فلا معدى لنا عن أن نتقيد بهما .

والقلم في الجاهلية كما تصفه هذه النصوص مصنوع من القصب يُقَطُّ ويقلم أو يُبرَى ثم يغمس في مداد الدواة ويكتب به . وقد مر بنا قول عبد الله

---

(١) الإسراء ٥٥ ، النساء ١٦٣ .

ابن حنش [١] «رأيتهم يكتبون على أكفهم بالقصب عند البرّاء» . وأكبر ظني أنهم كانوا يستخدمون ضرباً آخر من الأقلام يكتبون به — دون حبر — حينما تلجئهم الحاجة إلى أن يسجلوا بعض شؤونهم في عجلة من أمرهم ، ودون أن يعدوا للأمر عدته ، فالشاعر الجاهلي الذي كان يحتضر فلم يجد وسيلة للكتابة إلا أن يتخذ من رحل قاتله صحيفة يكتب عليها ما كان يريد [٢] ، والصحابي الذي أوصى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب وصيته في مؤخر رحله [٣] ، والتابعي الذي كان يسمع الحديث من بعض الصحابة في الليل فيكتبه في واسطة رحله حتى يصبح فينسخه [٤] — هؤلاء جميعاً لم يكونوا مُعِدِّين للكتابة أمرها ، ولم يكونوا متخذين لها أسبابها ، وليس مما يقبله العقل أن يكونوا في مثل أحوالهم تلك يحملون معهم قصبهم المقطوط المبرى ودُوِيّهم الملأى بالمداد ، وإنما كانوا — فيما أرجح — يكتبون بمادة تترك لونها أو أثرها على الرحل ، ولعلها مادة طباشيرية ، أو فحمية أو رصاصية ، وقد أشارت إحدى الروايات إلى أن قبيصة بن كلثوم السكوني كتب على خشبة رحل أبي الطمحان القيني بسكين.[٥] وكذلك الشأن فيمن كانوا يكتبون على الحجارة ، فقد كانوا ينقشون عليها نقشاً ، ويستخدمون في نقشهم مواد صلبة ينحتون بها وينقشون .

وقد ورد ذكر القلم ، مفرداً وجمعاً ، بهذا المعنى الذي نقصده ، ثلاث مرات في القرآن الكريم [٦] . وورد ذكره كذلك في الشعر الجاهلي . قال عديّ ابن زيد[٧] :

له عُنُقٌ مثلُ جِذْعِ السَّحُو ... قِ والأُذْنُ مُصْعَنَةٌ كالقَلَم

---

(١) تقييد العلم : ١٠٥ .
(٢) المفضليات : ٤٥٩ — ٤٦٠ .
(٣) ابن سعد ٣/٣ : ١٥١ .
(٤) تقييد العلم : ١٠٢ .
(٥) الأغاني ١١ : ١٣١ .
(٦) العلق : ٤ ، القلم : ١ ، لقمان : ٢٧ .
(٧) سمط اللآلي : ٨٧٦ . السحوق من النخل : الطويلة . مصعنة : منصوبة محددة .

وقال عدىّ أيضاً [١] :

ما تبين العينُ من آياتها غيرَ نُؤْيٍ مثل خطٍّ بالقَلَمْ

وقال الزبرقان بن بدر [٢] :

هم يَهلِكُون ويبقى بعدُ ما صنعوا كأنَّ آثارهم خُطَّت بأقلام

وقد مرت بنا أبيات : أمية بن أبى الصلت [٣] ، والمرقش [٤]، وشُتَيم ابن خويلد[٥]، ولبيد [٦]، وفيها كلها ذكر القلم .

وربما سمى القلم : مِزْبراً . فقد رُوِىَ أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه دعا فى مرضه بدواة ومزْبر ، فكتب اسم الخليفة بعده [٧]. قال الزمخشرى: المزْبر هو القلم؛ وأنشد الأصمعى :

* قد قُضِىَ الأَمْرُ وجفَّ المِزْبَرُ *

٢ ــ الدواة والمداد : وقد ورد ذكرهما كذلك فى الشعر الجاهلى ، قال عبد الله بن عنَمة[٨] :

فلم يَبْقَ إلا دِمْنَةٌ ومنــازلٌ كما رُدَّ فى خَطِّ الدواة مِدادُها

وقد مر بنا بيتان لأبى ذُؤَيب [٩] ولسلامة بن جندل[١٠]فيهما ذكر

(١) الأغانى ٢ : ١١٩ .
(٢) البيان والتبيين ٣ : ١٧٩ .
(٣) ابن هشام ١ : ٤٨ .
(٤) معجم المرزبانى : ٢٠١ ، والأغانى ٦ : ١٢٧ .
(٥) النقائض : ١٠٦ .
(٦) شرح المعلقات للتبريزى : ١٢٨ .
(٧) الفائق ١ : ٥٢٢ .
(٨) المفضليات : ٧٤٣ .
(٩) ديوان الهذليين ١ : ٦٤ .
(١٠) ديوانه : ١٥ .

الدواة . وكانوا أيضاً يسمون المداد « نِقْساً » ، قال حميد بن ثور[١] :

لِمَن الدِّيار بجانب الحُبْس كَخَطِّ ذى الحاجات بالنِّقْسِ

وكانوا أحياناً يمحون المكتوب بالمداد حين تنقضى حاجتهم منه ، ثم يستخدمون الصحيفة لكتابة شأن آخر من شؤونهم . ويسمون هذه الصحيفة التى يكتبون فيها ثم يمحونها ثم يكتبون فيها « طرساً »[٢] . وكانوا ربما محوا المداد بغسله بالماء ، فقد كان عبد الله بن مسعود إذا عرف أن فى مجلسه من يكتب حديثه يدعو بالكتاب وبإجانة من ماء فيغسله[٣] . وكذلك كان يفعل أبو موسى الأشعرى[٤] . وقد مر بنا قول عمر للرجل الذى كتب كتاب دانيال[٥] : « انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض» .

١٠

وصف الخط فى الجاهلية :

وقد كدت أجعل عنوان هذا الجزء من البحث « أنواع الخط فى الجاهلية » . ولكن أنّى لنا أن نعرف أنواع هذا الخط ، والأمر فى أخبار الجاهلية على ما ذكرنا فى غير موطن من هذا الفصل ؟ أما ما ذكره ابن مقلة ونقله عنه ابن النديم[٦] وابن السيد البطليوسى [٧] من أنواع الخطوط ووصف الأقلام فلا يرقى إلى

---

(١) ديوانه : ٩٧ .
(٢) القاموس وأساس البلاغة (طرس) ، والاقتضاب : ٩٣ ، والفائق ٢ : ٨١ .
(٣) تقييد العلم : ٣٩ و ٥٣ و ٥٤ و ٥٥ .
(٤) المصدر السابق : ٤٠ .
(٥) المصدر السابق : ٥١ .
(٦) الفهرست : ٦ — ٧ .
(٧) الاقتضاب : ٨٧ — ٩٠ .

الجاهلية ، والقليل منه لا يعدو أن يكون إشارة عابرة إلى الخط فى العصر الأموى ، وإنما جُلُّ الحديث كان عن العصر العباسى . فلا معدى إذن عن أن أقصر عنوان هذا الجزء من البحث على «وصف الخط فى الجاهلية»، ولا معدى كذلك عن أن أعود إلى النهج الذى سلكته من قبل وهو استنطاق الشعر الجاهلى وأخبار صدر الإسلام .

ولقد وجدت مما بين يدىَّ من نصوص وروايات أن عرب الجاهلية كانوا يفتنُّون فى خطوطهم وكتاباتهم ، ويحبرونها ويذهبون فيها مذاهب من التجويد والإتقان . وكان هذا الخط المجوَّد المحبر المتقن يوصف بالترقيش والنمنمة والرقم والوشم والتنميق . وقد أشرنا من قبل إلى بيت أبى ذؤيب الذى يصف فيه الكتابة فتبدو كأنما بلغت شأواً بعيداً فى الزينة والجمال حتى شبهها فى رقمها ووشيها بالعروس التى استكملت زينتها وبهاءها واستخفها الحسن والعجب [١] . وأشرنا كذلك إلى أبيات للأخنس بن شهاب التغلبى [٢] ، وحاتم الطائى[٣] ، وسلامة بن جندل [٤] يصفون فيها الكتابة بالترقيش والنمنمة والتنميق .

ومما يدخل فى هذا الباب الإشارة إلى مهارة الكاتب وإجادته الخط وتعوده الكتابة ، قال لبيد [٥] :

مُتَعَوِّدٌ لَحِنٌ يُعِيدُ بكفِّهِ ... قَلَماً على عُسُبٍ ذَبُلْنَ وَبَانِ

وقال معاوية بن مالك بن جعفر[٦] :

فإنَّ لها منــازلَ خاوياتٍ ... على نَمَلَى وَقَفْتُ بها الرِّكابا

---

(١) ديوان الهذليين ١ : ٦٤ — ٦٥ .
(٢) المؤتلف والمختلف : ٢٧ .
(٣) ديوانه : ٢٣ .
(٤) ديوانه : ١٥ .
(٥) ديوانه : ق ١٦ ب ٢ .
(٦) المفضليات ٢ : ١٥٧ .

من الأجزاعِ أسفلَ من نُمَيْلٍ كما رجَّعْتَ بالقلم الكتابا
كتابَ مُحَبِّرٍ هاجٍ بصيرٍ يُنَمِّقُــهُ وحاذَرَ أنْ يُعَابا

وكان من جملة ما يتصف به هذا الخط المتقن استواءُ سطوره وتناسق كلماته وحروفه ، ومن هنا جاء التشبيه به فى الاستقامة والاستواء ، فقد ورد فى الأثر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُسوِّى الصفوف حتّى يدعها مثل القِدْح أو الرقيم[1] ؛ والرقيم هو الكتاب المرقوم ؛ أى كان يفعل فى تسوية الصفوف ما يفعل السهَّام فى تقويم قداحه ، أو الكاتب فى تسوية سطوره .

وهذا الضرب من الكتابة المجودة التى يتأنق فيها الكاتب ويجوِّد هى التى رجحنا فى أول هذا الفصل أنها كانت مُعجَمة منقوطة .

وأما الضرب الثانى من الخط فهو الذى يكتبه الكاتب ، وهو فى عجلة من أمره لا يتأنى ولا يتأنق ، وإنما يخط حروفاً وكلمات ليس فيها أثر من جمال ولا من زينة . وهذا الخط يكون فى الغالب غفلاً من النقط والإعجام . وقد عثرتُ على لفظتين كانتا تدلان على هذا الضرب من الخط الغفل غير المتقن ، أولاهما التعريض ، وقد وردت فى بيت للشماخ[2] :

كما خَطَّ عِبْرانيــةً بيمينِه بتَيْماءَ حَبْرٌ ثم عَرَّضَ أسطُرا

وتعريض الخط — كما فى المعاجم — تشبيجه وتعميتهُ وترك تبيين حروفه وعدم تقويمه . واللفظة الثانية التى تدل على هذا الضرب من الخط الغفل السريع الذى لا إتقان فيه هى : المَشْق . وقد وردت فى أخبار عن رجال الصدر الأول ، فقد رُوى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال[3] : « شرّ الكتابة

---

(١) الفائق : ٣٢٠ — ٣٢١ .
(٢) ديوانه : ٢٦ ، وديوان زهير (ثعلب) : ٥ .
(٣) الصولى ، أدب الكتاب : ٥٦ .

المشق، وشرّ القراءة الهذرمة » . وروى ابن سيرين أنه كُرِهَ أن تكتب المصاحف مشقاً ، فلما قيل له : لم كره ذلك ؟ قال « لأن فيه نقصاً ، ألا ترى الألف كيف يفرقها ينبغي أن ترد ! »[١] وذكر ابن السيد البطليوسي أن أهل الأنبار كانوا « يكتبون المشق ، وهو خط فيه خفة . . . ، ولأهل الحيرة خط الجزم وهو خط المصاحف ، وخط أهل الشام : الجليل »[٢] وقال أيضاً [٣] : « فإذا أمد الحروف قيل : مشق مشقاً ويقال : المشق سرعة الكتابة وسرعة الطعن » . وكذلك جاء فى المعاجم أن المشق : سرعة الكتابة وفسادها . وهذا الخط المعرض أو المشق هو الخربشة ، قال زيد بن أخزم الطائى : سمعت ابن دؤاد يقول : كان كتاب سفيان مخربشاً [٤].

---

(١) السجستانى ، المصاحف : ١٢٤ .

(٢) الاقتضاب : ٨٩ .

(٣) المصدر السابق : ٩٤ .

(٤) اللسان (خربش) .

الباب الثاني

كتابة الشعر الجاهلي وتدوينه

الفصل الأول

كتابة الشعر الجاهلى

١

فإذا صح ماذهبنا إليه فى بحثنا فى الباب السابق – ونرجو أن يكون فى جملته صحيحاً – فإن من الطبيعى أن نستنبط منه ثلاث نتائج ، ذكرناها فى مواضعها ، ونجمعها الآن لنقدم بها بين يدى هذا الفصل .

الأولى : قِدَمُ الكتابة فى بلاد العرب ، فقد استبان لنا بالدليل المادى الملموس ، المتمثل فى النقوش الحجرية المكتشفة ، أن عرب الجاهلية قد عرفوا الكتابة بالحروف العربية منذ مطلع القرن الرابع الميلادى ؛ وكتبوا بهذا الخط العربى ثلاثة قرون قبل الإسلام على أقل تقدير .

والثانية : معرفة عرب الجاهلية بالكتابة معرفة فيها شىء من الانتشار يُبْعِد عنهم ما وُصموا به من الجهل بها ،وقد دللنا على ذلك بوفرة من النصوص والروايات تنبىء عن النشاط التعليمى فى الجاهلية ، وقيام « الكُتَّاب» أو « المكتب» آنذاك ، وتوافر عدد المعلمين الذين كانوا يعلمون الكتابة ، وذلك كله فى البيئات المتحضرة مثل : مكة والمدينة والطائف والحيرة والأنبار .

والثالثة : اتساع ميدان الكتابة وتشعب موضوعاتها ، فذكرنا ضروباً عدة من الموضوعات التى كانوا يقيدونها بالكتابة ، وأثبتنا وصفاً لأدوات الكتابة وآلاتها وأوصاف الخط الجاهلى . وكان عمادنا فى كل ما ذكرنا : النقوش الحجرية ، والشعر الجاهلى ، والروايات والنصوص الجاهلية ، وبعض الروايات والنصوص الإسلامية التى تنسحب فى دلالاتها وإشاراتها على العصر الجاهلى .

وقد انتهى بنا بحثنا المتقدم إلى أن عرب الجاهلية قد عرفوا من الكتابة

صورتها الساذجة اليسيرة حين كتبوا رسائلهم ، وصكوك حسابهم وعهودهم ومواثيقهم ، ونقشوا خواتمهم وشواهد قبورهم. وهذه كلها لا تتجاوز فى حجمها صحيفة واحدة قد تنقص قليلاً أو تزيد قليلاً . وقد عرفوا أيضا من الكتابة صورة أرق من هذه الصورة الساذجة ، وأكبر حجماً ، وأشد تعقيداً ، وهى التدوين . والفرق بين الصورتين — لغة واصطلاحاً — واضح ، إذ أن الأولى لا تعنى أكثر من مجرد التقييد العابر لما يعرض من شئون الحياة ، ولكن التدوين إنما يعنى جمع الصحف وضم بعضها إلى بعض حتى يكون لنا منها ديوان — وهو مجتمع الصحف . ولا بد للتدوين من أن يكون عملاً مقصوداً متعمداً يرمى إلى هذه الغاية ، لا عملاً عابراً عارضاً . ولم نذكر فى الفصل السابق من أمثلة هذا التدوين إلا مثلا واحداً هو الكتب الدينية .

وهدفنا فى هذا الفصل تخصيص الحديث بكتابة الشعر الجاهلى منذ أول عهدها الذى استطعنا أن نكشف عنه ، ثم نمضى بها حتى نصلها بتدوين هذا الشعر الجاهلى الذى وصل إلينا فى هذا العصر والذى جمعه الرواة العلماء فى أواخر القرن الثانى للهجرة .

٢

وموضوع كتابة الشعر الجاهلى — كموضوع الكتابة عامة — ذو شقين ، الأول : الكتابة الضيقة التى لا تعدو مجرد التقييد ، والثانى : الكتابة الواسعة التى تتجاوز هذه المرحلة إلى مرحلة التدوين . وقد رأينا أن نبدأ بالحديث عن تقييد الشعر الجاهلى ، ونؤخر الحديث عن تدوينه إلى أن نضعه فى مكانه المناسب له من حديثنا عن أوائل التدوين وتأليف الكتب فى الجاهلية وصدر الإسلام .

ويبدو لنا أن الأدلة على تقييد الشعر فى الجاهلية يصح أن تُقسَم ضربين ؛ الضرب الأول : أدلة عقلية استنباطية ؛ والثانى : أدلة صريحة مباشرة .

أما الأدلة العقلية الاستنباطية فجماعها فى أربعة أمور :

الأول : هو هذا الذى قدمناه فى الفصل السابق ، وتجشمنا مشقة الخوض فيه وبيانه والكشف عن أجزائه وتفاصيله . ولم نكن لنركب هذا المركب لمثل هذا البحث لولم نرم إلى أن نتخذ منه متكأ نعتمد عليه فى بحث كتابة الشعر الجاهلى بخاصة . وذلك أن عرب الجاهلية هؤلاء الذين كانوا يقيدون بالكتابة دينهم ورسائلهم وعهودهم وصكوك حسابهم وسائر ما قدمناه فى بحثنا عن موضوعات كتابتهم — لا يصح فى الفهم أن يقيدوا كل ذلك من أمورهم : دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها ، حقيرها وعظيمها — ثم يهملوا تقييد شعرهم . والشعر عندهم كما هو معروف متداول ، فى الذروة العليا من القيمة والخطر ، إذ هو ديوان أمجادهم وأحسابهم ، وسجل مفاخرهم ومآثرهم ، قال الجاحظ[1] : « . . . فكل أمة تعتمد فى استبقاء مآثرها ، وتحصين مناقبها ، على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال . وكانت العرب فى جاهليتها تحتال فى تخليدها بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها » . وقال ابن قتيبة[2] عن الشعر إن الله جعله لعلوم العرب مستودعاً ، ولآدابها حافظاً ، ولأنسابها مقيداً ، ولأخبارها ديواناً لا يرثّ على الدهر ولا يبيد على مر الزمان .

فإذا كانت القبائل تقيِّد عهودها ومواثيقها — كما مر بنا — أفليس من الطبيعى إذن أن تقيد شعر شعرائها الذين يدافعون به عن حياضها ، ويذودون به عن أمجادها ، ويسجلون به وقائعها وأيامها ، ويعدّدون فيه انتصاراتها ومآثرها ؟ ونحن نعلم أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس[3] .

---

(١) الحيوان ١ : ٧١ — ٧٢ .
(٢) تأويل مشكل القرآن : ١٤ .
(٣) ابن رشيق ، العمدة ١ : ٤٩ .

وقد قال الأعشى يخاطب قومه ويبين لهم فضله عليهم[١] :

وأَدْفَعُ عَنْ أعْرَاضِكُمْ وأُعِيرُكُمْ   لِسَاناً كَمِقْرَاضِ الخَفَاجِىِّ مِلْحبَا

وبلغ من عناية القبائل بالشعر أن بنى تغلب كانوا يعظمون قصيدة عمرو ابن كلثوم المعلقة ، وكان يرويها صغارهم وكبارهم حتى هُجُوا بذلك، فقال بعض شعراء بكر بن وائل[٢] :

أَلْهَى بَنِى تَغْلِبٍ عن كل مَكْرُمَةٍ   قصيدةٌ قالها عَمْرُو بنُ كُلْثُوم
يَرْوُونَها أَبَدًا مُذْ كان أوَّلُهمْ   يالَلرِّجالِ لِشعْرٍ غيرِ مَسْئُوم

ومن أبين ما يدل على خطر الشعر عند القوم آنذاك ما ذكره أبو عبيدة قال[٣] : كان الرجل من أنف الناقة إذا قيل له : ممن الرجل ؟ قال : من بنى قريع . فما هو إلا أن قال الحطيئة :

قومٌ هُمُ الأنفُ والأذنابُ غيرُهُمُ   ومن يُسَوِّى بأنفِ الناقةِ الذَّنَبا ؟

فصار الرجل منهم إذا قيل له : ممن أنت ؟ قال : من بنى أنف الناقة .

وكما كانت القبائل حريصة على تسجيل مفاخرها فى شعر شعرائها كانت كذلك حريصة على أن تتجنب ذمّ شعراء القبائل الأخرى وهجاءهم . وهل أبلغ فى الدلالة على خشيتهم الهجاء وتخوُّفهم أن يبقى ذكر ذلك فى الأعقاب ويُسَبُّ به الأحياء والأموات — من أنهم كانوا إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق وربما شدّوا لسانه بنِسْعة كيلا يهجوهم ، كما صنعت بنو تَيْم بعبد يغوث ابن وقاص الحارثى حين أُسِرَ يوم الكُلاب ، فقال فى ذلك عبد يغوث[٤] :

---

(١) ديوانه : ق ١٤ ب ٣١ . الملحب : القاطع .
(٢) الأغانى (دار الكتب) ١١ : ٥٤ .
(٣) البيان والتبيين ٤ : ٣٨ .
(٤) البيان والتبيين ٤ : ٤٥ ، وانظر تفصيل أثر الشعر فى القبائل والأفراد فى المصدر نفسه ج ٤ من ص ٣٥ إلى ص ٤٨ .

أَقُولُ ، وقد شَدُّوا لِسَانِى بِنِسْعَةٍ أَمَعْشَرَ تَيْمٍ أَطْلِقوا من لِسانيا

ذلك هو شأن القبائل . أما الأفراد فلا يقلون فى هذا عن قبائلهم . فإن هذا الملك أو السيد أو الشريف أو الثرى الذى كان يقيد صلة حسابه ، ويقيد خطوط جوائزه وعطاياه ، ويكتب الرسائل فى شتّى شؤونه — أيُعقَل أنه كان يغفل عن أن يولى الشعر الذى يمدح به مثل هذه العناية ؟ وقد كانت عناية الممدوح بمدح الشاعر تتمثل فى هذه الهبات السخية من الإبل والملابس والحلى والقيسَان التى كان يهبها الممدوح للشاعر ، لأنه بمدحه يُذيع اسمه فى العرب ، ويُعلِى من قدره بينهم ، ويخلد ذكره على مر السنين . فكان الممدوح حريصاً أشد الحرص على مدح الشاعر ، يجهد فى إرضائه بما يقدمه إليه من عطايا ، ويتكلف لذلك فوق ما فى وسعه ، حتى إذا أعيته الحيلة ولم يجد وسيلة إلى إرضاء الشاعر بات كئيباً يخشى مغبة الهجاء ؛ وهذا مخارق بن شهاب سيد بنى مازن، أتاه محرز بن المُكَعْبِر العنبرى الشاعر فقال : إن بنى يربوع قد أغاروا على إبلى فاسْعَ لى فيها . فقال مخارق : وكيف وأنت جار وَرْدان ابن مَخْرَمَة ؟ فلما ولّى عنه محرز محزوناً بكى مخارق حتى بلّ لحيته، فقالت له ابنته : ما يبكيك ؟ فقال : وكيف لا أبكى ، واستغاثنى شاعر من شعراء العرب ولم أغثه ؟ والله لئن هجانى ليفضحنى قوله ، ولئن كفّ عنى ليقتلنى شكره ! ثم نهض فصاح فى بنى مازن فردت عليه إبله [1] .

ولقى الزبرقانُ بن بدر الحطيئةَ فطمع فى أن يصفيه مدائحه فسيّره إلى زوجته ، أو أمه ، وكتب إليها أن تكرمه وتحسن إليه . ولكن بغيض بن عامر — وكان ينازع الزبرقان الشرف — مازال يسعى حتى استمال إليه الحطيئة، فارتحل إليه ، فضرب له بغيض وإخوته قبة ، وربطوا بكل طنب من أطنابها حلة

---

(١) البيان والتبيين ٤ : ٤١ — ٤٢

هَجَرية ، وأراحوا عليه إبلهم، وأكثروا عليه التمر واللبن . فلما قدم الزبرقان ولم يجده وعلم بقصته ، نادى في قومه ، وركب فرسه وأخذ رمحه ، وسار حتى وقف على بغيض وقومه ، وطلب منهم رد الشاعر ، وكاد أن يقع بين الحيين حرب . كل ذلك إكراماً للشاعر وطمعاً في مدحه وخوفاً من هجائه[1].

فإذا كان أمر الشعر بهذا الخطر للممدوحين ، فهل كان ملوك الحيرة ، وملوك غسان ، وأشراف المدينة والطائف وساداتها وأثرياؤها ، وسادات نجران واليمن، هل كان كل أولئك لا يقيِّدون ما يُمدَحون به من الشعر مع أنهم كانوا يقيدون سائر أمورهم ؟

ورب معترض يقول : فما بال الشعر القديم في جاهلية الأمم الأخرى لم يكن مكتوباً — فيما يقال — ثم نفرض أن العرب في جاهليتهم قد كتبوه ؟ وما أيسر الإجابة عن هذا الاعتراض ! فنحن إنما قدمنا ما قدمنا في الفصل الأول من هذا البحث لندل على أن جاهلية العرب تختلف اختلافاً واسعاً عن جاهلية الأمم الأخرى . فجاهلية تلك الأمم إنما هي الطور البدائي الساذج من حياتهم قبل أن ينتقلوا إلى طور حضاراتهم . في ذلك الطور البدائي كان من الطبيعي ألا يكتبوا شعرهم لأنهم لم يكونوا يعرفون من صور الكتابة ما يعينهم على تقييد أمورهم ؛ وأما جاهلية العرب فيغنينا عن إعادة القول فيها ما قدمناه من تبيان معرفتها بالكتابة معرفة قديمة العهد ، فيها شيء من الانتشار وتعدد الموضوعات والأدوات . ولذلك نعجب لقوم تكون معرفتهم بالكتابة هذه المعرفة التي بسطنا فيها القول ثم لا يقيدون شعرهم . ونحن إنما نتحدث عن تقييد بعض الشعر لا كله ، حتى يستقيم لنا الاستنتاج والاستنباط ؛ ونقصد بالتقييد — كما قدمنا — مجرد الإثبات بالكتابة لأبيات أو قصائد متفرقة من الشعر ، ولا نعرض الآن لذكر التدوين الشامل المقصود ، فلذلك مجاله بعد صفحات من هذا الباب .

---

(١) الأغاني ٢ : ١٨٠ — ١٨٣ .

٣

الثانى : أما الدليل الثانى من هذه الأدلة العقلية الاستنباطية فتصل أوثق الاتصال بالدليل الأول . فإذا كان الشعر المسجل لمفاخر القبائل ومحامد الأفراد له خطره وقيمته عند القبائل والأفراد الممدوحين ، فقد كان له من الخطر والقيمة عند الشعراء المادحين أنفسهم ما يضارع ما كان له عند الممدوحين أو يزيد . فقد كان هذا الشعر عند غير المتكسبين بالمدح واجباً قومياً تفرضه على الشاعر طبيعة ارتباطه بقبيلته ، أو واجباً أخلاقياً تمليه عليه مآثر سلفت من صاحبها لقبيلة الشاعر أو للشاعر نفسه. وأما المتكسبون بالشعر فقد كان هذا الشعر مورداً من موارد ارتزاقهم ، أو لعله هو المورد الوحيد لرزقهم . فكان الشاعر منهم يكثر التجوال والتطواف ، ويقطع على ظهر ناقته الآماد الواسعة يستسهل طيَّ المفاوز ، ويستعذب تحمل المشاق والأهوال فى سبيل وصوله إلى ممدوحه الذى سيجزيه عما تجشم وتكلف ، ويقضى حاجته ، ويكفيه رزقه . أليس عجيباً بعد ذلك ألا يُعْنَى الشاعر ، وهذه قيمة الشعر عنده، بأن تحفظ الكتابةُ شعره أو بعضه ؟ وسيشتد العجب إذا علمنا أن بعض الشعراء لم يكونوا فى حاجة إلى أن يتلمسوا الوسائل البعيدة لكتابة شعرهم ويتطلبوا من يكتبه لهم لأنهم كانوا هم أنفسهم يحسنون الكتابة ويتقنونها . على أنه كانت ثمة دواع تضطر حتى من لا يعرف الكتابة من الشعراء ، إلى أن يستكتب من يعرفها ؛ ومن أنصع الإشارات إلى ذلك ما ذكره ابن الأعرابى قال[١] : بلغ عمرو بن كلثوم أن النعمان بن المنذر يتوعده ، فدعا كاتباً من العرب ، فكتب إليه :

أَلا أَبْلِغِ النُّعْمــانَ عنِّى رِسَالةً ﻓَﻤَﺪْﺣُﻚَ حَوْلِىٌّ وذَمُّكَ قَارِحُ

(١) الأغانى (دار الكتب) ١١ : ٥٨ .

متى تلقَنى فى تَغْلِبَ ابنةِ وائلٍ وأشياعِها ترْقَى إليك المسالِحُ

فإذا كان هذا شأنَ من لا يعرف الكتابة من الشعراء ، فما ظنك بمن كان هو نفسه كاتباً ؟

وحسبنا أن نعرض أسماء من عثرنا عليهم من شعراء الجاهلية ممن كانوا يكتبون ، على أن نشير إلى أن إغفال النصّ على معرفة غيرهم بالكتابة لا يعنى أن هؤلاء الذين لم ينص على علمهم بالكتابة كانوا جميعاً يجهلونها .

فمنهم عدىّ بن زيد العبادىّ : الذى طرحه أبوه — حين أيفع — فى الكُتَّاب ، حتى إذا حذق الخط العربى أرسله إلى كُتَّاب الفارسية ، فصار أفصح الناس وأكتبهم بالعربية والفارسية ، ثم انتقل إلى بلاط فارس فأصبح كاتباً بالعربية ومترجماً فى ديوان كسرى[1] .

ومن الشعراء الذين كانوا كتاباً بالعربية ومترجمين فى بلاط فارس : لقيط ابن يعمر الإيادى[2]. وهو الذى أرسل إلى قومه ينذرهم بعزم كسرى على قتالهم ، وصحيفته فى ذلك مشهورة ابتدأها بقوله :

سَلامٌ فى الصَّحيفةِ من لَقيطٍ إلى مَنْ بالجَزيرةِ من إيادِ

وختمها بقوله :

هذا كِتابى إليكُمْ والنَّذيرُ لكُمْ لِمَنْ رأى رأيَهُ منكُمْ ومن سَمِعَا

وهى قصيدة طويلة تزيد على الخمسين بيتاً .

ومن الشعراء الذين تعلموا الخط والكتابة فى مدارس الحيرة : المرقِّش وأخوه حرْملة ، وكان أبوهما سعد بن مالك وضع مرقشاً وأخاه — وهما أحب بنيه إليه —

---

(١) الأغانى ٢ : ١٠١ — ١٠٢ .

(٢) مختارات ابن الشجرى (المطبعة العامرة سنة ١٣٠٦ هـ) ص ٢ — ٧ ، وانظر أيضاً ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ١ : ١٥٢ ، والأغانى (ساسى) ٢٠ : ٢٤ .

عند رجل من أهل الحيرة ، فعلمهما الخط والكتابة(١).

ومن شعراء المدينة الذين كانوا يكتبون : سويد بن صامت الأوسى(٢)، وعبد الله بن رَوَاحة(٣) ، وكعب بن مالك الأنصارى وقد كتب شعراً فى يوم أحُد ذكر فيه أسماء النقباء وأرسله إلى أبى سفيان بن حرب وأبىّ بن خلف الجمحىّ يرد عليهما(٤).

ومن الشعراء الكتاب كذلك : الربيع بن زياد العبسى ، وكان هو وإخوته من الكَمَلَة ، وقد مر بنا أن من صفات الكامل فى الجاهلية أن يحسن الكتابة، وقد كتب الربيع بن زياد إلى النعمان بأبيات يعتذر إليه فيها(٥) .

ومن هؤلاء الشعراء الكتاب : الزبرقان بن بدر(٦)، والنابغة الذبيانىّ ، وقد كتب قصائد أرسلها إلى النعمان يعتذر إليه بها ويحلف له : أنه ما فرط منه ذنب(٧).

ومنهم كعب بن زهير بن أبى سلمى وأخوه بُجَيْر بن زهير ، وقد كتب إلى بجير شعراً يلومه فيه على إسلامه(٨)، فكتب إليه بجير ينذره ويعلمه أن النبى صلى الله عليه وسلم قد قتل بالمدينة كعب بن الأشرف(٩).

ومن هؤلاء الشعراء الكتاب : لبيد بن ربيعة العامرى ، وقد كان عمر بن الخطاب أرسل إليه يطلب منه أن يكتب له ما قاله فى الإسلام من الشعر ، فانطلق لبيد إلى بيته فكتب سورة البقرة فى صحيفة ، ثم أتى بها فقال : أبدلنى الله هذه فى الإسلام مكان الشعر(١٠) . وقد كان من الناس من يكتب إلى لبيد

---

(١) المفضليات : ٤٥٩ – ٤٦٠، وانظر الأغانى ٦ : ١٣٠ .
(٢) الأغانى ٢ : ٢٥ .
(٣) ابن سعد ٣/٢ : ٧٩ .
(٤) ابن حبيب ، المحبر : ٢٧١ – ٢٧٤ .
(٥) الأغانى ١٦ : ٢٢ – ٢٣ ،وأمالى السيد المرتضى ١ : ١٣٦ ، وشرح شواهد المغنى: ٦٨.
(٦) الأغانى ٢ : ١٨٠ .
(٧) البغدادى ، الخزانة ٢ : ٢٩٢ – ٢٩٣ .
(٨) الشعر والشعراء ١ : ٩١ .
(٩) جمهرة أشعار العرب : ٢٤ .
(١٠) الخزانة ٢ : ٢١٥ .

أيضاً شعراً ، وذلك أن الوليد بن عقبة خطب الناس بالكوفة فى يوم صَبًا ، وقال : إن أخاكم لبيداً آلى ألا تهب له الصبا إلا أطعم الناس حتى تسكن ، وهذا اليوم من أيامه ، فأعينوه ، وأنا أول من أعانه . ونزل ، فبعث إليه بمائة بكرة ، وكتب إليه أبياتاً من الشعر . فلما أتاه الشعر قال لابنته : أجيبيه[١]. ومما يؤيد معرفة لبيد بالكتابة فى الجاهلية أن فى شعره الجاهلى كثيراً من الإشارات والمعانى الدينية التى تدل على أنه كان فى الجاهلية يؤمن بالبعث . وقد كان أكثر هؤلاء الذين كانوا على دين فى الجاهلية يحسنون الكتابة[٢].

ومن هؤلاء الشعراء الذين كانوا يؤمنون بالبعث فى الجاهلية ويقرأون الكتب الدينية : أمية بن أبى الصلت[٣].

ومن هؤلاء الشعراء المخضرمين الذين ولدوا فى الجاهلية وعُمِّروا فى الإسلام إلى زمن عبد الملك بن مروان واشتهروا بالعلم والفقه : مسروق بن عبد الرحمن[٤]، وشُريحٌ بن الحارث الكندى[٥].

ولا بد من الإشارة إلى أن النص على معرفة الشعراء بالكتابة لم يكن فى الكتب العربية نصًّا صريحاً مقصوداً لذاته ، وإنما أكثر ما يكون استطراداً عابراً لتوضيح سياق قصة تتصل بالشاعر ، أو بقومه ، أو بحادثة بعينها . ويبدو لنا أن الذين خلَّفوا لنا هذه الكتب — وهم الذين سجلوا تاريخنا الأدبى — كانوا يتوهمون أن معرفة الشاعر بالكتابة عيب ينتقص من شاعريته ، وذلك لأنهم كانوا يظنون أن معرفة الكتابة أمر حادثٌ طارئٌ على العرب ، وهو من أمور المدنية التى كانت تفسد الأعراب وسليقتهم اللغوية الفطرية ، فكانوا يشكُّون

---

(١) الشعر والشعراء ١ : ٢٣٣ — ٢٣٤ .
(٢) انظر إيمان لبيد بالبعث فى الجاهلية فى الإصابة ٦ : ٤ — ٥ .
(٣) ابن قتيبة ، المعارف : ٢٨ ؛ والأغانى ٣ : ١٢١ — ١٢٢ .
(٤) ابن سعد ٦ : ٥٠ ، ٥٣ .
(٥) المصدر السابق ٦ : ٩٠ .

فى كل أعرابى يتصل بالمدينة ويكتسب من مظاهر حضارتها . قال الجاحظ[1] : « سمعت ابن بشير ، وقال له أبو الفضل العنبرى — يبدو أنه أحد الأعراب — : إنى عثرت البارحة بكتاب ، وقد التقطته ، وهو عندى ، وقد ذكروا أن فيه شعراً ، فإن أردته وهبته لك . قال ابن بشير : أريده إن كان مقيداً . قال : والله ما أدرى أمقيد هو أم مغلول . ولو عرف التقييد لم يلتفت إلى روايته » .

وهذا الحكم الذى فرضوه على الأعراب سحبوه أيضاً على الشعراء أنفسهم ، حتى الشعراء الإسلاميين الذين كانوا معروفين باتصالهم الوثيق بالبادية ، فكانوا لذلك مصدراً لهؤلاء اللغويين والرواة ومعتمَداً لهم فيما يذكرونه من شواهد وأمثلة. وأوضح ما يبين لنا ذلك أن أبا النجم العجلىّ الراجز وذا الرمة قد عيبا بمعرفة الكتابة فأنكرها ذو الرمة . قال أبو بكر الصولى[2] : قد عيب أبو النجم بهذا [أى بقوله :

أقبلتُ من عِنْد زيادٍ كالخَرِفْ تَخُطُّ رِجْلاى بخطٍّ مُخْتَلِف
كأنما قد كَتَبَا لامَ ألف]

فقيل : لولا أنه يكتب ما عرف صورة لام ألف ، كما عيب ذو الرمة فى وصف ناقته :

كأنما عينُها فيها — وقد ضَمَرَتْ وضَمَّها السَّيْرُ فى بعض الأَضاعِيمْ »[3]

وقال أيضاً : « قرأ حماد الراوية على ذى الرمة شعره ، قال : نراه قد ترك فى الخط لاماً — فقال له ذو الرمة : اكتب لاماً . فقال له حماد : وإنك لتكتب؟ قال : اكتم علىّ فإنه كان يأتى باديتنا خطاطٌ فعلمنا الحروف تخطيطاً فى الرمال

---

(١) البيان والتبيين ١ : ١٦٣ — ١٦٤ .

(٢) أدب الكتاب : ٦٢ ، وانظر أيضاً الشعر والشعراء ١ : ٥٠٧ ، قال ابن قتيبة : وقال عيسى بن عمر (توفى سنة ١٤٩) قال لى ذو الرمة : ارفع هذا الحرف فقلت له : أتكتب ؟ فقال بيده على فيه ، أى : اكتم على ، فإنه عندنا عيب .

(٣) الأضاة : الغدير . يقول : كأن عينها دارة ميم لتدويرها .

فى الليالى المقمرة فاستحسنتها فثبتت فى قلبى ، ولم تخطها يدى » .

فإذا كان هذا رأى هؤلاء العلماء الرواة فى القرن الثانى الهجرى فى الشعراء الإسلاميين أنفسهم ، فلا بد أن يكون رأيهم هذا أكثر تشدداً وغلوًّا فى الشعراء الجاهليين ؛ ولذلك نحسب أن أخبار معرفة الشعراء الجاهليين بالكتابة قد وصلتنا ناقصة مبتورة مشوهة ، ولولا هذا الوهم الخاطئ لوصلنا الشيء الكثير الذى يدعم ما نذهب إليه .

٤

الثالث : وثالث هذه الأدلة متصل كذلك بالسابقين لا يكاد ينفصل عنهما ، ومدارُه على طبيعة ضرب من الشعر هو هذا الشعر الذى كان يتكلفه صاحبه تكلفاً بعد جهد ومشقة ، لا يرتجله ارتجالا ، ولا ينساب منه عن طبع وفى يسر وسماحة ، وإنما يقول البيت أو الأبيات ثم يطويها إلى أن توافيه أبيات أخرى يضمها إلى سابقاتها ، فإذا ما اكتملت له القصيدة طواها كلها ، وأخذ يعيد فيها نظره : يهذب من ألفاظها كلما سنح له وجه من وجوه التهذيب ، ويقوِّم بعض ما لم يكن قد استقام له من معانيها كلما واتته فرصة التقويم . ذلك هو الشعر الحولى المحكَّك ؛ وأولئك الشعراء هم عبيد الشعر كما سماهم الرواة العلماء[1]. قال الجاحظ[2] : « ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتاً ، وزمناً طويلا ، يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه ، اتهاماً لعقله ، وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لما خوله الله تعالى

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١ : ٢٣ .

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٩ .

من نعمته . وكانوا يسمُّون تلك القصائد : الحوْليات والمقلَّدات والمنقَّحات والمُحْكَمات ، ليصير قائلها فحلاً خنذيذاً وشاعراً مفلقاً ». وقال ابن جنى [١] : « ليس جميع الشعر القديم مرتجلا ، بل قد كان يعرض لهم فيه من الصبر عليه ، والملاطفة له ، والتلوُّم على رياضته ، وإحكام صنعته نحوٌ مما يعرض لكثير من المولَّدين ، ألا ترى إلى ما يروى عن زهير ، من أنه عمل سبع قصائد فى سبع سنين ، فكانت تسمى حوليات زُهير ، لأنه كان يحوك القصيدة فى سنة ؟ . . » .

وهذا شاعر جاهلى هو امرؤ القيس بن بكر بن امرئ القيس بن حارث الكندىّ ، ويقال له الذائد ، يصف « عملية الانتخاب الفنى » للألفاظ فيقول [٢] :

أَذُودُ القَوَافِىَ عَنِّى ذِيَادَا ذِيادَ غُلَامٍ غَوِىٍّ جَرَادَا
فَلَمـــا كَثُرْنَ وَأَعْيَيْنَنِى تَنَقَّيْتُ مِنْهُنَّ عَشْرًا جِيَادَا
فَأَعْزِلُ مَرْجَانَهـــا جَانباً وَآخُذُ مِنْ دُرِّها المُسْتَجَادَا

ويقول كعب بن زهير [٣] :

فَمَنْ لِلْقَوافِى ــ شَانَهَا مَنْ يَحُوكُهَا ــ إِذَا مَا ثَوَى كَعْبٌ وَفَوَّزَ جَرْوَلُ
يقُولُ فَلَا يَعْيَا بشىْءٍ يَقُولُه وَمِنْ قَائِلِيهَا مَنْ يُسِىءُ وَيَعْمَلُ
نُقَوِّمُهَا حَتَّى تَقُومَ مُتُونُهَا فَيَقْصُرُ عَنْهَا كُلُّ مَا يُتَمَثَّلُ
كَفَيْتُكَ ،لَا تَلْقَى مِنَ النَّاسِ وَاحِدًا تَنَخَّلَ مِنْها مِثْلَ مَا نَتَنَخَّلُ

---

(١) الخصائص ١ : ٣٣٠ .
(٢) الآمدى : المؤتلف والمختلف : ١٠ .
(٣) ديوانه : ٥٩ – ٦٠ .

وقد كان طُفَيل الغنويّ في الجاهلية يدعى: المحبِّر، لتحسينه الشعر[1].

وقد مر بنا أن ابن فارس[2] يرى أن بعض شعراء الجاهلية كان يعرف علم العربية والعروض : ما كان منه متصلاً بحور الشعر أو بقوافيه وعيوبها — مهما تكن الألفاظ الاصطلاحية التي كانوا يستخدمونها —، وقد أضفنا بعض ما عثرنا عليه مما يؤيد رأي ابن فارس في معرفة الشعراء الجاهليين بهذه العلوم .

ولا ريب أن ما قدمنا من حديث واضحُ الدلالة على أننا لا نعمم فيما نلقي من أحكام، فنحن لا نقصد أن كل شعراء الجاهلية كانوا يعرفون هذه العلوم، ولا نقصد كذلك أن جميع شعراء الجاهلية كانوا يتروَّوْن في نظم قصائدهم ويثقفونها وينقحونها . ولكننا نخصّ بحديثنا هذه الفئة من الشعراء التي كانت ترى الشعر عملا عقلياً تفكر فيه بعقلها كما تحسه بعاطفتها ، وتنظمه وترصّعه كما ترصّع حجارةُ الفسيفساء .

وإذا كنا لا ننكر أن بعض الشعراء كانوا يرتجلون الشعر ارتجالا ، وأن بعضهم كان ينذلث منه الشعر انذلاثاً هيناً سمحاً ، وأن هاتين الطائفتين ، أو بعض رجالهما ، لا تضطرهم طبيعة هذا الضرب من الشعر إلى تقييده وإثباته بالكتابة — إذا كنا لا ننكر ذلك ، فإنه لا بد لنا أن نتريث قليلا عند الفئة الأخرى من الشعراء وشعرهم ، وأن نتوقف عن أن نسحب عليهم حكم الضرب الأول . فنحن لا نفهم كيف يستطيع الشاعر الذي تمكث عنده القصيدة « حولا كريتاً ، وزمناً طويلاً ، يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه ، اتهاماً لعقله ، وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لما خوله الله تعالى من نعمته . . . » ، والشاعر الذي كان يعرض له في الشعر من « الصبر

---

(١) الزمخشري : الفائق ١ : ٥٤١ .

(٢) الصاحبي في فقه اللغة : ٨ — ١١ .

عليه ، والملاطفة له ، والتلوم على رياضته ، وإحكام صنعته نحواً مما يعرض لكثير من المولّدين . . » والشاعر الذى كانت تكثر عليه القوافى فيلودها عنه ذياداً ، ثم ينتقى منها الجيد انتقاءً ، وينظر إلى قوافيه وألفاظه نظرة الجوهرى إلى لآلئه : يعزل مرجانها جانباً ، ويأخذ المستجاد من درها . . ، والشاعر الذى يتنخل كلامه تنخلا ، ويثقف ألفاظه وقوافيه حتى تلين متونها ــ نحن لا نفهم كيف يستطيع هؤلاء الشعراء أن يقوموا بهذا العمل العقلى الذى يستغرق هذا الوقت المديد دون أن يكون الشعر مقيّداً أمامهم على صحيفة يرجعون إليها بين وقت وآخر : يزيدون عليه أو ينقصون منه ، ويستبدلون لفظة بلفظة ، وقافية بقافية . وهل يصح بعد هذا أن نذهب إلى أن هؤلاء الشعراء الذين كانوا يصنعون الشعر صناعة ، بل يصنّعونه تصنيعاً ، ويعرفون من بحوره وقوافيه ولغته وإعرابه ما لا يُكتسَب إلا بالتعليم والدراسة ، هل يصح أن نذهب إلى أن هؤلاء الشعراء كانوا أميين ويستطيعون أن يقوموا بهذه « العمليات » المعقدة المتراكبة فطرةً وطبعاً ، والشعر معلّق فى ذاكرتهم لا يعدوها ؟

أحسب أنْ لا ، وأحسب أن الأرجح أن هذا الضرب من الشعر المنقح كان يفرض عليهم أن يقيدوه على ما كانوا يملكون من صحف الكتابة التى بيّنا أنواعها فى فصل سابق .

٥

الرابع : وآخر هذه الأدلة العقلية الاستنباطية : هذا الشعر الجاهلي الحافل بذكر الكتابة وصورها ، والإشارة إلى أدواتها ، وتشبيه الأطلال والرسوم ببقايا الخطوط على الرَّقّ أو المهارق أو سائر أنواع الصحف ، مما يدل على أن هؤلاء الشعراء الجاهليين كانوا على علم دقيق بأنواع الكتابة والحروف[1]. وقد ذكرنا هذا الشعر الجاهلي ، الذي يحفل بذكر الكتابة ، متفرقاً في مواطنه من الباب السابق حين تحدثنا عن أدوات الكتابة وآلاتها ، واستشهدنا به لكل جزء من أجزاء البحث ، ووجدنا أن الشعر الجاهلي لم يغفل صغيرة ولا كبيرة فيه ، وإنما استوعب الموضوع من نواحيه ، ولمَّه من أطرافه كلها . ومع ذلك فإننا سنشير إلى أبيات قليلة فيها من الصور الشعرية المركبة ما ينبئ عن أن قائلها لا بد أن يكون عالماً بهذه الصور ، وأن الجاهل بها لا يتأتّى له ذكرها ووصفها على هذا الوجه المفصل .

فأبو ذؤيب الهذليّ يشير إلى كاتب يكتب ديناً له — وليس في هذا دلالة على شيء مما نذهب إليه لو وقف عنده — ولكنه يصف في بيتين كتابة هذا الكاتب الدائن ، وأنها كانت كتابة دقيقة يتأنق فيها حتى يجعلها مزخرفة مزينة كالعروس ليلة تُهدَى إلى زوجها . فوصف أبو ذؤيب هذه الكتابة بأنها « رقم » و « وشي » و « نمنمة » . ثم يصف لنا الصحف التي كان يكتب عليها ، ويذكر أنها ناعمة رقيقة « كالرياط » ، ولا يكتفي بذلك بل إنه ليعرف أن هذه الصحف لا يكتب عليها الكاتب أول مرة ، وإنما يستخدمها بعد أن استخدمها غيره من قبله ، فجاء صاحبنا الدائن فمحا الكتابة السابقة ، وكتب عليها دينه ، ولكن آثار الكتابة

(١) كتب الأستاذ المستشرق كرنكو مقالة عنوانها « استخدام الكتابة في حفظ الشعر العربي القديم » "The Use of Writing for The Preservation of Ancient Arabic Poetry" ونشرت في سنة ١٩٢٢ مع مجموعة مقالات أخرى لكتاب مختلفين في : A Volume of Oriental Studies to E.G. Browne, Edited by J.W. Arnold ص : ٢٦١ — ٢٦٨

وقد أقام بحثه على نقطتين : ذكر الكتابة في الشعر القديم ، واختلاف القراءات للفظة الواحدة . وانظر كتاب « تاريخ الأدب العربي » للمستشرق بلاشير ص ٩٣ — ٩٩ .

السابقة ما زالت باقية يشاهدها أبو ذؤيب فيعرفها ويصفها ، وذلك قوله[١] :

عرفتُ الدِّيارَ كرَقْمِ الدَّوا ... ةِ يَزْبُرُها الكاتبُ الحِمْيَرِىُّ

برَقْمٍ ووشْىٍ كما زُخْرِفَتْ ... بمِيشَمِها المُزْدهاةُ الهَدِىُّ

أدَانَ وأنبـــاَهُ الأوَّلُــو ... نَ أنَّ المُدَانَ المَلِئُّ الوَفِىُّ

فَنَمْنَمَ فى صُحُفٍ كالرِّيَا ... طِ فيهنَّ إرْثُ كِتابٍ مَحِىُّ

وفى أبيات لخُزَز بن لَوْذان السَّدوسى يذكر فيها إنكاره لما كان يعتقده أهل زمانه آنذاك من التشاؤم والتفاؤل بالسوانح والبوارح وعقد التمائم لدفع الغوائل . ويقرِّر فيها أن الدهر قُلَّب لا يدوم له خير ولا يتصل له شر . ولو أننا لم نقف عند هذه المعانى العقلية التى لا تصدر إلا من مثقف متعلم يثور على معتقدات أهل زمانه وأباطيلهم ، فإننا لا نستطيع إلا أن نقف عند آخر بيت منها ، إذ نكاد نفهم منه أن هذا الشاعر قد قرأ الكتب الدينية القديمة ، واشتق منها هذه المعانى التى يصورها ، وذلك قوله[٢] :

لا يَمْنَعَنَّكَ من بُغــا ... ءِ الخَيرِ تَعْقَادُ التَّمائمْ

ولقد غَدَوْتُ وكنتُ لا ... أغْدُو على وَاقٍ وَحاتِمْ

فإذا الأشائمُ كالأيا ... مِنِ والأيامنُ كالأشائمْ

وكذاكَ لا خَيْرٌ ولا ... شَرٌّ على أحَدٍ بدائمْ

قد خُطَّ ذلك فى الزُّبُو ... رِ الأوَّليَّات القدائمْ[٣]

ويصور لنا لبيد صورة غريبة مركبة حين يصف لنا الأطلال ، وذلك فى قوله[٤]

أو مُذْهَب جُدَدٌ على ألواحهـــنَّ الناطقُ المبروز والمختومُ

---

(١) ديوان الهذليين ١ : ٦٤ — ٦٥ .

(٢) لسان العرب (حتم) . والمؤتلف والمختلف : ١٠٢ ، والخزانة ٣ : ١١ حيث يذكر أن خززاً جاهلى .

(٣) الزبور (بضم الزاى) = جمع زبر (بكسرها) ، وهى الكتب .

(٤) ديوانه (فينا ١٨٨٠) ق : ١٦ ، ب : ٣ .

فيشبه رسوم الديار بلوح مذهب عليه مُجدّد ، وهى الطرائق التى فيه ، ويقول الطوسىّ شارح ديوان لبيد ، فيما ينقله عن ابن الأعرابى ، إن المذهب لوح ضُمّت إليه ألواح من جوانبه ، كانوا يضعون عليه الكتب — التى ترسل إلى الملوك — تعظيماً للملك ، لا تمسه إلا يده يأخذ ما شاء ويترك ما شاء . فكانت هذه الكتب الموضوعة إما مبروزة : أى منشورة ، وإما مختومة لم تنشر بعد ؛ وعبّر عن الكتاب المرسل بالناطق .

ومن الأبيات التى تشتمل على ذكر للكتابة ، وقد تدل على أن للشاعر معرفة بالكتابة والقراءة : بيتا مَعقل بن خُويلد ، اللذان يذكر فيهما ما يُفهَم منه أنه قرأ بيته الثانى فى كتاب فاقتبسه ، وذلك قوله [1] :

وإنّى كما قال مُمْلِي الكِتَا ... ب فى الرَّقِّ إذْ خَطّهُ الكاتبُ :
يَرَى الشاهدُ الحاضرُ المُطْمَئِنُّ ... مِنَ الأمر ما لا يَرى الغائبُ

ونحن نكتفى بهذا القدر من الأبيات التى تشتمل على دلالة تشير إلى معرفة قائليها بصور متعددة من الكتابة والقراءة . وأما سائر الأبيات التى تشتمل على ذكر الكتابة وما يتصل بها فقد عرضناها فى مواطنها من الفصل السابق ولا حاجة بنا إلى إعادتها والاستكثار بها .

٦

تلك هى الأدلة العقلية الاستنباطية التى رأينا أنها قد تشير إلى معرفة الشعراء الجاهليين بالكتابة وإلى أن بعض هؤلاء الشعراء ربما استخدم الكتابة فى تقييد

---

(١) ديوان الهذليين ٣ : ٧٠ .

بعض شعره . أما الأدلة الصريحة المباشرة فتتمثل فى هذه الروايات والنصوص التى لممنا نثارها ، وجمعنا متفرقها . وننظمها الآن فى سلك واحد لنرى أنها واضحة صريحة فى أن بعض الشعر الجاهلى كان يُقيَّد . سواء أكان الذين يقيدونه هم الشعراء الجاهليين أنفسهم بخطّ يدهم أم كان هؤلاء الشعراء يستكتبون غيرهم لتقييد شعرهم .

وقد لحظنا — بعد أن جمعنا مادة هذا الفصل — فى هذه الروايات والنصوص أمرين ؛ الأول : أن أكثرها يشير إلى أن هذا الشعر المقيد بالكتابة إنما كان رسائل يبعث بها الشاعر ، ومع ذلك فقد عثرنا على روايات قليلة تشير إلى تقييد الشعر للحفظ . والثانى : أن هذه الرسائل الشعرية كانت شيئاً مألوفاً فى العصور الإسلامية ، وبين أيدينا أخبار ونصوص عنها فى زمنى عمر ومعاوية خاصة ، وحسبنا أن نشير إلى مواطنها [1] . ونحب أن نقدم بخبرين من صدر الإسلام ثم ننتقل إلى أخبار الجاهلية نفسها ونصوصها :

فقد اجتمع الأنصار فى مجلس[2] ، فتذاكروا هجاء النجاشى إياهم ، فقالوا : من له ؟ فقال الحارث بن مُعاذ بن عَفراء : حسان له . . . فتوجه نحوه . والقوم كلهم مُعظِمٌ لذلك ، حتى دق عليه الباب . . . فلما دخل عليه كلمه . فقال : أين أنتم عن عبد الرحمن ؟ قال : إياك أردنا ، قد قاوله عبد الرحمن فلم يصنع شيئاً . فوثب ، وقال : كن وراء الباب ، واحفظ ما ألقى . . . فدخل وهو يقول :

---

(١) نسب قريش : ١١٠ ، ٢٠٩ ، الفائق ١ : ٢٧٤ ، ٢ : ٢٦٦ ، الأغانى (دار الكتب) ٥ : ١٧ — ١٨ و (ساسى) ١٣ : ١٥١ و ١٤ : ١٢٣ ، الجاحظ ، المحاسن والأضداد ١٨٩ ، والحيوان ٢ : ٨٥ ، ابن رشيق ، العمدة (تصحيح النعسانى سنة ١٩٠٧) ١ : ١٧ — ١٨ ، ابن عبد ربه ، العقد ٦ : ١٣١ — ١٣٢ ، ابن قتيبة ، الشعر والشعراء : ٢٢٣ — ٢٢٤ ، ديوان الهذليين ٢ : ٢٥٢ — ٢٥٥ ، ابن سعد ٣ / ١ : ٢٠٥ ، الآمدى ، المؤتلف والمختلف : ٦٣ ، البغدادى ، الخزانة ٢ : ٢٢٥ — ٢٢٦ و ٤ : ٥٩ — ٦٥ .

(٢) ديوان حسان (ط . النيل سنة ١٩٠٤) ص ١٣١—١٣٢ ، وانظر أيضاً البغدادى ، خزانة الأدب (سلفية) ٤ : ٥٥ — ٥٦ .

أَبَنِى الحِمَاسِ أَلَيْسَ مِنْكُمْ ماجِدٌ　　إنَّ المُرُوءةَ فى الحِمَاسِ قَلِيلُ

(ثمانية أبيات) ثم مكث طويلاً على الباب يقول : والله ما أبحرت ، ثم ألقى علىّ :

حارِبنَ كعبٍ ألا الأحلام تَزْجُرُكُم　　عَنِّى، وأنتُمْ من الجُوفِ الجَمَاخيرِ

لا عيبَ بالقوم من طُول ولا عِظَمٍ　　جِسْمُ البغالِ وأحْلامُ العصافير

كأنَّهمْ قَصَب جُوْفٌ ، مَكاسِرُهُ　　مُثَقَّبٌ فيــه أرواحُ الأعاصيرِ

دَعُوا التَّخاجُوَّ وامشُوا مِشْيةً سُجُحاً　　إنَّ الرجالَ أُولُو عَصْبٍ وتذكيرِ

لا ينفعُ الطُّولُ مِن نُوْكِ القلوبِ ، ولا　　يَهْدِى الإلٰهُ سبيلَ المعشرِ البُورِ

إنى سأنصرُ عِرْضِى من سَرَاتِكمُ　　إنَّ الحِماس نَسِىٌّ غيرُ مذكورِ

ألفى أبَاهُ وألفى جَــدَّه حُبِسا　　بمعزِلٍ عن مَعالِى المَجْدِ والخِيرِ

ثم قال للحارث : اكتبها صكوكا ، فألقها إلى غلمان الكتاب . قال الحارث : ففعلت . . »

وقد ذكر الزمخشرى أن طلحة رضي الله عنه أنشد قصيدة ، فما زال شانقاً ناقته حتى كُتبت له القصيدة [١].

وحينما علم كعب بن زهير بإسلام أخيه بُجير كتب إليه [٢] :

ألا أبلغا عنّى بُجَيْراً رسالة　　فهل لك فيما قُلْتَ بالخيفِ هل لكا؟

سُقِيتَ بكأس عند آل محمد　　فأنْهلك المأمونُ منها وعلّكا

فخالفتَ أسبابَ الهُدَى وتَبِعْتَه　　على أىّ شىء ، ويْبَ غيرِك، دَلَّكَا ؟

(١) الفائق ١ : ٦٧٧ .

(٢) الشعر والشعراء ١ : ٩١ ، وانظر أيضاً ابن هشام،السيرة ٤ : ١٤٤ — ١٤٥ .

فلما أتى الكتابُ بُجيراً كتب إلى كعب يقول (١) :

مَن مُبْلِغٌ كعْباً فهل لك فى التى ... تلومُ عليها باطلاً وهى أحْزَمُ
إلى الله-لاالعُزّى ولااللات-وحْدَهُ ... فتنجو إذا كان النَّجاء وتسلمُ
لَدَى يومَ لا ينجو وليس بِمُفْلِتٍ ... من الناس إلا طاهر القلب مسلمُ
فدينُ زهير - وهو لاشىء دينُهُ - ... ودِينُ أبى سُلْمَى علىَّ مُحَرَّمُ

وكان أبو سفيان بن حرب وأبىّ بن خلف الجمحىّ قد كتبا إلى الأنصار كتاباً يعاتبانهم فيه على إيوائهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلبان منهم أن يُخلوا بينه وبين قريش . فكتب إليهما كعب بن مالك الأنصارى فى يوم أحُد بهذا الشعر- وهوأربعة عشربيتاً - يرد عليهما فيه، ويذكر أسماء النقباء(٢) :

أبْلِغْ أُبَيّاً أنه فال رَأيُهُ ... وحان غداة الشِّعب والحَيْنُ واقعُ
أبى الله ما منَّتْكَ نفسُك إنه ... بمرصاد أمر الناس راءٍ وسامعُ
وأبلغ أبا سفيان أن قد أضا لنا ... بأحمد نورٌ من هُدَى الله ساطعُ
فلا تَرْغَبَنْ فى حشد أمرٍ تريده ... وألِّبْ وجَمِّعْ كلَّ ما أنت جامع
ودُونَك فاعلم أنَّ نَقْضَ عهودنا ... أباهُ عليك الرَّهْطُ حين تبايعوا

ثم يذكر أسماء النقباء ، ويختم الأبيات الأربعة عشر بقوله :

أولاك نجومٌ لا يُغِبُّك منهُمُ ... عليك بنحسٍ فى دُجى الليل طالعُ

وذكروا أن الناس أصبحوا يوماً بمكة ، فرأوا مكتوباً على دار الندوة (٣) :

---

(١) ابن هشام : السيرة ٤ : ١٤٥ - ١٤٦ .

(٢) المعجم : ٢٧١ - ٢٧٤ ، والأبيات فى السيرة ٢ : ٨٧-٨٨ .

(٣) ابن سلام - طبقات فحول الشعراء : ١٩٦ - ١٩٧ السفاسير : مفردها سفسير ، وهو السمسار .

ألهى قُصَيًّا عن للمجد الأساطيرُ وَرَشوَةٌ مثلَ ما تُرْشَى السَّفاسِير
وأكلُها اللَّحْم بَحْتاً لا خليطَ له وقولُها : رَحَلَتْ عِيرٌ ، أَتَتْ عيرُ

وذكروا أن النعمان بن المنذر ولّى بعض الأعراب بابَ الحيرة مما يلى البرية ، فصاد الأعرابى ضَبًّا ، فبعث به إلى النعمان وكتب إليه[1] :

جَبَى المالَ عُمَّال الخراج وَجَبْوتى مُقَطَّعَةُ الآذان صُفْرُ الشَّواكل
رَعَيْنَ الرُّبا والبقْلَ حتى كأنَّمــا كَساهُنَّ سُلطانٌ ثيابَ المراجل

ويبدو أن طبيعة حياة القصور فى بلاط النعمان وما يكثر فيها من دس ووقيعة ووشايات كانت تضطر الشعراء إلى أن يدفعوا عن أنفسهم هذه الدسائس، فينجوا بأنفسهم مخافة الفتك بهم ، ثم يقولوا شعراً ويكتبوه ويرسلوه إلى النعمان . فن ذلك تلك القصائد الكثيرة التى كان يقولها عدى بن زيد فى سجنه ويكتب بها إلى النعمان [2]. ومن ذلك أيضاً أن النابغة ــ بعد أن هرب من النعمان ومكث عند آل جفنة ــ أرسل إلى النعمان قصائد يعتذر إليه بها ، ويحلف له : أنه ما فرط منه ذنب [3] .

ومن ذلك أيضاً أن النعمان أمر الربيع بن زياد العبسى بالانصراف ، فلحق بأهله وكتب إلى النعمان أبياتاً يعتذر فيها ، وهى [4] :

لئنْ رَحَلَتْ جمالِى إنَّ لِى سَعَةً ما مثلُها سَعَةٌ عَرْضاً ولا طُولا

---

(١) الزجاجى : الأمالى : ١١٥. الشواكل : الخواصر . ثياب المراجل : ثياب مخططة تعمل فى اليمن .

(٢) الأغانى ٢ : ١١٥ .

(٣) البغدادى : الخزانة ٢ : ٣٩٢ – ٣٩٣

(٤) الأغانى ١٦ : ٢٢ – ٢٣ وأمالى السيد المرتضى ١ : ١٩٢ .

بحيث لو وُزِنَت لخمٌ بِأَجْمَعِها لم يَعْدِلوا رِيشَةً من رِيش شَمْويلا
ترْعَى الروائم أحرارَ البقــولِ بِهَا لا مثلَ رَعْيكُمُ ملحاً وغَسْوِيلا
فَابْرُقْ بأرضك يا نعمانُ مُتَّكِئاً مع النطَامِيِّ يوماً وابن تَوْفِيــلا

فكتب إليه النعمان جواباً عن أبياته بأبيات أخرى هي قوله ·

شَرِّدْ بِرَحْلك عنى حيثُ شئتَ ولا تُكثِرْ علىَّ ودَعْ عَنك الأباطيلا
فقد ذُكِرتَ به والركب حامله ورداً يعلِّل أهل الشام والنيلا
فما انتفاؤك منه بعد ما خرعت هوج المطى به إبراق شمليلا
قد قيل ذلك إن حقا وإنْ كَذِباً فما اعتذارك من قولٍ إذا قيلا
فالْحَقْ بحيث رأيتَ الأرضَ واسعةً وانشر بها الطَّرْفَ إنْ عرضاً وإن طولا

وبلغ عمرو بن كلثوم أن النعمان بن المنذر يتوعده فدعا كاتباً من العرب فكتب إليه[١] :

ألا أبلغ النُّعْمانَ عنِّى رِسالةً فَمَدْحُكَ حَوْلِىٌّ وذَمُّكَ قَارِحُ
متى تَلْقَنى فى تَغْلِبَ ابنةِ وائلٍ وأشياعِها ترْقَى إليك المسالحُ

وغضب الحارث بن مارية الغسانى على عبد العزى بن امرئ القيس الكلبى فتهدده ، فدعا عبد العزى ابنيه : شراحيل وعبد الحارث ، فكتب معهما إلى قومه[٢] :

جَزَانى ـ جَزاهُ اللهُ شرَّ جزائهِ ـ جَزاء سِنِمَّارٍ وما كان ذا ذَنْبِ
سِوَى رَصِّهِ البُنيانَ عِشْرين حِجَّةً يعلّ عليه بالقراميدِ والسَّكْبِ

---

(١) الأغانى (دار الكتب) ١١ : ٥٨ .
(٢) الخزانة ١ : ٢٦٨ .

وهى أبيات[١] .

ولما طال سجن على بن زيد ، فى حبس النعمان ، كتب إلى أخيه أبىّ وهو مع كسرى بهذا الشعر[٢] :

أبلِغْ أبيا على نأيِهِ وهل يَنْفَعُ المَرْءَ ما قد عَلِمْ
بأن أخاكَ شقيقَ الفُؤا دِ كنتَ به واثِقاً ما سَلِمْ
لَدَى مَلِكٍ مُوثَقٌ فى الحَديـــدِ إما بحقٍّ وإمــا ظُلِمْ
فلا أعْرِفَنْكَ كدأبِ الغُلا مِ ما لم تَجِدْ عارماً تَعْتَرِمْ[٣]
فأرضَك أرضَك إنْ تأتِنا تَنَمْ نَوْمَةً ليس فيها حُلُمْ

فكتب إليه أخوه أبىّ رسالة شعرية أخرى أبياتها عشرة نكتفى بذكر مطلعها :

إنْ يكن خانك الزمان فلا عا جِزُ باعٍ ولا ألَفٌ ضعيفُ[٤]

ثم قام أبىّ إلى كسرى فكلمه فى أمره وعرّفه خبره ، فكتب إلى النعمان يأمره بإطلاقه .

وكان أحمر بن جندل أسيراً ، فى يدى صَعصَعة بن محمود بن عمرو بن مرثد ، فأطلقه ؛ فقال أخوه سَلامة بن جَندَل هذه الأبيات وبعث بها إلى صعصعة[٥] :

سأجْزِيك بالقِدِّ الذى قد فَكَكْتَه سأجْزِيكَ ما أبْلَيْتَنَا العَامَ صَعْصَعَا

---

(١) الأبيات فى الثعالبى ، ثمار القلوب : ١٠٩ .

(٢) الأغانى ٢ : ١١٨ – ١٢٠ .

(٣) العارم : الراضع ، يقول : إن لم تجد من يرضع منها درت هى فحلبت ثديها ، وربما رضعته ثم مجته من فيها .

(٤) الألف : الثقيل البطىء الكلام .

(٥) ديوان سلامة : ٢١ – ٢٢ ، وانظر البيان والتبيين ٣ : ٢١٨ مع اختلاف فى الألفاظ وترتيب الأبيات .

فإنْ يكُ محمودٌ أباكَ فإننا ... وجدناكَ منسوباً إلى الخير أَرْوَعا
سأُهْدِي ، وإن كُنَّا بِتَثْلِيثَ ، مِدْحَةً ... إليك ، وإن حلَّت بيوتُك لَعْلَعا
فإن شئتَ أَهْدَيْنا ثَناءً ومِدْحَـةً ... وإن شئْتَ عَدَّينا لكم مائةً معا

وكان الأسرى ينتهزون كل فرصة ليكتبوا إلى قومهم يعلمونهم بحالهم ؛ فمن ذلك أنّ رجلاً من بنى تميم كان أسيراً فكتب إلى قومه[1] :

حُلُّوا عن الناقة الحمراء أَرْحُلَكُمْ ... والبازلَ الأَصْهَبَ المعقول فاصطَنِعوا
إنَّ الذئاب قد اخضرَّتْ براثنُها ... والناسُ كُلُّهمُ بكْرٌ إذا شَبِعُوا

ومن ذلك أيضاً أن قَبيصةَ بن كلثوم السكونى أسره بنو عامر بن عقيل ، فمرّ به أبو الطمحان القينىّ ، فوعده مائة ناقة إن هو بلغ قومه رسالة ، ثم كتب على مؤخر رحل أبى الطمحان[2] :

بَلِّغا كِنْدَةَ المُلوكَ جميعًا ... حيث سارت بالأكرمين الجِمالُ
أنْ رِدُّوا العَيْنَ بالخَميسِ عِجالًا ... واصْدُرُوا عنه والرَّوايا ثِقـالُ
هزئت جارتى وقالت عجيبًا ... إذ رأتنى فى جِيدِيَ الأغلالُ
إن تَرَيْنِى عارِى العِظامِ أَسِيرًا ... قد بَرانى تَضَعْضُعٌ واختلالُ
فلقد أَقْدُمُ الكتيبة بالسَّيْـ ... ـفِ عَلَىَّ السِّلاحُ والسِّرْبالُ

وقد مر بنا ذكر الكتابة على الرحل حين تحدثنا عن أدوات الكتابة ، وقلنا آنذاك إنه كان أمراً مألوفاً حين يضطر المرء وتُعجزه وسيلة أخرى للكتابة ، ومثّلنا على ذلك بالكتابة على الرحل زمن الرسول والصحابة[3] .

(١) القالى ، الأمالى ١ : ٧ .
(٢) الأغانى ١١ : ١٣١ .
(٣) انظر ابن سعد ٣/٢ : ١٥١ ، وتقييد العلم : ١٠٢ .

وكان أيضاً ممن كتب على الرحل من الشعراء الجاهليين : المرقش[١] ، وذلك أنه مرض فى الطريق — وكان معه عَسِيفٌ له من غُفيلة ، ووليدة هى امرأة الغفلىّ — فسمع مرقشٌ زوجَ الوليدة يقول لها : اتركيه فقد هلك سقماً وهلكنا معه ضُرًّا وجوعاً . فجعلت الوليدة تبكى من ذلك ، فقال لها زوجها : أطيعينى ، وإلا فإنى تاركك وذاهب . . . فلما سمع مرقش قولَ الغفلى للوليدة كتب مُرَقش على مؤخرة الرحل هذه الأبيات :

يا صاحِبَىَّ تَلَبَّثا لا تَعْجَلا ... إن الرَّوَاحَ رَهِينُ ألاَّ تَفْعَلا
فلعلَّ لُبْثَكُما يُفَرِّطُ سَيِّئًا ... أو يَسْبِقُ الإِسْرَاعُ سَيْبًا مُقْبِلا
يا راكبًا إمَّا عَرَضْتَ فبلِّغَنْ ... أنَسَ بن سَعْدٍ إن لَقِيتَ ، وَحَرْمَلا
لِلّهِ دَرُّكُما ودَرُّ أبيكما ... إنْ أفْلَتَ العَبْدَانِ حتَّى يُقْتَلا
مَن مُبْلِغُ الأقوامِ أنَّ مُرَقِّشًا ... أضْحَى على الأصحابِ عِبْئًا مُثْقِلا
وكأنما تَرِدُ السِّباعُ بشِلْوِهِ ... إذْ غابَ جمعُ بنى ضُبَيْعَةَ — مَنْهَلا

وهل أبلغ فى الدلالة على شيوع كتابة الشعر فى الرسائل من هذه الأبيات التى أرسلها الحارث بن كلدة إلى بنى عم له يعاتبهم لأنه كتب إليهم قبلها فلم يجيبوه ، قال[٢] :

ألا أبْلِغْ مُعَاتَبَتِى وقَوْلِى ... بَنِى عَمِّى فَقَدْ حَسُنَ العِتابُ
وَسَلْ : هلْ كانَ لِى ذنبٌ إليهمْ ... وهُمْ منه — فَأَعْتِبَهُمْ — غِضابُ
كتبتُ إليهِمُ كُتُبًا مِرارًا ... فلم يَرْجِعْ إلىَّ لها جَوابُ

ومن أشهر الشعر الجاهلى الذى قُيد بالكتابة على الصحف : قصيدة لَقيط

(١) المفضليات : ٤٥٩ — ٤٦٠ ، وانظر الأغانى ٦ : ١٣٠ — ١٣١

(٢) حماسة ابن الشجرى : ٦٨ .

ابن يعمر الأيادىّ التى أرسلها إلى قومه ينذرهم غزو كسرى إياهم ، وقد كتب قبل القصيدة مقدمةً شعرية من أربعة أبيات جعلها كالعنوان ، وهى[1] :

سَلامٌ فى الصَّحِيفةِ من لَقِيطٍ   إلى مَنْ بالجزيرةِ مِنْ إيادِ
بأَنَّ اللَّيثَ كِسْرَى قَدْ أَتاكُم   فلا يَشْغَلْكُمُ سُوقُ النِّقَادِ
أَتاكُمْ مِنْهُمُ سِتُّونَ أَلْفًا   يُزَجُّون الكَتائبَ كالجَرَادِ
على حَنَقٍ أَتَيْنَكُمُ ، فهٰذا   أَوَانُ هَلاكِكُمْ كَهَلاكِ عادِ

أما القصيدة نفسها بعد هذه المقدمة الشعرية فهى العينية المشهورة التى يصف فيها الشاعر حال قومه وضعفهم وتخاذلهم وقوة عدوهم ، ثم يبين لهم مايجب أن يتحلى به من يولُّونه قيادتهم من صفات ، ومطلعها[2] :

يا دَارَ عَمْرَةَ مِنْ مُحْتَلِّهَا الجَرَعا   هاجَتْ لِيَ الهَمَّ والأَحْزانَ والوَجَعَا

وهى خمسة وخمسون بيتاً يختمها بقوله :

هذا كِتابِى إِليكُمْ والنَّذِيرُ لكُمْ   لِمَنْ رَأَى رَأْيَهُ مِنْكُمْ وَمَنْ سَمِعا

* * *

ذلك هو تقييد الشعر الجاهلى ، وقد جمعنا ما استطعنا أن نعثر عليه من أدلة عقلية ونقلية تسنده . وقد انتهت بنا كلُّها إلى ترجيح أنّ الشعر الجاهلى كان يقيَّد فى صحف متفرقة لأغراض شتى . غير أن هذا كله مرحلة واحدة من مراحل بحثنا تقودنا إلى مرحلة تالية نتحدّث فيها عن تدوين الشعر الجاهلى .

---

(١) الشعر والشعراء ١ : ١٥٢ .
(٢) مختارات ابن الشجرى : القصيدة الأولى .

الفصل الثاني

تدوين الشعر الجاهلي

١

والحديث عن تدوين الشعر الجاهلي لا تستقيم أمامنا طرائقه إلاّ إذا عبّدْنا من حوله سبل الحديث عن نشأة التدوين العام وأوائل المؤلفات المدوّنة . وذلك لأنه لا تخصيص إلا بعد تعميم ؛ فإذا كان الأصل الكُلّي — وهو التدوين عامةً — ما زال غامض النشأة ، مشكوكاً في بداياته ، منكوراً قِدَمُه وسَبقه ، فإن الفرع الجزئي — وهو تدوين الشعر الجاهلي بخاصة — لا يصح أن يقوم وحده معلقاً في الفضاء ، وحوله سحب الشك والإنكار[1] .

فإذا ما أضفنا إلى ذلك أن هذا التدوين العام : سواء أكان تفسيراً أم حديثاً أم لغة أم أدباً عامّاً — يشتمل في طياته على شعر جاهلي ، بل على شعر جاهلي كثير — استبنّا ، لهذين الأمرين مجتمعين ، ضرورة الإلمام بأطراف من نشأة التدوين على أن نوجز القول إيجازاً ، ونقتضبه اقتضاباً ، ونكتفي منه باللمحة

---

(١) وتفصيل ذلك أن المشهور المتداول أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيت تنتقل بالرواية الشفهية جيلا بعد جيلٍ نحو مائة سنة أو تزيد ، حتى قيض لها أن تدون . وأقدم زمن تحدده الروايات لتدوين الحديث يتصل بعهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز .

أما كتب اللغة والشعر والأدب عامة ، فإن المعروف أنها لم يبدأ تدوينها إلا في نهاية القرن الثاني الهجري ومطلع القرن الثالث . بل لقد وجد من ينكر هذا التاريخ المتأخر ، ويعد ما وصل إلينا من مدونات منسوبة إلى رجال نهاية القرن الثاني لم يكن إلا دروساً شفهية لم يدونوها وإنما دونها تلامذتهم أو تلامذة تلامذتهم ثم نسبوها إلى شيوخهم . وبذلك لا يبدأ التدوين ، فيما يرى هذا الفريق ، إلا في نهاية القرن الثالث الهجري . (انظر ما كتبه المستشرق هـ . ا . ر . جب في مجلة الأدب والفن — السنة الأولى ، الجزء الثاني ، سنة ١٩٤٣ ، بعنوان « بدء التأليف النثري » وخاصة من ص ١٢ — ١٨) .

الدالة . فلسنا نقصد إلى هذا الحديث لذاته ، وإنما نتوسل به إلى موضوعنا الأصيل ، ونتخذه معبراً نجتازه إلى بحث تدوين الشعر الجاهلى .

• • •

وأول ما يعرض لنا ، قبل المضىّ فى البحث ، سؤالان تعتمد على إجابتهما خطواتُنا التالية . الأول : هل كانت الصحف من الكثرة والشيوع بمنزلة يتيسر معها أن يوجد التدوين ؟ والثانى : ما هو المظهر اللغوى ، أو الصورة اللغوية للتدوين فى صدر الإسلام ؟

وتبدو لنا قيمة السؤال الأول فى أن التدوين والتأليف لا يقوم لهما وجود إلا إذا كانت الصحف التى تُتخذ للكتابة من الوفرة والانتشار بمنزلة يتيسر معها ، لمن أراد ، أن يشترى منها ما يفى بحاجته ، فيستطيع أن يضم بعضها إلى بعض ، ويؤلف أجزاءها ، ويجعل من مجموعة هذه الصحف ديواناً مؤلفاً . أما إذا كانت الصحف مفقودة أو نادرة أو عزيزة مرتفعة الثمن لا يُستطاع الحصول عليها إلا بشق النفس أو بعد أن يُبذل فى شرائها من المال ما لا يطيقه إلا الموسرون الأثرياء ، فإن استخدام الصحف للكتابة فى هذه الحالة لا يكون إلا فى نطاق ضيق محدود لا يتيسر معه وجود التدوين والتأليف .

ويبدو لنا ، مما عثرنا عليه من روايات ونصوص ، أن الصحف كانت منذ الصدر الأول كثيرة شائعة ، وأنه كانت لها أسواق أو متاجر خاصة تباع فيها ، ويقوم على بيعها رجال يختصون بهذا الضرب من التجارة ويُعرفون به ويُلقَّبون بالوراقين . ويبدو لنا كذلك أن هذه الصحف كانت أثمانها زهيدة يستطيع الناس أن ينالوا منها ما يريدون من غير أن يتكلفوا من أمر مالهم رهقاً .

ومما يدل على هذا الضرب من التجارة ، وعلى توافر الصحف فى الأسواق ، وسهولة الحصول عليها ، ما رُوى من أنّ علىّ بن أبى طالب خطب الناس فى الكوفة ، فقال : من يشترى علماً بدرهم ؟ فاشترى الحارث الأعور صحفاً بدرهم ،

ثم جاء بها عليًّا ، فكتب له علماً كثيراً[١] . وما رُوى أيضاً عن أبى الشعثاء سُليم بن أسود قال : كنت أنا وعبد الله بن مرداس ، فرأينا صحيفة ، فيها قصص وقرآن ، مع رجل من النَّخَع ، قال : فواعدنا المسجد، قال ، فقال عبد الله ابن مرداس : أشترى صحفاً بدرهم[٢] (يريد أن ينسخها فيها) . وعن إبراهيم أن علقمة اشترى ورقاً فأعطى أصحابه فكتبوه له[٣] . وعن وكيع عن مُحِلّ قال ، قلت لإبراهيم : لا بد للناس من المصاحف . فقال : اشتر المداد والورق واستعِنْ (يعنى من يكتب له)[٤] .

وكان مطر بن دهمان مولى علىّ بن أبى طالب يُدعَى مَطراً الوراق[٥] ؛ ويروى أبو عبيدة أن المهلب قال لبنيه فى وصيته : يا بنى لا تقوموا فى الأسواق إلا على زرّاد أو ورّاق[٦] .

ومما يؤيد ما ذكرناه من انتشار الصحف وبيعها فى الأسواق وسهولة الحصول عليها وجودُ طبقة من النساخ كان بعضهم يحترف النساخة ويؤجّر عليها . وممن كان ينسخ فى الصحف : عمرو بن نافع مولى عمر بن الخطاب[٧] ، ومالك ابن دينار الذى قال[٨] : دخل علىّ جابر بن زيد ، وأنا أكتب مصحفاً ، فقلت : كيف ترى صنعتى هذه يا أبا الشعثاء ؟ فقال : نعم الصنعة صنعتك ، ما أحسن هذا تنقل كتاب الله من ورقة إلى ورقة ، وآية إلى آية ، وكلمة إلى كلمة ، هذا الحلال لا بأس به . وكان سَلمة بن دينار الأعرج أيضاً من

---

(١) ابن سعد ٦ : ١١٦ ، وتقييد العلم : ٩٠ .
(٢) تقييد العلم : ٥٥ .
(٣) مصاحف السجستانى : ١٣٣
(٤) مصاحف السجستانى: ١٦٩ و ١٧٢ ، وانظر : ٩٠ (هامش : ٤) من هذا الكتاب .
(٥) المصدر السابق : ١٧٧ .
(٦) الحيوان ١ : ٥٢ .
(٧) مصاحف السجستانى : ٨٦ .
(٨) المصدر السابق : ١٣١ .

هؤلاء النساخين[١] ، وكان يأتيه الناس يكتبون حديثه ، وممن كان يأتيه ابن شهاب الزهرى ، فكان الزهرى يأخذ ورقة من ورق الأعرج فيكتب فيها الحديث ثم يقرأه ثم يمحوه مكانه ؛ وربما قام بها معه ، فيقرأها ثم يمحوها .

ومهما يكن عمل هؤلاء النساخ ، أو الموضوع الذى ينسخونه ، فإن الذى يعنينا من أمرهم أن قيام طبقة خاصة من النساخ دليل نضمه إلى الأدلة السابقة ، فتشير كلها إلى توافر الصحف فى الأسواق ، ووجود محال خاصة لتجارتها ، وقيام أفراد يختصون ببيعها وبالنسخ عليها ، واستطاعة الناس آنذاك شراءها[٢] .

٢

فإذا كان ذلك كذلك ، فما هو المظهر اللغوى ، أو الصورة اللغوية ، للتدوين فى هذا العصر المبكر ؟ . ونقصد بذلك الألفاظ التى كانوا يطلقونها ليدلوا بها على مجموعة الصحف المدونة . فإذا كانوا قد عرفوا التدوين والتأليف فلا شك فى أنهم استخدموا ألفاظاً خاصة لمجموعة صحفهم تختلف عن ألفاظهم

---

(١) تقييد العلم : ٥٩ .

(٢) أما ما روى من قول عمرو بن ميمون : مازلت ألطف أنا وعمر بن عبد العزيز فى أمر الأمة حتى قلت له : يا أمير المؤمنين ، ما شأن هذه الطوامير التى يكتب فيها بالقلم الجليل يمد فيها وهى من بيت مال المسلمين ؛ فكتب فى الآفاق أن لا يكتبن فى طومار بقلم جليل ولا يمدن فيه . قال : فكانت كتبه إنما هى شبر أو نحوه (ابن سعد ٥ : ٢٩٥ – ٢٩٦) ؛ وما روى أيضاً من أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبى بكر بن حزم : أما بعد ، فكتبت تذكر أن القراطيس التى قبلك قد نفدت وقد قطعنا لك دون ما كان يقطع لمن كان قبلك ، فأدق قلمك وقارب بين أسطرك واجمع حوائجك ؛ فإنى أكره أن أخرج من أموال المسلمين مالا ينتفعون به . (المصدر السابق) ، فهذان النصان لا ينقضان ما قدمنا ، ولا يعنيان أن الصحف آنذاك كانت قليلة نادرة غالية الثمن – كما ذهب الأستاذ جب فى مقالته عن « بدء التأليف النثرى » ص : ٦ . فنص هاتين الروايتين واضح فى أن ذلك إنما هو « لطف فى أمر الأمة » وكره لأن « يخرج من أموال المسلمين ما لا ينتفعون به » . فرده إذن إلى القصد والاعتدال والتوفير وعدم الإسراف والتبذير .

الدالّة على الصحيفة المفردة . وسنعرض هنا بعض هذه الأبيات ليزداد اطمئناننا إلى معرفتهم بالتدوين آنذاك . فمنها :

الدفتر : ذكر الصولى[١] أنه ما سُمِع شيء في اشتقاقه إلا أنه عربى فصيح. وقد ورد ذكره فى كلام لعمر بن الخطاب ، حينما جاءه بنو عدى يكلمونه فى أمر ترتيب عطائهم فى الديوان ، فقال[٢] : بخ بخ بنى عدى ، أردتم الأكل على ظهرى لأن أذْهِبَ حسناتى لكم ، لا والله حتى تأتيكم الدعوة ، وإن أطبق عليكم الدفتر . يعنى : ولو أن تكتبوا آخر الناس .

وقال ابن شهاب الزهرى[٣] : خرجنا مع الحجاج بن يوسف إلى الحج ، فلما كنا بالشجرة ، قال : تبصّروا الهلال ، فإن فى بصرى عُهدة . فقال له نوفل ابن مساحق : أتدرى مِمّ ذاك ؟ ذاك من كثرة نظرك فى الدفاتر .

وورد ذكر الدفتر كذلك فى الشعر الإسلامى المبكر . قال جندل بن المثنى الطهوى[٤] :

هَلَّا بحجر يا ربيعُ تُبْصِرُ   قد قُضِيَ الدَّيْنُ وَجَفَّ الدَّفْتَرُ

الكراسة : وربما سموا مجموعة الصحف أو الأوراق كراسة ؛ قال إبراهيم[٥] وما فرغ علقمة (ابن قيس النخعى المتوفى سنة ٦٢) من مصحفه حتى بعث إلى أصحابه الكراسة والكراستين والورقة والورقتين .

وكان الضحاك يقول[٦] : لا تتخذوا للحديث كراريس ككراريس المصاحف .

---

(١) أدب الكتاب : ١٠٨ .
(٢) ابن سعد ٣ / ١ : ٢١٢ .
(٣) تقييد العلم : ١٤٠ .
(٤) الصولى : أدب الكتاب : ١٠٨ .
(٥) مصاحف السجستانى : ١٦٩ .
(٦) تقييد العلم : ٤٧ .

الكتاب : وقد مر بنا ، في حديثنا عن أدوات الكتابة ، بعض ما ورد فيه لفظ الكتاب من الشعر الجاهلي ، وقلنا آنذاك إن الكتاب مصدرٌ كالكتابة ، ولكنه لكثرة استعماله ودورانه أصبح اسماً يطلق على الشيء المكتوب . وسنعرض بعض الروايات التي يرد فيها لفظ الكتاب بمعنى : الديوان أو الصحف المجموعة ، وبذلك يكون معناه آنذاك كمعناه عندنا الآن .

فقد جاء ابن قرّة بكتاب إلى ابن مسعود، وقال[١] : وجدته بالشام فأعجبني فجئتك به . قال : فنظر فيه ابن مسعود ، ثم قال : إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم الكتب وتركهم كتابهم .

وهذا عبيدة بن عمرو السلماني المرادىّ (– ٧٢) دعا بكتبه عند موته ، فمحاها ، وقال[٢] : أخشى أن يليها أحد بعدي فيضعوها في غير مواضعها . وكذلك وضع كُرَيب (– ٩٨) عند موسى بن عُقبة حمل بعير من كتب ابن عباس (– ٦٨)[٣] . وأوصى كذلك أبو قلابة عبدُ الله بن زيد (– ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٧) أن تُدفع كتبه بعد موته إلى أيوب السختياني إن كان حيّاً وإلا فلتحرق[٤] . وكذلك أمر شعبة بن الحجاج ابنه أن يغسل كتبه ويدفنها بعد موته[٥] .

ألفاظ أخرى : وكانوا كذلك يطلقون على الكتاب المجموع لفظ : المصحف – ويقصدون به مطلق الكتاب لا القرآن الكريم وحده . فمن ذلك ما ذكره بقية قال[٦] : دفع إليّ بحير مصحفاً لخالد بن معدان (الكلاعي المتوفى سنة ١٠٤) فيه علمه أخذه منه مكتوباً في تخته وله مثل دفتي المصحف وله عُرى وأزرار .

---

(١) تقييد العلم : ٥٣ .
(٢) ابن سعد ٦ : ٦٣ .
(٣) ابن سعد ٥ : ٢١٦ .
(٤) ابن سعد ١/٧ : ١٣٥ و ٢/٧ : ١٧ .
(٥) تقييد العلم : ٦٢ .
(٦) مصاحف السجستاني : ١٣٤ – ١٣٥ .

وثمة ألفاظ أخرى ذكرنا بعضها فى الفصل الأول ، وليس من هدفنا استقصاء هذا البحث ، وإنما أوردنا هذه اللمحة العامة لنبين أن الألفاظ التى كانوا يطلقونها على تلك المجموعات توضح – بصورتها اللغوية وبالأخبار التى وردت فيها – أن القوم قد عرفوا التدوين بالمعنى الاصطلاحى منذ عهد التابعين الأولين ومن قبلهم الصحابة أنفسهم . بل لقد أوردنا فى الفصل الأول ألفاظاً استعملت فى الجاهلية تدل على المجموع المدوّن وكانت خاصة بالكتب الدينية مثل : السفر والزبور ، وذكرنا هناك من أمثلة الكتب المدونة : التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى من العرب ، وأشرنا إلى مجلة لقمان مع سويد بن الصامت[١] ، وكتاب دانيال زمن عمر بن الخطاب ، وأن عمر بن الخطاب نفسه انتسخ كتاباً من كتب أهل الكتاب فى أديم فغضب من ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] .

ويبدو أن هذه الكتب قد بلغت فى زمن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب من الكثرة والانتشار ما كان يُخشى منه الضلالُ والانصرافُ إليها عن قراءة القرآن . قال القاسم بن محمد[٣] إن عمر بن الخطاب بلغه أنه قد ظهر فى أيدى الناس كتب ، فاستنكرها وكرهها ، وقال : « أيها الناس ، إنه قد بلغنى أنه ظهرت فى أيديكم كتب ، فأحبها إلى الله أعدلها وأقومُها ، فلا يُبقين أحدٌ عنده كتاباً إلا أتانى به ، فأرى فيه رأيى . قال : فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها ، ويقوّمها على أمر لا يكون فيه اختلاف ؛ فأتوه بكتبهم ، فأحرقها بالنار » .

وقد تعنى لفظة الكتب هنا : الكتب الدينية ؛ ولكنها قد تحتمل أيضاً سائر الكتب . فالخوف من الضلال والانصراف إلى هذه الكتب عن القرآن الكريم ينسحب على الكتب جميعها ؛ وقد تتضمن هذه الكتب بعض ما كان يدوّنه

---

(١) ابن هشام ، السيرة ٢ : ٦٨ .
(٢) تقييد العلم : ٥١ – ٥٢ .
(٣) تقييد العلم : ٥٢ .

الجاهليون من كتب حكمهم وعلمهم[١] ؛ وقد تتضمن كتبَ الأدب والأخبار الجاهلية التي تقص أخبار الجاهلية وأشعارها بما فيها من أيام ووقائع ومنازعات ، فتثير الخصومات ، وتحيي حمية الجاهلية ، مما لا تحمد عقباه . فإذا كانوا آنذاك ينهون عن رواية الشعر الجاهلي الذي يبعث هذه المنازعات ، فإن الأولى أن يحرقوا ويمزقوا تلك الكتب التي تشتمل على هذه الأخبار والأشعار .

ثم لا يكاد يمضي من القرن الأول نصفه حتى ترى قيام نادٍ فيه مكتبة عامة تحوى كتباً في شتى الموضوعات ، يؤمها الناس فيقرءون ما يشاءون منها ؛ فقد كان « عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحيّ قد اتخذ بيتاً ، فجعل فيه شطرنجات ونرْدات وقِرْقات ، ودفاتر فيها من كل علم . وجعل في الجدار أوتاداً ، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ، ثم جرّ دفتراً فقرأه ، أو بعض ما يُلعَب به فلعب به مع بعضهم »[٢] .

وليس في هذا ما يُستغرب فقد كان عدد القارئين الكاتبين كبيراً حتى إن الضحاك بن مزاحم — في النصف الثاني من القرن الأول — كان في مكتبه ثلاثة آلاف صبي ، وكان يطوف عليهم على حمار[٣] .

وهل أدل على هذه النهضة العلمية التأليفية المبكرة في القرن الأول — من أن خالد بن يزيد بن معاوية — وقد كان خطيباً شاعراً وفصيحاً جامعاً وجيد الرأي كثير الأدب — قد انصرف إلى العلم وتأليف الكتب وترجمة بعضها إلى العربية ، فكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء[٤] .

ومما يدل على وجود خزائن الكتب في زمن الأمويين ، وعلى قِدَم حركة النقل والترجمة ، ما ذكره ابن جُلجل في ترجمة ماسرجويه من أنه « كان يهودي

---

(١) انظر ص : ١٦٥ — ١٦٩ من هذا البحث .
(٢) الأغاني ٤ : ٢٥٣ .
(٣) ياقوت : إرشاد (ترجمة الضحاك بن مزاحم) .
(٤) البيان والتبيين ١ : ٣٢٨ .

المذهب سريانيًّا ، وهو تولى فى الدولة المروانية تفسير كتاب أهرُن بن أعين القس إلى العربية ، ووجده عمر بن عبد العزيز فى خزائن الكتب ، فأمر بإخراجه ووضعه فى مُصلاه ، فاستخار الله فى إخراجه إلى المسلمين للانتفاع به ، فلما تمّ له فى ذلك أربعون صباحاً أخرجه إلى الناس وبثه فى أيديهم »[1] .

فمنذ مطلع القرن الأول الهجرى إذن حتى نهايته — فيما تتبعناه — كانت صحف الكتابة كثيرة ، موجودة فى الأسواق ، زهيدة الأثمان ، وبذلك وُجدت الكتب والمدونات . وكان عدد القارئين كثيراً ؛ ولم تكن هذه الكتب والمدونات خاصةً بالأفراد أو مقصورة على الاستعمال الشخصى ، بل لقد كانت تُعرَض فى مكتبات عامة كما رأينا . وكانت ، فوق هذا ، تباع فى الأسواق لمن أراد أن يشتريها ويقتنيها ؛ فقد ذكروا أن همام بن مُنبّه كان يشترى الكتب لأخيه وهب ابن منبه (المتوفى سنة ١١٠ هـ) وكان وهب هذا مشهوراً بسعة اطلاعه وكثرة الكتب التى قرأها[2] .

٣

غير أن هذا إجمال عام يقتضينا أن نشير إشارة موجزة إلى أنواع هذا التدوين ، وذكر الموضوعات التى كانوا يدونونها ، لنستبين الصلة بين التدوين العام وتدوين الشعر الجاهلى خاصة . ونقصد من هذا العرض السريع أن نوضح أن تدوين الحديث والتفسير واللغة والأنساب والشعر قد بدأ منذ عهد مبكر جداً ؛ وأنه ليس صحيحاً ما يُذكر من أن التدوين لم يعرفه العرب إلا فى آخر القرن الثانى ومطلع القرن الثالث .

---

(١) طبقات الأطباء والحكماء : ٦١ .

(٢) تهذيب التهذيب ١١ : ٦٧ ، وابن سعد ٥ : ٣٩٥ .

الحديث والفقه :

لقد رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن بعض الصحابة ما يستفاد منه كراهةُ كتابة الحديث . وقد جمع الخطيب البغدادى هذه الأحاديث والآثار فى القسم الأول من كتابه « تقييد العلم »[١] . ولكنه فى القسم الثانى من كتابه جمع من الأحاديث والآثار ما يكشف عن سبب هذه الكراهة ، ثم يعقب عليها بما يُغنى عن إطالة الحديث ، قال[٢] : فقد ثبت أن كراهة من كره الكتاب من الصدر الأول ، إنما هى لئلا يُضاهى بكتاب الله غيرُه أو يُشتغَل عن القرآن بسواه ، ونُهِى عن الكتب القديمة أن تُتخذ ، لأنه لا يُعرف حقها من باطلها ، وصحيحها من فاسدها ، مع أن القرآن كفى منها ، وصار مهيمناً عليها . ونُهِى عن كتب العلم فى صدر الإسلام وجدته لقلة الفقهاء فى ذلك الوقت ، والمميزين بين الوحى وغيره ، لأن أكثر الأعراب لم يكونوا فقهوا فى الدين ، ولا جالسوا العلماء العارفين ، فلم يُؤمن أن يلحقوا ما يجدون من الصحف بالقرآن ، ويعتقدوا أن ما اشتملت عليه كلامُ الرحمن » .

غير أنه قد وردت كذلك أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبار عن صحابته رضى الله عنهم ، تحض على كتابة الحديث ، وقد جمعها الخطيب كذلك فى القسم الثالث من كتابه[٣] .

ولن نعرض لهذه الأحاديث والآثار بشىء ، ففيما صنعه الخطيب البغدادى ما يكفينا ويكفى غيرنا ممن يحب التوسع فى هذا الموضوع . ولكننا سنورد من الأخبار ما يدحض الزعم الشائع أن الحديث ظل أكثر من مائة سنة يتناقله

---

(١) من ص : ٢٩ إلى ص : ٤٩ .

(٢) ص : ٥٧ .

(٣) من ص : ٦٤ إلى ص : ١١٤

العلماء حفظاً دون أن يكتب. وسنبين أن الحديث قد دُوِّن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وواصل الصحابة والتابعون تدوينه بعد ذلك ؛ وأن الحفظ والرواية الشفهية قد سارتا جنباً إلى جنب مع الكتابة والتدوين لا يفصل بينهما فاصل من الزمن، ولا ينفي وجودُ إحداهما وجودَ الأخرى .

فعبد الله بن عمرو بن العاص كان يكتب أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلمه وإذنه ، ولقد سأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم — بعد أن أذن له بكتابة حديثه — : هل يكتب كل ما يسمع ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : اكتب فوالذى نفسى بيده ما خرج منى إلا الحق"[١] . وكان عبد الله بن عمرو يُسمِّى صحيفته التى كتب عليها الأحاديث : الصادقة . قال مجاهد[٢] : رأيت عند عبد الله بن عمرو صحيفة ، فسألته عنها ، فقال : هذه الصادقة فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بينى وبينه فيها أحد . ويقال إن فيها ألفاً من الأحاديث[٣] ، وقد بقيت هذه الصحيفة عند أهل بيته فكان حفيده عمرو بن شعيب يحدِّث[٤] منها . وقد ضمَّن أحمد بن حنبل هذه الصحيفة مُسندَه فصانها من الضياع[٥] .

وصحابى جليل آخر كتب الأحاديث الشريفة هو عبد الله بن عباس . ذكر موسى بن عقبة قال[٦] : وضع عندنا كُرَيب حمل بعير من كتب ابن عباس ، فكان علىّ بن عبد الله بن عباس إذا أراد الكتاب ، كتب إليه : ابعث إلىّ بصحيفة كذا وكذا ؛ فينسخها ويبعث بها .

وصحابى جليل ثالث هو أنس بن مالك خادم رسول الله وملازمه فى بيته ليلاً

---

(١) مسند أحمد : حديث رقم ٦٥١٠ ورقم ٦٨٠٢ .

(٢) ابن سعد ٢/٧ : ١٨٩.

(٣) أسد الغابة ٣ : ٢٣٣ .

(٤) تهذيب التهذيب ٨ : ٤٨ — ٤٩ .

(٥) الدكتور محمد حميد الله : أقدم تأليف فى الحديث النبوى — مقالة فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق — الجزء الأول سنة ١٩٥٣ ص : ١٠٥ .

(٦) ابن سعد ٥ : ٢١٦ .

ونهاراً عشر سنوات . فقد روى هبيرة بن عبد الرحمن أن أنس مالك كان إذا حدّث فكثر عليه الناس ، جاء بمجالٍ من كتب ، فألقاها ثم قال : هذه أحاديث سمعتها وكتبتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرضتها عليه[1] . وكان أنس يحض بنيه على كتابة الحديث[2] .

وصحابي جليل رابع هو أبو هريرة أكثر الصحابة روايةً للحديث . قال ابنٌ لعمرو بن أمية الضمري[3] : تحدثت عند أبي هريرة بحديث ، فأنكره ، فقلت : إني قد سمعته منك . فقال : إن كنتَ سمعته مني فهو مكتوب عندي . فأخذ بيدي إلى بيته ، فأرانا كتباً كثيرة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد ذلك الحديث . وقد كتب عبد العزيز بن مروان إلى كثير بن مرّة الحضرمي — وكان قد أدرك سبعين بدريًّا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — أن يكتب إليه بما سمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديثهم ، إلا حديث أبي هريرة فقد ذكر أنه عنده[4] . وعن بشير بن نَهيك[5] قال : أتيت أبا هريرة بكتابي الذي كتبته فقرأته عليه ، فقلت : هذا سمعته منك ؟ قال : نعم .

ومن كبار التابعين الذين دوّنوا الحديث : عروة بن الزبير (المتوفى سنة ٩٤) — وكانت عائشة خالته — قال هشام بن عروة بن الزبير[6] : أحرق أبي يوم الحرّة كتب فقه كانت له ، فكان يقول بعد ذلك : لأنْ تكون عندي أحبّ إليّ من أن يكون لي مثل أهلي ومالي .

---

(١) تقييد العلم : ٩٥ .
(٢) ابن سعد ٧ : ١٤ .
(٣) الدكتور حميد الله — المقالة المذكورة سابقاً — نقلا من جامع بيان العلم ١ : ٧٤ .
(٤) ابن سعد ٢/٧ : ١٥٧ .
(٥) ابن سعد ٧ : ١٦٢ .
(٦) المصدر السابق ٥ : ١٣٣ .

وكان أول كتاب ظهر للشيعة : كتاب سُلَيم بن قيس الهلالى من أصحاب على"[١] .

وكان سعيد بن جُبير يسائل ابن عباس وابن عمر ، فيكتب ما يسمع منهما من الحديث[٢] . وكانت للحسن البصرى كتب حديث وفقه ، وكان بعض أصحابه يأخذها فينسخها ثم يردها[٣] .

وهمّام بن مُنبِّه جالس أبا هريرة ، وسمع منه أحاديث ، وكتبها فى مجموعة سمّاها : الصحيفة الصحيحة ، كأنه سمّاها على مثال الصحيفة الصادقة التى كتبها عبد الله بن عمرو . والراجح أن هماماً كتبها فى حياة أبى هريرة قبل سنة ٥٨ هجرية . وقد نقل أحمد بن حنبل هذه الصحيفة كاملة فى مسنده[٤] ؛ ونقل البخارى عدداً كبيراً من أحاديثها فى أبواب شتى[٥] . وقد عُثر حديثاً على مخطوطتين من هذه الصحيفة ، ونشرت فى مجلة المجمع العلمى بدمشق[٦] .

فلم يبق عندنا شك إذن فى أن بعض حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كتب منذ عهده ، واستمر الصحابة والتابعون فى كتابته ، وليس من الصواب فى شىء أن يُزعم أن الحديث الشريف بقى مائة سنة أو تزيد يتناقله الناس حفظاً ، ولم يدونوه إلا فى منتصف القرن الثانى للهجرة .

التفسير :

ولا يختلف التفسير عما قدّمنا من أمر الحديث ، فسبيلهما فى ذلك واحدة . إذ يبدو لنا أن كتابة التفسير قد بدأت كذلك من عهد الصحابة ،

---

(١) ابن النديم : الفهرست : ٣٠٧ — ٣٠٨ .

(٢) ابن سعد ٦ : ١٧٩ — ١٨٠ .

(٣) المصدر السابق ٢/٧ : ١٧ .

(٤) ج ٢ ص ٣١٢ — ٣١٤ .

(٥) انظر مقالة الدكتور محمد حميد الله السابق ذكرها .

(٦) الجزء الثانى والجزء الثالث من المجلد الثامن والعشرين سنة ١٩٥٣ .

وتابعهم فيها التابعون ، حتى وصلت إلى ما نعرف من أوائل كتب التفسير التى بين أيدينا .

فقد مرّ بنا أن كتب عبد الله بن عباس بلغت حمل بعير ، وأن كُرَيباً وضعها عند موسى بن عقبة ، فكان علىّ بن عبد الله بن عباس إذا أراد الكتاب — كتب إلى موسى أن يبعث إليه بالصحيفة التى يريدها ، فينسخها علىّ ويردها إليه . وقد أوردنا هذا النص فى حديثنا عن الحديث النبوى ، غير أن كتب ابن عباس هذه لم تكن كلها فى الحديث ، وإنما كان بعضها فى التفسير ومايتصل به من أسباب النزول وأحكام القرآن : فقد كان لابن عباس كتاب فى التفسير رواه عنه مجاهد[١] ، وعكرمة[٢] . وروى عكرمة كذلك كتاب ابن عباس فى نزول القرآن[٣] . أما كتاب ابن عباس فى أحكام القرآن فقد رواه عنه الكلبى[٤] .

وممن كتب التفسير أيضاً عُروة بن الزبير ، وقد مرّ بنا أن عروة كتب الحديث كذلك . ونجد فى سيرة ابن هشام[٥] وطبقات ابن سعد[٦] قطعة طويلة من تفسيره تتضمن ما يتصل بالآيات من حوادث تاريخية وأسباب النزول . وذلك أن ابن أبى هنيدة[٧] صاحب الوليد بن عبد الملك كتب إلى عروة بن الزبير يسأله عن قول الله عز وجل :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾[٨] .

فكتب إلى عروة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان صالح قريشاً يوم

(١) الفهرست : ٥٠ .
(٢) الفهرست : ٥١ .
(٣) المصدر السابق : ٥٧ .
(٤) المصدر السابق : ٥٧ .
(٥) ج ٣ ص ٢٤٠ — ٢٤١ .
(٦) ج ٨ ص ٦ — ٧ .
(٧) فى طبقات ابن سعد « هبيرة » مكان « ابن أبى هنيدة » .
(٨) سورة « الممتحنة » آية ١٠ .

الحديبية على أن يرد عليهم من جاء بغير إذن وليه ، فلما هاجر النساء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الإسلام ، أبى الله أن يُردَدْن إلى المشركين إذا هُنّ امتحن بمحنة الإسلام . . . (إلى آخر النص) .

وممن كتب التفسير من التابعين أيضاً : سعيد بن جبير ؛ فقد أرسل إليه عبد الملك بن مروان أن يكتب إليه بتفسير القرآن ، فكتب سعيد بن جبير إليه بتفسيره ، فحفظه عبد الملك عنده في الديوان . وقد روى عطاء بن دينار هذا التفسير عن سعيد بن جبير ، ولكنه لم يسمعه منه ، وإنما وجد عطاء هذا التفسير في الديوان ، فأخذه ، فأرسله عن سعيد بن جبير[1] . ومع أن عطاء لم يسمعه من سعيد بن جبير إلا أن غيره سمعه منه وكتبه عنه ، فقد كان عزْرَة يختلف إلى سعيد « معه التفسير في كتاب ومعه الدواة يُغيِّر »[2] .

وقد كان كثير من التابعين يكتبون التفسير . وحسبنا أن نذكر كتابين من هذه الكتب : الأول — كتاب تفسير الحسن بن أبي الحسن البصري[3] . والثاني — كتاب تفسير السُّدّيّ ، هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة المتوفى سنة ١٢٧ ، روى عن أنس وغيره من الصحابة . وقد جمع السدى تفسيره بطرق ثلاث : عن اثنين من التابعين عن ابن عباس ، وعن تابعي واحد عن ابن مسعود ، ومن رواية نفسه عن ناس من الصحابة ، وقد رأى تفسيره الإمام أحمد بن حنبل ، ونقل منه كثيراً الطبرى في تفسيره[4] .

---

(١) ابن أبي حاتم ، الجرح والتعديل ٣/١ : ٣٣٢ .

(٢) ابن سعد ٦ : ١٨٦ .

(٣) الفهرست : ٥١ .

(٤) انظر تفسير الطبرى ط . دار المعارف ١ : ١٥٧ — ١٥٩ من كلام الشيخ أحمد محمد شاكر .

المغازى والسيرة :

وأول ما يلفتنا من المغازى والسيرة أنها كانت مادة من مواد المفسر يلجأ إليها حين يعرض لأسباب نزول الآية أو للأخبار والحوادث المتصلة بها ، كما مر بنا فى تفسير عروة بن الزبير لآية من سورة الممتحنة إذ فصّل القول فى الصلح بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش يوم الحديبية ،وكذلك كان دأب المفسرين.

ولكن عروة كانت له كتابات تاريخية خالصة ، حفظها لنا بعض كتب التاريخ التى وصلت إلينا . فقد كان عبد الملك بن مروان يرسل إليه يسأله عن بعض الحوادث التاريخية ، فكتب إليه يسأله مرة عن هجرة الحبشة[١] ، ومرة أخرى عن وقعة بدر وخروج أبى سفيان[٢] ،ومرة ثالثة عن خالد بن الوليد وفتح مكة[٣] . وكان عروة بن الزبير فى كل مرة يكتب إلىّ عبد الملك مجيباً له عما يسأله ؛ فكان مما كتبه مثلا « أما بعد ، فإنك كتبت إلىّ فى أبى سفيان ومخرجه ، تسألنى كيف كان شأنه ؟ كان من شأنه أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام فى قريب من سبعين راكباً ، من قبائل قريش كلها ، كانوا تجاراً بالشام . فأقبلوا جميعاً معهم أموالهم وتجارتهم؛ فذُكِروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقد كانت الحرب بينهم قبل ذلك ، فقتلت قتلى . . » ثم يمضى يفصل القول تفصيلاً فى مقدمات وقعة بدر مما نقله الطبرى فى تاريخه . ولذلك قيل إن عروة أول من صنف فى المغازى[٤] .

ولم يكن عروة وحده يدون هذه المغازى ، بل كان يدونها غيره من معاصريه، مثل أبان ابن الخليفة الثالث عثمان بن عفان (توفى أبان سنة ١٠٥) ، وقد أخذ

(١) الطبرى : تاريخ ١ : ١١٨٠.
(٢) المصدر السابق ١ : ١٢٨٤ .
(٣) المصدر السابق ١ : ١٦٣٤ .
(٤) حاجى خليفة : كشف الظنون ٥ : ٦٤٦ .

هذه المغازى عن أبان : المغيرةُ بن عبد الرحمن ، وكانت كثيراً ما تُقرأ عليه(١).

ووهب بن منبه كتب كذلك المغازى والسيرة(٢). وقد وجد بيكر C.N. Becker بين مجموعة أوراق بردى Shott-Reinhardt المحفوظة فى هيدلبرج — مجلداً يرجَّح أنه يحوى قطعة من كتاب المغازى لوهب بن منبه ؛ وتاريخ نسخ هذه القطعة سنة ٢٢٨ ، فهى بعد وفاة وهب بنحو قرن واحد(٣).

وجاء بعد ذلك ابن شهاب الزهرى (المتوفى سنة ١٢٤) ، وقد طلب منه خالد بن عبد الله القسرى أن يكتب له السيرة(٤) ، فقال له ابن شهاب : فإنه يمرّ بى الشىء من سيرة على بن أبى طالب ، فأذكره ؟ فقال له خالد : لا ، إلا أن تراه فى قعر الجحيم !! وللزهرى كتاب عن مشاهد النبى صلى الله عليه وسلم رواه عنه يونس بن يزيد(٥) ، لا أدرى أهو نفسه كتاب السيرة الذى كتبه لخالد القسرى ، أم أنه كتاب غيره .

ثم خلف بعد هؤلاء موسى بن عقبة ومحمد بن إسحق صاحب السيرة .

٤

لقد كانت هذه الموضوعات الثلاثة : الحديث ، والتفسير ، والسير والمغازى — إسلامية فى مادتها . وقد دلت بما لا يقبل الشك على أن تدوين الموضوعات فى كتب — مهما يكن حجمها — قد بدأ فى عهد مبكر جداً : منذ عهد الرسول والصحابة ، وأن هذه الموضوعات لم تُنقل بالرواية الشفهية قرناً أو يزيد حتى

---

(١) ابن سعد ٥ : ١٥٦ .

(٢) حاجى خليفة رقم ١٢٤٦٤ .

(٣) يوسف هوروفتس : المغازى الأولى ومؤلفوها — ترجمة حسين نصار — ص : ٣٤ — ٣٥

(٤) الأغانى ١٩ : ٥٩ .

(٥) السخاوى ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ : ٨٨ .

دونت ، كما ذهب إليه الكثيرون .

أما تدوين ما يتصل بالجاهلية من أخبار وأنساب وأشعار ، فسنوردها مجتمعة لأنها متداخلة متشابكة فى تدوينها منذ بدأ هذا التدوين . وكان العالم الذى يدوّن الجاهلية ، أو يرويها ، يذكر الخبر ثم يستشهد عليه بالشعر ويفصل القول فى أنساب من يرد ذكرهم فى حديثه ، أو يذكر الشعر ثم يورد من الأخبار والأنساب ما يفسره ويتصل به .

وأول ما يبدو لنا فى هذا الموضوع أن الذين دونوا تلك الموضوعات الإسلامية التى ذكرناها ، كانوا أيضاً يعرضون لذكر الجاهلية : فى كتب المغازى والسير كانوا يعرضون لذكر العرب الجاهليين والأنبياء السابقين ويفصّلون القول فى نسب الرسول الكريم وأخبار مكة وقريش ومن يتصل بهما من أفراد وقبائل . وكانت هذه الكتب التاريخية فى السيرة والمغازى تشتمل على كثير من الشعر الذى قاله الشعراء الجاهليون الخالصون والشعراء الجاهليون المخضرمون . وقد كان كُتّاب السيرة والمغازى — فى الصدر الأول — يحفظون كثيراً من الشعر الجاهلى ويستخدمونه فى الاستشهاد على ما يكتبون أو يتحدثون . قال أبو الزناد عن أبان بن عثمان ابن عفان — وقد مر بنا أنه من كتاب السيرة والمغازى — إنه قلما كان فى صحبته دون أن يتمثل بأشعار شاعر المدينة اليهودى الربيع بن أبى الحقيق ، وذلك قوله[1] :

سَئِمْتُ وأَمْسَيْتُ رهنَ الفِرا ... شِ من جُرْمِ قوْمِى ومن مَغْرَمِ
ومن سَفَهِ الرأىِ بعدَ النُّهَى ... وعيبِ الرَّشادِ ولم يُفْهَمِ
فلو أنَّ قومِى أطاعوا الحَلِيـــمَ ... لم يتَعَدَّوْا ولم يُظْلَمِ
ولكنَّ قومِى أطاعوا الغُوَا ... ةَ حتى تَعَكَّسَ أهلُ الدَّمِ[2]

(١) الأغانى ٢١ : ٩٢ ، ونسبها المرزبانى فى معجم الشعراء (ص : ٣٥٢) لكنانة بن أبى الحقيق .

(٢) فى معجم الشعراء : ٣٥٢ : « تلفظ أهل الدم » مكان « تعكس »

فَأَوْدَى السَّفِيهُ بِرَأْيِ الحَلِيـ ـمِ ، وانتشر الأَمْرُ لم يُبْرَمِ

وذكروا أن عروة بن الزبير ــ وهو أيضاً ممن كتب السير والمغازى كان من أروى الناس للشعر [١] .

وكذلك كان المفسرون يعتمدون على الشعر الجاهلى وكلام العرب فى تفسير ألفاظ القرآن الكريم وفهم معانيه : فقد رُوِىَ عن عمر بن الخطاب أنه قال على المنبر [٢] : ما تقولون فيها ؟ (يقصد فى قوله تعالى « أو يأخذهمْ على تَخوف ») ، فسكتوا . فقام شيخ من هُذَيل ، فقال : هذه لغتنا ، التخوف : التنقص . فقال : هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها ؟ قال : نعم ، قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته :

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ منها تَامِكًا قَرِدًا كما تَخوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ [٣]

فقال عمر : عليكم بديوانكم لا تضلوا . قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم .

ويُرْوَى قريب من هذا عن ابن عباس ، فقد ذكر أبو بكر الأنبارى [٤] قال : أتى أعرابى إلى ابن عباس فقال :

تَخَوَّفنى مالِىَ أخٌ لِىَ ظالمٌ فلا تَخْذُلَنِّى اليومَ يا خَيْرَ مَنْ بَقِى

فقال ابن عباس : تخوفك أى تنقصك ؟ قال : نعم . قال : الله أكبر ! « أو يأخذهم على تخوف » أى تنقص من خيارهم .

وقد كان ابن عباس حريصاً على الشعر الجاهلى يحث الناس على تعلمه

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ٩ : ١٠١ .
(٢) تفسير البيضاوى ــ سورة النحل آية : ٤٦ .
(٣) التامك : السنام . القرد : الكثير القردان أو السمين . السفن : حجر ينحت به .
(٤) القالى ، الأمالى ٢ : ١١٢ .

وطلبه لتفسير القرآن ، فما قاله فى ذلك[١] : «وإذا سألتم عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب» .

وقد حاجّ ابنُ عباس عمرَو بنَ العاص فى مجلس معاوية رضى الله عنهم فى آية[٢] ، فقال عمرو : تغرب فى عين حامية ؛ وقال ابن عباس : حمئة . فلما خرج إذا رجل من الأزد قال له : بلغنى ما بينكما ، ولو كنتُ عندك أفدتك بأبيات قالها تُبَّع :

فرأى مَغَارَ الشَّمْسِ عند غُروبها ... فى عين ذى خُلُبٍ وَثَـأْطٍ حرْمَدِ[٣]

فقال ابن عباس : اكتبها يا غلام .

وقال عثمان بن أبى العاصى الثقفى لبنيه : «يا بنى ، إنى قد أمجدتكم فى أمهاتكم ، وأحسنت مهنةَ أموالكم ، وإنى ما جلستُ فى ظل رجل من ثقيف أشتم عرضه . والناكح مُغترس ، فلينظر امرؤٌ منكم حيث يضع غَرْسه ؛ والعرق السوء قلما يُنجب ولو بعد حين» . فقال ابن عباس : يا غلام اكتب لنا هذا الحديث[٤] .

وقال ابن عباس كذلك[٥] : ما كنت لأدرى ما «فاطر السموات والأرض» حتى احتكم إلىّ أعرابيان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها — أى ابتدأت حفرها .

وقد ذكر عكرمة[٦] أنه ما سمع ابن عباس فسر آية من كتاب الله عزوجل

---

(١) السيوطى ، المزهر ٢ : ٣٠٢ .
(٢) الزمخشرى ، الفائق ١ : ٢٩٧ .
(٣) الخلب : الطين اللزج . الثأط : الحمأة . الحرمد : الأسود .
(٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ٢ : ٩٧ .
(٥) الفائق ٢ : ٢٨٣ .
(٦) التبريزى ، شرح الحماسة : ١ — ٣ .

إلا نزع فيها بيتاً من الشعر ، وكان يقول : إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه فى الشعر ، فإنه ديوان العرب .

وكذلك كان ابن مسعود يُعنَى بالعربية والشعر ، وقد كان يسأل فى ذلك زرّ بن حُبيش — وكان أعرب الناس[١] .

وكذلك كان ابن شهاب الزهرى ؛ فقد قال ابن أبى الزناد[٢] : كنا لانكتب إلا سُنّة ، وكان الزهرى يكتب كل شىء ، فلما احتيج إليه عرفتُ أنه أوعى الناس . وقد كان الزهرى يضرب فى كل فن بسهم وافر ، وقد كتب فى الأنساب كتاباً لم يُتمه ، قال الزهرى[٣] : قال لى خالد بن عبد الله القسرى : اكتب لى النسب . فبدأت بنسب مضر ، وما أتممته ، فقال: اقطعه ، قطعه الله مع أصولهم. وكان علمه بالأنساب والأخبار مضرب المثل ؛ قال الليث[٤] : «..وإن حدّث عن العرب والأنساب قلت : لا يُحسن إلا هذا . . » وكان راوية للشعر يحفظ الكثير منه[٥] ، حتى كان الخلفاء الأمويون يرسلون إليه يسألونه عن الشعر والشعراء[٦] .

وليس أدل على كثرة ما ألفه الزهرى فى شتى الموضوعات من أنه حينما قتل الوليد ابن يزيد سنة ١٢٦هـ حُملت الدفاتر على الدواب من خزائنه ، وكانت من علم الزهرى[٧]. وكان إذا جلس فى بيته وضع كتبه حوله فيشتغل بها عن كل شىء من أمور الدنيا ، فقالت له امرأته يوماً[٨] : والله لهذه الكتب أشدّ علىّ من ثلاث ضرائر .

• • •

(١) ابن سعد ٦ : ٧١ .
(٢) البيان والتبيين ٢ : ٢٩٠ .
(٣) الأغانى ١٩ : ٥٩ .
(٤) أبو نعيم ، حلية الأولياء ٣ : ٣٦٠ .
(٥) الأغانى (دار الكتب) ١١ : ٢٣ — ٢٦ .
(٦) الأغانى ٤ : ٢٤٨ .
(٧) ابن سعد ٢ : ١٣٦ .
(٨) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ١ : ٥٧١ .

فقد كان إذن هؤلاء المدونون للحديث والتفسير والمغازى يضمّنون مدوناتهم شيئاً من أخبار الجاهلية وأشعارها وأنسابها ، وربما أفردوا النسب بالتأليف . فهل دونت العرب — تدويناً مستقلاً قائماً بنفسه — ما يتصل بالجاهلية من أخبار وأشعار وأنساب ، كما دونت الحديث والتفسير والسيرة والمغازى ، أو أن تدوين أخبار الجاهلية وأشعارها وأنسابها لم يبدأ إلا منذ نهاية القرن الثانى على أيدى العلماء الرواة المشهورين ؟

٥

وسنبدأ بذكر عالمين من علماء الشعر الجاهلى متعاصرين ، هما : أبو عمرو ابن العلاء (المتوفى سنة ١٥٤) ، وحماد الراوية (المتوفى سنة ١٥٦) ، وسنتحدث عنهما هنا فى أمر لا نعدُوه : هو أن نكشف عن أنّ عنايتهما بالشعر الجاهلى لم تكن مقصورة على دروس شفهية يتلقاها تلامذتهما من غير تدوين ، وإنما كانا ، وغيرهما من العلماء ، يتلان إلى دواوينَ ومجموعات مكتوبة توارثاها عمن قبلهما ، وذلك فضلاً عما كانا هما يقيدانه ويدونانه مما يسمعان من الأعراب والرواة ، فيضيفانه إلى ما بين أيديهما من الدواوين زيادة فى الرواية ، أو شرحاً وتفسيراً واستشهاداً على بعض المشكل من المعانى أو الغريب من الألفاظ .

أما أبو عمرو بن العلاء فقد بلغت عنايته بالشعر الجاهلى مبلغاً كبيراً حتى قال الأصمعى[1] : جلست إلى أبى عمرو بن العلاء عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامى. وقال أبو عمرو مرةً : لقد كثر هذا المحدَث وحسُن حتى لقد هممت أن آمر فتياننا بروايته !! يعنى شعر جرير والفرزدق وأشباههما !

وقد كانت عناية أبى عمرو بالكتابة والتدوين لا تقلّ عن عنايته بالحفظ

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٣٢١ .

والرواية ؛ فقد كان يرسل إلى الحارث بن خالد بن العاصى — الشاعر الغزل المشهور — أخاه معاذ بن العلاء ومعه كتاب فيه مسائل يسأله عنها[١] ؛ وكان كذلك يكتب إلى عكرمة بن خالد — محدث جليل من وجوه التابعين ، وهو أخو الحارث الشاعر — يسأله كما يسأل أخاه[٢] .

وكان أبو عمرو يذهب إلى عمرو بن دينار ومعه كتابه ، فكان يقيد فى كتابه مما يسمعه ما لم يكن فيه[٣]. وقال شعبة[٤] : كنت أجتمع أنا وأبو عمرو ابن العلاء عند أبى نوفل بن أبى عقرب فأسأله عن الحديث خاصة ، ويسأله أبو عمرو عن الشعر واللغة خاصة ، فلا أكتب شيئاً مما يسأله عنه أبو عمرو ، ولا يكتب أبو عمرو شيئاً مما أسأله أنا عنه .

وكان من أثر شغفه بالتدوين أن كتبه « ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرَّأ فأحرقها كلها ؛ فلما رجع بعدُ إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه . وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية »[٥] .

* * *

وأما حماد الراوية فالأخبار التى جمعناها عنه تدل دلالة صريحة على أنه كانت عنده كتب فيها أخبار الجاهلية وأنسابها وأشعارها ، بعضها كتبه بنفسه ، وبعضها كُتب من قبله فقرأه واستفاد منه فى تدوين كتبه .

---

(١) الأغانى ٣ : ٣١٢ ، وفيه أن الحارث كان آنذاك والى مكة أى سنة ٧٥ هـ . وقد ذكروا فى سنة ولادة أبى عمرو أنها ٧٠ هـ ، وهذا لا يعقل ، إذ يكون أبو عمرو عالماً باللغة والشعر ويسأل عنهما والى مكة وعمره خمس سنوات . ولكن فى سنة ولادة أبى عمرو خلافاً ، قال ابن الجزرى فى طبقات القراء : ولد سنة ٦٨ ، وقيل سنة ٧٠ ، وقيل سنة ٦٥ ، وقيل سنة ٥٥ فإذا صح ما ذكرناه من مكاتبته للحارث سنة ٧٥ كان أقرب إلى المعقول أن تكون سنة ولادته أقدم ما ذكر ابن الجزرى أى سنة ٥٥ .

(٢) أبو الطيب اللغوى ، مراتب النحويين ، ورقة : ٢٤ .

(٣) ابن سعد ٧/٢ : ٤٢ .

(٤) السيوطى ، المزهر ٢ : ٣٠٤ .

(٥) البيان والتبيين ١ : ٣٢١ .

قال حماد الراوية[1] : « أرسل الوليد بن يزيد إلىّ بمائتى دينار ، وأمر يوسف بن عمر بحملى إليه على البريد . قال ، فقلت : لا يسألنى إلا عن طرفيه : قُرَيش وثَقيف ؛ فنظرت فى كتابىْ قُرَيش وثَقيف . فلما قدمت عليه سألنى عن أشعار بَلِىّ ، فأنشدته منها ما استحسنه ، ثم قال : أنشدنى فى الشراب — وعنده وجوه من أهل الشام — فأنشدته . . . »

وقد كان أمرُ كتب حماد المشتملة على شعر الجاهلية معروفاً مشهوراً ، حتى إنّ الوليد بن يزيد بن عبد الملك — حين أراد أن يجمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها — استعار من حماد ومن جناد بن واصل الكوفى ما عندهما من الكتب والدواوين فدوّنها عنده ، ثم ردّ إليهما كتبهما[2] .

ومما يُروى لنا عن حماد أنه كان فى أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص ، فنقب ليلة على رجل فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد ، فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيامَ الناس ولغات العرب بعد ذلك وترك ما كان عليه ، فبلغ فى العلم ما بلغ[3] .

وقد رأى أبو حاتم السجستانى بعض كتب حماد فى الشعر الجاهلى ، وكان يرجع إليها ، ويُثبت ما يجده فيها زائداً على ما جمع من الشعر ، وإن كان نصّ على أن هذه الزيادات هى من الشعر المصنوع[4] .

ومما يؤيد ما ورد عن كتاب شعر الأنصار الذى وجده حماد أن شعر الأنصار

---

(١) الأغانى ٦ : ٩٤ .

(٢) ابن النديم ، الفهرست : ١٣٤ ، وقد قال ابن النديم عن جناد بن واصل الكوفى (ص ١٣٥) إنه كان أعلم الناس بأشعار العرب وأيامها .

(٣) الأغانى ٦ : ٨٧ .

(٤) انظر مختارات ابن الشجرى : ١٢٣ و ١٢٧ و ١٣٦ . ولذلك كان عجيباً أن يقول ابن النديم « ولم ير لحماد كتاب ، وإنما روى عنه الناس ، وصنفت الكتب بعده [ ] » فلعل ابن النديم لم يصله شىء من كتبه فألقى هذا القول العام إلقاء .

قد كُتب منذ زمن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ؛ وبقيت الأنصار بعد ذلك تجدّده كلما خافت بلاه . وتفصيل ذلك أن عبد الله بن الزبعرى السهمىّ وضرار بن الخطاب الفهرىّ أنشدا حسان بن ثابت شعراً مما كانا قالاه قبل الإسلام — وكان عمر قد نهى عن إنشاد ذلك الضرب من الشعر لئلا تتجدد الضغائن — ففار حسان حتى صار كالمرْجل غضباً، ثم دخل على عمر بن الخطاب وقص عليه قصتهما ، فأرسل إليهما عمر رسولاً فردهما إليه ، ثم دعا لهما بحسان — وعمر فى جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — فقال لحسان : أنشدْهما مما قلتَ لهما . فأنشدهما حتى فرغ مما قال لهما ، فوقف . فقال له عمر : أفرغت ؟ قال : نعم . فقال له : أنشداك فى الخلاء وأنشدتّهما فى الملأ . وقال لهما عمر : إن شئتما فأقيما وإن شئتما فانصرفا . وقال لمن حضره : إنى قد كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً دفعاً للتضاغن عنكم وبث القبيح فيما بينكم ، فأما إذْ أبَوْا فاكتبوه واحتفظوا به . فدوّنوا ذلك عندهم . قال خلاد بن محمد: فأدركته والله وإن الأنصار لتجدّده عندها إذا خافت بلاه[1] .

• • •

ولم يكن الوليد بن يزيد — الذى جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها من كتب حماد وجناد — هو وحده الذى بذل مثل هذه العناية ؛ بل كان مَن سبقه من خلفاء بنى أمية يفعلون كما فعل . فقد كان للوليد بن عبد الملك كاتب خاص نصبه لكتابة المصاحف والشعر والأخبار ، وهو خالد بن الهياج[2] .

وقد مر بنا أن عبد الملك بن مروان أرسل إلى سعيد بن جبير أن يكتب إليه بتفسير القرآن ، فكتبه ، فحفظه عبد الملك عنده فى الديوان . وكان

---

(١) الأغانى ٤ : ١٤٤ — ١٤١ .

(٢) الفهرست : ٩ — ١٠ وقد ذكر ابن النديم خالداً هذا فى موضع آخر من كتابه (ص : ٦) وقال عنه إنه صاحب على رضى الله عنه ، فلعله هو نفسه عاش حتى كتب للوليد !

عبد الملك يُعنَى بأخبار العرب وأشعارها، وفعل فيها ما فعل بالتفسير، وأمر من جمع له المعلقات[١] .

أما معاوية بن أبي سفيان فقد كانت له ساعات من كل يوم يقعد فيها فيُحضِر غلمانه «الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان مرتبون، وقد وُكلوا بحفظها وقراءتها[٢] . وكانت من جملة تلك الأحاديث: أحاديث عبيد بن شَرِيَّة عن وقائع العرب وأخبارها وأشعارها، فكان معاوية يأمر أهل ديوانه وكتابه أن يوقعوا هذه الأحاديث ويدونوها في الكتب وينسبوها إلى عبيد بن شريَّة[٣] .

وقد ذكر ابن سلام[٤] في معرض حديثه عن قصيدة أبي طالب التي مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وأبيضُ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بوجهه ... رَبِيعُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ للأَراملِ

أنه رأى هذه القصيدة مُدوَّنة في «كتاب كتبه يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة» . ولا نعرف متى كتب ابن سلام كتابه حتى نعرف متى كتب يوسف بن سعد هذه القصيدة في كتابه قبل مائة سنة من كتاب ابن سلام. غير أن يوسف بن سعد هو : يوسف بن سعد الجمحيّ، مولاهم، أبو يعقوب، روى عن عمر وعلي وزيد بن ثابت[٥] . فهو إذن من كبار التابعين، وبذلك نرجح أنه كتب كتابه هذا وفيه قصيدة أبي طالب ما بين منتصف القرن الأول ونهايته .

ولم يكن سماح عمر بن الخطاب بتدوين الشعر الجاهلي بدعاً من الأمر ،

(١) البغدادي، الخزانة ١ : ١٢٤ .
(٢) المسعودي، مروج الذهب ٢ : ٤٠ – ٤١ .
(٣) أخبار عبيد بن شرية : ١١٣ ، والفهرست : ١٣٢ .
(٤) طبقات فحول الشعراء : ٢٠٤ .
(٥) انظر ترجمته في : البخاري : التاريخ الكبير ٦ : ٣٧٣ ، وابن حجر : تهذيب التهذيب ١١ : ٤١٢ .

فقد كان بعض الصحابة يعنون كذلك بتدوين هذا الشعر . وقد مر بنا أن طلحة رضى الله عنه أنشد قصيدة فما زال شانقاً ناقته حتى كتبت له[1] . فهو إذن يدون بعض الشعر ويجمعه ويحفظه .

ومما يتصل بهذا أيضاً أن دَغْفلاً النسابة — وهو جاهلى أدرك الإسلام — كان يكتب الأنساب ويدونها فى الصحف ويبدو لنا ذلك واضحاً من قول الفرزدق[2] :

أَوْصَى عَشِيَّةَ حِينَ فَارَقَ رَهْطَهُ عِندَ الشَّهادَةِ فى الصَّحِيفةِ دَغْفَلُ
أَنَّ ابنَ ضَبةَ كان خيرٌ والِدًا وأَتَمُّ فى حَسَبِ الكِرام وأَفْضَلُ

وفى هذه القصيدة نفسها يعدّد الفرزدق الشعراء الجاهليين ، ويفخر أنه قد ورث عنهم الشاعرية المتدفقة الفحلة ،ولكن فى ألفاظه ما قد يُفْهَم منه أنه كانت بين يديه مجموعات شعرية لشعراء جاهليين أو نسخ من دواوينهم ، وذلك قوله :

والجَعْفَرِىُّ وكان بِشْرٌ قَبْلَهُ لِى من قصائدِه الكتابُ المُجْمَلُ

وبعد أبيات يقول :

دَفَعوا إلَىَّ كتابَهُنَّ وَصِيَّةً فَوَرِثْتُهُنَّ كأَنَّهُنَّ الجَنْدَلُ

ونحب هنا أن نذكّر بما كتبناه فى حديثنا عن تقييد الشعر الجاهلى من أمر هذه القصائد التى كان يكتبها : النابغة الذبيانى ، وعدى بن زيد العبادى ،

---

(١) الزمخشرى ، الفائق ١ : ١٧٧ .
(٢) النقائض ١ : ١٨٩ .

والربيع بن زياد العبسى وغيرهم كثيرون ، ويرسلونها إلى بلاط المناذرة معتذرين عاتبين ؛ ونصل هذا الذى قدمناه بما يُروَى عن حماد الراوية من قوله [١] : أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب فى الطنوج — قال : وهى الكراريس — ثم دفنها فى قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبى عُبيد قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفره فأخرج تلك الأشعار .

وقد يحلو لبعض القدامى أن يطعنوا فى حماد ويكذّبوه — وسنعرض لذلك فى بحثنا عن الرواية والرواة فى الباب التالى — وقد يحلو لبعض المحدَثين أن يطعنوا فى هذه الرواية بذاتها ويكذبوها ، ولكنهم لا يقدمون دليلاً يقوم عليه طعنهم وتكذيبهم ، وإنما هم يرسلون الكلام إرسالاً ويلقونه على عواهنه ؛ وهذا ابن سلاّم — وهو من هو شكًّا فى الشعر الجاهلى وفى بعض رواته — يسوق من هذه الرواية المتقدمة جوهرَها ومضمونها ، وإن كان لا ينسبها إلى حماد ؛ وهو فى إيراده هذه الرواية يقبلها ولا يشكك فيها . قال ابن سلام [٢] : « وقد كان عند النعمان ابن المنذر منه (أى من شعر العرب فى الجاهلية) ديوان فيه أشعار الفحول وما مُدح هو وأهل بيته به ، فصار ذلك إلى بنى مروان ، أو صار منه » . فالروايتان رواية واحدة ، وهى رواية تتسق اتساقاً كاملاً مع ما قدمنا من تقييد الشعر الجاهلى وتدوينه ، ولا نجد ما يسوغ التشكيك فيها ، إلا أن يقوم دليلٌ لم نستبنه بعد .

وثمة خبر آخر يؤيد الخبر السابق ويدعمه ، ويدل على مبلغ عناية بلاط المناذرة وأهل الحيرة بتدوين الأخبار والأشعار الجاهلية . فقد قال الطبرى [٣] : « كان أمر آل نصر بن ربيعة ، ومن كان من ولاة ملوك الفرس وعمالهم على ثغر العرب الذين هم ببادية العراق ، عند أهل الحيرة متعالماً مُثْبتاً عندهم فى

(١) ابن جنى ، الخصائص ١ : ٣٩٢ — ٣٩٣ .
(٢) طبقات فحول الشعراء : ٢٣ .
(٣) تاريخ (ط . مصر) ٢ : ٣٧ .

كنائسهم وأسفارهم » . ثم يذكر الطبرى أن هشام بن محمد بن السائب الكلبى قال : « كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ، ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم من بِيَع الحيرة وفيها مُلكهم وأمورهم كلها » .

وقد قبل الباحثون من المستشرقين هذا القول ، فقال الأستاذ هـ . ا . ر . جب[1] : « ويزعم من ناحية أخرى أنه ربما وُجدتْ كتب مدونة فى الحيرة ، وأنه وجدت بالفعل بعض المقيدات التاريخية هناك ، فهذا لامراء فيه » . بل إن الأستاذ أولندر ليذهب إلى أبعد من ذلك فيقول عن ابن الكلبى إنه كان مؤرخاً حذراً متثبتاً على خلاف ما يصمه به خصومه من القدامى ، ثم يقول[2] : « ومن المؤكد أنه استخدم النقوش والمدونات التاريخية فى الحيرة واستفاد منها ، ولذلك أكد الباحثون المحدثون أقواله مراراً ، وفى حالات منها أكدوها تأكيداً عجيباً ، مثال ذلك : تأكيدهم أقواله حينما اكتشفوا شاهد قبر امرئ القيس بن عمرو الحيرى[3] » .

فأمامنا الآن — فى هذه النصوص والروايات الثلاث الأخيرة : شعر الفرزدق عن صحيفة دغفل فى النسب وما يُفهم من قوله عن وجود دواوين شعر جاهلى عنده ، ثم رواية حماد وابن سلام عن جمع النعمان للشعر الجاهلى وتدوينه ، ثم رواية ابن الكلبى عن أسفار الحيرة ونقوش كنائسها وما فيها من أخبار العرب الجاهليين وأنسابهم — أمامنا إذن ، فى هذه النصوص والروايات ، شعر جاهلى وأخبار جاهلية مدونة كلها فى كتب وأسفار ودواوين من الجاهلية نفسها . ومازال فى الحديث فضلٌ حقيق بأن يُذكر ليزيد ما تقدم حجةً وإيضاحاً .

---

(١) مقالة عنوانها « بدء التأليف النثرى » فى مجلة الأدب والفن — السنة الأولى — الجزء الثانى — سنة ١٩٤٣ ص : ٤ .

(٢) Gunnar Olinder, Kings of Kinda P. 16-17.

(٣) انظر أيضاً : جواد على « تاريخ العرب قبل الإسلام ١ : ٤٧ — ٤٨ » وما كتبه الأستاذ أحمد زكى باشا فى مقدمة كتاب الأصنام ص : ١٢ — ١٨ .

وقد أشرنا فى حديث سابق إشارة عابرة إلى بيتى مَعْقِل بن خويلد الهذلى – وهو شاعر جاهلى أدرك الإسلام – وهما[1] :

فإنّى كما قال مُمْلِى الكتا ... ب فى الرّقّ إذْ خطّهُ الكاتبُ :
«يرَى الشّاهدُ الحَاضِرُ المُطْمَئِنُّ ... مِنَ الأمرِ مَالَا يَرَى الغَائِبُ»

وقد وضعنا علامات الترقيم هذه لتدل على المعنى الذى قصدنا إليه من أن هذا الشاعر قد قرأ بيته الثانى – بهذه الألفاظ أو بألفاظ مقاربة تُؤدّى هذا المعنى – فى كتاب من كتب الشعر أو الأخبار الجاهلية ، ثم اقتبسه وضمنه قصيدته هذه .

وليس الأمر مجرد استنتاج ، فلهذين البيتين أخ ثالث قاله شاعر آخر وهو أوضح فى دلالته وأبين فى حجته لنا من هذين البيتين ، وذلك قول بشر بن أبى خازم – وهو شاعر جاهلى لم يُدرك الإسلام[2] :

وَجَدْنا فى كِتَابِ بنِى تَمِيمٍ : ... «أحَقُّ الخَيْلِ بالرَّكْضِ المُعَارُ»

فبشر يذكر ، فى وضوح ، أنه وجد فى كتاب بنى تميم أن : أحق الخيل بالركض

---

(١) ديوان الهذليين ٣ : ٧٠ .

(٢) المفضليات : ٩٨ وينسب البيت أيضاً للطرماح كما فى اللسان . وليس البيت فى ديوان الطرماح ، وإنما هو من الأبيات التى جمعت وأضيفت إلى آخر الديوان ، وهو هناك بيت مفرد منقول من اللسان . وذكر كرنكو (وهو محقق الديوان) ص : ١٤٨ بعد البيت أنه «قد ورد هذا البيت فى قصيدة لبشر ابن أبى خازم الأسدى ، وقال أبو عبيدة إنه للطرماح» .

وقد أورده الفيروزبادى فى قاموسه المحيط (عير) ، وقال إنه «قول بشر بن أبى خازم ، لا الطرماح ، وغلط الجوهرى» .

ومما يقوى نسبته لبشر أن فى كتب اللغة والأدب أبياتاً متفرقة من هذا البحر والروى منسوبة لبشر بحيث يصح أن تكون فى أصلها قصيدة واحدة منها هذا البيت .

ومهما يكن ، فإن البيت حتى إذا لم تثبت نسبته لبشر ، وكان حقاً للطرماح ، فإن دلالته ما زالت قائمة ، لأن الطرماح مات فى نحو سنة ١٠٥ ، فيضم هذا البيت إلى الشواهد والأدلة التى تثبت وجود كتب القبائل ودواوين الأفراد منذ القرن الأول الهجرى .

المعار . وقد أورد صاحب اللسان هذا البيت[1] ، ولكنه أورد — قبل هذا البيت في أثناء حديثه عن هذه المادة اللغوية — بيتاً آخر يختلف عنه في الصدر ، ويتفق معه في العجز اتفاقاً تامًّا ، وهو :

أَعِيرُوا خَيْلَكُم ثم ارْكُضُوها أَحَقُّ الخيلِ بالرَّكْضِ المعارُ

وابن منظور لا ينسب هذا البيت الأخير لشاعر بعينه ؛ وبذلك ترك لنا المجال مفتوحاً لنتساق مع صريح ألفاظ بشر بن أبي خازم في بيته السابق ، فنفترض أن بيت اللسان غير المنسوب هو لشاعر تميمي جاهلي ، وأن بشراً قد قرأ هذا البيت في كتاب شعر بني تميم ، فاقتبس عجزه في بيته ، ولذلك وضعناه بين علامتي اقتباس .

وقد أورد المرزباني بيت بشر هذا وقال بعده[2] : « فمعناه : وجدنا هذه اللفظة مكتوبة » .

• • •

فما هو كتاب بني تميم إذن ؟ الذي نراه أن كل قبيلة من القبائل كانت تجمع شعر شعرائها ، وحكم حكمائها ، وأقوال خطبائها ، وأخبارها ومفاخرها ومآثرها وأنسابها في كتاب . وقد احتفظ العرب بهذه التسمية لكتب القبائل بعد ذلك في العصور الإسلامية لتدل على هذا نفسه الذي قدمنا . وسنعود إلى هذا الموضوع بالحديث المفصل حين نتكلم على دواوين القبائل في الفصل الثاني من الباب الأخير .

وقد مر بنا ذكر كتابيْ قريش وثقيف اللذين كانا عند حماد الراوية (المتوفى سنة ١٥٦) وأنه نظر فيهما حين أرسل إليه الوليد بن يزيد[3] .

ونضيف إلى كتب القبائل هذه التي تحوي أخبارها وأنسابها وشعر شعرائها :

---

(١) لسان العرب (عير) .
(٢) الموشح : ١٧٩ .
(٣) الأغاني ٦ : ٩٤ .

كتاب نسب قريش الذى كان مع ابن شهاب الزهرى[1] (المتوفى سنة ١٢٣ — ١٢٥) .

ومما يدل أيضاً على قدم وجود كتب النسب هذه ، ويزيد اطمئناننا إلى أنها كانت مدونة منذ الجاهلية ، ما قاله عبد الله بن محمد بن عمارة[2] « فرتنى : أمٌ لهم (أى لبنى حزم) فى الجاهلية من بَلْقَيْنِ ، كانوا يُسبُّون بها ، لا أدرى ما أمرها ، قد طرحوها من كتاب النسب » . وما ذكره أبو الفرج أيضاً عند حديثه عن قُريظة والنَّضير وبنى قَيْنُقَاع وغيرهم قال[3] « لم أجد لهم نَسَباً فأذكره لأنهم ليسوا من العرب ، فتدون العرب أنسابهم ، إنما هم حلفاؤهم » . وهذا النص الأخير على تدوين العرب أنسابهم منصرف حتماً إلى العصر الجاهلى ، لأن اليهود لم يكونوا حلفاء للعرب بعد الإسلام .

فكتب القبائل هذه — وإن كانت فيها زيادات إسلامية — توضح لنا معنى كتاب القبيلة فى الجاهلية ، فهى — كما قدمنا — مجموعة فيها كل ما يتصل بالقبيلة من أخبار حروبها وأيامها ، وذكر مفاخرها ومآثرها ، وشعر شعرائها ، وحكم بلغائها .

* * *

وربما أفردوا الحِكَم وجوامع الكلم فى كتاب خاص ، وتكون فى هذه الحالة إما حِكَماً عامة مما قالته حكماء العرب من شتى القبائل ، وإما مما قالته الحكماء من غير العرب ثم عرفه العرب ونقلوه إلى لغتهم ؛ وذلك هو معنى قول عامر ابن الظَّرِب للملك الغسانى حينما خافه على نفسه وأراد أن ينجو منه[4] : « إن لى كنز علم وإن الذى أعجبك من علمى إنما هو من ذلك الكنز أحتذى عليه ، وقد خلَّفته خلفى ، فإن صار فى أيدى قوى علم كلهم مثلَ علمى ، فأذَنْ لى حتى

(١) ابن عبد البر ، القصد والأمم : ٤٣ — ٤٤ .
(٢) الأغانى ٤ : ٢٣٧ .
(٣) الأغانى ٣ : ١١٦ .
(٤) أبو حاتم السجستانى ، كتاب المعمرين : ٤٨ — ٤٩ .

أرجع إلى بلادى فآتيك به » . فليس هذا الكنز من العلم – فيما نرى – إلا كتاباً جُمعت فيه أقوال بليغة وأمثال وحكم وأشعار وأخبار . وآية ذلك أن هذا الذى أعجبه من علمه لم يكن إلا أنه « أعجبه نحوُه ، فكلمه فإذا أحكمُ العرب وأحلمهم قولاً وفعلاً » .

ولو جاء ذكر كتب العلم (أى الحكمة وجوامع الكلم والأمثال) فى خبر واحد لشككنا فيه وتوقفنا عن قبوله ، ولكن ذكر هذا الضرب من الكتب قد تردد فى أخبار كثيرة لاسبيل إلى إهمالها ، فأكثم بن صيفى أحد هؤلاء العلماء الحكماء فى الجاهلية ، كانت بعض حكمته تُكتب ، وكان بعض الملوك يرسلون إليه يستكتبونها ، فقد « كتب إليه ملك هَجَر ، أو نَجْران ، أن يكتب إليه بأشياء ينتفع بها ، وأن يوجز ، فكتب إليه : إن أحمق الحمق الفجور ، وأمثلُ الأشياء ترك الفضول . . »[١]

وكتب إليه أيضاً الحارث بن أبى شَمِر الغسانىّ ملك عرب الشام « ...فاعهد إلينا أمراً نعرف به أنّ فى العرب . . . حكمةً وعقولاً وألسنة . فكتب إليه أكثم : إن المروءة أن تكون عالماً كجاهل ، وناطقاً كعيىّ .. »[٢]

وكتب إليه كذلك النعمان بن المنذر « أن اعهدْ إلينا أمراً نُعجب به فارس ونرغبهم به فى العرب . فكتب أكثم : لن يهلك امرؤ حتّى يضيع الرأى عند فعله ، ويستبدّ على قومه بأموره . . . »[٣]

فإذا أضفنا إلى هذين الحكيمين العالمين حكيماً عالماً ثالثاً هو قُسّ بن ساعدة ، وعلمنا أنه كان أيضاً كاتباً [٤]، رجح عندنا أن هؤلاء الحكماء كانوا – أو كان أكثرهم – من الذين يعرفون الكتابة ويلجأون إليها فى تسجيل حكمهم

---

(١) كتاب المعمرين : ١٧ .
(٢) المصدر السابق : ١٨ .
(٣) المصدر السابق : ١٩ .
(٤) المصدر السابق : ٦٩ .

فى مثل هذه الكتب التى سميت كتب العلم .

وقد عُنى بعض الدارسين المحدثين بدراسة الأمثال عند العرب ومقابلتها بالأمثال عند الأمم القديمة وخاصةً الساميين. ومن هؤلاء الدكتور عبد المجيد عابدين[1] الذى تحدث فى أحد فصول رسالته عن الصلات الثقافية بين بلاد الشرق القديم ، وخاصة الحكمة والمثل[2]، وانتهى إلى قوله[3] : « ولم تكن العلاقة بين العرب وأصحاب هذه الحكم ضعيفة واهية ، فقد أشارت النقوش البابلية غير مرة إلى صلات ملوك بابل وآشور ببلاد العرب ، وكان بعض شخصيات سفر أيوب من أصل عربى . وفى عصور ما بعد الميلاد أخذت الثقافة الآرامية تغزو مناطق عدة من شبه الجزيرة العربية كما رأينا فيما سبق . وكانت الحكمة اليونانية قد انتشرت فى مدارس الرّها وجنديسابور والحيرة على أيدى علماء السريان الذين بدأوا منذ حوالى ٣٠٠ سنة بعد الميلاد ينقلون هذه الحكمة، وواصلوا حركتهم إلى سنة ٧٠٠م أى إلى عصر بنى أمية فى تاريخ المسلمين . وكان السريان فى القرن الخامس الميلادى يبشرون بالمسيحية فى الحبشة على المذهب القائل بالطبيعة الواحدة، وهو المذهب الذى اعتنقه الغساسنة فى الشام . وكانت الصلات بين الحبشة واليمن قديمة ومستمرة . وبذلك أحدقت الآثار الكتابية ببلاد العرب وتسرّبت هذه الآثار إليها من الشرق والغرب والجنوب والشمال ، وتعاونت جهود السلطات الحاكمة فى العراق والشام واليمن ، فى الجاهلية ، على تشجيع هذه الدعوات الكتابية ماديًّا وأدبيًّا . وفى فورة هذه الدعوات نشطت حكمة العرب ، فى مناطق مختلفة من شبه الجزيرة . وفى الوقت الذى كانت فيه الحكمة الشعبية تلاقى ازدهاراً على أيدى العراقيين ، وتجد تغاضياً من جانب الغساسنة وسادة

---

(١) فى بحثه «الأمثال فى النثر العربى القديم مع مقارنتها بنظائرها فى الآداب السامية الأخرى».

(٢) ص : ١٢٦ — ١٢٩.

(٣) ص : ١٢٩ — ١٣٠ .

الحجاز واليمن قبل الإسلام ، كانت الحكمة الكتابية تشق طريقها فى أنحاء البلاد دون تفرقة بين شرق وغرب وشمال وجنوب ، وتلقى عناية القائمين بالأمر فى هذه المناطق جميعاً . وإذا كان الغساسنة وسادة الحجاز واليمن قد انصرفوا عن جانب التراث الشعبى فى منطقتهم ، فقد عضدوا الدعوات الكتابية ، وساندوا حركاتها ، وشجعوا حكماء العرب ما وسعهم التشجيع » . ثم ينتقل إلى الحديث عن هؤلاء الحكماء من بين عرب الجاهلية ، وبعد أن يذكر بعضهم يقول[1] : « والذين اشتهروا من هؤلاء الحكماء كانوا ينهجون نهجاً يذكرنا بنهج حكماء الشرق الأدنى القديم ، فكان الحكيم العربى كالحكيم البابلى والعبرى يجمع أحياناً إلى عمل القاضى والمشرّع حرفة الكاهن والطبيب والمنجم ، فكان الحكيم هو الرجل المثقف ثقافة جامعة لشتى ألوان المعرفة ، وكان بعض حكماء العرب يورّثون الحكمة أبناءهم كما صنع حكماء الشرق القديم حين كانوا يلقنون أولادهم تعاليم الحكمة . . . »

ولعل مما يدل على عناية عرب الجاهلية بكتابة الأمثال عناية قديمة أن من أوائل المؤلفات التى حفظت لنا المصادر العربية ذكرها فى العصر الإسلامى : كتب الأمثال ، فمنذ أيام معاوية ألف صُحَار بن عيَّاش العبدى (من عبد القيس) كتاباً فى الأمثال[2] . وكذلك ألف فى زمانه عُبيد بن شَريَّة كتاباً آخر فى الأمثال ذكر ابن النديم[3] أنه رآه فى نحو خمسين ورقة . وقد روى علاقة بن كريم الكلابى عن عبيد كتابه هذا فى الأمثال[4] .

ومما يدل أيضاً على أن هذه الحكم كانت مدونة منذ الجاهلية وبقيت إلى عهد الرسول والصحابة أن عمران بن حُصين قال[5] : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : الحياء لا يأتى إلا بخير . فقال بشير بن كعب — وكان قد

(١) ص : ١٣٠ .
(٢) فهرست ابن النديم : ١٣٢ ، وانظر أيضاً البيان والتبيين ١ : ٩٦ .
(٣) الفهرست : ١٣٢ .
(٤) ياقوت : إرشاد ١٢ : ١٩٠ .
(٥) العسكرى : التصحيف والتحريف (مطبعة الظاهر بمصر سنة ١٩٠٨) ص : ٨ .

قرأ الكتب — : إن فى الحكمة : أن منه ضعفاً . فغضب عمران بن الحصين وقال : أحدثك بما سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم ، وتحدثنى عن صحفك هذه الخبيثة ؟

ثم هذه الصحيفة التى كانت مع سويد بن الصامت ، والتى لم تكن إلا كتاباً فيه حكمة لقمان [1] ، وقد قرأها ، قبل أن يسلم ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستحسنها رسول الله وقال : « إن هذا الكلام حسن والذى معى أفضل من هذا : قرآن أنزله الله تعالى على ، هو هدى ونور » .

• • •

بقى أمر أخير فى النفس منه شىء ، بل أشياء : ذلك هو تسمية القصائد السبع أو العشر الجاهليات « بالمعلقات » . فقد ذكر القدماء أنه قد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له « أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة ، وعلقتها فى أستار الكعبة ، فمنه يقال : مذهبة امرئ القيس ، ومذهبة زهير . . . والمذهبات السبع ، وقد يقال لها : المعلقات » [2] . وقد نقل البغدادى ما يشبه هذا الكلام ثم قال [3] : « ذكر ذلك غير واحد من العلماء . وقيل : بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة يقول : علقوا لنا هذه ؛ لتكون فى خزانته » .

ولكن هذا الرأى فى تفسير كلمة « المذهبات » أو « المعلقات » لم يسلم من النقد والاعتراض سواء من القدامى أو من المحدثين . فمن القدامى أبو جعفر أحمد ابن محمد النحاس (المتوفى سنة ٣٣٨) الذى ذكر [4] « أن حماداً هو الذى جمع السبع الطوال ، ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة » .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ : ٦٨ ، والفائق ١ : ٢٠٦ ، ولسان العرب (جلل) .
(٢) ابن عبد ربه ، العقد ٦ : ١١٩ .
(٣) الخزانة ١ : ١٢٣ — ١٢٤ .
(٤) ياقوت ، إرشاد (حماد)

أما المحدثون فلايسوقون على اعتراضهم دليلاً ، ولكنا نحسب ،من سياق حديثهم ، أن لاعتراضهم أساسين : الأول — أن العرب لم يكونوا فى جاهليتهم أمة كاتبة تبلغ بها معرفتها بالكتابة أن تسجل شعرها وتكتبه . والثانى — أن الكعبة لها من الاحترام والقدسية ما لا يبيح أن تعلق فيها المدونات والمكتوبات .

وأما نحن فإننا لا نملك وسيلة قاطعة للإثبات أو النفى ؛ ولا نحب أن نعتسف الطريق ونقتحم كما يقتحم غيرنا . وكل ما نستطيع أن نقوله إن الاعتراض الذى قدمه القدماء كاعتراض ابن النحاس ، والذى قدمه المحدثون ، لا يثبت — فى رأينا — للتحقيق والتمحيص ؛ فإذا ما استطعنا أن ننفى هذا الاعتراض بقى القول الأول بكتابة المعلقات وتعليقها — سواء فى الكعبة أو خزانة الملك أو السيد — قولاً قائماً ، ترجيحاً لا يقيناً ، إلى أن يتاح له اعتراض جديد ينفيه ، أو سند جديد يؤيده ويثبته .

أما ما ذكره ابن النحاس من أن حماداً هو الذى جمع السبع الطوال فإنه لا يقوم دليلاً على أنها لم تكن موجودة من قبله وأنها لم تكن مكتوبة أو معلقة ؛ وإلا لكان معنى ذلك أن الدواوين التى صنعها وجمعها أبو عمرو بن العلاء وأبو عمرو الشيبانى والمفضل والأصمعى والسكرى وثعلب — كلها غير موجودة من قبلهم ؛ وهو كلام لم يقله أحد ، ولا معنى له . والذى نعرفه ، بما قدمنا ، أن حماداً كان يجمع الشعر الجاهلى وكان يدونه ، وأنه كانت بين يديه نسخ من دواوين هذا الشعر ، فإذا صح أن حماداً هو الذى جمع — فى ديوان واحد أو مجموعة واحدة — هذه القصائد السبع بعد أن كانت مفرقة ، أو جددها بعد أن كادت تبلى ، فإن ذلك لا يقوم حجة على بطلان ما أوردناه من أمر تعليقها . وقد ذكرنا من قبل عناية بعض الخلفاء الأمويين بجمع الشعر الجاهلى وكتابته وحفظه فى الديوان . وقد ورد أن عبد الملك بن مروان عنى أيضاً بجمع هذه القصائد المعلقات « فطرح شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة [1]» . فإذا صح ذلك

---

(١) البغدادى ، الخزانة ١ : ١٢٤ .

وصح ما روى من أن معاوية بن أبى سفيان قال(١) « قصيدة عمرو بن كلثوم وقصيدة الحارث بن حلزة ، من مفاخر العرب ، كانتا معلقتين بالكعبة دهراً » — كان هذان دليلين على معرفة القوم بأمر المعلقات وكتابتها وتعليقها قبل حماد بدهر .

أما اعتراض المحدثين فقد تحدثنا — فى كل ما كتبنا — عن نفى الشق الأول منه ، وأبنّا فى وضوح أن الجاهلية العربية عرفت الكتابة معرفة قديمة واسعة ، واستخدمتها فى جُلّ شئونها ، وكتبت بعض شعرها وأخبارها وأنسابها ، ودونتها فى صحف وكتب ودواوين. فالقول إذن بأمية الجاهلية فرض واهٍ يجب أن نُسقط جميع ما رُتّب عليه من نتائج باطلة .

وأما الشق الثانى من اعتراض المحدثين فهو كذلك لا يثبت للنظر والتحقيق ، إذ أن عرب الجاهلية كانوا يعلقون وثائقهم وكتاباتهم ذات القيمة فى الكعبة لقداستها فى نفوسهم ، وذلك إظهار لعلوّ مكانة هذه الوثائق والكتابات ولبيان قيمتها وخطرها . وأوضح مثال على أن تعليق هذه الكتابات كان أمراً مألوفاً متعارفاً عند عرب الجاهلية ما ذكره محمد بن حبيب عن حلف خُزَاعة لعبد المطلب ، قال(٢) : « . . . وكتبوا بينهم كتاباً ، كتبه لهم أبو قيس بن عبد مناف بن زُهرة . . . ثم علقوا الكتاب فى الكعبة » .

ومثل ثان :

هذه الصحيفة التى كتبتها قريش حينما اجتمعت على بنى هاشم وبنى المطلب ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم(٣) . وقد بقيت هذه الصحيفة فى الكعبة دهراً ، فلما أخرجوها بعد ذلك وجدوا أن الأرضة لم تَدَعْ فى الصحيفة إلا أسماء الله(٤) .

---

(١) الخزانة ٣ : ١٦٢ .

(٢) ديوان حسان بن ثابت — مخطوط بمكتبة أحمد الثالث ورقة : ١٥ — ١٦ .

(٣) ابن هشام ، السيرة ١ : ٣٧٥ — ٣٧٦ .

(٤) المصدر السابق ٢ : ١٦ وانظر مثلا تعليق العهود فى الكعبة فى العصور الإسلامية ، فى مروج الذهب ٣ : ٤٠٤ .

فإذا كان كلامنا هذا كافياً فى نفى هذين الاعتراضين — وإذا ضممنا إلى هذا ما ذكرناه من تدوين الشعر الجاهلى ، رجح عندنا أمر كتابة هذه المعلقات وتعليقها ، وصح عندنا أن نتخذها مثلاً آخر ، نورده فى هذا البحث ، من أمثلة تدوين الشعر الجاهلى وكتابته[1] .

٦

وبعد ،

فإن جميع ما ذكرناه لا يعدو أن يكون أمثلة قليلة ، نقبنا عنها تنقيباً طويلاً فى أرض غُفْل ، قد طمست آثارها ، وعفت رسومها واندرست معالمها ؛ ولكننا مع ذلك قد استطعنا أن نقيم فيها هذه الصُّوَى لتدل عليها وتحدد اتجاهها . فإذا صح ما ذكرناه من أن هذا الشعر الجاهلى قد دُوِّن بعضه منذ الجاهلية ، واتصل تدوينه وتجديده فى الإسلام ، فإننا نحب — استيفاءً للبحث — أن نصله بعصرنا هذا الذى نعيش فيه ، ونكشف عن صلة تلك المدونات الجاهلية والإسلامية المبكرة بهذه الدواوين التى بين أيدينا من الشعر الجاهلى ، والتى صنعها ورواها أبو عمرو بن العلاء والأصمعى والمفضل الضبى وأبو عمرو الشيبانى وابن الأعرابى . ولذلك حق لنا أن نسأل : هل أخذ هؤلاء العلماء الرواة ، فى نهاية القرن الثانى ومطلع القرن الثالث ، الشعر الجاهلى الذى رووه — من مدونات قديمة ؟ أو أنهم أخذوه كله من أفواه الرواة ؟ أما الرواية الشفهية فمجال بحثها فى الكتاب التالى ، ولذلك لن نعرض لها الآن ، وحسبنا أن نجيب عن الشق الأول من السؤال ، ونرى هل اعتمد هؤلاء العلماء على كتب ودواوينَ للشعر الجاهلى أخذوا منها — جمعاً أو اختياراً — ما وصل إلينا من الشعر الجاهلى ؟

---

(١) للأستاذ مصطفى صادق الرافعى بحث جيد عن المعلقات (تاريخ آداب العرب ٣ : ١٨٦ — ١٩٣) وهو فى جملته يخالف رأينا . وانظر كذلك « نقض كتاب فى الشعر الجاهلى » للسيد محمد الخضر حسين ص : ٣٠٧ — ٣٠٩ .

وللإجابة عن هذا السؤال طريقان نحن سالكوهما ، الأول — عَرْضٌ لبعض الروايات والأخبار عن هؤلاء العلماء الرواة ، وكيف أخذوا علمهم ؛ والثانى — دراسة بعض الشعر الجاهلى الذى رووه ، واستبانة « القراءات » المختلفة للفظة الواحدة عند بعض هؤلاء العلماء .

أما الطريق الأول فقد عفّى العلماء أنفسهم آثاره تعفية مقصودة متعمدة مما سنفصل القول فيه بعد قليل فى ختام هذا الفصل ، ولكننا مع ذلك عثْرنا على بعض ما يصح أن ننصبه فى طريقنا ليهدينا السبيل :

فقصة ابن الأعرابى (أبى عبد الله محمد بن زياد ١٥٠ — ٢٣١) مع الكتب قصةٌ مشهورة ، فقد كان كثير العكوف عليها ، والمدارسة لها ، والنظر فيها ، والأخذ منها . ولما بعث إليه أبو أيوب أحمد بن محمد بن شجاع غلاماً من غلمانه يسأله المجىء إليه ، عاد إليه الغلام فقال : قد سألته ذلك فقال لى : عندى قوم من الأعراب ، فإذا قضيت أربى معهم أتيت. قال الغلام : وما رأيت عنده أحداً إلا أنى رأيت بين يديه كتباً ينظر فيها ، فينظر فى هذا مرة وفى هذا مرة [1].

أما الأصمعى (عبد الملك بن قُرَيب ١٢٣ — ٢١٦) فقد قرأ بعض دواوين الشعر الجاهلى على شيوخه ؛ قال الأصمعى[2] : قرأت شعر الشنفرى على الشافعىّ بمكة . وقال أيضاً [3]: قرأت على أبى عمرو بن العلاء شعر النابغة الذبيانىّ . وقال أبو حاتم السجستانىّ [4]: قرأ الأصمعىّ على أبى عمرو بن العلاء شعر الحطيئة . وقُرِئ يوماً على الأصمعى فى شعر أبى ذؤيب: بأسفلَ ذات الدَّيْرِ أفرِدَ جَحْشُها . فقال أعرابى حضر المجلس للقارئ: ضَلّ ضلالك أيها القارئ ، إنما هى « ذات الدَّبْر» وهى ثنية عندنا ؛ فأخذ الأصمعى بذلك

(١) ياقوت ، إرشاد (محمد بن زياد) .
(٢) السيوطى ، المزهر : ١ : ١٦٠ .
(٣) المرزبانى ، الموشح : ٤٢ .
(٤) المزهر ٢ ، ٣٥٥ .

فيا بعد [١].

وكذلك كان أبو عبيدة (مَعْمَر بن المثنى ١١٤ — ٢١٠) وأبو حاتم السجستانى يتدارسان الشعر الجاهلى فى كتب ؛ قال أبو حاتم [٢]: جئت أبا عبيدة يوماً ومعى شعر عُروَةَ بن الورد ، فقال لى : ما معك؟ فقلت : شعر عُروة . قال : فارغٌ حَمَلَ شعر فقير ليقرأه على فقير !

وأما أبو عمرو الشيبانىّ (إسحق بن مِرَار ، توفى سنة ٢٠٦ أو ٢١٣ ، وعمره ١١٠ أو ١١٨ سنة) فقد كان كذلك يكتب الشعر والأخبار ويأخذها من الكتب. قال يعقوب بن السكيت[٣] «مات أبو عمرو الشيبانىّ وله مائة وثمانى عشرة سنة ، وكان يكتب بيده إلى أن مات ؛ وكان ربما استعار منى الكتاب وأنا إذْ ذاك صبىٌّ آخذ عنه وأكتب من كتبه» . وقد قرأ أبو عمرو الشيبانىّ دواوين الشعراء على المفضل [٤].

أما أبو عمرو بن العلاء فقد مر بنا ذكر كتبه وكثرتها ثم إحراقها بعد أن تقرأ .

وهذا حديث بين ابن مناذر الشاعر وخلف الأحمر يدل — فيا نرى — على أن الشعر الجاهلى كان مدوناً فى الكتب قبل عهدهما ، وأنهما كانا يعرفان هذه الكتب ويأخذان منها . قال ابن مناذر لخلف[٥] : يا أبا مُحْرِز ، إن يكن النابغة وامرؤ القيس وزهير قد ماتوا فهذه أشعارهم مخلدة ، فقس شعرى إلى شعرهم ، واحكم فيها بالحق ؛ فغضب خلف . . .

ومن أوضح الأمثلة على هذا الذى نحن بسبيله : ما ورد عن أبى تمام (توفى سنة ٢٣١) حينما اختار حماسته ؛ وذلك أن الثلج عاقه عن السفر ، وكان فى

---

(١) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ١ : ٢٩ .

(٢) المزهر ١ : ١٦١ .

(٣) ابن النديم ، الفهرست ١٠٢ .

(٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ١ : ٦٥ .

(٥) ياقوت ، إرشاد (خلف) .

العراق ، فاستضافه أبو الوفاء بن سلمة ، وأحضره خزانة كتبه ، فطالعها ، واشتغل بها ، وصنف خمسة كتب فى الشعر ، منها كتاب الحماسة والوحشيات[1] .

وما ورد كذلك عن المفضل الضبي (توفى سنة ١٦٨ أو ١٧٨) حين قال له العباس بن بكار[2] : ما أحسن اختيارك للأشعار ، فلو زدتنا من اختيارك . فقال المفضل : والله ما هذا الاختيار لى ، ولكن إبراهيم بن عبد الله استتر عندى (فى نحو سنة ١٤٥) فكنت أطوف وأعود إليه بالأخبار ، فيأنس ويحدثنى ، ثم عرض لى خروج إلى ضيعتى أياماً ، فقال لى : اجعل كتبك عندى لأستريح إلى النظر فيها . فتركت عنده قمطرين فيهما أشعار وأخبار ، فلما عدت وجدته قد علّم على هذه الأشعار ، وكان أحفظ الناس للشعر ، فجمعته وأخرجته ، فقال الناس : اختيار المفضل .

فهذه كلها أخبار صريحة الدلالة على أن هؤلاء العلماء الرواة إنما وجدوا أمامهم دواوين الشعر الجاهلى مكتوبة قبل عهدهم ، وأنهم قرءوها وتدارسوها وأخذوا منها ؛ ومن هنا كانت الدواوين التى صنعوها أو المجموعات التى اختاروها قائمة — فى أساسها — على ما كان مدوّناً من قبل عصرهم .

أما الطريق الثانى لمعرفة أخذ هؤلاء العلماء المتقدمين أشعار الجاهلية من الكتب — فيقوم على جمع بعض الأمثلة على اختلاف اللفظة الواحدة عندهم . وأسباب اختلاف الرواية كثيرة ، لا يعنينا منها هنا إلا ما له دلالة على بحثنا ، ونقصد به : التصحيف ، لأن « أصل التصحيف أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته فى صحيفة ، ولم يكن سمعه من الرجال فيغيره عن الصواب[3] » . ولن نعرض إلا لما وقع فيه رواة آخر القرن الثانى ، اما من جاء بعدهم فقد أخذوا من

---

(١) التبريزى ، شرح الحماسة : المقدمة ص : ٤

(٢) المزهر ٢ : ٣١٩ ، وانظر أيضاً : مقاتل الطالبيين لأبى الفرج : ٣٧٣

(٣) المزهر ٢ : ٣٥٣ .

كتب هؤلاء ، ولا حاجة بنا إلى عرضه إذ لا دليل فيه .

فمن أمثلته : ما ذكره أبو حاتم السجستانى قال [١] : قرأ الأصمعى على أبى عمرو بن العلاء شعر الحطيئة ، فقرأ قوله :

وَغَرَرْتَنِى وزَعَمْتَ أنَّـــكَ لَابِنٌ بالصيْفِ تامِرْ

ـ أى كثير اللبن والتمر ـ فقرأها « لا تنى بالضيف تامُرْ » يريد : لا تتوانى عن ضيفك تأمر بتعجيل القِرَى له . فقال له أبو عمرو : أنت والله فى تصحيفك هذا أشعر من الحطيئة ! !

وقال الأخفش [٢] : أنشدتُ أبا عمرو بن العلاء .

قالت قُتَيْلَةُ مالَهُ قَدْ جُلِّلَتْ شَيْبًا شَواتهْ

فقال أبو عمرو : كبرت عليك رأس الراء فظننتها واواً . قلت : وما سراته ؟ قال : سراة البيت : ظهره . قال الأخفش : ما هو إلا « شواته » ، ولكنه لم يسمعها .

ولهذين الخبرين قيمة خاصة إذ يدلان صراحة على أن الأصمعى والأخفش وأبا عمرو بن العلاء قد قرءوا هذا الشعر فى كتب ، وبذلك يسَّرا لنا سبيل التدليل على أن هذا الضرب من التصحيف لا يكون من خطأ فى السماع ، وإنما ينشأ من خطأ فى القراءة .

وقال أبو حاتم أيضاً [٣] : صحف الأصمعى فى بيت أوس :

يَا عَامِ لو صَادَفْتَ أَرْمَاحَنا لكانَ مَثْوى خَدِّكَ الأَخْرَما

ـ يعنى بالأحزم : الحزم الغليظ من الأرض . قال أبو حاتم : والرواة على

---

(١) المزهر ٢ : ٣٥٥ ، وانظر كتاب التصحيف والتحريف للعسكرى : ٥٥ .
(٢) المزهر ٢ : ٣٦٠ .
(٣) المزهر ٢ : ٣٥٥ .

خلافه ، وإنما هو : الأخرم (بالراء) ، وهو طرف أسفل الكتف ، أى كنت تُقتَلُ فيقطع رأسك على أخرم كتفك .

وقال القالىّ فى أماليه [١] : أنشد أبو عبيد :

أَشكو إلى اللهِ عِيالًا دَرْدَقا   مُقَرْقَمِينَ وَعَجُوزًا شَمْلَقا

ـ بالشين معجمة ـ وهو أحد ما أُخذ عليه: وروى ابن الأعرابىّ : « سَملقا » ـ بالسين غير المعجمة ـ وهو الصحيح .

وقال القالى أيضاً [٢] فى قول الأعشى :

تَرُوحُ على آلِ المُحَلَّق جَفْنَةٌ   كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ العِرَاقِّ تَفْهَقُ

كان أبو مُحرز (يقصد خلفاً الأحمر) يرويه « كجابية السيح » ، ويقول : « الشيخ » تصحيف ، والسيح : الماء الذى يسيح على وجه الأرض .

وأنشد أبو زيد فى نوادره [٣] :

إنَّ التى وضعتْ بيتًا مهاجرةً   بكوفة الخُلدِ قد غالت بها غُولُ

قال الرياشىّ : الأصمعى يقول « بكوفة الجند » ، ويزعم أن هذا تصحيف . وقال الجرمىّ : كوفة الخلد ، أى أنها دار قرار لا يتحولون عنها .

وقال أبو عمرو الشيبانى [٤] : كنا بالرقة فأنشد الأصمعى بيت الحارث ابن حلزة :

عَنَتًا باطلًا وَظُلْمًا كَمَا تُعْـــــتَرُ عن حَجْرَةِ الرَّبِيضِ الظِّباء

---

(١) المزهر ٢ : ٣٥٦ ؛ وأمالى القالى ٢ : ٢٤٦ . دردق : صغار . مقرقمين : لا يشبون لسوء غذائهم ، شملق : العجوز الكبيرة .

(٢) المزهر ٢ : ٣٥٦ ، وأمالى القالى ٢ : ٢٩٦ الجابية : الحوض الكبير . تفهق : تمتلىء حتى تفيض .

(٣) المزهر ٢ : ٣٥٧ .

(٤) المصدر السابق ٢ : ٣٥٩ تعتر : تطعن بالعنزة ، وهى الحربة .

فقلت له : إنما هو « تَعْتَر » من العتيرة ، والعتر : الذبح . . .

والحديث عن التصحيف لا ينتهى كثرةً ، وهو متفرق فى كتب الأدب ، مجموع فى مظانه ، من مثل كتاب العسكرى « التصحيف والتحريف » ، وكتاب البصرى « التنبيهات على أغاليط الرواة » وكتاب حمزة بن الحسن الأصفهانى « التنبيه على حدوث التصحيف » وكتاب السيوطى « المزهر » . ولعل خير مانختم به هذه الأمثلة ما قاله أبو عمرو الشيبانى (١) : « روى أبو عُبيدة بيت الأعشى :

. . . . وسيق إليه البَاقِرُ العَثِلُ

فأرسلتُ إليه : قد صحّفتَ ، إنما هو « الغُبُلُ » أى الكثير — يقال : ماء غُيُل إذا كان كثيراً — وروى عنه أيضاً أنه قال : الغُيُل السمان ، من قولهم : ساعد غَيْل . وكان أبو عبيدة يروى هذا البيت :

إنى لَعَمْرُ الذى حَطَّتْ مَنَاسِمُها تَخْدِى وَسِيقَ إليه الباقرُ العَثِلُ

وحكى ابن قُتيبة أن أبا حاتم قال له : سألت الأصمعىّ عنه فقال : لم أسمع بالعثل إلا فى هذا البيت ، ولم يفسره . قال : وسألت أبا عبيدة عنه فقال : العثل : الكثير . قال ابن قتيبة : وخبرنى غيره أن الأصمعى كان يروى « وجدٌ عليها النافر العَجِلُ » يريد : النفار من مِنَى ؛ والنافر لفظه لفظ واحد وهو معنى جمع . . . ورواه أبو عبيدة : « حَطتْ مناسمها » بالحاء غير معجمة ، وقال : يعنى حطاطها فى السير وهو الاعتماد . ورواه الأصمعى « خَطت » بالخاء ، أى شقت التراب ، وأنشد للنابغة « فما خططتُ غبارى » أى شققته . وقال الأصمعى : « حطت » خطأ . — فانظر إلى اختلافهم فى هذا البيت ، وَرَدِّ بعضهم على بعض ، ومراسلة أبى عمرو أبا عبيدة فيه » .

---

(١) البصرى ، التنبيهات على أغاليط الرواة ورقة : ١ . الباقر : اسم جمع البقر . العثل : الكثير .

٧

فإذا كان الأمر على ما بينّا ، وإذا رجح عندنا أن هؤلاء العلماء قد أخذوا بعض ما جمعوا وما اختاروا من الشعر الجاهلى — من صحف وكتب ودواوين ربما كتب بعضها فى العصر الجاهلى وجُددت فى القرن الهجرى الأول — فما بالهم إذن لا يصرّحون بذلك ؟ وكيف يكون الأمر على هذا الوجه ثم لا يذكر أحد من هؤلاء العلماء أنه أخذ هذه القصيدة أو ذلك البيت من كتاب عالم قبله ، أو من ديوان جُمع فى القرن الأول أو توارثوه من الجاهلية ؟

والجواب عن هذا السؤال سنفصل القول فيه تفصيلاً حين نتحدث عن طريقة أخذ هؤلاء العلماء علمَهم ، وعن الرواية والرواة بعامة ، فى الباب التالى . ولكن ذلك لا يعفينا من أن نشير فى هذا الموضع إشارة فيها بعض ما يجيب هذا التساؤل .

فإغفالهم ذكر الكتب التى أخذوا منها راجع ، فيما يبدو لنا ، إلى طريقتهم فى أخذ العلم وتحصيله آنذاك . فقد كان العالم الحق الجدير بالثقة هو الذى يتصل بالعلماء من ذوى السن ، فيحضر مجالسهم ويلازمهم ويستمع إليهم ويأخذ عنهم ، والكتاب فى كل ذلك ، أو فى أكثره ، هو الوسيلة أو الأداة : يقرأه على شيخه ، أو يستمع إلى بعض من يقرأه ، وقد تكون فى يده نسخة أخرى من الكتاب يتابع قراءة القارئ ، والشيخ يستمع : يصحح الخطأ ، ويشرح الغامض ، ويذكر من وجوه الخلاف فى الألفاظ ما بلغ إليه علمه ، ويتحدث عما حول النص من جو تاريخى ، وقد يقوده اللفظ أو الخبر إلى لفظ فى بيت آخر ، أو إلى خبر فى حادثة أخرى ، فيستطرد ، ثم يعود إلى موضوعه الأصيل .

أما من كان يكتفى بالأخذ من الكتاب وحده ، دون أن يعرضه على العلماء، ودون أن يتلقى علمه فى مجالسهم ، فقد كان عرضةً للتصحيف والتحريف ، وبذلك لم يعدّوا علمه علماً ، وسموه صحفياً لا عالماً . قال ابن سلام[١] فى معرض حديثه عن الشعر القديم « وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد — إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شىء منه — أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى » . وشبيهٌ بهذا قولُ ثعلب عن كتاب العين للخليل[٢] « وقد حشا الكتابَ أيضاً قوم علماءُ إلا أنهم لم يؤخذ منهم روايةٌ ، وإنما وُجد بنقل الورّاقين ، فاختلّ الكتاب لهذه الجهة » .

ومن هنا ضعّفوا الأخذ من المدونات فى التفسير والحديث ؛ فكان بعضهم يتّقى تفسير مجاهد (توفى سنة ١٠٣ وعمره ٨٣ سنة) لأنهم « كانوا يرون أن مجاهداً يحدّث عن صحيفة جابر »[٣] وقال يحيى بن سعيد القطان فى أحاديث سَمُرة التى يرويها الحسن عنه : سمعنا أنها من كتاب[٤] ؛ وقال سفيان الثورى عن حديث عبد الأعلى بن عامر الثعلبى[٥] : كنا نرى أنه من كتاب ، وكان ضعيفاً فى الحديث . وقال يحيى بن معين[٦] : إذا حدث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (يعنى عبد الله بن عمرو بن العاص) فهو كتاب ، ومن هنا جاء ضعفه ، وإذا حدث عن سعيد بن المسيب أو سليمان بن يسار أو عُروة ، فهو ثقة عن هؤلاء . وقال كذلك أبو زرعة إن عمرو بن شعيب[٧] « إنما سمع أحاديث يسيرة ،

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ٥ — ٦ .
(٢) أبو الطيب اللغوى « مراتب النحويين » ورقة : ٤٩ .
(٣) ابن حجر « الإصابة » : ٣٤٤ .
(٤) ابن سعد ٧ : ١١٥ .
(٥) ابن سعد ٦ : ٢٣٣ .
(٦) تهذيب التهذيب ٨ : ٤٩ .
(٧) تهذيب التهذيب ٨ : ٤٩ .

وأخذ صحيفة كانت عنده فرواها . . . وهو ثقة فى نفسه ، إنما تُكلِّمَ فيه بسبب كتاب عنده » .

ومن أجل ذلك كان مما يهجى به العالم الاكتفاءُ بالأخذ عن الصحف وحدها ، وإهمال الإسناد إلى الشيوخ ، فقال بعضهم يهجو أبا حاتم السجستانى[١] :

إذا أسْنَدَ القَوْمُ أخبارَهُمْ   فإسنادُهُ الصُّحْفُ والهَاجِسُ

ومن أجل ذلك أيضاً كان مما يُمدح به العالم أنه لا يكتفى بالأخذ عن الصحف وحدها فلا يقع فى التصحيف ، ومن ذلك ما مدَح به أبو نواس خلفاً الأحمر[٢] :

لا يَهِمُ الحَاءَ فى القِرَاءَةِ بالْ   خَاءِ وَلا لَامَهَا مَعَ الأَلِفِ

وَلا يُعَمِّى مَعْنَى الكلامِ ولا   يكونُ إنشادُه عن الصُّحُفِ

وقال فيه أيضاً :

فَكُلَّما نَشاءُ مِنْهُ نَغْتَرِفْ   رَاوِيَةٌ لَا يَجْتَنى مِنَ الصُّحُفْ

أفليس من الطبيعى بعد هذا كله أن يتجنب هؤلاء العلماءُ النصَّ على الكتب التى أخذوا منها ، وأن يكتفوا بسماعهم شيخهم أو قراءتهم عليه ؟

ثم إذا بلغ هذا المتعلم من العلم مبلغاً يتيح له أن يجلس منه المتعلمون مجلسه من أولئك العلماء ، أسند ما يلقيه من العلم إلى شيوخه ، فيقول : حدثنا فلان ، وأخبرنا فلان ، وسمعت فلاناً يقول . وهذه الصيغ المختلفة للتحديث موهمةٌ أنها كانت رواية شفهية ، وأن مجلس العلم كله كان حديثاً لا كتاب فيه . ولكن الأمر على غير ذلك . فإن هذه الصيغ كلها إنما تدل على ما ذكرناه من حديث

---

(١) العسكرى ، التصحيف والتحريف : ١٣ .

(٢) التصحيف والتحريف : ١٣ والبيتان فيه متداخلان محرفان ، وصوابهما من ديوانه ص : ١٣٥ ؛ المطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩٨ .

العالم الشيخ فى مجلسه ، والمتعلمون والعلماء من حوله يقرأون أو يستمعون إلى من يقرأ ، والشيخ العالم يشرح . والدليل على ما ذكرنا من أن مجالس العلم كانت تقوم على قراءة الكتاب وحديث الشيخ معاً ، وأن إسناد التحديث إنما هو فى حديث الشيخ وحده ، وأنه لا ينفى وجود الكتاب ــ الدليل على ذلك ما نجمعه هنا :

قال محمد بن عمر الواقدى(١) : سألت ابن جُريج (توفى سنة ١٥٠ وعمره ٧٦ سنة) عن قراءة الحديث على المحدِّث ؛ فقال : ومثلك يسأل عن هذا ؟ إنما اختلف الناس فى الصحيفة يأخذها ويقول : أحدث بما فيها ، ولم يقرّها ، فأما إذا قرأها فهو سواء .

وقال عثمان بن عبيد الله بن أبى رافع(٢) : رأيت من يقرأ على الأعرج (هو أبو داود عبد الرحمن بن هرمز المتوفى سنة ١٧٧) حديثه عن أبى هُريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : هذا حديثك يا أبا داود ؟ قال : نعم . قال : فأقول حدثنى عبد الرحمن ، وقد قرأتُ عليك ؟ قال : نعم ، قل : حدثنى عبد الرحمن بن هرمز .

وهل أدل على وجود الإسناد ــ مما يوهم السماع وحده ــ بينما يكون المصدر الأصيل هو الصحيفة ــ من هذه الكتب التى كتبها عروة بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان يجيبه فيها عما يسأله ، ويذكر فيها بعض الحوادث التاريخية؟ فمع أنها مدونة فى صحف نجد الطبرى ، حينما يوردها فى تاريخه ، يذكر لها إسناداً فيقول(٣) « . . . أبان العطار قال : حدثنا هشام بن عروة أنه كتب إلى عبد الملك . . . »

---

(١) ابن سعد ٥ : ٣٦١ .
(٢) المصدر السابق ٥ : ٢٠٩ .
(٣) تاريخ الطبرى ١ : ١١٨٠ .

فهذه كلها صريحة فى أن الإسناد لا ينفى وجود الصحيفة أو الكتاب ، وأن الكتاب والسماع جزءان يتمم أحدُهما الآخر . بل إن الإسناد قد يوهم السماع حيث لا سماع ، وإنما هو أخذٌ من صحيفة أو كتاب من غير قراءة على الشيخ وسماع منه . قال الواقدى(١) عن عبد الرحمن بن أبى الزناد أنه شهد ابن جُرَيج جاء إلى هشام بن عروة فقال : يا أبا المنذر ، الصحيفة التى أعطيتَها فلاناً هى حديثك ؟ قال : نعم . قال الواقدى : فسمعت أن جريج بعد هذا يقول : حدثنا هشام بن عروة ، ما لا أحصى . فابن جريج فى هذا الخبر لم يسمع هشام ابن عروة ، وإنما أخذ من صحيفة ولم يستمع إليه وهو يحدّث بها ، ومع ذلك فهو يسند ، ويقول : حدثنا هشام بن عروة ؛ وذلك لأنه اطمأن إلى أن ما فى الصحيفة من حديث هشام حقّاً .

وخبر آخر يؤيد هذا الخبر السابق ، وهو عن ابن جُرَيج نفسه . قال الواقدى(٢) : حدثنى أبو بكر بن عبد الله بن أبى سبرة قال : قال لى ابن جريج : اكتب لى أحاديثَ سُنن قال : فكتبت له ألف حديث ثم بعثت بها إليه ، ما قرأها علىّ ولا قرأتها عليه . قال الواقدى : فسمعت ابن جريج بعد ذلك يحدّث يقول : حدثنا أبو بكر بن أبى سبرة ، فى أحاديث كثيرة .

وقد مر بنا أن عطاء بن دينار روى التفسير عن سعيد بن جبير ، ولكنه لم يسمعه منه ، وإنما وجد عطاء هذا التفسير فى ديوان عبد الملك بن مروان ، فأخذه فأرسله عن سعيد بن جبير(٣) .

ومن هذا القبيل ما يورده أبو الفرج فى أغانيه عن أبى خليفة عن محمد ابن سلام ، إذ يقول أبو الفرج(٤) « أخبرنى أبو خليفة إجازةً عن محمد بن سلام قال . . . » . وأبو الفرج لم يلقَ أبا خليفة ، وإنما كان يكتب إليه ، ويؤيد ذلك

(١) ابن قتيبة ، المعارف : ٢١٤ .
(٢) ابن سعد ٥ : ٣٦١ .
(٣) ابن أبى حاتم ، الجرح والتعديل ٣/١ : ٣٣٢ .
(٤) الأغانى ٢ : ٢٣١ .

قوله (١) : « أخبرنى الفضل بن الحُباب الجمحى أبو خليفة فى كتابه إلىّ بإجازته لى يذكر عن محمد بن سلام . . . » فهنا إسناد وإجازة معاً من غير سماع ولا لقاء .

• • •

وذلك كله ينتهى بنا إلى ما ذكرناه قبل قليل من أن طريقة السلف فى أخذ العلم وتحصيله تعتمد على الرواية ، وأن الرواية تقوم على دعامتين : الأولى — الكتاب : يقرأه أحد الحاضرين فى مجلس العلم ، والآخرون يستمعون إليه أو يتابعون ما يقرأ فى نسخ بين أيديهم من الكتاب نفسه . والثانى — السماع : وذلك حينما يتحدث الشيخ نفسه يصحح خطأ ، أو يشرح غامضاً ، أو يذكر ما حول النص من حوادث تاريخية . وأن لفظ « حدثنا » أو « أخبرنا » لفظ عام ، قد يدل على الرواية بدعامتيها : القراءة والسماع : وقد يدلّ على السماع وحده ، وقد يدل على القراءة وحدها دون سماع — كما رأينا فى الأمثلة الأربعة الأخيرة .

(١) الأغانى ٢ : ١٥٨ .

الباب الثالث

الرواية والسماع

الفصل الأول

اتصال الرواية

من الجاهلية حتى القرن الثانى

١

والرواية ، بمدلولها العلمى الأدبى ، طور لغوى متأخر ، سبقه — فيما نرى — طور ذو دلالة مادية حسية ، نحسبها كانت فى بدء أمرها محصورة فيما يتصل بالماء من إناء يحمل فيه كالمزادة ، ومن حيوان يحمل عليه كالبعير ، ومن إنسان يحمله مستقياً أو متعهداً دابةَ السقاية.(١) قال لبيد من أبيات(٢) :

فتَوَلَّوْا فاتِرًا مَشْيُهُمُ ... كَرَوَايا الطِّبْعِ هَمَّتْ بالْوَحَلْ

فالروايا من الإبل : الحوامل للماء ، واحدتها : راوية .

وقال الأعشى(٣) :

وَتَقْوَادُهُ الخَيْلَ حَتَّى يَطُو ... لَ كَرُّ الرُّوَاةِ وإِيغَالُهَا

فالرواة هنا : من يقومون على الخيل ، مفردها : راوٍ

ثم صارت الروايةُ تطلق على مطلق الحمل ، والراويةُ على الدابة التى تُتخَذُ لحمل المتاع إطلاقاً ، كقول زهير(٤) :

يَسِيرون حتَّى حَبَّسُوا عندَ بابِهِ ... ثِقَالَ الروايا والهِجَانَ المَتَالِيَا

---

(١) قال الجاحظ (الحيوان ١ : ٣٣٢) « الراوية : هو الجمل نفسه ، وهو حامل المزادة ، فسميت المزادة باسم حامل المزادة ، ولهذا المعنى سموا حامل الشعر والحديث راوية » .

(٢) ديوانه (القسم الثانى ط . بريل ١٨٩١) ص : ١٧ . الطبع : السقاء ، أو نهر بعينه .

(٣) ديوانه ق : ٢١ ، ب : ٣٧ .

(٤) ديوانه : ٢٩١ . الهجان : كرام الإبل . المتالى : التى يتبعها أولادها ، الواحدة : متلية .

فالروايا هنا : الإبل التى يحمل عليها المتاع إطلاقاً .

ومن مجاز هذا الحمل : حمل الديات ، كقولهم : « إن فلاناً لراوية الديات» أى : حاملها ، و « بنو فلان روايا الحمالات » . قال أبو شأس[1] :

وَلَنا رَوايا يَحْمِلُون لنَا أثْقَالَنا إذْ يُكرَهُ الْحَمْلُ

وقال الكميت :

وَكُنَّا قَدِيمًا رَوَايا المِئِين بِنَا يَتَّقِى الْجَارِمُ المُبْسَلُ

ثم صارت الروايا تدل على السادة ، لأنهم يقومون بأعباء غيرهم ويحملون عنهم أثقالهم .

قال رجل من بنى تميم — وذكر قوماً أغاروا عليهم — « لقيناهم فقتلنا الروايا ، وأبحنا الزوايا » أى : قتلنا السادة وأبحنا البيوت [2] .

ومن مجاز هذا الحمل أيضاً : حمل الشعر أو الحديث ، فقالوا : فلان راوية للأدب والشعر ، وراو للحديث . وراوية الشعر فى الجاهلية هو من يحمل شعر الشاعر وينقله ويذيعه ، قال النابغة الذبيانى[3] :

ألِكْنِى يا عُيَيْنُ إليْكَ قَوْلًا سَتَهْدِيه الرواةُ إليكَ عَنِّى

وقال عميرة بن جُعَل — وكان قد هجا قومه بنى تغلب ثم ندم[4] :

نَدِمْتُ على شَتْمِ العَشِيرة بعد ما مَضَتْ واسْتَتَبَّتْ للرُّوَاةِ مذَاهِبُهْ
فأصبحتُ لا أَسطِيعُ دَفْعًا لِمَامَضَى كَما لا يَرُدُّ الدَّرَّ فى الضَّرْعِ حَالِبُهْ

---

(١) أساس البلاغة (روى) .

(٢) أساس البلاغة (روى) .

(٣) تفسير الطبرى ١ : ١٥٦ والذى فى ديوانه (خمسة دواوين) ص: ٧٩ « سأهديه إليك عنى » .

(٤) الشعر والشعراء ٢ : ٦٣٢ .

وقال حميد بن ثور[١] :

لأعترضَنْ بالسَّهْلِ ثم لأَحْتُوَنْ   قصائدَ فيها للمعاذيرِ زاجرُ
قصائدَ تستحلِي الرُّواةُ نشيدَها   ويلهو بها من لاعب الحيِّ زامرُ

وقال أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « بأبي أنت ، ما أنت بشاعر ولا راوية ، ولا ينبغي لك » . ولما حضرت الحطيئةَ الوفاةُ اجتمع إليه قومه فقالوا[٢] : « يأبا مُلَيكة ، أوصِ » . فقال : « ويل للشعر من راوية السوء » .

وذلك كله إنما الأصل فيه هو الماء : حمله وحامله من رجل أو دابة . غير أن هذا الضرب الأخير من المجاز ، وهو الحمل الأدبي ، قد مر كذلك ، فيما يبدو ، في مرحلتين : الأولى خاصة بالشعر وحده — وتعني مجرد حفظه ونقله وإنشاده ، ولا تتجاوز ذلك إلى ضبطه وتحقيقه والنظر فيه وتمحيصه . واستمر مدلول هذه المرحلة الأولى في تاريخ الرواية الأدبية حتى آخر القرن الأول وبداية القرن الثاني . قال محمد بن المنكدر (التيمي المدني المتوفى سنة ١٣٠)[٤] : « ما كنا ندعو الرواية إلا رواية الشعر ، وما كنا نقول هذا يروي أحاديث الحكمة إلا عالم » .

فلما أُصِّلت أصول علم الحديث ، وأرسيت قواعده ، وعُنِيَ فيه بالإسناد ، وتصدر المحدِّثون للتحديث في مجالس العلم من حفظهم ، صار يطلق عليهم أيضاً لفظ الراوية ، فصرنا نجد للمحدثين ، في آخر القرن الثاني ، رواة كما كان للشعراء رواة ، ومنهم « النضر بن طاهر راوية مالك بالبصرة »[٥] .

ومن هنا دخلت الرواية الأدبية في طورها الثاني ، وهو ما يصحّ أن نطلق

---

(١) ديوانه ٨٩ .
(٢) ابن سعد ٤/٢ : ١٦ .
(٣) الأغاني (دار الكتب) ٢ : ١٩٥ وانظر أيضاً : الشعر والشعراء ١ : ٢٨١ .
(٤) ابن عبد البر ، جامع بيان العلم وفضله ، المطبعة المنيرية ١٣٤٦ هـ ، ٢ : ٤٧ .
(٥) الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين : ٦ .

عليه دور الرواية العلمية . وهى تقوم على الحفظ والنقل والإنشاد ، كالرواية المجردة فى دورها الأول ، وأضيف إليها الضبطُ والإتقان والتحقيق والتمحيص والشرح والتفسير وشىء من الإسناد ، كما سيمر بنا فى الفصل التالى عند حديثنا عن طبقات الرواة ، وفى الفصل الثالث حين نتحدث عن الإسناد فى الرواية الأدبية . وهذا الدور من الرواية الأدبية هو الذى قامت فيه مجالس العلم والدرس ، وصار لهذه المجالس شيوخ يتصدرون ، وتلاميذ يستمعون ويقرأون ، وكانت لهذه الرواية العلمية — على ما بيّنا طرفاً منه — دعامتان : القراءةُ من الكتاب ، والسماعُ من الشيخ .

وما ذكرناه فى الباب الأول من أمر الكتابة والتدوين بعامة ، وكتابة الشعر وتدوينه بخاصة ، ثم ما ذكرناه بعد ذلك من أمر اتصال العلماء الرواة فى القرن الثانى بالمدونات السابقة واستمدادهم منها — كل ذلك حديث موهمٌ ، قد يُحمَّل محملاً فيه سعةٌ وتعميم لم نقصد إليهما . ومن هنا ينبغى لنا أن نقرر أموراً ثلاثة يستقيم بها للبحث وجهه ، الأول : أن هذا التدوين الذى ذكرناه — على ما كان من وجوده بل انتشاره — لم يكن له من سعة هذا الانتشار ما يتيح وجود نسخ كثيرة من الديوان الواحد تفى بحاجة القارئين آنذاك . وأن ذيوع شعر الشاعر أو أخبار القبيلة ومآثرها لم يكن قائماً على القراءة من الديوان أو الكتاب ، وإنما كان يقوم على الرواية الشفهية من فرد إلى فرد ومن جيل إلى جيل . أجل ، لقد كان هذا الشعر أو بعضه مدوناً — كما بينّا — ولكن تدوينه كان مقصوراً على نسخة واحدة — هى الأم أو المرجع — أو على نسخ قليلة محدودة ينسخها أفراد قلائل من الرواة أو الشعراء أو أبناء قبيلة الشاعر أو الممدوحين من السادة والأشراف ، ثم يحفظ هؤلاء جميعاً ، أو بعضهم ، هذا الشعر ، ويتناقلونه إنشاداً — لا قراءة — فى مجالسهم ومشاهدهم وأسواقهم ، ويرددونه شفاهاً فى سمرهم ومحافلهم ومنافراتهم ومواقف فخرهم ، فيشيع بين العرب ، ويتناقله الركبان ، عن هذا الطريق من الرواية الشفهية ، لا عن طريق القراءة والمدارسة من الكتاب

أو الديوان . وذلك أمر طبيعى عند العرب وعند غيرهم ، فى تلك العصور وفى العصور التى تلتها إلى عهد قريب حينما اكتُشفت الطباعة فيسّرت كتابة النسخ الكثيرة من الكتاب الواحد .

وأما الأمر الثانى فيتصل بالأمر الأول ، وذلك أن رواة الشاعر نفسه — وهم أول من يسمع شعر الشاعر وأهم وسيلة من وسائل نشر شعره وإذاعته — هؤلاء الرواة كانوا يكتبون شعر الشاعر حقًّا ،ويحفظونه فى صحف ودواوين ، ولكنهم مع ذلك يحفظون هذا الشعر فى صدورهم وذاكرتهم ، وينقلونه فى المجالس والمحافل إنشاداً لا قراءة من صحف . وقد كان ذلك كذلك فى جميع العصور الإسلامية : فقد كان جرير يريد أن يهجو بنى نمير ، فأقبل إلى منزله وقال للحسين راويته[1] : زد فى دهن سراجك الليلةَ وأعدْ ألواحاً ودواة .قال : ثم أقبل على هجاء بنى نمير ، فلم يزلْ حتى ورد عليه قوله :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّك من نُمَيْرٍ فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ ولا كِلابَا

فقال جرير للحسين راويته : « حسبك أطفِ سراجك ، ونم ،فقد فرغت منه » — يعنى قتلته .

وهجت بنو جعفر بن كلاب قومَ الفرزدق ، فأراد أن يهجوهم ، ولكنه قال[2] : والله ما أعرف مثالبهم ولاما يهجوّن به » . فبينا هو كذلك إذ قدم عمر بن لجأ التيمى البصرةَ ، فنزل فى بنى عدىّ فى موضع دار أعين الطبيب . فقال الفرزدق لابن متّويْه — وهوراوية الفرزدق وكان يكتب شعره : «امض بنا إلى هذا التيمىّ . قال : فخرجنا حتى وقفنا على الباب الذى هو فيه ، فاستأذنّا ، وعند ابن لجأ فتيان من بنى عدىّ يكتبون فخره بالرِّباب . . . » .

وهذا شيخ من هذيل ، كان خالاً للفرزدق من بعض أطرافه ، يقول[3] :

(١) النقائض: ٤٣٠ .

(٢) النقائض: ٩٠٧ — ٩٠٨

(٣) الأغانى (دار الكتب) ٤ : ٢٥٦—٢٥٨ .

« . . . فجئت الفرزدق . . . ودخلت على رواته فوجدتهم يعدلون ما انحرف من شعره ، فأخذتُ من شعره ما أردت . . . ثم أتيت جريراً . . . وجئت رواته وهم يقومون ما انحرف من شعره وما فيه من السناد ، فأخذت ما أردت . . »

ومع ذلك فقد كان هؤلاء الرواة — على كتابتهم للشعر فى الدواوين وحفظهم إياه فى الصحف — ينشدون الشعر إنشاداً ويذيعونه بين الناس والقبائل عن طريق الرواية الشفهية ، ومن أجل ذلك قال جرير[1] :

وَعَاوٍ عَوَى من غيرِ شىء ، رَمَيْتُه   بقافيةٍ أنفاذُها تَقْطُرُ الدَّمَا
خَروجٍ بأفواهِ الرواةِ كأنَّها   قَرَى هُنْدُوَانىٌّ إذا هُزَّ صَمَّما

وقال الفرزدق[2] :

تَغَنَّى يا جريرُ لغير شىء   وقد ذهب القصائدُ للرُّواةِ
فكيف تَرُدُّ ما بِعُمَانَ منها   وما بجبال مصرَ مُشَهَّرات

وأمر ثالث يكمل سابقيه ، وهو متصل بهؤلاء العلماء الرواة الذين عاشوا فى نهاية القرن الثانى ومطلع الثالث والذين حفظوا لنا هذا الشعر الجاهلى الذى وصل إلينا . فقد ذكرنا من أمر تدوينهم للشعر وأخذهم بعضَه من الدواوين والكتب التى دونت قبلهم — ما لاحاجة بنا إلى إعادة القول فيه ، ولكنا نريد أن نقول إنهم ، مع ذلك ، كانوا ينقلون بعض الشعر الجاهلى والأخبار الجاهلية فى مجالسهم نقلاً شفهيًّا . والأمثلة على ذلك كثيرة حسبنا أن نشير إلى بعضها . فقد مر بنا أن كتب ابن الأعرابى كانت كثيرة وأن رسولا لأحد ذوى السلطان جاءه يستدعيه فقال له ابن الأعرابى : عندى قوم من الأعراب

---

(١) النقائض : ٤٣٠ .

(٢) النقائض : ٦٢ .

فإذا قضيتُ أربي معهم أتيت . قال الغلام « وما رأيت عنده أحداً إلا أنى رأيت بين يديه كتباً ينظر فيها ، فينظر فى هذا مرة وفى هذا مرة » . ابن الأعرابى هذا — على أخذه من الكتب — يقول عنه ثعلب(١) : شاهدت ابن الأعرابى ، وكان يحضر مجلسه زهاء مائة إنسان ، كل يسأله أو يقرأ عليه ، ويجيب من غير كتاب ، قال : ولزمته بضع عشرة سنة ما رأيت بيده كتاباً قط ، وما أشك فى أنه أملى على الناس ما يُحمل على أجمال .

وقد كان ثعلب مثل أستاذه ابن الأعرابى « لا يُرى بيده كتاب ، ويتكل على حفظه(٢) » بينما كان معاصرُه أبو سعيد السكرى « كثير الكتب جداً ، وكتب بخطه ما لم يكتبه أحد ، وكان إذا لقى الرجال لا يفارقه كتاب »(٣) .

وكان هؤلاء العلماء يأخذون عن الأعراب ، وقد يرحلون إلى البادية وراء الأعراب ، أو يفد هؤلاء الأعراب إلى الأمصار ليتكسبوا بما يأخذه عنهم العلماء . ومن أمثلة ذلك ما ذكره ثعلب من أن أبا عمرو الشيبانى « دخل البادية ومعه دَستيجتان من حبر فما خرج حتى أفناهما بكَتْب سماعه عن العرب » (٤) .

وكان هؤلاء العلماء قد يأخذون أيضاً عن غير الأعراب من الرواة وأصحاب الأخبار أخذَ سماع من أفواههم لا أخذ قراءة من كتبهم . ومن أمثلة ذلك أن الجاحظ — على ما هو معروف عنه من كثرة جمعه للكتب وشغفه بها ونقله منها فى كتبه(٥) — كان يكتب كثيراً مما يورده فى كتبه إما من السماع وإما من

---

(١) ياقوت ، إرشاد (محمد بن زياد) ، وانظر أيضاً نزهة الألباء : ١٠٨ ففيه « قال أبو جعفر القحطبى : ما رئى فى يد ابن الأعرابى كتاب قط » .

(٢) القفطى ، إنباه الرواة ١ : ١٤٨ .

(٣) القفطى ، إنباه الرواة ١ : ١٤٨ .

(٤) الأنبارى ، نزهة الألباء : ٦٣ .

(٥) انظر مثلا البيان والتبيين ٣ : ٥٧ — ٥٨ حيث يورد حديثين عن العتبى عن أعرابيين فى العصا ، ثم يقول « وهذان الحديثان لم أسمعهما من عالم ، وإنما قرأتهما فى بعض الكتب من كتب المسجديين » . وانظر أيضاً لأخذه من الكتب : البيان والتبيين ١ : ٩٢ ، ١٣٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ .

حفظه فهو يقول[١] : « وقد جمعت لك فى هذا الكتاب جملاً التقطناها من أفواه أصحاب الأخبار » ، وهو يورد بيتاً ثم يقول[٢] : « وهى أبيات لم أحفظ منها إلا هذا البيت » .

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما ذكره أحمد بن عبيد الله بن عمار قال[٣] : « كنا نختلف إلى أبى العباس المبرد ، ونحن أحداث ، نكتب عن الرواة ما يروونه من الآداب والأخبار . . . فانصرفنا يوماً من مجلس أبى العباس المبرد وجلسنا فى مجلس نتقابل بما كتبناه ونصحح المجلس الذى شهدناه . . »

وقد أوردنا هذه الأمثلة — على الأمور الثلاثة كلها — من عصور مختلفة تشمل القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، وهى تدل على أن الرواية الشفهية كانت تسير جنباً إلى جنب مع الكتابة والتدوين ، لا تعارُضَ بينهما ، ولا ينفى وجودُ أحدهما وجود الآخر . ومن هنا كان لابد لنا — بعد أن استوفينا البحث ، بالقدْر الذى بلغه جهدُنا ، عن تدوين الشعر الجاهلى — من أن نعقد فصول هذا الباب الثالث عن الرواية الشفهية ، حتى تتم بذلك الدعامتان اللتان قام عليهما حفظ الشعر الجاهلى وحمله ، وهما : النقل من الكتاب ، والسماع من أفواه الرواة .

٢

أورد ابن سلاّم فى طبقاته قول عمر بن الخطاب[٤] « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » . ثم عقب عليه بقوله « فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته .

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ١٨ .

(٢) الحيوان ٢ : ١٣ .

(٣) الأغانى (دار الكتب) ٧ : ١٢٠ .

(٤) طبقات فحول الشعراء : ٢٢ .

فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مُدوّن ولا كتاب مكتوب ، وألفَوْا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير » .

وكلام ابن سلاّم هذا ثلاثة أشطر : آخرها حقٌّ ، ومُتوسّطها باطل ، وأولها يحتاج إلى فضل بيان يوضحه . أما الحق الذى لا مريةَ فيه فقوله « فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير » . وسنعود فى صفحات مقبلة إلى هذا القول ونفصّل وجه الحقّ فيه . وأما الباطل الذى لم نعد نشك فى بطلانه وفساده فهو هذا التعميم الواسع فى قوله « فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب » . وقد كان فى البابين الأول والثانى من هذا البحث من البيان والتفصيل ما نحسب أنه يُغنينا عن تكرار القول . وحسبنا أن نورد ثلاثة أمثلة من كتاب ابن سلام نفسه تنقض هذا القول ، أو — على الأقل — تضيّق ما فيه من تعميم واسع . فقد عاب ابنُ سلام بعض العلماء قبله — أى علماء القرن الأول الهجرى — باكتفائهم بالأخذ عن الدواوين المدونة والكتب المكتوبة ، فنبزهم بأنهم صحفيون وذلك قوله عن الشعر القديم[1] « وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء . وليس لأحد — إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه — أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى » . وقد قال عقب قوله السابق الذى أنكر فيه هذه المدونات[2] : « وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول ، وما مُدح هو وأهل بيته به ، فصار ذلك إلى بنى مروان أو صار منه » . ثم ذكر ابن سلام نفسه أنه رأى شعراً جاهليًّا « فى

(١) طبقات فحول الشعراء: ٦ .
(٢) المصدر السابق: ٢٣ .

كتاب كتبه يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة »[1] . فإذا ما أضفنا إلى كلام ابن سلام ما فصلنا فيه القول فى البابين الأول والثانى — وضح لنا ما فى قوله « فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب » من خلل وفساد .

وأما الشطر الثالث الذى يحتاج إلى فضل بيان يوضحه فهو قوله : « فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر . . . وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل » . ولا يستبين لنا خطر هذا القول إلا حين نتطرق إلى الحديث عن الشك فى الشعر الجاهلى ونحله ، فى الباب الرابع من هذا الكتاب . ولا بد لنا قبل ذلك من أن نتساءل هنا : أحق أن العرب قد لهوا عن رواية الشعر فى هذه الفترة من حياتهم ، فغفلوا عنه ، ونسوا ذكره ، وأضربوا عن روايته ؟ وإذا كان ذلك كذلك ، فكم من السنين أو من القرون بلغت هذه الفترة ؟ ثم أمن الحق أنهم حينما راجعوا روايته — إذا سلمنا بانقطاعهم عنها — ألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة لابد لنا من استقراء تاريخى ، نتتبع فيه حياة الرواية عند القوم مبتدئين بالمعالم الواضحة فى منتصف القرن الثانى الهجرى ، ومتدرجين فيها إلى الوراء حتى نصل إلى أقصى ما نستطيع أن نصل إليه من معالم حياة الرواية الأدبية .

فإذا ما بدأنا بعهد بنى أمية ، وجدنا أن بعض القوم آنذاك كان يرى أن العلماء العارفين بالشعر الجاهلى قد ماتوا . ونحن نحسب أن هذا الضرب من الكلام موجود فى كل عصر ، وأنه لا يصح أن يحمل محملاً لفظياً قاطعاً ، وإنما هو ضرب من التحسر على الماضى ، وتمجيد القدماء ، والإقرار بضعف الحاضر وعجزه إذا ما قيس بالقديم السابق عليه . فأبو عمرو بن العلاء حينما سئل

(١) طبقات فحول الشعراء : ٢٠٤ .

عن قول امرئ القيس[١] .

نَطْعَنُهُمْ سُلْكَى وَمَخْلُوجَةً ... كَرَّكَ لَأْمَيْنِ على نابلِ

قال : قد ذهب من يُحسنه .

وحين سئل عن قول الشاعر[٢] :

زَعَمُوا أنَّ كلَّ منْ ضَرَبَ العَيْـ ... ـرَ مُوالٍ لَنَا وأنَّا الوَلاءُ

قال : مات الذين يعرفون هذا .

بل إن الحجاج بن يوسف الثقفيّ قال على المنبر[٣] : « ذهب قوم يعرفون شعر أُمية وكذلك اندراسُ الكلام ! ! » وبين الحجاج وأمية بن أبي الصلت نحوٌ من ثمانين سنة !

وسنسوق في إيجاز بعض ما يكشف لنا عن عناية القوم ، حتى منتصف القرن الأول ، برواية الشعر الجاهلي وأخبار الجاهلية ، وسنصرف أكثر كلامنا إلى زمن عبد الملك بن مروان ومعاوية بن أبي سفيان ، ليكون ذلك أبعدَ زمناً وأدلَّ على ما نقصد إليه :

ذكر الأصمعي يوماً بني أمية وشغفهم بالعلم ، فقال[٤] : « كانوا ربما اختلفوا وهم بالشام في بيت من الشعر ، أو خبر ، أو يوم من أيام العرب ، فيبردون فيه بريداً إلى العراق » . وقال غيره « كنا نرى في كل يوم راكباً من ناحية بني أمية ينيخ على باب قتادة (توفي سنة ١١٨) يسأله عن خبر أو نسب أوشعر ، وكان قتادةُ أجمع الناس » . وقال عامر بن عبد الملك المِسْمَعيّ : كان

---

(١) المزهر ٢ : ٣٢٣ — ٣٢٤ . سلكى : طعناً مستوياً . المخلوجة : المعوجة عن يمين وعن شمال : الكر : الرد . اللأمان : السهمان .

(٢) المصدر السابق . العير : الوتد . أي أنهم يلزموننا ذنوب الناس .

(٣) الأغاني ٣ : ١٢٣٠ .

(٤) العسكري ، التصحيف والتحريف : ٤ .

الرجلان من بنى مروان يختلفان فى بيت شعر ، فيرسلان راكباً إلى قتادة يسأله ، ولقد قدم عليه رجل من عند بعض أولاد الخلفاء من بنى مروان فقال لقتادة : من قتل عمراً وعامراً التغلبيين يوم قِضَة ؟ فقال : قتلهما جحدر بن ضبيعة ابن قيس بن ثعلبة . قال : فشخص بها ثم عاد إليه فقال : أجل قتلهما جحدر ، ولكن قتلهما جميعاً ؟ فقال : اعتوراه فطعن هذا بالسنان وهذا بالزُّج فعادى بينهما[١] .

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج[٢] : أنت عندى كسالم . فلم يدر ما هو . فكتب إلى قُتيبة يسأله ، فكتب إليه : إن الشاعر يقول :

يُدِيرُوننى عن سَالمٍ وأُدِيرُهُمْ ... وَجِلْدَةُ بَيْنَ الأنفِ والعينِ سالمُ

ثم كتب إليه مرةً أخرى : أنت عندى قِدْحُ ابن مُقبل . فلم يدر ما هو . فكتب إلى قُتيبة يسأله — وكان قتيبة قد روى الشعر — فكتب إليه : أن ابن مقبل نعت قدحاً له فقال :

مُفَدًّى مُؤَدًّى باليَدَيْنِ مُلَعَّنٌ ... خَلِيعُ قِداحٍ فائزٌ مُتَمَنَّحُ
خَرُوجٌ من الغُمَّى إذا صُكَّ صَكَّةً ... بدا والعيونُ المُسْتَكِفَّةُ تَلمَحُ[٣]

وقال أبو عبيدة[٤] : حدثنى قيس بن غالب عن مشيخة قومه أن عبد الملك ابن مروان سأل رجالاً من بنى فزارة كانوا عنده : من كان على الناس يوم النِّسار ؟ قالوا : كانوا متساندين . قال : ويدخل أبو قشع — وكان أعلمنا —

(١) العسكرى ، التصحيف والتحريف : ٤ ، وانظر طبقات ابن سلام : ٥١ – ٥٢ .
(٢) القالى ، الأمالى ١ : ١٥ ، وانظر أيضاً ياقوت : إرشاد ١ : ٩٧ ، وفى ياقوت « . . . فسأل قتيبة بن مسلم وكان راوية عالماً عن ذلك » .
(٣) المتمنح : المستعار . الغمى : الجماعة من القداح . المستكفة : المحدقة به .
(٤) النقائض : ٢٤٠ .

فسأله عبد الملك عن ذلك فقال : والذى نفسى بيده يا أمير المؤمنين لَلناسُ يوم النِّسار أطوعُ لحصن بن حُذيفة من بعض غلمانك لك .

وقال عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث (توفى سنة ٨٤) يذكر أخذه الشعرَ والنسبَ عن الشعراء والنسابين(١) « قدم عبد الملك — وكان يحب الشعر — فبعثتُ إلى الرواة ، فما أتت علىَّ سنة حتى رويت الشاهد والمثل وفضولاً بعد ذلك . وقدم مُصْعب (توفى سنة ٧٣) — وكان يحب النسب — فدعوت النسابين فتعلمته فى سنة . ثم قدم الحجاج — وكان يُدنى على القرآن ، فحفظته فى سنة . »

وتبدو لنا عناية عبد الملك بالشعر وروايته — فضلاً عما تقدم — فى قوله لمؤدب ولده(٢) : « روِّهم الشعر ، روِّهم الشعر ، يمجدوا وينجدوا » . وقال مرة لمؤدب أولاده(٣) : « أدِّبهم برواية شعر الأعشى فإن لكلامه عذوبة » . وهل أدل على معرفة عبد الملك بالشعر الجاهلى معرفةً دقيقة من قوله(٤) . إذا أردتم الشعر الجيد فعليكم بالزُّرْق من بنى قيس بن ثعلبة — وهم رهط أعشى بكر — ، وبأصحاب النخل من يثرب — يريد الأوس والخزرج — ، وأصحاب الشعف من هُذَيل (والشعف رؤوس الجبال) .

بل هل أدل على معرفة عبد الملك بشعر الجاهلية وأخبارها وعنايته بجمع ذلك مما أورده ياقوت فى قوله(٥) : « كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج : انظر لى رجلاً عالماً بالحلال والحرام ، عارفاً بأشعار العرب وأخبارهم ، أستأنس به وأصيب عنده معرفة ، فوجِّهه إلىَّ من قبلك . فوجه إليه الشعبى ، وكان أجمع أهل زمانه ، قال الشعبى : فلم ألقَ والياً ولا سوقةً إلا وهو يحتاج إلىَّ ولا أحتاج

(١) الجاحظ ، الحيوان ٥ : ١٩٤ — ١٩٥ .
(٢) ابن عبد ربه ، العقد ٦ : ١٢٥ .
(٣) جمهرة أشعار العرب : ٦٣ .
(٤) العقد ٦ : ١٢٤ .
(٥) ياقوت ، إرشاد ١ : ٩٦ — ٩٧ .

إليه ما خلا عبد الملك ، ما أنشدته شعراً ولا حدّثته حديثاً إلا وهو يزيدنى فيه ، وكنت ربما حدثته وفى يده اللقمة فأمسكها ، فأقول : يا أمير المؤمنين أسغْ طعامك ، فإن الحديث من ورائه ، فيقول : ما تحدثنى به أوقعُ بقلبى من كل لذة ، وأحلى من كل فائدة » .

أما معاوية بن أبى سفيان فقد مرت بنا أطراف من عنايته بأخبار الماضين ، وأيام العرب فى جاهليتهم ، وشعر شعرائهم . وذكرنا أنه كان له غلمان مرتبون يكتبون هذه الأحاديث فى دفاتر ويقرأونها عليه فى ساعات معينة من ليله . وكانت لمعاوية — فضلاً عن ذلك — مجالس يُنشِد هو ما يحفظ من الشعر فيها ، ويستنشد من يحضر من الرواة والعلماء والأعراب ، ويستمع فيها إلى أحاديث العرب وأخبارها . وقد قال مرة للنخار بن أوس[1] : « ابغنى محدِّثاً . قال : ومعى يا أمير المؤمنين تريد محدثاً ! قال : نعم ، أستريح منك إليه ، ومنه إليك . . . »

وقد التفت معاوية فى أحد مجالسه إلى عبد الله بن الزبير وقال متمثلاً[2] :

وَرَامٍ بِعُوْرانِ الكَلامِ كأنَّها نوافرُ صُبْحٍ نَفَّرَتْها المراتعُ
وقد يَدْحَضُ المرءُ المُوارِبُ بالخَنَا وقد تُدْرِكُ المَرْءَ الكريمَ المصانعُ

ثم قال لابن الزبير : من يقول هذا ؟ فقال : ذو الإصبع . فقال : أترويه ؟ قال : لا. فقال : مَن ها هنا يروى هذه الأبيات ؟ فقام رجل من قيس فقال : أنا أرويها يا أمير المؤمنين . فقال : أنشدنى . فأنشده حتى أتى عليها . . . فزاد معاوية فى عطائه .

وخاصم رجل إلى معاوية فى ابن أخيه ، فجعل الرجلُ يحجُّ خصمه ، فقال معاوية : أنت كما قال أبو دُواد[3] :

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٣٢٣ .
(٢) الأغانى ٣ : ١٠٠ — ١٠١ . يدحض : يزل ويزلق .
(٣) الزمخشرى، الفائق ١ : ٢٤٠. الحرباء مذكر ، والأنثى حرباءة .التنضبة : شجرة

أنّى أُتيحَ لها حِرْباءُ تنضِبَةٍ   لا يرسلُ الساقَ إلّا مُمْسِكًا سَاقَا

وسأل معاوية شيخاً من بقايا العرب[١] : أى العرب رأيته أضخم شأناً ؟ قال : حصْن بن حُذيفة — قائد ذُبيان يوم شِعْب جَبَلة — رأيته متوكئاً على قوسه يقسم فى الحليفين : أسد وغَطَفان .

وذُكر عند معاوية ، فى أحد مجالسه ، ملوكُ العرب ، فلما ذُكرت الزباء وابنة عَفزر قال معاوية[٢] : إنى لأحب أن أسمع حديث ماوية وحاتم . فقال رجل من القوم : أفلا أحدثك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : بلى . فقال : إن ماوية بنت عفزر كانت ملكة وكانت تتزوج من أرادت . . . إلى آخر القصة .

وبعث زياد بن أبيه بولده إلى معاوية[٣] ، فكاشفه عن فنون من العلم فوجده عالماً بكل ما سأله عنه ، ثم استنشده الشعر ، فقال : لم أرْوِ منه شيئاً ! فكتب معاوية إلى زياد : ما منعك أن تُرويه الشعر ؟ فوالله إن كان العاقّ ليرويه فيبرّ ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو ، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل .

ولم تكن هذه المجالس ، التى تُذكر فيها أخبار الجاهلية ويُروَى فيها شعر شعرائها ، مقصورة على معاوية وعبد الملك وخلفاء بنى أمية وبنى مروان ، بل كان الأشراف والسادة والولاة يعقدون مثل هذه المجالس . فقد كان سعيد ابن العاص على المدينة ، فبينا هو يُعشّى الناس[٤] ، وهم يخرجون أوّلاً

= ضخمة تقتلع منها الأعمدة للأخبية . وصف ظعناً ساقها سائق مجد ، فتعجب كيف أتيح لها هذا السائق المجد الحازم . وهذا مثل يضرب للرجل الحازم ، لأن الحرباء لا يفارق الغصن الأول حتى يثبت على الغصن الآخر .

(١) البيان والتبين ٣ : ٩ .

(٢) ديوان حاتم — خمسة دواوين العرب — ١٢١ — ١٢٢ .

(٣) العقد ٦ : ١٢٥ ، وانظر أيضاً المزهر ٢ : ٣١٠ — ٣١١ .

(٤) الأغانى ٢ : ١٦٧ ، وانظر الشعر والشعراء ١ : ٢٨٤ .

أولاً ، إذ نظر على بساطه إلى رجل قبيح المنظر ، رثّ الهيئة ، جالس مع أصحاب عمره ، فذهب الشُّرَطُ يقيمونه ، فأبى أن يقوم ، وحانت من سعيد التفاتة ، فقال : دعوا الرجل . فتركوه ، وخاضوا فى أحاديث العرب وأشعارها مليًّا ، فقال لهم الحطيئة ، — وكان هو ذلك الرجل — : والله ما أصبتم جيد الشعر ولا شاعر العرب . فقال له سعيد : أتعرف من ذلك شيئاً ؟ قال : نعم . قال : فمنْ أشعر العرب ؟ قال : الذى يقول :

لا أعُدُّ الإقْتارَ عُدْمًا ولكنْ فَقْدُ مَنْ قَدْ رُزِئتُهُ الإعدامُ

وأنشدها حتى أتى عليها ، فقال له : من يقولها ؟ قال : أبو دُاود الإيادى . قال : ثم من ؟ قال : الذى يقول :

أفْلِحْ بِما شِئْتَ فقدْ يُدْرَكُ بالْ جَهْلِ وقد يُخْدَعُ الأرِيبُ

ثم أنشدها حتى فرغ منها . قال : ومن يقولها ؟ قال : عَبيد بن الأبرص ، قال : ثم من ؟ قال : والله لَحَسْبك بى عند رغبة أو رهبة . . .

وأنشد ابن أبى عتيق يومًا قول قيس بن الحطيم[1] :

بيْنَ شُكُولِ النِّساء خِلْقَتُها حَذْوًا فَلَا جَبْلَةٌ وَلَا قَضَفُ

فقال : لولا أن أبا يزيد — كنية قيس بن الحطيم — قال « حذواً » ، ما درَى الناس كيف يَحشون هذا الموضع .

وقال عبد الله بن جعفر بن أبى طالب لمعلم ولده[2] : لا تُروهم قصيدة عُروة بن الوَرْد التى يقول فيها :

دَعِينى للغِنَى أسعى فإنى رأيتُ الناسَ شَرُّهمُ الفَقِيرُ

---

(١) الأغانى ٣ : ١ — ٢ .

(٢) الأغانى ٣ : ٧٥ .

وكان يقول : إن هذا يدعوهم إلى الاغتراب عن أوطانهم .

والأخبار عن معرفة ابن عباس بالشعر الجاهلى ، وروايته إياه ، وحضّه على طلبه وتعلمه وتفسير كتاب الله تعالى به ، أخبار كثيرة [١] ، حتى إنه كان يقول[٢] : إذا أشكل عليكم الشيء من القرآن فارجعوا فيه إلى الشعر فإنه ديوان العرب . وكان يُسأل عن القرآن فينشد الشعر . وسنكتفى بإيراد مثل واحد من أخبار ابن عباس ، وسيمرّ منها خبر أو خبران عند حديثنا عن معرفة عمر بن الخطاب بالشعر الجاهلى . قال الشعبيّ[٣] : كنا عند ابن عباس وهو فى ضفة زمزم يفتى الناس ، إذ قال أعرابى : أفتيتَ الناس فافتنا . قال : هات . قال : أرأيت قول الشاعر المتلمس :

لِذِى الحِلْمِ قبلَ اليومِ ما تُقْرَعُ العَصَا ... وما عُلِّمَ الإنسانُ إلا لِيَعْلَمَا

قال ابن عباس : ذاك عمرو بن حُمَمَة الدَّوْسى ، قضى على العرب ثلاثمائة سنة ، فكبِر فألزموه السابع من ولده ، فكان معه ، فكان الشيخ إذا غفل كانت بينه وبينه أن تقرع العصا حتى يعاوده عقله ، وذلك قول المتلمس اليشكرى من بكر بن وائل : لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا . قال ذو الإصبع العدْوانىّ بعد ذلك بدهر :

عَذِيرَ الحَىِّ من عَدْوا ... نَ كانوا حيَّةَ الأرضِ

. . . .

ومنهمْ حَكَمٌ يَقْضِى ... فلا يُنْقَضُ ما يَقْضِى

يعنى : عامر بن الظَّرِب .

* * *

(١) انظر مثلا مفصلا لذلك فى الإتقان للسيوطى ١ : ١٤٨ — ١٦٤ .

(٢) المبرد ، الفاضل : ١٠ .

(٣) السجستانى ، المعمرين : ٤٥ ، وانظر الفاضل للمبرد : ١٢ .

ونحن نرى من كل هذا ، ومن كثير غيره ، أن القوم ، فى القرن الأول الهجرى، لم يكونوا يكتفون برواية الشعر الجاهلى وإنشاده فى المجالس والمحافل ، وإنما كانوا كذلك يعلمونه الصبيان تعليماً . وقد وضح لنا ذلك من قول عبد الملك لمؤدّب ولده يأمره أن يروّهم الشعر وخاصة شعر الأعشى ، ومن كتابة معاوية إلى زياد يطلب منه أن يعلم ابنه الشعر ويرويه إياه، ومن نهى جعفر بن أبى طالب معلم ولده عن أن يعلمهم قصيدة عرْوَة بن الوَرْد لأنها تحض على الاغتراب عن الأوطان .

وستذكر ، فى حديثنا عن طبقات الرواة ، ما يزيد هذا الجانب وضوحاً ، وذلك حينما نتحدث عن شعراء القرن الأول ورُجّازه : العجاج ورُؤْبة والأخطل وجرير والفرزدق والكميت، ومعرفتهم بأخبار الجاهلية، ومثالب العرب ومفاخرها، وروايتهم الشعر الجاهلى ، بل نظرهم فيه نظر الناقد الحصيف المميِّز .

٣

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى صدر هذا القرن ، ونظرنا فى أخبار الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة ، بل أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدنا أن الأمر لايختلف عما عهدناه فى عهد بنى أمية وبنى مروان .

قيل للحسن البصرى[1] : أكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمزحون ؟ قال : نعم ويتقارضون . — من القريض وهو الشعر .

وقال جابر بن سمرة[2] : جالست رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الأشعار فى المسجد وأشياء من أمر الجاهلية

---

(١) الفائق ٢ : ٣٣٩ .
(٢) ابن سعد ، الطبقات ١/٢ : ٩٥ – ٩٦ .

فربما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال أبو سلمة[١] : لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم متحزقين ولا متماوتين ، كانوا يتناشدون الأشعار ويذكرون أمر جاهليتهم ، فإذا أريد أحدُهم على شيء من أمر دينه دارت حماليق عينيه كأنه مجنون .

وسنعرض هنا أخبار بعض الصحابة — غير من ذكرنا — وروايتهم الشعر . قال مطرِّف[٢] : خرجت مع عمران بن حصيَن (صحابى) من الكوفة إلى البصرة ، فما أتى علينا يوم إلا ينشدنا فيه شعراً ، ويقول : إنّ لكم فى المعاريض لمندوحةً عن الكذب .

ودخل غالب بن صعصعة على علىّ بن أبى طالب أيام خلافته — وغالبٌ شيخ كبير — ومعه ابنه همّام الفرزدق — وهو غلام يومئذ . فقال علىّ رضى الله عنه [٣] : . . . من هذا الغلام معك ؟ قال : هذا ابنى . قال : ما اسمه ؟ قال : همّام وقد روّيته الشعر يا أمير المؤمنين ، وكلام العرب ، ويوشك أن يكون شاعراً مجيداً .

وهؤلاء أهل الكوفة لم يصرفهم ما كانوا فيه زمن علىّ عن رواية الشعر وإنشاده ، حتى قال لهم « إذا تركتكم عدتّم إلى مجالسكم حِلَقاً عزين ، تضربون الأمثال ، وتناشدون الأشعار » .

وقد مر بنا خبر حسان حين طلب أن يُكتب شعرٌ قاله فى الهجاء ، وتُوزَّع الصحف على الصبيان فى المكتب ليتعلموه ويرووه .

وكان أبو زُبيد الطائى شاعراً معمَّراً عاش خمسين ومائة سنة ، أدرك الإسلام ولم يسلم ومات نصرانيًّا . وكان عثمان بن عفان يقرّب أبا زُبيد ويدنى مجلسه لمعرفته بسير من أدركهم من ملوك العرب والعجم ، فدخل عليه يوماً وعنده

---

(١) القالى ١ : ٢٥٧ .

(٢) ابن سعد ٤/٢ : ٢٦ .

(٣) البغدادى ، خزانة الأدب ١ : ٢٠٦ .

المهاجرون والأنصار ، فتذاكروا مآثر العرب وأخبارها وأشعارها [١] .

وأما عمر بن الخطاب فأمر معرفته بالشعر وروايته له مشهور معروف ، فقد كان يستنشد من يحضر مجلسه فى حِلِّه ، أو من يرافقه فى سفره . وكان ذوّاقة ، بصيراً بالشعر ، ناقداً له ، يحكم على الشعراء . وكان هو نفسه يحفظ كثيراً من الشعر الجاهلى ، حتى لقد قال محمد بن سلام عن بعض أشياخه [٢] : « كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر » .

ومن أمثلة ذلك أنه قيل له [٣] : « قيل للأوصية : أىّ منظر أحسن ؟ فقالت : قصور بيض فى حدائق خضر » . فأنشد عند ذلك عمر بن الخطاب بيت عدىّ ابن زيد العبادىّ :

كَدُمَى العاج فى المَحَارِيبِ أو كَالْـ ... ـبِيْضِ فى الرَّوْضِ زَهْرُهُ مُسْتَنِيرُ

وقال العائشى [٤] : كان عمر بن الخطاب — رحمه الله — أعلم الناس بالشعر ، ولكنه كان إذا ابتلى بالحُكم بين النجاشىّ والعجلانىّ (تميم بن أبىّ بن مقبل) ، وبين الُحطيئة والزبرقان ، كره أن يتعرض للشعراء ، واستشهد للفريقين رجالاً مثل حسان بن ثابت وغيره ممن تهون عليهم سِبالُهم ، فإذا سمع كلامهم حكم بما يعلم ، وكان الذى ظهر من حكم ذلك الشاعر مقنعاً للفريقين ، ويكون هو قد تخلص بعرضه سليماً . فلما رآه من لا علم له يسأل هذا وهذا ظنّ أن ذلك لجهله بما يعرف غيره .

قال : ولقد أنشدوه شعراً لزهير — وكان لشعره مقدِّماً — فلما انتهوا إلى قوله :

وإنَّ الحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلاثٌ ... يَمِينٌ أو نِفَارٌ أَوْ جِلاءُ

---

(١) ياقوت : إرشاد (حرملة بن المنذر) .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٢٤١ .

(٣) المصدر السابق ١ : ٤٥ .

(٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ١ : ٢٣٩ — ٢٤١ .

قال عمر كالمتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها وإقامته أقسامها :

وإن الحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلَاثٌ يَمِينٌ أو نِفَارٌ أو جِلاءُ

يردد البيت من التعجب .

وأنشدوه قصيدة عَبْدَة بن الطبيب الطويلة التي على اللام ، فلما بلغ المنشدُ قوله :

والمرءُ ساعٍ لشيءٍ ليس يُدْرِكُهُ والعَيْشُ شُحٌّ وإشفاقٌ وتَأْمِيلُ

قال عمر متعجباً : والعيشُ شحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ — يعجّبهم من حسن ما قسم وفصل .

وأنشدوه قصيدة أبي قيس بن الأسلت التي على العين ، وهو ساكت ، فلما انتهى المنشد إلى قوله :

الكَيْسُ والقُوَّةُ خَيْرٌ من الإ شْفاقِ والفَهَّةِ والهَاعِ

أعاد عمر البيت وقال :

الكَيْسُ والقُوَّةُ خَيْرٌ من الإ شْفاقِ والفَهَّةِ والهَاعِ

وجعل عمر يردد البيت ويتعجب منه .

وقال عمر بن الخطاب لابن عباس [1] : هل تروى لشاعر الشعراء ؟ قال ابن عباس فقلت : ومن هو ؟ قال : الذى يقول :

ولو أنَّ حَمْدًا يُخْلِدُ النَّاسَ أُخْلِدُوا ولكنَّ حَمْدَ الناسِ ليسَ بِمُخْلِدِ

قلت : ذاك زهير . قال : فذاك شاعر الشعراء . قلت : وبم كان شاعر

---

(١) الأغاني (دار الكتب) ١٠ : ٢٨٨ — ٢٩١ ، وانظر أيضاً ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ١ : ٩٣ ، والزمخشري ، الفائق ٢ : ١٦٥

الشعراء ؟ قال : لأنه كان لا يعاظل فى الكلام ، وكان يتجنبُ وَحشيَّ الشعر ، ولم يمدح أحداً إلا بما فيه . . . ثم قال : أنشدنى له . قال ابن عباس : فأنشدته حتى برق الفجر .

وقال عمر بن الخطاب لبعض ولد هَرِم[١] : « أنشدْنى بعض مدْح زُهير أباك ، فأنشده . فقال عمر : إنه كان ليحسن فيكم المدح . قال : ونحن والله إن كنا لنحسن له العطية . قال : قد ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم . وفى رواية عمر بن شبة : قال عمر لابن زهير : ما فعلت الحُلل التى كساها هرمٌ أباك ؟ قال : أبلاها الدهر . قال : لكن الحُللَ التى كساها أبوك هرماً لم يبلها الدهر .

وقال عمر للوفد الذين قدموا عليه من غطفان[٢] : من الذى يقول :

حَلَفْتُ فلم أتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وليس وراءَ اللهِ للمرءِ مَذْهَبُ

قالوا : نابغة بنى ذبيان . قال لهم : فمن الذى يقول هذا الشعر :

أتيْتُكَ عارِيًا خَلَقًا ثِيابِى ... على وَجَلٍ تُظَنُّ بِىَ الظُّنونُ
فألفيتُ الأمانةَ لم تَخُنْها ... كذلك كان نوحٌ لا يخُونُ

قالوا : هو النابغة . قال : هو أشعر شعرائكم .

ومن أحكام عمر النقدية التى سارت وشاعت — غير حكمه المشهور على زهير — قوله حينما سئل عن الشعراء[٣] « امرؤ القيس سابقهم ، خسف لهم عين

---

(١) البغدادى ، الخزانة ٢ : ٢٩٢ .

(٢) العقد ٦ : ١٢٠ — ١٢١ ، وانظر الأغانى (دار الكتب) ١١ : ٤ — ٥ .

(٣) الأغانى ٨ : ١٩٩ ، والفائق ١ : ٣٤٣ . افتقر : أنبط واغزر . يريد أنه أول من فتق صناعة الشعر ، وفنن معانيها وكثرها وقصدها ، فاحتذى الشعراء على مثاله . وقد جعل للشعر بصراً صحيحاً . والمراد أن امرأ القيس قد أوضح معانى الشعر ولخصها وكشف عنها الحجب ، وجانب التعويص والتعقيد ؛ كأنه قال : فتح الشعر أصح بصر مجاوزاً المعانى العور متخطياً لها .

الشعر ، فافتقرّ عن معان عُور أصحّ بصير » .

وكذلك كان أبو بكر راوية للشعر الجاهلى ، يتمثل به فى مواقفه ويستنشد الشعراء ما قالوه فى جاهليتهم وإسلامهم . فقد رقى أبو بكر المنبر يوماً ، وقال – فيما قال – يخاطب الأنصار (١) : . . . فنحن وأنتم كما قال الغنوى :

جَزَى اللهُ عنا جعفرًا حين أزلقت ... بنا نعلُنا فى الواطئين فَزَلَّتِ
أبَوْا أنْ يَمَلُّونا ، ولو كانتِ أمُّنا ... تُلَاقِى الذى يَلْقَوْنَ منا لَمَلَّتِ
هُمُ أسْكَنُونا فى ظِلالِ بيوتِهمْ ... ظِلالِ بيوتٍ أدْفأتْ وأكَنَّتِ

واستنشد أبو بكر يوماً معديكرب – وقال (٢) : أما إنك أول من استنشدته فى الإسلام . وهذا الخبر يقودنا إلى الحديث عما كان عليه أبو بكر قبل الإسلام : فقد كان عالماً من علماء النسب والأخبار ، بل لقد كان أعلم قريش بأنساب العرب ، حتى إن حساناً لما أراد أن يهجو قريشاً قال له رسول الله (٣) : استعنْ بأبى بكر فإنه علامة قريش بأنساب العرب . فلما سمعت قريش بعد ذلك هجاءه قالوا (٤) : إن هذا الشتم ما غاب عنه ابن أبى قُحافة . وقال بعضهم – ولم يكونوا علموا أن حساناً قاله (٥) : لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا !

بل لقد كان منزل أبى بكر فى الجاهلية مثابةً لقريش يؤمونه لِخَصْلتين : العلم والطعام ، فلما أسلم أسلم عامة منْ كان يجالسه (٦) .

وقبل أن نتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستنشاده الشعر ، وإنشاد

---

(١) الصول أدب الكتاب : ١٩٠ .
(٢) ابن سعد ٦ : ٥٧ .
(٣) جمهرة أشعار العرب : ٢٣ .
(٤) الأغانى ٤ : ١٣٨ ، والفائق ٢ : ٢٤٤ .
(٥) الأغانى ٤ : ١٣٨ .
(٦) البيان والتبيين ٤ : ٧٦ .

الصحابة والرواة بين يديه وفى مجلسه — نشير إلى ما يروَى من أخبار عن غزارة حفظ أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر للشعر الجاهلى ، وتمثلها به ، واستنشادها إياه . والروايات كثيرة عن وفرة ما كانت ترويه من الشعر الجاهلى ، منها قولها عن نفسها (١) : إنى لأروى ألف بيت للبيد ، وإنه أقل ما أروى لغيره ! ! وقالت كذلك (٢) : لقد رويت من شعر كعب بن مالك أشعاراً منها القصيدة فيها أربعون بيتاً ودون ذلك .

وقد أنشدت عائشة — لما مات أخوها عبد الرحمن بن أبى بكر — متمثلة قصيدةً بائيةً لُحجيَّة بن المُضَرِّب الكندى فى أخيه سعدان بن المضرب (٣) . ولما بلغها موت على بن أبى طالب أنشدت متمثلة شعراً للمعقَّر بن أوس بن حِمَّار البارقىّ (٤) .

وكانت أيضاً تحث على طلب الشعر وتعلمه وروايته ، ومما كانت تقوله فى ذلك (٥) : رَوّوا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم .

وكانت أسماء بنت أبى بكر — أخت عائشة — ممن يروَى عنها الشعر الجاهلى ، فقد روى عنها عُرْوة قصيدتين ، إحداهما لزيد بن عمرو بن نفيل ، والأخرى لورَقة بن نوفل (٦) .

وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يستنشد الصحابة الشعر (٧) ، ويسائلهم عنه ، ويستعيد ما يستحسنه منه ، ويبدى إعجابه ببعضه ، وقد ينهى عن رواية بعضه لأسباب مذكورة . فما يدل على معرفتهم آنذاك بأخبار الجاهلية

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد ٦ : ١٢٥ .
(٢) السيوطى ، المزهر ٢ : ٣٠٩ .
(٣) المرزبانى ، معجم الشعراء ٢٣٤ .
(٤) المرزبانى ، المعجم ٢٠٤ .
(٥) العقد ٦ : ١٢٥ .
(٦) الأغانى ٣ : ١٢٤ — ١٢٥ .
(٧) انظر : المبرد ، الفاضل : ٩ — ١٠ .

وشعرائها أن رسول الله كتب لعُيينة بن حِصْن كتاباً ، فلما أخذ عيينة كتابه قال [١] : يا محمد ، أتراني حاملاً إلى قومي كتاباً كصحيفة المتلمس ؟

ومما يدل على استنشاده الشعر ومساءلته الصحابة الحاضرين مجلسه عنه ، ما رواه أنس بن مالك قال [٢] : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس ليس فيه إلا خزرَجيّ ، ثم استنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم – يعني قوله :

أتَعْرِفُ رسمًا كاطِّرادِ المَذَاهبِ　　لِعَمْرَةَ وَحْشًا غيرَ موقفِ راكبِ

فأنشده بعضهم إياها ، فلما بلغ إلى قوله :

أُجَالِدُهُمْ يومَ الحَدِيقَةِ حَاسِرًا　　كأَنَّ يَدِي بالسَّيْفِ مِخْراقُ لاعبِ

فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل كان كما ذكر ؟ فشهد له ثابت بن قيس بن شماس ، وقال له : والذي بعثك بالحق يا رسول الله ، لقد خرج إلينا يوم سابع عرسه عليه غلالة وملحفة مورسة فجالدنا كما ذكر .

وقال أبو وداعة[٣] : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضي الله تعالى عنه عند باب بني شيبة ، فمر رجل وهو يقول :

يا أيها الرَّجُلُ المُحَوِّلُ رَحْلَهُ　　ألّا نَزَلْتَ بآلِ عَبْدِ الدّارِ
هَبَلَتْكَ أُمُّكَ لو نَزَلْتَ بِرَحْلِهِمْ　　مَنَعُوكَ مِنْ عُدْمٍ ومِنْ إقْتَارِ

فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر فقال : أهكذا قال الشاعر ؟ قال : لا والذي بعثك بالحق ، لكنه قال :

يا أيُّها الرَّجُلُ المُحَوِّلُ رَحْلَهُ　　ألّا نَزَلْتَ بآلِ عَبْدِ مَنَافِ

---

(١) الزمخشري ، الفائق ٢ : ١٣ .
(٢) الأغاني ٣ : ٧ .
(٣) القالي ، الأمالي ١ : ٢٤١ .

هَبِلَتْكَ أُمُّكَ لو نَزَلْتَ بِرَحْلِهِمْ   مَنَعُوكَ مِنْ عُدْمٍ ومن إقْرافِ
الخالطين فَقِيرَهُمْ بغَنِيِّهِم   حتى يعودَ فقيرُهُمْ كالكافى
ويُكَلِّلُون جِفانَهم بسَدِيفِهِم   حتى تَغيبَ الشَّمْسُ فى الرَّجَّافِ [١]

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هكذا سمعتُ الرواة ينشدونه .

وقال عدىّ بن أبى الزغباء يوم بدْر [٢] :

أنا عَدِىٌّ والسَّحْلْ   أمشِى بها مَشْىَ الفَحْلْ

يعنى درعه . . . قال النبى صلى الله عليه وسلم « وما السحل » ؟ قال : الدرع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعمَ العدىّ عدى بن أبى الزغباء .

بل لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل ببعض هذا الشعر الجاهلى فقد كان إذا استراث الخبر يتمثل بعجز بيت طرفة [٣] :

سَتُبْدِى لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلًا   ويأتيك بالأخبارِ من لم تُزَوِّدِ

ومن الشعر الجاهلى الذى كان ينشد بين يدى رسول الله فيستحسنه ، ما قالته عائشة [٤] : دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أتمثل بهذين البيتين :

ارْفَعْ ضَعِيفَكَ لا يَحِرْ بِكَ ضَعْفُه   يومًا فتدركه العواقبُ قد نَمَا
يَجْزِيكَ أو يُثْنِى عليكَ ، وإنَّ مَنْ   أثْنَى عَلَيْكَ بِما فَعَلْتَ فَقَدْ جَزَى

فقال صلى الله عليه وسلم : رُدّى علىّ قول اليهودى قاتله الله ، لقد أتانى جبريل برسالة من ربى : أيما رجل صنع إلى أخيه صنيعة فلم يجد له جزاء إلا الثناء عليه والدعاء له فقد كافأه .

---

(١) الرجاف : البحر .
(٢) الواقدى ، المغازى : ٦٠ .
(٣) معجم المرزبانى : ٢٠٣ ، وانظر الفاضل المبرد : ٩ .
(٤) الأغانى ٣ : ١١٧ .

وقال مسلم الخزاعي [١] : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومنشد ينشده :

لا تأمَنَنَّ وإنْ أمسَيْتَ فى حَرَمٍ حتّى تُلاقِيَ ما يَمْنِى لكَ المَانِى
فالخَيْرُ والشَّرُّ مقرونان فى قَرَنٍ بكلٌّ ذلك يأتِيكَ الجَدِيدانِ

فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : لو أدرك هذا الإسلام !

وأنشد صلى الله عليه وسلم قول عنترة [٢] :

ولقد أبِيتُ على الطَّوَى وأظَلُّهُ حتّى أنالَ به كَرِيمَ المأْكَلِ

فقال صلى الله عليه وسلم : ما وُصِفَ لى أعرابىٌّ قطّ فأحببتُ أن أراه إلا عنترة !

وقال الشريد بن سُوَيد الثقفىّ [٣] : استنشدنى النبى صلى الله عليه وسلم شعر أمية بن أبى الصلت ، فأنشدته ، فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم يقول : هيه هيه ، حتى أنشدته مائة قافية .

وأنشد النبى صلى الله عليه وسلم قول أمية [٤] :

الحَمْدُ للهِ مُمْسَانَا ومُصْبَحَنا بالخَيْرِ صَبَّحَنا رَبِّى ومَسَّانا

(خمسة أبيات) فقال صلى الله عليه وسلم : إنْ كاد أميةُ ليسلم . وقال مرّةً أخرى [٥] : آمن شعره وكفر قلبه .

---

(١) الفائق ٣ : ٥٢ . يمنى : يقدر الله ، ومنه المنية . يريد : حين تلاقى ما يقدره لك الله . والبيتان لسويد بن عامر (انظر الزمخشرى فى الفائق ٣ : ٥٢) .

(٢) الأغانى ٨ : ٢٤٣ .

(٣) المزهر ٢ : ٣٠٩ نقلا عن البخارى فى الأدب المفرد ، وانظر ابن سعد ٥ : ٣٧٦ ، والخزانة ١ : ٢٢٧ نقلا عن صحيح مسلم . وقد وقع فى الخزانة « الرشيد » وهو خطأ ، صوابه « الشريد » .

(٤) الأغانى ٤ : ١٢٩ .

(٥) المصدر السابق ٤ : ١٣٠ .

وكان صلى الله عليه وسلم ينهى عن رواية بعض الشعر الجاهلي وإنشاده . فمن ذلك أنه لما بلغه صلى الله عليه وآله وسلم هجاءُ الأعشى علقمةَ بن عُلاثةَ العامريّ نهى أصحابه أن يرووا هجاءه ، وقال : إن أبا سفيان شعّث منى عند قيصر فردّ عليه علقمةُ وكذّب أبا سفيان [١]. ونهى كذلك عن إنشاد قصيدة الأفوه الأوْديّ لما فيها من ذكر إسماعيل عليه السلام [٢] .

وكان أمية بن أبي الصلت يحرض قريشاً بعد وقعة بدْر ، وكان يرثي من قُتل من قريش فمن ذلك قوله [٣] :

ماذا بِبَدْرٍ والْعَقَنْـ ـقَلِ من مَرَازِبةٍ جَحَاجِحْ

وهي قصيدة نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن روايتها .

ويروَى أن رسول الله صلى الله عليه سمع كعب بن مالك بن أبي كعب الأنصاري ينشد [٤] :

ألا هل أتى غسّان عنّا ودونَنا من الأرضِ خَرْقٌ غَوْلُهُ مُتَتَعْتِعُ
مُجَالَدُنَا عن جِذْمِنَا كلَّ فَخْمَةٍ مُدَرَّبَةٍ فيها القَوانِسُ تَلْمَعُ

فقال صلى الله عليه وسلم : لا تقل عن «جذمنا» وقل «عن ديننا». فكان كعب يقرأ كذلك ويفتخر بذلك ، ويقول : ما أعان رسول الله صلى الله عليه أحداً في شعره غيري .

(١) الفائق ١ : ٦٦٤ .

(٢) الميمني ، الطرائف الأدبية: ٣ ؛ وهي قصيدة الأفوه التي أولها :

إن ترى رأسي فيه نزع وشواى خلة فيها دوار

ويهجو فيها بني هاجر .

(٣) الأغاني ٤ : ١٢٢ — ١٢٣ . العقنقل : كثيب رمل ببدر . المرازبة : جمع مرزبان وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك . وجحاجح : جمع جحجح ، وهو السيد المسارع إلى المكارم .

(٤) المبرد ، الفاضل : ١٢ ؛ وانظر أيضاً ابن هشام ٣ : ١٣٩ .

ولقد كان إنشاد الشعر وروايته دأب العرب فى جاهليتهم القريبة المتصلة بمطلع الإسلام ، حتى حين كانوا — وهم مشركون — يحاربون رسول الله . فكانوا لا يكادون يجتمعون فى مجلس أو يضمهم نادٍ حتى يزْجوا أوقاتهم بهذا الشعر ينشدونه . ومن أمثلة ذلك أن المشركين لما توجهوا « إلى بدر كان فتيان ممن تخلف عنهم سُمَّار يسمرون بذى طُوَى فى القمر ، حتى يذهب الليل ، يتناشدون الأشعار ويتحدثون »(١) . ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من لى بابن الأشرف؟..." خرج أبو نائلة سلكان بن سلامة إلى كعب ، فلما رآه كعب أنكر شأنه وكاد يذعر . . . فقال أبو نائلة : حدثت لنا حاجة إليك . . . فتحدثا ساعة وتناشدا الأشعار ، وانبسط كعب ، وهو يقول بين ذلك : حاجتك . وأبو نائلة يناشده الشعر . . » (٢)

٤

وطبقة أخرى من العلماء هم النسابون ، وصلتهم بالشعر الجاهلى صلة واضحة ، إذ أن معرفتهم بالنسب كانت تقتضيهم معرفة واسعة بأخبار هؤلاء القوم وأشعارهم . وقد ذكرنا من قبل أن كتب القبائل كانت كتباً تتضمن أنساب العرب وأخبارهم وأشعارهم ، ونستطيع أن نتلمس ما ذكرناه تلمساً واضحاً فى كتب الأنساب التى كتبها النسابون فى العصور الإسلامية ، ولعل من أقدمها كتاب نسب قريش لأبى عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيرى المتوفى سنة ٢٣٦ هـ ، فإن فى هذا الكتاب — مع سلاسل النسب — أخباراً تاريخية وأدبية ، وشعراً يساق مع هذه الأخبار ويذكر مع تلك الأحاديث ، وكذلك كانت سُنَّة كتب النسب كلها التى سبقته فيما نرجع . ومما يدعم ذلك أننا نجد دائماً ذكر

(١) الواقدى ، المغازى : ٨٩ .

(٢) المصدر السابق : ١٤٦ .

علماء النسب مقروناً بذكر علمهم بالشعر وروايته ، وبأيام العرب وأخبارهم ، فقد قال الجاحظ عن علماء النسب[١] : « وأربعة من قريش كانوا رواة الناس للأشعار وعلماءهم بالأنساب والأخبار » . وقيل عن عقيل بن أبي طالب[٢] : « ويُجتمَعُ إليه في علم النسب وأيام العرب » .

وسنذكر في هذه الصفحات ، ذكراً موجزاً ، هؤلاء النسّابين الذين أخذ عنهم علماء القرن الثاني ، والذين عاشوا في القرن الأول ، وفي صدر الإسلام ، وفي آخر العصر الجاهلي ، لنرى من ذلك — كما رأينا في إنشاد الشعر الجاهلي وروايته — أن الصلة قائمة في العصور المتعاقبة ، وأنها كانت أشبه بالسلسلة ذات الحلقات المتصلة آخذاً بعضها برقاب بعض ، لم تنقطع ، ولم ينفرط عقدها ، ولم تكن ثمة فجوة تفصل بين أخبار الجاهلية وعلماء القرن الثاني ورواته .

فهذا هشام بن محمد بن السائب الكلبي — عالم الأنساب المشهور — يقول[٣] « قال لي أبي : أخذت نسب قريش عن أبي صالح . وأخذه أبو صالح عن عقيل بن أبي طالب . وأخذت نسب كندة عن أبي الكناس الكنديّ ، وكان أعلم الناس . وأخذت نسب معدّ بن عدنان عن النخّار[٤] بن أوس العذْريّ ، وكان أحفظ الناس ممن رأيت وسمعت به . وأخذت نسب إياد عن عديّ بن رثاث الإيادي ، وكان عالماً بإياد » .

وقد ذكر شعراء القرن الأول بعض هؤلاء النسابين ، ووصفوا ما كان مشهوراً من مدى علمهم بأخبار الجاهلية ، فمن ذلك قول سمّاك العكريّ[٥] :

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ٣٢٣ .
(٢) الصفدي ، نكت الهميان : ٢٠٠ .
(٣) ابن النديم ، الفهرست : ١٣٩ — ١٤٠ .
(٤) في الأصل : « النجار بن أوس العدواني » وهو خطأ صوابه ما أثبتناه من معجم المرزباني ٢٣٧ ، ومن الحيوان ١ : ٣٦٥ و ٣ : ٢٠٩ — ٢١٠ وغيرهما .
(٥) البيان والتبيين ١ : ٣٢٢ — ٣٢٣ .

فَسَائِلْ دَغْفَلًا وأخا هِلالٍ ... وحَمَّادًا يُنَبِّئْكَ اليَقِينَا[1]

وقال مسكين الدارى [2] :

وعِندَ الكَيِّسِ النَّمَرِىِّ عِلمٌ ... ولو أمْسَى بمُنْخَرِقِ الشَّمالِ

وقال ثابتُ قطنة [2] :

فما العِضَّانِ لو مُثِلا جَمِيعًا ... أخو بكرٍ وَزَيْدُ بنى هلالِ[3]

ولا الكلبىُّ حَمَّادُ بن بشرٍ ... ولا مَنْ فَادَ فى الزَّمَنِ الخَوالى

وقال زياد الأعجم يهجو بنى الحبناء [2] :

بل لو سألتَ أخا رَبِيعَةَ دَغْفَلًا ... لوجدت فى شَيْبَانَ نِسبةَ دَغْفَلِ

إنَّ الأَحابنَ واللذين يَلُونَهُمْ ... شَرُّ الأَنامِ ونَسْلُ عَبْدٍ أغْرَلِ [4]

وقال القطامىّ [5] :

أحاديثُ من أنباء عادٍ وجُرْهُمٍ ... يُثَوِّرُها العِضَّانِ زَيْدٌ ودَغْفَلُ

وقال عمرو بن المرادة البلوىّ يهجو النخّار بن أوس العذرى النسابة الراوية لأنه استلحق بطناً من بلىّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة وذكر أنهم من قومه [6] :

وقد كنتَ يا نَخَّارُ ما تَدَّعِيهمُ ... وتعرض عنهم فى السنين العوارقِ

يُمَنِّيهمُ النَّخَّار إلْحَاق نِسْبَةٍ ... بلَأْيٍ وما النَّخَّارُ فينا بصادقِ

---

(١) دغفل : هو دغفل بن حنظلة النسابة المشهور . أخو هلال : هو زيد بن الكيس ، وبنو هلال حى من النمر بن قاسط . وحماد : هو حماد بن بشر .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٣٢٢ – ٣٢٣ .

(٣) العض : الداهية من الرجال . وفاد : هلك .

(٤) الأحابن : بنو الحبناء . والأغرل : الأقلف .

(٥) ديوانه : ٣١ .

(٦) المرزبانى ، معجم الشعراء : ٢٣٧ .

وحسبنا هذه الإشارة المقتضبة إلى نسابى القرن الأول ، فأخبارهم كثيرة مبسوطة فى مظانها[١] . وسننتقل إلى الحديث عن نسابى الصدر الأول ومن شهد منهم الجاهلية ، ونوجز كذلك الإشارة إليهم إيجازاً .

فمن أشهر هؤلاء : دغفل النسابة[٢] . ذكر الهيثم بن عدىّ فى « كتاب المثالب »[٣] أن أبا عمرو بن أمية — جد عُقبة بن أبى مُعيط — كان عبداً لأمية اسمه ذكوان فاستلحقه . وذكر أن دغفلاً النسابة دخل على معاوية ، فقال له معاوية : من رأيت من علية قريش ؟ فقال : رأيت عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس . فقال : صفهما لى . فقال : كان عبد المطلب . . . قال : فصف أمية . قال : رأيته شيخاً قصيراً نحيف الجسم ضريراً يقوده عبده ذكوان : فقال : مه ، ذاك ابنه أبو عمرو . فقال : هذا شىء قلتموه بعدُ وأحدثتموه ، وأما الذى عرفتُ فهو الذى أخبرتك به .

وقال معاوية يوماً لدغفل[٤] : بم ضبطتّ ما أرى ؟ قال : بمفاوضة العلماء . قال : وما مفاوضة العلماء ؟ قال : كنت إذا لقيت عالماً أخذتُ ما عنده وأعطيته ما عندى .

ويبدو أن القوم كانوا — على عهد عمر — مقبلين على تعلم النسب ، معنيين بدراسته ، وكانت العصبية القبلية ، والعصبية القومية العربية ، تحمل كثيراً منهم على أن يتخذ من علمه هذا وسيلة للطعن فى أنساب غيره ، ولذلك نهى عمر عن هذا الضرب من العلم ، أو عن هذا الضرب من التوسل بالعلم ، فقال[٥] :

---

(١) انظر مثلا: البيان والتبيين ١ : ٣١٨ — ٣٢٤ ، والحيوان ١ : ٣٦٥ و ٢ : ٢٠٩ — ٢١٠ .
(٢) أخباره فى الفهرست : ١٢١ .
(٣) الأغانى ١ : ١٢ .
(٤) الزمخشرى ، الفائق ٢ : ٣٠٤ .
(٥) الفائق ٢ : ٣٨ .

أيها الناس ، إياكم وتعلم الأنساب والطعن فيها . والذى نفس عمر بيده لو قلت لا يخرج من هذا الباب إلا صَمَد ما خرج إلا أقلكم .

ومع ذلك فقد كان عمر يستعين بهؤلاء النسابين كلما احتاج إليهم فى أمر ، فحينما أراد أن يكتب الناس فى الديوان للعطاء دعا « عقيل بن أبى طالب ومخرَمة ابن نوْفل وجبير بن مطعم ، وكانوا من نسابى قريش ، فقال : اكتبوا الناس على منازلهم ، فكتبوا ، فبدأوا ببنى هاشم »[1] .

ولما أُتى عمر بسيف النعمان بن المنذر ، دعا جبير بن مطعم فسلمه إياه ، ثم قال[2] : يا جبير ، ممن كان النعمان ؟ قال : من أشلاء قَنَص بن معدّ .

وجبير هذا معروف بعلمه بالنسب حتى قيل عنه إنه أنسب العرب ، وقد أخذ النسب عن أبى بكر الصديق ، وعن جبير أخذ سعيد بن المسيب[3] .

بل لقد كان عمر نفسه عالماً بالنسب ، وقد أخذ علمه هذا عن أبيه الخطاب ، وكان كثيراً ما يقول[4] : سمعت ذلك من الخطاب ، ولم أسمع ذلك من الخطاب .

وأما عقيل بن أبى طالب الذى ذكرناه فى خبر عمر حينما دعا النسابين ليكتبوا الناس على منازلهم ، فهو أخو علىّ ، وعقيل أسنّ من على بعشرين سنة ، ومات فى زمن معاوية فى نحو سنة خمسين للهجرة . وكان عقيل من أنسب قريش وأعلمهم بأيامهم ، وكانت له طنفسة تطرَح فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يصلى عليها ، ويجتمع إليه فى علم النسب وأيام العرب[5] . وكان عقيل أكثر النسابين ذكراً لمثالب الناس وتعداد مساويهم فعادَوْه لذلك ، وقالوا فيه وحمّقوه[6] .

---

(١) ابن سعد ٣/١ : ٢١٢ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٣٠٣ .

(٣) البيان والتبيين ١ : ٣٠٣ ، والفائق ١ : ٦٠٨ — ٦٠٩ .

(٤) البيان والتبيين ١ : ٣٠٤ .

(٥) نكت الهميان : ٢٠٠ .

(٦) البيان والتبيين ٢ : ٣٢٤ ، ونكت الهميان : ٢٠٠ .

وأما مخرمة بن نوفل فقد أسلم عام الفتح ، وتوفى بالمدينة سنة أربع وخمسين للهجرة ، وقد بلغ مائة وخمس عشرة سنة . وكان له سن وعلم بأيام قريش ، وكان أحد علمائهم ، ويؤخذ عنه علم النسب[١] .

ومن هؤلاء النسابين المعمَّرين : أبو جهم بن حذيفة بن غانم بن عامر « كان من مشيخة قريش عالماً بالنسب ، وصحب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان من معمرى قريش ، بنى فى الكعبة مرتين : مرة فى الجاهلية ومرة فى الإسلام ، حين بناها قريش وحين بناها ابن الزبير » [٢] .

ومن هؤلاء النسابين العلماء فى الجاهلية : الخطاب بن نفيل وأبوه نفيل بن عبد العزى الذى « تنافر إليه عبد المطلب وحرب بن أمية ، فنفَّر عبد المطلب ــ أى حكم له » [٣] .

ومنهم أيضاً الأقرع بن حابس ، وكانوا يحكّمونه فيما يشجر من أمورهم ، وكان عالم العرب فى زمانه [٤] .

وقد مر بنا ذكر علم أبى بكر بالنسب ، وحثّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت أن يرجع إلى أبى بكر لمعرفة نسب قريش قبل أن يهجوهم . وقد كان بيت أبى بكر فى الجاهلية مجلساً عامًّا يقصده الناس لطلب العلم والقِرَى .

• • •

فنحن نرى إذن ــ مما قدمنا من الأمثلة والشواهد ــ أن رواية الجاهلية : أشعارها وأخبارها ، لم تنقطع منذ الجاهلية ، بل لقد اتصلت فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته وخلفائه الراشدين ، واستمرت طوال القرن الأول حتى

---

(١) نسب قريش : ٢٦٢ ، ونكت الهميان : ٢٨٧ .
(٢) نسب قريش : ٣٦٩ .
(٣) البيان والتبيين ١ : ٣٠٤ .
(٤) النقائض : ١٤١ .

تسلمها العلماء الرواة من رجال القرن الثانى . ولم تكن ثمة فجوة تفصل هؤلاء الرواة العلماء عن العصر الجاهلى ، وإنما تلقفوه عمن تقدمهم ، وورثوه عمن سبقهم ، رواية متصلة ، وسلسلة محكمة ، يأخذها الخلف عن السلف ويرويها الجيل بعد الجيل ، حريصين عليها معنيين بها . ولم يشغلهم عن إنشاد الشعر وروايته ، وذكر أخبار العرب وأيامهم ومفاخرهم ومثالبهم ، فى مجالسهم ومحافلهم ، شاغل من حرب أو فتنة ، حتى لقد رأينا المسلمين الأولين ، والمشركين من كفار قريش ، لا ينقطعون عن إنشاد الشعر الجاهلى واستنشاده وروايته والتمثل به وتعلمه وحفظه . فأين هذا كله من قول ابن سلام وغيره إن العرب تشاغلت عن الشعر لما جاء الإسلام « وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر » .

ولا نحب أن نتأول كلام ابن سلام ، فألفاظه صريحة واضحة ، ولكننا نحسب أنه يقصد إلى أن الرواية العلمية المنظمة ، والضبط والتدقيق والتحرى ، وتدوين ذلك كله — لم يستطع العرب أن يتلمسوا إليه السبيل إلا بعد أن استقروا فى الأمصار . فإن كان ذلك هو قصده ، فلا ريب أننا لا نستطيع له دفعاً . وأما إذا كان يقصد ، كما يفهم من صريح ألفاظه ، مجرد رواية الشعر وإنشاده وحمله ونقله شفهيًّا ، فما قدمنا من أمثلة لا يتيح لنا أن نقبل دعواه . وسنزيد الأمر بسطاً حين نتحدث فى الفصل المقبل عن طبقات الرواة .

الفصل الثاني

طبقات الرواة

١

الشعراء الرواة :

أولى هذه الطبقات وأولاها بالتقديم طبقةُ الشعراء الرواة ، وهم — فيما يبدو لنا — طائفتان : شعراء يرْوُون ، فيما يروون ، شعر شاعر بعينه ، فيحفظون هذا الشعر ، ويتتلمذون للشاعر ، ويحتذون فيما ينظمون شعره ، واعين مقلدين في بدء أمرهم ، ثم يصبح التقليد طبيعة وفطرة يصدرون عنها صدوراً فنيّاً . وبذلك تكتمل لدينا سلسلة من الشعراء الرواة يكون لهم من الخصائص الفنية التي تجمع بينهم ما يتيح لنا أن نسميهم « مدرسة شعرية » كما سماها الأستاذ الدكتور طه حسين(١) .
وطائفة ثانية من هؤلاء الشعراء الرواة يرْوُون شعراً لمن سبقهم ولبعض من عاصرهم من الشعراء ، لا يخصُّون شاعراً بعينه يتتلمذون له ، وإنما يَرِدُون مناهل شتى يستقون منها ما شاء لهم الفن الشعري أن يستقوا ، ثم يصدرون وقد اكتملت لهم شخصيتهم الفنية المستقلة .

وقد قسم النقاد الأقدمون الشعراء طبقات أربعة ، وجعلوا الطبقة الأولى المقدمة على سائر الطبقات : الشعراء الفحول ، وقد عرّفوا الفحول بأنهم الشعراء الرواة(٢) .
وسنعرض أمثلة قليلة لكل من الطائفتين فيها غَناء عن الإكثار .

فأما الطائفة الأولى ، وهم الذين يتسلسلون في نسق ، ويكوّنون مدرسة شعرية ، فمن أشهرها المدرسة التي تبدأ بأوْس بن حَجَر وتنتهي بكُثَيِّر . فقد كان زهير بن

---

(١) في الأدب الجاهلي (ط . رابعة) ص : ٢٩٧ .
(٢) البيان والتبيين ٢ : ٩ ، وانظر العمدة ١ : ٧٣ .

أبي سلمى راويةَ أوْس وتلميذه[١] ، ثم صار زهير أستاذاً لابنه كعب وللحطيئة[٢] ، حتى لقد قال الحطيئة لكعب بن زهير[٣] : « قد علمتم روايتي لكم أهلَ البيت وانقطاعي إليكم ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك ثم تذكرني بعدك » . ثم جاء هُدْبة بن خَشْرَم الشاعر وتتلمذ للحطيئة وصار راويته[٤] . ثم تتلمذ جميل بن معمر العذْرى لهدْبة وروى شعره ، ثم كان آخر من اجتمع له الشعر والرواية كُثَيِّراً تلميذ جميل وراويته[٥] .

ولسنا في سبيل دراسة الخصائص الفنية لهذه المدرسة الشعرية[٦] ، فحسبنا هذا العرض التقريري الذي أورده النقاد الأقدمون ، وأقرّ به بعض هؤلاء الشعراء أنفسهم . ومع ذلك فإننا سنعرض لخصيصة واحدة تجلو لنا حقيقة الصلة بين تلامذة هذه المدرسة ؛ تلك هي : التأنى في نظم الشعر وإعادة النظر فيه وتنقيحه ، حتى لقد قال الأصمعي[٧] : زهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر ، لأنهم نقحوه ، ولم يلهبوا فيه مذهب المطبوعين . وكان الحطيئة يقول : خير الشعر الحَوْلى المحكّك . وكان زهير يسمى كُبْرى قصائده الحَوليات . وذكر كعب بن زهير في شعر له هذه « العملية الفنية » في نظم الشعر[٨] ،

---

(١) ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء : ٨١ ، وابن قتيبة ، الشعر والشعراء ١ : ٨٦ . ومع ذلك فإنه يروى أنه كان لزهير أستاذ آخر هو خاله بشامة بن الغدير وأن زهيراً قد ورث شعر خاله بشامة ورواه عنه ، انظر الأغانى ١٠ : ٣١٢ ، والآمدى ، المؤتلف والمختلف رقم ٥٢٩ .

(٢) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ١ : ٩٣ .

(٣) ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء : ٨٧ وابن قتيبة ، الشعر والشعراء : ١٠٦ . وانظر أيضاً الأغانى ٢ : ١٦٥ .

(٤) الأغانى ٨ : ٩١ ، ولسان العرب (رتب) .

(٥) الأغانى ٨ : ٩١ .

(٦) لقد فصل القول فيها الدكتور طه حسين في كتابه (في الأدب الجاهلي) انظر ص: ٢٩٨ وما بعدها .

(٧) الشعر والشعراء ١ : ٢٣ .

(٨) انظر ديوانه ص : ٦٤ .

فأشار إلى أنه ينتقي ألفاظه وقوافيه انتقاء ، ويتنخلها تنخلاً ، ويثقّف شعره حتى تلين متونه ويستوي بين يديه على ما يحبّ . ومن هنا جاز أن تسمّى هذه المدرسة الشعرية مدرسة الصنعة [١].

ولم تكن الرابطة الفنية وحدها هي التي تجمع بين بعض هؤلاء الشعراء ، فقد ذكر لنا الرواة أن أوساً كان زوج أم زهير [٢] ، وكعب هو ابن زهير . وصلة الرحم هذه التي تربط بين أفراد المدرسة الفنية الواحدة ، تنقلنا إلى مدرسة أخرى : فقد كان المسيّب بن علَس خال الأعشى بن ميمون ، وكان الأعشى راويته وكان يطرُدُ شعره ويأخذ منه [٣] .

وكذلك كان أبو ذُؤيب الهذلي راويةً لساعدة بن جؤيّة الهذلي [٤] .

ولو تتبعنا هذه الصلة بين شعراء الجاهلية لوجدنا الكثيرين منهم ذوي رحم . ومن أشهر الأمثلة على ذلك — غير من ذكرنا — هؤلاء الثلاثة : المرقّش الأكبر ، والمرقش الأصغر ، وطرفة بن العبد . فقد كان المرقش الأكبر عمّ الأصغر ، والأصغر عم طرفة [٥] . وكذلك كان مهلهل خال امرئ القيس . فلعل الأمر في هؤلاء الشعراء قد جرى على ما جرى عليه الشعراء السابقون من أصحاب المدرسة الفنية الواحدة ، ولعل المرقش الأصغر كان راوية عمه المرقش الأكبر ، وطرفة راوية عمه المرقش الأصغر ، ولعل امرأ القيس كان كذلك راوية خاله مهلهل [٦].

والأمر بعد هذا يحتاج إلى دراسة فنية ، ليس هذا مجالها ، لشعر هؤلاء الشعراء حتى تنجلي لنا الأصول الشعرية التي قامت عليها كل مدرسة ومدى تأثر

---

(١) الدكتور شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي (ط . ثانية) ص ١٢ — ١٥ .

(٢) ابن سلام : ٨١ .

(٣) الموشح : ٥١ ، والشعر والشعراء ١ : ١٢٧ .

(٤) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء : ٦٣٥ .

(٥) ابن سلام : ٣٤ ، ومعجم المرزباني : ٢٠١ ، والأغاني ٦ : ١٢٦ .

(٦) ذكر ابن رشيق في العمدة ١ : ٦١ (مطبعة السعادة سنة ١٩٠٧) أن امرأ القيس كان راوية أبي دواد الإيادي ، قال : « وكان امرؤ القيس يتوكأ عليه ويروي شعره » .

التلاميذ الرواة من هؤلاء الشعراء بأساتذة مدرستهم وشيوخها .

والطائفة الثانية هم الشعراء الذين لم يختصوا برواية شعر شاعر بذاته يتتلمذون له ، وإنما يروون لشعراء كثيرين يتتلمذون لهم جميعاً ، حتى يستقيم عودهم ، ويشقُّوا طريقهم الشعرى الذى يتفردون به ويتميزون . ولهذه الطائفة من الشعراء قيمة كبيرة فى بحثنا هذا ، إذ أنهم جميعاً ، فى أمثلتنا التى سنوردها — من شعراء القرن الأول الهجرى ، وهم جميعاً قد رووا الشعر الجاهلى وحفظوه وتمثلوا به ، بل لقد نقدوه وحكموا عليه وفاضلوا بين الشعراء الجاهليين . وقد اعتمد الرواة من علماء القرن الثانى أحكام هؤلاء الشعراء الرواة وروايتهم للشعر الجاهلى وأخذوا عنهم . وبذلك يكون أولئك الشعراء الرواة الذين عاشوا فى القرن الأول الهجرى حلقة من السلسلة التى أشرنا إليها فى الفصل الأول حين تحدثنا عن اتصال الرواية الأدبية من الشاعر الجاهلى إلى علماء القرن الثانى .

فمن الشعراء الرواة فى القرن الأول : الطِّرِمَّاح . قال محمد بن سهل راوية الكميت (١) : أنشدْتُ الكميت قول الطرماح :

إذا قُبِضَتْ نَفْسُ الطِّرِمَّاحِ أَخْلَقَتْ عُرَى المَجْدِ واسْتَرْخَى عِنَانُ القَصَائِدِ

فقال الكميت : إى والله وعنان الخطابة والرواية .

والكميت بن زيد هذا كان كذلك راوية عالماً بلغات العرب خبيراً بأيامها ومثالبها . ويقال : ما جمع أحد من علم العرب ومناقبها ومعرفة أنسابها ما جمع الكميت ؛ فمن صحّح الكميت نسبه صحّ ، ومن طعن فيه وهن .

وكذلك كان رؤبة بن العجاج ، فقد أخذ عنه كثير من العلماء الرواة اللغة ، وكانوا كذلك يأخذون عنه رواية الشعر الجاهلى ونقده والحكم عليه .

(١) البيان والتبيين ١ : ٤٦ ، والشعر والشعراء : ٥٦٧ .

أخذ عنه يونس بن حبيب شرح قول امرئ القيس « صَفِرَ الوطابُ »[١] . وكان يونس يأخذ عنه كذلك الغريب ، فقال له رُؤْبة يوماً : حتى متى تسألني عن هذه الأباطيل وأزوّقها لك ! أما ترى الشيب قد بلّغ في رأسك ولحيتك ؟ وروى عنه أبو عمرو بن العلاء أبياتاً لامرئ القيس فاضل بينها ونقدها[٢] .

وكان ذُو الرمة راوية الراعي[٣] ، يروى شعره ويجعله إماماً[٤] ، وكان كذلك يؤخذ عنه بعض الشعر الجاهلي ، فقد أخذ عنه يونس بن حبيب قصيدة عبيد بن الأبرص الحائية التي يصف فيها المطر ، وجعلها يونس ، من أجل ذلك ، لعبيد ، وإنْ كان المفضل صرفها إلى أوْس بن حجر[٥] .

ومما يدل على معرفة ذى الرّمة بالشعر الجاهلي معرفة دقيقة ، وطول نظره فيه ، ما رُوى من أن حماداً الراوية قدم على بلال بن أبي بُرْدَة البصرة ، وعند بلال ذو الرمة ، فأنشده حماد شعراً مدحه به ، فقال بلال لذى الرمة[٦] : كيف ترى هذا الشعر ؟ قال : جيداً ، وليس له . قال : فمن يقوله ؟ قال : لا أدرى إلا أنه لم يقله . فلما قضى بلال حوائج حماد وأجازه . . . قال : أنت قلت ذلك الشعر ؟ قال : لا . قال : فمن يقوله ؟ قال : بعض شعراء الجاهلية ، وهو شعر قديم وما يرويه غيرى . قال : فمن أين علمَ ذو الرمة أنه ليس من قولك ؟ قال : عرف كلام أهل الجاهلية من كلام أهل الإسلام .

---

(١) ابن سلام : ٤٥ ، وبيت امرئ القيس هو :
وأفلتهن علباء جريضاً ... ولو أدركنه صفر الوطاب

(٢) الموشح : ٢٧ .

(٣) ابن سلام : ٤٦٧ .

(٤) الموشح : ١٧٠ .

(٥) ابن سلام : ٧٦ — ٧٧ .

(٦) الأغاني ٦ : ٨٨ .

فإذا ما انتقلنا بعد ذلك إلى الحديث عن جرير والفرزدق ، وجدنا فى الحديث عنهما ما يكشف عن مدى معرفة هؤلاء الشعراء بأخبار الجاهلية وأيامها ورواية شعرها . وعرفنا شيئاً آخر ذا قيمة خاصة ، وهو أن علماء القرن الثانى قد أخذوا بعض علمهم عن الجاهلية وشعرها عن هؤلاء الشعراء ، وخاصة جريراً والفرزدق .

فأما جرير فقد كان جدُّه الخَطَفَى ، واسمه حذيفة بن بدْر ، من القدماء العلماء بالنسب وأخبار العرب [١] ، وكان كذلك شاعراً وقد أدركه جرير وأخذ عنه [٢] . وروى أبو عبيدة عن مِسْحل بن زَيداء — وهى بنت جرير — عن أبيها جرير ، أخباراً عن أيام الجاهلية منها خبر عن يوم ذى قار [٣] ، وكذلك روى عنه نقداً مفصلاً لشعر بعض شعراء الجاهلية [٤] . وكان خلفاء بنى أمية يسألونه عن الشعراء : الجاهليين منهم والإسلاميين ، فيخبرهم بشعرهم وبنقده وأحكامه على هؤلاء الشعراء [٥] . فمن أمثلة ما كان يقوله : إن طرَفة — وقد كنى عنه بابن العشرين — أشعر الناس ، وإن زُهيراً والنابغة كانا ينيران الشعر ويسديانه ، وإن امرأ القيس اتخذ من الشعر نعلين يطؤهما كيف شاء . . .

وقد كان طلب جرير والفرزدق لأخبار الجاهلية وأنساب العرب مما يُضطران إليه ، ليضمنّاه شعرهما حين يهجوان وحين يمدحان ، ولذلك قال أبو عبيدة عنهما [٦] « هما بئس الشيخان ، ما خلق الله أشأم منهما على قومهما ، إنهما أخرجا مثالب بنى تميم وعيوبهم ، وكانا أعلم الناس بعيوب الناس » .

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٣٦٦ .
(٢) طبقات فحول الشعراء : ٣١٩ — ٣٢١ .
(٣) النقائض : ٦٤٧ .
(٤) النقائض : ١٠٤٧ — ١٠٤٨ ، وانظر الأغانى ٨ : ١٩٩ — ٢٠٠ .
(٥) أمالى القالى ٢ : ١٧٩ .
(٦) النقائض : ١٠٤٩ .

أما الفرزدق فقد تعلم الشعر وروايته وكلام العرب صغيراً ، وهذا أبوه غالب ابن صعصعة حينما وفد على علىّ بن أبى طالب فى خلافته ومعه ابنه الفرزدق قال لعلىّ[١] : قد رَوّيته ُ الشعر يا أمير المؤمنين وكلام العرب ، ويوشك أن يكون شاعراً مجيداً . وقد كان بعد ذلك يطلب الأنساب والأخبار والمثالب ليضمّنها شعره حتى إنه حين قدم عمر بن لجأ التيمى البصرةَ خرج إليه الفرزدق ومعه راويته ابن مسويه ، وكان يكتب شعره ، فقال الفرزدق لابن لجأ[٢] : يا أبا حفص ، إن ابن عمى شبّةَ بن عقال كتب إلىّ أن بنى جعفر هجوه وهو مفحم ، وقداستغاث بى ، ولست أعرف مثالبهم ولاما يُهجَون به . قال عمر: لكنى قد طانبتهم فى الحال ، وسايرتهم فى النجع ، وحضرت معهم وبدَوْتُ . فقال الفرزدق : هاتوا لى صحيفة أكتب فيها ما أريد من ذلك . قال : فأتوه بصحيفة فكتب فيها المثالب التى هجاهم بها فى القصيدة التى يقول فيها :

وَنُبِّئْتُ ذَا الأَهْدامِ يَعْوِى وَدُونَهُ ... من الشَّأْمِ زَرّاعَاتُها وَقُصُورُها[٣]

ويبدو أن الفرزدق كان كثير الرواية لشعر امرىء القيس حافظاً لأخباره ، ويعلل العلماء كثرة روايته لشعر امرىء القيس وأخباره بأن امرأ القيس صحب عمه شرَحبيل بن الحارث قبل يوم الكُلاَب ، وكان شرحبيل مسترضعاً فى بنى دارم رهط الفرزدق ، فلحق امرؤ القيس بعمه ، فلذلك حفظ الفرزدق أخباره[٤] . وبعض أخبار الفرزدق عن امرىء القيس متصلة إلى الجاهلية نفسها ، وربما إلى عصر امرىء القيس نفسه ، فالفرزدق يذكر أن جده قد حدّثه بها ، وجدّه شيخ كبير وهو يومئذ غلام حافظ لما يسمع[٥] .

---

(١) البغدادى ، الخزانة ١ : ٢٠٦ .

(٢) النقائض : ٩٠٧ — ٩٠٨ .

(٣) ذو الأهدام : اسمه نفيع ، وهو أحد بنى جعفر بن كلاب . وزراعاتها : الأرض التى تزرع منها .

(٤) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ١ : ٧٠ — ٧١ ، وجمهرة أشعار العرب : ٨٥ .

(٥) المصدران السابقان .

وللفرزدق أحكام نقدية على الشعراء الجاهليين والمخضرمين أخذ بعضها الرواة العلماء وتناقلوها ، فمن ذلك حكم الفرزدق على نابغة بنى جعدة فى قوله (١) : كان صاحب خُلْقَان عنده مُطرَفٌ بألف وخِمارٌ بواف .

وقد قال الجاحظ (٢) : إن الفرزدق راوية الناس وشاعرهم وصاحب أخبارهم. وقال يونس بن حبيب : لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس . فهل أبلغ من هذا فى الدلالة على مبلغ علم الفرزدق بأيام العرب وأخبارهم وشعرهم؟ بل حسبنا أن نذكر الأبيات التالية التى قالها من قصيدته اللامية ، فإن ما فيها من تعداد لشعراء الجاهلية ، ولمح من أخبارهم ،ونقدات سريعة لشعرهم ، دالٌ أبلغ الدلالة على معرفته بهؤلاء الشعراء وبشعرهم معرفة واضحة المعالم . قال الفرزدق(٣) :

وهَبَ القَصائدَ لِى النّوابغُ إذْ مَضَوْا ... وأبو يزيدَ وذُو القُرُوحِ وجَرْوَلُ (٤)
والفَحْلُ عَلْقَمَةُ الذى كانت له ... حُلَلُ المُلوك ، كلامُه لا يُنْحَلُ
وأخو بنى قَيْسٍ وَهُنَّ قَتَلْنَه ... ومُهَلْهِلُ الشعراء ذاك الأوّلُ (٥)
والأعْشَيَان كِلاهما ومُرَقِّشٌ ... وأخو قُضَاعةَ قَوْلُه يُتَمَثَّلُ
وأخُو بنى أَسَدٍ عَبِيدٌ إذْ مَضَى ... وأبو دُوَادٍ قَوْلُه يُتَنَحَّلُ
وابنا أبى سُلْمَى زُهَيْرٌ وابنُه ... وابن الفُرَيْعَةِ حِين جَدَّ المِقْوَلُ
والجَعْفَرِىُّ وكان بِشْرٌ قَبْلَهُ ... لِى من قصائدِه الكِتابُ المُجْمَلُ
ولقد وَرِثْتُ لآلِ أَوْسٍ مَنْطِقًا ... كالسُّمِّ خَالَطَ جانبَيْهِ الحَنْظَلُ

(١) الأغانى ٥ : ٢٨ والموشح : ٦٤ .
(٢) البيان والتبيين ١ : ٣٢٢ .
(٣) النقائض : ٢٠٠ — ٢٠١ وديوانه ص : ٧٢٠ — ٧٢١ .
(٤) النوابغ : النابغة الذبيانى والجعدى والشيبانى . وأبو يزيد : المخبل السعدى . وذو القروح : امرؤ القيس . وجرول : الحطيئة .
(٥) أخو بنى قيس : طرفة .

والحَارِثيُّ أخو الحِماس وَرِثْتُه ... صَدْعًا كماصَدعَ الصَّفَاةَ المِعْوَل

ومما يدخل فى هذا الباب قصيدة سُرَاقةَ البارقىّ ، وهو معاصر لجرير والفرزدق ، ووجهُ الشبه بين القصيدتين فى تعداد أسماء الشعراء ، وذكر طرف من أخبارهم ونقد شعرهم – واضح بيِّن. وقصيدة سُرَاقة التالية تدل على أن غير جرير والفرزدق من شعراء القرن الأول قد شركوهما فى العلم بشعراء الجاهلية ورواية شعرهم مما لا يبلغه إلا الرواة العلماء النقاد الدارسون لهؤلاء الشعراء وشعرهم . قال سراقة [١] :

ولقد أَصَبْتُ من القَرِيضِ طَرِيقَةً ... أَعْيَتْ مَصَادِرُهَا قَرِينَ مُهَلْهِلِ [٢]

بَعْدَ امْرِئِ القَيْسِ المُنَوَّهِ بِاسْمِهِ ... أيّامَ يَهْذِى بالدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وأبُو دُوَادٍ كان شاعرَ أُمَّةٍ ... أَفَلَتْ نُجُومُهُمُ وَلَمَّا يَأْفِلِ

وأبُو ذُؤَيْبٍ قد أذَلَّ صِعَابَهُ ... (لاَ يَنْصِبَنَّكَ) رابِضٌ لم يُذْلَلِ

وَأَرادَها حَسَّانُ يَوْمَ تَعَرَّضَتْ ... بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

ثُمَّ ابْنُهُ مِنْ بَعْدِهِ فَتَمَنَّعَتْ ... والحَالُ أنَّ قَرِينَهُ لم يَخْذُلِ

وبنو أَبِى سُلْمَى يُقَصِّرُ سَعْيُهُمْ ... عَنَّا كما قَصُرَتْ ذِراعًا جَرْوَلِ

وأبو بَصِيرٍ ثُمَّ لَمْ يُبْصِرْ بِها ... إذْ حَلَّ من وَادِى القَرِيضِ بِمَحْفِلِ

واذْكُرْ لَبِيدًا فى الفُحُولِ وحاتِماً ... سَيَلُومُكَ الشُّعَراءُ إنْ لَمْ تَفْعَلِ

ومُعَقَّرًا فاذْكُرْ وإنْ الْوَى بِهِ ... رَيْبُ المَنُونِ وَطَائرٌ بالأَخْيَلِ

وأُمَيَّةَ البَحْرَ الذى فى شِعْرِهِ ... حِكَمٌ كَوَحْيٍ فى الزَّبُورِ مُفَصَّلِ

---

(١) ديوانه – تحقيق حسين نصار – ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٧ ، ص ٦٤–٧١

(٢) قرين الشاعر : شيطانه .

وَالْيَلْمُرِىُّ على تَقَادُمِ عَهْدِهِ ... مِمَّنْ قَضَيْتُ له قضاء الفَيْصَلِ
واقْذِفْ أبا الطَّمَحَانِ وسْطَ خُوَانِهِمْ ... وابنُ الطرَامَةِ شاعرٌ لم يُجْهَلِ
لا والذى حَجَّتْ قُرَيْشٌ بَيْتَهُ ... لو شئتُ إذْ حَدَّثْتُكُمْ لم آتَلِ
ما نالَ بَحْرى مِنْهُمُ من شاعرٍ ... مِمَّنْ سمِعْتَ به ولا مستعجل[1]

٢

رواة القبيلة :

وقد سبق لنا قول مفصل عن قيمة الشعر الجاهلى وخطره للقبيلة [2] ؛ إذ هو ديوان أمجادها وأحسابها ، وسجل مآثرها ومفاخرها ، ومستودع آدابها وأنسابها وأخبارها . وأشرنا إلى عناية القبيلة بمدح الشعراء ، وحرصها على إكرامهم واستمالتهم وذكرنا كيف كانت القبيلة تحتفى إذا نبغ فيها شاعر : فتصنع الأطعمة ، وتجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعن فى الأعراس ، وتأتى القبائل فتهنئها [3]. ودللنا على مبلغ عناية القبيلة بالشعر بأنّ بنى تغلبَ كانوا يعظمون قصيدة عمرو بن كلثوم المعلقة ، وكان يرويها صغارهم وكبارهم حتى هُجُوا بذلك ، فقال بعض شعراء بكر بن وائل[4] :

أَلْهَى بنى تَغْلِبٍ عن كُلِّ مَكْرُمَةٍ ... قَصِيدَةٌ قالها عمرو بن كُلْثُومِ
يَرْوُونَها أَبَدًا مُذْ كَانَ أَوَّلُهُمْ ... يَا لَلرِّجَالِ لِشِعْرٍ غَيْرِ مَسْئُومِ

(١) مستعجل : كذا فى ديوانه المطبوع ، ولا أعلم لها وجهاً ، وقد وقف عندها محقق الديوان .
(٢) انظر الباب الثانى ، الفصل الأول ، فقرة (١) .
(٣) ابن رشيق ، العمدة ١ : ٤٩ .
(٤) الأغانى (دار الكتب) ١١ : ٥٤ .

ولذلك كانت القبيلة مصدراً من مصادر شعر شعرائها ، ومصدراً من مصادر الشعر الذى يمدحها به شعراء القبائل الأخرى . ومن أجل ذلك أخذ العلماء الرواة فى القرن الثانى بعض شعر الجاهلية من هذه القبائل ، ومما يرويه رواة منها من شعر شعرائها . وسنسرد بعض الأمثلة على رواية أفراد من القبيلة لشعر شعرائها ، مبتدئين بعصر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ومنتهين بآخر القرن الثانى .

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حينما أراد أن يسمع بعض شعر أمية بن أبى الصلت الثقفى ، استنشد رجلاً من ثقيف ، قبيلة الشاعر ، هو الشريد بن سُوَيد الثقفى ، فأنشده مائة بيت [1].

وحينما أراد عبد الملك بن مروان أن يسأل عن ذى الإصبع العَدْوانىّ وأخباره ونسبه ، وحينما أراد أن يسمع من ينشده قصيدته « عذير الحى من عدوان . . » سأل فى كل ذلك رجلاً من جديلة — وعدوان قبيلة ذى الإصبع بطن من جديلة فلما أجاب الرجل عن كل ذلك قال له عبد الملك [2] : « ادْنُ منى ، فإنى أراك بقومك عالماً » .

وكذلك روى خراش بن إسماعيل عن رجل من بنى تغلب ثم من بنى عتَّاب خبراً عن بنت مهلهل وابنها عمرو بن كلثوم ، وعمرو بن كلثوم من تغلب [3] .

ويروى ابن الكلبى بعض أخبار حاتم عن أفراد قبيلته طيئ فيقول [4] : « حدثنى الطائيون . . . »

وحينما دخل ثمامة بن الوليد على المنصور ، قال له المنصور [5] : يا ثمامة ، أتحفظ حديث ابن عمك عروة الصعاليك بن الوَرْد العبسى ؟ فقال : أىّ حديثه

(١) ابن سعد ٥ : ٢٧٦ ، وانظر المزهر ٢ : ٣٠٩ ، والخزانة ١ : ٢٢٧ .
(٢) الأغانى ٣ : ٩١ — ٩٣ .
(٣) الأغانى (دار الكتب) ١١ : ٥٢ .
(٤) ديوان حاتم (ط . لندن) ص : ٣٠ .
(٥) الأغانى ٣ : ٨٣ — ٨٥ .

يا أمير المؤمنين ؟ فقد كان كثير الحديث حسنه . فلما ذكر له المنصور الحديث قال ثمامة : إن له عندنا أحاديث كثيرة ما سمعنا له بحديث هو أظرف من هذا .

وإذا رجعنا إلى كتاب واحد من كتب الأدب العامة هو كتاب « المعمَّرين من العرب » لأبي حاتم السجستاني ، وجدنا كثيراً من أخباره مرويةً عن أشياخ من قبيلة المعمَّر الذي يترجم له ، فزهير بن جَنَاب من كلب ولذلك قال[1] : « حدثنا أبو حاتم قال — وقال العمرى — أخبرني محمد بن زياد الكلبي عن أشياخه من كلب قالوا : . . . » وقال أيضاً[2] : حدثنا أبو حاتم قال : وزعم هشام بن محمد عن أبيه محمد بن السائب قال : سمعت أشياخنا الكلبيين يقولون . . » ، وشُرَيح بن هانئ من بني الحارث بن كعب ، ولذلك أورد بعض أخباره عن[3] « ابن الكلبي عن أبي مِخْنَف قال : أخبرنا أشياخنا من بني الحارث قالوا . . . » . وشرية بن عبد جُعْفِيّ ، فأورد بعض أخباره عن[4] « ابن الكلبي قال : سمعت أبا بكر بن قيس الجعفيّ يذكر عن أشياخه » . ويورد بعض أخبار ثعلبة بن كعب الأوسي عن[5] « ابن الكلبي عن عبد الحميد ابن أبي عبس الأنصاري عن أشياخ قومه » . ويورد بعض أخبار طيء بن أدد عن[6] « هشام أنه سمع أشياخاً من طيء يذكرون ذلك . . » ويروى بعض أخبار هاجر بن عبد العزى عن أحد أفراد قبيلته خزاعة هو : طلحة بن عبيد الله ابن كريز الخزاعي[7] . وكذلك يروى بعض أخبار جليلة بن كعب عن بعض

---

(١) كتاب المعمرين : ٢٥ .
(٢) ص : ٢٨ .
(٣) ص ٣٨ رقم : ٣٦ .
(٤) ص : ٣٩ رقم ٣٧ .
(٥) ص ٧١ — ٧٢ رقم ٧٣ .
(٦) ص : ٧٢ رقم ٧٤ .
(٧) ص : ٧٣ رقم ٧٦ .

أفراد قبيلته بنى جُعفى هو : الوليد بن عبد الله الجُعفى[١] . ويروى أخبار كعب ابن رداة النَّخعىّ عن بعض النخعيين[٢] . ويروى بعض أخبار حارثة بن عبيد الكلبى عن : شَمْلة بن مُغيث وهو رجل من ولد حارثة[٣] . ويروى بعض أخبار القُدَار العنَزىّ عن[٤] : خِراش قال : حدثنى به قوم من عنَزَة .

ومع ذلك فقد كان بعض أفراد القبائل يجهلون أخبار شعرائهم ، وليس فى الأمر ما يستغرب ، فليس كل القبيلة معنيًّا بذلك ، وإنما العناية بهذا الضرب من العلم مما تغنى فيه معرفة طائفة دون أخرى ، غير أن ابن فارس يقول[٥] — ولعل فى قوله هذا استنكاراً واستهجاناً — : « سمعت أبى يقول : حججت فلقيت بمكة ناساً من هُذَيل ، فجاريتهم فى ذكر شعرائهم ، فما عرفوا واحداً منهم ، ولكنى رأيت أمثل الجماعة رجلاً فصيحاً وأنشدنى . . . » ثم يذكر أبياتاً .

فإذا كان أفراد القبيلة يعنون هذه العناية برواية شعر شعرائها ، فما بالك بأولاد الشاعر صلبية ؟ لقد كان ابن الشاعر يروى شعر أبيه حتى لقد قال الراعى :[٦] من لم يروِ من أولادى هذه القصيدة (قصيدته اللامية) وقصيدتى التى أولها :

بَانَ الأَحِبَّةُ بِالعَهْدِ الذى عَهِدُوا . . . .

فقد عقَّنى .

وكثير من أبناء الشعراء الجاهليين عاشوا فى الإسلام[٧] ، وبعضهم عُمِّر

---

(١) ص : ٧٢ رقم ٧٧ .

(٢) ص : ٧٣ رقم ٧٨ .

(٣) ص : ٧٤ — ٧٥ ، رقم ٨١ .

(٤) ص : ٧٦ رقم ٨٤ وانظر كذلك رقم ٨٥ و ٨٨ .

(٥) مقدمة الصاحبى ص : ب و ج

(٦) البغدادى ، الخزانة ٣ : ١٣١

(٧) من أمثلة ذلك : ابن عبيد بن الأبرص الأسدى ، وقد روى عن على بن أبى طالب (ابن سعد ٦ : ١٦٤) وعلى بن علقمة بن عبدة (الإصابة ٥ : ١١٢) ، والقاسم بن أمية ابن أبى الصلت الثقفى (معجم المرزبانى : ٣٣٢) ، ورقية بنت وهب بن أمية بن أبى الصلت تزوجها =

طويلاً ؛ وقد وفد بعضهم على خلفاء بني أمية فاستنشدوهم شعر آبائهم ، وأخذ العلماء الرواة بعض هذا الشعر عنهم . فمن أمثلة ذلك :

أن معاوية بن أبي سفيان حجّ فرأى شيخاً يصلي في المسجد الحرام ، فسأل عنه فقالوا[1] : سَعْيَة بن غَرِيض. فاستدعاه، في حديث طويل ، ثم قال له : أنشدني شعر أبيك يرثي به نفسه (أي شعر السموءل) فقال : قال أبي :

يَا لَيْتَ شِعْرِي حِينَ أُنْدَبُ هالِكًا ماذا تُؤَبِّنُنِي بِهِ أَنْوَاحِي
أَيَقُلْنَ : لا تَبْعَدْ فَرُبَّ كَرِيهَةٍ فَرَّجْتَهَا بشَجَاعَةٍ وَسَمَاحِ

وهي خمسة أبيات :

ويُروَى أن عديّ بن حاتم الطائي عاش مائة وثمانين سنة[2] ، وقد رووا عنه بعض أخبار أبيه حاتم[3] .

ودخل إبراهيم بن متمم بن نويرة على عبد الملك بن مروان ، فرأى فيه عقلاً وفضلاً ، فقال له : أنشدنا بعض مراثي أبيك عمّك . فأنشده [4] :

نِعْمَ الفَوارِسُ يَوْمَ نُشْبَةَ غادروا تحتَ التُّرَابِ قَتِيلَكَ ابْنَ الأَزْوَرِ

حتى انتهى إلى قوله :

=عبد الله بن صفوان (نسب قريش : ٣٩٠) ، وعبد الرحمن بن حسان بن ثابت وابنه سعيد بن عبد الرحمن (معجم المرزباني : ٣٦٦) ، وكعب بن زهير بن أبي سلمى وابنه عقبة بن كعب (الشعر والشعراء ١ : ٩٢) ، ومكنف وحريث ابنا زيد الخيل بن مهلهل وقد شهدا قتال الردة (الشعر والشعراء ١ : ٢٤٤) ، وإبراهيم وداود ابنا متمم بن نويرة . ووفد إبراهيم على عبد الملك ابن مروان (الشعر والشعراء ١ : ٢٩٨) وابن المتلمس ، كان اسمه عبد المنان أدرك الإسلام (الأغاني : ساسي ٢١ : ١٢٢) .

(١) الأغاني ٣ : ١٣٠ — ١٣١ .
(٢) المعمرين : ٣٦ .
(٣) ديوان حاتم (ط . لندن) : ٣١ .
(٤) الموشح للمرزباني : ٢٤٠ .

أَدَعَوْتَه باللهِ ثُمَّ قَتَلْتَهُ لَوْ هُوْ دَعاك بِمِثْلِها لَمْ يغْدِرِ

وأخذ الرواة العلماء شعر متممّ بن نويرة عن حفيده ابن داود بن متمم ، قال ابن سلاّم [١] : أخبرني أبو عبيدة أن ابن داود بن متمم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي في الجلَب والميرة، فنزل النّحيت، فأتيته أنا وابن نوح العطاردي ، فسألناه عن شعر أبيه متمم وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعته . فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذي على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم ، والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله .

وذكر الأصمعي أن حماد بن ربيعة بن النمر بن تَوْلَب قد روى [٢] :

أَهِيمُ بدَعْدٍ ما حَيِيتُ فإنْ أَمُتْ أُوَصِّ بدَعْدٍ مَنْ يَهِيمُ بِهَا بَعْدِي

ونسبه إلى جدّه النمر بن تولب مع أن الناس يروون البيت لنُصَيب .

ودخل ابن أبي مِحجن الثقفي على معاوية فقال له معاوية [٣] : أبوك الذي يقول :

إذا مِتُّ فادْفِنِّي إلَى جَنْبِ كَرْمَةٍ تُرَوِّي عِظامِي بَعدَ مَوْتِي عُرُوقُها
ولا تَدْفِنَنِّي بالفَلاةِ فإنَّني أخافُ إذا ما مِتُّ أنْ لا أذوقها

فقال ابن أبي محجن : لو شئتَ ذكرتَ أحسن من هذا من شعره . قال : وما ذاك ؟ قال : قوله :

لا تَسْأَلِي النّاسَ ما مالي وكَثْرَتُهُ وسائلِي القومَ ما حَزْمِي وما خُلُقِي
القومُ أعلمُ أنِّي من سَراتِهِم إذا تَطِيشُ يدُ الرِّعْدِيدَةِ الفَرِقِ

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ٤٠ .
(٢) الشعر والشعراء ١ : ٢٦٩ .
(٣) الشعر والشعراء ١ : ٣٨٨ .

قد أركبُ الهَوْلَ مَسْدُولًا عَسَاكِرُهُ ... وأَكْتُمُ السِّرَّ فيه ضَرْبَةُ العُنُقِ

ووفد على عبد الملك وفد أهل الكوفة ، فلما دخلوا عليه وكلمهم رأى فيهم رجلاً آدَمَ طويلاً ، فكلمه فأعجبه بيانه ، فلما تولى تمثل عبد الملك بقول عمرو ابن شأس[1] :

وإنَّ عِرَارًا إنْ يَكُنْ غَيْرَ واضحٍ ... فإنِّى أُحِبُّ الجَوْنَ ذا المَنْكِبِ العَمَمْ

فالتفت الآدَمُ إلى عبد الملك فضحك ؛ فقال عبد الملك : علىَّ به . فلما جىء به قال : ما أضحكك ؟ قال : أنا يا أمير المؤمنين عرار ! فأقعده وقلمه وسامره.

وقد أخذ العلماء بعض شعر تميم بن أُبَىّ بن مُقبل عن ابنته أمّ شَرِيك، بل إنهم رووا عنها تفسيرها لكلمات فى شعره[2] .

وقد روى العلماء شعراً لعمرو بن العاص ، قال الواقدى[3] : أخبرنى ابن أبى الزناد أنه سمع ذلك من ابن ابنه: عمرو بن شعيب بن عبد الله بن عمرو يذكره بجده .

ولا سبيل إلى الإطالة فى إيراد الأمثلة فحسبنا ما قدمنا فإن فيه لغَناء .

٣

رواة الشاعر :

وقد كان لبعض الشعراء، وخاصة الفحول منهم ، راوٍ أو رواة ، يصحبونهم ويلازمونهم فى حِلِّهم وترحالهم ، ويحفظون شعرهم ويروونه وينشدونه فى المجالس والمحافل . وقد جرى أمر الشعراء ورواتهم فى العصور الإسلامية على ما جرى عليه

---

(١) الشعر والشعراء ١ : ٣٨٨ ، وانظر معجم المرزبانى : ٢١٢ – ٢١٣ .

(٢) البكرى ، معجم ما استعجم (أذرع) ١ : ١٣١ .

(٣) الأغانى ٩ : ٥٨ .

فى الجاهلية . فقد كان للفرزدق رواة أحدهم رجل من بنى ربيعة بن مالك — وهم الذين يقال لهم ربيعة الجُوع — ويبدو أن هذا الراوية كان يروى عامة شعر الفرزدق ، بينما كان راوية آخر لا يروى من شعر الفرزدق إلا ما كان هجاء أو نقضاً لقصائد جرير وغيره من الشعراء ، وكان اسم هذا الراوية عبيداً وهو أحد بنى ربيعة بن حنظلة (١) . وبقى لنا من أسماء رواة جرير اسم واحد هو الحسين ، وكان يكتب شعر جرير ، وروى عنه العلماء بعض أخباره (٢). وكان السائب ابن ذَكْوَان راوية كُثَيِّر عزة(٣). وأما راوية الكميت ابن زيد الأسدىّ فهو محمد بن سهل (٤) . وكان كذلك للأحوص راويته (٥) ، ولذى الرمة راويته (٦) . وربما اجتمع بعض هؤلاء الرواة يتناشدون أشعار شعرائهم ويتفاخرون بها ، كما حدث حين اجتمع بالمدينة راوية جرير ، وراوية نُصَيب ، وراوية كُثَيِّر ، وراوية جميل ، وراوية الأحوص ، وادّعى كل رجل منهم أن صاحبه أشعر (٧) . ولسنا فى حل من الإسهاب فى الحديث عن هؤلاء الرواة فى العصر الأموى ، فأخبارهم مستفيضة ، وهى موجودة فى مظانها التى أشرنا إليها . وإنما ذكرناهم هذا الذكر العابر العارض ، لنستأنس به على أن رواة الشاعر كان أمراً موروثاً وعادةً موصولةً منذ الجاهلية ، وإنْ كانت كتب الأدب العربى وتاريخه تسعفنا بوفرة من الأخبار عن العصور الإسلامية ثم تشحُّ كلما استعنّا بها فى العصر الجاهلى .

ومع ذلك فقد بقى لنا من أسماء رواة الشعراء الجاهليين اسم راوية الأعشى ، أو أسماء ثلاثة من رواته . أول هذه الأسماء : عبيد ، وكان عبيد هذا يصحب

---

(١) النقائض : ١٠٤٩ ، والموشح : ١٠٦ — ١٠٧ .
(٢) النقائض : ٤٣٠ .
(٣) الأغانى ٩ : ٢٢٤ ، والموشح : ١٥٠ و ١٥١ .
(٤) الأغانى ٢ : ٤١٢ و ٤١٧ ، والموشح : ١٩٣ و ١٩٥ .
(٥) الأغانى ٤ : ٢٤١ — ٢٤٢ .
(٦) الموشح : ١٨٤ .
(٧) الموشح : ١٥٩ .

الأعشى ويروى شعره ، وكان عالماً بالإبل ، وله يقول الأعشى فى ذكر الناقة :

لم تَعَطَّفْ عَلَى حُوارٍ ولم يَقْـ ـطَعْ عُبَيْدٌ عُرُوقَها مِن خُمالِ[١] »

وقد روى عبيد هذا عن الأعشى نفسه خبر قدومه على النعمان وإنشاده بين يديه بعض شعره[٢] . وروى أيضاً أنه سأله[٣] : ماذا أردت بقولك :

وَمُدَامَةٍ مِما تُعَتِّقُ بابِلٌ كَدَمِ الذَّبِيحِ سَلَبْتُها جِرْيالَها

فقال الأعشى : شربتها حمراء ، وبلتها بيضاء [فسلبتها لونها] [٤] .

وقد ذكر أبو الفرج اسماً ثانياً لراوية الأعشى وهو : يحيى بن متّى ، وقال عنه إنه[٥] «كان نصرانياً عِبادياً وكان معمّراً . قال : كان الأعشى قدَريّاً وكان لبيد مُثْبِتاً . قال لبيد :

من هَداهُ سُبُلَ الخَيْرِ اهْتَدَى ناعِمَ البالِ ومن شاء أَضَلّ

وقال الأعشى :

اسْتَأْثَرَ اللهُ بالوَفاءِ وَبا لْعَدْلِ وَوَلَّى المَلَامَةَ الرَّجُلا

وحين سئل من أين أخذ الأعشى مذهبه، أجاب : « من قبل العِبَاديين نصارى الحِيرة ، كان يأتيهم يشترى منهم الخمر فلقّنوه ذلك » .

أما الجواليقى فى المُعَرَّب فقد ذكر اسماً ثالثاً لراوية الأعشى هو[٦] : يونس ابن متّى . ثم يورد الخبر الذى أوردناه آنفاً والذى سأل فيه هذا الراويةُ الأعشى عن معنى قوله : « سلبتها جريالها » .

---

(١) الشعر والشعراء ١ : ٢١٦ . الحوار : ولد الناقة . والخمال : داء يصيب القوائم .
(٢) المصدر السابق ١ : ٢١٥ .
(٣) المصدر السابق ١ : ٢١٥ – ٢١٦ .
(٤) الزيادة بين المكعفين من الجواليقى ، المعرب (ط . ليبسك) ص : ٤٦ .
(٥) الأغانى ٩ : ١١٢ ، وقد ذكره أبو الفرج فى موطن آخر (الأغانى – ساسى ٢١ : ١٢٦) باسم : عبيد .
(٦) المعرب ص : ٤٦ ، وانظر أيضاً البغدادى ، الخزانة (سلفية) ٤ : ١٩٧ .

فنحن إذن أمام ثلاثة أسماء ؛ فهل هي لثلاثة رواة مختلفين ، أو أنه راوية واحد وأخطأ القدماء في اسمه[1] ؟

أما نحن فنذهب إلى أن الأسماء الثلاثة كلها صواب ، ولكنها إنما تدل على رجل واحد لا ثلاثة رجال . وليس بين أيدينا الدليل القاطع ، وإنما ثمة أمران نستأنس بهما فيكون من ذلك ترجيحُ ما ذهبنا إليه . الأمر الأول أن الراوية الذي يروي عن هذا الراوية — راوية الأعشى — واحد في جميع الروايات وهو سمّاك بن حرْب[2] . فابن قتيبة يروي عن : . . حماد الراوية قال : حدثني سماك عن عبيد راوية الأعشى ؛ ثم يقول في موطن آخر : وحدثني الرياشي عن مؤرّج عن شعبة عن سمّاك عن عبيد راوية الأعشى ؛ وأبو الفرج يروي عن رجاله عن : أبان بن تغلب عن سماك بن حرب قال : قال لي يحيي بن متّى راوية الأعشى . ويقول الجواليقي : رُوي عن الأصمعي عن شعبة عن سماك بن حرب عن يونس بن متّى راوية الأعشى . فسماك بن حرب هو وحده الراوية الذي يروي عن راوية الأعشى الذي يدعى حيناً عبيداً ، وحيناً آخر يحيي ، وحيناً ثالثاً يونس . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الخبر الذي يورده ابن قتيبة مرويًّا عن : الرياشي مؤرج عن شعبة عن سماك عن عبيد راوية الأعشى ، هو الخبر نفسه الذي يورده الجواليقي مرويًّا عن الأصمعي عن شعبة عن سماك بن حرب عن يونس بن متّى راوية الأعشى ، وهو سؤاله إياه عن معنى قوله « سلبتْها جريالها » وتكاد ألفاظ الروايتين تكون واحدة — إذا أضفنا هذا إلى ذلك رجّحنا أن راوية الأعشى هو رجل واحد وليس ثلاثة رجال .

---

(١) ذهب الأستاذ أحمد محمد شاكر في تحقيقه لكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (ص : ٢١٦ هامش : ١) إلى أن الجواليقي أخطأ في اسم راوية الأعشى حينما ذكر أنه يونس بن متّى .

(٢) ترجمته في القفطي ؛ إنباه الرواة على أنباه النحاة ٢ : ٦٥ وانظر تخريج ترجمته هناك في الحاشية .

فكيف اختلفت الأسماء إذن ؟ لقد كان هذا الراوية عِبَاديًّا من نصارى الحيرة ، فالغالب على ظننا أن يكون اسمه فى أصله : يوهانس أو يوحانس ، ثم مر هذا الاسم عند العرب فى طورين ؛ الأول : الترجمة ؛ والثانى : التعريب . فنى الطور الأول ترجموا معنى اسمه الذى يدل على العبودية للخالق فجعلوه فى العربية : عبيداً . وأما طور التعريب فقد مر أيضاً فى مرحلتين ، الأولى : مرحلة حرفية لا تتغير عن الأصل كثيراً ، فعربوا يوهانس وجعلوه : يونس . وأما المرحلة الثانية فقد كانت مرحلة غير مباشرة ، وذلك أن يوحنا هو طور من أطوار هذا الاسم : يوحانس ، فجاء العرب فعربوا يوحنا وجعلوه يحيى .

فنحن إذن نرجّح ، لما فصّلناه من وجوه الرأى ، أن هذه الأسماء الثلاثة ، المختلفة فى ظاهرها ، ليست إلا اسماً واحداً فى حقيقتها ، يدل على راوية واحد بعينه .

٤

رواة مصلحون للشعر :

وليس هؤلاء الرواة — فيما يبدو لنا — طبقة خاصة قائمة بذاتها . فلم يكن من بين الرواة من نصب نفسه لإصلاح الشعر واختص بهذا الأمر واقتصر عليه . فقد يكون هؤلاء الرواة المصلحون للشعر : من الشعراء الرواة ، أو من رواة القبيلة ، أو من رواة الشاعر — وقد تحدثنا عنهم جميعاً — وقد يكونون من الرواة العلماء الذين سنتحدث عنهم بعد قليل . غير أن إصلاح الشعر موضوع قائم بذاته ، ومن هنا كان إفرادنا إياه فى طبقة خاصة توضيحاً للأمر وتفصيلاً لأقسامه .

وأول ما استرعى انتباهنا أننا رأينا رواة فى القرن الأول يصلحون بعض الشعر الأموى ؛ فمن ذلك أن شيخاً من هذيل — كان خالاً للفرزدق — دخل على رواة الفرزدق فوجدهم « يعدلون ما انحرف من شعره » ، ولما جاء رواةَ جرير وجدهم

كذلك « يقوّمون ما انحرف من شعره وما فيه من السِّناد »(١) .

ووجدنا الرواة يقولون(٢) : أخطأ ذو الرمة حيث يقول :

قَلائِصُ ما تَنفَكُّ إلا مُنَاخةً   على الخَسْفِ أوْ نَرْمِي بِها بلداً قَفْرا

ومن أجل ذلك غيّره بعض الرواة « ممن يريد أن يحسِّنَ قوله » فجعلوه : آلاً مناخة . وقالوا : إنما قاله ذو الرمة على هذا . وكان إسحق الموصلي ينشده : آلاً ، ويقول : نحتال لصوابه(٣) .

وقال الأصمعي(٤) : قرأت على خلف شعر جرير فلما بلغت قوله :

فيا لكَ يوماً خَيْرُهُ قَبْلَ شَرِّه   تَغَيَّبَ وَاشِيهِ وأقْصَرَ عاذِلُهْ

فقال خلف : ويله ، وما ينفعه خير يؤول إلى شر ؟ فقال الأصمعي له : هكذا قرأته على أبي عمرو . فقال : صدقت وكذا قاله جرير ، وكان قليل التنقيح مشرّد الألفاظ ، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا كما سمع . فقال الأصمعي : فكيف كان يجب أن يقول ؟ قال : الأجود له لو قال : فيالك يوماً خيره دون شره . فارْوِه هكذا ، فقد كانت الرواة قديماً تصلح من أشعار القدماء . فقال له الأصمعي : والله لا أرويه بعد هذا إلا هكذا .

فخلف إذن يعلم أن الرواة كانوا قديماً يصلحون من أشعار القدماء ! وهو في أثناء حديثه يسوّغ هذا الإصلاح إذا كان الشاعر « قليل التنقيح مشرد الألفاظ » . ومن هنا كان من العسير على الرواة ، فيما يبدو ، أن يجدوا في شعر شاعر يتروّى في شعره ، وينقحه ويهذّبه ، كزهير مثلاً ، ما يصلحونه له . ولذلك نرى من

---

(١) الأغاني ٤ : ٢٥٨ .

(٢) الموشح : ١٨٤ .

(٣) الموشح : ١٨٢ .

(٤) الموشح : ١٢٥ ، وانظر أيضاً العمدة ٢ : ١٩٢ — ١٩٣ ورد ابن رشيق على هذا التصحيح .

الأمثلة التى سنوردها أنها تدور على إصلاح شعر امرئ القيس وعَدِىّ ولبيد .

فقد قال امرؤ القيس[١] :

فلو أنَّها نَفْسٌ تموتُ سَوِيَّةً ولكنَّها نفسٌ تَساقَطُ أنْفُسَا

وقد وجد الرواة أن « سوِيّة » لا تقابل « تساقط أنفساً » ومن هنا أرادوا أن يعدلوا عن هذا العيب ، عيب فساد المقابلات ، فغيّروه ، وأبدلوا مكان « سوية » « جميعةً » لأنها فى مقابلة « تساقط أنفسا » أليقُ من « سوية » .

وكذلك قال امرؤ القيس[٢] :

فاليومَ أشْرَبْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ إثْماً مِنَ اللهِ .وَلا وَاغِلِ

فقالوا . « قد حذف الشاعر الإعراب ، وليس بالحسن » . وذهبوا إلى أنه يريد « أشربُ » فحذف الضمة ؛ ولذلك غيّروه ، فجعله بعضهم « فاليوم فاشرب » بصيغة الأمر ..

وقال امرؤ القيس أيضاً ينوح على أبيه[٣] :

رُبَّ رَامٍ من بَنِى ثُعَلٍ مُخْرِجٍ زَنْدَيْهِ مِنْ سُتَرِهْ[٤]

فلما أنشد الأصمعى البيت قال : أما علم أن الصائد أشدّ ختلاً من أن يُظهر شيئاً منه ؟ ثم قال « فكفيه » — إنْ كان لا بدّ — أصلحُ . قال المازنىّ : فالأصمعى أصلحه : كفيه .

وقال عدىّ بن زيد العبادىّ[٥] :

---

(١) المرزبانى ، الموشح : ٨٥ .

(٢) المصدر السابق : ٩٥ .

(٣) المصدر السابق : ٢٨ .

(٤) فى رواية : متلج كفيه ؛ أى : مدخل .

(٥) المصدر السابق : ٢٢ .

فَفَاجَأَها وقد جَمَعَتْ جُمُوعاً على أبوابِ حِصْنٍ مُصْلِتِينا[1]
فَقَدَّمَتِ الأَدِيمَ لِرَاهِشَيْهِ وَأَلْفَى قولَهَا كَذِباً ومَيْنا

وهذه هى الرواية الأولى، ولكن فى قوله « مَيْنا » سناداً ، ولذلك أراد المفضل الضبي أن يفرّ من هذا السناد فغيرها وجعلها « كذباً مُبِينا » .

وقال لبيد[2] :

أو مُذهَبٍ جُدَدٍ على أَلواحِهِ النَّاطِقُ المَبْرُوزُ والمَخْتومُ

والكلمة الأولى من عجز البيت ألفها ألفُ وصل، ولكنها فى هذه الرواية قُطِعت « فعدّل عن ذلك بعض الرواة استيحاشاً من قطع ألف الوصل » ، فغيروه ، وجعلوه :

« . . . . على أَلواحهن النَّاطِق . . . . »

وقال ابن مُقْبِل[3] : « إنى لأرسل البيوت عُوجاً فتأتى الرواة بها قد أقامتها » .

٥

رواة وضّاعون :

ومجال الحديث عن الوضع والنحل ذو سعة ، سنفرده فى بحث خاص ونفصّل القول فيه فى الباب التالى . غير أننا سنشير هنا إلى بعض الموضوعات التى كان

---

(١) يذكر خبر الزباء وغدرها بجذيمة الأبرش . الأديم: النطع . راهشيه : عرق جذيمة الأبرش.
(٢) لسان العرب (ذهب) .
(٣) مجالس ثعلب : ٤٨١ .

يكثر فيها وضع الشعر الجاهلي ونحله ، ثم نورد عليها أمثلة من الرواة الوضّاعين ومن الشعر الموضوع .

وربما كان أوسع موضوع وجد فيه الرواة الوضاعون مجالاً فسيحاً للوضع والنحل هو القصص وأحاديث السمر . وقد كان لخلفاء بني أمية وبني مروان ، وخاصةً معاوية وعبد الملك ، يعقدون مجالس خاصة للسمر والقصص . وقد مر بنا أن معاوية كان يستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها . . . . وأنه كان له غلمان مرتبون يقرأون عليه الأخبار والسير والآثار من دفاتر ، وكلوا بحفظها وقراءتها[١] . وكان أيضاً من محدّثي معاوية وقصاصيه : النخار بن أوس ، ولم يكتف معاوية به بل أمره ذات ليلة أن يبغيه محدثاً غيره . فلما قال له النخار : ومعي يا أمير المؤمنين تريد محدثاً ؟ أجابه معاوية : نعم ، أستريح منك إليه ومنه إليك[٢] . ولما رأى عمرو بن العاص شغف معاوية بالمسامرة وأحاديث مَن مضى أشار عليه باستدعاء عبيد بن شَرِيَّة الجرهمي من الرَّقَّة ، وقال له إن عبيداً من بقايا من مضى ، وإنه أدرك ملوك الجاهلية ، وهو أعلم من بقي آنذاك في أحاديث العرب وأنسابها ، وأوصفهم لما مرّ عليه من تصاريف الدهر . فاستدعاه معاوية ، فصار عبيد في وقت السمر سمير معاوية في خاصته من أهل بيته . ثم أمر معاوية أهل ديوانه وكتّابه أن يوقّعوا هذه المجالس وأحاديثها ويدونوها في الكتب[٣] .

ولم يكن القصص والسمر وقفاً على بلاط الخلفاء الأمويين ، بل شاعت عند جمهور العامة ، وانتشر القصاص في المساجد يخلطون الوعظ بالقصص والأحاديث وأخبار من مضى من العرب وغيرها من الأمم ، يسوقونها للعظة والعبرة وللتسلية والسمر معاً . وأخبار هؤلاء القصاص في مساجد الأمصار كثيرة مبثوثة في مظانها[٤] . إنما يعنينا أن نشير إلى أمرين ، الأول : أن المتصدرين في المساجد

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ٢ : ٥٢ .

(٢) البيان والتبيين ١ : ٣٣٣ .

(٣) أخبار عبيد بن شرية : ٣١٢ — ٣١٣ .

(٤) انظر مثلا : ابن سعد ٦ : ١٨٠ ، ٢٠٠ ، ٧/١ : ١٢١ ، ٧/٢ : ٣٩ . والبيان —

لتفسير القرآن الكريم كانوا آنذاك يستطردون فى تفسيرهم إلى ذكر أخبار العرب فى الجاهلية . وأخبار سائر الأمم فى قصص وأحاديث . فقد كان أبو على الأسوارى مثلاً يقص فى البصرة فى مسجد موسى بن سيار الأسوارى ستًّا وثلاثين سنة « فابتدأ لهم فى تفسير سورة البقرة فما ختم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظاً للسير ، ولوجوه التأويلات ، فكان ربما فسر آية واحدة فى عدة أسابيع كأن الآية ذُكِرَ فيها يوم بدر ، وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق فى ذلك من الأحاديث كثيراً . وكان يقص فى فنون من القصص ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك »[1] . والأمر الثانى أن هؤلاء القصاص لم يكونوا يكتفون بذكر الأخبار مجرّدة ، وإنما كانوا يتمثلون فى وعظهم ، ويستشهدون على قصصهم ، بشعر جاهلى[2] .

ويبدو أن هؤلاء القصاص قد بدأوا قصصهم من عهد مبكر إذ يُذْكر أن أول من قصّ كان الأسود بن سريع التيمى ، وكان من الصحابة ، وكان يقول فى قصصه فى الميت[3] :

فإنْ تَنْجُ منها تنجُ مِنْ ذِى عَظِيمَةٍ   وإلاَّ فإنِّى لَا إِخَالُكَ نَاجِيَا

فسرقه الفرزدق !

ولو وقفنا قليلا عند أخبار عبيد بن شَرِيَّة التى ذكرنا أنه ألقاها فى مجالس معاوية وسمره ، لوجدنا فيها كثيراً من الشعر الجاهلى . بعضه صحيح منسوب إلى

= والتبيين فى مواطن متفرقة كثيرة فى الجزء الأول ، منها من ص ٢٦٧ إلى ٣٦٩ ؛ وابن قتيبة ، المعارف : ٢٠٢ وغيرها .

(١) البيان والتبيين ١ : ٣٦٨ — ٣٦٩ .

(٢) انظر مثلا البيان والتبيين ١ : ١١٩ ، ففيه أن صالحاً المرى تمثل فى قصصه بالبيت :

فَبَاتَ يُرَوِّى أُصُولَ الفَسِيل   فَعَاشَ الفَسِيلُ ومَاتَ الرَّجُلْ

وتمثل الحسن فى قصصه بشعر لعدى بن الرعلاء الغسانى ، وتمثل عبد الصمد بن الفضل الرقاشى بأبيات للأسود بن يعفر .

(٣) المعارف (أوربا) : ٢٧٦ ، والبيان والتبيين : ٣٦٧ .

شعراء معروفين ، وهو محفوظ فى دواوينهم[١] . ولكن بعضه الآخر موضوع منحول لا شك فى وضعه ونحله ، من مثل الشعر الذى نسبه إلى يعرب بن قحطان[٢] ، وإلى عاد بن عوص[٣] ، وإلى ثمود وأخيه جديس[٤] ، وإلى عمليق وأخيه طسم[٥] ، وإلى حفدة عمليق وجديس[٦] . ومن مثل الشعر الذى قيل فى وفد عاد إلى مكة حينما ذهبوا يستسقون[٧] ، وما قاله لقمان فى نسوره السبعة[٨] . والأمثلة على ذلك كثيرة ، وهو كله شعر غثٌّ بارد وضع وضعاً لتزيين هذه القصص والخرافات . ويبدو أن هذا الشعر كان يكسب تلك القصص شيئاً من القيمة فى نفوس السامعين فيصبح موضع ثقتهم وتصديقهم ، بل لقد كان معاوية — فيما يورد كتاب أخبار عبيد — يسأل عبيداً : هل قيل فى بعض تلك الأخبار والقصص شعر ؟[٩] .

وإذا كان وضع الشعر ونحله فى مثل هذه القصص والخرافات أمراً لا غرابة فيه ، فإن العجب أن تصبح هذه القصص وما قيل فيها من شعر منحول مادةً تاريخية تضمّنتها كتب السير والمغازى والتاريخ . ومن أجل ذلك تصدّى الرواة العلماء لهذه الأشعار فى الكتب التاريخية ونبّهوا على زيفها ونحلها . فنحن نجد فى كتاب السيرة لابن إسحق كثيراً من هذا الشعر المنحول الموضوع — على كثرة ما فيه أيضاً من الشعر الصحيح الثابت عند العلماء والرواة — فاستدركه عليه ابن

---

(١) مثل العباس بن مرداس ، وأعشى بنى وائل ، وحسان بن ثابت ، وأمية بن أبى الصلت ، وامرئ القيس ، وعبيد بن الأبرص ، والنابغة الذبيانى — انظر لذلك : حسين نصار . نشأة التدوين التاريخى ص : ١٩ .

(٢) أخبار عبيد ص : ٣١٦ .

(٣) ص : ٣١٧ .

(٤) ص : ٣١٨ .

(٥) ص ٣١٨ — ٣١٩ .

(٦) ص : ٣٢٠ .

(٧) ص : ٣٤١ — ٣٥٣ .

(٨) ص : ٣٥٦ — ٣٦٦ .

(٩) انظر مثلا ص : ٣٢٧ و ص : ٣٣٥ .

هشام، وأسقط كثيراً منه وبيّن زيفه، وذكر نقْدَ العلماء له. وقد نبّه ابن إسحق نفسه على ذلك، فاعتذر عن إيراد مثل هذا الشعر المنحول بقوله[١]: « لا علم لى بالشعر، أُوتَى به فأحمله ». وقد عقّب ابن سلام على ذلك بقوله[٢]: « ولم يكن له ذلك عذراً، فكتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم أشعاراً كثيرة، وليس بشعر، إنما هو كلام مؤلّف معقود بقواف. أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حمل هذا الشعر؟ ومن أدّاه منذ آلاف من السنين، والله تبارك وتعالى يقول: « فقطع دابر القوم الذين ظلموا ». أى: لا بقية لهم. وقال أيضاً: « وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى ». وقال: فى عاد: « فهل ترى لهم من باقية؟ » وقال: « وقروناً بين ذلك كثيراً » وقال: « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم: قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله؟ »

ونقد ابنُ النديم ابنَ إسحق أيضاً فقال[٣] « ويقال: كان يُعمَل له الأشعار ويؤتَى بها ويُسأل أن يدخلها فى كتاب السيرة، فيفعل، فضمَّن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر ».

وكذلك فعل الواقدى فى مغازيه، فقد أدخل فيها بعض الشعر الموضوع، وإن كان نبّه على وضعه فى مواطن من كتابه، فقد ذكر أن عباد بن بشر قال فى مقتل كعب بن الأشرف قصيدة عدتها ثلاثة عشر بيتاً أولها[٤]:

صَرَخْتُ به فلم يَحفِلْ لِصَوْتِى ... وَأَوْفَى طالعاً من فوق قَصْرِ
فَعُدْتُ، فقال: مَن هذا المُنَادِى ... فقلتُ: أخوكَ عَبَّادُ بن بِشْرِ
فقال مُحَمَّدٌ أَسْرِعْ إلينا ... فقد جئنا لِتَشْكُرَنا وتَقْرِى

(١) طبقات فحول الشعراء: ٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الفهرست: ١٣٦.
(٤) المغازى: ١٤٩.

وهى – فى رأينا – أبيات غثّة مرذولة لا شعرَ فيها ؛ وهذا الأسلوب القصصى أشبه بأسلوب شاعر الربابة الذى يعدّد الحوادث تعداداً منغّماً على أسلوب خاص . وقد ذكر الواقدىّ بعد أن أوردها أن ابن أبى حبيبة قال : أنا رأيت قائل هذا الشعر . فقال ابن أبى الزناد : لولا قول ابن أبى حبيبة لظننت أنها ثبت ! !

ونحن لا نقصد إلى أن نستقصى جميع الموضوعات التى كانت مجالاً للوضع والنحل ، ولكننا نشير إلى موضوع آخر غير القصص وأحاديث السمر ، وهو : الأنساب . وللنسب عند العربى قيمة وخطر ، ولذلك كان حريصاً على كل ما يثبت أنه عربى صريح أو أنه من القبيلة التى ينتسب إليها حقّا . وكان بعض الرواة يتقربون إلى ذوى السلطان أو ذوى المال بوضع شعر منحول فيه إشارات إلى نسبهم . فمن ذلك أن قُضاعة من مَعَدّ ، ولكنها انتسبت إلى حمير ، « وزوّروا فى ذلك شعراً فقالوا[1] :

يَا أيُّهــا الدَّاعى ادْعُنَا وأبْشِرِ ... وكُنْ قُضَــاعِيًّا ولاَ تَنَزَّرِ

قُضاعَةُ بنُ مالكِ بن حِمْيَرِ ... النَّسَبُ المعروفُ غيرُ المُنْكَرِ »

ومن ذلك أيضاً أنهم صنعوا أبياتاً يذكرون فيها نسب جُذام ولخم وعاملة ، ونحلوها أبا سِمال الأسدىّ ، وهى[2] :

أبلغْ جُذاماً ولَخْمًا إن عَرَضْتَ بهم ... والقومُ ينفعُهُمْ عِلْماً إذا عَلِمُوا

والقومُ عامِلةُ الأثْرَيْنَ قُلْ لَهُمُ ... قَوْلاً سَتَبْلغهُ الوسَّاجَةُ الرُّسُمُ

لأنْتُمُ فى صَمِيمِ الحَقِّ إخْــوَتُنَا ... إذ يُخْلَقُ الماءُ فى الأرحام والنَّسَمُ

لم أرَ مثلَ الذى يأْتُونَ جاء بهِ ... قومٌ يُلَدُّ على مخنوسهم خُصَمُ

(١) أبو عبد الله المصعب الزبيرى ، نسب قريش : ٥ .
(٢) المصدر السابق : ٩ .

وقد عقب أبو عبدالله المصعب الزبيرى بعد أن أورد هذه الأبيات بقوله: «وقال بعض من يعلم: لما قدم خالد بن عبد الله القسرى أميراً على العراق، ومعه قوم من جند الشأم، فيهم من لخم وجُذَام، فأهلت لهم بنو أسد بن خُزَيمة، فقالوا: أنتم قومنا! وأحدثوا هذا الشعر، إلا بيتاً منه: لم أر مثل الذى يأتون جاء به — فإنه قديم لا يُدْرَى لمن هو؟ ولا من عُنِىَ به».

وموضوع ثالث — غير القصص والأسمار وغير الأنساب — كان مجالاً واسعاً أيضاً للوضع والنحل هو أخبار أيام العرب فى الجاهلية. وهو موضوع يتصل بسابقيه اتصالاً وثيقاً، وتكاد ثلاثتها تكون موضوعاً واحداً متصلاً ذا فروع مختلفة. فمن أمثلة وضع الشعر فى الأخبار ونحله للشعراء الجاهليين ليكون ذلك سنداً للخبر الذى يساق — ما أورد أبو عبيدة فى حديث البراجم قال[1]: قال عوف بن عطية التيمىّ يعيِّرُ لقيط بن زُرَارة أَسْرَ بنى عامر معبدَ بن زُرارة وفرارَ لقيط عنه:

هلَّا فوارِسَ رَحْرَحَانَ هجَوْتَمْ ... عُشَرًا تَنَاوَحُ فى سَرارةِ وادِ
لا تأْكلُ الإبلُ الغِراثُ نَبَاتَهُ ... ما إنْ يقُومُ عِمادُه بِعِمادِ
هلَّا كَرَرْتَ على ابن أُمكَ مَعْبَد ... والعَامِرِىُّ يقُودُه بِصِفَادِ
وَذَكَرْتَ من لَبَنِ المُحَلَّقِ شَرْبَةً ... والخيلُ تعْدُو فى الصعيدِ بَدَادِ[2]

قال أبو عبيدة: وبقية هذه القصيدة مصنوعة.

وقال أبو عبيدة أيضاً فى يوم النِّسَار[3]: وأنشدونى فى تصداق ذلك (أن الأسود كان رئيس الرِّباب يوم النسار) قول عوف بن عطية بن الخَرِع التيمى:

---

(١) النقائض: ٢٢٨.

(٢) العشر: شجر كبير له شوك. تتناوح: تتقابل. الغراث: الجياع. المحلق: إبل سمتها على هيئة الحلقة على أفخاذها. بداد: متفرقة.

(٣) النقائض: ٢٤٠.

ما زال حَيْنُكُمْ وَنَقْصُ حُلُومِكُمْ حَتَّى بَلَوْتُمْ كَيفَ وَقْعُ الأَسْوَدِ
وقبائلُ الأَحْلافِ وسْطَ بُيُوتِكُمْ يعْلُون هَامَكُمُ بكُلِّ مُهَنَّدِ

قال بنو أسد وغطفان : هذه مصنوعة ، لم يشهد الأسودُ النِّسارَ .

وحسبنا ما قدمنا فى هذا الموضوع ، ولنا إليه عودة فى الباب التالى عند حديثنا المفصل عن الشك فى الشعر الجاهلى .

٦

رواة علماء :

وهذا العنوان الفرعى لا ينفى العلم عن سائر طبقات الرواة التى قدمناها ، فقد كان بعض الشعراء الرواة علماء ، وكان بعض رواة الشاعر علماء ، وكان بعض رواة القبائل علماء ، وكان بعض الرواة المصلحين للشعر بل بعض الرواة الوضاعين علماء . غير أن علم أكثر رواة الطبقات الثلاث الأولى كان محدوداً محصوراً فى شعر شاعر بعينه أو فى شعر قبيلة بعينها ، وعلم أكثر رواة الطبقة الخامسة كان يدور على الموضوعات التى ذكرناها من قصص وأشعار وما يشبهها . ومن هنا قصدنا بهذا العنوان أن يدل على طبقة خاصة متميزة من الطبقات التى أشرنا إليها . ومدار تميزها وتفردها على أنها اتخذت من الشعر موضوعاً علميًّا ، تدرسه دراسة ، وتأخذه عن شيخ أو أستاذ ، فى مدرسة من مدارس علم الشعر وروايته آنذاك ، ونعنى بها تلك المجالس والحلقات التى كانت تعقد فى المساجد أو منازل الشيوخ ، ويجتمع فيها التلاميذ من العلماء والمتعلمين ، يتحلقون حول شيخ شُهد له بالحفظ والرواية ومعرفة كلام العرب والإحاطة الواسعة بشعرهم ، وذلك بالاطلاع على ما سبق عصره من جهود الرواة فى حفظ الشعر وتدوينه . وتكون وسيلة الدرس مزدوجة تقوم على أمرين : على قراءة ديوان الشاعر

أو ديوان القبيلة والتلاميذُ يتابعون القراءة فى نسخ بين أيديهم أو يستمعون لمن يقرأ ، وعلى ما يلقيه الأستاذ الشيخ من تصحيح لبعض الأخطاء ، أو ذكرٍ لوجوه الروايات ، أو تفسير لغريب الألفاظ ، أو شرح للمعنى العام وذكر جوّه التاريخى وحوادثه وأخباره . وقد يضاف إلى هذين الرحلةُ إلى البادية أو الاستماع إلى من يفد منها من الأعراب .

ويبدو أن هذه الطبقة من الرواة العلماء — بهذا التعريف الذى قدمناه والتحديد الذى قيدناه به — لم تكن موجودة قبل مطلع القرن الثانى الهجرى ، وربما كان أولَ شيوخها الذين مهدوا الطريق لمن تبعهم فكانوا هم الرواد السابقين : أبو عمرو بن العلاء (المتوفى سنة ١٥٤) ، وحماد الراوية (المتوفى سنة ١٥٦) . ومن هنا كان قول ابن سلاّم[١] : « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها : حماد الراوية » . ومن هنا أيضاً قالوا[٢] : « كان خلف الأحمر أول من أحدث السماع بالبصرة ، ذلك أنه جاء إلى حماد الراوية فسمع منه ، وكان ضنيناً بأدبه » . وقد أخذ عن هذين العالمين : أبى عمرو وحماد — سائرُ من نعرف من شيوخ العلم والرواية . كخلف الأحمر ، والمفضل ، والأصمعى ، وأبى عبيدة ، وأبى عمرو الشيبانى . وأخذ عن هؤلاء من تلاميذهم : كابن الأعرابى ، ومحمد بن حبيب ، وأبى حاتم السجستانى . ثم أخذ عن هؤلاء السكرى وثعلب وأضرابهما .

وقد انقسم هؤلاء الرواة العلماء إلى مدارس ، فكانت ثمة مدرسة البصرة ، ومدرسة الكوفة ، ومدرسة المدينة ، ومدرسة بغداد . وكان تلاميذ كل مدرسة وعلماؤها يتعصبون لمدرستهم ولشيوخهم ، ويوثّقون روايتهم ، ويجرّحون شيوخ المدرسة الأخرى ، ويضعّفون روايتهم ، ويتهمونهم بالوضع والنحل والكذب . وسنشير إلى هذه المدارس والخلاف بين شيوخها وتلامذتها ، وما نتج عن هذا الخلاف من طعن وتجريح وتضعيف — فى فصل تالٍ .

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ٤٠ .

(٢) أبو البركات الأنبارى ، نزهة الألباء : ٣٧ .

ولو اقتصرنا فى إشارتنا إلى هؤلاء الرواة العلماء على كتاب واحد هو طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى — لوجدنا أن هذه الطبقة مميزة تمييزاً واضحاً يفرقها عن غيرها من الرواة ؛ فلا يكاد ابن سلام يذكر هذه الطبقة إلا يصفها بأنها « أهل العلم » . فمن ذلك قوله[1] : « وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شىء منه . . . » ويقول[2] : « وللشعر صناعة يعرفها أهل العلم » ، و « كذلك الشعر يعرفه أهل العلم به » . ويقول[3] : « وكان أبو عبيدة والأصمعى من أهل العلم ، وأعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة : المفضل » . ويقول[4] : « ثم إنا اقتصرنا بعد الفحص والنظر والرواية عمن مضى من أهل العلم » . ويقول[5] : « أجمع أهل العلم أن النابغة لم يقل هذا » . ويقول[6] : . « ولقد أخبرنى أهل العلم من غطفان » . ويقول[7] : « كيف يروى خالد (بن كلثوم) مثل هذا وهو من أهل العلم ؟ » ويقول[8] : « ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه قلة ما بقى بأيدى الرواة المصححين لطرفة وعبيد » .

وقد يقابل فى الجملة الواحدة بين هؤلاء الرواة المدققين من أهل العلم وبين الرواة عامةً من غير وصف يقيدهم . فهو يقول[9] : « . . . ثم كانت الرواة

---

(١) ص : ٦ .

(٢) الصفحة السابقة .

(٣) ص : ٢١ .

(٤) ص : ٤٢ .

(٥) ص : ٥٠ .

(٦) ص : ٩٢ .

(٧) ص : ١٢٣ .

(٨) ص : ٢٣ ..

(٩) ص : ٣٩ — ٤٠ .

بعدُ ، فزادوا فى الأشعار التى قيلت وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة وما وضعوا ، ولا ما وضع المولَّدون . . . » ويقول[1] : « وقد اختلف الناس والرواة فيهم (أى فى الشعراء) ، فنظر قوم من أهل العلم بالشعر ، والنفاذ فى كلام العرب والعلم بالعربية ، إذا اختلف الرواة ، فقالوا بآرائهم . . »

(١) ص : ٢١ .

الفصل الثالث

الإسناد فى الرواية الأدبية

١

بين الحديث والأدب :

لا يملك الباحث ، حين يتعرض للحديث عن الإسناد فى الرواية الأدبية ، إلا أن يشير إلى الإسناد فى رواية الحديث النبوى . وقد أشار أكثر الباحثين من المحدثين الذين أرّخوا الأدب العربى إلى العلاقة فى الإسناد وطريقة التحمّل بين الروايتين[1] . وقد ذهبوا إلى أن رواة الأدب قد تأثروا رواةَ الحديث فى طريقة الإسناد ، ونسجوا على منوالهم . ولا نحب هنا أن نعيد أقوالهم ولا أن نشقق القول فى هذا الأمر بعينه ، ولكننا مع ذلك نكاد نذهب مذهباً يخالف ما ذهبوا إليه — فنحن نرى ، فيما يبدو لنا ، أن الرواية الأدبية أصل قائم بذاته ، وقد وجدت عند العرب منذ الجاهلية ، فكان علماء النسب الجاهليون ومن أدرك منهم الإسلام يأخذون علمهم بالنسب عن شيوخ هذا العلم ممن تقدمهم أو عاصرهم ، وكذلك كان رواة الشعر والأخبار الجاهلية .

وقد مرت بنا بعض الأمثلة على النسابين ورواة الأخبار والأشعار ، وستمر بعد صفحات أمثلة أخرى ، وربما كان أوضح ما يمثل تلقّيَ الشعر وأخْذَه ما يروى من أن عمر بن الخطاب تمثل بشعر ثم قال لفرات بن زيد الليثى[2] :

---

(١) انظر مثلا : مصطفى صادق الرافعى ، تاريخ آداب العرب ١ : ٢٩٥ — ٢٩٨ .

(٢) الإصابة ٥ : ٢١٦ .

أتدرى من يقوله ؟ فقال فرات : لا أدرى يا أمير المؤمنين . قال عمر : هذا شعر أخيك قسامة بن زيد . قال : ما علمته . قال : بلى ، هو أنشدنيه وعنه أخذته .

والرواية سبيل طبيعية فى كل عصر وعند كل أمة ، حتى حين تنتشر الكتابة وتذيع . بينما كانت رواية الحديث أمراً طرأ على العرب بعد الإسلام . فإن لم تكن رواية الحديث من حيث الطور الزمنى متأثرة برواية الأدب وفرعاً منها ، فالروايتان أصلان انبثقا عن الحاجة الملحّة انبثاقاً طبيعياً .

وتفصيل ذلك أننا لا نعرف — على وجه الضبط واليقين — متى بدأ الإسناد فى رواية الحديث ، فنحن نرى مثلاً أن بعض التابعين لم يكن يُسند الحديث حين يحدّث .

فقد روى عاصم الأحول (المتوفى سنة ١٤٢ هـ) عن ابن سيرين (المتوفى سنة ١١٠ هـ) قال : لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، حتى وقعت الفتنة ؛ فلما وقعت الفتنة نظروا مَنْ كان من أهل السنّة أخذوا حديثه ، ومن كان من أهل البدَع تركوا حديثه[١] .

وقال حماد بن سلمة[٢] : كنا نأتى قتادة (هو قتادة بن دعامة السدوسى المتوفى سنة ١١٧) فيقول : بلغنا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وبلغنا عن عمر ، وبلغنا عن علىّ ، ولا يكاد يسند . فلما قدم حماد بن أبى سليمان البصرة جعل يقول : حدثنا إبراهيم وفلان وفلان ، فبلغ قتادة ذلك فجعل يقول : سألت مطرّفاً ، وسألت سعيد بن المسيب ، وحدّثنا أنس بن مالك ، فأخبر بالإسناد .

وقال ابن جريج[٣] : إن عطاء حدث بحديث فقلت له : أتعزيه إلى أحد ؟ أى أتسنده ؟

---

(١) ابن حجر ، لسان الميزان (الهند) ١ : ٧ . وراجع رأى كايتانى ، المستشرق الإيطالى الذى ضمنه فى كتابه : السنويات الإسلامية — Annale Dell Islam وانظر كتاب الأستاذ أمين الخولى عن مالك ٣ : ٥٥٨ — ٥٦٧ .

(٢) ابن سعد ٧/٢ : ٢ .

(٣) الزمخشرى ، الفائق ٢ : ١٤٧ .

ولكننا نرى أن علماء القرن الثانى كانوا يسندون الحديث : يرفعون بعضه ، ويرسلون بعضه . ومما تجدر الإشارة إليه أن كثيراً من رواة الأدب كانوا كذلك من رواة الحديث ، وإن كانت شهرتهم بالرواية الأدبية قد طغت على شهرتهم برواية الحديث وغطت عليها . فالرواية عند هؤلاء العلماء فى القرن الثانى ، سواء أكانت رواية حديث أم رواية أدب وأخبار ، كانت ذات إسناد يرتفع حيناً إلى الصحابى وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم — فى الحديث ، ويرتفع إلى من تدور عنه فى الجاهلية أو إلى رجال يروونها ممن شهدوا الجاهلية وشهدوا ما يروون بخاصة — فى الأدب والأخبار ، وكثيراً ما يكون الإسناد مرسلاً منقطعاً فى الروايتين كلتيهما .

ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نقول إن المتأخرين الذين كتبوا فى علوم اللغة والأدب قد احتذوا مناهج المحدّثين والفقهاء ، وقلدوا علوم الحديث والفقه ، وذلك بعد أن نضجت علوم الحديث والفقه وأرسيت أصولهما وقواعدهما ، وعبّدت سبلهما وطرائقهما ، وذُهب فيهما فى التحقيق والتدقيق — فى السند والمتن — مذاهب بعيدة[1] ونجد مثال ذلك عند أبى البركات ابن الأنبارى (المتوفى سنة ٥٧٥هـ) حين يقول فى كتابه « الإنصاف فى مسائل الخلاف »[2] : « فإن جماعة من الفقهاء المتأدبين ، والأدباء المتفقهين المشتغلين علىّ بعلم العربية بالمدرسة النظامية . . . سألونى أن ألخص لهم كتاباً لطيفاً ، يشتمل على مشاهير المسائل الخلافية بين نحويى البصرة والكوفة ، على ترتيب المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة » .

وعند رجل كالسيوطى الذى يقول عن علم الأدب وتأليفه فيه[3] : « هذا

(١) قال الزركشى فى أول قواعده : كان بعض المشايخ يقول : العلوم ثلاثة : علم نضج وما احترق وهو علم النحو والأصول ، وعلم لانضج ولا احترق وهو علم البيان والتفسير ، وعلم نضج واحترق وهو علم الفقه والحديث . انظر : السيوطى ، الأشباه والنظائر فى النحو ١ : ٥ .

(٢) ص : ٣ .

(٣) السيوطى ، المزهر ١ : ١ .

علم شريف . . . حاكيت به علوم الحديث فى التقاسيم والأنواع » . ويقول كذلك[١] : « واعلم أن السبب الحامل لى على تأليف ذلك الكتاب الأول أنى قصدت أن أسلك بالعربية سبيل الفقه فيا صنفه المتأخرون فيه وألفوه من كتب الأشباه والنظائر » .

فإذا كان الأمر على ما ذهبنا إليه ، فلمَ التزمتْ روايةُ الحديثِ الإسنادَ فى الغالب الأعمّ ، ولم تلتزمه الرواية الأدبية إلا فى القليل النادر ؟ ونحن نقصد بهذا التساؤل الإسناد المتصل المرفوع ، لا الإسناد المرسل المنقطع ، إذ أن هذا الضرب الثانى من الإسناد يكاد يكون ملتزماً فى رواية الأدب التزاماً لا إخلال فيه . فجميع ما يرويه علماء اللغة والأدب فى القرن الثالث والرابع ذو إسناد مرفوع إلى علماء القرن الثانى من أمثال أبى عمرو بن العلاء وحماد الراوية وخلف الأحمر والمفضل وأبى عمرو الشيبانى وابن الكلبى والأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد ، أو الأعراب الذين عاصرهم هؤلاء العلماء وأخذوا عنهم ، ولكن هذا الإسناد المرفوع إلى هؤلاء لا يكاد يصل إليهم حتى يقف عندهم ثم لا يعدوهم — إلا فى القليل النادر مما سنعرضه فى هذا الفصل بعد صفحات . ومن هنا كان هذا الإسناد الملتزم فى الرواية الأدبية إسناداً مرسلاً أو منقطعاً لأنه ، فى أكثره ، رُوِىَ عن علماء لم يشهدوا العصر الجاهلى ، ولم يأخذوا الشعر من الشعراء الجاهليين أنفسهم .

ويبدو لنا أن مردّ التزام الإسناد المتصل فى رواية الحديث إلى أمرين : أمر داخلى ، وآخر خارجى . أما الداخلى فمبعثه من نفس الراوى ، ومصدره شعوره بالتحرج الدينى ، وذلك أنه ينقل كلاماً من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى قال فى حديثه المشهور : « من كذب علىّ فليتبوأ مقعده من النار[٢] » . وفى الإسناد المتصل ما يجعل المحدث يطمئن إلى أن غيره من شيوخه وشيوخ

---

(١) السيوطى : الأشباه والنظائر فى النحو ١ : ٣ .

(٢) انظر نص الحديث كاملا وطرقه وتخريجه فى : الخطيب البغدادى (تقييد العلم ص ٢٩ — ٣٢) وهوامش الصفحات .

شيوخه ثم التابعين والصحابة يشتركون معه فى تحمل تبعة هذا الحديث ونقله ، وأنه لا يستقل وحده بحمل هذا العبء ، وأن تبعته لا تعدو النقل الأمين لما سمعه عن شيخ ثقة ثبت .

وأما الأمر الخارجى فرجعه إلى سامعى الحديث من المحدّث ، وذلك أن الحديث يتضمن جزءاً كبيراً من السنّة ، أو هو السنة كلها ، وهو من أجل ذلك مصدر من مصادر التشريع الإسلامى ، بل إنه هو المصدر الثانى الذى يتلو فى القيمة كتاب الله ، ولذلك كان من التدقيق والتحقيق ، ومما يبعث الطمأنينة فى نفوس السامعين ويوحى إليهم بالثقة فى حديث المحدث — أن يصل بين عصره وعصر الرسول الكريم بسلسلة متصلة من الرواة المحدّثين كلهم يشهد أنه سمعه ممن قبله حتى يصل الإسناد إلى الصحابى فالرسول .

من أجل هذا كله رأينا كثيراً من الصحابة ومن التابعين يتحرجون من رواية الحديث ، بل لقد ورد عنهم نهى صريح عن التحديث والإكثار منه . فقد شيع عمر بن الخطاب جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا ذاهبين إلى الكوفة ، ثم أوصاهم بقوله[1] : « إنكم تأتون أهل قرية لهم دوىٌّ بالقرآن كدوىّ النحل ، فلا تصدُّوهم بالأحاديث فتشغلوهم ، جرِّدوا القرآن ، وأقلُّوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، امضوا وأنا شريككم » . وقال شعبة بن الحجاج (توفى سنة ١٦٠ وله ٧٥ سنة)[2] « ما أنا مقيم على شىء أخاف أن يدخلنى النار غيره » — يعنى الحديث . ومن أجل هذا أيضاً كان كثير من المحدّثين من الصحابة والتابعين يتخفّفون من أعباء هذا الحرج وقسوته باللجوء إلى الشعر وإنشاده . قال مطرِّف[3] : « خرجت مع عمران بن حصين (صحابى توفى سنة ٥٢) من الكوفة إلى البصرة فما أتى علينا يوم إلا ينشدنا فيه شعراً ، ويقول :

---

(١) ابن سعد ٦ : ٢ .

(٢) ابن سعد ٢/٧ : ٣٨ .

(٣) المصدر السابق٤/٢ : ٢٦ .

إن لكم فى المعاريض لمندوحة عن الكذب » .[١] وقال روح بن عبادة[٢] : كنت عند شعبة ، فضجر من الحديث ، فرمى بطرفه ، فرأى أبا زيد سعيد بن أوس فى أخريات الناس فقال : يا أبا زيد :

واسْتَعجَمَتْ دارُ مَيٍّ ما تُكلِّمُنا والدارُ لو كَلَّمَتْنا ذاتُ أخْبارِ

إلىّ يا أبا زيد . فجعلا يتناشدان الأشعار . فقال بعض أصحاب الحديث لشعبة: يا أبا بسطام نقطع إليك ظهور الإبل لنسمع منك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فتدعنا وتقبل على الأشعار ! ! قال : فرأيت شعبة قد غضب غضباً شديداً ثم قال : يا هؤلاء ، أنا أعلم بالأصلح لى ، أنا والذى لا إله إلا هو فى هذا أسلم منى فى ذاك .

ومن أجل هذا أيضاً كان الأصمعى يتحرج فى تفسير شىء ورد فى القرآن الكريم أو الحديث ولذلك « لم يرفع من الحديث إلا أحاديث يسيرة »[٣] .

ونحن نرى من هذه الأخبار الثلاثة الأخيرة أن القوم آنذاك لم يكونوا يرون فى رواية الشعر ما يرونه فى رواية الحديث ، فالشعر آخِرَ الأمر شأن من شؤون هذه الدنيا لا يتصل بالدين ولا بشخص الرسول ولا يمتُّ بسبب إلى التشريع . فهم إذن فى حلٍّ إذا وجدوا فيه سعة يستريحون فيها من عناء التضييق الذى كانوا يأخذون به أنفسهم فى الحديث .

فهل نحن إذن على صواب إذا ذهبنا إلى أنه ليس فى الرواية الأدبية للشعر الجاهلى والأخبار الجاهلية إسناد متصل؟ لعلنا لا نستطيع أن نقطع فى هذا السؤال

---

(١) عمران بن حصين هذا هو الذى يقول : والله إن كنت لأرى أنى لو شئت لحدثت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يومين متتابعين ، ولكن بطأنى عن ذلك أن رجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعوا كما سمعت ، وشهدوا كما شهدت ، ويحدثون أحاديث ما هى كما يقولون ، وأخاف أن يشبه لى كما شبه لهم .

(٢) نزهة الألباء: ٨٩ — ٩٠ ، وانظر أيضاً ابن سعد ٢/٧ : ٣٨ .

(٣) أبو الطيب اللغوى ، مراتب النحويين ورقة: ٧٤ .

بجواب حاسم قبل أن نعرض بعض ما لدينا من أخبار وروايات فيها إسناد متصل إلى الجاهلية وسنكتفي الآن بالعرض المجرد ثم نعقب على ذلك بما يبدو لنا من رأى.

وهذه الأخبار والروايات قسمان كبيران ، أولهما : يتصل بالشاعر الجاهلي نفسه ، وثانيهما : يتصل بهؤلاء العلماء الرواة الذين عاشوا في القرن الثاني وأخذ عنهم العلماء بعد ذلك شعر الجاهلية وأخبارها .

٢

أما القسم الأول فهي أخبار مسندة يرتفع إسنادها إلى الشاعر الجاهلي نفسه ، وأكثر الشعراء الجاهليين حظاً من هذا الضرب من الروايات المسندة هو حسان ابن ثابت ، وربما كان مردُّ ذلك إلى صلة حسان برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فروى بعض الصحابة شعره وأخباره . ونحن نجد مثل هذا الضرب من الأسانيد المرفوعة إلى الصحابة عن حسان في ترجمته في الأغاني[١] ، كالذي ترويه أم المؤمنين عائشة[٢] ، وأختها أسماء بنت أبي بكر[٣] . أما الأحاديث المرفوعة في إسناد متصل إلى حسان نفسه فهي أقل من ذلك عدداً . ومن أمثلتها ما جاء في إسناد متصل أوله أبو الفرج الأصفهاني وآخره سعيد بن زرارة عن حسان بن ثابت ، حيث يذكر ما يدل على أنهُ ولد قبل الهجرة بنحو من ستين سنة وأنه كان غلاماً يفعة ابن سبع سنين أو ثمان حينما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم[٤] .

وثمة أخبار أخرى ذات إسناد منقطع ولكنها تنتهي بحسان يروى فيها خبراً عن

---

(١) ج : ٤ ، ص ١٣٤ — ١٧٠ .
(٢) المصدر السابق : ١٤٣ و ١٤٦ .
(٣) المصدر السابق : ١٤٤ .
(٤) المصدر السابق : ١٣٥ .

نفسه وعن غيره من شعراء الجاهلية . ومن أمثلة ذلك « . . . حدثنا الزبير بن بكار قال ، قال أبو غُزيَّة ، قال حسان بن ثابت : قدم النابغة المدينة فدخل السوق فنزل عن راحلته ثم جثا على ركبتيه ، ثم اعتمد على عصاه ، ثم أنشأ يقول :

عَرَفْتُ مَنَازِلاً بِعُرَيْتِناتٍ فَأَعْلَى الجِزْعِ لِلْحَيِّ المُبِنِّ

فقلت : هلك الشيخ ، ورأيته قد تبع قافية منكرة . . . فما زال ينشد حتى أتى على آخرها ، ثم قال : ألا رجلٌ ينشد ؟ فتقدم قيس بن الخطيم فجلس بين يديه وأنشد :

أتَعْرِفُ رَسْمًا كاطرادِ المَذَاهِبِ

حتى فرغ منها ، فقال : أنت أشعر الناس يا ابن أخي . قال حسان : فدخلني منه . وإني في ذلك لأجد القوة في نفسي عليهما ، ثم تقدمت فجلست بين يديه ، فقال : أنشد فوالله إنك لشاعر قبل أن تتكلم . قال : وكان يعرفني قبل ذلك ، فأنشدته . فقال : أنت أشعر الناس »[1].

ومن أمثلته أيضاً « . . . يوسف بن الماجشون عن أبيه قال ، قال حسان بن ثابت : أتيت جَبَلَةَ بن الأيهم الغساني وقد مدحته ... » ثم يذكر لقياه النابغة الذبياني وعلقمة بن عبدة هناك وإنشادهما شعراً لهما ثم إنشاد حسان شعراً مدح فيه الغساسنة[2] .

وثاني هؤلاء الشعراء هو الأعشى ، فقد عثرنا على ثلاث روايات مرفوعة كلها إليه ، الأولى : قدمنا الإشارة إليها حين تحدثنا عن رواة الشاعر ، فقد مر بنا أن للأعشى ثلاثة رواة — أو لعله راوية واحد اختلفوا في اسمه فأوردوا له ثلاثة أسماء فهو حيناً : عبيد ، وحيناً : يحيى بن متى ، وحيناً ثالثاً : يونس بن متى . وقد كان

---

(١) الأغاني ٣ : ٨ — ٩ .
(٢) الأغاني (ساسي) ١٤ : ٢ — ٧ .

هذا الراوية من المعمَّرين ، فروى عنه جميع الأخبار التى رواها عن الأعشى راويةٌ واحد بعينه هو سماك بن حرب . ثم روى عن سماك عدةُ رواة[١] .

فعبيد هذا يروى عن الأعشى خبر قدومه على النعمان وإنشاده بين يديه قصيدته[٢] :

إِلَيْكَ أَبَيْتَ اللَّعْنَ كانَ كَلالُهَا   تَرُوح مَعَ اللَيْلِ التِّمامِ وَتَغْتَدِى

وهو أيضاً يروى عن الأعشى أنه سأله تفسير كلمات فى أحد أبياته وذلك قوله[٣] :

وَمُدَامَةٍ مِمَّا تُعَتِّقُ بابِلٌ   كَدَمِ الذَّبِيحِ سَلَبْتُها جِرْيَالَها

فلما سأله : ماذا أردت بقولك ؟ قال : شربتُها حمراء وبلتُها بيضاء .

وهو كذلك يوازن بين الأعشى ولبيد فيقول[٤] : كان الأعشى قدرِيّاً وكان لبيد مُثْبِتاً . قال لبيد :

مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الخَيْرِ اهْتَدَى   نَاعِمَ البَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلّ

وقال الأعشى :

اسْتَأْثَرَ اللهُ بالوَفاءِ وبالْـ   ـعَدْلِ وَوَلَّى المَلَامَةَ الرَّجُلا

فلما سئل : من أين أخذ الأعشى مذهبه ؟ قال : من قبل العِباديين نصارى الحيرة ، كان يأتيهم يشترى منهم الخمر فلقَّنوه ذلك .

---

(١) انظر ما تقدم عن رواة الشاعر فى الفصل الثانى من هذا الباب .

(٢) ابن قتيبة . الشعر والشعراء ١ : ٢١٥ .

(٣) الشعر والشعراء ١ : ٢١٥ – ٢١٦ ، وانظر أيضاً الجواليقى : المعرب ص : ٤٦ ، والبغدادى : الخزانة ٤ : ١٩٧ .

(٤) الأغانى ٩ : ١١٢ .

والرواية الثانية ماجاء فى شرح ديوان الأعشى للآمدى [١] : « قال أبو الحر : وجدت على ظهر كتاب المجاز لأبى عبيدة بخط أبى عسَّان رفيع بن سلمة المعروف بدَماذ [٢] صاحب أبى عبيدة ، وحدَّثنا به السكرى بعدُ حديثاً يرفع إلى الأعشى أنه قال ... خرجت أريد قيس بن معديكرب بحضرموت ، فأضللت فى أوائل أرض اليمن لأنى لم أكن سلكت ذلك الطريق ، فلما أضللت أصابنى مطر ، فرميت ببصرى كل مرمى أطلب لنفسى مكاناً ألجأ إليه ، فوقعت عينى على خباء من شعر فقصدت نحوه فإذا أنا بشيخ ... » ثم يمضى فى قصة طويلة خلاصتها أنه أنشد هذا الشيخ مطلعى قصيدتين من قصائده فإذا بالشيخ ينادى ابنتين له فتنشدان القصيدتين كاملتين لا تخرمان منهما حرفاً ، فلما سقط فى يده وتحير وغشته رعدة قال له ذلك الشيخ : « لِيُفْرِخْ رُوعك أبا بصير أنا هاجسك مسحل بن أثاثة الذى ألقى على لسانك الشعر » . فسكنت نفسه [٣] !

والرواية الثالثة حدَّث بها أبو اليقظان قال [٤] حدثنى جويرية عن يشكر

---

(١) انظر السيوطى ، شرح شواهد المغنى : ٣٢٧ .

(٢) فى الأصل : « ديار » مكان « دماذ » وهو خطأ ، انظر الزبيدى ، طبقات اللغويين ص : ١٩٨ .

(٣) حديثنا هنا مقصور على الإسناد وحده — وأسطورية المتن واستحالته فى هذه الرواية والرواية التالية لا تنفى صحة الإسناد . فلقد كانوا فى الجاهلية يعتقدون بالرئى وبشيطان الشاعر ، وذكر الأعشى نفسه شيطانه مسحلا فى شعره (انظر الجاحظ ، الحيوان ٦ : ٢٢٥ - ٢٢٧ ، وجمهرة أشعار العرب : ٤٩ ، والموشح للمرزبانى : ٤٩) وجعلوا لكل شاعر صاحباً من الجن سموه (جمهرة أشعار العرب : ٢٣ - ٤٥) ولم يكتفوا بشعراء الجاهلية بل ذهبوا إلى أن شعراء الإسلام كانوا كذلك . فهذا جرير يعبث به صاحبه من الجن من زاوية البيت ويحدثه ويلقى إليه شعراً (الأغانى ٨ : ٦٩) ، والفرزدق يأتى جبلا بالمدينة وينادى بأعلى صوته : أجيبوا أخاكم أبا لبينى (النقائض : ٥٤٧) ، وهؤلاء الجن يجاوبون ذا الرمة ونصيباً وجريراً (الموشح : ١٦٩ — ١٧٠) وانظر أخبار بعض الصحابة والجن فى ابن سعد ٧ / ١ : ٤٨ ، ٧ / ٢ : ١١٦ ، والفائق ٣ : ١٨١ ثم انظر أخبار الجن ومناقشة هذه الأخبار فى الجاحظ ، الحيوان ٦ الحيوان ٦ : ١٦٤ — ٢٤٢ .

(٤) الأغانى ٩ : ١٥٦ .

ابن وائل اليشكرى — وكان من علماء بكر بن وائل وولد أيام مسيلمة فجيء به إليه فمسح على رأسه فعمى — قال جويرية : فحدثنى يشكر هذا قال : حدثنى جرير بن عبد الله البجلى (صحابى) قال : سافرت فى الجاهلية ، فأقبلت على بعيرى . . . فإذا قوم مشوّهون عند الماء فقعدت . فبينا أنا عندهم إذ أتاهم رجل أشد تشويهاً منهم فقالوا : هذا شاعرهم . فقالوا له : يا فلان أنشد هذا فإنه ضيف . فأنشد « ودع هُرَيْرَةَ إن الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ » . فلا والله ما خرم منها بيتاً واحداً حتى انتهى إلى هذا البيت .

تَسْمَعُ لِلْحَلْيِ وَسْوَاساً إذا انْصَرَفَتْ كَمَا اسْتَعَانَ بِرِيحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ[1]

فأعجبت به . فقلت : من يقول هذه القصيدة ؟ قال : أنا . قلت : لولا ما تقول لأخبرتك أن أعشى بنى ثعلبة أنشدنيها عام أول بنجران . قال : فإنك صادق ، أنا الذى ألقيتها على لسانه وأنا مسحل صاحبه ، ما ضاع شعر شاعر وضعه عند ميمون بن قيس[2] ! !

وشاعر ثالث جاهلى خالص ، هو امرؤ القيس — ، رُوِىَ عنه أيضاً بإسناد متصل ، فقد سئل رؤبة بن العجاج عن هذا البيت[3] :

نَطعَنهُمْ سُلْكَى ومَخْلُوجَةً كَرَّكَ لأْمَيْنِ على نَابِلِ

فقال رؤبة : حدثنى أبى عن أبيه قال : حدثتنى عمّى — وكانت فى بنى دارم — قالت : سألت امرأ القيس ، وهو يشرب طلاء له مع علقمة بن عبدة — : ما

---

(١) العشرق : شجيرة مقدار ذراع ، فيها حب صغار ، إذ جفت فرت بها الريح تحرك الحب فسمع له شخشخة على الحصى .

(٢) انظر التعليقة رقم : ٣ ، فى الصفحة السابقة .

(٣) البصرى : التنبيهات على أغلاط الرواة : ٤

معنى قولك : كرّك لأمين على نابل ؟ فقال : مررت بنابل وصاحبه يناوله الريش لُؤاماً وظُهاراً ، فما رأيت أسرع منه ولا أحسن ، فشبهت به[1] !

وشاعر رابع ، جاهلي أدرك الإسلام ، وهو سعية بن غريض ، وغريض هو السموءل المشهور . ورواية سعية هذه تختلف عن الروايات التي قدمناها من حيث إنها لا تروى خبراً عن الشاعر نفسه ، وإنما يروى فيها الشاعر خبراً من أخبار الجاهلية لا صلة له به . قال الهيثم بن عدى : حدثني حماد الراوية عن سعيد بن عمرو بن سعيد عن سعية بن غريض — من يهود تيماء — قال[2] : لما قتل الحارثُ بن أبي شمر الغساني عمرَو بن حجر ملك بعده ابنه الحارث بن عمرو ، . . . فلما تفاسدت القبائل من نزار أتاه أشرافهم فقالوا . . . » (إلى آخر الخبر) .

ورُوِى عن الحُطيئة خبر يفصّل فيه نفسه ، وراويه هو عبد الرحمن بن أبي بكرة عن الحطيئة ، قال عبد الرحمن[3] : رأيت الحطيئة بذات عرق ، فقلت له :

---

(١) وامرؤ القيس هو أقدم الفحول من شعراء الجاهلية ، ومع ذلك فإن بعض شعراء الجاهلية الذين عمروا وأدركوا الإسلام أدركوا كذلك امرأ القيس فيما يزعمون . فمنهم مثلا : ربيع بن ضبع ، فهو القائل : (المعمرين : ٦ — ٧)

هَا أنَذَا آمُلُ الخُلُودَ وَقَدْ ... أدْرَكَ عَقْلِي وَمَوْلِدِى حُجُرَا

أبَا امْرِئِ القَيْسِ هل سَمِعْتَ بِهِ ... هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ طَالَ ذا عُمُرَا

ومنهم أيضاً عمرو بن مسبح الطائى ، وهو المشهور بإجادة الرمى ، ذكره امرؤ القيس فى شعره ، قال :

رُبَّ رَامٍ مِنْ بَنِى ثُعَلٍ ... مُتْلِجٍ كَفَّيْـهِ فى قُتَرِهْ

وعمر عمرو بن مسبح حتى مات فى زمن عثمان بن عفان ! (المعمرين ٧٧ — ٧٨) .

(٢) الأغانى ٩ : ٨١ .

(٣) الشعر والشعراء ١ : ٢٨٣ .

يا أبا مُلَيْكة أىّ الناس أشعر؟ فأخرج لساناً دقيقاً كأنه لسان حية فقال: هذا إذا طمع .

وشاعر سادس رُوِى عنه فى إسناد متصل ، هو النابغة الجعدى . والجعدى من عُمِّر عمراً طويلاً فى الجاهلية والإسلام، « ... إسماعيل بن عبد الله السكرى قال ، حدثنا يعلَى بن الأشدق قال ، حدثنى نابغة بنى جعدة ، قال[1] : أنشدت النبى صلى الله عليه وسلم هذا الشعر فأعجب به :

بَلغنَا السَّماءَ مَجْدُنَا وَجُدُودُنا ... وإنَّا لَنَبغِى فَوْقَ ذلك مَظْهَرا

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ فقلت : الجنة . فقال: إن شاء الله . فقلت : إن شاء الله .

ولا خَيْرَ فى حِلمٍ إذا لم يَكُنْ لَهُ ... بوادِرُ تَحْمِى صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرا
ولا خَيْرَ فى جَهْلٍ إذا لمْ يَكُنْ لَهُ ... حَلِيمٌ إذا ما أَوْرَدَ الأَمْرَ أَصْدَرَا

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أجدت ، لا يفضض الله فاك » .

٣

وأما القسم الثانى من هذا البحث عن الإسناد فتصل بهؤلاء العلماء الرواة الذين عاشوا فى القرن الثانى ومطلع الثالث ، وأخذ عنهم العلماء بعد ذلك شعر الجاهلية وأخبارها . فقد ذكرنا من قبلُ أن العلماء فى القرون التالية للقرن الثانى ، وخاصةً علماء القرنين الثالث والرابع ، كانوا يوردون جل أخبار الجاهلية وأشعارها مسندة إلى هؤلاء الرواة الأعلام من علماء القرن الثانى ، ثم يقفون عندهم

---

(١) الأغانى ٥ : ٨ .

لا يعدُّونهم في الغالب الأعم. وذكرنا أن هؤلاء العلماء الذين تنتهي عندهم الرواية الأدبية للجاهلية طبقتان، الطبقة الأولى هم : أبو عمرو بن العلاء وحماد الراوية ثم خلف الأحمر والمفضل الضبي ومن في طبقتهم . وأما الطبقة الثانية فهم تلامذة هذه الطبقة الأولى ، وأشهرهم : الأصمعي وأبو زيد وأبو عبيدة وأبو عمرو الشيباني ، ثم ابن الأعرابي ومحمد بن حبيب وأبو حاتم السجستاني ومحمد بن سلام ومن في طبقتهم . ولكن انقطاع الإسناد عند هؤلاء الرواة وانتهاءه إليهم يحفزنا إلى أن نستقصي في البحث عما وراءه لعلنا نستطيع أن ننبش الجذور الأولى التي قامت عليها رواية هؤلاء العلماء ، فنستبين مدى امتداد هذه الجذور واتصالها بالجاهلية .

وأول ما يستوقفنا في سبيلنا رواياتٌ قليلة متفرقة مبثوثة — على تباعد بينها — في ما بين أيدينا من مصادر . وفيها يروي هؤلاء العلماء عن شيخ عالم راوية كثيراً ما يكون من الأعراب الذين كانوا يأخذون منهم اللغة والشعر والأخبار ، وقد يمتدُّ بهم الإسناد فيرفعونه في أحوال نادرة إلى جاهلي شهد ما يروون عنه . فمن هذه الروايات التي يذكر فيها هؤلاء العلماء راويةً سابقاً عليهم يأخذون عنه — ما نورده فيما يأتي :

يروي الأصمعي تحقيق اسم تأبط شرًّا وبيتاً له عن ابن أبي طرفة الهذلي ويقول(١) : كان ابن أبي طرفة الهذلي أعلمهم بتأبط شرًّا وأمره .

ويروي الأصمعي كذلك عن أبي طفيلة ، قال(٢) : حدثني من رأى مساور بن هند أنه ولد في حرب داحس قبل الإسلام بخمسين عاماً .

ويروي أبو عبيدة في سند متصل إلى الجاهلية(٣) : « قال أبو عبيدة ،

---

(١) الشعر والشعراء ١ : ٢٧١ .

(٢) الإصابة ٦ : ١٧١ ، وأبو طفيلة هذا أحد ثقات الأعراب وعلمائهم الذين أخذ عنهم الأصمعي وأبو عبيدة وأبو زيد ومن في طبقتهم (انظر مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ورقة ٦٤ —٦٥) .

(٣) الأغاني (دار الكتب) ١١ : ٧٥ .

حدثني عبد الحميد بن عبد الواحد بن عاصم بن عبد الله . . . قال ، حدثني أبي عبد الواحد ، وعمي صفوان ، عن أبيهما عاصم بن عبد الله ، عمن أدرك شأس ابن زهير قال . . . » (ثم يورد خبراً عن شأس) .

ويروى أبو عبيدة كذلك في سند آخر متصل إلى الجاهلية[1] « . . . أبو عبيدة قال ، حدثنا أبو المختار فراس بن خندق القيسي : قيس ثعلبة ، وعدة من علماء العرب قد سماهم فراس بن خندق » . وفي سياق الحديث — وهو عن يوم ذي قار — يسمي بعضهم فيقول[2] : « قال سليط بن سعد بن معدان . . . بن ثعلبة : فحدثنا أسراؤنا الذين كانوا فيهم يومئذ — يوم ذي قار — قالوا : فلما التقى الناس . . . »

وروى المفضل خبراً عن امرئ القيس وعلقمة بن عبدة وشعراً لهما — حدثه به أبو الغول النهشلي عن أبي الغول الأكبر[3] .

ويروى المفضل كذلك خبراً جاهلياً ذا إسناد متصل؛ جاء في النقائض[4] : « وكان من قصة هذا اليوم — يوم أعشاش — ما حكاه الكلبي عن المفضل بن محمد عن زياد بن علاقة التغلبي أن أسماء بن خارجة الفزاري حدثه بذلك قال : أغار بسطام . . . » إلى آخر الخبر ، وبسطام هذا أخذ أم أسماء بن خارجة ، وأسماء يومئذ غلام شاب يذكر ذلك . فرواية أسماء إذن رواية من شاهد الخبر المروي ، وإسنادها متصل .

ويروى ابن الكلبي في سند متصل إلى أشياخ أدركوا الجاهلية — شعراً لشعراء جاهليين كامرئ القيس وعنترة فيه ذكر أسماء أماكن « قال أبو زيد عمر بن شبة عن هشام قال : حدثني محمد بن عبد الرحمن الأنصاري ، عن عمرو بن

---

(١) النقائض : ٦٣٩ .

(٢) النقائض : ٦٤٤ .

(٣) المرزباني ، الموشح : ٣٠.

(٤) ص : ٧٥ .

الصامت بن شداد بن يزيد بن مرداس السلمىّ، عن أشياخ من بنى تميم أدركوا الجاهلية ، قالوا . . . »[١] .

وروى حماد الراوية خبراً يتصل بالحطيئة عن أبى نصر الأعرابى . وروى حماد كذلك خبرين عن الأعشى ، أحدهما : عن معقل عن أبى بكر الهلالى[٢] والثانى : عن سماك بن حرب[٣] .

وروى أبو عمرو بن العلاء شعراً لامرئ القيس بن عابس ، وذكر منه ستة أبيات ثم قال[٤] « وزادنى فيها الجمحى » وذكر ثلاثة أخرى . وروى أبو عمرو أيضاً[٥] « عن شيخ من أهل نجد كان أسنّهم » .

وكان أبو عمرو بن العلاء يجتمع هو وشعبة عند أبى نوفل بن أبى عقرب ، قال شعبة[٦] : فأسأله عن الحديث خاصةً ، ويسأله أبو عمرو عن الشعر خاصةً ، فلا أكتب شيئاً مما يسأله عنه أبو عمرو ، ولا يكتب أبو عمرو شيئاً مما أسأله أنا عنه[٧] .

ومن اليسير أن يتتبع الباحث شيوخ هؤلاء العلماء الرواة ، ويعرف بعضهم بأسمائهم ، غير أن من العسير أن يرجع ، إلا فى القليل النادر ، مفردات هذه الروايات التى يروونها سواء أكانت شعراً أم خبراً — إلى الشيوخ الذين أخذها عنهم هؤلاء العلماء الرواة .

ومن هؤلاء الشيوخ : الأعراب الفصحاء الذين كانوا يفدون إلى الحواضر

---

(١) البكرى ، معجم ما استعجم ١ : ٣٢٤ — ٣٢٦ .
(٢) الأغانى ٩ : ١١٧ .
(٣) الأغانى ٩ : ١٢٤ .
(٤) السيرافى ، أخبار النحويين البصريين : ٢٩ .
(٥) المصدر السابق : ٣٠ .
(٦) السيوطى ، المزهر ٢ : ٣٠٤ نقلا عن فوائد النجيرمى .
(٧) انظر هذه الرواية أيضاً فى طبقات الزبيدى ص: ٢٥ و ص: ٣٠ وفيها «الفقه» بدل « الحديث » و « اللغة » بدل « الشعر » .

فيأخذ عنهم هؤلاء العلماء اللغة والشعر والأخبار[١] . ويعنينا من أمر هؤلاء الأعراب ثلاثة أخبار لها قيمتها وخطرها ، أولها : ما أورده أبو علي القالي قال[٢] : « حدثنا أبو بكر بن دريد رحمه الله — قال: كان أبو حاتم يضن بهذا الحديث ويقول : ما حدثني به أبو عبيدة حتى اختلفت إليه مدة ، وتحملت عليه بأصدقائه من الثقفيين ، وكان لهم مؤاخياً — قال ، حدثنا أبو حاتم قال ، حدثني أبو عبيدة قال ، حدثني غير واحد من هوازن من أولي العلم وبعضهم قد أدرك أبوه الجاهلية أو جده — قال : اجتمع عامر بن الظرب العدواني . . . » إلى آخر الخبر .

فأبو عبيدة إذن كان يروي بعض ما يرويه عن أعراب أدرك آباؤهم الجاهلية وقد مرّ بنا قبل قليل في الصفحة السابقة أن المفضّل يروي عن رجل يروي عمن أدرك الجاهلية .

وثاني هذه الأخبار الثلاثة ما أورده الشريف المرتضى من حديث لبيد والنعمان ، فقد ذكر إسناداً في نهايته « عن الكلبي عن عبد الله بن مسلم البكائي ، وكان قد أدرك الجاهلية »[٣] .

ومما يكمل هذا ويوصلنا إلى ما نرمي إليه من هدف — الخبر الثالث الذي يرويه أبو عبيدة ، ولكنه يرويه هذه المرة ويقصد به شيخه بل شيخ الرواة جميعاً: أبا عمرو بن العلاء . قال أبو عبيدة يشير إلى أبي عمرو[٤] « وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية » .

---

(١) ذكرت بعض المصادر أسماء بعض هؤلاء الأعراب : انظر الفهرست لابن النديم ص : ٦٥ وما بعدها ، وطبقات الزبيدي : ١٧٥ .
(٢) الأمالي ٢ : ٢٧٦ .
(٣) أمالي السيد المرتضى ١ : ١٣٧ .
(٤) البيان والتبيين ١ : ٣٢١ ، وانظر كذلك ديوان زهير (دار الكتب) ص ٣٣٩ هامش : ٤ ، حيث ذكر خبراً يشبه هذا من نسختين من نسخ الديوان الخطية .

فإذا مضينا نحن وراء هذا القول لنحقق صدقه ، وجدنا فى بعض ما سنورده ما يغنينا عن الإطالة :

قال ابن سعد[١] « أخبرنا عبد الملك بن قُرَيب قال : أخبرنا أبو عمرو بن العلاء قال : قلت لأبى رجاء العطاردى : ما تذكر ؟ قال : قتْلَ بسطام بن قيس ، ثم أنشد بيتاً رُثى به :

فَخَرَّ على الألَاءَةِ لَمْ يُوَسَّدْ كَأَنَّ جَبِينَهُ سَيْفٌ صَقِيلُ »

وقد وُلد أبو رجاء هذا فى الجاهلية ثم أدرك النبى صلى الله عليه وسلم وهو شاب[٢] ، وأسلم بعد الفتح[٣] ، وتوفى فى نحو سنة ١١٧[٤] .

وقد مر بنا قبل قليل أن أبا طفيلة يروى عن أدرك الجاهلية ، وقد كان أبو طفيلة هذا نحو أبى عمرو بن العلاء فى السن[٥] .

وهذا مِسْعَرُ بن كِدَام (المتوفى سنة ١٥٢ أو ١٥٥ — وهو معاصر لأبى عمرو ابن العلاء) يروى عن أدرك الجاهلية أيضاً . « قال عمير بن الحباب ، وروى ذلك عنه مسعر ، ما أغرتُ على حىّ فى الجاهلية أحزم امرأةً ولا أعجز رجلاً من كلب ، ولا أحزم رجلاً ولا أعجز امرأةً من تغلب[٦] » .

وهذا شيخ معمر حضر الجاهلية ، ومع ذلك فقد كان ممن استمع إلى جرير وهو ينشد ، وجرير عاصر أبا عمرو نصف قرن (مات جرير سنة ١١٠) . كان جرير ينشد أبياته[٧] :

---

(١) الطبقات ٧ : ١٠٠ ، وانظر المعارف لابن قتيبة : ١٨٩ .
(٢) ابن سعد ٧ : ١٠٠ .
(٣) خلاصة التهذيب (عمران بن ملحان) .
(٤) الزمخشرى ، الفائق ١ : ٢٦٠ .
(٥) الإصابة ٦ : ١٧١ .
(٦) البيان والتبيين ١ : ٤٠٠ — ٤٠١ .
(٧) المرزبانى ، الموشح : ١٢٥

فَمَا شَهِدَتْ يوْمَ النَّقَا خَيْلُ هَاجِرٍ وَلَا الصَّيْدُ إِذْ يَبْطَحْنَ بِالْأَسَلِ السُّمرِ
ولا شَهِدَتْ يوْمَ الغبيطِ مُجَاشِعٌ ولا نَقَلان الحىّ من قُنَّتَىْ نسْرِ

قال : وشيخ من بنى ثعلبة يقال له : النخار بن العقار ، كبير قد شُدَّ حاجباه وقد سقطا على عينيه ، فقال : ولا كليب والأجلّ ماشهدت ، ولا كنا إلا سبعة فوارس من بنى ثعلبة » .

ومن اليسير أن نجمع أسماء كثيرين من المعمَّرين الذين أدركوا الجاهلية وماتوا فى نهاية القرن الأول أو مطلع الثانى ، فمن ذلك :

حرام بن المنذر بن زبيد . . أدرك الجاهلية وأدرك عمر بن عبد العزيز [١] وحَيْدة من ولد كعب بن ربيعة أدرك الجاهلية وأدرك بشر بن مروان [٢] . وشُريح ابن هانئ عاش فى الجاهلية دهراً وقتل فى ولاية الحجاج [٣] .

بل إن من هؤلاء المعمرين شعراء مشهورين من مثل :

أرطاة بن سُهيَّة : أدرك الجاهلية ووفد على عبد الملك بن مروان فسأله عما بقى من شعره ، وكان عمره آنذاك مائة وثلاثين سنة [٤] . وأيمن بن خريم : أسلم هو وأبوه يوم الفتح وأدرك عبد العزيز بن مروان [٥] . وعمرو بن أحمر بن العمرَّد : كان من شعراء الجاهلية المعدودين وقال فى الجاهلية والإسلام شعراً كثيراً ، وأدرك عبد الملك بن مروان [٦] .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، ولكن المغالاة فى أعمار المعمَّرين كثيرة كذلك ،

---

(١) أبو حاتم السجستانى ، كتاب المعمرين : ٧١ ، وأبو على القالى ، الأمالى ٣ : ٧٠ .
(٢) المعمرين : ٨٦ .
(٣) المصدر السابق : ٣٨ .
(٤) الشعر والشعراء ١ : ٤٠٥ ، والموشح : ٢٤٢ .
(٥) الشعر والشعراء ١ : ٥٢٦
(٦) الأغانى ٨ : ٢٣٤ ، وفى معجم الشعراء للمرزبانى أنه مات فى عهد عثمان ! !

وبعضها لايكاد يصدّق . قال الجاحظ[١] « وإن فى الأعراب لأعماراً أطول ، على أن لهم فى ذلك كذباً كثيراً » .

وقد أوردنا من الأسماء والأخبار ما يصح فى الفهم ويقبله العقل ، فليس من الغريب أن يكون فى الأمة نفر يبلغون من العمر ما يزيد قليلاً على مائة سنة ، وذلك شيء مألوف فى كل زمان وعند كل أمة ، وما زلنا نحن نسمع فى زماننا هذا عمن يتخطى المائة وقد يبلغ العشرين والمائة أو الخمسين والمائة ، وخاصة فى القرى وبين البدو . ومن المشهور المتداول أن الأعمار كانت فى الماضى أطول مما هى الآن، ومردّ ذلك إلى أمور لا مجال لسردها .

وقد رجحنا فى غير هذا الموطن أن أبا عمرو بن العلاء بدأ يأخذ عن الرواة والعلماء والأعراب ، بل كان يتصدر للرواية والتدريس، فى نحو سنة ٨٠ للهجرة أو بعدها قليلاً[٢] . ومن أجل ذلك ليس بمستغرب أن يكون فى زمنه أعراب عاشوا فى الجاهلية بين عشر سنوات وسبعين سنة، فتكون سنهم عام روى عنهم أبو عمرو ومن فى طبقته تراوح بين تسعين سنة ومائة وخمسين سنة[٣] .

٤

غير أن هذه الروايات المسندة — التى يرتفع إسنادها إلى ما قبل علماء القرن الثانى قليلة نادرة، لاتعدو ما أوردناه، وقد يضم إليها مثلُها مما تجاوزنا عن ذكره أو لم نعثر عليه . وهى كلها لا تكاد تقيم لنا ما نستطيع أن نبحث فيه لأن

---

(١) الحيوان ١ : ١٥٧ .

(٢) انظر ص: ١٥٦ من هذا البحث .

(٣) ومع ذلك فقد قال المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى (تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٩٧ هامش ١) « رأينا فى كثير من الكتب أن أبا عمرو بن العلاء روى عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية ، وذلك خطأ ركبه النساخ ، والصواب أنه روى عن أعراب قد أدركوا أعراب الجاهلية » . ولا حاجة بنا إلى الرد على هذا التخريج فقد ذكرنا ما فيه غناء .

بعضها قائم على الجهل برواته فى مثل « عن أدرك فلاناً » أو « حدثنى من رأى فلاناً » أو « عن أشياخ من بنى فلان » أو « عن رجال أدركوا الجاهلية » . ولأن بعضها منقطع لا يذكر فيه إلا راوية واحد قبل هؤلاء العلماء ، كثيراً ما يكون من الأعراب الفصحاء . والثقة بمثل هذه الأسانيد لا سبيل إلى تحقيقها ، وإنما تكون الثقة بمعرفتنا العالم الراوية الذى أوردها ، فإما أن نوثّقه فنقبل منه ما يروى مع إسناده ، وإما أن نجرحه ونضعفه فلا سبيل إلى قبول روايته مهما يكن إسنادها عالياً . وتوثيق هؤلاء العلماء أو تضعيفهم هو موضوع حديثنا فى القسم التالى من هذا البحث .

غير أن الأمر الذى يكاد البحث العلمي الدقيق ينتهي إلى ترجيحه أن الإسناد فى الرواية الأدبية والشعر خاصةً ، شيء قد كان ، وأن العلماء الرواة من رجال الطبقة الأولى أخذوا الشعر الجاهلى بالرواية عمن قبلهم ، وإنْ كان تلامذتهم من بعدهم قد أغفلوا النص على الإسناد قبل هذه الطبقة الأولى ، وبين أيدينا نصّان ناطقان بيّنا الدلالة :

أولهما — أن الأصمعي يورد شعراً هُذَليّاً ثم يقول(١) : «سألت ابن أبى طرفة عن هذا فلم يعرفه ، ولم يكن عند أبى عمرو فيها إسناد ».

وثانيهما — أن الأصمعي نفسه يورد قصيدة النابغة :

أَمِنْ آلِ مَيَّةَ رائِحٌ أَوْ مُغْتَدِ   عَجْلانَ ذا زادٍ وَغَير مُزَوَّدِ

ثم يقول(٢) : « ليس عندى فيها إسناد ، وهي له حقّاً » .

فقد كان إذن عند أبى عمرو بن العلاء وعند الأصمعى أسانيد للشعر الجاهلى الذى روياه ، ولكنهما لم يلتزما ذكرها دائماً ، واكتفيا بالنصّ على عدم وجودها حين لم يكن عندهما إسناد .

(١) ديوان الهذليين (دار الكتب) ١ : ١٥٩ .

(٢) ديوان النابغة (شرح الأعلم — خمسة دواوين العرب) ص : ٢٧ .

ولنا، بعد هذا، أن نتساءل عما وقف بهذه الأسانيد عند هؤلاء العلماء فلم تتجاوزهم إلا فى هذا القليل النادر الذى لا غناء فيه والذى ضربنا له الأمثلة ؟ والجواب على ذلك قائم فيما يبدو لنا على أمرين ، الأول : هو أن رواية الجاهلية بأخبارها وأشعارها — وإن كانت ظلت متصلة منذ الجاهلية نفسها إلى زمن هؤلاء العلماء على ما بيّناه فى الفصول السابقة — إلا أنها كانت، قبل القرن الثانى ، من الثقافة العامة التى لا يختص بها أحد ، ومع ذلك لا يتجرد منها أحد . فقد كان المفسر والمحدِّث والفقيه والقاصّ يروون شعر الجاهلية وأخبارها ؛ وكانت هذه الأخبار والأشعار آلة من آلاتهم يتوسلون بها لتفسير لفظ فى كتاب الله أو حديث رسوله ، ويسوقونها ليفصّلوا بها مجمل ما ورد فى القرآن من القصص وأخبار الأمم ، أو ليزينوا بهذا الشعر ما يقصونه على الخلفاء فى القصور وعلى العامة فى المساجد من قصص تاريخية أو دينية . وكانت ثمة طائفة أخرى تحفظ أخبار الجاهلية وأشعارها غير هذه الطائفة من العلماء المفسرين أو المحدثين أو الفقهاء : فكان الخلفاء والأمراء والولاة وأبناؤهم يتعلمون الشعر الجاهلى ويرويّهم إياه مؤدبوهم ، وكان أبناء الشاعر وسلالته وأفراد قبيلته يحفظون شعره وينشدونه فى مجالسهم ومحافلهم ، ولكن هؤلاء جميعاً لم يكونوا من العلماء المختصين بهذا الضرب من العلم ، المنصرفين إليه ، المشتغلين به ، كما صار شأن العلماء فى القرن الثانى . ومع ذلك فإننا نجد ، فى مثل الأسانيد القليلة التى ذكرناها ، أن بعض الشعر الجاهلى يرويه علماء القرن الثانى عن بعض من ذكرنا من المفسرين والمحدثين والفقهاء ، أو أبناء الشاعر وأفراد قبيلته .

فالرواية الأدبية بمعناها العلمى الذى عرفه القرن الثانى لم تكن موجودة — إذا صح ما ذهبنا إليه — قبل زمن أبى عمرو بن العلاء وحماد الراوية ومن عاصرهما . ومن هنا كان هؤلاء هم — فى الغالب الأعم — نهاية الإسناد فى الرواية الأدبية ، يأخذها من جاء بعدهم — على مر العصور — على أنها ، فى جملتها ، صحيحة

موثّقة[1] لا يسأل عن أخذها هؤلاء ، ولا يجد في انقطاع الإسناد عندهم ما يضعف من هذه الرواية . ومن هنا كان الإسناد في الرواية الأدبية هو القاعدة العامة في القرنين الثالث والرابع ، يرتفع حتى يصل إلى هذه الطبقة الأولى من العلماء ثم يقف عندها لا يتجاوزها .

والأمر الثانى منبثق من هذا الأمر الأول . وذلك ما أشرنا إليه فيما تقدم من أن أمر الشعر الجاهلي كان عرَضاً من أعراض هذه الدنيا ، يرتزقون بروايته وذكر أخباره حيناً ، وينتشون بما فيه من إمتاع فني حيناً آخر ، ويتحلون به في ثقافتهم العامة حيناً ثالثاً ، ويتناولونه في جميع هذه الأحوال تناولاً فيه يُسْر وإسماح . فلم يكن يتصل بأمور دينهم كما كان يتصل الحديث أو التفسير ، ولم يكن يترتب عليه شأن من شؤون التشريع أو الفقه ، ولذلك وجدنا بعض المحدّثين أنفسهم يضيقون بما يأخذون به أنفسهم وما يأخذهم به الناس من أمر الإسناد ، والتشدد في رواية الحديث ، والتحرج من الإكثار منها وتحرى الضبط والدقة لئلا يقولوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقل فيتبوؤا مقعدهم من النار . ولا يجد هؤلاء لأنفسهم متنفساً يتنفسون فيه أرحب وأوسع من رواية الشعر وإنشاده حيث لا حرج ولا إثم . ومن هنا كان التزام الإسناد المرفوع في رواية الحديث ، وانقطاع الإسناد في رواية الأدب والشعر .

ومع أننا ذكرنا أن الإسناد في الرواية الأدبية لم يصبح قاعدة ملتزمة إلا في القرنين الثالث والرابع حيث يرتفع الإسناد إلى رجال الطبقة الأولى من علماء القرن الثانى ، فإننا مع ذلك ، نجد بعض علماء هذين القرنين يضيقون بهذا الإسناد — على قصره — فالمبرد مثلاً كان يهمل الإسناد حيناً يتحدث أو يملى ، ويبدو أنه كان مشهوراً بحذف الإسناد حتى قال نفطويه[2] : « ما رأيت أحفظ لأخبار

---

(١) يستثنى من ذلك ما سنذكره من أمر الخصومات التى قامت بين المدارس المختلفة أو بين أفراد المدرسة الواحدة .

(٢) نزهة الألباء : ١٤٨ ، وانظر ياقوت ، إرشاد ١٩ : ١١٢ .

بغير أسانيد من المبرد ومن أبي العباس بن الفرات » . ولو رجعنا إلى كتب المبرد أو إلى بعض من نقل عن المبرد لوجدنا أن هذه الصفة واضحة فيه وإن لم تكن عامة ولا غالبة ، فني كتبه إسناد متصل حيناً ، ومنقطع حيناً آخر ، وفيها حذف للإسناد ونص على هذا الحذف . فإذا ما أخذنا كتابه « الفاضل » مثلاً وجدناه ، حيناً يحذف الإسناد، يكثر من استعمال صيغة البناء للمفعول من مثل «يُرْوَى»[١] و « يُرْوَى من غير وجه »[٢]، و « قيل »[٣] و « ذُكر »[٤] و « حُدِّثت »[٥] وهو أحياناً يذكر شيخه الذى يروى عنه ثم ينص على حذف الإسناد بعده مثل « وحدثني ابن عائشة عن بعض أشياخه »[٦] و « حدثني مسعود بن بشر فى إسناد متصل »[٧] و « حدثني مسعود بن بشر فى إسناد ذكره »[٨] و « حدثني الرياشي فى إسناد ذكره»[٩] و «حدثني الرياشي — ولا أحفظ عمن حدثنيه»[١٠]. وهو لا يهمل الإسناد فى الأخبار والشعر حسبُ ، وإنما يفعل ذلك أيضاً فى الحديث ، فهو يقول مثلاً[١١] « يُرْوَى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال » وكذلك « حدثني الرياشي قال : روى لنا أشياخنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ... »[١٢] ومن هنا أورد المرزباني عن المبرد قوله[١٣]: « حُدِّثت فى إسناد

---

(١) ص : ٥
(٢) ص : ١ ، ٢٩ ، ٣٢
(٣) ص : ٧
(٤) ص : ٥
(٥) ص : ٥٠
(٦) ص : ٤٢
(٧) ص : ٥٠
(٨) ص : ٥٢
(٩) ص : ١٢ و ص : ٦٢
(١٠) ص : ٧٢
(١١) ص : ١ ، ٣ ، ٤ ، ١٥
(١٢) ص : ٩
(١٣) الموشح : ٢١٣ — ٢١٤

متصل أن أبا النجم العجلي أنشد هشاماً . . . »

وكان لحذف الإسناد أحياناً علة يذكرها المؤلف ، فمن ذلك أن الصولي حذف الإسناد في « أدب الكتاب » وقال[١] « قد ذكرت أن أختصر جميع ما أذكره وألقي أسانيده ليقرب على طالبه ومستفيده إلا ما لا بد منه من ذكر نسبته وإسناده » .

وكذلك فعل ابن قتيبة — وإن لم يكن صنيعه هذا في الرواية الأدبية الخالصة — فقد نص على حذف الإسناد في كتابه « تأويل مشكل القرآن » وذكر علة ذلك فقال[٢] « ولم يجزْ لي أن أنصَّ بالإسناد إلى من له أصل التفسير إذ كنت لم أقتصر على وحي القوم حتى كشفته ، وعلى إيمائهم حتى أوضحته ، وزدت في الألفاظ ونقصت ، وقدمت وأخرت ، وضربت لبعض ذلك الأمثال والأشكال حتى يستوي في فهمه السامعون » .

وممن حذف الإسناد أيضاً واكتفى بالنص على آخر من روى عنه : أبو على القالي ، فقد ألف كتاب « البارع » في اللغة « فبناه على حروف المعجم ، وجمع فيه كتب اللغة ، وعزا كل كلمة إلى ناقلها من العلماء ، واختصر بالإسناد عنهم »[٣] .

ولعلنا لا نعدو الصواب حينما نخلص من كل ذلك إلى أن الإسناد لم يكن — حتى في القرنين الثالث والرابع حين شاع وغلب — أصلاً ثابتاً من أصول الرواية الأدبية ، ولم يكن أساساً من الأسس التي يُحتكم إليها في الاستشهاد على صحة هذه الرواية كما كان شأنه في رواية الحديث النبوي . فنحن نرى أن العلماء والرواة ، في اللغة والشعر والأخبار ، كانوا يقدمون بين يدي ما يروون بإسناد متصل إلى الطبقة الأولى من العلماء الرواة حيناً ، وبإسناد منقطع حيناً آخر

---

(١) أدب الكتاب : ٢٨ .

(٢) المشكل : ١٨ .

(٣) الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين : ٢٠٣ .

يكتفون فيه بذكر شيخهم الذى أخذوا عنه هذا العلم ، أو يتجاوزون شيخهم وربما شيخ شيخهم ، ويقنعون بذكر أول من رُوى عنه هذا الشعر أو ذلك الخبر ، مختصرين الإسناد اختصاراً إلى نهايته ، ونراهم حيناً ثالثاً يحذفون الإسناد ويهملونه إهمالاً ويلقون بالخبر أو الشعر قائماً مجرداً . وكان العلماء الرواة من معاصريهم وتلاميذهم يقبلون منهم كل ذلك ويوثقونه : يقبلون إسنادهم المتصل ، ويقبلون إسنادهم المنقطع حين يقف عند شيخهم ، وحين يهمل حلقة أو حلقتين من هذه السلسلة ويكتفى بأول حلقاتها ، ثم يقبلون منهم الخبر وحده من غير إسناد .

فإذا كان ذلك كذلك فما معنى الإسناد إذن ؟ والجواب على ذلك مفصل فيما قدمناه عن مجالس العلم وعن التصحيف فى فصل سابق . فقد كان العلماء يضعّفون من يقتصر فى علمه على الأخذ من الصحف من غير أن يلقى العلماء ويأخذ عنهم فى مجالس علمهم ، ويسمونه صحفياً ، ومن هنا اشتقوا «التصحيف» وأصله « أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته فى صحيفة ولم يكن سمعه من الرجال فيغيره عن الصواب » . فالإسناد فى الرواية الأدبية لم يكن ، فيما نرى ، إلا دفعاً لهذه التهمة ، وإلا حجة يقدمها العالم على أنه أخذ علمه من أفواه الشيوخ فى مجالس العلم . فإذا ما بلغ هذا العالم من العلم شأواً بعيداً ، وعرفت منزلته بين العلماء ، واشتهر أمر شيوخه وأنه أخذ العلم عن فلان وفلان فى مجالسهم وحلقات درسهم — فلا عليه بعد ذلك أن يهمل الإسناد ، فهو يسند حيناً إسناداً متصلاً أو إسناداً منقطعاً ، وهو يحذف الإسناد حيناً آخر واثقاً مطمئناً إلى أن ذلك لن يضيره .

أما إذا كان أمر العالم على غير هذا الوجه ، وكان متهماً بأنه يمتح من ذات نفسه ، وأنه لم يأخذ ما يروى عن عالم من شيوخ العلم قبله ، فحينذاك يتصدى

له أهل العلم والرواية يطالبونه بالإسناد . حدّث المازنى قال(١) « روى برزخ بن محمد العروضى (وكان معاصراً لحماد الراوية وجناد وكان متهماً بالكذب) شعراً لامرئ القيس ، فقال له جناد : عمن رويت هذا ؟ قال : عنى ، وحسبك بى ! فقال له جناد : من هذا أتيت يا غافل » .

ولو كان الإسناد أصلاً من أصول الرواية الأدبية — كما هو فى رواية الحديث — إذن لوجدنا بين يدى كل خبر وكل بيت من الشعر أو مجموعة من الأبيات إسناداً ملتزماً كالإسناد الذى يلتزم بين يدى كل حديث نبوىّ ، ولكان كل سند من هذه الأسانيد الأدبية متصلاً مرفوعاً فى الشعر إلى الشاعر الجاهلى أو إلى راويته ، وفى الخبر إلى من شهده فى الجاهلية ، ولوجدنا بعد ذلك كتباً يعنى فيها أصحابها بتخريج الشعر الجاهلى من طرقه المختلفة ، ثم لوجدنا كتباً فى تعديل رواة الأدب وتجريحهم كما هو الشأن عند أصحاب الحديث .

وكل ذلك لا نجده فيما بين أيدينا ، فأكثر الشعر الجاهلى فى كتب الأدب العامة وبعض الدواوين غير مسند ، وأما المسند منه فأقصى ما يصل إليه إسناده هم الطبقة الأولى من العلماء الرواة فى منتصف القرن الثانى ، وبعضه لا يرقى إلا إلى الطبقة الثانية ، وأحياناً إلى الطبقة الثالثة من علماء مطلع القرن الثالث ونهايته . وليس بين أيدينا كتاب واحد لتخريج الشعر الجاهلى من طرقه المختلفة ، ولا كتاب واحد للجرح والتعديل فى رواة الأدب ، ولا ينقض هذا القول ما نجده فى بعض معاجم الرجال وطبقات الأدباء واللغويين والنحويين ، فهى كتب فى التاريخ الأدبى العام ، تترجم للعالم أو الراوية ترجمة عمادها السرد والقصص من غير توجيه لهذا السرد أو لتلك القصص لتدل على حكم خاص فى توثيق المترجم له أو تضعيفه ،إلا فى القليل النادر حيث نجد الاتهام بالكذب أو الوضع يلقى إلقاءً مجرّداً من البينة والدليل ، بل لا يكاد ينتهى المؤلف من إلقاء اتهامه حتى

---

(١) ياقوت — إرشاد ٧ : ٧٣ .

يتبعه بقصة أخرى أو رأى آخر فيهما توثيق وتعديل . وسنبين فى فصل مقبل – عند حديثنا عن النحل – أن كثيراً من التجريح والتضعيف والاتهام بالكذب والوضع إنما كان مصدره خصومات شخصية أو خلافات مدرسية ومذهبية لانصيب لها من التحقيق العلمى الذى يطمأن إليه . وقد يكون أمر الجرح والتعديل فى رجال الحديث قد جرى على مابيّناه من أمر الجرح والتعديل فى رواة الأدب ، غير أننا نقصر حديثنا هنا على الرواية الأدبية وحدها ولا سبيل إلى توسيع البحث فى الحديث عن غيرها .

فليس للرواية الأدبية إذن علم للسند ونقده ، بل ليس للرواية الأدبية سند كالسند الذى عرفه الحديث النبوى ، وقصارى السند فى الأدب – حين يوجد – أن يكون دليلاً على أن الراوية قد لقى العلماء وأخذ علمه من أفواههم فى مجالس العلم ولم ينقله من صحيفة .

غير أن لكل إطلاق تقييداً ، وتقييد هذا الإطلاق ، الذى قدّمناه ، فى بعض دواوين الشعر . ولكنه تقييد لا يكاد يقيِّد ، بل إنه ليزيدنا اطمئناناً إلى ما قدّمنا من إطلاق . وتفصيل ذلك أن حديثنا السابق كان منصبًّا على ما فى كتب الأدب العامة من أدب الجاهلية : شعرها وأخبارها . ولكن ثمة دواوين للشعر الجاهلى جمعها بعض علماء الطبقة الأولى من الرواة ودوّنوها ، ثم أخذها عنهم تلاميذهم من علماء الطبقة الثانية ودوّنوها روايةً عنهم ، وأضافوا إليها بعض ما سمعوه من هؤلاء الشيوخ : من تفسير لغريبها ، أو شرح لأبياتها ، أو ذكر مفصل لما تعرض له من حوادث وإشارات تاريخية . ثم جاء رجال الطبقة الثالثة من العلماء والرواة فأخذوا هذه الدواوين – التى جمعها رجال الطبقة الأولى – عن علماء الطبقة الثانية ، وأضافوا إليها أيضاً ما سمعوه من هؤلاء العلماء من شرح وتفسير وبيان تاريخى . وقد بقيت بعض هذه الدواوين حتّى وصلت إلينا ، وفى صدر بعضها سند يبدأ بعالم راوية فى القرن الرابع أو أواخر القرن الثالث وينتهى بعالم من رجال الطبقة الأولى . وقد يكون الديوان خليطاً من روايات عدة

جمعها لنا العالم الأخير بعد أن رواها عن شيوخ مختلفين ، كل شيخ منهم رواها عن شيخ أو شيوخ سابقين ، أو قد يكون الديوان كله رواية واحدة من حيث الشعر ولكن شرحه وتفسير غريبه مرْوِىٌّ عن شيوخ متعددين ، ويكون العالم الراوية الذى جمع لنا كل ذلك حريصاً على أن يسند كل قصيدة إلى راويها لأصلى، وأحياناً ينص على ما فيها من أبيات تفرّد بروايتها راوٍ دون آخر ، مما سنعرض له بالبيان فى الفصول التى سنعقدها عن الدواوين فى آخر هذا الكتاب.

الباب الرابع

الشك فى الشعر الجاهلى

(الوضع والنحل)

الفصل الأول

المشكلة الهومرية

١

الشك فى الأدب القديم ، الذى أنشأته الأمم فى جاهليتها وبداوتها ، ظاهرة لا تقتصر على الشعر العربى وحده ، ولكنها عامة تكاد تشمل الأدب القديم كله عند جميع الأمم التى كان لها أدب معروف مدروس . ولعل خير ما نمهد به بين يدى بحثنا هذا عن النحل والوضع فى الشعر العربى الجاهلى — أن نعرض ، فى إيجاز ، الملامح الأساسية لجهود الدارسين الأوربيين الذين عُنُوا بدراسة الشعر الإغريقىّ القديم ، وخاصةً هومر وملحمتيه . ولسنا ، فى هذه الدراسة المقارنة ، بِدْعاً بين الدارسين ، فقد لجأ إليها الأوربيون أنفسهم حين تعرضوا لدراسة الشعر الإغريقىّ وهومر ، وحاولوا أن يتلمسوا فى آداب الأمم الأخرى ما يعينهم على المضىّ فى سبيلهم وينير لهم بعض دياجيها [1] . فنراهم يبحثون فى شعر الأمم البدائية ونشأته وطرق حفظه وروايته ، ويوازنون بين ملحمتَى هومر والملحمتين السنسكريتيتين : المهابهارتا والرامايانا من جانب ، والقصائد والأغانى الشعبية فى العصور الوسطى عند الأمم الأوربية نفسها من جانب آخر ، ثم يوازنون آخرَ الأمر بين ملحمتَى هومر والملاحم الأوربية التى نُظِمت فى عصور أكثر حضارةً

---

(١) انظر R.G. Jebb, Homer : An Introduction to The Iliad and The Odyssey, P. 131-136.

وانظر أيضاً W.D. Geddes, The Problem of the Homeric Poems, P. 4, f.n. 2, P. 10

وكذلك C.M. Bowra, Tradition and Design in The Iliad, Introduction 7-8.

وأوفر علماً من عصر الإلياذة والأوديسة من مثل إنيادة فرجيل ، والفردوس المفقود لملتون — من جانب ثالث .

ولم يعتسف جلّةُ هؤلاء الدارسين سبيل تلك الموازنات اعتسافاً ، وإنما صدروا عن بيّنة ، وأقدموا على بصيرة ، ومضوا يقظين متنبهين ، مدْركين أنهم بهذه الموازنات لا يصحّ أن ينخدعوا بالمشابه الظاهرة والوشائج الواضحة ، بل لا بد لهم من أن يتنبهوا لوجوه الخلاف ومناحي الافتراق . فهم يوضحون ، فيما يوضحون ، الخلافَ بينَ ملحمتيْ هومر والملحمتين الهنديتين فى الوحدة والاتساق اللذين يتنظمان الأولَيَيْن ويُفتقدان فى الأخرَيَيْن ، والخلاف بين ملحمتى هومر والأغانى الشعبية فى الخطة والنسق والنظام ، والخلاف بينهما وبين الملاحم التالية فى مظاهر العصر وما يتبع هذه المظاهر من مصادر علمية وفنية نهل منها شعراء الملاحم التالية وتأثروا بها ، ولم ينل منها ناظم الإلياذة والأوديسة نصيباً . وهؤلاء الدارسون يرتّبون على هذا الخلاف والافتراق من النتائج ما يعصمهم فى أحيان كثيرة من الانخداع بما للتشابه الظاهرى من بريق مُغْرٍ . ومع هذه الحيطة والحذر البالغين نرى دارساً من ثقات المتخصصين فى دراسة هومر لعهدنا هذا ، هو الأستاذ سيسيل موريس باورا ، يعتذر لنفسه بقوله[1] : « إن المقابلة واستخراج وجوه الشبه بين الأشياء وسيلةٌ موحية ملهمة ولكنها خادعة مضللة ، وأنا مدرك أنها قد تكون خدعتنى وضللتنى » .

وبعد ، فسأعرض فى هذه الصفحات بعض وجوه الشبه بين الشعر العربى الجاهلى والشعر الإغريقى القديم ، وسأخلُص من هذا العرض الموجز إلى الحديث عن ثلاث نقاط تتصل اتصالاً وثيقاً بما قدمتُ وما سأقدم من حديث عن الشعر الجاهلى ومصادره . أولاها : مَنْ نظم الإلياذة والأوديسة وصحةُ نسبتهما إلى هومر ؟ والثانية : وسيلة حفظ الشعر الهومرى ، أكانت الرواية الشفهية أم الكتابة ؟

---

(١) C.M. Bowra, Tradition and Design in the Iliad, preface, 8.

والثالثة : المدارس اللغوية القديمة التي درست شعر هومر ونقدته بعد أن جمعته ودوّنته .

أما التشابه بين الشعر الجاهلي والشعر الإغريقي ، في ملامحهما العامة وأوائل تطورهما ووسائل تحملهما وتاريخ العناية بهما ودراستهما عند القدماء ، فتشابهٌ قد اتضحت صورته في نفسي منذ أن اتصلت ، شيئاً ما ، بالشعر الإغريقي وتتبعت قدراً صالحاً مما كتبه الدارسون عنه . وأراني في حل من بسط القول بسطاً يستقصي الأمور ويلم أطرافها ويحتاط لمزالقها في هذا الموضوع ، ما دمت سأعرض للأمر من أصوله العامة وأتجنب الخوض في فروعه ودقائقه ، وما دمت متخذاً من هذا التشابه مدخلاً لبيان النقاط الثلاث التي ذكرتها دون تحميله من النتائج ما يتجاوز ذلك .

١ — فالشعر الجاهلي وشعر هومر هما أقدم شعر وصل إلينا من العرب والإغريق ، وهما — على ذلك — ليسا أول شعر قالته هاتان الأمتان ؛ بل لقد سبقتهما مراحل تطور فيها الشعر حتى استوى في هذه الصورة التي وصلت إلينا . غير أن هذا الشعر المبكر عند العرب واليونان معاً قد ضاع ولم يحفظ لنا منه شيء قائم بنفسه منفصل عن غيره . ومع ذلك فإننا نستطيع أن نعرف وجود هذه المراحل السابقة من أمرين ، أولهما : أن هذه الصور الشعرية التي وصلت إلينا صور فنية كاملة ، متسقة ، تامة التكوين ، سويّة البناء ، ثابتة الأسس ، حتى لقد أصبحت ، بعد ، نماذج فنية تحاكى وتحتذى ويتخذ منها عمودٌ للشعر يحرص على التزامه شعراء العصور التالية في البيئات المتعددة التي صارت أزهى حضارة وأرقى ثقافة وأغزر معرفة . وليس يصح في الأفهام أن تنبت هذه الصورة الكاملة السوية من العدم ، أو تقوم من الفراغ ، أو تولد فجأة يافعة تامة التكوين . وثانيهما : أن في كلا الشعرين إشارات واضحة حيناً ومبهمة أحياناً — إلى شعراء سابقين لا نكاد نعرف عنهم شيئاً (١) .

(١) لعل أوضح مثال على ذلك في الشعر الجاهلي هو « حذام » في شعر امرئ القيس على

٢ — والشبه كبير بين الشعرين العربي الجاهلي والهومري في الصفات العامة للتعبير الشعري ، فهما يتسمان بالنضارة والغضارة والبساطة ، وبالفتنة التي نعزوها إلى « طفولة العالم » عند اليونان ، و « سذاجة البداوة » عند العرب . ومع ذلك فما أشبه الشعر الجاهلي العربي بالشعر الهومري الذي «تعالى على خشونة الشكل ، وتجنّب الصراع الناشب بين المعنى واللفظ ، وارتفع عن الحوشي المبتذل من أساليب القول، واستطاع أن يحتفظ بمستواه الرفيع حفظاً متزناً ، وبذلك تجنب هذه الخصائص التي يتصف بها الأدب في عصره البدائي . وهذه الميزات العامة هي التي يصفها ماثيو أرنولد — في محاضراته الممتازة عن ترجمة هومر — حيث يقول : إن لأسلوب هومر أربع مزايا كبرى : فهو منساب متدفق، سهل ميسور في فكرته ، واضح في خياله ، ونبيل سامٍ » [١] .

٣ — ولقد اختلف العلماء من دارسي الأدب في تدوين هذين الشعرين : الجاهلي العربي والهومري الإغريقي . فذهب فريق منهم إلى أنهما لم يكتبا منذ أن نُظما، بل بقيا محفوظين في صدور الرجال ترويهما الأجيال المتعاقبة وينشدهما الأفراد في المجالس والمحافل قروناً طوالاً قاربت الثلاثة عند العرب وأربت على ذلك عند الإغريق . وذهب فريق آخر منهم إلى أن هذا الشعر قد كتب منذ أن قاله شعراء العرب في الجاهلية وهومر عند اليونان . أما تفصيل هذا الأمر عند العرب فقد بسطنا فيه القول في الفصول المتقدمة وسنعود إليه في مواطن متفرقة فيما سيلقانا من صفحات . وأما تفصيله عند اليونان فهو ما سنوضحه بعد قليل .

= اختلاف في قراءته . وأما تفصيل هذا الأمر في الشعر الهومري فني :

1) R.G. Jebb, Homer : An Introduction to The Iliad and The Odyssey P. 1-2.

2) W.D. Geddes, The Problem of the Homeric Poems P. 21.

3) Thomas W. Allen, Homer : The Origins and The Transmission,

ويذكر توماس ألن في كتابه هذا ص١٢١ أسماء عدة شعراء قبل هومر ، ثم يجمع في (ص١٣٩ وما بعدها) الأدلة — التي يستخرجها من الإلياذة والأوديسة — على وجود شعراء سابقين لهومر .

(١) Jebb, Homer P. 12

٤ — والشعران الجاهلي العربي والهومري مصدران تاريخيان من مصادر الحياة الجاهلية عند هاتين الأمتين ؛ بل ربما كانا — حتى الآن — المصدرين الأساسيين اللذين يعتمد الدارس عليهما في فهم هذه الحياة — في كثير من جوانبها — فهماً متصلاً متسقاً . وجل الأخبار التاريخية والأدبية التي نقلها الرواة إنما كانت تدور حول هذا الشعر : تفسره وتشرح ما يتضمنه من حوادث ، وترجم لمن يشير إليه من أشخاص . وقد لجأ القدامى أنفسهم إلى الشعر العربي الجاهلي يستنطقونه ويستنبطون منه توضيح بعض جوانب الحياة في الجاهلية ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، منها ما فعله ابن قتيبه في كتابه « الميسر والقداح » ، وما فعله أبو طالب المفضل بن سلمة في كتابه « الملاهي وأسماؤها » . وأما الشعر الهومري فهو أيضاً أول سجل يعرض صورة واضحة نابضة بالحياة للحضارة الآرية ، ولقد كادت فترة طويلة من الحياة الهيلينية المبكرة تكون لولاه نسياً منسياً ، ولكنها الآن بفضله تبدو متصلة بالعصر الهيليني التالي في نسق متدرج مستمر[١] .

٥ — وكان الفضل الأول ، في جمع الشعرين الجاهلي العربي والهومري وتدوينهما ونقدهما ، لمدرستين لغويتين أدبيتين ؛ قامت أولاهما في الإسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد ، فجمعت ما استطاعت العثور عليه من مخطوطات الإلياذة والأوديسة ، وقابلت بينها ، وأثبتت القراءات المختلفة للنص الشعري ، وعلقت عليه كثيراً من التعليقات والشروح ، ثم تابعتها بعد ذلك مدينة برجامس. وقامت ثانيتهما في البصرة والكوفة منذ منتصف القرن الثاني الهجري ، فصنعت بالشعر الجاهلي صنيع أختها بالشعر الهومري . وعلى ما أرسته هاتان المدرستان من أسس ، ووضعته من قواعد ، قام البناء الشامخ لدراسة الشعر الهومري والشعر الجاهلي العربي بعد ذلك .

٦ — ولم يقتصر عمل هاتين المدرستين على الجمع والتدوين والشرح والتعليق ،

---

(١) Jebb, Homer P. 1, 38, 84-85

وإنما تعدى ذلك كله إلى النقد الدقيق القائم على الفهم العميق لطبيعة كل من الشعرين واستشفاف روحه ، والتنبه لما تسرب إليه من دخيل منحول وزائف مصنوع . ونبتت فى نقد هاتين المدرستين ويقظتهما الواعية — الجذور الأولى التى أخذت تنمو وتعمق حتى بلغت مداها فى القرن الثامن عشر عند الألمان ، واكتملت صورتها عند ولف فى كتابه « المقدمة Prolegomena » ، ونشأ منها ما يعرف فى النقد الحديث « بالمشكلة الهومرية Homeric Question » ؛ وتأثرها — فيما يبدو — دارسو الشعر الجاهلى من المحدثين ، معتمدين على ما تنبه له القدماء من مدرسة البصرة والكوفة ، فقامت عندهم — منذ مطلع القرن العشرين — مشكلة أخرى عُرفت باسم «نحل الشعر الجاهلى » ، بدأها المستشرق الإنجليزى مرجليوث ، واكتملت صورتها عند الأستاذ الدكتور طه حسين . وسنعود بعد قليل إلى بسط الحديث فى هاتين النقطتين الأخيرتين .

أوَليس إذن من المفيد حقًّا — بعد أن عرضنا هذه الوجوه الكثيرة للتشابه القريب بين الشعرين — أن نستبين جهود الدارسين من العلماء الأوربيين الذين بحثوا فى الشعر الهومرى ؟ وأن نعرف ، على وجه التخصيص ، ما وصلوا إليه من أمر النقاط الثلاث التى قدمنا الإشارة إليها ، وهى : مَنْ نظم الإلياذة والأوديسة وصحة نسبتهما إلى هومر ، ووسيلة حفظ الشعر الهومرى : أكانت الرواية الشفهية أم الكتابة ، ثم المدارس اللغوية القديمة التى درست شعر هومر ونقدته بعد أن جمعته ودونته ؟

٢

أما من الذى نظم الملحمتين الهومريتين [١] فموضوع لم يصل الدارسون له ،

(١) القصيدتان الهومريتان هما الإلياذة والأوديسة ، والنص على أنهما هومريتان لا يتضمن فى هذا المجال أن شاعراً مفرداً بعينه هو ناظم القصيدتين أو ناظم إحداهما .

برغم ما بذلوا من جهد خصب ، إلى نتيجة يستقرون عندها ، ويبدو أنهم لن يصلوا مهما يبذلوا من جهد ؛ وستبقى الآراء مختلفة متشعبة لا تتوحد ولا تكاد ، وستظل الأدلة التى يقدمها الدارسون افتراضية ترجيحية لا ترقى إلى مرتبة القطع واليقين . وتدور هذه الآراء حول عدة افتراضات ؛ منها :

(١) وحدة التأليف :

فقد ظل الدارسون قروناً طوالاً يعتقدون اعتقاداً لا شك فيه بوجود شاعر اسمه هومر ، وأنه هو الذى نظم الإلياذة والأوديسة لاينازعه فى نسبتهما إليه منازع . ولم يكن اليونان وحدهم فى القرون الخمسة التى سبقت الميلاد — وهى القرون التى وصلتنا منها آثار أدبية مكتوبة — يذهبون مثل هذا المذهب ، بل شاركهم فيه الدارسون بعد الميلاد قروناً طويلة حتى القرن الثامن عشر الميلادى . ومع هذا فقد كانت شخصية هومر عندهم غائمة تغشيها أساطير متضاربة[١] . وحقاً قد وجد نفر قليل من الشاكين غير أن أثرهم كان ضئيلاً محدوداً ولم يتبعهم أحد . وكل ما نعرفه عن هؤلاء الشاكين إشارات عابرة إلى آرائهم موجودة فى حواشى نسخة البندقية من الإلياذة Codex Venetus ؛ ويستخلص من هذه الإشارات العابرة إلى آرائهم أنهم كانوا يذهبون إلى أن القصيدتين من نظم شعراء مختلفين وفى عهود متعاقبة . ولكن الرأى السابق هو الرأى العرفى التقليدى الذى كان سائداً عاماً ، حتى إن سويداس Suidas فى نحو سنة ١١٠٠ م كان لا يزال يرى أن الإلياذة والأوديسة نظمهما هومر دون نزاع ؛ بل إن بنتلى Bentley فى مطلع القرن الثامن عشر كان يذهب إلى أن شاعراً كان يسمى هومر عاش فى نحو ١٠٥٠ ق . م كتب الإلياذة والأوديسة كلتيهما[٢] .

والحق أن فكرة وجود شاعر واحد تاريخى اسمه هومر نظم الإلياذة قد بقيت

---

(١) انظر Jebb, Homer, P. 88, 103 ، وكذلك : Geddes, The Problem of The Homerc Poems, 5

(٢) Jebb, Homer, 109. 105-106 ، وكذلك : Geddes, P. 6

خلال العصور على الرغم من أبحاث الناقدين المتشككين . فنحن نجد عالماً معاصراً فى القرن العشرين من الثقات المختصين بهومر والشعر الإغريقى يذهب هذا المذهب فيقول [١] : « ويبدو من المحتمل أنه كان ثمة شاعر مفرد اسمه هومر صاغ الإلياذة فى صورتها النهائية الأخيرة ووحدتها الفنية، ولكنه كان يعمل وفاقاً لأسلوب موروث متواضع عليه ومادة تتناقل وتتوارث » . ويقول فى موطن آخر من كتابه [٢] : « غير أننا — إذ ندعى أن تقسيم الإلياذة إلى نتاج مؤلفين مختلفين أمر مستحيل — ستتخذ الأدلة التى عثر عليها النقاد لهدف مختلف عن ذلك كل الاختلاف ، هو : تفسير بعض الخصائص الواضحة على أساس افتراضنا أنها جميعها ترجع إلى شاعر فرد يستخدم موضوعات ومواد جاهزة بأسلوب وطريقة يمليهما التراث الموروث الذى أصبح هو وريثه » . ثم يقول بعد صفحات [٣] : « لقد نمت الإلياذة وربما كان نموها وفقاً للخطوط التى بيناها فى هذا الكتاب . وكان من الجائز أن ينتهى مثل هذا التطور والنمو إلى فوضى واضطراب ، كما حدث فى المهابهارتا ، لو تعهدته يد غير صناع ، ولكن الملحمة فى زيونيا كانت أسعد حظاً ، فقد وجدت فى هومر شاعراً له من الموهبة ما جعله يتناول المواد الموروثة ويجعلها ملكه ، فوسعها وطورها ، وأضفى عليها تفرداً فى الأسلوب والفكرة ، فحول المواد المتضاربة إلى قصيدة واحدة ، وقد بلغ عمله من النجاح مرتبة عالية بحيث انتهت حقاً الملحمة الإغريقية بها . وقد نظم بعده بعدة طويلة شعراء آخرون ملاحم ، ولكنهم صاغوا على منواله ، وكان هو الذى ثبت أسلوبهم وأرسى قواعده ، فعمله بعيد عن أن يكون جمعاً . لقد استخدم المناهج والقصص المتوارثة ولكنه أخضعها لغايته الفنية ، وفرض شخصيته الخاصة عليها ، وكانت نتيجة ذلك الإلياذة » .

---

(١) C. M. Bowra, Tradition and Design in The Iliad, P. 1.

(٢) المصدر السابق ص : ٢ .

(٣) المصدر السابق ص : ٤٨ .

(ب و ج) ثنائية التأليف وتعدّد التأليف :

وقد آثرنا أن نجمع هذين الافتراضين معاً لتداخلهما وتشابكهما وصعوبة الفصل بينهما كما سيبدو بعد قليل .

لقد ذكرنا آنفاً أنه كانت ثمة نظريتان عن القصيدتين الهومريتين ، ولكن إحداهما كانت قد اندثرت فى الواقع ، فسادت النظرية التقليدية بلا منازع خلال العصور حتى القرن الثامن عشر الميلادى ، حينما قام فردريك أوغست ولف F. A. Wolf فى ألمانيا ودرس القصيدتين دراسة نقدية دقيقة ، وأخرج سنة ١٧٩٥ كتابه « المقدمة Prolegomena »[١] عرض فيه نظريته الشهيرة[٢] . وبالرغم من منزلة ولف فى عالم الدراسات القديمة « الكلاسيكية » ، وبالرغم من شهرة نظريته وذيوع صيتها ، فقد ذهب العلماء فى فهمها ودرسها مذاهب مختلفة ، بل إن تلامذة ولف حين أخذوا يوسّعون نظريته ويفصلون ما أجمل ، اختلفوا فيما بينهم وسلكوا طريقين متباينين بل طرائق متعددة . فالدكتور ر . س . جب يورد لنا الأسس التى حاكم عليها ولف القصيدتين ، ثم يصف لنا هذه النظرية بقوله[٣] : « ومع ذلك فقد كان وُلْف أبعد ما يكون عن إنكار وجود شخص هومر ، فهو يفرض أن شاعراً ذا موهبة ممتازة ، ويسميه فى أكثر الأحيان هومر ، "بدأ نسج القماش واستمر فيه إلى أمد معلوم" ، بل ذهب إلى أكثر من ذلك حينما قال : " نسج هومر القسم الأكبر" من الأغانى التى جمعت بعدُ فى الإلياذة والأوديسة . هذا ما قاله ولف فى كتابه المقدمة بل لقد قال هذا القول فى صورة أوكد فى مقدمة طبعته للإلياذة التى طبعت فى نحو الوقت نفسه . قال : "لا ريب

---

(١) مقدمة ولف التمهيدية Prolegomena كتاب صغير صفحاته ٢٨٠ من قطع الثمن وقد طبع فى Halle سنة ١٧٩٥ .

(٢) وجد قبل ولف علماء درسوا القصيدتين الهومريتين وكانت لهم آراء جزئية يصح أن تعد إرهاصات لنظرية ولف ، ولم نجد حاجة لعرضها ، وقد ذكرها الدكتور جب فى كتابه عن هومر ص ١٠٥ — ١٠٧ .

(٣) Jebbe, Homr, P. 109 - 110,

أنّ النسج قد بدئ به فى الإلياذة والأوديسة على السواء ، وقد استُمير فى ذلك إلى أمد معين ، وقام بذلك الشاعر الذى فكر فى هذا الأمر ابتداءً . وقد يكون من المستحيل أن نبين ، ولو بالفرض الممكن ، الحدود الدقيقة التى تبدأ عندها الخيوط الجديدة والزيادات الدخيلة ؛ ولكن هذا سيثبت على الأقل — إن لم يجانبنى الصواب — أنه لا بد لنا من أن ننسب إلى هومر وحده القسم الأكبر من الأغانى ، وأن ننسب الباقى إلى جماعة الهومريين الذين اقتفوا أثره » .

بينما نجد الدكتور وليم د . جديس William D. Geddes يصف لنا نظرية ولف وصفاً يُفْهَم منه ما يختلف عن وصف جب ، قال جديس[١] : « أثار ولف أولاً هذا السؤال : أهومرُ واحدٌ أو حتى هومران اثنان كافيان لخلق القصيدتين الهومريتين ؟ أوَلسنا بحاجة إلى مجموعة من الهومريين ننسب إليهم قصيدتين فى مثل هذا الاتساع فى عصر بدائى؟ ومن هنا قدّم نظريته الشهيرة فى " المقدمة " وهى أن هومر لم يكن شاعراً واحداً ، كما يرى العرفيون أو التقليديون ، ولم يكن كذلك شاعرين اثنين ، ولكنه كان اسماً تاريخيًّا يطلق للدلالة على الجهد أو النشاط الشعرى فى العصر الملحمى المبكر ، ويشمل مجموعة من الشعراء لا شاعراً فرداً » .

ومن هنا نستطيع أن نستبين صدق وصف جب لنظرية ولف بالمرونة فى قوله[٢] : « إن الأثر الدائم لعمل وُلْف لا يعود إلى القوة التى صيغت بها نظريته حسب ، بل أيضاً إلى مهارته فى الهروب من جعلها دقيقة محكمة . إن إحساسه الأدبى الذى أدرك المزايا الداخلية التى جعلت كل ملحمة وحدة عامة ، خفف من حدة استخدامه للأدلة والمناقشات الخارجية . فهو لم يحاول أن يحدد تحديداً دقيقاً القدر الذى نظمه الشاعر الأصلى ، وأين يبدأ عمل الشعراء

---

(١) The Problem of The Homeric Poems, P. 7-8.

(٢) Jebb, Homer, P. 117 f.

الآخرين، وكيف يختلفون . ومن هنا كانت لفظة « الولفية » مرنة مطاطة تشتمل على ظلال آراء مختلفة متعددة . لقد طُبِّقت أحياناً فى أضيق الآماد ، وأحياناً أخرى فى أوسعها وأرحبها . إن النظرية الولفية الخاصة المميَّزة لا تعدو أن تكون ما يأتى : إن القصائد الهومرية جمعت ، فى بداية العصر الأدبى عند الإغريق ، من أغانٍ وأناشيد قصيرة غير مكتوبة تحدرت من عهد بدائى . أمّا كم من هذه الأغانى القصيرة نحسّ أنها من نظم شاعر واحد فأمرٌ ثانوى فرعى . إن رأى ولف ، كما رأينا ، هو أن الشاعر الذى بدأ مجموعة الأغانى قد نظم أكثرها أيضاً ، وأن الشعراء التالين له واصلوا السير فى حدود الخطوط العامة لعمله » . ثم يقول جب : « لقد اتجهت التطورات الأصيلة لنظرية ولف فى اتجاهين عامين : أحدهما إظهار أثر الشاعر الأول من مجموعة الشعراء أقل مما صوره ولف — ويمثل هذا الاتجاه لاخمان Lachmann . وأما الثانى فإظهار أثره أقوى وأشد — ويمثل هذا الاتجاه هرمان Hermann » .

أما لاخمان فقد « قسم الإلياذة إلى ثمانى عشرة أغنية منفصلة . ويشيع فى نفوسنا الشك ، ويوحى إلينا أنها تعزّى إلى ثمانية عشر ناظماً . وأيّاً كان الأمر فهو يرى أن كل واحدة من هذه الأغانى كانت فى أصلها مستقلة استقلالا ما عن الأخريات . وميزانه الرئيسى هو تناقض التفصيلات والجزئيات . . . ثم يؤكد أيضاً أن كثيراً من الأغانى تختلف اختلافاً كاملاً فى روحها العامة » .

وأما هرمان فقد طوّر نظرية ولف بما يتفق مع روح ولف . ويدرك هرمان صعوبة واحدة تركها ولف غير مفسرة ، فقد قال ولف : « إن نسج القماش الهومرى قد بدأه الشاعر الأول الرئيسى الذى واصله إلى حد معلوم ، ثم أتمه آخرون » . ولكن لماذا لم يواصلوه إلا فى هذه الحدود الضيقة ؟ ولماذا حصروا أنفسهم فى نطاق أيام معدودات من حصار طروادة ؟ ولماذا لم يغنّوا لعودة بطل آخر غير أوديسوس ؟ يجيب هرمان عن ذلك بقوله : لأن الشاعر البدائى العظيم « هومر » لم يكتف بأن يواصل نسج الخيط إلى حد معلوم ، بل رسم التخطيط العام

لإلياذتنا والتخطيط العام لأوديستنا ، مستخدماً المواد الأولى أوسع استخدام . ولم يكن عمل التالين أن يواصلوا نسج خيط فى النسيج ، بل أن يتموا التخطيط داخل نطاق ثابت معلوم .

فنحن نرى إذن أن الفكرة الأساسية التى شاعت عند ولف والولفيين الحقيقيين مثل لاخمان وهرمان هى أن هومر كان شاعراً بدائياً نظم أغانى قصيرة غير مكتوبة ذات وحدة مترابطة ، ولكنها لم تبلغ منزلة الملحمة الكاملة ، حتى جاء بعده من أتمها وأوصلها إلى منزلة الملحمة . وقد كان لهذه النظرية رد فعل ، فقام من العلماء الدارسين من ذهب مذهباً يختلف فى جوهره عن مذهب ولف وتلاميذه ، وهو يعتمد فى أساسه على أن هومر ليس مغنياً بدائياً وإنما هو ذلك الفنان الشاعر العظيم الذى جاء بعد عهد الأغانى القصيرة فصاغ ملحمة ذات آماد واسعة ، فهو بذلك منشئ ما يسمى بـ Epopee . وسنشير إلى ثلاثة ممن ذهبوا هذا المذهب فى جوهره وإن اختلفوا فى بعض أجزائه . أولهم[1] : نيتش G.W. Nitzsch . وهو يرى أن قصائد Cyclic Epics التى انحدرت إلينا من القرنين السابع والثامن قبل الميلاد توحى بأن الإلياذة والأوديسة بمعالمهما الحاضرة وصورتيهما قد سبقتا هذه القصائد ، وأن هذه القصائد قصد منها أن تكون ملاحق أو مقدمات تمهيدية للقصيدتين الهومريتين . ويقول نيتش عن هومر : « إننى أعنى بهومر ذلك الرجل الذى ارتقى بتلك الأغانى القصيرة المتعددة التى نظمها الشعراء المغنون القدامى عن الحرب الطروادية ، وصاغ الإلياذة — التى كانت فى أصلها تتحدث عن "مجلس زيوس" حسبُ — فجعلها الإلياذة التى نعرفها والتى تقص قصة "غضب أخيل" » . وهكذا يرى نيتش أن هومر شاعر قديم جداً ، وهو جدير بأن تؤرخ به بداية عصر . وأنه وجد عدداً من الأغانى القصيرة عن طروادة ، فأتم عملاً ذا صبغة جديدة ، وذلك بأن أقام — مستعيناً بهذه الأغانى — ملحمة كبيرة تقص غضب أخيل . وقد حدثت بعد ذلك تغييرات ومنحولات

---

(١) جب ، هومر : ١٢١ — ١٢٥ .

فرعية ، غير أن الإلياذة التي نعرفها فى أغلبها نظمُ شاعر واحد ، والأوديسة التي نعرفها ربما نظمها الشاعر نفسه ؛ وأن هاتين القصيدتين قد استقرت صورتهما الحاضرة — فى جوهرها — قبل سنة ٨٠٠ ق . م بزمن غير قصير .

وثانيهم : جروت Grote وهو متفق مع نيتش فى جوهر رأيه القائم على أن هومر ينتمى إلى الطور الثانى من أطوار الشعر البطولى لا إلى الطور الأول ، أى أنه ناظم ملحمة كبيرة لا قصائد بدائية ذات أغان قصيرة . غير أنه يرى أن الإلياذة التي بين أيدينا خرجت عن نطاق القصيدة الكبيرة كما نُظمت فى الأصل وزادت عليه . لقد كانت تلك القصيدة الأولى عن غضب أخيل ، ولذلك فقد كانت أخيلية An Achilleid ، ثم عمد شاعر آخر أو شعراء إلى تحويلها إلى قصيدة تقصّ قصة الحرب الطروادية عامة ، فصارت الإلياذة . لقد أضيفت إليها قصائد غنائية كاملة لا علاقة لها بالأخيلية الصرفة ولكنها تعترضها أو تطيلها .

والثالث : جديس William D. Geddes . وقد ألف كتاباً[1] يشتمل على بحث واسع شامل فى قصيدتى هومر العظيمتين ، والهدف منه أن نوضح ، من الأدلة والبراهين الداخلية وحدها ، علاقة كل من القصيدتين بالأخرى وترابطهما — إن استطعنا» . ثم يقول جديس : « وقد انتهى بى البحث — بطريق الأدلة وحدها غير متحيز لآراء سابقة — إلى أن أقبل رأى جروت Grote فى بناء الإلياذة المركب (الثنائى) ، فهو الرأى العلمى الوحيد الذى ينال قبولاً . فنى تلك القصيدة تأليف مزدوج (ثنائى) ، والأخيلية Achilleid فى الإلياذة هى النواة ، وقد نظمها شاعر آخر غير الشاعر الذى نظم القشور التي تحيط بها ، وأعتقد أن الحقائق تشير إلى هذا الرأى فى وضوح وبيان . وإنى أبيح لنفسى أن أزعم أنى قد قدمت أدلة جديدة تثبت صحة رأى جروت ونفاذ بصيرته فى النقد . وقد تتبعت هذا الموضوع بعد المرحلة الابتدائية التي خلفه فيها جروت ، ووجدت اتصالاً

---

(١) اسم كتابه : The Problem of The Homeric Poems ، وقد طبع فى مطبعة مكملان فى لندن سنة ١٨٧٨ وانظر ص ٣ إلى ٤ من المقدمة .

وثيقاً بين الأوديسة والأجزاء غير الأخيلية من الإلياذة ، ووجدت أن الأدلة تتجه اتجاهاً ملحوظاً إلى ربطهما كليهما بهومر الواحد الشخصي الذى تذكره الروايات».

وربما كان خير ما نعقب به على هذه الآراء المتباينة والنظريات المتضاربة ما أورده جديس نفسه فى كتابه بعد أن عرض وجوه الرأى المختلفة قال[١] : « يبدو لنا من هذا العرض العام للميدان أن معركة النقد كانت سجالاً ، وما زالت الجيوش فى المعسكرات عاجزة عن استدراج خصومهم من خنادقهم ، فنحن نرى ، من جانب ، صفاً من النقاد يدّعون وحدة التأليف ، ويرون أن الاختلافات والفروق إنما هى شكلية خارجية عارضة يسهل تفسيرها وإرجاعها إلى وسيلة النقل والرواية ، وهى لذلك ليست جوهرية . ونرى ، من جانب آخر ، صفاً معادياً من النقاد مساوين لخصومهم فى العلم والحذق ، وأكثرهم فى ألمانيا ، يتجهون إلى تعدد التأليف ، فكل قصيدة — كما يرون — مجموعة ملفقة ليس فيها ترابط أصيل ، فالفروق والاختلافات إذن جوهرية لا يمكن اجتنابها . وفى مكان سوّى بين هذين ، وتحت وابل رصاصهما كليهما ، يقف صف مشرد ضالٌ شيئاً ما ، هو صف الانفصاليين الذين يرون أن كل قصيدة مفردة ذاتُ وحدة ولها ناظم غير ناظم الأخرى . والداعون إلى الوحدة فى الأصل والتأليف يعارضون الولفيين الداعين إلى تعدد الأصل والتأليف ، بينما يتلقى الداعون إلى ازدواج الأصل والتأليف (الثنائية) الهجوم منهما كليهما . . » وكلما مضى المرء فى تتبع دراسات العلماء عن القصيدتين الهومريتين ، وأمعن فى الغوص فى أعماق أجزاء الدراسة وتفصيلاتها ، لم يسعه إلا أن يتذكر رأى سنيكا Seneca الذى أعلنه منذ عشرين قرناً حين رأى النقاد يتدارسون هاتين القصيدتين ويبحثون أصلهما وتأليفهما ؛ فقد كان يرى أن هذه الدراسة أمر يتطلب حذقاً ومهارة ولكنه حذق غير منتج ومهارة غير مُجدية[٢] .

---

(١) المصدر السابق : ١٠

(٢) جب ، هومر : ١٠٣ — ١٠٤

٣

وسيلة حفظ الشعر الهومرى : الرواية الشفهية أم الكتابة ؟

وقد اختلف الدارسون في هذا الموضوع كما اختلفوا فى سابقه ، وإن كانت شقة الخلاف هنا بطبيعتها أضيق . فقد ذهب بعضهم إلى أن القصيدتين الهومريتين لم تدونا إلا بعد نظمهما بقرون طويلة ، بينما ذهب فريق آخر إلى أنهما دونتا منذ أن نظمتا . فمن الفريق الأول : يوسيفوس Josephus – فى القرن الأول الميلادى – وهو أقدم من نعرف ممن ذهب هذا المذهب فقد قال[١] : « لا يمكن أن يكون الإغريق قد عرفوا فى حرب طروادة هذا الاستعمال الحديث للكتابة الهجائية . ولم يكن للإغريق أدب قبل هومر ، وهومر عاش بعد الحرب . ويقولون إنه حتى هومر نفسه لم يدون شعره كتابة ، ولكن هذا الشعر كان ينتقل بالرواية الشفهية ، ثم جُمع جمعاً من الأغانى المبعثرة ؛ ومن هنا نشأت هذه الفروق التى تبدو لنا » .

ومن هذا الفريق أيضاً روبرت وود Robert Wood[٢] – فى القرن الثامن عشر – وله كتاب : Essay On The Original Genius Of Homer . وقد بحث فى أحد فصول كتابه هذا معرفة هومر للكتابة . وقد خلص من بحثه إلى أنه لم يكن يعرفها . وود هو أول من بحث هذا الموضوع بحثاً نقدياً . وقد قرأ ولف فى عهد طلبه العلم فى جوتنجن مقال وود ، وهو يشير إليه فى مقدمته التمهيدية Prolegomena مثنياً عليه . وكان لهذا المقال أكبر الأثر فى ولف ، بل لقد صار رأى وود فى الكتابة مفتاح نظرية ولف .

---

(١) جب ، هومر : ١٠٥ .
(٢) المرجع السابق : ١٠٧ .

وثالث هذا الفريق هو رأس النقاد: ولف F.A. Wolf. (المولود سنة ١٧٥٩)[١] فقد ذهب فى كتابه « المقدمة » إلى أن القصيدتين الهومريتين قد نُظمتا من غير معونة الكتابة ، إذ أن اليونانيين كانوا حتى عام ٩٥٠ ق . م يجهلون الكتابة جهلاً تاماً ، أو أنهم لم يستخدموها لتقييد الأعمال الأدبية . وهو يرى أن القصيدتين قد نُقلتا فى خلال قرون طويلة بالرواية الشفهية ، فتعاورتهما تغييرات كثيرة عمد إلى بعضها الرواة عمداً وجاء بعضها مصادفة ، وأنهما لم تدونا إلا فى نحو سنة ٥٥٠ ق . م .

أما الفريق الثانى الذى ذهب إلى ترجيح تدوين القصيدتين منذ عهد قديم وربما منذ نظمهما ، فأقدم رجاله : ديودور الصقلى فى القرن الأول قبل الميلاد . فهو يرى أن الشعراء الذين سبقوا هومر قد عرفوا الكتابة واستخدموها فى كتابة أشعارهم[٢] ؛ ويقول إن الشاعر لينوس Linus — وهو الذى اكتشف الأوزان الموسيقية والنغمات — كان أول من أدخل الحروف الهجائية الفينيقية إلى اليونان ، وأن هذا الشاعر كتب بهذه الحروف أعمال ديونيس والأساطير الأخرى ، وبهذه الحروف نفسها كتب أورفيوس وبرونابيدس وهو أستاذ هومر . . .

ومن هذا الفريق أيضاً نيتش G.W. Nitzach[٣] ، وهو يمثل أول رد فعل ذى أثر ضد النظرية الولفية ، فقد أظهر أن استخدام الإغريق للكتابة كان أقدم مما ادعى ولف ، وأنها قد تكون استخدمت لتعين الحافظة قبل أن يكون هناك جمهور قارئ بوقت طويل .

وثالث هذه الطائفة : كرايست W. Christ[٤] الذى يذهب إلى أن الإلياذة قد كتبت قبل عهد بيزيزتراتوس ولكنها لم تدون مجموعةً كاملة ، بل كتبت فى

---

(١) جب ، هومر : ١٠٨ .

(٢) Thomas W. Allen, Homer : The Origins and The Transmission, P. 133.

(٣) جب — هومر : ١٢١ .

(٤) المرجع السابق : ١٢٨ .

صورة هذه الأغانى المفصلة ، وبعناوين وأسماء منفصلة مختلفة ، وبيزيزتراتوس هو أول من جعل هذه المجموعة تدون فى صورة كلٍّ موحد منظم .

وممن يصح أن يكون من هذا الفريق عالمان حديثان لا يقطعان قطع اليقين فى هذا الموضوع ولكنهما يعرضانه عرضاً شاملاً لوجوه النظر المختلفة فى حيطة وحذر ، ثم يخلصان إلى ترجيح كتابة القصيدتين منذ أقدم العهود . أولهما الدكتور جب R,C. Jebb.[1]. وسنبسط رأيه بعض البسط إذ أنه يعرض لوجوه من الرأى ذات قيمة كبيرة فى بحثنا الأصلى عن الشعر الجاهلى . يرى جب أن الفرض الأساسى فى نظرية ولف هو إنكار أن الكتابة الأدبية كانت محتملة الوجود عند الإغريق فى نحو سنة ٩٥٠ ق . م . ثم يقول : ومهما يكن من أمر فإن هذا الفرض ليس ثابتاً مؤكداً كما اعتقد ولف ، وجدير بالعناية أن نلحظ النقاط التالية :

١ — حقًّا إن الشواهد الباقية من النقوش لاترجع إلى أقدم من القرن السابع قبل الميلاد ، غير أنه لا يصح أن نزعم أن استخدام الكتابة على الآثار والنصب سبق استخدامها فى الشئون العادية . بل إن الفرض المضاد أقرب إلى الصواب . وإذا كانت الكتابة الإغريقية على أقدم أنواع الرخام الباقى غير متقنة فإن ذلك لا يدل بالضرورة على أن الإغريق لم يكونوا حينذاك يعرفون فن الكتابة ، بل يدل على أنهم لم يكونوا قد حذقوا نقش الحروف على الحجارة ، وقد يكونون — قبل ذلك بزمن طويل — قد حذقوا الكتابة على مواد ألين وأطرى وأسرع إلى الفناء والضياع : كأوراق الأشجار والرقّ والخشب والشمع .

٢ — إن التبادل التجارى بين الإغريق والفينيقيين — ومنهم اقتبس الإغريق حروف الهجاء — لا بد أنه كان شائعاً منذ نحو ١١٠٠ قبل الميلاد ، بل قبل ذلك . والفينيقيون — كما يشهد يوسيفوس — قد استخدموا فن الكتابة منذ أقدم الأزمنة لا لتسجيل أعمالهم العامة حسبُ بل أيضاً فى شئون حياتهم اليومية . وإنه

---

(١) المرجع السابق : ١١٠ — ١١٥ .

ليكون عجيباً لو أن شعباً له من سرعة الخاطر ما لليونان — فى تقدمه وسبقه فى جميع ضروب الحضارة — قد تأخر عن اقتباس هذا المثل إلى زمن متأخر نسبياً فى تطوره وتقدمه — أى إلى القرن السابع قبل الميلاد .

٣ — ونحن نعلم أيضاً أن قصائد بطولية طويلة — بعضها معروف باسم Cyclic — لم يتح لها من الانتشار ما أتيح لهومر ، قد نُقِلت إلينا من القرن الثامن قبل الميلاد . ومن غير المحتمل أن تكون هذه القصائد المجهولة نسبياً قد حُفظت من غير عون الكتابة . ومن هذه القصائد : The Cypria المنسوبة إلى Stasinus و The Aethiopis المنسوبة إلى Arctinus . ومن المؤكد أن الشاعر Archilochus وشعراء القرن السابع ق . م الآخرين قد استخدموا الكتابة . وولف نفسه يعترف حقّاً بأن الشعراء كانوا أحياناً يستخدمون الكتابة منذ زمن مبكر يرجع إلى سنة ٧٧٦ ق . م .

٤ — إن الاحتمالات ترجح الرأى القائل إن « العلامات المؤذية — Baneful Tokens » الواردة فى الإلياذة (٦ : ١٦٨) تشير إلى ضرب من حروف الهجاء أو الكتابة الهجائية . وحتى لو سلمنا بأنه لم ترد أية إشارة إلى الكتابة فى الإلياذة والأوديسة ، فإنه ليس ثمة دليل سليم يصح أن يستنتج من إغفال الشعر البطولى — المقصود للرواية والإنشاد — هذا الأمر إغفالاً قد يكون تقليدياً متفقاً عليه.

٥ — ويفرض هيرودوتس ، حينما يتحدث عن النقوش الإغريقية التى رآها فى طيبة Thebes أنها ترجع إلى عدة قرون قبل زمنه . ويشبه هذا الاعتقاد بقدم الكتابة عند الإغريق قدماً سحيقاً ما نجده فى الأدب اليونانى فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد .

٦ — إن الأبحاث الحديثة فنّدت الرأى القائل بأن القصيدتين لا بد أنهما نظمتا منذ زمن طويل يسبق تدوينهما لأنهما تستعملان ، فى أحيان كثيرة ، صوتا هو Digamma لا يُعرَف بأنه كان يصوَّر فى حرف فى أية مخطوطة قديمة لهومر .

٧ – إن فكرة « الاستخدام الأدبي للكتابة » تحتاج إلى تعريف وتحديد . فإذا كان المقصود بها « انتشار الكتابة انتشاراً واسعاً في عدة نسخ لقراءة الجماهير » فما لا ريب فيه أنه لا يبدو أن شيئاً من هذا القبيل قد وُجد قبل القسم الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد . ولكن لنفرض أن رجلاً نظم عدداً من أبيات الشعر في مخيلته وخشي أن ينساها ، فإذا كان يستطيع أن يستخدم « العلامات الفينيقية » استخداماً مجدياً ليحفظ حساباته مثلاً أو مذكراته الأخرى ، فلماذا لا يحفظ بها أبيات شعره ؟ ذلك هو حقًّا ما قصده ولف حينما أجاز أن بعض الناس استخدم الكتابة لمثل هذه الأغراض منذ سنة ٧٧٦ ق . م . وربما لم يكن أحد يستطيع قراءتها إلا الشاعر نفسه أو أولئك الذين خلفها لهم خاصة . ومع ذلك فإنه يكون قد أفلح في مأربه ووصل إلى غايته .

والخلاصة أنه لا بد لنا من أن نفرق – وفقاً للنظرية الولفية – بين ثلاثة أمور تعتمد على احتمالات متفاوتة الدرجة وهي : النظم في الذاكرة Memorial Composition ، والنشر الشفهي Oral publication ، والنقل عن طريق الرواية الشفهية Oral Transmission .

(ا) أما النظم في الذاكرة فإنه من التسرع أن ننكر أن رجلاً ذا موهبة خارقة يستطيع أن ينظم الإلياذة والأوديسة من غير عون الكتابة . . .

(ب) أما النشر الشفهي فلا ريب أن القصيدتين الهومريتين قد عرفهما اليونانيون قروناً طويلة في الغالب عن طريق إنشاد أجزاء متفرقة منهما .

(ح) غير أن العقبة الكأداء تنشأ من نظرية الحفظ والنقل الشفهيين حسب . إن هذه العقبة لا تتصل في أصلها بقدرة الحافظة البشرية ؛ إن الصعوبة الحقة هي أن حفظ هذه الأعمال الضخمة ونقلها – حفظاً ونقلاً قريبين من الدقة والضبط ، عن طريق الرواية الشفهية ، خلال القرون من غير عون الكتابة إنما يتطلب تنظيماً وتدبيراً ، لا أثر لهما ولا دليل عليهما عندنا . وأقرب شبيه بذلك يمكن استحضاره للذهن (كما في الهند) يتضمن أصولاً دينية أو كهنوتية .

وينبغى أن نتصور وجود رجال كهنوت هومريين أو زملاء تكون حياتهم من جيل إلى جيل موقوفة على هذا العمل . غير أن فكرة كهذه غريبة عن الروح الحرة التى تطورت فيها الحياة والفن عند الإغريق ، ولا يتفق ذلك أيضاً مع ما نعرفه من أمر الرواة والمنشدين المتجولين .

إن النتيجة العامة إذن هى : لا يمكن إثبات أن القصيدتين الهومريتين لم تُكتبا سواء حينما كانتا فى أصلهما تُنظمان أم عقِبَ ذلك . ولقد عرفهما العالم الإغريقى مدة قرون فى الغالب عن طريق أفواه الرواة والمنشدين ، ولكن ذلك لا ينفى أن الرواة والمنشدين كانوا يقتنون نسخاً مكتوبة . . .

ذلك هو رأى جب عرضناه عرضاً وافياً لتستبين لنا أطرافه ، وسنختم حديثنا عن كتابة القصيدتين الهومريتين بعرض رأى باورا فى هذا الموضوع عرضاً لا يقل عن عرضنا لسابقه بسطاً وبياناً . بدأ باورا بحثه بسؤاله : هل يدين هومر ، بطريقة ما لاستخدام الكتابة ؟ ثم مضى يجيب بقوله[1] : لا ريب أن شعراء الملاحم فى القرون الوسطى قد استخدموا الكتابة ، وهم مدينون لها بمعرفتهم الصور السابقة للقصص التى استخدموها ، وقد حفظوا نتاجهم بتسجيله كتابة . ولكن الأمر ، فى حالة هومر ، غامض والأدلة ضئيلة . لقد وُجدت الكتابة فى بلاد اليونان منذ زمن مبكر ، ولو أننا استثنينا العصر الميسينى Mycenean Age ، فإننا ما نزال متأكدين من أنها استخدمت فى القرن السابع ، وربما الثامن . فالنقوش على Thera ترجع إلى تاريخ مبكر جداً ، ولم يأت القرن السابع حتى شاعت الكتابة على الأوانى . وقوائم إفورس السبارطية The Spartan lists of Ephors ترجع إلى نهاية القرن التاسع . والقوانين التى سنّها الرجال مثل Charondas, Zaleucus تتضمن وجود قوانين مكتوبة فى الشطر الأخير من القرن الثامن . ومع أن الكتابة قد وُجدت على عهد هومر ، فمن الجائز أنها لم تكن شائعة عامة ، أو أنها لم تكن تُستخدم على مدى واسع لتسجيل نتاج طويل مثل الإلياذة . . . وهومر نفسه

---

(١) Tradition and Design in the Iliad, P. 48-51.

لا يدلنا على شيء . وفى الموطن الوحيد الذى يشير فيه إلى الكتابة يغلف إشارته بالغموض . وربما شعرنا حقاً أن ملحمة طويلة مثل الإلياذة لا بد أنها كتبت لأن حفظها يؤود المرء . وقد اعتمد ولف على هذه الفكرة اعتماداً كبيراً ، وهى تحتل مقاماً كبيراً فى « المقدمة » . ولكن الأبحاث الحديثة فندت رأيه ، فإن الرجال الذين لم تتعلم ذاكرتهم الاعتماد على الكتب يستطيعون أن يتذكروا قدراً ضخماً من الشعر ، وقد وجد بين معاصرى Xenophon من حفظ الإلياذة والأوديسة معاً . ونجد لعهدنا هذا من وصل إلى هذه المرتبة بل من زاد عليها . وبعد أن يضرب باورا على ذلك بضعة أمثلة يمضى فى قوله : والإلياذة يصح ، للنظرة الأولى ، أن تكون من الشعر المكتوب ، ويصح أن تكون من الشعر المروى . ويمكن أن تدعم كل من هاتين النظريتين فى أساسها بالأدلة ، ويكاد يكون من المستحيل تغلب إحداهما على الأخرى . ثم يقول : ولا بد ، فى البدء ، من التمييز بين الشعر الذى يكتب لفائدة الشاعر نفسه حسب ، والشعر الذى يكتب ليقرأه الناس . وكثير من الشعر الذى قصد منه أن ينشد ويروى كان يكتب ، ليكون فى كتابته عون للشاعر المغنى على الامتداد والطول اللذين لا يحتملان . فمخطوطة « أغنية رولاند » المحفوظة فى أكسفورد ليست إلا نصاً كان يحمله شاعر مغن ويستخدمه لإنعاش ذاكرته . بينما يبدو أن المخطوطة الوحيدة الباقية من « بيوولف » كان يقصد منها أن يقرأها العلماء . . . ومن الواضح أن الإلياذة لا تنتمى إلى هذا الضرب الثانى ، فهومر لا يذكر شيئاً عن قراءة الكتب ، وجميع فنه خاضع لضرورات الإنشاد ، ولكن من الجائز أنها تنتمى إلى الضرب الأول ، والحق أنها تبدو كذلك لأسباب مرجحة . فالقصيدة بناؤها وشكلها كما أرادهما الشاعر ، ومن البعيد أن يستطيع إضفاء هذا الانسجام والوحدة عليها لو أنه نظمها فى ذاكرته وعقله . فترابط المشاهد المختلفة ، وما فى القطع التالية من صدى القطع السابقة ، واتصال الحكايات المنفصلة فى ظاهرها ، كل ذلك يبدو أنه لا يمكن تعليله لو أن الشاعر لم يكن بين يديه كتابه ، ولم يستطع الرجوع إليه كلما احتاج ، أو ليعيد النظر فيما كتب . حقاً إن ملتون نظم « الفردوس

المفقود ، في عقله وذاكرته واستطاع مع ذلك أن يجعلها رائعة من الروائع ؛ ولكن مع أنه لم يكن يقرأ فإن الكلمات كانت تكتبها بناته ، وكان يستطيع الرجوع إليها كلما أراد . ومع ذلك فإنه من الجائز أن ذاكرةً أحسِنَ تمرينها وتدريبها تستطيع أن تستغنى عن المخطوطة ، ومن الجائز كذلك أنه كانت لهومر مثل هذه الذاكرة. وهكذا نجد أن الجدل حول هذا الموضوع – على إغرائه – غيرُ مفضٍ إلى نتيجة . فلم تكن الإلياذة ذات التحام وثيق مثل الكوميديا الإلهية ، ولكن يمكن أن يقال إن سبب ذلك لم يكن لأنها لم تُكتب على الورق . وترجيح أنها قد كتبت يقوّى حين نقارنها بالملاحم التي لم تكتب ولكنها نظمت في ذاكرة الشاعر ونقلت بالرواية ... غير أن خصائص هذه تختلف عن طبيعة الإلياذة... ثم يمضى باورا في حديثه إلى أن يقول : ولا قيمة للحجة التي يُدلَى بها ضد تدوين الإلياذة ، وهي : أن النص في القديم كان ذا قراءات مختلفة . فطرق الحكاية الهومرية تجعل من السهل الخطأ في الاقتباس . ومع ذلك فأى نص قديم عرضة للفساد والإقحام ، إن لم يكن أيضاً عرضة للتزيد والتوسع . وخطة الإلياذة الحاضرة تنفى فكرة التزيد والتطويل . . . ولكن لا شك أنه كان ثمة إقحام وإضافات ، فالأبيات التي تذكر مدينة أثينا عدها القدماء مقحمة أضافها صولون أو بيزيزتراتوس ليسوّغا دعوى الأثينيين في ميجارا Megara . وثمة رواية فيها أن سيناثيوس Cynaethus الشاعر الجوال تصرف بالنص وأضاف إليه أجزاء من نظمه . ولكن هذه الحقيقة وحدها ، وهي أن هذه الإضافات قد اكتشفت وأشير إليها ، تبين أن النص كان معروفاً ويستطاعُ الرجوع إليه ؛ ولو لم يكن مكتوباً لكان من المستحيل تقريباً معرفة أية زيادة أو إقحام . وما يُسمَّى انسياب النصّ وتدفقه حقيقة واقعة لا شك ، ولكنها لا تدل على أن الإلياذة في أيامها الأولى كانت قصيدة تُحفظ في الذاكرة وتوجد في صور متعددة من نسخ مختلفة جداً ؛ وإنما تدل على أن روايتها المخطوطة المكتوبة كانت – كما هو الشأن في القصائد المبكرة الأخرى – غير دقيقة وعرضة للتحريف والفساد .

ثم يمضى باورا في حديثه فيقول : وتمتد جذور الصعوبة إلى موقف هومر

نفسه من الكتابة ، فأبطاله لا يكتبون ولا يقدرون على الكتابة ، وحينما اقترعوا ليقرروا من يحارب هكتور وضع كل منهم علامته على سهمه ورماه في القلنسوة ، ولكن لم يكن أحد يعرف غير علامته وحدها . وينتج من ذلك أنه لم يكن لديهم نظام مشترك للكتابة . غير أن هومر يميز وجود الكتابة في قصة Bellerophon ، ففيها ذكر للكتابة ولكن هومر يلفها بألفاظ غامضة مبهمة . . . وليس في الإلياذة ، سوى ذلك ، ذكر للكتابة . والنتيجة التي يمكن الوصول إليها هي أن الكتابة وُجدت ، غير أن جمهور هومر ومستمعيه لم يهتموا بها وعدوها أمراً شاذاً . أما الشاعر نفسه فربما كانت حاله مختلفة عن ذلك . إذ لعله كان قد تعلم الكتابة من حيث هي سر من أسرار صناعته وكان حريصاً على ألا يكشف السر لجمهوره . وهذا الاحتمال يفسر غموض لغته وإبهامها في الموطن الوحيد الذي ذكرت فيه الكتابة ، فسواد الناس يجب ألا يعرفوها ، وحينما لا يكون بدٌّ من ذكرها ، فيتجنّبُ الوصفُ الواضح الدقيق .

ويرى باورا أن هذه الدلالات ، على ضآلتها ، ترجح أن هومر كان يكتب ، ولكنه كان يكتب لفائدته هو ولاستعماله الشخصي لا من أجل أن تُقرأ قصيدته . ففن الإلياذة جميعه يدل على أنه قصد منها أن تُنشد وتُروَى ، لا لتحفظ في المكتبة ؛ وهذه الحقيقة كما سنرى ، توضح لنا بعض ملامحها الكبرى . فلا بد أن تختلف القصيدة المروية في طبيعتها وخصائصها عن القصيدة التي تُقصد للقراءة . . . وهكذا نجد آخر الأمر أنْ لا قيمة كبرى لسؤالنا : هل كتب هومر أو لم يكتب ؛ وإنما الأمر المهم هو أنه نظم قصيدته للرواية والإنشاد . وسواء أنظمها وهو يكتب على الورق أم نظمها في ذاكرته وعقله فذلك لا يؤثر في طبيعة القصيدة كما هي بين أيدينا .

٤

المدارس التى عُنيت بهومر :

ونحن مستطيعون أن نقسم هذه المدارس من حيث الزمن إلى ثلاثة أطوار : أولا : ما قبل العصر الإسكندرى . ثانياً : العصر الإسكندرى . ثالثاً : ما بعد العصر الإسكندرى .

(ا) ما قبل العصر الإسكندرى :

لم تكن العناية بهومر وقصيدته قبل العصر الإسكندرى عناية نقدية علمية ، وإنما كانت على ضروب شتى من التناول اليسير الخفيف ، فهى حيناً إشارة عابرة إلى هومر وشعره الملحمى ، وهى حيناً ثانياً اقتباس لبعض الأبيات أو المقطوعات من ملحمتيه ، وهى حيناً ثالثاً شرح لبعض ما يغمض على السامعين من ألفاظه أو إشاراته القصصية ، وهى حيناً رابعاً تفسير عام لمذهبه فى التحدث عن الآلهة والأبطال . ولذلك رأينا أن نرتب هذه الضروب المتعددة من العناية بهومر قبل العصر الإسكندرى فى طوائف أربع ، هى :

١ — الشعراء أنفسهم : فنحن نجد أن أقدم ذكر لهومر — عثر عليه الباحثون حتى الآن — هو إشارة وردت فى قصيدة ضائعة للشاعر كالينوس Callinus (فى آخر القرن الثامن ومطلع القرن السابع قبل الميلاد) ، ولم يكن الباحثون ليعرفوا ذلك لولا ما أورده الكاتب الجغرافى بوزانياس Pausanias من ذكر لهذه القصيدة ومن قوله إن كالينوس قد أشار فى قصيدته إلى أنه كانت قصائد أخرى غير الإلياذة والأوديسة تُعزَى إلى هومر ، مثل المقطوعة البطولية Thebais[1]

---

(١) جب « هومر : ٨٥ و ٨٨ .

ثم وجد الباحثون أن أول من اقتبس من هومر — ممن يُعرفون حتى الآن — هو الشاعر سيمونيد السيوسى Simonides of Ceos (الذى ولد فى نحو سنة ٥٥٦ ق.م) فقد اقتبس من الإلياذة ٦ : ١٤٨ .

٢ — الفلاسفة : وقد عُنى الفلاسفة منذ القرن السادس قبل الميلاد بشعر هومر ، وثار بعضهم ، فى مطلع التأمل الفلسفى فى اليونان ، على التصوير الهومرى للآلهة[1] . فقد قال إكزينوفان Xenophanes of Colophon « إن هومر وهسيود قد نسبا إلى الآلهة كل عيب ونقص فى الناس » . ومن هنا نشأت المدرسة المجازية فى تفسير هومر . وأقدم هؤلاء المجازيين هو ثياجن الريجيوى Theagenes of Rhegium ، الذى وصل بين نوعين من المجاز انفصلا بعد ذلك هما : المجاز الخلقى (العقلى) والمجاز الحسى . وهكذا كانت Hera هى الهواء ، وأفروديت هى الحب . وقد نما التفسير الخلقى فى القرن التالى على يد أناكساجوراس Anaxagoras الذى فسر Zeus بالعقل ، وأثينا بالفن . أما التفسير الحسى فقد تطور على يدى Metrodorus of Lamsaeus . وقد كان شعر هومر ووصفه الآلهة سبباً من الأسباب التى دعت أفلاطون إلى أن يبعد الشعراء من جمهوريته .

٣ — المؤرخون : وقد عُنى المؤرخون اليونانيون بهومر — منذ أن بدأ التاريخ عندهم . ومن هؤلاء هيرودوت Herodotus وثوسيديد Thucydides فى القرن الخامس قبل الميلاد . وقيمة هيرودوت فى أنه كان أول من شكّ — أو على الأقل من بين الأوائل السابقين إلى الشك — فى نسبة بعض القصائد البطولية إلى هومر . فهو يرى — على أسس نقدية — أن المقطوعة البطولية التى تدعى Cypria ليست من نظم هومر ، ولكنه لم يذكر الناظم الحقيقى . ونقدُهُ هذا يدل على أن السواد لم يكونوا يشكون فى نسبتها إلى هومر ، كما أن هيرودوت نفسه لم يكن يعرف رواية صريحة تنفى نسبة هذه المقطوعة إلى هومر . وقد شك أيضاً فى نسبة قصيدة م

---

(١) جب ، هومر : ٨٨ و ٨٩ .

أخرى تدعى Epigoni ولكن حديثه عنها مقتضب غير قاطع[١] . وأما قيمة ثوسيديد فنى أنه قدم لنا فى تاريخه أمثلة على نوع من تفسير شعر هومر يحول العنصر القصصى إلى حقائق تاريخية واضحة ، وذلك حينما فسر ذهاب اليونانيين إلى طروادة ، فهو يرى أن رؤساء اليونان لم يذهبوا إلى طروادة لأنهم وعدوا والد هيلانة أن ينتقموا لها ، ولكنهم ذهبوا لأن قوة أجا ممنون ساقتهم واضطرتهم إلى ذلك . وقد نمى كالسثين Callisthenes (فى نحو سنة ٣٣٠ ق . م) هذه الطريقة فى التفسير تنمية كاملة ، وخص ، فى كتابه تاريخ اليونان ، الحرب الطروادية بكتاب مستقل . ويظهر هذا الاتجاه فى مواطن متعددة من تواريخ المتأخرين التالين مثل : بوليبيوس Polybius ، وديودور Diodorus ، وسترابو Strabo ، وباوزان Pausanius[٢] .

٤ ــ الرواة المنشدون : وآخر هذه الطوائف ، وربما أقدمها عهداً ، هم الرواة المنشدون ، الذين كانوا يروون شعر هومر وينشدونه وهم يتنقلون بين البلاد المختلفة . ويصف لنا إفلاطون فى إحدى محاوراته على لسان سقراط (هى : Ion) أحد هؤلاء الرواة المتجولين واسمه إيون ــ وكان يعيش فى النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد . ويذكر إفلاطون أن إيون كان يشرح شعر هومر ويفسره، وأن بعض المنشدين المتنافسين كانوا ينشدون ولاء : يبدأ أحدهم من حيث انتهى الآخر . ويرى الدكتور جب[٣] أنه لا بد إذن من أن تعقيبات إيون وشروحه كانت تُلقى مفصولة عن إنشاده ، أو أنها كانت متصلة بالقطع التى كان هو يقوم بإنشادها حسبُ . ويتضح من محاورة إفلاطون أن شروح إيون وتعقيباته على هومر كانت تتخذ مظهر المعرض البلاغى الأدبى المتصل ، وكان إيون يفخر بطلاقته وبثروة « آرائه عن هومر » كما يعبر إيون نفسه .

---

(١) جب ، هومر : ٨٥ ؛ وألان ، هومر : ٧٠ .
(٢) جب ، هومر : ٩٠ .
(٣) المرجع السابق : ٨٠ .

(ب) العصر الإسكندرى :

غير أن النقد الهومرى بمعناه الدقيق الخاص لم يظهر إلا فى الإسكندرية منذ مطلع القرن الثالث قبل الميلاد . وقد جُمعت مواده لأول مرة فى المكتبات العظيمة مثل مكتبة الإسكندرية ، ثم مكتبة برجامم ، منذ مطلع القرن الثانى قبل الميلاد . وقد استقى الباحثون معلوماتهم عن هذه المواد من نسخة « الحواشى الهومرية — Homeric Scholia » . ولا يعنينا من أبحاث هؤلاء الدارسين إلا إلمامة عابرة تفى بغرضنا ، ومن أجل ذلك لن نشعّب الحديث ولن نتتبع الباحثين فيما فصلوا فيه القول ، وإنما سنختصر الإشارة اختصاراً يغنى عن الإسهاب والتطويل[1] .

تنقسم نسخ هومر فى مكتبة الإسكندرية إلى قسمين : ١ — النسخ التى تُعرف بأسماء محرريها وناسخيها . وأقدم نسخة من هذا القسم هى التى صنعها الشاعر البطولى أنتيماخ الكلارى Antimachus of Clarus فى إيونيا (نحو سنة ٤١٠ قبل الميلاد) . ٢ — وأما القسم الثانى فهى النسخ التى تعرف بأسماء البلدان حسبُ . وهى نسخ : مساليا Massalia ، وكيوس Chios وأرجوس Argos ، وسينوب Sinope ، وقبرص Cyprus ، ويشار إليها مجموعةً باسم « النسخ البلدانية » . وليس من دليل على أنها كانت النسخ المعتمدة لاستعمال الجمهور ، وأسماء مصححيها ومنقحيها غير معروفة . وبجانب هذين القسمين كانت نسخ توصف بأنها عامة أو شعبية ، وهذه هى نفسها التى توصف بأنها غير دقيقة إذا ما قورنت بالنسخ الدقيقة أو العلمية . وهذه النسخ جميعها التى عرفها الإسكندريون لا بد أنها كانت تعتمد على نص شائع أقدم منها نجهل مصادره . ويبدو لنا هذا من الاختلافات المحدودة والفروق الضيقة بين نصوص هذه النسخ ، فلو لم تكن هناك أسس عامة لرواية منقولة لوجدنا فى نسخ الإسكندرية فروقاً واسعة واختلافاً كبيراً فى ترتيب الأبيات .

---

(١) المعلومات التالية عن علماء مدرسة الإسكندرية ملخصة من كتاب الدكتور جب عن هومر من ص: ٩١ إلى ص : ١٠٢ .

وأقدم جهد فى النقد الهومرى فى مدرسة الإسكندرية يرجع إلى فترة تتراوح بين ٢٧٠ و ١٥٠ قبل الميلاد ، وقد قام به ثلاثة رجال : زينودوت Zenodotus ، وأرستوفان Aristophanes ، وأرستارخ Aristarchus .

أما زينودوت فقد كان قيماً على مكتبة المتحف الإسكندرى ، ونشر نسخة منقحة لهومر ومعجماً هومرياً ؛ ويبدو زينودوت — فى هذا العصر من فجر العلم الجديد — رجلاً موهوباً ذا هدف نقدى ، ولكنه تعوزه الطريقة النقدية الصالحة . فقد ألح على دراسة هومر ولكنه أخفق فى إرساء هذه الدراسة على أسس سليمة ، وأحد أسباب إخفاقه أنه لم يعن بالتمييز بين الاستعمال الشائع المألوف للألفاظ واستعمال هومر لها استعمالاً خاصًّا ، ولم يميز كذلك تمييزاً كافياً بين اللهجة الإيونية القديمة واللهجة الإيونية المتأخرة ، فأوقعه اعتماده المطلق على إحساسه الشخصى بروح هومر فى تصحيحات وتصويبات قاطعة . ومع ذلك فقد فتح أفقاً جديداً ونال مصنفه شهرة واسعة .

وأما أرستوفان (فى نحو ٢٠٠ ق . م) فقد كان تلميذ زينودوت ، وخلفه — فى غير تعاقب — على منصب أمانة المكتبة . ونشر أيضاً نسخة منقحة من هومر . وكان يُعنَى بدلالات النصوص المخطوطة عناية تفوق عناية زينودوت . وأتاح له اطلاعه الواسع وعلمه الغزير أن يثبت فى حالات كثيرة قراءات جرحها سلفه تجريحاً كان متسرعاً فيه .

وأما أرستارخ فكان تلميذ أرستوفان وخليفته فى أمانة المكتبة ، وظهر نشاطه فى النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد . وينقسم ما قدمه للدراسة الهومرية إلى ثلاثة أقسام : ١ — رسائل عن بعض المشكلات الهومرية ومواطن الاختلاف ٢ — تعقيبات متصلة على النص الهومرى . ٣ — نسخ منقحة للنص الهومرى . وقد استخدم فى النص الهومرى الذى نشره مجموعة من العلامات والرموز النقدية تدل القارئين ، بنظرة واحدة ، على البيت الذى يراه أرستارخ منحولاً زائفاً ، وعلى البيت الذى يرى أنه فى غير موضعه من ترتيب القصيدة ، وعلى البيت الذى

يشتمل على أية إشارة وضحها فى تعليقاته .

ويُعدّ أرستارخ أعظم العلماء الإسكندريين وخير ناقدى هومر من بين الأقدمين ، وذلك لعدة عوامل منها : ١ ـ أنه درس بعناية استعمال الألفاظ فى هومر مدركاً أن نقد المادة يجب أن يعتمد على معرفة دقيقة باللغة . أما النحويون واللغويون الذين سبقوه فقد وجهوا عنايتهم إلى الألفاظ النادرة أو المهجورة خاصةً . ثم عمد أرستارخ إلى تحديد المعنى الهومرى للألفاظ الشائعة المألوفة . ٢ ـ وقد كان للمصادر المخطوطة قيمة كبيرة عنده حينما صنع نسخته من النص الهومرى . وحينما كانت الموازنات والمقابلات تسلمه إلى شك فى قراءتين كان يستهدى « باستعمال الشاعر الخاص » . فهو يبدو فى الغاية من الحذر والحيطة ، بعيداً عن التسرع فى تخطئة النصوص أو تصويبها . ولو قارناه بزينودوت لوجدناه يتحرج من القراءات التى تعتمد على الحدس والظن . ٣ ـ علق على مادة هومر ، فوازن بين الأساطير عند هومر والأساطير نفسها عند غيره من الكتاب ، وأظهر العناصر المميزة للحضارة الهومرية .

وكل ما نعرفه عن مصنف أرستارخ وصلنا عن طريق بعض العلماء الذين تلوْه مثل : ديدم Didymus وأرستونيخ Aristonichus . أما ديدم فنحوىٌ إسكندرى كتب ـ بعد وفاة أرستارخ بنحو ١٢٠ سنة ـ رسالة عن النسخة المنقحة التى صنعها أرستارخ ، وكان هدفه أن يقوى القراءات التى اختارها أرستارخ ، وأن يستخلص فكرة واضحة كاملة عن آرائه وتعليلاته من كتاباته الكثيرة عن هومر . وأما أرستونيخ فنحوىٌ إسكندرى أيضاً معاصر لديدم وإن كان أصغر منه سناً . وقد كتب رسالة عن العلامات النقدية التى استخدمها أرستارخ فى الإلياذة والأوديسة ، وسرد ـ فى رسالته هذه ـ آراء أرستارخ عن الأبيات الشعرية التى وُضعت أمامها العلامات المختلفة . وأشهر علماء الإسكندرية ـ بعد هؤلاء ـ هيروديان Herodian ، ونيكانور Nicanor فى النصف الأول من القرن الثانى للميلاد .

وأما المدرسة الأخرى فقد قامت فى مدينة برجام Pergamum فى ميسيا Mysia حينما أنشأ إيومين الثانى Eumenes 2 فى أوائل القرن الثانى ق . م المكتبة العظيمة التى صارت تنافس مكتبة الإسكندرية . ومن أشهر علماء هذه المدرسة كريتس Crates الذى كان معاصراً لأرستارخ وأميناً لمكتبة برجام .

ومن أشهر نسخ الإلياذة التى وصلت إلى الباحثين الأوربيين هى النسخة التى تُدعى Codex Venetus A ورقمها ٤٥٤ فى مكتبة القديس مارك فى مدينة البندقية . وقد كتبها أحد النساخ فى القرن العاشر الميلادى فجعل نص الإلياذة متناً ثم جعل له حواشىَ عُرفت باسم الحواشى الهومرية Homeric Scholia وأهم ما تحويه هذه الحواشى مصدران ؛ الأول : ما يسمى بالمختصر The Epitome وقد قام بصنعه أحد دارسى الإلياذة (فى نحو سنة ٢٠٠ — ٢٥٠ ميلادية) فاستخلص مقتطفات من أعمال الكتاب الأربعة الإسكندريين : ديدم وأرستونيخ وهير وديان ونيكانور . وهذا المختصر هو المصدر الرئيسى الذى استقى منه الباحثون معلوماتهم المفصلة عن آراء أرستارخ . وأما الجزء الثانى من الحواشى فيبدو أنه مجموعة كبيرة من التعقيبات مختارة من عدة مصنفين ثم جُمعت معاً فى آخر القرن الثالث الميلادى . وهذا الجزء الثانى — إذا ما قورن بالمختصر — لا يُعنَى مثله بنقد النصوص ، غير أنه يفوقه فى التأويل والتفسير المجازيين ، وفى الأساطير ونقد الأسلوب الشعرى .

(ح) ما بعد العصر الإسكندرى[1] :

وقد واصل العلماء والدارسون جهودهم فى دراسة القصيدتين الهومريتين ، ولكن هذه الدراسات كانت فى مجموعها تدور فى فلك يكاد يكون واحداً لاتعدوه ؛ إلى أن جاء فردريك أغسطس ولف فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، وأصدر كتابه المعروف باسم « المقدمة » Prolegomena سنة ١٧٩٥ . وتقوم دراسته على أربع نقاط رئيسية : ١ — أن القصيدتين الهومريتين لم تدونا إلا فى نحو

---

(١) جب ، هومر : ١٠٣ وما بعدها .

سنة ٥٥٠ ق . م أى بعد نظمهما بقرون كثيرة ، وقد بقيتا خلال هذه القرون تتناقلان بالرواية الشفهية ، فاعتورتهما تغييرات وتبديلات كثيرة عمد إلى بعضها الرواة عمداً وجاء بعضها مصادفة . ٢ — وقد تعاورتهما — حتى بعد أن دونتا — تغييرات أخرى جديدة عمد إليها المصححون والمراجعون عمداً ، أو قام بها النقاد العلماء الذين توخوا صقلهما وجعلهما متسقتين مع صور تعبيرية أو أصول فنية معينة . ٣ — أن للإلياذة وحدة فنية ، وتفوقها فى ذلك أيضاً الأوديسة ، ولكن هذه الوحدة لاترجع فى جُلّها إلى القصيدتين الأصليتين وإنما إلى ما أضافته إليهما المعالجة المصنوعة فى عهود تالية . ٤ — أن القصائد الأصلية التى ضُمّت وجُمعت حتى صارت ما نعرفه من ملحمتى الإلياذة والأوديسة لم ينظمها كلها شاعر واحد بعينه .

وجميع أدلة نظرية ولف فى جوهرها خارجية ، فهى مبنية على اعتبارات تاريخية معينة تتصل بالحضارة الإغريقية المبكرة وبتطور الفن الشعرى . وقد وصف لنا — فى مقدمة طبعته للإلياذة — ما أحس به حينما كان ينفلت من عقال نظريته إلى قراءة القصيدتين قراءة جديدة ، فحينما كان يغمر نفسه فى تيار القصة البطولية الذى ينساب انسياب النهر النمير كانت جميع أدلته تتطاير من رأسه ، وكان الاتساق والانسجام الشاملين فى القصيدتين يؤكدان نفسيهما بقوة لا تقاوم ، وكان ولف يحس بالألم والغضب لأن شكوكه حرمته نعمة الإيمان بهومر واحد . ومع ذلك فقد ذكرنا قبل صفحات أن ولف لم ينكر وجود شخص هومر نسب إليه أنه بدأ نسج القصيدة ومضى فيه إلى غاية محدودة ، بل إنه نسب إليه القسم الأكبر من النسيج . ومن هنا جاءت مرونة نظرية ولف التى أشرنا إليها من قبل ، وجاء اختلاف فهم تلامذته لهذه النظرية وذهابهم مذاهب متفرقة مع أنهم يصدرون عن مصدر واحد . والحق أنه من المجحف بحق ولف ، حينما يقوّم عمله ، أن يُظهرَ بمظهر الناقد الهادم حسبُ : فإن فضله على الدراسات الهومرية كبير ، ولا يسع هؤلاء الذين يختلفون معه فى نتائجه

الأساسية اختلافاً واسعاً إلا أن يُقرّوا بأنه كشف القناع عن عدة مظاهر تصلح أساساً لنظرية سليمة ، وأنه أول من بدأ دراسة القصيدتين دراسة علمية[1] .

غير أن العنصر التحليلى فى نظريته هو الذى لفت الأنظار لأنه حينما نشرها كانت تبدو فى موقف متميز تميزاً كبيراً من الاعتقاد القديم بأن ناظم القصيدتين شاعر بعينه هو هومر الواحد . ومن هنا جاء الربط بين عمله والاتجاه إلى الهدم الصرف ، وهو اتجاه بعيد عن روحه[2] .

ومما هو جدير بالذكر أن ولف كتب على « المقدمة » رقم ١ وذكر فى ص ٢٤ منها أنها « القسم الأول Pars Prima » ، غير أن الجزء الثانى — وهو الذى كان يجب أن يبحث فى أصول نقد النصوص الهومرية — لم يطبع قط[3] . وبذلك لم يواصل هذا الناقد العظيم السير فى نظريته حتى يصل بها إلى مرحلة الكمال ، فلم يعرض قط — فى تخطيط عام — نظاماً أو نهجاً للأغانى والأناشيد المجزأة التى تجمع منها — وفقاً لنظريته — إطار كل قصيدة من هاتين القصيدتين وهيكلها . وإخفاقه فى هذا العمل ، أو تغاضيه عنه — فى خلال حياة طويلة بعض الطول ، وفى أوج نشاطه بعد طبع « المقدمة » (طبعت المقدمة سنة ١٧٩٥ وتوفى ولف سنة ١٨٢٤) — أمر يجعلنا نشك فى أنه كان يؤمن بإمكان هذا التشريح والتقطيع اللذين تتضمنهما نظريته[4] .

وقد ساعد على ذلك التأثير الواسع الذى كان لنظرية ولف ، وخاصة فى عقول الشبان الألمان عدةُ دوافع منها[5] : أن الثورة الفرنسية كانت آنذاك فى إبانها ، وكان الجو مفعماً بالتناقض والبدع . وأهم من ذلك أن هذه النظرية ظهرت فى وقت أثار فيه الاهتمامَ الواسع ، فى بقاع مختلفة من أوروبا ، الكشفُ عن قدر

---

(١) W.D. Geddes, The Problem of The Homeric Poems, P. 9

(٢) جب ، هومر ١٥٧

(٣) المرجع السابق : ١٠٧ فى الهامش .

(٤) جديس ، مشكلة القصيدتين الهومريتين : ١٠

(٥) المرجع السابق : ٩ .

صالح من الشعر الشعبي وفيه دليل على الحيوية الظاهرة في هذا الشعر حتى حينما يُجهل ناظمه وتكون مميزاته غير واضحة المعالم ، وكان ذلك الشعر أيضاً على غير مثال أدبي سابق ، وإنما كانت وسيلة نقله الرواية الشفهية . فكأنما كان هذا الشعر مثلاً يوضح النظرية الولفية في افتراضها الأساسي . وأوضح ما يصف لنا ميزات القرن الثامن عشر والفرق بينه وبين القرن التاسع عشر ما ذكره جوته Gothe[1] . فقد كان جوته تحت تأثير السحر الولفي ، وقد وصف ما جاء في كتابه « المقدمة » بأنه « قطعي وحتمي وذاتي » ، ثم تأرجح رأيه إلى أن استقر أخيراً على الرأي القديم حينما استطاع أن يتثبت من « وجود هومر ثانية » ، وكان ذلك بعد أن انتهت « أعمال القرن الثامن عشر القائمة على التمزيق والتقطيع » ، وابتدأت روح « التنسيق والترتيب » — كما كان يسميها هو نفسه — في القرن التاسع عشر .

ولم يكن جوته وحده هو الذى تأثر بسحر النظرية الولفية ثم نفض عن نفسه هذا السحر ، بل إن آخرين كانوا مثله ، ومن أهمهم نيتش Nitzsch[2] فقد خلّف لنا اعترافاً ذا قيمة بعد أن اختبر بنفسه أعاصير الخصومة في المشكلة الهومرية ، فبعد أن ألف كتاباً بذل فيه جهداً ضخماً يدعم تعدد التأليف — مما يوضح ويفسر نظم قصيدتين ملحمتين في مثل هذا الطول — عاد فرد على نفسه واعترف بوحدة التأليف في الملحمتين !

ومع ذلك فإن ألمانيا في القرن التاسع عشر بقيت في أغلبها ولفية ، وبالرغم من نشوء نظريات مضادة لنظرية ولف ، وردود العلماء عليه في حياته وبعد وفاته ، فإن جمهرة العلماء في ألمانيا ما زالوا ولفيين حتى يومنا هذا[3] . وأما في

(١) جديس ، مشكلة القصيدتين الهومريتين : ١٢ — ١٣ .
(٢) المرجع السابق : ١٤ في الهامش .
(٣) المرجع السابق : ١٣ .

إنجلترا وفرنسا فلم يكن أثر النظرية الولفية فى الأوساط العلمية فى هذين البلدين قويًّا كما كان فى ألمانيا[1] .

وبعد ؛

فلم نقصد إلى هذا الموضوع لذاته حتى نشعّب الحديث فى أجزائه ونتتبع تفصيلاته ، وإنما اتخذناه معبراً نجتازه إلى الحديث عن الشك فى الشعر العربى الجاهلى . وحسبنا ما قدمنا ففيه غناء إذا ما أردنا أن نستبين وجوه الشبه بين المراحل التى مرت بها الدراسات الأوربية والدراسات العربية القديمة والحديثة للشعرين الهومرى والعربى الجاهلى .

---

(١) المرجع السابق : ١٥ .

الفصل الثانى

وضع الشعر الجاهلى ونحله
عند الأقدمين

١

الوضع والنحل والانتحال كلها ظواهر أدبية عامة ، لا تقتصر على أمة دون غيرها من الأمم، ولا يختص بها جيل من الناس دون غيره من الأجيال . فقد عرفها العرب كما عرفتها الأمم الأخرى التى كان لها نتاج أدبى ؛ وعرفها العصر الجاهلى كما عرفها العصر الأموى والعصر العباسى ، بل كما لا يزال يعرفها عصرنا الحاضر الذى نحيا فيه ، على الرغم من وسائل الحضارة الحديثة التى كانت قمينة أن تبرئ نتاجنا من هذه الظواهر لو كان ثمة سبيل إلى الخلاص منها . فشيوع الكتابة شيوعاً عامًّا ، وانتشار الطباعة بصورها المتعددة وأنماطها الكثيرة، لم يحولا دون أن يُنسب إلى شاعر شعرٌ لم يقله ولا يدرى من أمره شيئاً، ولم يستطيعا أن يذودا عن شعر قاله صاحبه بَغْىَ المعتدين وسطوة المدّعين المنتحلين .

ولم يكن الوضع أو النحل أو الانتحال مقصوراً على الشعر وحده ، بل لقد شمل كل ما يمتّ إلى الأدب العام بسبب : كالنسب والأخبار — منذ الجاهلية نفسها . ولقد بدأ الكذب والوضع فى الحديث النبوى فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحسبنا من كل ذلك لمحة عابرة ننتقل بعدها إلى تخصيص الحديث فى الشعر وحده . فمما يدل على أن الوضع والكذب فى النسب قديم منذ الجاهلية وعصر الرسول — أن النبى عليه السلام كان إذا انتسب لم يجاوز فى نسبه مَعدّ

ابن عدنان بن أدّد ثم يمسك ويقول : كذب النسابون(١) . وكذلك ما ذكره الهيثم بن عديّ في « كتاب المثالب »(٢) من أن دغفلاً النّسابة دخل على معاوية فقال له معاوية : من رأيت من علِيَة قريش ؟ فقال : رأيت عبد المطلب ابن هاشم وأمية بن عبد شمس . فقال : صفهما لي . فلما وصف له عبد المطلب قال : فصف أمية . قال : رأيته شيخاً قصيراً نحيف الجسم ضريراً يقوده عبده ذكوان . فقال : مه ، ذاك ابنه أبو عمرو . فقال : هذا شيء قلتموه بعدُ وأحدثتموه ، وأما الذي عرفتُ فهو الذي أخبرتك به . وقد ذكرنا طرفاً من الكذب في النسب عند حديثنا عن الرواة الوضاعين ، وسنذكر طرفاً آخر حين نتحدث عن أسباب الوضع ودواعيه .

وأما الوضع والكذب في الحديث النبوي منذ عهد الرسول نفسه فأمر لا يحتاج إلى بيان ، وليس أدل على ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم : « من كذب عليّ فليتبوأ مقعداً من النار »(٣) . وقد جاءه ذات يوم المنقّع بن الحصين فقال : يا رسول الله إن الناس خاضوا في كذا وكذا . فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه وقال : « اللهمّ لا أحل لهم أن يكذبوا عليّ » . قال المنقع : فلم أحدّث بحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا حديثاً نطق به كتاب أو جرت به سُنّة ، يكذّب عليه في حياته فكيف بعد موته ! !(٤) . وقد تنبه الصحابة في الصدر الأول إلى شيوع الكذب والوضع في الحديث ، حتى إن سعد بن أبي وقاص حينما سئل عن شيء في الحديث استعجمَ وقال : إني أخاف أن أحدثكم واحداً فتزيدوا عليه المائة(٥) . وحتى إن عبد الله بن عمرو بن العاص قال لجماعة من أهل

---

(١) ابن سعد ، الطبقات ١ : ٢٨ .

(٢) الأغاني ١ : ١٢ .

(٣) ابن سعد ٣/١ : ٧٥ .

(٤) ابن سعد ٧ : ٤٣ – ٤٤ .

(٥) ابن سعد ٣/١ : ١٠٢ .

العراق جاؤوا يسألونه أن يحدثهم[1] : إن من أهل العراق قوماً يَكذِبون ويُكذّبون ويسخرون . بل لقد بلغ الأمر أكثر من ذلك :

فقصة عبد الله بن سعد بن أبي سرح مشهورة : كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي ، ثم ارتد ولحق بالمشركين وقال — في زعمه — : إن محمداً ليكتب بما شئت[2] . وذكروا أنه كان يكتب « عزيز حكيم » مكان « غفور رحيم »[3] . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود وقال : لا آمن أن يبدلوا كتابي[4] ! .

فإذا ما انتقلنا بعد ذلك إلى تخصيص الحديث في الشعر وحده ، وجدنا أن الشعر الجاهلي كان عرضة ، منذ الجاهلية نفسها وسنوات الإسلام الأولى ، للوضع والنحل والانتحال . والأمثلة التي بين أيدينا قليلة ولكن فيها مقنعاً ، إذ أنها تدل دلالة واضحة على أن هذه الظواهر الأدبية كانت معروفة شائعة منذ أبعد ما نعرف من عصور الشعر العربي .

فقد قال أبو عبيدة[5] : كان قُراد بن حَنَش من شعراء غَطَفان ، وكان جيد الشعر قليله ، وكان شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدّعيه ، منهم زهير بن أبي سُلمى ادّعى هذه الأبيات :

إن الرَّزِيَّةَ لا رَزِيَّةَ مِثْلُهَا ... مَا تَبْتَغِي غَطفانُ يَوْمَ أَضَلَّتِ
إنَّ الرِّكَابَ لَتَبْتَغِي ذَا مِرَّةٍ ... بِجُنُوبِ نَخْلٍ إذا الشُّهُورُ أَحَلَّتِ
وَلَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ أَنْتَ لَنا إذا ... نَهِلَتْ مِنَ العَلَقِ الرِّمَاحُ وَعَلَّتِ
يَنْعَوْنَ خَيْرَ النَّاسِ عِنْدَ كَرِيهَةٍ ... عَظُمَتْ مُصِيبَتُهُمْ هُنَاكَ وَجَلَّتِ

(١) ابن سعد ٤/٢ : ١٣ .
(٢) الجهشياري ، كتاب الوزراء والكتاب : ١٣
(٣) ابن قتيبة ، المعارف : ١٤٩ .
(٤) المقريزي ، إمتاع الأسماع : ١٨٧ .
(٥) طبقات ابن سلام : ٥٦٨ — ٥٦٩ .

وُيرْوَى أن النابغة الجعدىّ دخل على الحسن بن علىّ فودعه ، فقال له الحسن(١) : أنشدنا من بعض شعرك ، فأنشد :

الْحَمْدُ لِلّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ ... مَنْ لَمْ يقُلْهَا فَنَفْسَهُ ظَلَمَا

فقال له : يا أبا ليلى ، ماكنا نروى هذه الأبيات إلا لأمية بن أبى الصلت . قال : يا ابن رسول الله والله إنى لأول الناس قالها ، وإن السروق من سرق أمية شعره.

وكان الأعشى قد مدح قيس بن معديكرب الكندىّ بقصيدة دالية(٢) ، فقال له قيس : إنك تسرق الشعر . فقال له الأعشى : قيِّدْنى فى بيت حتى أقول لك شعراً . فحبسه وقيده . فقال عند ذلك قصيدته التى أولها :

أَأَزْمَعْتَ مِنْ آلِ لَيْلَى ابتِكارَا ... وَشَطَّتْ عَلَى ذِى هَوًى أَنْ تُزَارا

وفيها يقول :

وَقَيَّدَنِى الشِّعْرُ فى بَيْتِهِ ... كَمَا قَيَّدَ الآسِرَاتُ الحِمارا

وسألت عائشة أمّ المؤمنين مَنْ صاحب هذه الأبيات(٣) :

جَزَى اللهُ خيْرًا مِنْ إمَامٍ وَبَارَكَتْ ... يَدُ اللهِ فى ذَاكَ الأَدِيمِ المُمَزَّقِ

فَمَنْ يسْعَ أوْ يَرْكَبْ جَنَاحَىْ نَعَامَةٍ ... لِيُدْرِكَ مَا حَاوَلْتَ بِالأَمْسِ يُسْبَقِ

قَضَيْتَ أموراً ثُمَّ غَادرْتَ بَعْدَهَا ... بَوَائِقَ فى أَكْمَامِهَا لَمْ تُفَتَّقِ

وَمَا كُنْتُ أخْشَى أنْ تَكُونَ وفَاتُهُ ... بكَفَّىْ سَبَنْتَى أَزْرَقِ العَيْنِ مُطْرِقِ

فقالوا: مُزَرِّد بن ضرار . قالت عائشة : فلقيت مُزَرِّداً بعد ذلك فحلف بالله ما شهد تلك السنة الموسم .

---

(١) طبقات ابن سلام: ١٠٦ – ١٠٧ ، والأغانى ٥ : ١٠ .

(٢) انظر : ابن قتيبة ، الشعر والشعراء: ٢١٤ – ٢١٥ ، واستدراك صاحب الخزانة عليه فى الخزانة ٣ ٢٧٥ (سلفية) .

(٣) ابن سعد ٣/١ : ٢٤١ ؛وانظر طبقات ابن سلام: ١١١ حيث نسبها إلى جزء أخى مزرد .

ومن عجب أن يضع المسلمون الأولون شعراً وينحلوه أبا بكر الصديق ، حتى لقد روى الزُّهرىّ عن عروة عن عائشة أنها قالت : كذب من أخبركم أن أبا بكر قال بيت شعرٍ فى الإسلام ! ! .

ولعل من خير ما يدل على هذا الذى نذهب إليه بيتاً قاله مُزَرِّد بن ضرار فى أبيات يصف فيها نفسه وشعره ، قالها يردّ على كعب بن زهير حين نظم كعب أبياته التى يقدّم فيها نفسه والحطيئة . قال مزرد(١) :

وباسْتِكَ إذْ خَلَّفْتَنِى خَلْفَ شَاعِرٍ مِنَ النَّاسِ لَمْ أُكْفِئْ وَلَمْ أَتَنَحَّلِ

فهو ينفى عن نفسه تنحل الشعر وانتحاله أى ادعاءه إياه لنفسه وهو من كلام غيره .

ومما يدخل فى هذا الباب أيضاً ما وصف به الفرزدقُ علقمةَ الفحل من أن شعره لا يستطيع أحد أن ينحله ، فكأنه يقصد أن على شعره طابعه وميسمه فإذا ما ادعاه غيره عرف الناس أنه ليس لمن ادعاه وإنما هو لصاحبه علقمة ، وذلك قول الفرزدق(٢) :

وَالفَحْلُ عَلْقَمَةُ الذِى كَانَتْ لَهُ حُلَلُ المُلُوكِ كَلَامُهُ لا يُنْحَلُ

٢

ولم يكن أمر الوضع والنحل فى الشعر الجاهلى ليخفَى على الرواة العلماء، فقد تنبه له كثيرون منهم ، بل قلما نجد راوية عالماً من القرن الثانى والقرن الثالث لا تذكر لنا الأخبار المروية عنه أنه نصّ نصًّا صريحاً على أن بيتاً أوأبياتاً بعينها

---

(١) ابن سلام : ٨٨ .

(٢) النقائض ١ : ٢٠٠ .

موضوعة منحولة ، وسنورد أمثلة وافية مما نص عليه هؤلاء العلماء من رجال الطبقة الأولى والطبقة الثانية .

فقد ذكر أبو عمرو بن العلاء أن ذا الإصبع العَدْوانيّ قال يرثى قومه(١) :

وليس المرءُ فى شىءٍ مِنَ الإبْـرَامِ والنَّقْضِ
إذا يَفْعَلُ شيئاً خَـا لَهُ يَقْضِى وَمَا يَقْضِى
جَدِيدُ العَيْشِ مَلْبُـوسٌ وَقَـدْ يُوشِكُ أنْ يُنْضِى

ثم نص على أنه لا يصح من أبيات ذى الإصبع الضادية هذه إلا الأبيات التى أنشدها ، وأن سائرها منحول(٢) . بينما نرى أبا الفرج نفسه يورد من هذه القصيدة غير الأبيات المتقدمة نحواً من أربعة وعشرين بيتاً أخر(٣) . وذهب أيضاً أبو عمرو إلى أن القصيدة المنسوبة إلى امرئ القيس والتى مطلعها :

لَا وَأَبِيكِ ابْنَةَ العَامِرِ ىِّ لَا يدَّعِى القَوْمُ أَنِّى أَفِرّْ

هى لرجل من أولاد النمر بن قاسط ، يقال له ربيعة بن جُشَم ، وأولها عنده(٤) :

أَحَارِ بنَ عَمْرٍو كَأَنِّى خَمِرْ وَيَعْدُو عَلَى المَرْءِ مَا يأْتَمِـرْ

وهذا عامر بن عبد الملك وأخوه مِسْمَع بن عبد الملك الملقب كِرْدِين — وهما من طبقة أبى عمرو بن العلاء ، علامتان بالنسب راويتان للشعر ، روى عنهما أبو عبيدة والأصمعى أخباراً وشعراً — ينكران ما أضيف إلى قصيدة الحارث ابن عُبَاد ، ولم يُصححا منها غير الأبيات الثلاثة التالية(٥) :

---

(١) الأغانى ٣ : ١٠٦ .
(٢) المصدر السابق ٣ : ٩٦ .
(٣) المصدر السابق : ٩٢ و ١٠٧ — ١٠٨ .
(٤) البغدادى ، الخزانة ١ : ٣٣٧ — ٣٣٨ .
(٥) الأغانى ٥ : ٤٧ — ٤٨ .

قَــرِّبَا مَرْبِطَ النَّعَامَــةِ مِنِّى لَقِحَتْ حَرْبُ وَائِلٍ عن حِيَالِ
لَا بُجَيْرٌ أغْنَى قَتِيلاً وَلَا رهْـ ـطُ كُلَيْبٍ تَزَاجَرُوا عَن ضَلالِ
لَمْ أكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عَلِمِ اللّـ ـهُ وَإنِّى بِحَرِّهَا اليَوْمَ صَالِ

ومن أمثلة ذلك عند أبي عمرو الشيبانى أنه كان يدفع أن يكون هذا البيت لعنترة وهو :

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ أمْ هَلْ عَرَفْتَ الدارَ بعْدَ تَوَهُّمِ

ولم يكن يرويه حتى سمع أبا حِزام العُكْلى يرويه له[١] .

وأما الأخبار المروية فى ذلك عن الأصمعى فكثيرة، منها ما هو عام مطلق، ومنها ما هو مخصص يُنصُّ فيه على بيت أو أبيات بعينها . فمن الضرب الأول : ما أوردوه من أن الأصمعى قال[٢] : أقمت بالمدينة زماناً ما رأيت بها قصيدة صحيحة إلا مُصحَّفة أو مصنوعة . وأنه كذلك قال[٣] : ويقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه . وأنه قال أيضاً[٤] : أكثر شعر مُهلهِل محمول عليه .

ومن الضرب الثانى : أنه قال[٥] : أعيانى شعر الأغلب ، ما أروى له إلا اثنتين ونصفاً . فلما سئل : كيف قلت نصفاً ؟ أجاب : أعرف له اثنتين وكنت أروى نصفاً من التى على القاف ، فطوّلوها ، وكان ولده يزيدون فى شعره حتى أفسدوه . وقد قال أيضاً فى القصيدة المنسوبة إلى الأغلب فى سجاح[٦] : إنه كان يقال إن هذه القصيدة فى الجاهلية لجشم بن الخزرج . وقال الأصمعى

---

(١) الأغانى ٩ : ٢٢٢ .
(٢) المزهر ٢ : ٤١٣ — ٤١٤ .
(٣) الموشح : ٢٤ .
(٤) الموشح : ٧٤ .
(٥) المرجع السابق : ٢١٣ .
(٦) طبقات فحول الشعراء : ٥٧٦ .

أيضاً[1] : الناس يروون لأمية بن أبى الصلت القصيدة التى فيها :

مَنْ لَمْ يَمُتْ عَبْطَةً يَمُتْ هَرَماً　　المَوْتُ كَأْسٌ فالمَرْءُ ذَائِقُهَا

قال : وهذه لرجل من الخوارج .

وكان الأصمعى يرى أن أبياتاً من قصيدة زهير الميمية : « أمِنْ أمِّ أوفى دمنةٌ لَمْ تكلَّمِ » ليست له وإنما هى لصِرْمَة بن أبى أنس الأنصارى[2] . وكان كذلك يشك فى بيت عنترة : « هل غادر الشعراء . . » ويدفع أن يكون له[3] ، ويرى أن أول القصيدة :

يَا دَارَ عَبْلَةَ بالْجِوَاءِ تَكَلَّمِى　　وَعِمِى صَبَاحاً دَارَ عَبْلَةَ واسْلَمِى

وقد أنشد أبو حاتم السجستانى بيتاً فى عجزه : « والسيفُ مغمودُ » فقال الأصمعى[4] : هذا الشعر مصنوع ، وقد رأيت صانعه .

وأما أبو عبيدة فإن أخباره فى هذا الباب لتكاد تضارع أخبار الأصمعى كثرةً . من ذلك أنه ذكر خمسة أبيات للحارث بن حِلِّزة فى إنكار الطِّيَرة هى قوله[5] :

يَا أَيُّهَا المُزْمِعُ ثُمَّ انْثَنَى　　لَا يثْنِك الحَازِى وَلَا الشَّاحِجُ

ولَا قَعِيدٌ أَعْضَبٌ قَرْنُهُ　　هَاجَ لَهُ مِنْ مَرْبعٍ هَائِجُ

---

(١) الموشح : ٧٨ .

(٢) المعمرين : ٦٦ .

(٣) الأغانى ٩ : ٢٢٢ .

(٤) مراتب النحويين ورقة : ١١٢ .

(٥) الحيوان ٣ : ٤٤٩ — ٤٥٠ . الحازى : زاجر الطير . الشاحج : الغراب يشحج بصوته . القعيد : ماجاء من وراء المرء من ظبى أو طائر . الأعضب : المكسور القرن . تاج : قدر . الخالج : الموت يختلج المرء وينتزعه . رقح : أصلح . الكسع : ضرب الماء على الضرع ليرتفع اللبن فتسمن الناقة أو يسمن أولادها فى بطنها . الشول : جمع شائلة ، وهى التى أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فخف لبنها . أغبار : جمع غبر (بضم الغين) : بقية اللبن فى الضرع .

بَيْنَا الفَتَى يَسْعَى وَيُسْعى لَهُ تَاحَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ خَالِجُ
يَتْرُكُ مَا رَقَّحَ مِنْ عَيْشِهِ يَعِيثُ فِيهِ هَمَجٌ هَامِجُ
لَا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بِأَغْبَارِها إِنَّكَ لَا تَدْرِى مَنِ النَّاتِجُ

ثم قال أبو عبيدة : أنشدنيها أبو عمرو ، وليست إلا هذه الأبيات ، وسائر القصيدة مصنوع مولَّد .

وقد أورد أيضاً أربعة أبيات لعوف بن عطية التيمى أولها[1] :

هَلَّا فَوَارِسَ رِحْرَحَانَ هَجَوْتُمُ عُشَرًا تَنَاوَحُ فى سَرَارَة وَادِ

ثم قال : وبقية هذه القصيدة مصنوعة .

واستشهد على أن الأسود كان رئيس الرِّباب يوم النِّسار بقول عوف بن عطية ابن الخرع التيمى[2] :

مَا زَال حَيْنُكُمُ وَنَقْصُ حُلُومِكُمْ حَتَّى بَلَوْتُمْ كَيْفَ وَقْعُ الأَسْوَدِ
وَقَبَائِلُ الأَحْلَافِ وَسْطَ بُيُوتِكُمْ يَعْلُونَ هَامَكُمُ بِكُلِّ مُهَنَّدِ

ثم قال : قال بنو أسد وغطفان هذه مصنوعة لم يشهد الأسودُ النِّسار .

وفى كتابه « الخيل » نصوص كثيرة فى هذا الباب ، منها أنه أورد أبياتاً مطلعها[3] :

الخَيْرُ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَمَا غَرُبَتْ مُعَلَّقٌ بِنَوَاصِى الخَيْلِ مَطْلُوبُ

وبعد أن قال إن هذا الشعر لأحد الأنصار ، وأنه قد يُحمل على امرئ القيس ، عاد فقطع بأنه « لم يقله امرؤ القيس ولكنه لرجل من الأنصار »[4] .

---

(١) النقائض : ٢٣٨ .
(٢) النقائض : ٢٤٠ .
(٣) كتاب الخيل : ١٦٠ .
(٤) المصدر السابق : ١٤ .

وقد أورد أربعة أبيات ذكر أنها لصعصعة بن معاوية السعدى، مطلعها[1] :

مَا كُنْتُ أَجْعَلُ مَا لِى فرغ دالِيةٍ ... فِى رَأْسِ جَذْعٍ تصب الْماء فى الطِّينِ

ثم قال : وقد تروى هذه الأبيات لحارثة بن بدر الغُدانى .

وقد أورد أبياتاً كثيرة أولها :

وَأَرْكَبُ فى الرَّوْعِ خَيْفَانَةً ... كَسَا وَجْهَهَا سَعَفٌ مُنْتَشِرْ

ونسبها إلى امرئ القيس ولكنه قال[2] : «وقد يخلط قوله هذا بقول النمرى » ولما أتم الأبيات قال : « وقد تروى هذه الأبيات لربيعة بن جشم النمرى »[3] .

وأورد كذلك أبياتاً نسبها إلى أبى دواد الإيادى أولها[4] :

وَكلُّ حِصْنٍ وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ ... يوْماً سَيَدْخُلُهُ النُّكْرَاء والْحُوبُ

ثم قال : « وَيُحمَل بعض ما فى هذه الكلمة على يزيد بن عمرو الحنفى ، وقد أعدته فى شعره » .

وذكر أبياتاً لعلقمة أولها :

وَقَدْ أَغْتَدِى والطَّيْرُ فى وُكُنَاتِهَا ... وَمَاءُ النَّدَى يَجْرِى عَلَى كُلِّ مِذْنَبِ

وقال[5]: « وقد يُخلط قوله بشعر امرئ القيس بن حُجْر . وقد نسبتُ شعر امرئ القيس وأفردته من شعر علقمة » .

وقد أورد فى مواطن عدّة أبياتاً لشعراء مختلفين ، سمّاهم أحياناً واكتفى بأن

---

(١) كتاب الخيل : ١٤ — ١٥ .

(٢) المصدر السابق: ١٣٩ .

(٣) المصدر السابق : ١٤١ .

(٤) المصدر السابق : ١٤٧ — ١٤٨ .

(٥) المصدر السابق : ١٣٦ .

قال : قال الشاعر ، أحياناً أخرى — وكان فى كل موطن يشير إلى أن هذه الأبيات تُحمَل أيضاً على أبى دواد الإيادىّ(١) .

فإذا ما اكتفينا بما قدمنا من أخبار الطبقة الأولى من الرواة والعلماء ، وانتقلنا إلى الحديث عن رواة الطبقة الثانية ، وجدنا عندهم كذلك نثاراً من هذه الإشارات المتفرقة إلى الموضوع والمنحول من الشعر الجاهلى . وسنقصر حديثنا على ثلاثة منهم ، هم : أبو حاتم سهل بن محمد السجستانى ، وأبو عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ ، وابن قتيبة .

أما أبو حاتم فقد ذكر أبياتاً ثلاثة نسبها إلى عمرو بن ثعلبة هى(٢) :

تَهَزَّأَتْ عِرْسِىَ واسْتَنْكَرَتْ   شَيْبِى فَفِيهَا جَنَفٌ وازْوِرَارْ
لَا تُكْثِرِى هُزْءًا وَلَا تَعجبِى   فلَيْس بالشَّيْب عَلَى المَرءِ عَارْ
عَمْرَكِ ،هَلْ تَدْرِينَ أن الفَتَى   شَبَابُهُ ثَوْبٌ عَلَيْـــهِ مُعَارْ

ثم قال أبو حاتم : زعم عطاء بن مصعب الملْطُ أن خلفاً الأحمر وضع هذا البيت الأخير .

وأورد أبياتاً سبعة نسبها إلى مرداس بن صُبيح آخرها قوله(٣) :

فَلَا يَغْرُرْكُمُ كِبَرِى فَإِنِّى   كَرِيمٌ لَيْسَ فى أمْرِى شَتَاتُ

ثم قال : وأظن البيت الأخير ليس منها .

وقد مر بنا قبل قليل أن أبا حاتم أورد بيت زهير(٤) :

سَئِمْتُ تكَالِيفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ   ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لكَ يَسْأَمِ

---

(١) المصدر السابق : ٥٤ ، ٥٥ ، ٧٠ ، ٨٤ ، ١٤٤ ، ١٧١ .

(٢) كتاب المعمرين من العرب : ٣٣ .

(٣) المعمرين : ٣٤ — ٣٥ .

(٤) المعمرين : ٦٦ .

ثم قال أبو حاتم : وكان الأصمعي يزعم أن القصيدة لأنس بن زُنيم . قال أبو روق : غلط أبو حاتم إنما كان الأصمعي يقول : القصيدة لصرمة بن أبي أنس الأنصاري !

وأما الجاحظ فهو يشير إلى الموضوع والمنحول على ثلاث طرق ، فهو حيناً ينسب الشعر إلى شاعر بعينه ثم يعقب عليه بما يفيد شكه فيه ، وهو حيناً ثانياً يقطع قطعاً جازماً بأن هذا الشعر أو ذاك منحول مصنوع — وكل ذلك من غير دليل أو حجة وإنما يرسل القول إرسالاً ، وهو حيناً ثالثاً يقطع بأن الشعر منحول ثم يورد من الحجج ما يراه كفيلاً بدعم رأيه .

فمن الضرب الأول أنه يقول : قال فلان — ويذكر اسم شاعر بعينه — ، ثم يعقب عليه بقوله : إنْ كان قالها . وقد تكرر منه ذلك في مواطن متفرقة من كتابه « الحيوان »[1] .

ومن الضرب الثاني قوله[2] : وفي منحول شعر النابغة :

فَأَلْفَيْتُ الأَمانَةَ لَمْ تَخُنْهَا ... كَذَلِكَ كَانَ نُوحٌ لَا يَخُونُ

وقوله[3] : قال غيلان بن سلمة :

فِي الآلِ يَخْفِضُهَا وَيَرْفَعُهَا ... رَيْعٌ كَأَنَّ مُتُونَهُ السَّحْلُ
عَقْلًا وَرَقْماً ثُمَّ أَرْدَفَهُ ... كِلَلٌ عَلَى أَلْوَانِهَا الخَمْلُ
كَدَمِ الرُّعَافِ عَلَى مآزِرِهَا ... وَكَأَنَّهُنَّ ضَوَامِرًا إِجْلُ

---

(١) ج : ٣ ص : ٤٩ ، ٦٨ — ٧٠ ، وج : ٤ ص : ٢٤٨—٢٤٩ ، وج : ٦ ص : ٣٣٩ .

(٢) الحيوان ٢ : ٢٤٦ .

(٣) المصدر السابق ٦ : ٣٣٥ . الريع : الطريق المنفرج عن الجبل . متونه : ظهوره . السحل : الثوب الأبيض من ثياب اليمن . العقل : ثوب أحمر يجلل به الهودج . كلل : جمع كلة (بكسر الكاف وتشديد اللام) وهي ما خيط من الستور فصار كالبيت . الخمل : القطيفة . الإجل : القطيع من بقر الوحش .

ثم قال : وهذا الشعر عندنا للمسيَّب بن عَلَس .

ومن الضرب الثالث أنه أورد أبياتاً زعم بعض الرواة أنها جاهلية فيها ذكر لانقضاض الكواكب[١] ، والجاحظ ينكر ذلك ويرى أن انقضاض الكواكب لم يكن فى الجاهلية البعيدة عن مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بل حدث أول مرة عند مولده أو قُبيله ، فهو بذلك من أعلام ميلاده أو إرهاص له . ثم يعقِّب على هذه الأشعار بقوله[٢] : « وسنقول فى هذه الأشعار التى أنشدتموها ونخبر عن مقاديرها وطبقاتها . فأما قوله :

فَانْقَضَّ كَالدُّرِّىِّ مِنْ مُتَحدِّرٍ   لَمْعَ العَقِيقَةِ جُنْحَ لَيْلٍ مُظلِمِ[٣]

فخبرنى أبو إسحق أن هذا البيت فى أبيات أخر كان أسامة صاحب روح بن أبى همام هو الذى كان ولَّدها . فإن اتهمت خبر أبى إسحق فسمِّ الشاعر ، وهات القصيدة ؛ فإنه لا يُقبَل فى مثل هذا إلا بيت صحيح ، صحيح الجوهر ، من قصيدة صحيحة . لشاعر معروف . وإلا فإن كل من يقول الشعر يستطيع أن يقول خمسين بيتاً كل بيت فيها أجود من هذا البيت . . . . وأما ما أنشدتم من قول أوْس بن حَجَر :

فانْقَضَّ كالدُّرِّىِّ يَتْبَعُــهُ   نَقْعٌ يَثُورُ تَخَالُــهُ طُنُبَا

فهذا الشعر ليس يرويه لأوس إلا من لا يفصل بين شعر أوْس بن حَجر وشُرَيح ابن أوْس . وقد طعنت الرواة فى هذا الشعر الذى أضَفتموه إلى بشر بن أبى خازم من قوله :

والعَيْرُ يُرْهِقُهَا الحِمَارُ وجَحْشُهَا   يَنْقَضُّ خَلْفَهُمَا انْقضاضَ الكَوْكَبِ

---

(١) الحيوان ٦ : ٢٧٢ – ٢٧٦ .

(٢) المصدر السابق ٦ : ٢٧٨ – ٢٨٠ .

(٣) البيت فى صفة ثور وحشى . الدرى : الكوكب الثاقب المضىء . العقيقة : البرق إذا رأيته وسط السحاب كأنه سيف مسلول .

فزعموا أنه ليس من عادتهم أن يصفوا عدْوَ الحمار بانقضاض الكوكب ، ولا بدن الحمار ببدن الكوكب ، وقالوا : في شعر بشر مصنوع كثير ، مما قد احتملته كثير من الرواة على أنه من صحيح شعره ، فمن ذلك قصيدته التي يقول فيها :

فَرَجِّى الخَيْرَ وانْتَظِرِى إيَابِى   إِذَ مَا القَارِظُ العَنَزِىُّ آبَا[1]

.... وأما ما رويتم من شعر الأفوه الأودىّ فلعمرى إنه لجاهلى ، وما وجدنا أحداً من الرواة يشك فى أن القصيدة مصنوعة . وبعد فمن أين علم الأفوه أن الشهب التى يراها إنما هى قذف ورجم ، وهو جاهلى ، ولم يدّع هذا أحد قطّ إلا المسلمون ؟ فهذا دليل آخر على أن القصيدة مصنوعة » .

وأما ابن قتيبة فقد أشار إلى النحل والوضع فى موطنين من كتابه « الشعر والشعراء » . أورد فى الموطن الأول قول الأعشى[2] :

إنَّ مَحلاًّ وإنَّ مُرْتَحَـلا   وإنَّ فى السَّفْرِ مَا مَضَى مَهَلَا
اسْتَأْثَرَ اللهُ بالوَفَاءِ وَبالْـحَمْدِ وَوَلَّى المَلَامَةَ الرَّجُلَا
والأَرْضُ حَمَّالَةٌ لِمَا حَمَّلَ اللَّـهُ وَمَـا إنْ تَرُدُّ مَا فعَلاَ
يوْماً تَرَاهَا كَشِبْهِ أَرْدِيَةِ الْـعَصْبِ وَيَوْماً أدِيمُهَا نَغِـلاَ[3]

ثم عقب عليها بقوله : وهذا الشعر منحول ، ولا أعلم فيه شيئاً يستحسن الاقوله :

يَا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ المَطِىَّ وَلاَ   يَشْرَبُ كَأْساً بكَفِّ مَنْ بَخِلاَ

وأورد فى الموطن الثانى سبعة أبيات من شعر لبيد آخرها قوله[4] :

وَكُلُّ امْرِىءٍ يَوماً سَيَعْلَمُ سَعْيَهُ   إذَا كُشِفَتْ عِنْدَ الإِلٰهِ المَحَاصِلُ

---

(١) القارظ العنزى : رجل من عنزة (بفتح العين والنون) خرج يطلب القرظ فلم يرجع ، فضربته العرب مثلا .

(٢) الشعر والشعراء ١ : ١٤ .

(٣) العصب : ضرب من برود اليمن . النغل : الفاسد الدباغة .

(٤) الشعر والشعراء ١ : ٢٢٧ .

ثم عقب عليه بقوله : « وهذا البيت الآخر يدل على أنه قيل فى الإسلام ، وهو شبيه بقول الله تبارك وتعالى "وحُصِّلَ ما فى الصدُور" ؛ أو كان لبيد قبل إسلامه يؤمن بالبعث والحساب ؛ ولعل البيت منحول » .

٣

تلك هى إشارات القدماء من الرواة العلماء ، فى القرنين الثانى والثالث ، إلى الوضع والنحل فى الشعر الجاهلى . وقد قصدنا إلى أن نُلِمّ بها بعض الشىء ليستبين لنا وجه البحث ، وليكون تعقيبنا عليها — حين نعقب بعد صفحات[1] — وافياً مستوعباً . ومع ذلك فقد أغفلنا الإشارة إلى اثنين من هؤلاء العلماء هما : عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية (المتوفى سنة ٢١٨ هـ) ، ومحمد بن سلاّم (المتوفى سنة ٢٣١ هـ) صاحب كتاب طبقات الشعراء ، وقد ادخرناهما لنختصهما وحدهما بالعرض والتعقيب ، إذ أن إشارتهما فى كتابيهما أصبحت بعدُ ركيزةً من ركائز الذين يشكُّون فى الشعر الجاهلى من المحدَثين ، وصار الكتابان مَعْلَمين من معالم هذا البحث .

أما ابن هشام فعمله فى السيرة قائم على ما صنفه محمد بن إسحق (المتوفى سنة ١٥٢ هـ) ، فقد تعقب ما أوردَه ابن إسحق فاختصر بعضه ، ونقد بعضه ، ثم ذكر روايات أخرى فات ابن إسحق ذكرها ، ويعنينا نحن من ذلك ما وصف به عمله هذا من قوله[2] : « وتارك بعض ما يذكره ابن إسحق فى هذا الكتاب ، مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شىء ، وليس سبباً لشىء من هذا الكتاب ، ولا تفسيراً له ، ولا شاهداً عليه ، لما ذكرت

---

(١) وذلك فى حديثنا عن توثيق الرواة وتضعيفهم فى الفصل الخامس ؛ وكذلك فى حديثنا عن ابن إسحق فى الفصل الرابع من الباب الأخير .

(٢) السيرة النبوية ١ : ٤ .

من الاختصار ، وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره . . . »

وهذه الأشعار التي ذكرها ابن إسحق في سيرته والتي لم يرَ ابن هشام أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها — قد وقف عندها ابن سلام وقفات طوالاً ، فقد قال[1] : « وكان ممن أفسد الشعر وهجّنه وحمل كل غثاء منه : محمد بن إسحق ابن يسار ، مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ، وكان من علماء الناس بالسِّيَر .... فقبل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لي بالشعر ، أوتَى به فأحمله . ولم يكن ذلك له عذراً . فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة ، وليس بشعر ، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف . أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر؟ ومن أدّاه منذ آلاف السنين ؟ والله تبارك وتعالى يقول : ﴿فَقُطِعَ دابِرُ القَوْمِ الذين ظَلَمُوا﴾ أي : لا بقيةَ لهم . وقال أيضاً : ﴿وأنَّهُ أهْلَكَ عادا الأولَى ، وثَمُودَ فَمَا أبْقَى﴾ وقال في عاد : ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ﴾ وقال :﴿وقُروناً بيْنَ ذلكَ كَثيرًا﴾ وقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ . قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والذينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يعْلَمُهُمْ إلَّا اللهُ﴾ .

وقال ابن سلام كذلك[2] « ولأبي سفيان بن الحارث شعر كان يقوله في الجاهلية ، فسقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل . ولسنا نعدُّ ما يروي ابن إسحق له ولا لغيره شعراً ، ولأنْ لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم » .

ويقول في موطن ثالث[3] : « فلو كان الشعر مثل ما وُضع لابن إسحق ، ومثل ما رواه الصحفيون ، ما كانت إليه حاجة . ولا فيه دليل على علم » .

(١) طبقات فحول الشعراء : ٨ — ٩ .
(٢) المصدر السابق : ٢٠٦ .
(٣) المصدر السابق : ١١ .

فى سيرة ابن إسحق وتعقيب ابن هشام ما يستحق أن يوقف عنده وقفة خاصة به . ولقد تتبعت كل ما أخذه ابن هشام على ابن إسحق ونقده فيه ، فوجدته لا يعدو واحداً من أمور أربعة :

الأول : أنه يورد أبيات الشعر التى أوردها ابن إسحق ، وينسبها إلى من نسبها إليه ابن إسحق ، ثم يضيف أنها قد تنسب كلها أو بعضها إلى غيره . وقد تكرر منه ذلك فى ثمانية وعشرين موضعاً ، سأذكر أرقام صفحاتها على سبيل الحصر[١] ، وأكتفى بذكر بعضها على سبيل المثال . فمن ذلك ما يُروَى لأمية ابن أبى الصلت مما يُروَى لغيره أيضاً . فقد أورد أبياتاً عن ابن إسحق من شعر أبى قيس بن الأسلت ، ثم عقب عليها بقوله[٢]: «قال ابن هشام : وهذه الأبيات فى قصيدة له ، والقصيدة تُروَى لأمية بن أبى الصلت» . وكذلك قال ابن إسحق[٣]: «وقال أبو الصلت بن أبى ربيعة الثقفى فى شأن الفيل ، ويذكر الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام . قال ابن هشام : تُروَى لأمية بن أبى الصلت ابن أبى ربيعة الثقفى» . وقال ابن إسحق[٤]: «قال أبو الصلت بن أبى ربيعة الثقفى — قال ابن هشام : وتروى لأمية بن أبى الصلت» . وأورد ابن إسحق أبياتاً نسبها إلى زيد بن عمرو بن نفيل . فقال ابن هشام[٥]: «هى لأمية بن أبى الصلت فى قصيدة له ، إلا البيتين الأولين ، والبيت الخامس ، وآخرها بيتاً» .

وأورد كذلك أبياتاً نسبها إلى ورقة بن نوفل بن أسد ، فقال ابن هشام[٦] :

---

(١) السيرة ج ١ : ١٥ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٧ (مكرر) ، ٦٨ – ٦٩ ، ٧٤ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٠ ، ١٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ / ج ٢ : ١٥٩ ، ٢٢٣ ، ٢٥٦ ، ٣١٠/ ج ٣ : ١٦ ، ٢٠ ، ٨٣ ، ١٣٩ ، ٢١٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٨٢ ، ٣٦٢ ، ج ٤ : ٥١ ، ٩٠ ، ١٩٩ .

(٢) المصدر السابق ١ : ٦٠ .

(٣) المصدر السابق ١ : ٦٢ .

(٤) المصدر السابق ١ : ٦٧ .

(٥) المصدر السابق : ٢٤٢ .

(٦) المصدر السابق ١ : ٢٤٧ .

« يُروى لأمية بن أبي الصلت البيتان الأولان منها وآخرها بيتاً في قصيدة له » .

وقد أورد أبياتاً رواها ابن إسحق ونسبها إلى سيف بن ذي يزن الحميري ، فعقب عليها ابن هشام بقوله(١) : « وهذه الأبيات في أبيات له . وأنشدني خلاد ابن قُرّة السدوسي آخرها بيتاً لأعشى بني قيس بن ثعلبة في قصيدة له ، وغيره من أهل العلم بالشعر ينكرها له » . وأورد ثلاثة أبيات من الرجز نسبها إلى « رجل من العرب » فقال ابن هشام(٢): « ومن الناس من ينحلها امرأ القيس ابن حجر الكندي » . وذكر ابن إسحق بيتاً نسبه إلى أعشى بني قيس بن ثعلبة هو قوله(٣) :

بَيْنَ الخوَرْنَقِ والسَّدِيرِ وَبَارِقٍ والبَيْتِ ذِي الكَعَبَاتِ مِنْ سنْدَادِ

فقال ابن هشام : وهذا البيت للأسود بن يعفر النهشلي . . . في قصيدة له . وأنشدنيه أبو مُحرز خلف الأحمر :

أَهْلِ الخَوَرْنَقِ والسَّدِيرِ وَبارِقٍ والبَيْتِ ذِي الشُّرُفاتِ من سنْدَادِ

وذكر ابن إسحق أبياتاً نسبها إلى عبد الله بن الزِّبَعْرَى ، فقال ابن هشام(٤) : «وتروى للأعشى بن زُرَارة بن النباش » . وكذلك ذكر أبياتاً لحسان فقال ابن هشام(٥): « ويقال : بل قالها عبد الله بن الحارث السهمي » .

وأورد أبياتاً لحسان بن ثابت ، فعقب عليها ابن هشام بقوله(٦): « آخرها بيتاً يروى لأبي خراش الهذلي ، وأنشدنيه له خلف الأحمر . . . وتروى الأبيات أيضاً لمعقل بن خويلد الهذلي » . وذكر أبياتاً نسبها ابن إسحق لحسان بن ثابت ،

(١) السيرة النبوية ١ : ٦٦ — ٦٧ .
(٢) المصدر السابق ١ : ٨٨ — ٨٩ .
(٣) المصدر السابق ١ : ٩١ .
(٤) المصدر السابق ٢ : ١٦ .
(٥) المصدر السابق ٢ : ٢٠ .
(٦) المصدر السابق ٢ : ٨٣ .

ثم عقب عليها ابن هشام بقوله[١]: «أنشدنيها أبو زيد الأنصارى لكعب بن مالك».

والثانى: وأما الضرب الثانى من تعقُّبه ابنَ إسحق فهو إيراده الحادثة التاريخية كما وردت فى سيرة ابن إسحق حتى إذا وصل إلى الشعر الذى قيل فى هذه الحادثة أسقطه ولم يثبته لأنه لم يصح عنده. ولعل ذلك قد تكرر منه فى مواطن كثيرة، لأنه ذكر فى المقدمة أنه ترك أشعاراً ذكرها ابن إسحق ولم ير أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها؛ غير أنى حين تتبعت هذا الضرب من تعقيباته لم أجده نص عليه إلا فى موضعين اثنين؛ فقد أورد مسير أبى كرب تبان أسعد إلى يثرب وغزوه إياها، فلما وصل إلى شعر خالد بن الذى فيه[٢]:

حَنَقاً على سِبْطَيْنِ حَلَّا يَثْرِبَا أَوْلَى لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِدِ

قال ابن هشام: «الشعر الذى فيه هذا البيت مصنوع، فذلك الذى منعنا من إثباته».

وكذلك أورد ما ذكره ابن إسحق من نذر عبد المطلب ذبحَ ولده، وحذف ما جاء فى أثناء هذا الحديث من شعر وقال[٣]: «وبين أضعاف هذا الحديث رجز لم يصح عندنا عن أحد من أهل العلم بالشعر».

والثالث: وضرب ثالث من تعقيباته يذكر فيه أبياتاً من الشعر الذى أورده ابن إسحق، ويكتفى بها، ولا يورد باقيها ثم يقول إن ذلك ما صح له منها؛ وقد تكرر منه ذلك فى ثمانيَة مواضع[٤]؛ منها: أن ابن إسحق أورد أبياتاً لعكرمةَ بن عامر بن هاشم بن عبد مناف، وقد اجتزأَ ابن هشام بثلاثة أبيات منها وقال[٥]: «قال ابن هشام: هذا ما صح له منها».

---

(١) السيرة ٣ : ١٣٨ – ١٣٩.
(٢) المصدر السابق ١ : ٢٤.
(٣) المصدر السابق ١ : ١٦٤.
(٤) هى : ج ١ ص : ٥٣ (مرتين) ، ٦٨ ، ١٠٤ ، ١٢٢ ، ٢٩٩ / ج ٣ ص : ١٨٧/ج ٤ ص : ٣٩.
(٥) المصدر السابق ١ : ٥٣.

وروى ابن إسحق أبياتاً كثيرة لأبى الصلت بن أبى ربيعة الثقفى ، ومع أن ابن هشام قال إنها تروى لابنه أمية ، فقد قال أيضاً(١) : « هذا ما صح له مما روى ابن إسحق منها إلا آخرها بيتاً قوله :

تِلْكَ المَكَارِمُ لاَ قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ   شِيبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالاَ

فإنه للنابغة الجعدى . . . فى قصيدة له » .

وروى ابن إسحق أبياتاً للحارث بن ظالم حين هرب من النعمان بن المنذر فلحق بقريش(٢) ، ولكن ابن هشام اكتفى بستة أبيات منها ، ثم قال : « هذا ما أنشدنى أبو عبيدة منها » .

وروى ابن إسحق أيضاً أبياتاً لعمرو بن الحارث ، فاجتزأ ابن هشام بثلاثة أبيات منها ، وقال(٣) : « هذا ما صح له منها ، وحدثنى بعض أهل العلم بالشعر أن هذه الأبيات أول شعر قيل فى العرب ، وأنها وجدت مكتوبة فى حجر باليمن ولم يسم لى قائلها » ! !

وأورد ابن إسحق قصيدة أبى طالب ، فذكر ابن هشام منها أربعة وتسعين بيتاً ! ثم قال (٤) : « هذا ما صح لى من هذه القصيدة ! ! وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها » .

الرابع : أما فى الضرب الرابع فقد كان ابن هشام يورد الشعر الذى أورده ابن إسحق كاملاً لا يخرم منه بيتاً ، ثم يذكر أنها منحولة ؛ وقد تكرر منه ذلك

---

(١) السيرة ١ : ٦٨ — ٦٩ .
(٢) المصدر السابق ١ : ١٠٣ — ١٠٤ .
(٣) المصدر السابق ١ : ١٢١ — ١٢٢ .
(٤) المصدر السابق ١ : ٢٩٩ .

فى ستة وثلاثين موضعا[١] ويكاد يلتزم ، فى تعبيره عن شكه ، أربعة أنواع من العبارة :

(١) فهو يورد ما رواه ابن إسحق من شعر لأبى بكر الصديق [٢] ، وعبد الله بن الزبعرى [٣] ، وسعد بن أبى وقاص[٤] ، وحمزة بن عبد المطلب[٥] ، وأبى جهل[٦] ، وهند بنت أثاثة [٧] ، وحسان بن ثابت [٨] ، وميمونة بنت عبد الله [٩] وكعب ابن الأشرف وعلىّ بن أبى طالب [١٠] ، والزبرقان بن بدر [١١] ، والحارث بن هشام [١٢] ، — ويعقب على كل قصيدة يوردها لهؤلاء بقوله « وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها له » .

(ب) ويورد ما رواه ابن إسحق من شعر لمالك بن الدخشم [١٣] ، ومكرز ابن حفص[١٤] ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب[١٥] ، وضرار بن الخطاب[١٦]

---

(١) هى – ج ١ : ١٧٩ / ج ٢ : ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ، / ج ٣ : ٨ ، ١١ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٦٣ ، ١٧٤ ، (مرتين) ، ١٧٨ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ٢٠٦ ، ٢٣٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ (مرتين) / ج ٤ : ٢٤ : ٦٢ ، ٩٠ ، ٢٠٩ ، ٢٣١

(٢) ٢ : ٢٤٢ .

(٣) ٢ : ٢٤٤ .

(٤) ٢ : ٢٤٥ .

(٥) ٢ : ٢٤٦ ، ٣ : ٨ .

(٦) ٢ : ٢٤٨ .

(٧) ٣ : ٤٤ .

(٨) ٣ : ٥٦ ، ١٦٣ ، ١٩٣ .

(٩) ٣ : ٥٧ .

(١٠) ٣ : ٢٣٦ .

(١١) ٤ : ٢٠٩ .

(١٢) ٣ : ٨ — ٢١ .

(١٣) ٢ : ٣٠٤ .

(١٤) ٢ : ٣٠٥ .

(١٥) ٣ : ٢٤ .

(١٦) ٣ : ٢٩ ، ١٤٨ ، ١٧٤ .

والحارث بن هشام[١] ، وهند بنت عُتبة[٢] ، وحسان بن ثابت[٣] ، وعبد الله بن الزبعرى[٣] ، وعمرو بن العاص[٤] ، وخُبيب بن عَدِىّ[٥] ، ومسافع بن عبد مناف[٦]، — ويعقب على كل قصيدة يوردها لهؤلاء بقوله « وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها له » .

(حـ) وإذا كان قد ذكر فى العبارات الأولى « أكثر أهل العلم بالشعر » وفى العبارات الثانية « بعض أهل العلم بالشعر » ، فقد ذكر أيضاً فى عبارات ثالثة « أنه لم ير أحداً من أهل العلم بالشعر » يعرف هذه الأبيات . فمن ذلك أن ابن إسحق روى عن محمد بن سعيد بن المسيب خبر وفاة عبد المطلب بن هاشم وبكاء بناته الستّ عليه ، وهنّ : صفية ، وبَرّة ، وعاتكة ، وأم حكيم البيضاء ، وأميمة ، وأروى — وقد بكت عليه كل واحدة منهن بشعر أورده ابن هشام ، ثم عقب عليه بقوله[٧]— « ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر ، إلا أنه لما رواه عن محمد بن سعيد بن المسيب كتبناه » .

وكذلك روى ابن إسحق قصيدتين ، الأولى : لعلى بن أبى طالب فى يوم بدر ، والثانية : نقيضتها للحارث بن هشام بن المغيرة ، وقد أوردهما ابن هشام ، وقال[٨] : « ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ولا نقيضتها ، وإنما كتبناهما لأنه يقال إن عمرو بن عبد الله بن جُدْعان قُتِل يوم بدر ، ولم يذكره ابن إسحق فى القتلى ، وذكره فى هذا الشعر » .

---

(١) ٣ : ٣٠ .
(٢) ٣ : ٤١ ، ٤٢ ، ١٧٨ .
(٣) ٣ : ١٥١ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٨١ .
(٤) ٣ : ١٥٤ .
(٥) ٣ : ١٨٥ .
(٦) ٣ : ٢٨٠ .
(٧) ٢ : ١٧٩ .
(٨) ٣ : ١١ .

وروى ابن إسحق أبياتاً لعلي بن أبي طالب ، فأوردها ابن هشام وقال[١] : «قالها رجل من المسلمين يوم أحد غير عليّ ، فيما ذكر لي بعض أهل العلم بالشعر ، ولم أر أحداً منهم يعرفها لعليّ» .

وكذلك روى ابن إسحق قصيدة أخرى لعلي يذكر فيها إجلاء بني النّضير ، فأوردها ابن هشام ، وقال[٢] : «قالها رجل من المسلمين غير عليّ بن أبي طالب ، فيما ذكر لي بعض أهل العلم بالشعر ، ولم أر أحداً منهم يعرفها لعليّ» .

(د) وقد نص في موضع واحد على اسم عالم من علماء اللغة والشعر والأخبار هو أبو عبيدة ؛ وذلك أنه أورد قصيدة من اثني عشر بيتاً رواها ابن إسحق لعمرو ابن معديكرب . ثم قال إن أبا عبيدة أنشده الأبيات الثلاثة الأولى منها ، وفيها خلاف في رواية بعض ألفاظها ، وأنه لم يعرف سائرها[٣] .

ويحسن بنا أن نختم حديثنا عن ابن إسحق وابن هشام بذكر طائفة من المآخذ التي استدركها ابن هشام على ابن إسحق ولم ندخلها في الضروب الأربعة السابقة وهي :

١ — يروي ابن إسحق قصيدة لأمية بن أبي الصلت يبكي زَمعة بن الأسود وقتلَى بني أسد ، ويوردها ابن هشام كما رواها ابن إسحق ويعقب عليها بقوله[٤] : «هذه الرواية لهذا الشعر مختلطة ، ليست بصحيحة البناء ، ولكن أنشدني أبو محرز خلف الأحمر وغيره ، روى بعضٌ ما لم يرو بعض . . .» ثم يورد القصيدة بهذه الرواية الأخرى صحيحة البناء مستقيمة الوزن .

٢ — ويروي ابن إسحق قصيدة من ثلاثة عشر بيتاً للعباس بن مرداس ، وقد

---

(١) السيرة ٣ : ١٧٤ .
(٢) المصدر السابق ٣ : ٢٠٦ .
(٣) المصدر السابق ٤ : ٢٣١ .
(٤) المصدر السابق ٣ : ٣٤ .

رواها كلها متتابعة على أنها قصيدة واحدة — إذ أنها ذات وزن واحد ورويّ واحد — وأوردها على ذلك ابن هشام، ثم عقب عليها بقوله[١]: «قال ابن هشام: من قوله " أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها " إلى آخرها ، فى هذا اليوم ، وما قبل ذلك فى غير هذا اليوم، وهما مفصولتان ، ولكن ابن إسحق جعلهما واحدة» .

٣ — ويحذف ابن هشام بيتاً أو أبياتاً من قصيدة رواها ابن إسحق، وليس سبب هذا الحذف أنه يشك فى صحة الشعر أو نسبته ، وإنما لأن الشاعر أقذع فيه[٢] . وكذلك أبدل كلمات من شعر رواه ابن إسحق لأن الشاعر «نال فيها من النبى صلى الله عليه وسلم»[٣] . وترك بيتين من قصيدة لأمية بن أبى الصلت لأنه «نال فيهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم»[٤] .

٤ — وله أحياناً تعليقات على ما يورد من الشعر من حيث العروض أو من حيث جمال الشعر ، فمن ذلك أنه يذكر كلاماً لرَئِىٍّ من الجن هو «ألم تر إلى الجن وإبلاسها ، وإياسها من دينها ، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها» . ثم يعقب عليه بقوله[٥] : «قال ابن هشام : هذا الكلام سجع وليس بشعر ! !» .

وذكر أيضاً ما كان يرتجز به المسلمون وهم يبنون مسجد المدينة ، وذلك قولهم : «لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة» وعقب عليه بقوله[٦] : «هذا كلام وليس برجز» .

ويورد أيضاً أبيات سُبَيعة بنت الأحبّ ، ومطلعها :

أَبُنَيَّ لا تَظْلِمْ بِمَكَّةَ لا الصَّغِيرَ وَلا الكَبِيرْ

---

(١) السيرة ٤ : ٨٤ .

(٢) انظر ١ : ٢/٢٨٧ : ٣/٥٤ : ١٩ ، ٢٠ ، ٨٦ ، ٩٧ ، ١٨٦ ، ٤/١٨٧ ، ٢١٣ .

(٣) المصدر السابق ٢ : ١١ .

(٤) المصدر السابق ٢ : ٣٣ .

(٥) المصدر السابق ١ : ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٦) المصدر السابق ٢ : ١٤٢ .

ثم قال(١) « يوقف على قوافيها لا تُعرّب » .

وأورد أبياتاً على الكاف المكسورة رواها ابن إسحق لأبي سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب ثم عقب عليها بقوله(٢) : « بقيت منها أبيات تركناها لقبح اختلاف قوافيها » .

ويورد أبياتاً لحسان بن ثابت يذكر عدة أصحاب اللواء يوم أحُد ، ثم يعقب عليها بقوله (٣): « هذه أحسن ما قيل » .

ويورد أبياتاً رواها ابن إسحق لأبي أسامة معاوية بن زهير بن قيس ، ويعقُب عليها بقوله(٤): « وهذه أصح أشعار أهل بدر » .

* * *

ذلك هو ابن هشام وصنيعه بسيرة ابن إسحق ، وذلك هو — على وجه الحصر — كل ما ذكره عن الشعر الجاهلي الذي رواه ابن إسحق في سيرته .

أما ابن سلاّم فقد يصحّ أن نقسم حديثه عن وضع الشعر الجاهلي ونحله قسمين كبيرين ، أولهما : قواعد عامة وأحكام مرسلة يطلق القول فيها إطلاقاً ، لا يخصّص ولا يمثّل ، وأكثر حديثه عن هذا القسم جاء في مقدمة كتابه . وثانيهما : نصٌ على شعراء بعينهم وذكرٌ لشعر قالوه ، يذهب ابن سلام إلى أنه موضوع منحول .

فمن القسم الأول قوله(٥) : « وفي الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ، ولا حجة في عربيته ، ولا أدب يستفاد ، ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يضرب ، ولا مديح رائع ، ولا هجاء مقذع ، ولا فخر معجب ، ولا نسيب مستطرف . وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ،

---

(١) السيرة ١ : ٢٧ .
(٢) المصدر السابق ٢ : ٢٢٣ .
(٣) المصدر السابق ٣ : ١٠٦ .
(٤) المصدر السابق ٣ : ٣٥ .
(٥) طبقات فحول الشعراء : ٥ — ٦ .

ولم يعرضوه على العلماء . وليس لأحد – إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه – أن يقبل من صحيفة ، ولا يروى عن صحفى . وقد اختلف العلماء فى بعض الشعر ، كما اختلفت فى بعض الأشياء ، أما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج منه » .

وقد روى لنا أن خلاّد بن يزيد الباهلى – وكان حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله – قال لخلف بن حيان الأحمر[١]: « بأى شيء ترد هذه الأشعار التى تُرْوَى ؟ قال له : هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا خير فيه ؟ قال : نعم. قال : أفتعلم فى الناس من هو أعلم بالشعر منك ؟ قال : نعم . قال : فلا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت » .

ومن هذا القسم أيضاً ما أشرنا إليه قبل قليل من حديثه عن محمد بن إسحق وصنيعه فى السيرة ، فقد قال عنه إنه كان [٢] « ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه ، . . . فقبل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لى بالشعر ،أوتى به فأحمله . ولم يكن ذلك له عذراً . فكتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة . . . » ووصف حماداً الراوية بأنه[٣] « كان ينحل شعر الرجل غيره، وينحله غير شعره ، ويزيد فى الأشعار» .

وقال أيضاً[٤] « فلما راجعت العرب رواية الشعر ، وذكرَ أيامها ومآثرها، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم . ثم كانت الرواة بعدُ ، فزادوا فى الأشعار التى قيلت .

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ٨ .

(٢) المصدر السابق : ٨ – ٩ .

(٣) المصدر السابق : ٤٠ – ٤١ .

(٤) المصدر السابق : ٣٩ – ٤٠ .

وليس يُشكِل على أهل العلم زيادةُ الرواة ولا ما وضعوا، ولا ما وضع المولَّدون، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء ، أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الإشكال » .

أما القسم الثانى فيتفرع كذلك إلى جدولين ، أولهما : ذكر فيه ابن سلاّم الشعراء وأرسل القول فى شعرهم إرسالاً ، من غير تخصيص بشعر بذاته . وثانيهما : وقف فيه عند بيت أو أبيات من شعر الشاعر ونص على أن هذه الأبيات بعينها موضوعة منحولة .

فن الأول قول ابن سلام[1]: « أخبرنى أبو عبيدة أن ابن داوود بن متمم ابن نويرة قدم البصرة فى بعض ما يقدم له البدوى فى الجَلَب والميرة ، فنزل النَّحيت ، فأتيته أنا وابن نوح العطاردى ، فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعته . فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد فى الأشعار ويضعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التى ذكرها متمم ، والوقائع التى شهدها . فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله » .

وكذلك قوله[2]: « ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه ، قلة ما بقى بأيدى الرواة المصححين لطرَفة وعَبيد ، اللذين صح لهما قصائد بقدر عشر . . . ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير أن الذى نالهما من ذلك أكثر . وكانا أقدم الفحول ، فلعل ذلك لذاك . فلما قل كلامهما حُمل عليهما حمل كثير » .

وشكَّ كذلك فى شعر عَبيد بن الأبرص فقال عنه إنه[3] « قديم الذكر عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب ، لا أعرف له إلا قوله :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ فَالْقُطَبِيَّاتُ فَالذَّنُوبُ

ولا أدرى ما بعد ذلك ! ! » .

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ٤٠ .

(٢) المصدر السابق : ٢٣ .

(٣) المصدر السابق : ١١٦ .

وشك كذلك فى شعر علقمة بن عبَدة فقال[1]: «ولابن عبدة ثلاث روائع جياد، لا يفوقهن شعر». وبعد أن ذكر مطالعها قال «ولا شيء بعدهن يذكر[2]».

وشك فى شعر عدىّ بن زيد، فقال عنه إنه[3] «كان يسكن الحيرة ومراكز الريف، فلان لسانه وسهل منطقه، فحمل عليه شيء كثير، وتخليصه شديد، واضطرب فيه خلف الأحمر، وخلّط فيه المفضل فأكثر».

وقال كذلك عن الأسود بن يعفر[4]: «وله شعر كثير جيد ... وذكر بعض أصحابنا أنه سمع المفضل يقول: له ثلاثون ومائة قصيدة. ونحن لا نعرف له ذلك ولا قريباً منه، وقد علمت أن أهل الكوفة يروون له أكثر مما نروى، ويتجوزون فى ذلك بأكثر من تجوزنا ...».

وذكر حسان بن ثابت فقال عنه إنه[5] «كثير الشعر جيده، وقد حُمل عليه ما لم يحمل على أحد. لما تعاضهت قريش واستبّت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تُنقّى».

وذكر أيضاً أبا سفيان بن الحارث وقال إن له شعراً كان يقوله فى الجاهلية[6] «فسقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل. ولسنا نعدّ ما يروى ابن إسحق له، ولا لغيره شعراً، ولأنْ لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم».

وأما الجدول الثانى من هذا القسم فهو الذى يقف فيه عند بيت أو أبيات

---

(١) طبقات فحول الشعراء: ١١٦–١١٧.

(٢) لعل ابن سلام هنا لا يشك فى الشعر المنسوب إلى علقمة، وإنما يريد أن يفضل قصائده الثلاث على سواها من شعره، وذلك معنى قوله: «ولا شيء بعدهن يذكر».

(٣) المصدر السابق: ١١٧.

(٤) المصدر السابق: ١٢٣.

(٥) المصدر السابق: ١٧٩.

(٦) المصدر السابق: ٢٠٦.

عينها من شعر الشاعر . فمن ذلك أنه روى بيتاً لعباس بن مرداس يذكر فيه عدنان هو قوله[1] :

وعَكُّ بن عدْنَانَ الذينَ تَلَعَّبوا بمَذْحِجَ حتَّى طُرِّدُوا كُلَّ مَطْرَدِ

وقد قال راوى الكتاب أبو خليفة الفضل بن الحُباب عقب ذلك: « والبيت مريب عند أبي عبد الله » — يعنى ابن سلام .

وقال ابن سلاّم[2]: « أخبرنى أبو عبيدة عن يونس قال: « قدم حماد البصرةَ على بلال بن أبى بُرْدَة ، وهو عليها ، فقال: ما أطرفتنى شيئاً ؛ فعاد إليه فأنشده القصيدة التى فى شعر الحطيئة مديح أبى موسى[3] . فقال: ويحك ، يمدح الحطيئة أبا موسى لا أعلم به ، وأنا أروى شعر الحطيئة ؟! ولكن دعها تذهب فى الناس ! » .

وقال كذلك[4]: « ويروى عن الشعبىّ ، عن رِبْعىّ بن خِراش: أن عمر ابن الخطاب قال: أىّ شعرائكم الذى يقول:

فَأَلْفَيْتُ الأَمَانَةَ لم تَخُنْهَا كَذلِكَ كَانَ نُوحٌ لاَ يخُونُ

وهذا غلط على الشعبى ، أو من الشعبى ، أو من ابن خراش . أجمع أهل العلم على أن النابغة لم يقل هذا ، ولم يسمعه عمر ، ولكنهم غلطوا بغيره من شعر النابغة » .

وأورد بيتين ذكر أنهما مما « يحمَل على لبيد » هما[5] :

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ١١ .

(٢) المصدر السابق : ٤١ .

(٣) هى قصيدته الميمية ، وانظر الأغانى ٢ : ١٧٥ — ١٧٦ .

(٤) المصدر السابق : ٤٩ — ٥٠ .

(٥) المصدر السابق : ٥٠ .

بَاتَتْ تَشَكَّى إِلَيَّ النَّفْسُ مُجْهِشَةً   وقَدْ حَمَلْتُكِ سَبْعاً بَعْدَ سَبْعِين

فَإِنْ تَعِيشِي ثَلاثاً تَبْلُغِي أَمَلاً   وَفِي الثَّلاثِ وَفَاءٌ لِلثَّمَانِين

ثم قال: « ولا اختلاف فى أن هذا مصنوع تكثَّر به الأحاديث، ويستعان به على السهر عند الملوك، والملوك لا تستقصى ».

وذكر أبا طالب فقال إنه كان[1] « شاعراً جيد الكلام، وأبرع ما قال قصيدته التى مدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم، وهى :

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ   رَبِيعُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ

ثم قال: « وقد زيد فيها وطُوِّلت. رأيت فى كتاب كتبه يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة، وقد علمت أن قد زاد الناس فيها، فلا أدرى أين منتّهاها. وسألنى الأصمعى عنها فقلت: صحيحة جيدة. قال: أتدرى أين منتّهاها؟ قلت: لا أدرى ... »

وذكر ابن سلام بيتين قال إن الناس يروونهما لأبى سفيان بن الحارث. ثم قال[2]: « وأخبرنى أهل العلم من أهل المدينة: أن قُدامة بن موسى بن عمر ابن قدامة بن مظعون الجمحى قالها ونحلها أبا سفيان؛ وقريش ترويه فى أشعارها ».

وأورد أربعة أبيات مما يروى لزهير بن أبى سُلمىَ وقال إنها لقُرَاد بن حنش من شعراء غطفان، « وكان جيد الشعر قليله، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه، منهم زهير بن أبى سلمى ادعى هذه الأبيات »[3]

وأورد أرجوزة للأغلب العجلى قالها فى سجاح لما تزوجت مسيلمة الكذاب؛

(١) طبقات فحول الشعراء: ٢٠٤.
(٢) المصدر السابق: ٢٠٨ – ٢٠٩.
(٣) المصدر السابق: ٥٦٨ – ٥٦٩.

ثم قال[١]: «حدثنى الأصمعى : أنه كان يقال إن هذه القصيدة فى الجاهلية لجُشَم بن الخزرج» .

وبعد :

فقد قام حديثنا فيما تقدم من صفحات هذا الفصل على تتبع آراء القدامى المتفرقة فى الكتب عامة ، وكتابى سيرة ابن هشام وطبقات ابن سلام خاصةً ، فدرسناها وصنفناها، ورتبناها ، ثم اكتفينا بالعرض المجرّد، على أن نعود إلى نقد هذه الآراء ودراستها دراسةً تنفى عنها ما فيها من زيف فى الفصل الخامس من هذا الباب ، بعد أن ندرس فى الفصل الثالث والرابع آراء المحدثين من المستشرقين والعرب ، ليتسنّى لنا أن ننظمهم معاً فى حديث واحد .

(١) المصدر السابق : ٥٧٣ — ٥٧٦ .

الفصل الثالث

النحل والوضع فى الشعر الجاهلى

آراء المستشرقين

١

أما المحدثون من المستشرقين فلعل مرجليوث D.S. Margoliouth هو من أوائل من أثار منهم الشك فى الشعر الجاهلى فى مقالة كاملة ، خصص صفحاتها الكثيرة للحديث عن هذا الموضوع من جميع أطرافه(١) . فقد نشر فى مجلة الجمعية

---

(١) حصرنا حديثنا فى هذه الصفحات فى المقالة التى خصصها مرجليوث للحديث عن وضع الشعر الجاهلى والتشكيك فيه ، وقد تحدث مرجليوث قبل هذه المقالة ، عن وضع الشعر الجاهلى ، ولكن أحاديثه هناك كانت عبارة مقتضبة ، تجىء فى ثنايا حديثه عن موضوع آخر . فى ذلك ما نشره فى « معلمة الدين والأخلاق » Encyclopaedia of Religion and Ethics (مادة « محمد » المجلد الثامن ص : ٨٧٤) وما ذكره فى كتابه عن « محمد وظهور الإسلام » Mohammed and The Rise of Islam (ط سنة ١٩٠٥ ص: ٦٠) ، وما نشره فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية سنة ١٩١٦ ص : ٣٩٧ . ومن أمثلة ذلك أنه كان يتحدث فى كتابه « محمد وظهور الإسلام » عن لغة القرآن فقال : « لقد رأى العلماء أن فى لغة القرآن مشابه كبيرة من لغة الشعر الجاهلى ، ومع أنه من العسير علينا أن نكون لنا رأيا فى هذا الموضوع — لأننا نرى أن الشعر الجاهلى فى معظمه مصنوع وضع على مثال القرآن — فإنه يصح أن نقبل رأى العرب فى ذلك » . وكان يتحدث فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية من الكتب العربية التى ظهرت حديثاً حينئذ ، فعرض لكتاب الخصائص لابن جنّى وأشار إلى ما ورد فيه من أمر اكتشاف الطنوج ، وفيها الشعر الذى مدح به النعمان . فقال مرجليوث إن حماداً هو الذى روى هذا الخبر ، وحماد متهم بوضع الشعر الجاهلى ونحله ، ولذلك فإن هذه القصة تدق مسماراً كبيراً فى نعش الشعر العربى القديم » ثم أشار إلى أن القصائد التى ذكرها ابن إسحق فى السيرة يقال إنها قد وضعت وضعاً من أجل ذلك الكتاب ، أما غير هذا من الشعر القديم الذى يرويه أهل الكوفة فقد كان من وضع خلف الأحمر ! !

الملكية الآسيوية — عدد يوليوسنة ١٩٢٥ — بحثاً عنوانه «أصول الشعر العربى»[١] رجح فيه أن هذا الشعر الذى نقرأه على أنه شعر جاهلى إنما نُظم فى العصور الإسلامية ثم نحله هؤلاء الواضعون المزيفون لشعراء جاهليين. وقد بنى رأيه هذا على ضربين رئيسيين من الأدلة : أدلة خارجية ، وأدلة داخلية . وسنعرض فى هذه الصفحات رأيه ، فى شىء من التفصيل .

الأدلة الخارجية :

١ — بدأ مرجوليوث مقالته بالحديث عن وجود الشعر فى الجاهلية ، فقال[٢] : إن وجود شعراء فى بلاد العرب قبل الإسلام أمر شهد به القرآن ، إذ أن فيه سورة واحدة باسمهم ، ثم يشير إليهم من حين إلى آخر فى مواطن أخرى . ومن بين الأوصاف التى كان خصوم النبى ينعتونه بها أنه كان شاعراً مجنوناً[٣] . وكان النبى ينفى عن نفسه هذه الصفة ويجيبهم بأنه إنما « جاء بالحق » . ووردت ، فى سورة أخرى ، ثلاثة ألفاظ هى : كاهن ، ومجنون ، وشاعر[٤] ، ويزعم مرجوليوث أن سياق الآية يدل على أن هذه الألفاظ الثلاثة فى معنى واحد (مترادفة) ، ثم قال : إن الذين وصفوه بأنه شاعر قالوا إنهم سيتربصون ليروا ما سيحدث له ! وهو يرى أنه يصح أن يستنتج من ذلك أن من عادة الشعراء آنئذ التنبؤ بالغيب ! وأشار إلى أن القرآن قد ذكر أن لغته ليست لغة شاعر ولكنها لغة رسول كريم[٥] ، وأن الله لم يعلم النبى الشعر لأنه لاطائل له من

---

(١) D.S. Margoliouth, The Origins of Arabic Poetry, Journal of The Royal Asiatic Society, July 1925, PP. 417-449.

(٢) من صفحة ٤١٧ إلى صفحة ٤١٩ من المقالة السابقة .

(٣) « ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون » (الصافات : ٣٦) .

(٤) « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » (الطور : ٢٩ ، ٣٠) .

(٥) « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » (الحاقة : ٤٠ — ٤٢) .

وراءه(١) ، وأن كلام النبي حقيقة مقررة وعظة واضحة(٢) . ويستنتج من ذلك أن الشعر كان آنئذ غامضاً مبهماً !

ويشير إلى أن خلاصة صفات الشعراء مجموعة فى السورة التى تحمل اسمهم . وفيها أنهم يتبعهم الغاوون ، وأنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون . ويقول إن الآيات التى تلى هذه الأوصاف قد تبدو كأنما تستثنى بعض الشعراء الأتقياء من هذا الحكم ، ولكن أسلوب القرآن يجعلنا فى شك من أن المقصودين بهذا الاستثناء هم حقيقةً الشعراء . ويذهب إلى أنه يجوز لنا أن نستنتج مما تقدم أن الشياطين كانت تتنزل على الشعراء ، إذ أن القرآن ذكر أنهم يتنزلون على كل كاذب أثيم ، وأنهم ينقلون إليه أنباء كاذبة فى جملتها(٣) ويذكر أن هذه الآيات تشير إلى عمل الشياطين المذكور فى سورة أخرى وهو : استراقهم السمع فى المجالس السماوية ، فعوقبوا على هذا الذنب بأن ألقيت عليهم الشهب(٤) ، وهذا ثانيةً يصل بين الشعراء والتنبؤ بالغيب ! !

ثم يذهب إلى أنه إذا كان المقصود بالشعر هو هذا الشعر الذى عُرف فى الأدب العربى بعد ذلك ، فإننا نقع فى حيرة من الأمر ، وذلك أن محمداً الذى لم يكن يعرف الشعر ، كان يدرك أن ما يوحى إليه ليس بشعر ، بينما كان أهل مكة — وهم لا شك يعرفون الشعر إذا ما سمعوه أو رأوه — يظنون كلامه شعراً !

ويخلص مرجوليوث بعد هذا الحديث الطويل الذى لخصنا جملته ، إلى أنه

---

(١) « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » (يس ٦٩) .

(٢) « إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » (يس ٦٩) .

(٣) « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » (الشعراء ٢٢١ — ٢٢٣) .

(٤) « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظاً من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » . (الصافات ٦ — ١٠) .

« وربما كان ما تبيح لنا الشواهد القرآنية قوله هو أنه كان قبل الإسلام بعض الكهان من بين العرب كانوا يُعرّفون باسم « الشعراء » ، كانت لغتهم غامضة مبهمة كما هو الشأن دائماً فى الوحى » [1] .

٢ – وبعد أن ينتهى مرجليوث من حديثه عن الشعر والشعراء كما استنتجه من آيات القرآن الكريم ، يبدأ فى عرض آراء العلماء المسلمين القدماء ويسميهم Archaelogists [2]. فيثير مشكلة ابتداء الشعر العربى ونشأته، ويقرر أنها أمرفى الغاية من الغموض ، إذ أن القدامى قد ذهبوا فيها مذاهب متباينة . فقد عزا بعضهم شعراً عربياً إلى آدم [3] ، بينما أورد آخرون قصائد غنائية عربية منذ عهد إسماعيل [4] . ثم يقول إنه يبدو أن الرأى السائد أن الشعر العربى – بصورته التى ثبت عليها بعدُ – بدأ قبيل ظهور الإسلام بأجيال قليلة على أبعد تقدير . ومع أن الذين يذهبون هذا المذهب يجعلون ُمهلهلاً أو امرأ القيس أول الشعراء فقد أوردوا شعراً لشعراء سبقوهما بزمن طويل [5] . ثم يختم حديثه هذا ختاماً يكشف عن شكه فى كل ما أورد ، وذلك قوله [6] : « ولو أننا عددنا القصة التى تعزو إلى مهلهل اختراعَ القصيدة حقيقة تاريخية ، فلا بد لنا من أن نُقرّ بأنه أصبح له مقلدون وأتباع كثيرون ، فبين أيدينا عدد وافر من المجلدات التى تشتمل على مجموع أشعار عدد كبير من الشعراء الذين عاشوا فى الفترة التى امتدت بين اختراعه وهجرة الرسول ! وجميع شعراء المعلقات العشر المشهورين أصحابُ دواوين أو مجموعات قصائد ُطبع أكثرها وجاء فى صفحات كثيرة . وبجانب هؤلاء شعراء كثيرون يساوونهم فى الإكثار ولم يُعدُّوا من العشرة الخالدين. وفضلاً عن ذلك فإن القصائد الصادرة عن شعراء من قبائل معينة قد جُمعت فى

(١) المقالة السابقة : ٤١٩ – ٤٢٠ .
(٢) من صفحة : ٤٢١ .
(٣) المسعودى ، مروج الذهب ١ : ٦٥ .
(٤) الأغانى ١٣ : ١٠٤ .
(٥) الأغانى ١١ : ١٥٤ (عزيمة بن نهد) .
(٦) ص: ٤٢٢ – ٤٢٣ .

مجاميع ، طُبع أحدها . وتدل هذه القصائد بطبيعتها على معرفة بالهجاء ، وهى تشير فى مواطن كثيرة إلى الكتابة ، فلا شك إذن فى أن عرب ما قبل الإسلام — الذين كانوا يستخدمون لغة القرآن! — كانوا مجتمعاً أدبيًّا عالياً ! ولا تكاد بلاد الإغريق القديمة تعرض علينا عدداً مثل هذا من عبدة آلهة الفن! »

٣ — ثم ينتقل إلى الحديث عن حفظ هذا الشعر الجاهلى ، فيقول[1]: « لو فرضنا أن هذا الشعر حقيقى ، فكيف حفظ ؟ لا بد أنه حفظ إما بالرواية الشفهية وإما بالكتابة . ويبدو أن الرأى الأول (أى الرواية الشفهية) هو الرأى الذى يذهب إليه المؤلفون العرب ، مع أنه ليس بالرأى الذى يجمعون عليه كما سنرى » . ثم يشك — كعادته — فى أن يكون الشعر الجاهلى قد حُفظ بالرواية الشفهية ، ويبنى شكه على ثلاثة أسباب ، الأول : « إذا كانت قصائد عدة ذات أبيات كثيرة قد حُفظت بالرواية الشفهية فلا يمكن أن يكون ذلك إلا إذا وُجد أفراد عملهم أن يحفظوها فى ذاكرتهم وينقلوها إلى غيرهم ، وليس لدينا ما يدعونا إلى الظن بأن حرفة مثل هذه قد وُجدت أو أنها بقيت خلال العقود الأولى من الإسلام ! » والثانى : ما يذهب إليه المسلمون من أن « الإسلام يجُبُّ ما قبله »[2] وما ورد فى القرآن من « أن[3] أتباع الشعراء هم الغاوون فحديث القرآن عنهم فيه قسوة عليهم واحتقار لهم . فثمة إذن سبب قوى يدعو إلى نسيان الشعر الجاهلى — إذا كان ثمة شعر جاهلى حقيقة ! »[2] والثالث مرتبط بالثانى وهو « أن الأعمال التى تخلدها عادة هذه القصائد كانت انتصارات القبائل بعضها على بعض ، والإسلام ، الذى كان يرمى إلى توحيد العرب ونجح نجاحاً كبيراً فى تحقيق تلك الوحدة ، كان يحث على نسيان تلك الحوادث ، والقصائد التى من هذا الضرب تثير النفوس وتهيج الدماء[3] » .

---

(١) ص : ٤٢٣ .

(٢) ص : ٤٢٤ .

(٣) ص : ٤٢٤ .

٤ — حتى إذا اطمأنّ إلى أنه قد فنّد ما ذهب إليه أكثر القدامى من أن الشعر الجاهلي قد حفظ لنا بالرواية الشفهية ، قال : « فلم يبق إلا الاحتمال الثاني وهو : أن هذه القصائد حُفظت بالكتابة » . ثم يعرض روايات قليلة تشير إلى أن بعض الشعر الجاهلي كان يُكتب[١] ، ويستنتج من ذلك أنه « ربما لا يوجد ما يتعارض مع ما تصرح به هذه القصائد إذا تخيلنا أنها كانت تذيع وتنتشر عن طريق الكتابة[٢] » . ولكنه لا يلبث أن يخضع لما يسيطر عليه من نزعة الشك فيحاول أن ينفي كتابة الشعر الجاهلي من وجهين ، الأول : ما يصرح به القرآن نفسه؛ فإن وجود أدب فصيح قبل الإسلام بلغة القرآن وبالكتابة الحميرية ، أو بأي خط آخر ، لأمر يبدو مناقضاً كل التناقض لصريح ألفاظ القرآن ولأحكامه التي يقررها بحيث لا يصح أن يوضع هذا الأمر موضع النظر ؛ فالقرآن يسأل أهل مكة : ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ؟﴾[٣] ويسأل الكفار والمشركين : ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾[٤] وأولئك الذين يخاطبهم القرآن لم ينزل على آبائهم نذير : ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾[٥] و ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ؟ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[٦] . و ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ، ولكنْ رَحْمَةً مِنْ رَبكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٧] . ولم يكن لأحد كتب سماوية إلا لمجتمعين : المجتمع

(١) ص : ٤٢٤ — ٤٢٥ .
(٢) ص : ٤٢٥ .
(٣) القلم ٣٧ .
(٤) القلم ٤٧ .
(٥) يس ٦ .
(٦) السجدة ٣ .
(٧) القصص ٤٦ .

المسيحى والمجتمع اليهودى : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ واتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ، أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِين﴾ (١) ولم يكن للوثنيين كتاب من هذا الضرب . وهذا أمر من الصعب أن نفترض أن القرآن أخطأ فيه ، فإن رسولاً إلى الهندوس قد يحكم على كتبهم بأنها لا قيمة لها وأنها مضللة ، ولكنه لا ينكر وجودها . ولو أن الشعر الجاهلى كان مكتوباً لكان للجاهليين كثير من الكتب (وهى كتب فى الحقيقة موحى بها) ، قد تكون غير مشذبة أو مصقولة — مع أنها لم تكن جميعاً كذلك كما سنرى — ولكنها مع ذلك كافية لأن تجيب عن أسئلة القرآن بالإثبات ، ولكن القرآن ، لا شك ، يزعم أن الجواب بالنفى »(٢) .

أما الوجه الثانى فهو ما يدعوه « مجرى التطور الأدبى » ، وهو ، فى حديثه هذا ، يجمجم فى ألفاظه ولا يكاد يبين ، ومع ذلك فإن الهدف الذى يرمى إليه واضح ، فهو يذهب إلى أن الأدب فى تطوره يسير عادةً ، وربما دائماً ، من الصور الشاذة غير المنتظمة إلى الصور المألوفة المنتظمة ، ومن هنا يرى أن الشعر الذى يُزعم أنه جاهلى إنما هو مرحلة تالية للقرآن لا سابقة عليه ، وذلك قوله(٣) : « إن الأساليب الأدبية العربية ، سواء النثر المسجوع والشعر ، فيها مشابه من أسلوب القرآن .وفى القرآن آيات لا ينكر أنها نثر مسجوع إلا الغلاةُ من المتشددين ؛ وفيه أيضاً ، فى مواطن متعددة ، أمثلة على كثير من الأوزان الشعرية . والتطور من الأسلوب القرآنى إلى الأسلوب المنتظم regular يبدو متمشياً مع المألوف// وإذا كان القرآن أول أثر فى اللغة يظهر فيه الفن الأدبى فإن ما يدعيه لنفسه من الإعجاز فى الفصاحة أمر من اليسير على الناس فهمه ، وهو لا يختلف بذلك

---

(١) الأنعام ١٥٦ .

(٢) المقالة السابقة : ٤٢٥ — ٤٢٦ .

(٣) ص : ٤٢٦ .

كثيراً مما يدعيه لأنفسهم أولئك الذين أدخلوا، لأول مرة، النظم فى اللغة أو ينسبه إليهم الآخرون . أما إذا كان المستمعون قد تعودوا سماع النثر المسجوع والشعر الكامل المصقول كما يبدوان فى أساليب الآثار الأدبية التى تدل فى ظاهرها على أنها جاهلية ، فإن من العسير إقامة الدليل على هذا الادعاء » .

٥ — ثم يتطرق بعد ذلك إلى الحديث عن الرواة من علماء القرنين الثانى والثالث الهجريين ، فيذكر حماداً ، وجناداً ، وخلفاً الأحمر ، وأبا عمرو بن العلاء ، والأصمعى ، وأبا عمرو الشيبانى ، وابن إسحق صاحب السيرة ، والمبرد ، فيجمع بعض ما انتثر فى الكتب العربية من إشارات تشيع الشك فى بعض ما جمعوا أو أوردوا من الشعر الجاهلى[1] ، ثم أضاف إلى ذلك آراء هؤلاء الرواة العلماء بعضهم فى بعض ، فقال[2] : « إن هؤلاء العلماء لم يكن يوثق بعضهم بعضاً ، فابن الأعرابى كان يتهم الأصمعى وأبا عبيدة ، وربما بادلوه اتهاماً باتهام ، ولا شك فى أن كلا منهم كان يتهم الآخر » . وسنورد تفصيل هذه الروايات فى الفصل التالى .

وقد ختم حديثه عن هذه النقطة بقوله[3] : « وقد نقبل أن بعض العلماء كانوا يشكون ، بل كانوا ينقدون ، فلم يضعوا ولم ينحلوا ، وأدخلوا فى مجموعاتهم ما كانوا يعتقدون أنه حقيقة شعر قديم ، ولكن هذا يعود بنا إلى التساؤل عن مصادرهم . فقد كانت رسالة محمد حدثاً عظيماً فى بلاد العرب : كانت انفصالاً عن الماضى يندر مثيله فى التاريخ . فقد ترك الناس، من جميع أنحاء شبه الجزيرة، مساكنهم ليستوطنوا فى بلاد لم يكن إلا القليل منهم يسمع بها . وقد واكبت الإسلامَ وتلته حروبٌ أهلية فى داخل شبه الجزيرة . ولم يكن الإسلام متسامحاً مع الوثنية القديمة حتى ولا تسامحَ استصغارٍ لشأنها ، بل كان يناصبها أشد

(١) من صفحة : ٤٢٨ إلى : ٤٣٤ .
(٢) ص : ٤٣٠ .
(٣) ص : ٤٣٣ — ٤٣٤ .

العداء ، ولم يقبل أن يلتقى معها فى مكان سُوًى. فإذا كان الشعراء هم لسان الوثنية الناطق ، فمن هم أولئك الذين حفظوا فى صدورهم ، ثم نقلوا إلى غيرهم ، تلك الأشعار التى تنتسب إلى نظام أبطله الإسلام ؟ ونستطيع أن نتتبع الشعور بهذه الصعوبة فى ذلك الحل الذى يقال إن حماداً قدّمه ، وهو أن الأشعار كانت مدفونة حينا كانت الحماسة للإسلام فى أشدها ، ثم اكتشفت مصادفة حينما بردت تلك الحماسة بعض الشىء » .

ولكن مرجوليوث لا يطمئن إلى ما انتهى إليه : فلا يكاد يتم حديثه السابق حتى يعقب عليه بقوله إن هؤلاء الشعراء لم يكونوا كما يبدو عليهم « لسان الوثنية الناطق ، بل كانوا مسلمين فى كل شىء ما عدا الاسم . »[1] ومن أجل أن يبرهن على حكمه هذا ينتقل إلى الضرب الثانى من الأدلة التى يرى أنها كفيلة بإشاعة الشك فى صحة الشعر الجاهلى ، وهى الأدلة الداخلية :

١ — وأول هذه الأدلة الداخلية — كما يراها مرجوليوث — هو ما فى هذا الشعر الجاهلى من إشارات إلى قَصَص دينى ورد فى القرآن، وما فيه من كلمات دينية إسلامية مثل: الحياة الدنيا، ويوم القيامة، والحساب ، وبعض صفات الله . وقد بدأ مرجوليوث حديثه عن هذا الدليل بقوله[2] « إن الشعراء ، من جميع الأمم ، لا يتركون الناس بعدهم يشكون فى أمر ديانتهم ، والعرب فى نقوشهم واضحون صريحون كذلك فى هذا الموضوع ، فإن أكثر هذه النقوش تذكر إلهاً أو آلهة وأموراً تتصل بعبادتها . ولكن الإشارات إلى الدين فى الأشعار التى بين أيدينا قليلة . . . ولا نجد من الشعر جوّ الآلهة المتعددة الذى نجده فى النقوش . وربما كان هذا الذى أوحى للأب شيخو نظريته فى أنهم كانوا جميعاً نصارى ، ولكن يبدو أن هذه النظرية غير صحيحة ، فإن بعض هؤلاء الذين افترض أنهم نصارى عبروا عن أنفسهم بطريقة تُظهر فى وضوح أنهم ينتسبون إلى مجتمع آخر مختلف.

---

(١) ص : ٤٣٤ .
(٢) ص : ٤٣٤ .

فأعشى قيس، وهو مذكور فى كتاب شيخو ، يتحدث عن المصلين أو العُبَّاد متحلِّقين حول باب حاميهم مشبهاً تحلقهم بتحلق النصارى حول بيت صنمهم[١]، وأحد الأمثلة القليلة التى نجد فيها قسماً بآلهة وثنية نجده فى بيت منسوب إليه[٢]. ثم يمضى مرجوليوث فى حديثه فيقول[٣]: « وحيثما يكن النصارى تكن لهم كتبهم المقدسة ، وتتأثر لغتهم وأفكارهم تأثراً كبيراً بتعبيرات الأناجيل ورسائل الحواريين والأناشيد، ويتخذ شعرهم فى الغالب طابع الترانيم. ولكن فى الشعر — الذى يفترض أنه شعر جاهلى — ندرة كبيرة فى الإشارات إلى الكتاب المقدس وتعاليم المسيحية حتى لدى الشعراء الذين ازدهروا فى بلاط مسيحى . . وبالرغم من أن الشعراء الجاهليين يقسمون كثيراً ، فهم لا يكادون يختلفون فى قسمهم بالله، وهو قسم شائع حقاً فى دواوينهم ، حتى إن عبيد بن الأبرص الجاهلى يقسم بلغة القرآن وذلك قوله[٤] :

حَلَفْتُ باللهِ إنَّ اللهَ ذُو نِعَمٍ لِمَنْ يَشَاءُ وَذُو عَفْوٍ وتَصْفَاحِ

وفكرتهم عن أعمال الله لا يستنكرها موحِّد ، فهى قد سبقت فى التعبير عما يعبر عنه القرآن فى كل التفصيلات على وجه التقريب » . ثم يمضى مرجوليوث يضرب لنا الأمثلة على ذلك ، فيمثل ببيت ذى الإصبع العدوانى الذى يصف فيه الله بأنه «الذى يقبض الدنيا ويبسطها »، ويمثل ببيت جليلة بنت مُرَّة على أن النساء كنَّ يلجأن إلى الله إذا حزبهن أمر كالثكل ، وهو قولها :

إنى قَاتِلَةٌ مَقْتُــولَةٌ ولَعَلَّ اللهَ أنْ يَرْتَاحَ لى

---

(١) يقصد قول الأعشى :

تَطُــوفُ العُفَـــاةُ بـأَبْوابِهِ طَوَافَ النَّصَارَى بِبَيْتِ الوَثَنْ

(ديوانه ق : ٢ ، ب : ٥١) .

(٢) انظر الأغانى ٢٠ : ١٣٩ .

(٣) ص : ٤٣٥ .

(٤) ديوانه ق : ٢٤ ، ب : ٢ .

ويتمثل كذلك ببيت عبيد بن الأبرص :

مَنْ يَسْأَلِ الناسَ يَحْرِمُوهُ ... وَسَائِلُ اللهِ لَا يَخِيبُ

ويشير إلى أنهم كانوا يخشون ما يغضب الله من الذنوب ، ويتمثل ببيت امرئ القيس :

فاليَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ ... إِثْمًا مِنَ اللهِ وَلَا وَاغِلِ

ويذكر أنهم كانوا يصفون الله بأنه ذو الأمر المقضى ، ويشير إلى بيت الحارث ابن حلزة :

فَهَدَاهُمْ بالأَسْوَدَيْنِ وَأَمْرُ الـ ... ـلَّهِ بَلْغٌ تَشْقَى بِهِ الأَشْقِيَاءُ

إلى آخر ما يورد من أمثلة هذا الباب . ثم يستنتج من ذلك[١] « أن الديانة الوحيدة التي يصح أن يعتنقها هؤلاء الشعراء الجاهليون هي الإسلام » . ويقول إن هؤلاء الشعراء لم يكونوا « موحدين متمسكين بالوحدانية حسب ، بل إنهم ليكشفون عن معرفتهم بأمور يذكر القرآن أنها لم يكن يعرفها العرب قبل نزول الوحي . ففي سورة رقم ١١ آية ٥١ يذكر أنه لا محمد ولا قومه سمعوا من قبل بقصة نوح[٢] ، وهذا القول متفق مع ما نستنبطه من النقوش التي لا تشير إلى السلالات العربية الواردة في التوراة والتي تشير إليها هذه القصة » . ثم يشير إلى أن النابغة كان يعرف هذه القصة بتفصيلاتها ، ويعقب على ذلك بقوله : « ويبدو أن القرآن هو المصدر الوحيد عن هذا الأمر » ، ويورد بيت النابغة :

فَأَلْفَيْتُ الأَمانَةَ لَمْ تخُنْها ... كَذٰلِكَ كَانَ نُوحٌ لاَ يَخُونُ

---

(١) ص : ٤٣٦ .

(٢) « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين » (هود ٤٩) .

ويقول « وهنا إشارة واضحة إلى الصفة " أمين " ، وهي في القرآن من صفات نوح[١] » .

ثم يتحدث عن الألفاظ الإسلامية في شعر عنترة فيقول[٢] « وواضح أن عنترة العبسي كان يعرف وحي القرآن ومصطلحات الإسلام » . وذلك لأنه استخدم ألفاظ « قبلة القُصَّاد[٢] » و « الركوع والسجود »[٣] و « حجر المقام »[٤] و « الجحيم »[٥] و « المحشر » [٦] وغيرها ، ولذلك قال عنه إنه « لا داعي للشك في أنه كان مسلماً تقيًّا صالحاً ، غير أن حياته انتهت قبل الإسلام !! »

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن لفظة « الدنيا » فيقرر أن القرآن أول من استعمل لفظ « الدنيا » للدلالة على الحياة أو هذا العالم ، ثم يقول[٧] « غير أن الشعراء الجاهليين كانوا على معرفة تامة بهذا التعبير » . وهنا يمثل بقول عبيد ابن الأبرص « طيبات الدنيا » ، وقول ذي الإصبع « عرض الدنيا » .

وبعد أن يفيض في تفصيل القول وضرب الأمثلة ينتهي إلى قوله[٨] : « من المحتمل جدًّا أن نتصور أن محمداً كان له "سابقون" بمعنى أن بعض الأفراد ثاروا قبل عهده على عبادة الأوثان في وسط بلاد العرب ؛ ومن الواضح ، فضلاً عن ذلك ، أن النصرانية سيطرت على أجزاء من شبه الجزيرة . ولو أن الشعراء الجاهليين نظموا كما ينظم النصارى مضمِّنين المبادئ المسيحية مظهرين معرفتهم بتعاليمها — لكان من الجائز أن تواجهنا بعض الصعوبات في قصائدهم وتعترضنا

---

(١) « كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . إني لكم رسول أمين » (الشعراء ١٠٥ – ١٠٧) .

(٢) ص : ٤٣٧ .

(٣) وذلك قوله : إذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له أعادينا سجودا

(٤) وذلك قوله : عجوز من بني حام بن نوح كأن جبينها حجر المقام

(٥) قوله : كلما ذقت بارداً من لماها خلته في فمي كنار الجحيم

(٦) قوله : وربحت منهم لم يكن قصدي سوى ذكر يدوم إلى أوان المحشر

(٧) ص : ٤٣٨ . (٨) ص : ٤٣٩ – ٤٤٠ .

مشكلة نقلها وحلها، أما دياناتهم وحدها فلن تكون حينئذ من بين هذه الصعوبات. ولكن حينًا نجدهم يتحدثون كالمسلمين، متشددين فى توحيدهم كما صار أصحاب النبى بعد ذلك، وحينًا كانوا يرددون صدى أى كتاب مقدس كان هذا الكتاب هو القرآن — فإنه من الصعب أن نقبل صحة هذه القصائد. إذ لماذا كان للعرب، الممثَّلين فى النقوش، آلهتهم المحلية المتعددة، بينما لم يكن يعرف شعراء البلاد نفسها إلهاً غير الإله الذى دعا محمد إلى توحيده؟ وحتى لو أننا افترضنا أن النقوش قد صدرت عن مجتمعات تختلف عن مجتمعات الشعراء، فماذا يحدث لرسالة محمد إذا كان الناس الذين "أنذرهم" يعتقدون بإله واحد وينتظرون يوم البعث؟ ولو أننا اتبعنا النقوش فلا بد من الاعتراف بأن جدل القرآن قد كان فى موطنه الصحيح الحق، وربما كانت مناسك عبادة المكيين وجيرانهم تختلف عن مناسك عبادة الجهات التى فيها النقوش، ولكنها كانت مشابهة لها إذ أنها من أسرة واحدة. ولكن آراء الشعراء الجاهليين فى الموضوعات الدينية تبدو مشابهة، بل مماثلة، لتلك التى يعلمنا إياها القرآن».

٢ — والدليل الثانى من الأدلة الداخلية هو: اللغة. ومدار حديثه فى هذا الدليل على أمرين: الاختلاف بين لهجات القبائل المتعددة، والاختلاف بين لغة القبائل الشمالية جملة واللغة الحميرية فى الجنوب. وهو يذكر أن هذا الاختلاف بنوعيه واضح فيما اكتشف من نقوش فى شمال شبه الجزيرة وفى جنوبها. غير أن هذا الشعر الجاهلى كله — كما يشير مرجوليوث[1] « بلغة القرآن »، بالرغم من استخدام كلمة أو صيغة فى مواطن متفرقة من هذا الشعر يقال عنها إنها لهجة قبيلة بذاتها أو لهجة إقليم. ولو أننا افترضنا أن أثر الإسلام فى قبائل بلاد العرب وحَّد لغتهم... فإنه من الصعب أن نتصور أنه كانت ثمة لغة مشتركة — تختلف عن لغات النقوش — منتشرة فى أنحاء شبه الجزيرة كلها قبل أن يجيء الإسلام هذا العنصر الموحِّد... وليس بين أيدينا أى دليل على أنه كان فى

(١) ص: ٤٤٠ — ٤٤٢.

جنوب بلاد العرب شعراء ، ومع ذلك فإذا كان ثمة شعراء فلا بدّ أنهم نظموا بإحدى اللهجات العربية الجنوبية . . . ولقد اكتشف حقًّا نقش أو نقشان فى شمال بلاد العرب بلغة القرآن ، ولكن نقوشاً أخرى كشفت عن ثروة من اللهجات تماثل اللهجات التى وجدت فى الجنوب ، وهنا أيضاً لا وجود للشعر فيما نعلمه ليومنا هذا ... وحينما صنع العلماء الأقدمون مجموعاتهم كانت لغة القرآن بفضل الإسلام قد صارت اللغة الفصحى فى جنوب بلاد العرب ، وهذا نفسه جعلها تسود فى أجزاء أخرى من شبه الجزيرة . وليس لدينا حتّى الآن ما يجعلنا نفترض أنها كانت لغة أدبية فى أى مكان قبل القرآن . ولو أننا نبحث فى وثائق نثرية فلربما اطمأننا إلى أحد افتراضين : إما أنها تُرجمت ، وإما أنها ، على الأقل ، نُقلت من طور لغوى إلى طور آخر ، وذلك يشبه ، شبهاً ما ، التغير فى هجاء الكلمة الذى يحدث تدريجيًّا فى الآثار المطبوعة ، متفقة مع أحدث استعمال ، من غير أن يكون ذلك عن سوء قصد . ولكن هذا التغير مستحيل فى الشعر إذ أن فيه من الصنعة المعقدة أكثر مما فى أى أسلوب آخر معروف » .

ثم ينتهى من حديثه هنا بأن يربط بين هذا الدليل والدليل الذى سبقه فيقول(١) : «وكما أن وجود الأفكار الإسلامية فى الآثار المقطوع بجاهليتها دليل على وضعها وزيفها ، فإن استخدام لهجة ، جعلها القرآن لغة فصحى ، أمر يدعونا إلى أن نشك فيها طويلاً ... ويبدو أن المسلمين الذين جمعوا قصائد من جميع أنحاء شبه الجزيرة بلغة واحدة ، كان عملهم هذا متمشياً مع عملهم فى جعل كثير من هؤلاء الشعراء ، بل أكثرهم ، يعبدون الله ولا يشركون به : إنهم يسحبون على الماضى ظواهر هم أنفسهم يعرفونها . . . »

٣ ـ وأما الدليل الآخر من الأدلة الداخلية فقائم فى موضوعات القصائد نفسها ، وحديثه عن هذه النقطة يلفّه الغموض والإبهام ، ولعله يريد أن يستنتج منه أن اتفاق القصائد الجاهلية فى التطرق لموضوعات واحدة بعينها تتكرر فى كل

(١) ص : ٤٤٣ .

قصيدة أمر يدل على أنها نظمت بعد نزول القرآن لا قبله ، وذلك قوله [١] :
« فإذا كانوا يبدأون دائماً قصائدهم بأبيات فى النسيب لأن القرآن يقول إن الشعراء فى كل واد يهيمون ، وإذا كانوا يصفون أسفارهم وتجوالهم لأن القرآن يقول إنهم يتّبعهم الغاوون — وهذا يتضمن يقيناً أنهم أنفسهم ضالّون غاوون ، وإذا كانوا يلهون وينشرون أحلامهم ، وغالباً ما تكون مخالفة للأخلاق لأن القرآن يقول إنهم يقولون مالا يفعلون — فإننا نستطيع على الأقل أن نقتفى هذه الرتابة إلى مصدرها .. ولكن إذا كان هذا الشكل الثابت المقرر أقدم من القرآن فلابدّ أنه يرجع إلى نماذج معينة معترف بها ، والبحث عن هذه النماذج ينتهى بنا — كما رأينا — إلى آدم ! »

وبعد أن يُخيَّل إليه أنه استوفى أدلته يعود إلى مناقشة الأمر مناقشة كليّة فيقول [٢] : « وإذن إذا كان الشعر — الظاهرُ أنه جاهلى — مشكوكاً فيه بكلا الدليلين الخارجى والداخلى ، فإننا نعود إلى مشكلة ابتداء النظم العربى ، وهل هو قديم جدّاً ... أو هل نُظم جميعه بعد الإسلام فهو بهذا متطور عن الأساليب التى وُجدت فى القرآن ؟ ويبدو هذا السؤال فى الغاية من الصعوبة . إذ أنه يبدو — من جهة — أن الأمر مستمر متصل : فالشعراء الأمويون يَتْلُون شعراء عصر النبى والصحابة ، وهؤلاء يتبعون الشعراء الجاهليين ... ولذلك فإن افتراض أن العرب نظموا الشعر افتراض مُغْرٍ ، إلا أننا لا نستطيع أن نطمئن إلى أن بين أيدينا حقّاً شعراً من قبل الإسلام . بينما نجد من جهة أخرى — فضلا عن فقدان الشعر فى النقوش — أن القرآن لم يشر إلى الموسيقى . . . فإذا كانت الموسيقى من مستحدثات العصر الأموى فهل نستطيع أن نتصور أن الوزن الشعرى قد وُجد عند العرب من قبلُ بهذا الانتظام وبهذه الغزارة ؟ إن التسلسل المعتاد لنشأة هذه الأشياء هو : الرقص ثم الموسيقى ثم الشعر . . . » ثم يقول [٣] : « لقد كانت الممالك الجاهلية التى نعرفها

(١) ص : ٤٤٣ — ٤٤٤ .
(٢) ص : ٤٤٦ — ٤٤٧ .
(٣) ص : ٤٤٨ .

عن طريق النقوش ذات حضارة باسقة، ولكن لا يبدو أنه كان لها شعر، فهل نصدّق أن الأعراب غير المتحضرين كان لهم شعر فى مثل هذه الصور المركبة كما يصدق بذلك العلماء الأقدمون من المسلمين ؟ وبوجه عام فإن من المرجح احتمال صواب ما افترضناه وهو : أن كلاً من الشعر والنثر المسجوع كانا فى معظمهما مشتقين من القرآن ، وأن تلك الجهود الأدبية التى سبقت القرآن كانت أقل فناً منه لا أكثر فناً » .

ثم يختم مرجوليوث مقالته هذه بقوله[1]: « وإذا كان يبدو من الحكمة ألا نطلق حكماً على مشكلة النظم العربى وهل يرجع إلى عهد قديم جداً أو هل هو حادث بعد القرآن — فإن سبب ذلك تلك الصفات المحيرة التى نجدها فيما بين أيدينا من أدلة . ونحن فى أمان حينما نبحث فى النقوش ، ويصح أن يوثق بالقرآن فى بيان حالة العرب الذين أنزل لهم فى زمن النبى ، أما فى تاريخ الشعر العربى فلا بد لنا من الرجوع إلى مصادر أخرى ، وهى — فى أغلبها — تبحث فى أزمنة وأحوال لا عهد لمؤلفيها أنفسهم بها وكانت تجاربهم وخبرتهم تقودهم إلى تصديق أمور كثيرة ضللتهم بالضرورة . ونحن — حينما نحاكم أقوالهم ونبحث فيها — نستطيع أن نذهب فى الشك إلى أقصى حدوده ، كما نستطيع أن نمضى فى التصديق إلى أبعد مذاهبه ! »

٢

ثم تعاور نفر من المستشرقين الحديث عن « صحة الشعر الجاهلى » وكان أكثرهم يردّ، فيما يكتب ، ما ذهب إليه مرجوليوث ، ويفند أدلته وافتراضاته . وكان أولهم ، فيما نعرف ، الأستاذ شارلس جيمس ليال Charles James Lyall الذى

---

(١) ص : ٤٤٩ .

أشار فى المقدّمة التى صدّر بهـا الجزء الثـانى من « المفضليات » سنة ١٩١٨ م ، إلى ما جاء به مرجوليوث فى مقاله المنشور فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية عدد سنة ١٩١٦ص: ٣٩٧، وإلى ما أورده فى « معلمة الدين والأخلاق» من حديثه عن « محمد » وما أورده كذلك فى الصفحة الستين من كتابه « محمد » سنة ١٩٠٥ .

بدأ ليال حديثه عن « صحة الشعر الجاهلى » [١] بأن أورد ما ينسب إلى المفضل من تجريح حماد الراوية وذلك قوله[٢]: «قد سُلّط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً . فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطئ فى روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ، ويُحمَل ذلك عنه فى الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ! »

يقول ليال إن بين ناقل هذا الخبر — وهو أبو الفرج الأصفهانى — وصاحب الحديث — وهو المفضّل الضبىّ — ثلاثة رواة فى سند الخبر هم : محمد بن خلف وَكيع عن أحمد بن الحارث الخرّاز عن ابن الأعرابى . فربما زاد هؤلاء أو أحدهم على هذا الحديث شيئاً مما يزيده الرواة ، غير أننا لو قبلنا أن هذا الحديث قد قاله المفضل حقّاً وسلمنا بذلك، فلا بد لنا من أن نذكر أن حماداً كان معاصراً للمفضل وأنه ربما كان أصغر منه سنّاً ، وأن المفضل كان من أعلم الناس بالشعر وأقدرهم على تمييز صحيحه من منحوله ، وأن الرواة من العرب — وهم الذين يُزعَم أن حماداً قد أفسد ما أخذ عنهم من الشعر — كانوا ، من قبل أن يفسد حماد روايتهم ، قادرين على أن يفتحوا خزائن الشعر الذى يحفظونه ويروونه بين يدى المفضّل . ولو أننا سلمنا بصحة ما ذكره هذا الخبر من أمر الوضع والنحل ،

---

(١) المفضليات (ليال) ج : ٢ ص : ١٦ من المقدمة .
(٢) الأغانى (دار الكتب) ٦ : ٨٩ .

فإن ذلك ينتهى إلى أن ما زاده حماد كان يشبه لغة الشاعر الحقيقى الأصيل وإحساسه وعاطفته شبهاً يستحيل معه التمييز بينه وبين شعر الشاعر الأصيل.» فإذا كان ذلك كذلك فكيف أمكن أن يُعرف أنها موضوعة منحولة ، إذا لم يكن ثمة من يعرف القصيدة فى صورتها الأولى من غير ما أضيف عليها من زيادات موضوعة ؟ ومن يكون ذلك العالم سوى المفضل نفسه ؟

ثم يورد ليال خبراً آخر عن المفضل وحماد ، وهو يصف لنا هذا الخبر بأنه نموذج ومثال للطريقة التى زعم الرواة أن حماداً أفسد بها الشعر القديم . وذلك قول أبى الفرج[١] عن جماعة من الرواة قالوا : « إنهم كانوا فى دار أمير المؤمنين المهدى بعيساباذ ، وقد اجتمع فيها عدة من الرواة والعلماء بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها ، إذ خرج بعض أصحاب الحاجب ، فدعا بالمفضل الضبى الراوية فدخل ، فمكث مليًّا ثم خرج إلينا ومعه حماد والمفضل جميعاً ، وقد بان فى وجه حماد الانكسار والغم ، وفى وجه المفضل السرور والنشاط ، ثم خرج حسين الخادم معهما ، فقال : يا معشر من حضر من أهل العلم : إن أمير المؤمنين يعلمكم أنه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره ، وأبطل روايته لزيادته فى أشعار الناس ما ليس منها ، ووصل المفضل بخمسين ألفاً لصدقه وصحة روايته ، فمن أراد أن يسمع شعراً جيداً مُحدَثاً : فليسمع من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل » . ثم يذكر أبو الفرج ، عمن روى عنه ، سبب ذلك ويفصّل ما جرى بين حماد والمفضل فى حضرة المهدىّ من زيادة حماد بيتين قبل مطلع قصيدة زهير :

دَعْ ذَا وَعَدِّ القَوْلَ فى هَرِمِ

ويعقب ليال على هذا الخبر بقوله[٢] : « إن هذه القصة تتضمن أن المهدى

(١) الأغانى (دار الكتب) ٦ : ٨٩ — ٩٠ .
(٢) مقدمة المفضليات ص : ١٨ .

كان آنئذ خليفة ، وذلك لأن الرواة قالوا إنهم كانوا فى دار أمير المؤمنين ، ولأن قصره بعيساباذ بناه بعد أن ولى الخلافة . غير أنه يشك فى أن يكون حماد قد عاش حتى سنة ١٥٨ هـ ، وهى السنة التى ولى فيها المهدى . فقد ذكر ابن خلكان أن وفاة حماد كانت فى سنة ١٥٥هـ ، وذكر ابن النديم فى الفهرست أنها كانت فى سنة ١٥٦ . وفضلاً عن ذلك فإن البيتين اللذين يقال إنهما أضيفا إلى قصيدة زهير ليس فيهما إلا وصف عادى ، وفى المجموعات القديمة مئات من القصائد تبدأ بما يشبههما . والقيمة الوحيدة لذكر أسماء المواضع فى هذين البيتين هى أنهما يدلان على أن الشاعر ينتمى إلى الموطن الذى توجد فيه هذه المواضع . فإذن لم يكن عملاً جليلاً أن يزاد على قصيدة لزهير — من الواضح أنها ناقصة فى أولها — أبيات قليلة وضعت مكان النسيب الناقص ؛ ولا ريب أن ذلك لا يدل على مهارة خارقة فى الوضع والنحل » .

ثم يذكر ليال قصة ثالثة يرويها الرواة ليدلوا بها على خُلُق حماد . وذلك أن حماداً مدح بلال بن أبى بُرْدَةَ بقصيدة ، وعند بلال ذو الرمة . فقال بلال لذى الرمة : كيف ترى هذا الشعر ؟ قال : جيداً وليس له . ثم اعترف حماد أن الشعر جاهلى قديم لا يرويه غيره وأنه انتحله لنفسه[١] .

ثم يعقب ليال على كل ذلك فى معرض حديثه عن المفضليات بقوله[٢] : إن هذه القصص ذات الدلالات لتوضح لنا — سواء أكانت صحيحة أم موضوعة — أنه ليس ثمة ما يحملنا على الظن أن الشعر الذى جمعه المفضل قد أفسده ما يعزى إلى حماد من وضع الشعر ونحله .

وبعد أن يعرض ليال لسيرة خلف الأحمر ، ولما ينسب إليه من أنه كان يقول الشعر وينحله الشعراء الجاهليين[٣] ، يقول[٤] : « إنه لمن الخطأ

---

(١) الأغانى ٦ : ٨٨ .
(٢) مقدمة المفضليات : ١٩ .
(٣) مقدمة المفضليات : ١٩ — ٢٠ .
(٤) المصدر السابق : ٢٠ — ٢١ .

العظيم أن نعدّ هذين الرجلين — حماداً وخلفاً — النموذجين المثاليين للرواة المحترفين الذين كانوا يروون أشعار القبائل . فقد كانا كلاهما من أصل فارسي . أما رواة القبائل فكانوا من العرب ، يختارهم الشعراء ليكونوا الوسيلة التى تحفظ شعرهم وتخلّده فى صدور القبيلة والأمة العربية بعامة . وكان من هؤلاء أن أخذ الرواة الجامعون فى القرنين الأول والثانى الهجريين ما جمعوا من شعر . وأما أن نذهب ، كما ذهب أحد العلماء المحدثين[1] ، إلى أن جميع ما نسميه بالشعر العربى القديم موضوع منحول ، مستدلين على ذلك بالقصص التى تُروَى عن حماد وخلف ، وقد قدمنا نماذج منها — فهو مذهب مخالف لجميع وجوه هذه القضية واحتمالاتها . إن حماداً وخلفاً كانا يحاكيان أسلوباً للنظم كان قد قُرِّر واتخذ صورته النهائية زمناً طويلاً قبل الإسلام ، وكان قد نظم به شعراء كثيرون كانوا وثنيين ، أو غير مسلمين ، فى زمن محمد ثم أسلموا ، وقد كثر استخدامه وسُجِّل بالكتابة لعهد شعراء القرن الأول الهجرى (مثل جرير والفرزدق والأخطل وذى الرمة ، ولم أذكر إلا الذين خلّفوا لنا تراثاً من الشعر كبيراً) . فسلسلة الرواية والنقل لم تنقطع : فقد كانت الطبقة الأخيرة من الشعراء على قيد الحياة ينظمون الشعر حينما كان العلماء يدأبون فى جمع الشعر وتدوينه . ولا يمكن أن تعترضنا ، فى دراستنا لهؤلاء الشعراء مشكلة الوضع والنحل لأن رواتهم قد دأبوا على كتابة القصائد التى تلقى عليهم لنشرها وتخليدها . أما الشعر الجاهلى فربما حاكاه حماد وخلف ، ولكن هذه الحقيقة نفسها ، المحاكاة ، تدل على وجود أصل يحاكَى . أما أن نذيع أن ما بين أيدينا لا يعدو أن يكون الصورة المحكية ، وأنه لم يبق شىء من الأصل نفسه فذلك أمر لا يقرّه الفهم السليم على ضوء هذه الظروف » .

---

(١) ذكر ليال فى الهامش أن المقصود هو الأستاذ مرجوليوث فى ما نشره فى ص : ٣٩٧ من مجلة الجمعية الملكية الآسيوية سنة ١٩١٦ ، وفى مقالته عن « محمد » المنشورة فى سلسلة الدين والأخلاق ج ٨ ص : ٨٧٤ ، وفى ما كتبه فى ص : ٦٠ من كتابه « محمد » المطبوع سنة ١٩٠٥ . ثم يقول ليال إن الأستاذ مرجوليوث يذهب مذهباً يدعو إلى الدهشة والعجب وهو قوله « إن الشعر القديم هو فى معظمه موضوع منحول صيغ على نمط القرآن » .

ثم يمضى ليال فى حديثه فيقول : « إن ما ينبغى أن نستنتجه من هذه القصص عن حماد وخلف ليس رد هذا الشعر القديم، ووصمه بأنه موضوع منحول من غير بحث وتمحيص، بل وضع هذا الشعر موضع البحث الدقيق مهتدين بما تقدمه الرواية فى ذلك الزمن من أدلة، وناظرين إلى موضوع القصيدة وأسلوبها والصفات الشخصية المميزة ، لنرى بعد ذلك هل فيها ما يوحى على أى وجه بأن فيها زيادات دخيلة ، أو تغييراً فى ترتيب الأبيات ، أو أنها موضوعة منحولة » .

* * *

وقد تحدث ليال عن هذا الموضوع حديثاً مفصلاً فى موطن آخر ، وذلك فى مقدمته لديوان عبيد بن الأبرص ، قال[1]: « أما موضوع صحة هذا الشعر فأمر من الطبيعى أن يختلف فيه الناس . إذ من المؤكد أن شعر الأعراب فى الجاهلية العربية لم ينتقل بالكتابة ، بل بالرواية . وكانت القبيلة تعد القصائد التى تسجل انتصاراتها أغلى ما تملك، فكانت ترويها جيلاً بعد جيل، وبالإضافة إلى هذه المعرفة العامة المنتشرة فى القبيلة ، كان هناك الراوى ، وعمله أن يحفظ بمذخور الشعر الذى تعيه ذاكرته . وكان يعتنى بالذاكرة — فى العصور التى لم تستخدم فيها الكتابة إلا فى المدن ولأغراض خاصة — عناية كبيرة ، بحيث كانت أكثر قدرة على الاستيعاب منها فى العصر الحديث . وليس من الغريب أن تتناقل القصائد بهذه الطريقة قرنين أو ثلاثة .

ومن الطبيعى أن يفترض المرء أن هذه القصائد اعتراها بعض التغيير فى أثناء هذا التناقل : فقد تستبدل بعض الكلمات المترادفة بغيرها ، وقد يؤدى عدم تثبت الذاكرة إلى إسقاط أبيات ، أو تغيير فى ترتيبها ، أو وضع عبارات الراوى بدل العبارات التى نسيها . ومثل هذه الظواهر شائعة فى كل مكان . غير أننا حين نفحص القصائد ذاتها نجد فيها من الشخصية الفردية ما يكفينا للاستدلال على

---

(١) طبعة دار المعارف ص ١٧ — ١٩ ، وانظر المقابلة ترجمة الدكتور حسين نصار فى مجلة الثقافة عدد ٦٤٥ ، ٧ مايو ١٩٥١ .

أن القصائد ، فى معظمها ، من نظم الشعراء المنسوبة إليهم . فالمعلقات السبع مثلاً كلها قصائد ذات شخصية وخصائص واضحة ،وتعرض لنا سبع شخصيات متميز بعضها من بعض كل التميز . ونجد الأمر نفسه فى القصائد الثلاث الباقية (للأعشى والنابغة وعَبيد) التى عدها بعض النقاد من المعلقات . فقد تركت شخصية امرئ القيس وزهير ولبيد والنابغة والأعشى طابعها على شعرهم ، ومن جموح الخيال أن نظن أن معظم القصائد المنسوبة لهم مصنوعة فى عصر متأخر ، صنعها علماء عاشوا فى ظروف مغايرة تمام المغايرة ، وفى حياة شديدة الاختلاف عن حياة الأعراب فى الصحراء العربية .

والسبب الثانى لاعتقادنا أن الشعر القديم صحيح فى جملته ، وليس منحولاً ، هو أن شعر القرن الأول الهجرى يتضمن وجود هذا الشعر الجاهلى ويفترض سبقه عليه : فقد استمر شعراء القرن الأول المشهورون : الفرزدق وجرير والأخطل وذو الرمة ، يتبعون تقاليد الشعراء الجاهليين ، من غير أن تكون بينهم فجوة ؛ ففضلاً عن أنهم ذكروهم فى شعرهم ، فقد استعملوا ذخيرتهم الشعرية مراراً متكررة ، متناولين الموضوعات نفسها بالأسلوب نفسه : محسِّنين ومحوِّرين ومقتبسين ، ولكنهم ما يزالون متقيدين بالتقاليد نفسها . وليس هناك من شك فى أنه قد وصلنا شعر هؤلاء الشعراء صحيحاً ، فقد عاشوا فى عصر عمَّ استخدام الكتابة فيه لتدوين الشعر وإن كانت الرواية ما تزال أداة نشره بين الجمهور .

وسبب ثالث : هو أن الشعر القديم ملىء بألفاظ كانت غريبة على العلماء . الذين كانوا أول من عرض هذا الشعر على محك النقد . فقد كانت تنتمى إلى مرحلة لغوية أقدم من عصرهم ، وكانت غير مستعملة فى الزمن الذى كتبت فيه القصائد وجمعت الدواوين . ولا بد من أن يتنبه كل من اتصل بالشروح القديمة وعرفها (وهى المادة التى جمعت منها المعاجم الكبيرة فيما بعد) إلى أن الشراح — الذين يختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً — توصلوا إلى شرح الصعوبات بمقابلة عبارة أخرى ، وبالجدل والنقاش ، لا بالرجوع إلى لغة الخطاب التى لم تعد

تحوى الألفاظ التى يبحثون عن معناها . وتعتمد المعاجم كل الاعتماد على الشعر القديم وعلى القرآن والحديث ، وتفترض صحة الشعر كما تسلم بصحة القرآن والحديث » .

٣

وتحدث جورجيو ليفى دلا فيدا فى مقالته « بلاد العرب قبل الإسلام » عن قيمة المصادر التاريخية لهذه الفترة ، وعرض فى حديثه للشعر الجاهلى من حيث هو مصدر من هذه المصادر ، فقال(١) : « حين نحاول البحث فى العصور الوسيطة فى بلاد العرب (يقصد الجاهلية الأخيرة) نواجه المشكلة نفسها التى واجهتنا فى دراستنا لبلاد العرب القديمة (أى الجاهلية الأولى) . وما نعرفه ليس بالكثير ، إذا قيس بما نجهل ، والمجال متسع للفروض الظنية . وأياً كان ، فإن أسباب فقدان القطع واليقين فى دراستنا لتاريخ تلك الفترة أسباب مختلفة اختلافاً تاماً : فإن مصادر تاريخ بلاد العرب فى القرون السابقة لظهور الإسلام مباشرةً مصادر أدبية فى أغلبها ، وليست نقوشاً كمصادر تاريخ بلاد العرب القديمة . وهى غزيرة وافرة ، وربما كانت أوفر مما ينبغى — فإننا نعانى من كثرتها لا من قلتها . ولكن قيمتها للأسف لا تعادل وفرة عددها ، فإن المعلومات التى تنقلها إلينا ليست مأخوذة من وثائق أولية . وهى تشبه — من بعض وجوهها — المصادر التى نعرفها عن التاريخ اليونانى والرومانى واليهودى . وأكثر المصادر العربية أخبار جمعها علماء العصور الإسلامية ورتبوها . والأدلة المباشرة يقدمها لنا الشعر الذى وصل إلينا عن طريق ما قام به العلماء المسلمون من اختيار وشرح . أما الأدلة التاريخية ، وهى غير مباشرة ، فلا يصح أن يعتمد عليها من غير نقد وتمحيص . ونتائج النقد والتمحيص تجىء — عادةً — متباينة . فإن جماعة من العلماء المعاصرين

(١) Giorgio Levi Della Vida, Pre — Islamic Arabia, The Arab Heritage, New Jersy, 1944 P. 41-48.

يشكّون شكّاً عميقاً أساسيّاً فى الرواية العربية، ويذهبون إلى أن أكثرها موضوع زائف ، وأنها تمثل الاتجاه الذى نما فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ، حينما نسى العرب ما كانوا يذكرونه عن التاريخ الجاهلى ، فحاول اللغويون والأخباريون أن يملأوا الفجوات وذلك بأن وضعوا وزيفوا ما لم يجدوه فى الوثائق الأصلية الحقيقية. ومن أجل ذلك يرون أن الأدب التاريخى العربى ليس أوثق من القصص التاريخية، وأن أكثر الشعر موضوع ، فليس من المستطاع اتخاذهما أساساً سليماً يُبنَى عليه فهم صحيح لما كان يحدث فى بلاد العرب فى العصر الجاهلى .

وهذا الموقف المتشكك مبالغ فيه — فى رأى كاتب هذه المقالة — فإن الرواية التاريخية عن بلاد العرب فى عصورها الوسيطة (الجاهلية الأخيرة) ليست أوثق، ولا أضعف ، من أية رواية أخرى عن أى عصر تاريخى يعوزنا فيه الدليل المباشر. فهى ليست أضعف من ليفى Levi — مثلاً — عن القرون الخمسة الأولى من التاريخ الرومانى ، أو من ساكسو جراماتيكس عن العصر القديم فى الدانيمرك . بل إنها — من بعض الوجوه — خير منهما ، بالرغم من أنها لا تخلو من الفجوات والأخطاء . وليس بين أيدينا كل ما كتب عن الجاهلية العربية فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ، إذ أن مؤلفات كثيرة ضاعت ، ولم يبق من بعض الكتب الأخرى غير قطع ومختارات . . . وأهم من كل ذلك أن أكثر الرواية ذات جانب واحد ، فبدلاً من أن ترمى الرواية التاريخية إلى التسجيل الشامل للماضى ، أصبح لها ثلاثة أهداف : تقديم تفسير لإشارات تاريخية معينة فى بعض سور القرآن ، وشرح الحوادث التاريخية فى الشعر القديم ، وأخيراً خدمة العزة القومية ومطالب أشراف العرب ووضع أنساب واسعة لأكثر الأسر البارزة وذكر مفاخر قبائلهم .

والمثال يوضح نتائج هذه الطريقة التى نمت فيها الرواية. فقد كانت الخصومات القبلية التى تفوق الحصر هى العنصر الرئيسى فى تاريخ الأعراب ، ونحن نعرف منها عن قبيلة تميم أكثر جداً مما نعرفه عن غيرها من القبائل . والسبب الوحيد لذلك أن مصدرنا عن حروب تميم يرجع — كله تقريباً — إلى شروح وافية كتبها

أبو عبيدة على نقائض جرير والفرزدق . . . وكلاهما من قبيلة تميم ، فكانا دائماً يذكران فى شعرهما أمجاد أسلافهما . ولو كانت لدينا شروح على أشعار لقبيلة أخرى لكانت معرفتنا بتاريخ هذه القبيلة تعادل فى وفرتها وكمالها معلوماتنا عن تميم .

لقد بيّنا أن الشعر الجاهلى مصدر آخر من مصادر معرفتنا ببلاد العرب فى العصور التى سميناها « العصور العربية الوسيطة » . ولكن ، هل الشعر فى ذاته مصدر موثوق به ؟ لقد بحث هذه المشكلة علماء كثيرون ، وهى مشكلة عسيرة دقيقة . وقد بولغ فى مسألة وضع الشعر الجاهلى ونحله . وحتى لو كانت بعض قصائده موضوعة ، فلا ريب فى أن مجموع الرواية الشعرية فى جملتها صحيحة أصيلة . ومع ذلك فإن الشعر يعجز عن إعطائنا صورة صادقة كاملة عن بلاد العرب ، فإن الشعراء العرب لم يصوروا لنا تجارب الحياة عند البدو الرحّل فى واقعها ومجموعها ، بل صوروا بعض مظاهرها فى مُثُل عليا ونماذج رفيعة . وقد كان المثل الأعلى الذى أعجبوا به وتغنوا به فى شعرهم مشابهاً — والقياس مع الفارق — للمثل الأعلى لقصيدتى هومر وللقصيدة الفرنسية Chansons de Geste . هذا المثل الأعلى هو : الفروسية . ولا يصح أن يتهم الشعر الهومرى ، ولا تلك القصيدة الفرنسية بأنها عمدت عمداً إلى تغيير الجو التاريخى للعصرين الميسينى والكارولينى ، لكن هذين الشعرين يصوران مظهراً واحداً حسبُ ، وكذلك فعل الشعر العربى القديم : لقد أبرز لنا الجانب البطولى فى الحياة ، وأغفل المظاهر الأخرى التى لا تقل عنه قيمة . ومن هذه المظاهر التى أغفلت : الدين . . . »

وبعد ؛

فبحسبنا ما قدمنا من آراء المستشرقين فى وضع الشعر الجاهلى ونحله ، وفى مدى توثيقهم أو تضعيفهم لروايته . وقد عُنينا بعرض آراء بعض الذين خصوا هذا الموضوع ببحث واف فى مقالات خاصة به ، وأما أولئك الذين تعرضوا له تعرضاً عابراً فى جمل مقتضبة ، فى معرض تأريخهم للأدب العربى العام : من مثل جب وبروكلمان وغيرهما — فلا حاجة بنا إلى الإشارة إلى آرائهم لشهرتها وذيوعها .

الفصل الرابع

النحل والوضع فى الشعر الجاهلى

آراء العرب المحدثين

١

أما أول من شق طريق البحث فى هذا الموضوع من العرب المحدّثين فهو الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى كتابه « تاريخ آداب العرب » الذى صدر فى سنة ١٩١١ م . وقد خص الرواية والرواة بباب كامل من الجزء الأول نيّفت صفحاته على مائة وخمسين[١] ، حشد فيه من المادة ما لم يجتمع مثله — من قبله ولا من بعده حتى يومنا هذا — فى صعيد واحد من كتاب . لمّ فيه شتات الموضوع من أطرافه كلها ، واستقصاه استقصاء ، غير أنه فى كل ذلك كان يحكى ما أورده المؤلفون القدماء : يجمع ما تفرق من هذا الحديث فى الكتب الكثيرة أو فى مواطن شتى من الكتاب الواحد ، ثم يرتب ما تجمع له فى فصول ينتظم كلَّ فصل منها عنوانٌ يدل عليه . ولكنه، على هذا الجهد العظيم الذى تكلفه ، اكتفى ، فى أكثر حديثه ، بالسرد المجرد والحكاية عمن مضى . ولم يتجاوز ذلك إلى البحث فى هذه الأخبار والروايات بحثاً علميًّا ولا إلى نقدها نقداً يميز زائفها من صحيحها — إلا فى القليل النادر ، وحتى فى هذا القليل النادر كان يتعجل المضىّ ، فلا يكاد يقف عند خبر أو رواية حتى يدعها وينتقل إلى غيرها . ومع ذلك فللرافعى فضل السبق وفضل الاستقصاء فى الجمع . وسنقف عند حديثه

---

(١) تاريخ آداب العرب — الطبعة الثانية سنة ١٩٤٠ من ص : ٢٧٧ إلى ص : ٤٣٤ .

عن « وضع الشعر »[1] وقفة تُلمُّ فيها بما بيّنه من « البواعث على وضع الشعر في الإسلام»[2]. وسنحاول أن نرتبها هنا في نَسَق، وكان قد أرسلها في كتابه إرسالا :

١ ــ تكثُّر القبائل لتتعاضى مما فقدته بعد أن راجعت الرواية ، وخاصة القبائل التي قلَّت وقائعها وأشعارها ، وكانت أولاها قبيلة قريش ، فقد وضعت على حسان أشعاراً كثيرة[3] ــ على نحو ما ذكره ابن سَلاَّم في طبقاته وأوردناه في الفصل الثاني من هذا الباب .

٢ ــ شعر الشواهد « وهو النوع الذي يدخل فيه أكثر الموضوع ، لحاجة العلماء إلى الشواهد في تفسير الغريب ومسائل النحو[4] . . . وشعر الشواهد في اصطلاح الرواة على ضربين : شواهد القرآن وشواهد النحو[5] . والكوفيون أكثر الناس وضعاً للأشعار التي يستشهد بها ، لضعف مذاهبهم وتعلقهم على الشواذ واعتبارهم منها أصولاً يقاس عليها . . . قال الأندلسي في شرح المفصل : والكوفيون لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوّبوا عليه ، بخلاف البصريين[6] . . . ولهذا وأشباهه اضطر الكوفيون إلى الوضع فيما لا يصيبون له شاهداً إذا كانت العرب على خلافهم . . . »

٣ ــ الشواهد التي كان بعض المعتزلة والمتكلمين يولدونها للاستشهاد بها على مذاهبهم[7] ــ وقد أورد ما ذكره ابن قتيبة في « التأويل » من أنهم ذهبوا إلى أن معنى كرسي في قوله تعالى «وَسِع كرسيهُ السماوات والأرض » هو العلم ، وجاءوا على ذلك بشاهد لا يُعرف ، وهو قول الشاعر : ولا يكرسيء علم الله مخلوق . وأورد

---

(١) تاريخ آداب العرب: ٣٦٥ .
(٢) المصدر السابق : ٣٦٦ .
(٣) المصدر السابق : ٣٦٦ ــ ٣٦٧ .
(٤) المصدر السابق : ٣٦٨ .
(٥) المصدر السابق : ٣٦٩ .
(٦) المصدر السابق : ٣٧٠ .
(٧) المصدر السابق : ٣٧٣ .

كذلك ما ذكره الجاحظ فى «الحيوان» من أنهم كانوا يدفعون أن الرجوم كانت حجة للنبى صلى الله عليه وسلم ، واحتجوا على ذلك بأبيات وضعوها على شعراء الجاهلية .

٤ ـ الشواهد على الأخبار[1] « . . فلما كثر القصّاصون وأهل الأخبار اضطروا من أجل ذلك أن يصنعوا الشعر لما يلفقونه من الأساطير حتى يلائموا بين رقعتى الكلام ، وليحدروا تلك الأساطير من أقرب الطرق إلى أفئدة العوام ، فوضعوا من الشعر على آدم فن دونه من الأنبياء وأولادهم وأقوامهم ، وأول من أفرط فى ذلك محمد بن إسحق . . . » ثم ذكر أن مما يدخل فى هذا الباب شعر الجن وأخبارها[2] . . .

٥ ـ الاتساع فى الرواية[3] « وهو سبب من أسباب الوضع ، يقصد به فحول الرواة أن يتسعوا فى رواياتهم فيستأثروا بما لا يحسن غيرهم من أبوابها ؛ ولذا يضعون على فحول الشعراء قصائد لم يقولوها ، ويزيدون فى قصائدهم التى تعرف لهم ، ويدخلون من شعر الرجل فى شعر غيره . . . » ثم يمثل على ذلك بحماد الراوية وخلف الأحمر .

وهكذا نرى أن الرافعى قد دار مع القدماء من العرب فى فلكهم ، وسرد ما رووه من أخبار ، وما انبثّ فى كتبهم من أحاديث ، وحصر الموضوع فى الدائرة نفسها التى حصره فيها القدماء : لم يحمّل نصّاً أكثر مما يحتمل ، ولم يعتسف الطريق اعتسافاً إلى الاستنتاج والاستنباط ولا إلى الظنّ والافتراض ، ولم يجعل من الخبر الواحد قاعدةً عامة ، ولا من الحالات الفردية نظرية شاملة .

٢

ثم استقر الموضوع بين يدى الدكتور طه حسين ، فخلق منه شيئاً جديداً ، لم يعرفه القدماء ، ولم يقتحم السبيل إليه العرب المحدثون من قبله ، ثم أنكره بعدُ كثير من المحدثين إنكاراً خصباً يتمثل فى هذه الكتب التى ألفوها للرد عليه ونقض

---

(١) تاريخ آداب العرب : ٣٧٥ .

(٢) المصدر السابق : ٣٧٦ .

(٣) المصدر السابق : ٣٧٩ .

كتابه . وقد استقى الدكتور طه حسين أكثر مادته — حيث يستشهد ويتمثل بالأخبار والروايات — من العرب القدماء، وسلك بها سبيل مرجوليوث فى الاستنباط والاستنتاج ، والتوسع فى دلالات الروايات والأخبار ، وتعميم الحكم الفردى الخاص واتخاذه قاعدة عامة ، ثم صاغ تلك المادة وهذه الطريقة بإطار من أسلوبه الفنى وبيانه الأخّاذ ، حتى انتهى إلى ما انتهى إليه من « أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية فى شىء ، وإنما هى منحولة بعد ظهور الإسلام ، فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين »[1] . و « إن هذا الشعر الذى ينسب إلى امرئ القيس أو إلى الأعشى أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء ، ولا أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن »[2] .
ثم يكاد يعتدل بعض الشىء فيقسم الشعر الجاهلى ثلاثة أضرب ويقول[3] :
« إنا نرفض شعر اليمن فى الجاهلية ، ونكاد نرفض شعر ربيعة أيضاً . . . وأقل ما توجبه علينا الأمانة العلمية أن نقف من الشعر المضرى الجاهلى ، لا نقول موقف الرفض أو الإنكار ، وإنما نقول موقف الشك والاحتياط . »

فنحن إذن بإزاء نظرية عامة : لم نرها فيما عرضنا من آراء العرب القدماء ، ونحسب أنها لم تدرْ لهم ببال ، ولكننا رأيناها واضحة المعالم فيما عرضنا من آراء مرجوليوث ، ولم يكتف بالإشارة إليها إشارة عابرة ، وإنما نص عليها نصّاً صريحاً فى عبارات متكررة تختلف ألفاظها وتتفق مراميها . وجاء الدكتور طه حسين فلم يقنع كما قنع مرجوليوث بأن يدلنا عليها فى مقالة أو مقالتين ، وإنما فصل لنا القول فيها فى كتاب كامل قائم بذاته ، وساقها فى أسلوبه الأخّاذ الذى يلفُّ القارئ به لفّاً حتى يكاد أن ينسيه نفسه ويصرفه عن مناقشة رأيه . ومن آيات

---

(١) فى الأدب الجاهلى : ٧١ — ٧٢ .

(٢) المصدر السابق : ٧٣ .

(٣) المصدر السابق : ٢٧١ و ، :

ذلك أننا حينما قرأنا تلخيصنا لرأى الدكتور — بعد أن جرّدناه من أسلوبه — أحسسنا فرقَ ما بين الملخص والكتاب، وأدركنا أن هذا التلخيص يغمط الكتاب حقّه، ويفقده كثيراً من أثره في النفس.

وحديث الدكتور طه، في هذا، ينقسم ثلاثة أقسام، الأولان منها عامان، أولهما: الدوافع التي دفعته إلى الشك في هذا الشعر، وثانيهما: الأسباب التي يرى أنها أدّت إلى نحل الشعر الجاهلي ووضعه. أما القسم الثالث فخاص يتحدث فيه عن شعراء بذاتهم.

دوافع شكه :

نظر الدكتور طه في هذا الشعر الذي يسمّى جاهلياً فرأى فيه أشياء رابته، فشكّ فيه، وانتهى إلى أن كثرته المطلقة ليست جاهلية وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام. ومن هذه الأمور التي رابته :

١ — «أنه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين[1]» وقد فصل القول في كل جانب من هذه الجوانب :

(أ) الحياة الدينية : فرأى أن «هذا الشعر الذى يضاف إلى الجاهليين يظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوى والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية. وإلا فأين تجد شيئاً من هذا في شعر امرئ القيس أو طرفة أو عنترة ؟ أوليس عجيباً أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين ؛ وأما القرآن فيمثل لنا حياة دينية قوية تدعو أهلها إلى أن يجادلوا عنها ما وسعهم الجدال. فإذا رأوا أنه قد أصبح قليل الغناء لجأوا إلى الكيد ثم إلى الاضطهاد ؟ ثم إلى إعلان الحرب التي لا تبقى ولا تذر. أفتظن أن قريشاً كانت تكيد لأبنائها وتضطهدهم وتذيقهم

(١) في الأدب الجاهلي : ٨٨ .

ألوان العذاب ثم تخرجهم من ديارهم ثم تنصب لهم الحرب وتضحى فى سبيلها بثروتها وقوتها وحياتها لو لم يكن لها من اللين إلا ما يمثله هذا الشعر الذى يضاف إلى الجاهليين ؟ كلا . . . »[١]

(ب) الحياة العقلية : ثم يجد فى هذا الجدال الدينى ما يجعله ينتقل إلى الحياة العقلية والحضارية ، فيقول[٢] : « أفتظن قوماً يجادلون فى هذه الأشياء جدالاً يصفه القرآن بالقوة ويشهد لأصحابه بالمهارة ، أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغباوة والغلظة والخشونة بحيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذى يضاف إلى الجاهليين ؟ كلا ! لم يكونوا جهالاً ولا أغبياء ، ولا غلاظاً ولا أصحاب حياة خشنة جافية ، وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء ، وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة . . . »

(حـ) الحياة السياسية : ثم يرى أن العرب « كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم ، بل كانوا على اتصال قوى ، قسمهم أحزاباً وفرقهم شيعاً . أليس القرآن يحدثنا عن الروم وما كان بينهم وبين الفرس من حرب انقسمت فيها العرب إلى حزبين مختلفين : حزب يشايع أولئك وحزب يناصر هؤلاء ؟ أليس فى القرآن سورة تسمى « سورة الروم » ؟ ... لم يكن العرب إذن كما يظن أصحاب هذا الشعر الجاهلى معتزلين . فأنت ترى أن القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم . وهو يصف اتصالهم الاقتصادى بغيرهم من الأمم فى السورة المعروفة : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف » . وكانت إحدى هاتين الرحلتين إلى الشام حيث الروم ، والأخرى إلى اليمن حيث الحبشة والفرس »[٣] .

(د) الحياة الاقتصادية : ثم يقول الدكتور طه[٤] : « فأنت تستطيع أن تقرأ امرأ القيس كله وغير امرئ القيس ، وأنت تستطيع أن تقرأ هذا الأدب

---

(١) ص : ٨٠ .
(٢) ص : ٨١ .
(٣) ص : ٨٢ – ٨٣ .
(٤) ص : ٨٣ .

الجاهلى كله دون أن تظفر بشىء ذى غناء يمثل لك حياة العرب الاقتصادية فيما بينهم وبين أنفسهم » . ثم يتحدث عما فى القرآن من إشارات إلى الحياة الاقتصادية لدى عرب الجاهلية فيقول [1] : « وأنت إذا قرأت القرآن رأيت أنه يقسم العرب إلى فريقين آخرين : فريق الأغنياء المستأثرين بالثروة المسرفين فى الربا ، وفريق الفقراء المعدمين أو الذين ليس لهم من الثروة ما يمكنهم من أن يقاوموا هؤلاء المرابين أو يستغنوا عنهم . وقد وقف الإسلام فى صراحة وحزم وقوة إلى جانب هؤلاء الفقراء المستضعفين وناضل عنهم وذاد خصومهم والمسرفين فى ظلمهم . . . أفتظن أن القرآن كان يُعنَى هذه العناية كلها بتحريم الربا والحث على الصدقة وفرض الزكاة لو لم تكن حياة العرب الاقتصادية الداخلية من الفساد والاضطراب بحيث تدعو إلى ذلك ؟ فالتمس لى هذا أو شيئاً كهذا فى الشعر الجاهلى ، وحدثنى أين تجد فى هذا الأدب : شعره ونثره ، ما يصور لك نضالاً ما بين الأغنياء والفقراء . . . » ثم يتحدث عن ناحية أخرى فيقول [2] : « كنا ننتظر أن يمثلها الشعر لأنها خليقة به وتكاد تكون موقوفة عليه ، نريد هذه الناحية النفسية الخالصة ، هذه الناحية التى تظهر لنا الصلة بين العربى والمال . . . فالشعر الجاهلى يمثل لنا العرب أجواداً كراماً مهينين للأموال مسرفين فى ازدرائها ، ولكن فى القرآن إلحاحاً فى ذم البخل وإلحاحاً فى ذم الطمع ، فقد كان البخل والطمع إذن من آفات الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى الجاهلية . . . فالعرب فى الجاهلية لم يكونوا كما يمثلهم هذا الشعر أجواداً متلفين للمال مهينين لكرامته ، وإنما كان منهم الجواد والبخيل ، وكان منهم المتلاف والحريص ، وكان منهم من يزدرى المال ومنهم من يزدرى الفضيلة والعاطفة فى سبيل جمعه وتحصيله » . ثم يتحدث عما فى القرآن من تنظيم للصلة بين الدائن والمدين .

(هـ) الحياة الاجتماعية : ثم ينتهى إلى الحديث عن حياة العرب الاجتماعية

---

(١) ص : ٨٤ .

(٢) ص : ٨٥ .

فى الجاهلية ، فيقول [١]: « فهذا الشعر لا يعنى إلا بحياة الصحراء والبادية ، وهو لا يعنى بها إلا من نواح لا تمثلها تمثيلاً تامًّا . فإذا عرض لحياة المدر فهو يمسها مسًّا رفيقاً ولايتغلغل فى أعماقها ، وما هكذا نعرف شعر الإسلام . ومن عجيب الأمر أنا لا نكاد نجد فى الشعر الجاهلى ذكر البحر أو الإشارة إليه ، فإذا ذكر فذكر يدل على الجهل لا أكثر ولا أقل . أما القرآن فيمنُّ على العرب بأن الله قد سخر لهم البحر وبأن لهم فى هذا البحر منافع كثيرة . . . »

٢ — اختلاف اللغة : ويرى الدكتور طه حسين أن هذا الشعر « بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية فى العصر الذى يزعم الرواة أنه قيل فيه »[٢] . ثم يقول : « إن هناك خلافاً قويًّا بين لغة حمير (وهى العرب العاربة) ولغة عدنان (وهى العرب المستعربة) »[٣] . ويستند فى ذلك إلى أمرين ، الأول : ما قاله أبو عمرو بن العلاء ، وهو — كما أورده الدكتور طه — : ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا ! ! والثانى : أن البحث الحديث أثبت خلافاً جوهريًّا بين اللغة التى كان يصطنعها الناس فى جنوب البلاد العربية ، واللغة التى كانوا يصطنعونها فى شمال هذه البلاد . ثم يشير إلى هذه النقوش الحميرية التى اكتشفت وإلى ما أورده جويدى فى كتابه : المختصر فى علم اللغة العربية الجنوبية القديمة . ثم ينتهى من كل ذلك إلى قوله[٤] : « وإذن فما خطب هؤلاء الشعراء الجاهليين الذين ينسبون إلى قحطان ، والذين كانت كثرتهم تنزل اليمن وكانت قلتهم من قبائل يقال إنها قحطانية قد هاجرت إلى الشمال ! ما خطب هؤلاء الشعراء ، وما خطب فريق من الكهان والخطباء يضاف إليهم نثر وسجع ، وكلهم يتخذ لشعره ونثره اللغة العربية الفصحى كما نراها فى القرآن ؟ أما أن هؤلاء الناس كانوا

---

(١) ص : ٨٧ .

(٢) ص : ٨٨ .

(٣) ص : ٨٩ — ٩٠ .

(٤) ص : ٩٨ .

يتكلمون لغتنا العربية الفصحى ففرض لا سبيل إلى الوقوف عنده فيما يتصل بالعصر الجاهلي ، فقد ظهر أنهم كانوا يتكلمون لغة أخرى ، أو قل لغات أخرى».
ثم يعرض لما يقال من احتمال اتخاذ أهل الجنوب اللغة العدنانية لغة أدبية ، فينفيه لأن « السيادة السياسية والاقتصادية ـ التي من شأنها أن تفرض اللغة على الشعوب ـ قد كانت للقحطانيين دون العدنانيين »[1] .

٣ ـ اختلاف اللهجات : وبعد أن ينتهي من الشعر الذي يضاف إلى القحطانيين ينتقل إلى الشعر الذي يضاف إلى العدنانيين فيقول[2] : « فالرواة مجمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ولا متفقة اللهجة قبل أن يظهر الإسلام فيقارب بين اللغات المختلفة ويزيل كثيراً من تباين اللهجات . وكان من المعقول أن تختلف لغات العرب العدنانية وتتباين لهجاتهم قبل ظهور الإسلام ولا سيما إذا صحت النظرية التي أشرنا إليها آنفاً وهي نظرية العزلة العربية . . فإذا صح هذا كله كان من المعقول جداً أن تكون لكل قبيلة من هذه القبائل العدنانية لغتها ولهجتها ومذهبها في الكلام . وأن يظهر اختلاف اللغات وتباين اللهجات في شعر هذه القبائل الذي قيل قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة ولهجات متقاربة . ولكننا لا نرى شيئاً من ذلك في الشعر العربي الجاهلي . فأنت تستطيع أن تقرأ هذه المطولات أو المعلقات التي يتخذها أنصار القديم نموذجاً للشعر الجاهلي الصحيح ، فسترى فيها مطولة لامرئ القيس وهو من كندة أي من قحطان ، وأخرى لزهير ، وأخرى لعنترة ، وثالثة للبيد ، وكلهم من قيس ، ثم قصيدة لطرفة ، وقصيدة لعمرو بن كلثوم ، وقصيدة أخرى للحارث بن حلزة ـ وكلهم من ربيعة . . . تستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع دون أن تشعر فيها بشيء يشبه أن يكون اختلافاً في اللهجة ، أو تباعداً في اللغة ، أو تبايناً في مذهب الكلام : البحر العروضي هو هو ، وقواعد القافية هي هي ، والألفاظ مستعملة

---

(١) ص : ٩٨ .
(٢) ص : ١٠٣ ـ ١٠٤ .

فى معانيها كما تجدها عند شعراء المسلمين ، والمذهب الشعرى هو هو . . . فنحن بين اثنتين : إما أن نؤمن بأنه لم يكن هناك اختلاف بين القبائل العربية من عدنان وقحطان فى اللغة ولا فى اللهجة ولا فى المذهب الكلامى ، وإما أن نعترف بأن هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل وإنما حمل عليها بعد الإسلام حملاً . ونحن إلى الثانية أميل منا إلى الأولى فالبرهان القاطع قائم على أن اختلاف اللغة واللهجة كان حقيقة واقعة بالقياس إلى عدنان وقحطان » .

٤ ــ الاستشهاد بالشعر الجاهلى على ألفاظ القرآن والحديث : قال الدكتور طه فيما قال[1]: « إنا نلاحظ أن العلماء قد اتخذوا هذا الشعر الجاهلى مادة للاستشهاد على ألفاظ القرآن والحديث ونحوهما ومذاهبهما الكلامية . ومن الغريب أنهم لا يكادون يجدون فى ذلك مشقة ولا عسراً ، حتى إنك لتحس كأن هذا الشعر الجاهلى إنما قُدّ على قدّ القرآن والحديث كما يقد الثوب على قد لابسه لا يزيد ولا ينقص عما أراد طولاً وسعة . إذن فنحن نجهر بأن هذا ليس من طبيعة الأشياء ، وأن هذه الدقة فى الموازاة بين القرآن والحديث والشعر الجاهلى لا ينبغى أن تحمل على الاطمئنان إلا الذين رُزقوا حظًّا من السذاجة لم يُتح لنا مثله . إنما يجب أن تحملنا هذه الدقة فى الموازاة على الشك والحيرة ، وعلى أن نسأل أنفسنا : أليس يمكن ألا تكون هذه الدقة فى الموازاة نتيجة من نتائج المصادفة وإنما هى شىء تُكلف وأنفق فيه أصحابه بياض الأيام وسواد الليالى ؟ »

٥ ــ أما آخر الأمور التى لحظها الدكتور طه حسين فى الشعر الجاهلى ، وبعثت فى نفسه الشك والريبة ، ودفعته إلى أن يصمه بأنه منحول موضوع ، فهو أنه لم يصلنا إلا عن طريق الرواية الشفهية ، وهو لا يتحدث عن هذا الأمر حديثاً مفصلاً كما صنع فى الأمور الأربعة السابقة ، وإنما اكتفى بأن يشير إليه إشارات عابرة لا يقف عندها طويلاً ، وإن كان حديثه فى جملته يتضمن أثر

(١) ص : ١٢٠ .

هذا الدافع الأخير وهو الرواية الشفهية فى نفسه ، ولعل أصرح جملة عن هذا الأمر قوله[1] : « وحسبى أن شعر أمية بن أبى الصلت لم يصل إلينا إلا من طريق الرواية والحفظ لأشك فى صحته كما شككتُ فى شعر امرئ القيس والأعشى وزهير . . . »

وبعد :

فقد ختم الدكتور طه فصله الذى تحدث فيه عن دوافع شكه فى الشعر الجاهلى بعبارة فيها جماع ما ذكر ، وفيها تمهيد لما سيذكر ، وذلك قوله[2] : « إن من الحق علينا لأنفسنا وللعلم أن نسأل : أليس هذا الشعر الجاهلى الذى ثبت أنه لا يمثل حياة العرب الجاهليين ولا عقليتهم ولا دياناتهم ولا حضاراتهم ، بل لا يمثل لغتهم — أليس هذا الشعر قد وضع وضعاً وحُمل على أصحابه حملاً بعد الإسلام ؟ أما أنا فلا أكاد أشك الآن فى هذا . ولكننا محتاجون بعد أن ثبتت لنا هذه النظرية أن نتبين الأسباب المختلفة التى حملت الناس على وضع الشعر والنثر ونحلهما بعد الإسلام . »

أسباب النحل :

ومن أجل ذلك تراه فى « الكتاب الثالث » يبسط « أسبابَ نحل الشعر » ، بسطاً أفرغ فيه كثيراً من الجهد حتى لقد وصل بنا إلى أن « كل شىء فى حياة المسلمين فى القرون الثلاثة الأولى كان يدعو إلى نحل الشعر وتلفيقه سواء فى ذلك الحياة الصالحة حياة الأتقياء والبررة ، والحياة السيئة حياة الفسق وأصحاب المجون »[3].

---

(١) ص : ١٥٩ .
(٢) ص : ١٢٣ .
(٣) ص : ١٩٣ .

وهو يرى أن هذه الأسباب التى دعت إلى نحل الشعر ووضعه مردُّها إلى خمسة أمور :

أولاً — السياسة :

وهو لا يعنى السياسة بمعناها الواسع الذى نفهمه منها الآن ، وإنما يحصر مدلول السياسة فى العصبية القبلية ، وحتى هذه العصبية لا يتحدث عنها حديثاً شاملاً ، ولكنه يكتفى بمثالين :

١ — العصبية « بين المهاجرين والأنصار ، أو بعبارة أصح : بين قريش والأنصار[١] » . ويورد ، لتأييد رأيه ، روايتين ، الأولى : ما يروَى من أن عمر بن الخطاب نهى عن رواية الشعر الذى تهاجى به المسلمون والمشركون أيام النبى ، ويرى الدكتور طه أن « هذه الرواية نفسها تثبت رواية أخرى وهى أن قريشاً والأنصار تذاكروا ما كان قد هجا به بعضهم بعضاً أيام النبى وكانوا حراصاً على روايته ، ويجدون فى ذلك من اللذة والشماتة ما لا يشعر به إلا صاحب العصبية القوية إذا وتر أو انتصر »[٢] . ويدعم رأيه هذا بما يروى أيضاً عن عمر من قوله لأصحاب النبى : « قد كنت نهيتكم عن رواية هذا الشعر لأنه يوقظ الضغائن ، فأما إذْ أبوا فاكتبوه » . ويعقب الدكتور طه على ذلك بقوله[٣] : « وسواء أقال عمر هذا أم لم يقله ، فقد كان الأنصار يكتبون هجاءهم لقريش على ألا يضيع » .

والثانية : ما ذكر من أن ابن سلاَّم قال : وقد نظرت قريش فإذا حظها من الشعر قليل فى الجاهلية ، فاستكثرت منه فى الإسلام . وعقب عليه الدكتور بقوله[٤] : وليس من شك عندى فى أنها استكثرت بنوع خاص من هذا الشعر الذى يهجَى به الأنصار .

---

(١) ص : ١٣٢ .
(٢) ص : ١٣٣ .
(٣) ص : ١٣٤ ..
(٤) ص : ١٣٤ .

٢ — وأما المثال الثانى فهو لايورده فى هذا الفصل الذى عقده عن العصبية القبلية، وإنما ينثره فى الكتاب الذى يليه حين يتحدث عن امرئ القيس وشعره فيقول[١] : « ونحن نذهب هذا المذهب نفسه فى تفسير هذه الأخبار والأشعار التى تمس تنقل امرئ القيس فى قبائل العرب، فهى محدثة نُحلت حين تنافست القبائل العربية فى الإسلام ، وحين أرادت كل قبيلة أن تزعم لنفسها من الشرف والفضل أعظم حظ ممكن » .

ولم يكتف الدكتور بذلك بل يقول[٢] : « ونحن لا نقف عند استخلاص هذه النتيجة وتسجيلها وإنما نستخلص منها قاعدة علمية، وهى أن مؤرخ الآداب مضطر حين يقرأ الشعر الذى يسمَّى جاهلياً أن يشك فى صحته كلما رأى شيئاً من شأنه تقوية العصبية أو تأييد فريق من العرب على فريق . ويجب أن يشتد هذا الشك كلما كانت القبيلة أو العصبية التى يؤيدها هذا الشعر قبيلةً أو عصبية قد لعبت — كما يقولون — دوراً فى الحياة السياسية للمسلمين » .

ثانياً — الدين :

وهو يدخل فى باب الدين ما يلى من الأمثلة :

١ — « فكان هذا النحل فى بعض أطواره يقصد به إلى إثبات صحة النبوة وصدق النبى ، وكان هذا النوع موجهاً إلى عامة الناس . وأنت تستطيع أن تحمل على هذا كل ما يروَى من هذا الشعر الذى قيل فى الجاهلية ممهداً لبعثة النبى وكل ما يتصل بها من هذه الأخبار والأساطير التى تروى لتقنع العامة بأن علماء العرب وكهانهم ، وأحبار اليهود ورهبان النصارى ، كانوا ينتظرون بعثة نبى عربى يخرج من قريش أو من مكة . وفى سيرة ابن هشام وغيرها من كتب

---

(١) ص : ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٢) ص : ١٤٥ — ١٤٦ .

التاريخ والسير ضروب كثيرة من هذا النوع »[١] .

٢ — « وأنت تستطيع أن تحمل على هذا لوناً آخر من الشعر المنحول لم يضف إلى الجاهليين من عرب الإنس، وإنما أضيف إلى الجاهليين من عرب الجن[٢] . . . . والغرض من هذا النحل — فيما نرجح — إنما هو إرضاء حاجات العامة الذين يريدون المعجزة فى كل شيء ، ولا يكرهون أن يقال لهم : إن من دلائل صدق النبي فى رسالته أنه كان منتظراً قبل أن يجيء بدهر طويل ، تحدثت بهذا الانتظار شياطين الجن وكهان الإنس . . .[٣] »

٣ — « ونوع آخر من تأثير الدين فى نحل الشعر وإضافته إلى الجاهليين ، وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبي من ناحية أسرته ونسبه فى قريش . . .[٤] »

٤ — « نحو آخر من تأثير الدين فى نحل الشعر ، وهو هذا الذى يلجأ إليه القصاص لتفسير ما يجدونه مكتوباً فى القرآن من أخبار الأمم القديمة البائدة كعاد وثمود ومن إليهم ، فالرواة يضيفون إليهم شعراً كثيراً . وقد كفانا ابن سلام نقده وتحليله حين جدّ فى طبقات الشعراء فى إثبات أن هذا الشعر وما يشبهه مما يُضاف إلى تُبّع وحمير موضوع منحول وضعه ابن إسحق ومن إليه من أصحاب القصص . . .[٥] »

٥ — « ونحو آخر من تأثير الدين فى نحل الشعر ، وذلك حين ظهرت الحياة العلمية عند العرب بعد أن اتصلت الأسباب بينهم وبين الأمم المغلوبة . فأرادوا هم أو الموالى أو أولئك وهؤلاء أن يدرسوا القرآن درساً لغويًّا ويثبتوا صحة ألفاظه ومعانيه . ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى إثبات أن القرآن كتاب عربى مطابق فى ألفاظه للغة العرب ، فحرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات

(١) ص : ١٤٧ .
(٢) ص : ١٤٧ — ١٤٨ .
(٣) ص : ١٤٩ .
(٤) ص : ١٥٠ .
(٥) ص : ١٥٣ .

القرآن بشيء من شعر العرب يثبت أن هذه الكلمة القرآنية عربية لا سبيل إلى الشك في عربيتها . . .[١] »

٦ — « وهنا نوع جديد من تأثير الدين في نحل الشعر ، فهذه الخصومات بين العلماء كان لها تأثير غير قليل في مكانة العالم وشهرته . . . ومن هنا كان هؤلاء العلماء حراصاً على أن يظهروا دائماً بمظهر المنتصرين . . . . وأي شيء يتيح لهم هذا مثل الاستشهاد بما قاله العرب قبل نزول القرآن . . . . وهم مجمعون على أن هؤلاء الجاهليين الذين قالوا في كل شيء كانوا جهلة غلاظاً فظاظاً . أفترى إلى هؤلاء الجهال الغلاظ يُستشهَد بجهلهم وغلظتهم على ما انتهت إليه الحضارة العباسية من علم ودقة فنية ؟ فالمعتزلة يثبتون مذاهبهم بشعر العرب الجاهليين ، وغير المعتزلة من أصحاب المقالات ينقضون آراء المعتزلة معتمدين على شعر الجاهليين . . . لأمر ما كان البدع في العصر العباسي عند فريق من الناس أن يردّ كل شيء إلى العرب حتى الأشياء التي استحدثت أو جاء بها المغلوبون من الفرس والروم وغيرهم[٢] . . . »

٧ — ويعرض لما يروَى من وجود أفراد قبل الإسلام كانوا يحتفظون بالحنيفية دين إبراهيم وكان في أحاديثهم ما يشبه الإسلام، فيقول[٣] : « فأحاديث هؤلاء الناس قد وضعت لهم وحملت عليهم بعد الإسلام لا لشيء إلا ليثبت أن للإسلام في بلاد العرب قُدْمة وسابقة . وعلى هذا النحو تستطيع أن تحمل كل ما تجد من هذه الأخبار والأشعار والأحاديث التي تضاف إلى الجاهليين والتي يظهر بينها وبين ما في القرآن والحديث شبه قوي أو ضعيف ».

٨ — ثم يتحدث عن المسيحية واليهودية فيقول[٤] : « ليس من المعقول أن

---

(١) ص : ١٥٣ .
(٢) ص : ١٥٤ — ١٥٥ .
(٣) ص : ١٥٧ .
(٤) ص : ١٦٢ — ١٦٣ .

ينتشر هذان الدينان فى البلاد العربية دون أن يكون لهما أثر ظاهر فى الشعر العربى قبل الإسلام . وقد رأيت أن العصبية العربية حملت العرب على أن ينحلوا الشعر ويضيفوه إلى عشائرهم فى الجاهلية بعد أن ضاع شعر هذه العشائر ، فالأمر كذلك فى اليهود والنصارى : تعصبوا لأسلافهم من الجاهليين ، وأبوا إلا أن يكون لهم شعر كشعر غيرهم من الوثنيين ، وأبوا إلا أن يكون لهم مجد وسؤدد كما كان لغيرهم مجد وسؤدد ، فنحلوا كما نحل غيرهم ونظموا شعراً أضافوه إلى السموءل ابن عادياء وإلى عدى بن زيد وغيرهما من شعراء اليهود والنصارى . . . »

ثالثاً — القصص :

وقد عرض للقصص والقصاصين غير مرة فيما سبق من فصول كتابه ، ولكنه فى هذا الفصل يخص القصص والقصاصين بالحديث كله . فبعد أن يتحدث عن نشأة القصص وقيام طائفة القصاص يقول(١) : « وأنت تعلم أن القصص العربى لا قيمة له ولا خطر فى نفس سامعيه إذا لم يزينه الشعر من حين إلى حين . . وإذن فقد كان القصاص أيام بنى أمية وبنى العباس فى حاجة إلى مقادير لا حد لها من الشعر يزينون بها قصصهم ، ويدعمون بها مواقفهم المختلفة فيه . وهم قد وجدوا من هذا الشعر ما كانوا يشتهون . ولا أكاد أشك فى أن هؤلاء القصاص لم يكونوا يستقلون بقصصهم ، ولا بما يحتاجون إليه من الشعر فى هذا القصص ، وإنما كانوا يستعينون بأفراد من الناس يجمعون لهم الأحاديث والأخبار ويلفقونها ، وآخرين ينظمون لهم القصائد وينسقونها . ولدينا نص يبيح لنا أن نفترض هذا الفرض ، فقد حدثنا ابن سلاَّم أن ابن إسحق كان يعتذر عما يروى من غثاء الشعر فيقول : لا علم لى بالشعر ، إنما أوتَى به فأحمله . فقد كان هناك قوم إذن يأتون بالشعر وكان هو يحمله . فمن هؤلاء القوم ؟ أليس

---

(١) ص : ١٦٨ — ١٦٩ .

من الحق لنا أن نتصور أن هؤلاء القصاص لم يكونوا يتحدثون إلى الناس فحسب، وإنما كان كل واحد منهم يشرف على طائفة غير قليلة من الرواة والملفقين ومن النُّظّام والمنسِّقين ، حتى إذا استقام لهم مقدار من تلفيق أولئك وتنسيق هؤلاء طبعوه بطابعهم ونفخوا فيه من روحهم وأذاعوه بين الناس » . ثم يخص بالذكر ثلاثة ضروب من القصص : قصص لتفسير طائفة من الأمثال والأسماء والأمكنة[١]. وقصص المعمَّرين وأخبارهم[٢] . وقصص أيام العرب وأخبارها[٣] .

رابعاً — الشعوبية :

ثم يتحدث عن الخصومة بين العرب والموالى فى الإسلام فيقول[٤]: « أما نحن فنعتقد أن هؤلاء الشعوبية قد نحلوا أخباراً وأشعاراً وأضافوها إلى الجاهليين والإسلاميين . ولم يقف أمرهم عند نحل الأخبار والأشعار ، بل هم قد اضطروا خصومهم ومناظريهم إلى النحل والإسراف فيه . . » ويقول[٥]: « كانت الشعوبية تنحل من الشعر ما فيه عيب للعرب وغض منهم . وكان خصوم الشعوبية ينحلون من الشعر ما فيه ذود عن العرب ورفع لأقدارهم . »

ثم يعيد ما أشار إليه عند حديثه عن الدين ، فيقول[٦]: « ونوع آخر من النحل دعت إليه الشعوبية ، تجده بنوع خاص فى كتاب الحيوان للجاحظ وما يشبهه من كتب العلم التى ينحو بها أصحابها نحو الأدب . ذلك أن الخصومة بين العرب والعجم دعت العرب وأنصارهم إلى أن يزعموا أن الأدب العربى القديم لا يخلو أو لا يكاد يخلو من شيء تشتمل عليه العلوم المحدثة ، فإذا عرضوا لشيء

---

(١) ص : ١٧٤ .
(٢) ص : ١٧٥ .
(٣) ص : ١٧٦ .
(٤) ص : ١٧٨ .
(٥) ص : ١٨٦ .
(٦) ص : ١٨٧ .

بما فى هذه العلوم الأجنبية فلا بد من أن يثبتوا أن العرب قد عرفوه أو ألموا به أو كادوا يعرفونه ويلمون به » .

خامساً — الرواة :

والرواة فى رأيه « بين اثنتين : إما أن يكونوا من العرب ، فهم متأثرون بما كان يتأثر به العرب ، وإما أن يكونوا من الموالى، فهم متأثرون بما كان يتأثر به الموالى من تلك الأسباب العامة، وهم على تأثرهم بهذه الأسباب العامة متأثرون بأشياء أخرى هى التى أريد أن أقف عندها وقفات قصيرة . ولعل أهم هذه المؤثرات التى عبثت بالأدب العربى وجعلت حظه من الهزل عظيماً : مجون الرواة وإسرافهم فى اللهو والعبث ، وانصرافهم عن أصول الدين وقواعد الأخلاق إلى ما يأباه الدين وتنكره الأخلاق »[1] .

ثم يتحدث عن حماد وخلف وأبى عمرو الشيبانى ، وبعد أن يعرض ما يروى عن مجونهم وفسقهم ووضعهم الأشعار يقول[2] : « وإذا فسدت مروءة الرواة كما فسدت مروءة حماد وخلف وأبى عمرو الشيبانى ، وإذا أحاطت بهم ظروف مختلفة تحملهم على الكذب والنحل ككسب المال والتقرب إلى الأشراف والأمراء والظهور على الخصوم والمنافسين ، ونكاية العرب — نقول : إذا فسدت مروءة هؤلاء الرواة وأحاطت بهم مثل هذه الظروف ، كان من الحق علينا ألا نقبل مطمئنين ما ينقلون إلينا من شعر القدماء . . . وهناك طائفة من الرواة غير هؤلاء ليس من شك فى أنهم كانوا يتخذون النحل فى الشعر واللغة وسيلة من وسائل الكسب . وكانوا يفعلون ذلك فى شىء من السخرية والعبث نريد بهم هؤلاء

(١) ص : ١٨٨ .
(٢) ص : ١٩١ — ١٩٢ .

الأعراب اللذين كان يرتحل إليهم فى البادية رواة الأمصار يسألونهم عن الشعر والغريب . . »

* * *

شكه فى شعر شعراء سماهم :

أما القسم الثالث من كتابه ، وهو القسم الخاص الذى يتحدث فيه عن شكه فى شعر شعراء بلوائهم ، فقد خصص للحديث له الكتاب الرابع . وقد أعاد فى هذا القسم كثيراً مما كان قد ذكره فى القسمين السابقين : فصّل بعضه وأطال شرحه ، وأوجز بعضه أو اكتفى بالإشارة إليه والتذكير به . وسنعرض فيما يلى ما ذهب إليه عرضاً موجزاً إيجازاً مركّزاً يدل على المعنى المقصود فى جملته ، وإن كان يتحيّف منه لأنه لا ينقل جوّ الحديث كما رسمه الدكتور طه بأسلوبه .

امرؤ القيس : وأول من عرض له من هؤلاء الشعراء هو امرؤ القيس . وقد شك فيه وفى شعره لأسباب ، أولها : تضارب الرواة فى اسمه وكنيته ونسبه وحياته[١] . وثانيها : أن قسماً من شعره يدور على قصة حياته يفسرها ويؤيدها ، وهو يرى أن هذا القسم موضوع نُحِل ليفسر هذه القصة[٢] . وثالثها : أن القسم الآخر من شعره المستقل عن الأهواء السياسية والحزبية موضوع منحول كذلك لأن « الضعف فيه ظاهر والاضطراب فيه بيّن ، والتكلف والإسفاف فيه يكادان يُلمسان باليد . »[٣] ورابعها : أنه يستثنى من هذا القسم الأخير قصيدتين هما :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

و : أَلَا انْعَمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالِي

ومع ذلك فهو يشك فيهما من وجوه : الوجه الأول : « أن امرأ القيس — إنْ

(١) ص : ٢١٦ — ٢١٨ .

(٢) ص : ٢٢١ .

(٣) ص : ٢٢٥ .

صحت أحاديث الرواة — يمنى ، وسمره قرشى اللغة ، لا فرق بينه وبين القرآن فى لفظه وإعرابه وما يتصل بذلك من قواعد الكلام . ونحن نعلم — كما قلمنا — أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز ، فكيف نظم الشاعر اليمنى شعره فى لغة أهل الحجاز ، بل فى لغة قريش خاصة ؟ سيقولون : نشأ امرؤ القيس فى قبائل عدنان ، وكان أبوه ملكاً على بنى أسد ، وكانت أمه من بنى تغلب ، وكان مهلهل خاله ، فليس غريباً أن يصطنع لغة عدنان ويعدل عن لغة اليمن . ولكننا نجهل هذا كله ، ولا نستطيع أن نثبته إلا من طريق هذا الشعر الذى ينسب إلى امرئ القيس ، ونحن نشك فى هذا الشعر ونصفه بأنه منحول »[١].. والوجه الثانى : أن امرأ القيس لم يذكر قصة البسوس ولم يذكر شيئاً عن خاليه مهلهل وكليب ابنى ربيعة[٢] . والوجه الثالث : أن الرواة « يختلفون اختلافاً كثيراً فى رواية القصيدة : فى ألفاظها وفى ترتيبها ، ويضعون لفظاً مكان لفظ وبيتاً مكان بيت . »[٣]

علقمة : وهو يشك فى علقمة لقلة ما يعرفه العلماء من أخباره « فلا يكاد الرواة يذكرون عنه شيئاً إلا مفاخرته لامرئ القيس ، ومدحه ملكاً من ملوك غسان ، . . . وإلا أنه كان يتردد على قريش ويناشدها شعره ، وإلا أنه مات بعد ظهور الإسلام أى فى عصر متأخر جداً بالقياس إلى امرئ القيس [٤]. . .

عبيد بن الأبرص : وشكه فى عبيد من وجهين : لأن« الرواة لا يحدثوننا عن عبيد بشىء يقبل التصديق : إنما عبيد عند الرواة والقصاص شخص من أصحاب الخوارق والكرامات ، كان صديقاً للجن والإنس معاً ، عُمِّر عمراً طويلاً[٥] » .

(١) ص : ٢٢٥ .
(٢) ص : ٢٢٦ .
(٣) ص : ٢٢٧ ..
(٤) ص : ٢٣٢ .
(٥) ص : ٢٣٢ .

وأما شعره « فليس أشد من شخصيته وضوحاً . فالرواة يحدثوننا بأنه مضطرب ضائع . . . فأما شعره الآخر الذى عارض فيه امرأ القيس وهجا فيه كندة فلا حظَّ له من الصحة فيما نعتقد ، وذلك أن فيه إسفافاً وضعفاً وسهولة فى اللفظ والأسلوب لا يمكن أن تضاف إلى شاعر قديم[١] . . . . »

عمرو بن قميئة : ويشك فى عمرو لسببين أيضاً هما : غموض حياته ، فهو يرى « أن عمرو بن قميئة ضاع كما ضاع امرؤ القيس من الذاكرة ، ولم يُعرَف من أمره شىء إلا اسمه هذا ، كما لم يعرف من أمر امرئ القيس ولا من أمر عبيد إلا اسمهما ؛ ووضعت له قصة كما وضع لكل من صاحبيه قصة ،وحمل عليه شعر كما حمل على صاحبيه الشعر أيضاً »[٢] . والثانى أن فى شعره سهولة وليناً[٣] .

مهلهل : وهو يعيد فى مهلهل ، كما أعاد فيمن قبله وسيعيد فيمن بعده ، الأسباب نفسها مع قليل من النقص أو الزيادة ، فهو يشك فى مهلهل للأسباب التالية : غموض شخصيته[٤] ، واضطراب شعره واختلاطه[٥] ، واستقامة وزن شعره ، واطراد قافيته ، وملاءمته قواعد النحو — ومع أنه أقدم شعر قالته العرب[٦] ، وسهولة لفظه ولينه وإسفافه[٧] .

عمرو بن كلثوم : ويشك فى عمرو بن كلثوم وشعره لثلاثة أسباب : كثرة الأساطير فى حياته[٨] ، ورقة لفظ شعره وسهولته وقرب فهمه[٩] ،

---

(١) ص : ٢٣٣ .
(٢) ص : ٢٣٥ .
(٣) ص : ٢٣٧ .
(٤) ص : ٢٣٩ — ٢٤٠ .
(٥) ص : ٢٤٠ .
(٦) ص : ٢٤٠ — ٢٤١ .
(٧) ص : ٢٤١ .
(٨) ص : ٢٤٣ — ٢٤٤ .
(٩) ص : ٢٤٦ .

واضطراب أبيات قصيدته (المعلقة) وتكرار بعضها[١] .

الحارث بن حلزة : حتى إذا ذكر الحارث بن حلزة لم يقدم لنا سبباً لشكه ، غير أنه يورد أبياتاً من معلقة عمرو بن كلثوم ، ويذكر أن قصيدة الحارث أمتن وأرصن[٢] . ثم يقول[٣] : « ولسنا نتردد فى أن نعيد ما قلناه من أن هاتين القصيدتين وما يشبههما مما يتصل بالخصومة بين بكر وتغلب إنما هو من آثار التنافس بين القبيلتين فى الإسلام لا فى الجاهلية » .

طرفة : ويشك فى شعر طرفة لسببين ، الأول : شذوذه عن شعراء ربيعة فى قوة متنه وشدة أسره وإغرابه حتى صار شعره « أشبه بشعر المضريين منه بشعر الربعيين[٤] » ، والثانى : اختفاء شخصيته فى القصائد الأخرى غير المعلقة أو غير أبيات من المعلقة[٥] . والغريب أنه يورد أبياتاً من المعلقة ويقول : « فى هذا الشعر شخصية بارزة قوية ، لا يستطيع من يلمحها أن يزعم أنها متكلفة أو منحولة أو مستعارة » ، ثم يقول : « ولست أدرى أهذا الشعر قد قاله طرفة أم قاله رجل آخر . وليس يعنينى أن يكون طرفة قائل هذا الشعر ، بل ليس يعنينى أن أعرف اسم صاحب هذا الشعر ، وإنما الذى يعنينى هو أن هذا الشعر صحيح لا تكلف فيه ولا نحل ! ! »

المتلمس : وهو يشك فى شعر المتلمس لما « فيه من رقة وإسفاف وابتذال »[٦] كشعر ربيعة الذى قدم الإشارة إليه ، ولأن تكلف القافية ، وخاصة فى سينيته ، ظاهر ملموس ، ثم يقول[٧] : « وأكبر الظن أن كل ما يضاف إلى المتلمس

---

(١) ص : ٢٤٥ .
(٢) ص : ٢٤٨ — ٢٤٩ .
(٣) ص : ٢٥٠ .
(٤) ص : ٢٥٢ .
(٥) ص : ٢٥٤ — ٢٥٥ .
(٦) ص : ٢٥٥ .
(٧) ص : ٢٥٥ — ٢٥٦

من شعره أو أكثره – على أقل تقدير – مصنوع ، الغرض منه تفسير طائفة من الأمثال وطائفة من الأخبار . . »

الأعشى : وهو يشك فى الأعشى للسبب نفسه الذى دعاه إلى الشك فى كثير غيره ممن قدمنا ، وذلك لتناقض الأخبار عنه ، فهو يقول[1]: « ...ولكن الرواة بعد هذا لا يعرفون من أمر الأعشى إلا طائفة من الأحاديث لا سبيل إلى الثقة بها أو الاطمئنان إليها . بعض هذه الأحاديث فيه رائحة الأساطير ، وبعضها ظاهر فيه الكذب والنحل، وبعضها يستنبط من أبيات من الشعر شائعة على هذا النحو الذى يستنبط به القدماء أخبارهم من شعر لا يعرف من أين جاء » . ثم هو يشك فى شعره بعد أن يقسمه إلى قسمين ، الأول : شعر المدح : ويرى أنه منحول عليه وأنه « مظهر من مظاهر العصبية فى الإسلام »[2] ، وأن « الكثرة من شعر الأعشى قد صنعت فى الإسلام فى الكوفة ، وكانت مظهر التحالف العصبى بين ربيعة واليمن على مضر[3] » . والثانى : شعر الغزل وهو يقول عنه[4] : « ولكنى أجد فى غزل الأعشى ليناً شديداً أعرفه فى شعر ربيعة ، وأعلله بالتكلف والنحل » . ثم يلخص رأيه فى الأعشى بقوله[5]: « إنه شاعر عاش فى آخر العصر الجاهلى ، وتصرف فى فنون من الشعر أظهرها الغزل والخمر والوصف ، ومدح طائفة من أشراف العرب ، ولكن العصبية استغلت هذا المدح ، ولعله كان قد ضاع فأضافت إليه مكانه مدحاً كثيراً لليمنيين ومدحاً قليلاً للمضريين ولا شك فى أن بين هذا الشعر الذى يضاف إلى الأعشى مقطوعات وأبياتاً يمكن أن يكون الأعشى قد قالها حقاً ، ولكن تمييز هذه الأبيات والمقطوعات مما يحيط بها من المنحول المتكلف ليس بالشىء اليسير . على أن هذا

---

(١) ص : ٢٥٧ .

(٢) ص : ٢٦٥ .

(٣) ص : ٢٦٣ .

(٤) ص : ٢٦٥ .

(٥) ص : ٢٦٧ .

المنحول الذى يضاف إلى الأعشى مختلف أشد الاختلاف ، ففيه الجيد المتقن وفيه الضعيف السخيف . . . »

الشعر المضرىّ :

كان أكثر حديثه السابق عن شعراء اليمن وربيعة ، وأما خلاصة رأيه فى الشعر المضرى فتتمثل فى قوله[1] : « نحن لا نقف من الشعر المضرى الجاهلى موقف الرفض أو الإنكار لأن الصعوبة اللغوية التى اضطرتنا إلى أن نرفض شعر الربعيين واليمنيين لا تعترضنا بالقياس إلى المضريين. فقد بينا لك غير مرة أنا نعتقد أن لغة القرشيين قد ظهرت فى الحجاز ونجد قبيل الإسلام ، وأصبحت لغة أدبية فى هذا القسم الشمالى من بلاد العرب . وإذن فليس يبعد بوجه من الوجوه أن يكون الشعراء الذين نجموا فى هذه الناحية قد قالوا الشعر فى هذه اللغة القرشية الجديدة ، بل نحن لا نشك فى هذا ولا نتردد فى القطع به . . . لسنا نشك فى أن قد كان لمضر شعر فى الجاهلية ، ولسنا نشك أيضاً فى أن هذا الشعر قديم العهد بعيد السابقة أقدم وأبعد مما يظن الرواة والمتقدمون من العلماء . ولكننا لانشك أيضاً فى أن هذا الشعر قد ذهب وضاعت كثرته ولم يبق لنا منه إلا شىء قليل جداً لا يكاد يمثل شيئاً ، وهذا المقدار القليل الذى بقى لنا من شعر مضر قد اضطرب وكثر فيه الخلط والتكلف والنحل ، حتى أصبح من العسير جداً ، إن لم يكن من المستحيل ، تلخيصه وتصفيته .

---

(١) ص : ٢٧٥ — ٢٧٦ .

مقياسه في الحكم على صحة الشعر الجاهلي :

ثم ينتقل بنا إلى الحديث عن المقياس الذى نعرف به صحة الشعر الجاهلي ، فيرى أن نقد السند وحده لا يكفي « لتصحيح ما يصل إلينا من طريقه . ولا بد لنا من أن نتجاوز هذا النقد الخارجي إلى نقد داخلى ، إن صح هذا التعبير ، إلى نقد يتناول النص الشعرى نفسه فى لفظه ومعناه ونحوه وعروضه وقافيته »[١] . ولكنه سرعان ما يستدرك ويبين أن هذا الضرب من النقد « ليس يسيراً ولا منتجاً الآن بالقياس إلى الشعر الجاهلى . فنحن لا نستطيع أن نقول فى يقين أو ترجيح علمى أن هذا النص ملائم من الوجهة اللغوية للعصر الجاهلى أو غير ملائم ، لأن لغة هذا العصر الجاهلى لم تضبط ضبطاً تاريخياً ولا علمياً صحيحاً ، وكل ما صح لنا منها صحة قاطعة ، ولكنها فى حاجة إلى التدوين ، إنما هى لغة القرآن . ولكن من ذا الذى يستطيع أن يزعم أن القرآن قد استعمل كل الألفاظ التى كانت شائعة مألوفة بين المضريين أيام النبى ؟ . . .[٢] »

ويعنينا أن نذكر رأيه فى غرابة اللفظ وكيف يتخذها بعضهم مقياساً لتحقيق الشعر الجاهلى ، ويصف هذا المذهب بأنه مذهب خداع[٣] . ويقول : « لا ينبغى أن تتخذ غرابة اللفظ دليلاً على الصحة والقدم ، ولا ينبغى أن تتخذ سهولة اللفظ دليلاً على النحل والجدة . . .[٤] »

---

(١) ص : ٢٨٦ .

(٢) ص : ٢٨٦ . ألحظ أن الدكتور فى ص : ٢٩٥ يقول : « فنحن نشترط أن يكون لفظ زهير ومعناه ملائمين ملاءمة ظاهرة للحياة البدوية آخر العصر الجاهلى . ولا ينبغى أن يعترض بما قدمنا من أننا ننكر أن تكون اللغة الجاهلية المضرية قد دونت تدويناً علمياً صحيحاً ، فنحن لا نغير رأينا فى هذا ، ولكننا مع ذلك نعرف هذه اللغة بوجه ما ، بفضل القرآن والحديث ، فنستطيع إذن أن نتصورها تصوراً ما ، ونستطيع إذن أن نقول إن هذه الألفاظ ملائمة أو غير ملائمة للغة الجاهليين أيام النبى ! ! »

(٣) ص : ٢٨٧ .

(٤) ص : ٢٩١ ، ومع ذلك فقد رأينا فيما تقدم أنه شك فى بعض الشعر لسهولة ألفاظه ويسرها وقرب فهمها !

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن « المقياس المركب » فيقول[1] : « يجب أن ننبه من الآن إلى أننا لم نوفق بعد لمقياس علمي نستطيع أن نطمئن إليه حقاً ، ولكننا مع ذلك لم نيأس من الوصول إلى مقياس أو مقاييس ، إلا تفد اليقين ، فقد تفيد الظن ، وقد تنتهي أحياناً إلى الترجيح الذى يقرب إلى اليقين . نحن لا نعتمد على اللفظ وحده ، ولا نعتمد على اللفظ والمعنى ليس غير ، وإنما نعتمد على اللفظ والمعنى وعلى أشياء أخرى فنية وتاريخية » . وهو لا يكتفى باللفظ والمعنى لأنهما وحدهما لا يمنعان « إمكان التقليد والتزييف » . أما هذه الأشياء الأخرى التى ذكرها فهى « الخصائص الفنية . وهذه الخصائص الفنية يمكن أن تُلتمس عند شاعر واحد ، عند زهير مثلا ، ويمكن أن تلتمس عند طائفة من الشعراء . . . » ثم يتحدث عن أن هذه الخصائص الفنية إذا اجتمعت لطائفة من الشعراء أصبحت هذه الطائفة « مدرسة شعرية » ثم يفصل القول فى إحدى هذه المدارس وهى المدرسة التى تتألف من : أوس بن حجر وزهير والحطيئة وكعب بن زهير .

٣

وكان لكتاب « فى الشعر الجاهلى » أثر كبير ، ودوى شديد ؛ فأشرع كثير من العلماء والأدباء أقلامهم وتناولوا الكتاب وما فيه بالنقد والنقض ، وتفاوت نقدهم واختلفت طرائقهم : فاعتدل بعضهم والتزم حدود الموضوع ، ومضوا ينقدون فى أسلوب هادئ ولفظ عفّ ، وغلا بعضهم فاشتد واشتط ، وتجاوزوا الكتاب إلى صاحب الكتاب . ونُشر أكثر ذلك فى صحف ذلك العهد ، ثم جمع بعضه فى كتب هى : كتاب « نقد كتاب الشعر الجاهلى » للأستاذ محمد فريد وجدى ، وكتاب « الشهاب الراصد » للأستاذ محمد لطفى جمعة ، وكتاب « نقض كتاب فى الشعر الجاهلى » للسيد محمد الخضر حسين ، وكتاب

---

(١) ص : ٢٩٦ — ٢٩٧ .

« محاضرات فى بيان الأخطاء العلمية التاريخية التى اشتمل عليها كتاب فى الشعر الجاهلى » للأستاذ الشيخ محمد الخضرى ، وكتاب « النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى » للأستاذ محمد أحمد الغمراوى ، وله مقدمة مفصلة بقلم الأمير شكيب أرسلان ؛ وفصول كثيرة فى كتاب « تحت راية القرآن » للأستاذ مصطفى صادق الرافعى .

وتخليص النقد الموضوعى فى كل تلك الكتب ، ثم تلخيصه ، أمران فيهما من المشقة وبذل الجهد شىء كثير . وسنحاول فى هذه الصفحات جمع ما تفرق فى تضاعيف هذه الكتب ، وترتيبه فى فصول ذات موضوع واحد أو موضوعات متقاربة يجمعها عنوان واحد .

نقد منهج الكتاب وطريقته :

١ — فقد أعلن الدكتور منهجه فى وضوح حين قال[1]: « أريد أن أصطنع فى الأدب هذا المنهج الفلسفى الذى استحدثه " ديكارت " للبحث عن حقائق الأشياء فى أول هذا العصر الحديث » . فقام بعضهم ينكر عليه فهم هذا المنهج من أساسه ، ويردّ عليه فى صفحات طويلة[2] ، فذهب إلى أن منهج ديكارت لم يكن منهج شك للشك ذاته ، وإنما يتخذ الشك وسيلة لليقين ، وأن خلاصة هذا المنهج ألا يقبل المرء أمراً على أنه حقيقة إلا إذا قامت الدلائل البينة على صحته ، وأن ديكارت مع ذلك كان يسلم بوجود أشياء لا يجادل فيها ، فهو بذلك يكون منهجاً إيجابياً لا سلبياً ، ويستشهد على كل ذلك بقول أحد دارسى تاريخ المذاهب الفلسفية من الفرنسيين[3] : « وقد آلى ديكارت على نفسه أن لا يقبل المعلومات مهما كانت صفتها وقوة الثقة الملازمة لها ، ماعدا الحقائق الخاصة

(١) فى الأدب الجاهلى : ٧٤ .
(٢) محمد لطفى جمعة ، الشهاب الراصد : ١٠ — ٢٥ .
(٣) المصدر السابق : ٢٠ .

بالعقيدة فإنه لم يطبق عليها هذه الطريقة . »

٢ ــ ولكن آخرين ردوا عليه من وجه آخر فقالوا إنه لم يلتزم المنهج الذى أعلن أنه يريد أن يصطنعه ، وهذا صاحب كتاب " فى الشعر الجاهلى " على الرغم من قبضه على منهج ديكارت ، ونعيه الاطمئنان إلى ما يقوله القدماء ، قد اطمأن فى كثير من هذا النحو الجديد من البحث إلى ما يرويه صاحب الأغانى وغيره ... »[١] ، « ولكنه بغلوه فى تحرى أسباب الاختلاق على الجاهليين التقط من كتب المحاضرات جميع ما فيها مما يتعلق بالاختلاق ، وبالعوامل التى حملت عليه ، وبالمطامع التى دفعت إليه ، ولم يسر فى ذلك على ما يقضى به عليه مذهب ديكارت من النقد والتمحيص ، بل وثق به ثقة مطلقة حملته على إصدار الأحكام جزافاً . . . »[٢] وكان من أثر ذلك أن الدكتور أورد فى كتابه أخباراً وروايات كانت جديرة أن تنال منه بعض عنايته فى الوقوف عندها ونقدها وتمحيصها وتبيين زائفها ثم ردّها ، وقد أورد ناقدوه أمثلة كثيرة على ذلك نكتفى بالإشارة إلى بعض أرقام الصفحات التى وردت فيها فى كتبهم[٣] .

٣ــ وذهب بعضهم إلى أن مؤلف الكتاب قد جافى الطريقة العلمية ، ولم يؤسس « لنظريته بالتثبت أولاً من الحقائق قبل أن يدخل فى دور الفرض ... »[٤] وأنه يبدأ بالفرض ، ثم يبنى عليه فرضاً آخر ، ثم ينتهى بالقطع والجزم والثبوت . وقدموا لذلك أمثلة كثيرة منها : أنه يورد ثلاث جمل يبرهن على الأولى منها بقوله « فليس يبعد ! » وعلى الثانية بقوله « فليس ما يمنع ! » وعلى الثالثة بقوله « فما الذى يمنع ! » ويبنى على هذه الكلمات الثلاث قوله « أمر هذه القصة إذاً واضح » !

---

(١) محمد الخضر حسين ، نقض كتاب فى الشعر الجاهلى : ١١ .

(٢) محمد فريد وجدى ، نقد كتاب الشعر الجاهلى : ٢ .

(٣) انظر مثلا : الخضر حسين : ١٩٩ – ٢٠١ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ والخضرى : ٣٨ – ٤١ .

(٤) الغمراوى : ١٤١ – ١٤٦ .

ويعقب الناقد على ذلك بقوله[١] : « نعم قد اتضح بنى البعد فى الأولى ! وعدم المانع فى الأخريين ! وما علمنا بمنطق فى العالم يكتفى فى إقامة البرهان على عدم صحة خبر من الأخبار بأنه لا يبعد ضده أو أنه لا مانع من ضده ! » . ومن ذلك أن الدكتور طه يحتج فى نفى الشعر المستشهد به على القرآن بقوله: «أليس من الممكن أن تكون قصة ابن عباس ونافع بن الأزرق قد وضعت فى تكلف وتصنع ؟ » ثم قال « بل أليس من الممكن أن تكون قصة ابن عباس هذه قد وضعت فى سذاجة وسهولة ويسر ، لا لشىء إلا لهذا الغرض التعليمى اليسير ؟ » فأجابه ناقده بقوله[٢]: « بلى ! هذا ممكن ، كما يمكن أن يكون الخبر صحيحاً ... كما يمكن أن يكون بعضه صحيحاً وبعضه غير صحيح ، كل ذلك ممكن . ولكن الذى يجب أن تجيب عنه هو : بم ترجح عندك أن الخبر مكذوب كله ؟ أهو غير معقول ؟ أم هو مخالف لطبائع التعليم ؟ . . . » ومن ذلك أيضاً أن الدكتور طه قال : « وعلى هذا النحو تستطيع أن تحمل كل ما تجد من هذه الأخبار والأشعار والأحاديث التى تضاف إلى الجاهليين والتى يظهر بينها وبين ما فى القرآن والحديث من شبه قوى أو ضعيف » . فعقب عليه الناقد بقوله[٣]: « من شاء أن ينظر إلى قاعدة تمتد إلى غير نهاية ، ولا تتصل بما يمسكها أن تزول إلا إرادة هذا المؤلف ، فلينظر إلى هذه الفقرة التى تمثل قلماً يشتهى أن يكتب فيتكس ويرمى بالحديث فى غير قياس . كل شعر أو خبر أو حديث يضاف إلى الجاهليين ويكون بينه وبين آية من القرآن شبه قوى أو ضعيف فهو مصنوع ! أليس من الجائز أن ينطق العرب بحكمة فيأتى القرآن بهذه الحكمة على وجه أبلغ وأرق ؟ أمن الحق أن ننكر أن العرب قالوا مثلا : القتل أنفى للقتل ، لمجرد شبهه بقول القرآن (ولَكُمْ فِى القِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولى الأَلْبَاب) . أوَمن الحق أن ننكر أن

---

(١) الخضرى : ٨ .

(٢) الخضرى : ٢٥ .

(٣) الخضر حسين : ٢١٢ .

زهيراً قال :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ المنَايا ينَلْنَهُ   وَلَوْ رامَ أَسْبَابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ

لأن له شبهاً قويًّا أو ضعيفاً بقول القرآن : ﴿أَيْنَما تَكُونوا يُدْرِكْكُمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فى بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ .

ومما يتصل بهذا أنه ينص على النتائج من غير ذكر للمقدمات ، فهو مثلاً يعقد فصلاً كاملاً عن « الشعوبية ونحل الشعر » ، ولكنه « لم يأت برواية تدل على أن بعض الشعوبية انتحل (نحل) شعرًا جاهليًّا[1]. » و « قال المؤلف عن الشعوبية ما شاء أن يقول ، واعترف من كتاب الأغانى قصصاً عن أبى العباس الأعمى وإسماعيل بن يسار ، وقصارى ما تدل عليه هذه القصص أن الأول كان يهجو آل الزبير ، وأن الثانى كان يبغض آل مروان ، وله شعر يفخر فيه بالأعاجم ، وزعم أنه وصل بهذا إلى ما كان يريده من تأثير الشعوبية فى انتحال (نحل) الشعر ، ولكنه لم يستطع أن يضرب لك مثلاً يريك كيف انتحلت (نحلت) الشعوبية شعراً جاهليًّا ، فضاق بمنهج ديكارت ذرعا...[2]» وكذلك الفصل الذى عقده عن « السياسة ونحل الشعر » ، فقد تحدث فيه عن الأنصار وقريش والخصومات بينهم ، فعقب عليه ناقده بقوله[3] « كل ذلك مفهوم مفروغ منه ، وليس فيه من جديد . أما الجديد الذى فاجأ به القراء فهو قوله بعد ذكر هذه العصبية : " يستطيع الكاتب فى تاريخ الأدب أن يضع سفراً مستقلاً فيما كان لهذه العصبية بين قريش والأنصار من التأثير فى شعر الفريقين الذى قالوه فى الإسلام وفى الشعر الذى انتحله الفريقان على شعرائهما فى الجاهلية."

---

(١) الخضر حسين : ٢٤٧ .
(٢) الخضر حسين : ٢٤٨ – ٢٤٩ .
(٣) الخضرى : ٣٢ .

مع أن مقدمته الطويلة لم يوجد بها كلمة واحدة تتصل بأن فريقاً من الفريقين اختلق شعراً ونسبه إلى شعرائه فى الجاهلية ، وإنما الأحاديث كلها فى الشعراء الذين كانوا فى أول العهد الإسلامى يتقارضون الشعر ، وفى العهد الذى يلى ذلك » .

٤ — ومن جملة ما أخذوه به التناقضُ الذى وقع فيه . فهو يقول : « وهذا البحث ينتهى بنا إلى أن أكثر هذا الشعر الذى يضاف لامرئ القيس ليس من امرئ القيس فى شىء ، وإنما هو محمول عليه ومختلق عليه اختلاقاً . » فيعقب ناقده بقوله [١] « ذهب المؤلف فى بعض الصحف من كتابه إلى أن هذا الشعر الذى ينسب إلى امرئ القيس لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون له . ومقتضى تمسكه بأن امرأ القيس يمنى مولداً ونشأة ، وأن لغة قحطان نازلة من لغة عدنان منزلة اللغات غير العربية ، أن يكون جميع هذا الشعر الذى يضاف إلى امرئ القيس منحولاً ، فإنا لم نجد شيئاً منه على غير اللغة التى ينظم فيها شعراء نجد والحجاز . ولكن المؤلف يقول فى هذه الصفحة : إن البحث ينتهى به إلى أن أكثر هذا الشعر ليس من امرئ القيس فى شىء . ومعنى هذا أن فى الشعر المضاف إلى امرئ القيس شعراً هو منه فى شىء ، وأظن أن المؤلف سيجد كثيراً من المشقة والعناء ليحل هذه المشكلة .. » وقال الدكتور طه أيضاً: « ولا سيما إذا صحت النظرية التى أشرنا إليها آنفاً وهى نظرية العزلة العربية ، وثبت أن العرب كانوا متقاطعين متنابذين ، وأنه لم يكن بينهم من أسباب المواصلات المادية والمعنوية ما يمكن من توحيد اللهجة» . فتعقبه الناقد بقوله[٢] : « أتدرى ما هى نظرية العزلة التى أشار إليها آنفاً ؟ هى تلك النظرية التى رماها على أكتاف " الذين تعودوا أن يعتمدوا على هذا الشعر الجاهلى فى درس الحياة العربية قبل الإسلام " ، وشن عليها الغارة بنكير لا هوادة فيه . . . أنكر المؤلف نظرية

---

(١) الخضر حسين : ٣٠٦ .

(٢) الخضر حسين : ٩٩ — ١٠٠ ، وانظر أيضاً الغمراوى : ١٩٤ .

العزلة العربية حين رآها تعترض ما أراده من أن للجاهليين اتصالاً بالعالم الخارجي، وودّ في هذا الفصل أن تستقيم له لأنها تؤيد نظرية عدم التقارب بين لغات القبائل العربية ». وقال الدكتور طه أيضاً إنه يستثنى من النحل قصيدتين لعلقمة مع شيء من التحفظ ثم يقول: «وصحة هاتين القصيدتين لا تمس رأينا في الشعر الجاهلي » فيعقب عليه ناقده بقوله[1]: « ولعله نسي — وأمثاله لا ينسون كثيراً — ما كتبه تحت عنوان الشعر الجاهلي واللهجات حين قال " ومن المعقول جداً أن تكون لكل قبيلة من هذه القبائل العدنانية لغتها ولهجتها ومذهبها في الكلام ، وأن يظهر اختلاف اللغات وتباين اللهجات في شعر هذه القبائل الذى قيل قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة ولهجات متقاربة" . ومن المعروف أن علقمة من بني تميم ، والقصيدتان اللتان استثناهما ورضى بقبولهما لا تخرجان عن هذه اللغة الأدبية التي يسميها لغة قريش ، فقبوله لهاتين القصيدتين ينقض أساس ذلك الفصل . . . »

ومن ذلك أيضاً قول الناقد إن الدكتور طه قد[2] «نبهه النقد منذ أكثر من عام إلى أن ثبوت اختلاف لغة الجنوب عن لغة الشمال ، لو ثبت أنهما كانتا مختلفتين في العصر الجاهلي القريب ، لا يصلح دليلاً على أن أدب يمانية الشمال موضوع ، لأن قبائل اليمن في الشمال كانت هاجرت من الجنوب إلى الشمال منذ أمد بعيد، فلم يكن هناك بد لمن نشأ في الشمال من ذرياتها أن ينشأ على لغة الشمال ، ويتخذها لغة أدب ولغة خطاب ، فجاء صاحب الكتاب هذا العام يجيب على هذا بلهجة المستوثق مما يقول ، فهل تدرى بماذا أجاب ؟ أجاب بأن هجرة فريق من عرب اليمن إلى الشمال غير ثابتة ! وأن صحة يمانية من انتسب إلى اليمن من قبائل الشمال غير ثابتة ! وإذن يسقط ذلك الاعتراض ! إن من المؤلم حقاً أن يلجّ الأستاذ في المماراة إلى هذا الحد . فلا يدرك أن جوابه هذا مسقطٌ كلّ ما قال ، وأنه إذا صح أن التاريخ القديم والتاريخ الحديث أجمعا على خطأ فلم تكن هجرة ،

(١) الخضر حسين : ٣٢٣ .

(٢) الغمراوى : ١٨٨ .

ولم يكن فى الشمال يمانيون — لم يكن هناك أدنى شبهة لغوية يمكن أن يعترض بها على صحة كلام مثل امرئ القيس ؛ إذ يصير امرؤ القيس ومن معه بذلك مضربين ، ويصير من السخف أن يقال بعد ذلك إن كلامهم وشعرهم منحول لأن لغته ليست لغة نقوش حميرية اكتشفت فى الجنوب ، حتى ولو كانت لغة النقوش تمثل لغة اليمن فى عصر امرىء القيس — لكن صاحب الكتاب يدافع عن باطل...» وحسبنا ما قدمنا من أمثلة التناقض ، وتجد طائفة أخرى منها اكتفينا بالإشارة إلى أرقام صفحات الكتب التى تشير إليها فى الهامش[1] .

٥ — وأمر آخر يتصل بمجافاة الطريقة العلمية ، وهو إيراد النصوص على وجه يختلف عما كانت عليه فى حقيقتها ، والاستدلال بها على ما لا تدلّ عليه فى أصلها لو أوردت كاملة . ومن أمثلة ذلك أن الدكتور طه يقول : « فأما خَلَفٌ فكلام الناس فى كذبه كثير ، وابن سلام ينبئنا بأنه كان أفرس الناس ببيت شعر . . » فالدكتور طه يريد أن يتخذ من كلام ابن سلام حجة على كذب خلف ، ويريد أن يوجّه قوله « أفرس الناس ببيت شعر » توجيهاً يوحى بأنه لتمكنه وقدرته ومهارته كان قادراً على نحل الشعر ووضعه . ولكن ابن سَلام لم يردْ إلى هذا بل أراد نقيضه ! ونصه بكامله هو : « أجمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر ، وأصدقه لساناً ، كنا لا نبالى إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً ألا نسمعه من صاحبه » . وأى توثيق لخلف أوثق من هذا ؟[2] . ومن ذلك أيضاً أن الدكتور يذكر أن أبا عمرو بن العلاء قال : « ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا » ولكن نص ابن ســلام هو « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا » فحذف الدكتور قوله « وأقاصى اليمن » ، ثم غير قوله « ولا عربيتهم بعربيتنا » فجعله « ولا لغتهم بلغتنا » والفرق بين ما أورد

---

(١) انظر مثلا : الخضر حسين : ١٩ — ٢٠ و ٢٦٣ و ٣١٥ و ٣٤٦ و ٣٥٢ — ٣٥٦ ؛ والخضرى : ٨٤ ؛ والغمراوى : ٣٠٠ ، ٣١٣ .

(٢) انظر لذلك الخضر حسين : ٢٧٢ .

الدكتور وبين النص الحقيق فرق كبير له دلالته التي بيَّنها ناقده[١] .

ومن ذلك أيضاً أن الدكتور طه يورد شعراً ثم يقول عنه : « والعجب أن أصحاب الرواية مقتنعون بأن هذا الكلام من شعر الجن ، وهم يتحدثون في شيء من الإنكار والسخرية بأن الناس قد أضافوا هذا الشعر إلى الشماخ بن ضرار » . وقد أورد أحد ناقديه الروايات التي ذكرت هذا الشعر[٢] ، فلم يكن فيها إنكار ولا سخرية ، بل نسبته كلها إلى الشماخ أو إلى أخيه مزرد ، ما عدا خبراً واحداً ذكر أن عائشة حينما سمعت الشعر قالت : « فكنا نتحدث أنه من الجن . . . » . وفي آخر الخبر نفسه أن عائشة سألت : من صاحب هذه الأبيات ؟ فقالوا : مزرد بن ضرار ، ولكن مزرداً بعد ذلك أنكر أنها له ! والدكتور طه يكتفي أحياناً بذكر رواية واحدة من روايات متعددة ، فقد أورد قصة فيها نحل الشعر ، وفيها تجريح لأحد رواته ، فعقب عليه ناقده بذكر روايات أخرى تنقضها[٣] ، ثم يقول : « أفلا ترى بعد ذلك أن الدكتور اتبع الهوى ، فبادر إلى تصديق حكاية ضعيفة من غير أن يؤيدها ما يقويها ، وذكرها وحدها دون أن يذكر الروايات الأخرى إرادة أن يخدع عقول القراء ، فيفهموا أن هذه هي الرواية ، فيتبعوه فيما يريد أن يثبته من تجريح الناس وإشاعة السوء فيهم ؟ ألا يدعونا ذلك إلى القول بأنه متعصب لرأي معين يصطاد له من الأقوال ما يؤيده ، تاركاً التحقيق العلمي الذي يوصل إلى الحق أينما كان ؟ »

٦ — ومما أخذه به ناقدوه أيضاً أن الدكتور طه « أغار على كتب عربية وأخرى غربية فالتقط منها آراء وأقوالاً ، نظمها في خيط من الشك والتخيل[٤] » . « وأن مؤلف الشعر الجاهلي على الرغم من تعظيمه قدر بحثه بوصفه بالحداثة والطرافة

---

(١) النمراوي : ١٨٠ .
(٢) الخضري : ٣٦ — ٣٧ .
(٣) الخضري : ٤١ .
(٤) الخضر حسين : ٣ — ٤ .

والابتداع فإنه لم يبرز فكرة جديدة لامعة ، بل لم يُعنَ بالبحث عناية الذين ألموا به من القدماء والمحدثين ، بل أخذ بعض أفكارهم وابتكاراتهم ولم يعرها رونقاً ولا جزالة ، وجرّد من نظريتهم رسالته»[1]. وقد سعى بعض ناقديه إلى الكشف عما أخذه الدكتور من مرجوليوث خاصة ، فوجدوه شيئاً كثيراً[2] ؛ حتى لقد ذهب بعضهم إلى أن الدكتور طه[3] «أغار على نظرية الشك فى الشعر الجاهلى ، ولم يفترق عن مرجوليوث إلا فى تسليمه بأن هناك شعراً جاهلياً ، فأخذ أصل النظرية وأقوى الشبه التى استند إليها مرجوليوث ، وجعل يقول لك : إننى شككت فى الشعر الجاهلى ، ويداعبك بقوله : ألححت فى الشك أو قل ألح علىّ الشك ؛ والحديث فى صدق وأمانة خير من هذه المداعبة » . وقال ناقد آخر[4] : « لقد كتب صاحب الكتاب بحثه ليثبت دعوى جديدة ينسبها هو لنفسه وتنتسب فى الحقيقة لمرجوليوث» . ولا سبيل إلى الإطالة بإيراد ما ذكروه ، ولا بعضه ، فقد بسطنا رأى مرجوليوث وبسطنا رأى الدكتور طه حسين ، ثم أشرنا فى هامش هذه الصفحة إلى المواطن التى ذكر فيها الناقدون ما رأوا أن الدكتور أخذه من مرجوليوث ؛ ومن كل ذلك نستطيع أن نستبين أثر مرجوليوث فى كتاب الدكتور طه حسين وخاصة فى نقطتين أساسيتين لعلهما عماد بحث الدكتور ، هما : الدليل الدينى ، والدليل اللغوى !

* * *

نقد الأدلة :

وبعد أن عرضنا ، فى إيجاز شديد ، ما أخذه الناقدون على منهج الدكتور وطريقته ، نعرض فى إيجاز ، لعله أشد من سابقه ، ما نقدوا به أدلته وحججه .

---

(١) محمد لطفى جمعة : ٢٦ .
(٢) انظر الخضر حسين : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٤٧ ، ٧٠ ، ١٠٠ ، ١١٥ ، ١٧٤ — ١٧٧ ، ٢١٢ — ٢١٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٣٦١ ؛ والغمراوى : ١٠٠ .
(٣) الخضر حسين : ١٧ — ١٨ .
(٤) الغمراوى : ١٠٠ .

١ ــ فقد ذكر الدكتور طه ، كما مر بنا ، أن الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا لا يمثل الحياة الدينية في الجاهلية ، وأن القرآن ، وهو عنده مرآة الحياة الجاهلية ، يمثل العرب في الجاهلية أمة متدينة قوية التدين . فرد عليه السيد محمد الخضر حسين ، وبيَّن أن « هذه الشبهة مما استلبه المؤلف من مقال مرجوليوث »[١]. ثم أورد ما جاء في مقال مرجوليوث وما جاء في كتاب الدكتور طه ليظهر مابينهما من تشابه ، وبعد أن عرض لرد إدورد براونلش على مرجوليوث ، قال[٢]: « وخلاصة الجواب أن معظم شعر العرب كان في الفخر والحماسة وأن المسلمين صرفوا عنايتهم عن رواية الشعر الذي يمثل ديناً غير الإسلام ولا سيما دين اللات والعزى ، وعلى الرغم من هذا كله وصلت إلينا بقية من الشعر الذي يحمل شيئاً من الروح الديني ، تجده في كتاب الأصنام لابن الكلبي وغيره » . وأما الأستاذ محمد لطفي جمعة فقد وجد أن خير رد على الدكتور طه أن يجمع بعض الشعر الجاهلي الذي يشير إلى الحياة الدينية في الجاهلية ، فجمع طرفاً منه ، لشعراء متعددين[٣] ، ثم قال[٤]: « من العجيب أن المؤلف يدعي أن الشعر الجاهلي كله عجز عن تصوير الحياة الدينية ، وهو لم يتقدم إلينا بدليل ولم يستقرئ دواوين الشعر الجاهلي » . وأما الأستاذ الغمراوي فينكر أن القرآن يصور العرب في الجاهلية أمة متدينة قوية التدين ، ويرى أن هذا « لا ينطبق إلا على أهل مكة والمدينة ومن حولهما ، ولا ينطبق على من حولهما مثل ما ينطبق عليهما . ومكة والمدينة وما حولهما ليست هي كل بلاد العرب ، وأهل مكة والمدينة ومن جاورهم لم يكونوا جملة العرب ولا جمهرتهم ، فمن الخطأ الواضح إذن أن يجعل الدكتور ما ينطبق عليهم ينطبق على جميع العرب ، وأن يستند في ذلك على القرآن[٥] . »

---

(١) ص : ٤٧ .
(٢) ص : ٤٨ .
(٣) الشهاب الراصد : ٨٥ — ٩٢ .
(٤) المصدر السابق : ٩٠ .
(٥) ص : ١٤٧ — ١٤٨ .

٢ ـ وذكر الدكتور طه أيضاً أن الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة العقلية في الجاهلية ، ومضى يصف هذه الحياة العقلية كما رآها في القرآن الكريم ، فالقرآن الكريم « يمثل حياة عقلية قوية ، يمثل قدرة على الجدال والخصام أنفق القرآن في جهادها حظاً عظيماً . . . أفتظن قوماً يجادلون في هذه الأشياء جدالاً يصفه القرآن بالقوة ويشهد لأصحابه بالمهارة ، أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغباوة والغلظة والخشونة بحيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذى يضاف إلى الجاهليين . . . » وقد رد عليه السيد محمد الخضر حسين بقوله[١] : « في الشعر الجاهلي معان سامية وحكمة صادقة ، ومن يقرؤه خالي الذهن من كل ما قيل فيه يقضي العجب من ذكاء منشئيه وسعة خيالهم ، وإقصائهم النظر في تأليف المعاني والتصرف في فنون الكلام . . . » وأما الأستاذ الغمراوي فينكر أيضاً أن يكون القرآن يمثل العرب في الجاهلية أمة مستنيرة لها حياة عقلية قوية ، وبعد أن يتحدث في ذلك يقول[٢] « فأما الحظ الذى أنفقه القرآن في الجهاد بالحجة فعظيم . لكن عظمه لم يكن ناشئاً عن عظم قدرة على الجدال كانت عند المجادلين ، ولا عن حسن بصرهم بمواطن الحجة ، بل كان ناشئاً عن عظم رسوخ ما كان يجاهده القرآن فيهم من اعتقادات وعادات تأصلت فيهم على مر القرون ، فالقرآن أنفق ذلك الحظ العظيم في جهاد العادة لا في جهاد مقدرة على المخاصمة . . . وإنك لو استقريت مواقف المحاجة التى وردت في القرآن لا تكاد تجد فيها موقفاً قابل المجادلون الحجة فيه بالحجة وقارعوا الدليل بالدليل : . . » ويرى أيضاً أن الدكتور طه « استشهد على ما يريد بآيتين اثنتين ليس فيهما شاهد على ما يريد ، وأنه قد ترك كثيراً من الآيات التى تنقض معناه الذى أراد . . .[٣] »

٣ ـ وذكر الدكتور طه أيضاً أن الشعر الجاهلي يمثل العرب أمة معتزلة

---

(١) ص : ٥١ .
(٢) ص : ١٤٨ .
(٣) ص : ١٥٢ .

تعيش فى صحرائها ، لا تعرف العالم الخارجى ، ولا يعرفها العالم الخارجى ، أماالقرآن فيصف عناية العرب بسياسة الفرس والروم وصلاتهم بغيرهم من الأمم . وقد رد عليه السيد محمد الخضر حسين بقوله[1] : « وهل يصدق أحد أن من يدرسون الشعر الجاهلى يتصورون العرب أمة معتزلة فى صحراء . . . » ثم يورد شعراً جاهلياً فيه دلالات على معرفة العرب بالأمم المجاورة وعلى صلاتهم بهم . أما الأستاذ الغمراوى فقد ذكر أن الدكتور طه « لم يستشهد على ذلك إلا بآيتين اثنتين جرى فى تأويلهما على ذلك النحو الذى رأيت . . »[2] بل إنه يرى أنه ليس فى إحدى الآيتين « المعنى الذى أراد ولا ظله » . وقد عجب من أن الدكتور يذهب إلى « أن الأدب الجاهلى على ما هو عليه الآن لا يبين صلة العرب بالعالم الخارجى ، وأن القرآن وحده هو الذى يبينها »[3] ، مع أنه لم يستقرئ الأدب الجاهلى ولم يوازن بين ما فيه وما فى القرآن .

٤ — وذكر الدكتور أيضاً أن الشعر الجاهلى لا يمثل الحياة الاقتصادية الخارجية والداخلية لعرب الجاهلية ، وأن فى القرآن وصفاً لهما يصورهما فيه . وقد ردَّ عليه السيد محمد الخضر حسين بأنه استشهد على الحياة الاقتصادية الخارجية بآية واحدة ليس فيها إلا إشارة موجزة ، وأن فى الشعر الجاهلى تفصيلاً لهذه الإشارة[4] . وأورد الأستاذ محمد لطفى جمعة من الشعر الجاهلى ما يرى فيه تصويراً لحياة العرب الاقتصادية الداخلية فى الجاهلية[5] . أما الأستاذ الغمراوى فيرى أن « الحق أن الأدب الجاهلى لم يخلُ من هذا . والعجب أن يجهل أستاذ الأدب العربى شيئاً مثل هذا ، فلو أنه قرأ القليل المكتوب عن ابن الزبعرى فى طبقات ابن سلام

---

(١) ص : ٥٧ .
(٢) ص : ١٥٢ .
(٣) ص : ١٥٣ .
(٤) ص : ٦٢ — ٦٣ .
(٥) ص : ٧٦ .

لوجد فيه ما لا يقل فى دلالته الاقتصادية عن آية لإيلاف قريش[١] . . . هذا موضع واحد من الأدب الجاهلى . ولسنا نشك فى وجود مواضع أخرى تدل على ما كان هنالك فى الجاهلية من اتصال تجارى محدود بين أطراف جزيرة العرب ووسطها[٢] . . . وكما لم يُلمّ صاحب الكتاب بمواطن الأدب الجاهلى التى تدل على الحياة الاقتصادية الخارجية كما يحب أن يسميها ، كذلك لم يلم بمواطن الأدب الجاهلى التى تدل على ما يسميه الحياة الاقتصادية الداخلية . . وكما تكلف واستنتج الحياة الخارجية كلها من آية واحدة فى القرآن ، فقد تكلف واستنتج الحياة الاقتصادية الداخلية من تحريم القرآن الربا وفرضه الصدقات[٣] . أما عن زعمه أن الأدب الجاهلى كله لم يذكر الربا فنحن على ثقة من أنه هنا أيضاً لم يستعرض الأدب الجاهلى كله فيحكم عليه من هذه الناحية حكماً مبنياً على الواقع . ومع ذلك فمثل هذه النواحى إذا ذكرت فى الأدب لا تذكر إلا عرضاً ، لأن التجارة وما اتصل بها من رباً أو غيره ليست من الأمور التى تسمو حتى تصير فى متناول الشعر والنثر الأدبى فى عصرنا هذا فضلاً عن العصر الجاهلى[٤] . فإذا كان الأدب الجاهلى قد خلا حقّاً من ذكر الربا فلن يكون فى ذلك دليل على أن الأدب الجاهلى موضوع[٥] . . . »

٥ — الدليل اللغوى : وقد أفاض الناقدون فى نقد هذا الدليل ونقضه ، وذلك لأنه ، لو صح ، لكان أقوى الحجج التى ساقها المؤلف وأدلها على ما يريد أن يصل إليه . فالسيد محمد الخضر حسين يرى أن الدكتور طه قد أخذ هذا الدليل من مرجوليوث ، فأورد بعض كلام الدكتور وما يقابله من كلام مرجوليوث فى مقالته التى بسطنا فيها القول . وليس من سبيل إلى ذكر جميع ما رد به السيد محمد الخضر

---

(١) ص : ١٥٤ .
(٢) ص : ١٥٥ .
(٣) ص : ١٥٦ .
(٤) ص : ١٥٧ .
(٥) ص : ١٥٨ .

حسين ، فقد فصل القول في رده تفصيلاً"(١) ، وحسبنا أن نشير إلى بعضه ، قال(٢) وأخذ المؤلف يذكر الشاهد الأقوى على اصطناع الشعر الجاهلي ، وهو أن اللغة القحطانية غير اللغة العدنانية ، والشعر المنسوب إلى بعض شعراء اليمن لا يختلف عن شعر العدنانية ، وهذا مما استشهد به مرجوليوث قبله . . . لا ننازع فيما دلت عليه الآثار المخطوطة من أن اللغة القحطانية كانت كلغة أجنبية عن العدنانية ، كما أن مرجوليوث والمؤلف لا ينازعان في أن اللغتين اشتد الاتصال بينهما بعد ظهور الإسلام وأصبحتا كلغة واحدة . والذى نراه قابلاً" لأن يكون موضع جدال بيننا وبين مرجوليوث والمؤلف هو حال الاختلاف بين اللغتين في عهد يتقدم ظهور الإسلام بعشرات من السنين ، فنحن لا نرى ما يقف أمامنا إذا قلنا : إن الاختلاف بين اللغتين قد خف لذلك العهد وزال منه جانب من الفوارق ولم تبق القحطانية من العدنانية بمكان بعيد . والذى جعل اعتقادنا يدنو من هذه النظرية . . . أن قبول اللغة القحطانية لأن تتحد مع اللغة العدنانية بعد ظهور الإسلام لا يكون إلا عن تقارب وتشابه هيأهما لأن يكونا لغة واحدة ، فإن انقلاب لغة إلى أخرى تخالفها في مفرداتها وقواعد نحوها وصرفها ليس بالأمر الميسور حتى يمكن حصوله في عشرات قليلة من السنين » . ثم يرى أن العثور على نقوش باللغة الحميرية يرجع تاريخها إلى المائة الخامسة والسادسة للميلاد لا ينقض هذا الرأى ، وذلك لأن التقارب بين اللغتين لم تبدأ به القبائل القحطانية والعدنانية في وقت واحد ، بل سبقت إليه القبائل المجاورة للعدنانية ثم أخذ يتدرج فيما وراءها من القبائل . . . فالوقوف على أثر مخطوط قبل الإسلام بنحو مائة سنة أو ما دونها إنما يدل على أن سكان الناحية التي انطوت على هذا الأثر لم يزالوا على لسان حمير القديم ، وهذا لا ينفى

---

(١) انظر ص : ٧٠ — ٧٥ ، ٩٠ ، ٩١ — ٩٤ ، ١٠٠ ، ١٠٣ — ١٠٤ ، ٣٠ — ٣٠٥ ، ٣٦١ — ٣٦٢ .

(٢) ص : ٧٠ — ٧١ .

أن يكون غيرها من القبائل القحطانية قد ارتاضت ألسنتهم بلغة تشبه اللغةالعدنانية. ومن الممكن القريب أيضاً أن يكون أهل المكان الذى عثر فيه على هذه المخطوطات الأثرية ينطقون باللغة القريبة من اللغة العدنانية ، ولكنهم استمروا فى الكتابة على لغتهم التى كانت اللسان الرسمى لسياستهم أو ديانتهم ، وقد حكى التاريخ لهذا الوجه نظائر . . . »[1] ، وبعد أن يسرد هذه النظائر يستدل على تقارب اللغتين بما يروى فى السيرة من خطب الوافدين من أهل اليمن على الرسول صلى الله عليه وسلم ، « ولو كانت اللغتان مختلفتين فى المفردات وقواعد النحو والصرف لم يسهل على العدنانى أو القحطانى فهم لغة الآخر إلا أن يأخذها بتعلم أو مخالطة غير قليلة »[2] . ثم يتطرق إلى عبارة أبى عمرو بن العلاء التى أوردها الدكتور طه ، وأصلها « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »، فقال إن الدكتور مس هذه العبارة «بالتحريف مسًّا رفيقاً » و« حوّل قوله : ولا عربيتهم بعربيتنا ، إلى قوله : وما لغتهم بلغتنا ، لقصد المبالغة فى الفصل بين اللغتين وليصرف ذهن القارىء عن أن يفهم من قول أبى عمرو : ولا عربيتهم بعربيتنا ، أن تلك اللغة عربية وإنما تختلف عن العدنانية اختلافاً يسوغ له أن يقول : وما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا . ومس المؤلف عبارة أبى عمرو بالتحريف مرة أخرى ، فقد حذف قوله : وأقاصى اليمن ، حتى لا يأخذ منها القراء أن لغة غير الأقاصى ، وهى القبائل المجاورة للقبائل المضرية ، ليس بين عربيتها وعربية مضر هذا الاختلاف[3] » . «هذا شأن الاختلاف بين اللغتين ، أما تشابه الشعر القحطانى والعدنانى فله سبيل غير هذا السبيل ، والرأى الذى يوافق إجماع الروايات ويؤيده النظر ولا يعترضه البحث الحديث أن الشعراء فى جنوب الجزيرة

---

(١) ص : ٧١ – ٧٢ .
(٢) ص : ٧٣ .
(٣) ص : ٧٣ – ٧٤ .

وشمالها أصبحوا من قبل الإسلام ينظمون الشعر بلهجة واحدة أو متقاربة »[١] . ثم يمضي في بيان رأيه هذا وتفصيله . ثم يرد على هذا الدليل من جانب آخر ، قال[٢] : « ومما يتعذر قبوله أيضاً أن يضع غير اليمانيين أشعاراً في لهجة قرشية ويعزوها إلى القدماء من شعراء اليمن دون أن يجدوا من اليمنيين أو ممن يعرف لهجة شعراء اليمنيين من ينكر صنيعهم ، ويناضلهم بحجة أن هذا الشعر غير منطبق على لهجة أولئك الشعراء » .

ثم رد عليه حديثه عن أن لهجات القبائل العدنانية نفسها ، وهي مختلفة ، غير ظاهرة في هذا الشعر الجاهلي ، فقال[٣]: « هذه الشبهة علقت بذهن المؤلف فيما علق من مقال مرجوليوث ، وهي مطرودة بنظرية وجود لغة أدبية يحتذيها الشعراء على اختلاف قبائلهم منذ عهد الجاهلية » .

وأما الأستاذ محمد لطفي جمعة فيقول[٤]: « اعتمد المؤلف على أقوال الرواة ثم يؤكد لنا أن الرواة يضيفون شيئاً كثيراً من الشعر الجاهلي إلى قوم ينتسبون إلى عرب اليمن . . . ويؤيد مخالفة اللغة القحطانية للغة العرب برواية أحد الرواة وهو أبو عمرو بن العلاء ، فكأن الرواة الذين كانوا يعلمون اختلاف اللغتين من أقدم الأزمنة رووا ، على الرغم من علمهم هذا ، شعراً كثيراً بالعربية العدنانية وحملوه على شعراء اليمن . . . وهذا الكلام ظاهر البطلان ، والتلفيق فيه لا يحتاج إلى برهان ، لأن الراوية الذي يعرف اختلاف الأمتين واختلاف اللغتين إذا أراد الوضع والاختلاق لا يقع في مثل هذا الخطأ المفضوح سيما وأن المؤلف قال في ص ١٢٠ عن حماد الراوية : أما حماد فرجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ويدخله في شعره . . .

---

(١) ص : ٩٢ .
(٢) ص : ٩٤ .
(٣) ص : ١٠٠ .
(٤) ص : ١٣٦ - ١٣٧ .

أيعقل أن راوية كحماد العالم باللغات والمعانى والمذاهب يخطئ مثل هذا الخطأ؟» ثم يقول[١]: «وكيف يثبت لنا المؤلف أن أبا عمرو بن العلاء أراد اختلاف اللغتين فى زمن الجاهلية ، وقد عجز المؤلف عن تحديد زمن هذا الاختلاف لعلمه بجواز تطبيق هذا القول على زمن الراوية أبى عمرو نفسه، فقد قصد بذلك أن اللهجة العربية الحميرية التى كانت شائعة فى زمنه فى بقايا حمير فى بلاد اليمن تخالف اللهجة العربية الفصحى . . . وحينئذ يفلت هذا الدليل من يد مؤلف الشعر الجاهلى » . وبعد أن يتحدث المؤلف عن « اللغة الأدبية » التى كان ينظم بها شعراء الجاهلية أورد أبياتاً من الشعر الجاهلى ما تزال تظهر فيها بقايا من اختلاف اللهجات العدنانية[٢] .

وأما الأستاذ الشيخ الخضرى فبعد أن تحدث عن هذا الموضوع وأورد أدلة الدكتور وأشار إلى تحريفه فى النص الذى ذكره أبو عمرو بن العلاء قال[٣]: « وأكثر الشعر اليمانى إنما هو لشعراء من سبأ كانوا بالشمال ، إما بالمدينة وإما بالعراق ، وإما بالصحراء الشمالية وإما بالشام ، أو لعرب عدنانيين . . . فالأستاذ يرى بعد ذلك أنه إذا سلمت مقدمته بأنه كان هناك خلاف بين لغة حمير ولغة عدنان ، فإن ذلك لا ينتج شيئاً ، لأن العربية القديمة عربية حمير لم يؤثر شىء من شعرها ، وابن سلام فى الطبقات إنما ساق عبارة أبى عمرو فى هذا الصدد وهو نفى أن يكون هناك شعر تصح نسبته إلى عاد وثمود . . » ، ثم يقول عن اختلاف اللهجات[٤]: « لا ندرى كيف يظهر فى الشعر تباين اللهجات ؟ فإن اللهجة كما قدمنا إنما هى ما يرجع إلى الأداء ، والشىء الواحد قد يؤدَّى بلهجات مختلفة ، وهو هو فى حركاته وسكناته ، كما اختلف الأداء فى القرآن نفسه ،

(١) ص : ١٣٩ .
(٢) ص : ١٥٤ — ١٥٧ .
(٣) ص : ١٠ — ١١ .
(٤) ص : ١٥ .

والقرآن هو هو ». «لا ندرى كيف يكون اختلاف اللهجات مؤثراً فى الشعر، فى أوزانه وتقاطيعه وبحوره وقوافيه بوجه عام؟ ... لا أفهم تأثير الإمالة والتفخيم فى بحر الشعر وقافيته. فإن مفخمَّ الألف ينشد "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل" بألف مفخمة كما ينشدها المميل بألف ممالة، فلا يتغير فى البيت حركة ولا سكون، وهما اللذان تبنى عليهما تفاعيل الشعر. وكما لا يتغير شىء من ذلك بالإمالة والتفخيم لا يتغير بالإدغام والإظهار ...[1]»

وأما الأستاذ الغمراوى فيتحدث عن هذا الموضوع فى صفحات متفرقة من كتابه[2]، وقد عرض لذكر بعض ما قدمناه ثم قال[3]: إن الدكتور طه قد «نبه النقد منذ أكثر من عام إلى أن ثبوت اختلاف لغة الجنوب عن لغة الشمال، لو ثبت أنهما كانتا مختلفتين فى العصر الجاهلى القريب، لا يصلح دليلاً على أن أدب يمانية الشمال موضوع لأن قبائل اليمن فى الشمال كانت هاجرت من الجنوب إلى الشمال منذ أمد بعيد فلم يكن هناك بد لمن نشأ فى الشمال من ذرياتها أن ينشأ على لغة الشمال ويتخذها لغة أدب ولغة خطاب. فجاء صاحب الكتاب هذا العام يجيب على هذا بلهجة المستوثق مما يقول،فهل تدرى بماذا أجاب؟ أجاب بأن هجرة فريق من عرب اليمن إلى الشمال غير ثابتة! وأن صحة يمانية من انتسب إلى اليمن من قبائل الشمال غير ثابتة! وإذن يسقط ذلك الاعتراض! إن من المؤلم حقًّا أن يلجّ الأستاذ فى المماراة إلى هذا الحد، وينزل به اللجاج إلى هذا الدرك، فلا يدرك أن جوابه هذا مسقط كل ما قال، وأنه إذا صح أن التاريخ القديم والتاريخ الحديث أجمعا على خطأ، فلم تكن هجرة ولم يكن فى الشمال يمانيون، لم يكن هناك أدنى شبهة لغوية يمكن أن يُعترض بها على صحة كلام مثل امرئ القيس. إذ يصير امرؤ القيس ومن معه بذلك مضريين،

---

(١) ص: ١٨.

(٢) ص: ١٦٢ – ١٦٣، ١٦٦، ١٧٠ – ١٧١، ١٧٤، ١٨٨.

(٣) ص: ١٨٨.

ويصير من السخف أن يقال بعد ذلك إن كلامهم وشعرهم منحول لأن لغته ليست لغة نقوش حميرية اكتشفت فى الجنوب . . . »

ويتحدث الأستاذ الغمراوى حديثاً مفصلاً عن اللهجات، جاء فيه أن الدكتور طه حسين ذكر فى الطبعة الثانية من كتابه « أن اللغة الفصحى الموجودة فى القرآن والحديث لغة قريش ، فإذا اعترض القارئ بأن هذه اللغة قد كانت تُفهم فى غير قريش فى قبائل الحجاز ونجد ، كقيس وتميم المضريتين ، والأوس والخزرج اليمنيتين ، وقبائل اليهود فى شمال الحجاز ، كان جواب صاحب الكتاب أنك قد عرفت رأيه " فى النسب وانتهاء هذه القبائل إلى اليمن أو إلى مضر "! يشير إلى رأيه الذى أورده فى فصل الأدب الجاهلى واللغة . وغفل هنا كما غفل هناك عن أن إنكاره نسبة تلك القبائل إلى غير قريش يدخلها فى قريش ويذهب باعتراضه على الشعر الجاهلى العدنانى من طريق اللهجة كما ذهب هناك باعتراضه على الشعر الجاهلى القحطانى من طريق اللغة »[1] .

* * *

نقد أسباب النحل :

وننتقل بعد ذلك إلى عرض آراء النقاد فيا ذكره الدكتور طه حسين من أسباب نحل الشعر الجاهلى ، وقد جعلها الدكتور ، كما مر بنا خمسة : السياسة ، والدين ، والقصص ، والشعوبية ، والرواة .

١ — السياسة ونحل الشعر : أجمع النقاد على أن الدكتور طه لم يورد شيئاً من الشعر الجاهلى الذى دعت السياسة إلى نحله ، مع أن فصله معقود لهذا ، ومع أنه أطنب فى الحديث عن المقدمات الظنية والفروض المتخيلة ، ولكنه لم ينته بها إلى النهاية التى يدل عليها عنوان الفصل . قال السيد محمد الخضر حسين[2]

(١) ص : ٢٠١ .

(٢) ص : ١٨٥ .

« عقد المؤلف الفصل فى نحو عشرين صحيفة قضاها فى الحديث عن أمركتب فيه القدماء والمحدثون ، وهو شأن العصبية فى صدر الإسلام وعهد الأمويين ، وما كان من التهاجى بين بعض شعراء الأنصار وآخرين من قريش . . . ولم يستطع المؤلف أن يضرب فى هذا الفصل الطويل مثلاً لشعر جاهلى اخترعته نزعة سياسية . . . ومن أراد أن يقرر أن من الشعر الجاهلى ما افتعل لغرض سياسى ، ويضع لذلك عنواناً يكتبه بأحرف ممتازة ، فليأت ولو بمثل أو مثلين واضحين ويريح القارئ من أقوال لا تقع فى عين الموضوع فضلاً عما فيها من صبغ بعض الوقائع بألوان لا تلائمها . . . » وقال الأستاذ محمد لطفى جمعة[1] « وقد سود المؤلف تسع صفحات فى هذه المسألة وحدها (يقصد المهاجاة بين الأنصار وقريش) وعنوان الفصل " السياسة وانتحال الشعر " اسم فخم وعنوان ضخم ، ولكن اللب منعدم والمقصد غامض ... أين السياسة من بحثه وأين الشعر المنتحل ومن واضع الشعر المحمول ؟ » وقال أيضاً [2]: « إلى هنا ولا نجد فى هذا الفصل الطويل الذى عنونه المؤلف " السياسة وانتحال الشعر " يقصد بذلك الشعر الجاهلى — شيئاً خاصاً بانتحال ذلك الشعر الجاهلى . . . » وقال الشيخ محمد الخضرى إن الدكتور طه قال : « يستطيع الكاتب فى تاريخ الأدب أن يضع سفراً مستقلاً فيما كان لهذه العصبية بين قريش والأنصار من التأثير فى شعر الفريقين الذى قالوه فى الإسلام وفى الشعر الذى انتحله الفريقان على شعرائهما فى الجاهلية » ، ثم عقب عليه بقوله[3] : « مع أن مقدمته الطويلة لم يوجد بها كلمة واحدة تتصل بأن فريقاً من الفريقين اختلق شعراً ونسبه إلى شعرائه فى الجاهلية ، وإنما الأحاديث كلها فى الشعراء الذين كانوا فى أول العهد الإسلامى يتقارضون الشعر ،

(١) ص : ١٨٤ .

(٢) ص : ١٩٣ .

(٣) ص : ٣٢ .

وفى العهد الذى يلى ذلك » . ويقول أيضاً[١] : « وبعد ذلك كله ألم يكن من واجب المؤلف ، وهو أستاذ كبير ، أن يذكر لقراء كتابه بعض الشعر الذى وضعته قريش فى الإسلام ونسبته إلى بعض شعرائهم فى الجاهلية وكان الداعى إلى وضعه السياسة ؟ إنه لم يذكر شيئاً من ذلك ، وكل كلامه حول الشعر الذى قيل فى العهد الإسلامى ، وليس لهذا وضع الشيخ كتابه » .

٢ — الدين ونحل الشعر : قال السيد محمد الخضر حسين[٢] : « ينكر المؤلف كل مايروى من الشعر والأخبار الممهّدة للبعثة النبوية ، وإنكارها على هذا الوجه إنما تسمعه ممن ربط قلبه على نفى النبوة ، إذ ليس من المحتمل عنده أن يقال فيها شعر أو يرد عنها خبر قبل أن يدعيها صاحبها . أما الذين يعتقدون بأن نبوة أفضل الخلق حق فمن الجائز عندهم أن يسبقها شعر أو خبر يتصل بها ، وشأنهم أن يفحصوا ما يرد فى هذا الصدد ويضعوه بمنزلته من الوضع أو الضعف أو الصحة ، وكذلك فعل علماء الإسلام فحكموا على جانب مما كان من هذا القبيل بالوضع ، كالأخبار والأشعار المعزوة إلى قُس بن ساعدة » . ثم يعرض لما ذكره الدكتور طه من أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن رواية شعر أمية ، وأن هذا وحده كاف لأن يضيع هذا الشعر . فرد عليه بأن فى الحديث الصحيح أن النبى استنشد رجلاً شعر أمية فظل ينشده حتى أنشد مائة بيت . وقال إنه لو صح أن النبى نهى عن شعره لكان هذا النهى مقصوراً على قصيدة أمية التى رثى بها قتلى قريش فى وقعة بدر ، « على أنا نجد هذه القصيدة التى يقولون إن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن روايتها واردة فى بعض كتب السير والمغازى ، وقد رواها ابن هشام فى نحو ثلاثين بيتاً . . . »[٣] ، وقال الأستاذ محمد لطفى

(١) ص : ٣٤ .
(٢) ص : ١٨٨ .
(٣) ص : ٢٢٠ .

جمعة[1]: « يريد مؤلف كتاب الشعر الجاهلي أن يخدع القارئ ويوهمه أن كل ما ورد فى الأدب العربي من نثر وشعر عن الجن ووجودها وأخبارها إنما وضع بعد الإسلام وضعاً لتبرير سورة الجن التى جاءت فى الكتاب المنزل على أفصح العرب . . . وأن كل ما نسب إلى العرب فى أدبهم من هذه الناحية إنما اصطنع اصطناعاً مجاراةً للعقيدة التى اقتضتها هذه السورة القرآنية . والحقيقة أن عرب الجاهلية كانوا يعتقدون بالجن ، ونظموا شعراً جاهليًّا كثيراً عن علاقة الجن بالشعر والشعراء ، وذكرنا بعضه فى ص ٥٢ من هذا الكتاب ، . . . ولم تكن أمة سامية أو آرية تخلو من الاعتقاد بالجن أو الأرواح الخيرة والشريرة » . ثم تحدث عن شعر أمية بن أبى الصلت ، ونفى أن المسلمين محوه أو حاربوه ، وأورد شيئاً من شعره . . [2] ، وأما الشيخ الخضرى ، فيعرض لما تحدث به الدكتور طه من أمر الشعر الممهد للبعثة النبوية ، فيقول الشيخ الخضرى إن انتظار بعض علماء العرب وكهانهم وأحبار اليهود ورهبان النصارى لبعثة نبي عربى من المسائل التى ذكرها القرآن ، « والمؤلف نفسه قال فى الصفحة الثامنة من كتابه : وأنا أزعم مع هذا كله أن العصر الجاهلي القريب من الإسلام لم يضع ، وأنا نستطيع أن نتصوره تصوراً واضحاً قويًّا صحيحاً ، ولكن بشرط ألا نعتمد على الشعر بل على القرآن من ناحية ، والتاريخ والأساطير من ناحية أخرى . . . » [3] ، وعرض بعد ذلك لقول الدكتور طه : « وفى سيرة ابن هشام وغيرها من كتب التاريخ والسير ضروب كثيرة من هذا النوع » ، فقال الشيخ الخضرى[4] « وهذا الكلام غير صحيح ، فقد قرأنا هذه السيرة مراراً ، ولا سيما فيما يمهد لبعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم نجد بيتاً واحداً فى الموضوع الذى ذكره ، وإنما الشعر الذى

---

(١) ص : ٢١٢ .

(٢) ص : ٢٢٦ — ٢٣٠ .

(٣) ص : ٣٤ — ٣٥ .

(٤) ص : ٣٥ .

رأيناه فى فصل عنوانه : أمر الأربعة المتفرقين عن عبادة الأوثان فى طلب الأديان ، وفى هذا الفصل قطع شعرية كلها فى التوحيد وترك عبادة الأوثان » . ثم قال[١] :
« ذكر الأستاذ بعد ذلك من منحول الشعر ما أورده المفسرون زاعماً أنهم أوردوه لإثبات عربية القرآن ! ثم غلا فقال : فحرصوا أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن بشىء من شعر العرب يثبت أن الكلمة عربية لا شك فى عربيتها » . فعقب على ذلك بقوله : « وهذه الجملة فيها غلو وفيها خطأ : أما الغلو ففى قوله إنهم استشهدوا على كل كلمة منه ؛ بين أيدينا التفسيران الكبيران اللذان عُنيا بهذا الاستشهاد أتم عناية ، وهما تفسير الإمام الكبير أبى جعفر الطبرى وتفسير الكاتب العظيم أبى عمر الزمخشرى ، ومع ما فيهما من الشواهد الكثيرة فإن ادعاء الاستشهاد على كل كلمة لا يؤيده الواقع ، إن شواهد الكشاف عددها ٧٧٧ شاهداً ، وليس هذا عدد كلمات القرآن . . . وأما الخطأ ففى ظنه أن هذه الشواهد كلها جاهلية جىء بها لإثبات عربية القرآن ! أكثر هذه الشواهد لشعراء إسلاميين ، وقليل منها ما هو لشعراء جاهليين أو مجهولين . . . وليس الاستشهاد لإثبات عربية القرآن كما يزعم ، وإنما هو لبيان مفهوم الكلمات التى يعدها الناس أحيانا غريبة ، على أن هذا المعنى قد يُلحظ أحياناً ، وهو أن القرآن ليس ببدع فى اللغة ، وإنما جاء بلغة العرب لم تشذّ فيه كلمة عن مناهجهم » .

٣ ــ القصص ونحل الشعر :

وقد ذهب هؤلاء النقاد إلى أن الدكتور لم يأت بشىء جديد لم يذكره القدماء ، ولكنه زاد عليهم بأن عمّم وأطلق أحكاماً كلية . قال السيد محمد الخضر حسين[٢] :
« كتب المؤلف فى القصص ولم يأت بجديد ، وإنما مدّ يده إلى ما تحدث به الكتّاب من قبله وسماه نظرية له ، ثم انهال علينا بكليات عرضها ما بين اليمامة

---

(١) ص : ٤١ – ٤٢ .
(٢) ص : ٢٤٥ .

وبحضرموت ... » وقال الشيخ محمد الخضرى [١]: « قد ذكر المؤلف نفسه ما كان من نَقَدَة الآداب أمام هذا الشعر فقال: "وقد فطن العلماء إلى ما فى هذا الشعر من تكلف حيناً ومن سخف وإسفاف حيناً آخر ، وفطنوا إلى أن بعض هذا الشعر يستحيل أن يكون قد صدر عن الذين ينسب إليهم" . وهذا هو الذى نريد أن نقوله ، وهو أن النقاد فى العصور الماضية لم يقصروا فى تمييز طيب الشعر من خبيثه ، وقد عبدوا الطريق لمن يخلفهم حتى لا يزعجهم كذب كاذب ، أو تلفيق ملفق ، فيرفضون جميع ما روى من الشعر ، كما فعل مؤلف الشعر الجاهلى ، بل يتبعون سيرة أولئك الأسلاف فى النقد الأدبى الذى أساسه الرواية والدراية ..»

٤ ــ الشعوبية ونحل الشعر :

قال السيد محمد الخضر حسين إن الدكتور طه عقد فصلاً للشعوبية ونحل الشعر الجاهلى ، ولكنه « لم يقم دليلا على التلازم بينهما ، بل لم يأت برواية تدل على أن بعض الشعوبية انتحل شعراً جاهلياً . . . » [٢] ، وقال أيضاً بعد أن ذكر أن الدكتور أورد قصصاً عن أبى العباس الأعمى وإسماعيل بن يسار « وزعم أنه وصل بهذا إلى ما كان يريده من تأثير الشعوبية فى انتحال الشعر ، ولكنه لم يستطع أن يضرب مثلاً يريك كيف انتحلت الشعوبية شعراً جاهلياً . . »[٣]، وكذلك قال الأستاذ محمد لطفى جمعة[٤]: « لا نجد فى هذا الفصل ما يدل على انتحال الشعر الجاهلى » ، وأما الشيخ محمد الخضرى فذهب إلى أن حديث الدكتور فى هذا الفصل عن الشعوبية ونحل الشعر الجاهلى قائم على الفرض والتخيل لا على الحقائق ، وبعد أن رد عليه قال[٥]: « ومتى كان الأمر كذلك

---

(١) ص : ٥٣ .
(٢) ص : ٢٤٧ .
(٣) ص : ٢٤٩ .
(٤) ص : ٢٤٨ .
(٥) ص : ٥٤ .

ضعف مقدار هذا التخيل وسقط الفرض من أساسه ».

٥ — الرواة ونحل الشعر :

أشار السيد محمد الخضر حسين إلى ما فى حديث الدكتور فى هذا الفصل — وفى غيره من الفصول — من تعميم ومبالغة ، وذلك حين قال الدكتور إن الرواة « بين اثنتين : إما أن يكونوا من العرب ، فهم متأثرون بما كان يتأثر به العرب ، وإما أن يكونوا من الموالى فهم متأثرون بما كان يتأثر به الموالى . . . » وعقب عليه السيد محمد الخضر حسين بقوله(١) : « ويريد من التأثر — بطبيعة السياق — الوجه الذى يحمل على صنع الشعر وعزوه إلى الجاهلية ، ومعنى هذا نفى أن يكون لطائفة من الرواة خطة ثابتة وهى ألا يتأثروا بشىء من هذه الأسباب تأثراً يستهينون معه بموبقة الافتراء على الناس كذباً . وهذه المبالغة لا تأويل لها إلا أن المؤلف يحب أن يكون هذا الشعر الجاهلى منحولاً » . ثم تعرض لما تعرض له الدكتور من ذكر حماد الراوية وخلف الأحمر ، وقال إنهما ليسا « مرجع الرواية كلها ولا أن الطعن فيهما طعن فى الرواية جميعاً »(٢) . ومع ذلك فقد ذكر بعض الروايات التى تطعن فى حماد وخلف ونقدها وبيّن ضعف بعضها . ثم ذكر أن الدكتور رمى أبا عمرو الشيبانى بالكذب والوضع ، مع أن أحداً من القدماء لم يرمه بذلك حتى إن خصومه قد وثقوه ، ولم يكتف الدكتور بذلك بل قال عنه : " وأكبر الظن أنه كان يأجر نفسه للقبائل يجمع لكلٍ واحدة منها شعراً يضيفه إلى شعرائها " فقال السيد محمد الخضر حسين إن إيجار عالم كأبى عمرو الشيبانى لا يمكن أن يكون قد حدث من غير أن يتنبه له القدماء ويشيروا إليه(٣) ، وأن الدكتور لم يبن حكمه هذا إلا على الظن والتخيل .

---

(١) ص : ٢٦٤ — ٢٦٥ .

(٢) ص : ٢٦٧ .

(٣) ص : ٢٧٤ — ٢٧٥ .

أما الأستاذ محمد لطفى جمعة فقد رد عليه من وجه آخر وذلك قوله [١]:
« وإن كان بعض المتعاصرين والأنداد من الرواة طعن بعضهم فى بعض ، فليس فى الطعن حجة أو دليل على صحة التهمة ، لأن اتحاد الحرفة والمنافسة فى الشهرة والمزاحمة على نيل الحظوة قد تدفع ببعض الرواة إلى الحسد والغيرة ، لهذا قال الأقدمون " إن المعاصرة حجاب " ، حتى إن رواةً ثقاتٍ كالأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد كانوا يتطاعنون ويضعّف كل منهم رواية صاحبه ، ولكن المحققين ينزهونهم عن الكذب . . . فلا يجوز إذن أن نأخذ بما يقوله الرواة بعضهم فى بعض ، وقد عقد ابن جنى فصلا فى كتابه « الخصائص » على ما يكون من قدح أكابر الأدباء بعضهم فى بعض وتكذيب بعضهم بعضاً ، كرواية المفضل الضبى فى حق حماد ، وهى لم تمحص ولم تنتقد وإن صح إسنادها فوليدة أحقاد معاصرة ، فإن كلام الأقران بعضهم فى بعض لا يقدح فى العدالة ، وهذا رأى علماء الحديث وجاراهم فيه أهل الأدب حتى قالوا : إن المعاصرة حجاب ، كما قدمنا » .

(١) ص : ٢٧١ – ٢٧٢ .

الفصل الخامس

توثيق الرواة وتضعيفهم

١

إن كان شيء أولى بالشك ، وأحرى بالتوقف ، وأجدر بالبحث والتمحيص ، فهو هذه الأخبار والروايات المتناثرة فى صفحات الكتب العربية ، التى تدور حول بعض رواة الشعر : تتهمهم بالوضع والنحل ، وترميهم بالكذب والافتعال . وسنقصر حديثنا فى هذه الصفحات على تلك الأخبار والروايات ، وعلى ما فيها من أحكام على الرواة أنفسهم: فيها توثيق لهم حيناً ، وتجريح وتضعيف فى أكثر الأحيان ؛ وذلك لأن بحثنا إنما هو مصادر الشعر الجاهلى ، والرواية مصدر أصيل من مصادر هذا الشعر ، أو هى المصدر الأصيل إذا أخذناها بمعناها الواسع الذى وضحناه فى فصل سابق . أما ما بسطنا فيه القول من دواعى الشك فى الشعر الجاهلى وأسباب نحله ، فحسبنا ما قدمنا من آراء المؤيدين والمفندين .

ولا بد لنا ، حتى يستقيم بين أيدينا وجه البحث وندخل فيه من بابه ، من أن نشير إلى قيام مدرستين فكريتين مختلفتين ، قامت إحداهما فى الكوفة ، وقامت الأخرى فى البصرة . وقد أدى الخلاف بين هاتين المدرستين إلى أن يتعصب علماء كل مدرسة لمدرستهم ، وأن يجرّحوا هم وتلاميذهم علماء المدرسة الأخرى وتلاميذها ويضعّفوهم ويرموهم بالوضع والكذب والتزيد . ولسنا نحب أن نوسع مجال البحث فنعرض للقبائل العربية التى استوطنت كل مصرٍ من هذين المصرين ، وما أدى إليه ذلك من عصبية قبلية قد يكون لها أثر فيما نحن بسبيله من بحث ، ولا نريد كذلك أن نعرض للاتجاه السياسى فى البصرة والكوفة منذ زمن عثمان وعلىّ ثم فى

زمن بنى أمية ، فإن ذلك كله سيقودنا إلى إطالة نحن فى غنى عنها فى هذا المجال . ولكننا نحب أن نبين فى وضوح وجلاء، الطابع الفكرى المميز الذى تفردت به كل من البصرة والكوفة فى الفقه ، واللغة والنحو ، والشعر والأخبار .

أما الكوفة فيبدو أنها كانت أسبق من البصرة إلى العناية بالحديث والفقه ، وذلك لأنه « هبط الكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة ، وسبعون من أهل بدر »[١]؛ وكان فيها أيضاً « ستون شيخاً من أصحاب عبد الله (بن مسعود) [٢]» . وكان فى بنى ثور الذين نزلوا الكوفة « ثلاثون رجلاً ما فيهم رجل دون الربيع بن خُثَيم »[٣] وكان من أثر نشاط حركة الفقة والفتيا فى الكوفة أن شهد لها بعض علماء المدينة — وهم من مدرسة فى الحديث مخالفة — فمن ذلك ماروى عن « عبد الجبار ابن عباس عن أبيه قال : جالست عطاء فجعلت أسائله ، فقال لى : ممن أنت؟ فقلت : من أهل الكوفة ، فقال عطاء : ما يأتينا العلم إلا من عندكم »[٤] . بل لقد شهد لهم بالتقدم بعض علماء البصرة، فقد: « قال رجل للحسن : يا أباسعيد، أهل البصرة أو أهل الكوفة ؟ قال : كان عمر يبدأ بأهل الكوفة ، وبها بيوتات العرب كلها وليست بالبصرة»[٥] . « وقال مسعر : قلت لحبيب بن أبى ثابت : هؤلاء أعلم أم أولئك ؟ قال : أولئك (يعنى أهل الكوفة) »[٦] .

ومع ذلك فقد كان الحديث وروايته فى الحجاز أسبق وأقدم من الكوفة « فأكثر الصحابة كانوا بالمدينة ، وهم أعرف الناس بحديث رسول الله ، وأخبرُ بقوله وعمله ، وحتى من رحل منهم إلى العراق وسائر الأمصار فإنما كانوا عارية

(١) ابن سعد ، الطبقات ٦ : ٤ — ٥ .
(٢) المصدر السابق : ٥ .
(٣) المصدر السابق : ٥ .
(٤) المصدر السابق : ٥ .
(٥) المصدر السابق : ٦ .
(٦) المصدر السابق : ٦ .

من الحجاز »[١] . وقد كان علماء المدينة يتمسكون بالحديث تمسكاً كبيراً ، ويلجأون إليه — بعد القرآن — فيما يحزبهم من أمر أو يحتاجون إليه من نص ، ولا يكادون يتجاوزونه إلى الاجتهاد وإبداء الرأى والفتيا . وقد ساعدهم على ذلك كثرة ما بين أيديهم من أحاديث ، وبقاء الحالة الاقتصادية والاجتماعية على ما كانت عليه فى عهد رسول الله ومن بعده الصحابة ، أو قريبة من ذلك ، فلم يصبها من التعقيد والتطور ما أصاب حياة المسلمين فى العراق أو الشام ، ولذلك كانوا يجدون لكل أمر من أمورهم حديثاً من أحاديث رسول الله يقضون به فى ذلك الأمر .

أما الحياة فى الكوفة فقد كانت على غير حياة المدينة ، فقد نزل المسلمون فيها بيئة جديدة ، فيها أخلاط من أجناس شتى بعضها له ماض عريق فى الحضارة والحياة الفكرية والاجتماعية ، ولذلك كانت حياة الكوفة ، إذا قيست بحياة المدينة ، معقدة ، جد فيها من المسائل الاقتصادية والاجتماعية ما لم يكن معروفاً فى المدينة . ولذلك اضطر علماء الكوفة حينما يعرض لهم أمر من أمور حياتهم لا يجدون فيه نصاً واضحاً فى القرآن أو الحديث — إلى أن يجتهدوا ويفتوا برأيهم ، وهذا الاجتهاد والإفتاء بالرأى هو " القياس " . و« أصل القياس أن يُعلم حكم فى الشريعة لشىء فيقاس عليه أمر آخر لاتحاد العلة فيهما ، ولكنهم توسعوا فى معناه أحياناً فأطلقوه على النظر والبحث عن الدليل فى حكم مسألة عرضت لم يرد فيها نص ، وأحياناً يطلقونه على الاجتهاد فيما لا نص فيه ، وبعبارة أخرى جعلوه مرادفاً للرأى ، ويعنون بالرأى والقياس بهذا المعنى أن الفقيه من طول ممارسته للأحكام الشرعية تنطبع فى نفسه وجهة الشريعة فى النظر إلى الأشياء ، وتمرن ملكاته على تعرف العلل والأسباب ، فيستطيع إذا عرض عليه أمر لم يرد فيه نص ، أن يرى فيه رأياً قانونياً متأثراً بجو الشريعة التى ينتمى إليها ، وبأصولها وقواعدها التى انطبعت

---

(١) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ٢ : ١٥١ .

فيه من طول مزاولتها ، ومن أجل هذا ذموا الرأى الذى يصدر ممن ليس أهلاً للاجتهاد . . . » .(١)

وخلاصة ذلك أنه كانت هناك مدرستان، الأولى: مدرسة الحديث، وهى فى الحجاز وخاصة فى المدينة ، وعلى رأسها مالك بن أنس وتلاميذه . والثانية : مدرسة الرأى ، وهى فى العراق وخاصة فى الكوفة وعلى رأسها أبو حنيفة . وتعصب علماء كل مدرسة لمدرستهم حتى لقد كاد أبو حنيفة أن يفضل أحد التابعين من علماء الكوفة على صحابى جليل هو عبد الله بن عمر ، فقد قال مرةً لمناظره « إبراهيم (النخعى — كوفى) أفضل من سالم (بن عبد الله بن عمر) ، ولولا فضل الصحبة لقلت علقمة أفضل من ابن عمر » . وأخذ الحجازيون يطعنون على علماء الكوفة ويعيبونهم ويرمونهم بالتزيد فى الحديث الصحيح والإكثار من الموضوع ، فقال مالك : « إذا جاوز الحديث الحرتين ضعفت شجاعته » ، وكان مالك يسمى الكوفة « دار الضرب » يعنى أنها تصنع الأحاديث وتضعها كما تخرج دار الضرب الدراهم والدنانير ، وقال ابن شهاب : يخرج الحديث من عندنا شبراً فيعود فى العراق ذراعاً(٢) .

وقد سقنا ما تقدم لنخلص منه إلى أمرين ؛ الأول : أن الطابع الذى يميز أهل الكوفة فى الفقه أنهم « أهل الرأى » ، وأنهم لا يلجأون إلى الرأى إلا إذا عرض لهم عارض لم يجدوا له نصاً فى الكتاب أو الحديث ، ومعنى ذلك أنهم قد عنوا بالحديث وجمعه وروايته واستقصائه عناية كبيرة لأنه مصدر أساسى من مصادر الفقه والتشريع ، ولكنهم بعد ذلك كانوا أكثر حرية من غيرهم وأكثر جرأة على استخدام العقل ، فكانوا يقولون برأيهم ، حيث يتوقف غيرهم ، إذا لم يجدوا نصاً فى القرآن أو الحديث . والأمر الثانى : أن المدرسة الأخرى وهى مدرسة أهل الحديث فى المدينة قد اتهمت مدرسة الكوفة بوضع الأحاديث والتزيد فيها ،

---

(١) ضحى الاسلام : ١٥٣ — ١٥٤ .

(٢) انظر المرجع السابق ٢ : ١٥٢ .

وقد يكون ما استجد فى حياة الكوفة مما لم يجدوا له ذكراً أو أصلاً فى الحديث حافزاً لهم على الوضع أو التزيد رغبة فى أن يدعموا رأيهم بحديث نبوى ؛ ولكن أغلب ما أنكره أهل المدينة على أهل الكوفة مرده إلى أن بعض التابعين وتابعى التابعين فى الكوفة قد أخذوا الأحاديث عن الصحابة الذين نزلوا الكوفة ، فكان هؤلاء الصحابة يحدثون بأحاديث لم يسمع بعضها علماء المدينة ممن كان فيها من الصحابة فجهلوها. وليس كل ما كان يحدِّث به صحابى كان يحدث به غيره ، بل إن بعض الصحابة كان يحدِّث بحديث نسخه حديث آخر لم يبلغه غيره من الصحابة [1] . فلم يكن مرد اتهام الكوفيين بالوضع إلى أنهم وضعوا كلما اتُّهموا به ، ولم يكن مرده كله إلى عصبية أهل الحديث لمدرستهم على مدرسة الرأى ، وإنما كان بعض هذا الاتهام مرده إلى أنهم وضعوا حقًّا ، وكان مرد بعضه إلى العصبية ، ثم كان مرد بعضه الآخر إلى اختلاف مصادر الرواية ، أى اختلاف الصحابة الذين أخذ عنهم علماء كل مدرسة من التابعين وتابعيهم .

• • •

أما فى اللغة والنحو فقد كانت البصرة أسبق إلى العناية بهما ثم تبعتها الكوفة ، فقامت فى المصرين مدرستان متمايزتان: مدرسة البصرة ، ومدرسة الكوفة . «وربما كان أهم الفروق الأساسية بين المدرستين أن مدرسة البصرة رأت أن أهم غرض وضع قواعد عامة للغة . . . تلتزمها وتريد أن تسير عليها فى دقة وحزم ؛ وإذ كانت اللغات لا تلتزم القواعد العامة دائماً بل فيها مسائل لا يمكن أن تجرى على القاعدة ، وخصوصاً اللغة العربية التى هى لغات قبائل متعددة تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً . . . أراد البصريون تمشياً مع غرضهم أن يهدروا الشواذ ، فإذا ثبتت صحتها قالوا إنها تحفظ ولا يقاس عليها. بل جرؤوا على أكثر من ذلك فخطّأوا بعض العرب فى أقوالهم إذا لم تجر على القواعد . . فهم فى الواقع أرادوا أن ينظموا اللغة بإهدار بعضها ، وأرادوا أن يكون ما سمع من العرب مخالفاً لهذا

---

(١) انظر المرجع السابق : ١٥٨ .

التنظيم مسائل شخصية جزئية يتسامحون فيها نفسها ولا يتسامحون فى مثلها والقياس عليها حتى لا تكثر فتفسد القواعد والتنظيم ، هذا إذا لم يتمكنوا من أن يؤولوا الشاذ تأويلاً يتفق وقواعدهم ولو بنوع تكلف . أما الكوفيون فلم يروا هذا المسلك، ورأوا أن يحترموا كل ما جاء عن العرب ، ويجيزوا للناس أن يستعملوا استعمالهم ، ولو كان الاستعمال لا ينطبق على القواعد العامة ، بل يجعلون هذا الشذوذ أساساً لوضع قاعدة عامة . . . فهم أكثر تجويزاً للوجوه المختلفة فى المسائل...[1] »

وكان من أثر هذا الخلاف فى المنهجين أن تعصب كل فريق لمدرسته ، وأخذ يتهم ويضعف علماء المدرسة الأخرى ، وخاصة البصريين الذين كانوا يرون أنهم أخذوا اللغة عن العرب الخلّص وأن الكوفيين أخذوها عن الأعراب الذين فسدت لغتهم وسليقتهم . قال الرياشى – وهو بصرى[2] : «إنما أخذنا اللغة من حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، وهؤلاء أخذوا اللغة من أهل السواد أكلة الكواميخ والشواريز » . وافتخر البصريون بأنهم لم يأخذوا عن الكوفيين فى هذا الميدان شيئاً، وأن الكوفيين هم الذين كانوا يأخذون عن البصريين ، فقال أبو سعيد[3] : « لا أعلم أحداً من علماء البصريين فى النحو واللغة أخذ عن أهل الكوفة شيئاً من علم العرب إلا أبا زيد فإنه روى عن المفضل الضبى ..»، وقال أبو زيد[4] : « قدم الكسائى البصرة فأخذ عن أبى عمرو ويونس وعيسى بن عمر علماً كثيراً صحيحاً، ثم خرج إلى بغداد فقدم أعراب الحطمة فأخذ عنهم شيئاً فاسداً فخلط هذا بذاك فأفسده . . » . وقال أبو الطيب اللغوى[5] : « وكذلك أهل الكوفة كلهم يأخذون عن البصريين ولكن أهل البصرة يمتنعون عنهم لأنهم لا يرون الأعراب الذين يحكون عنهم حجة » . وربما كان من أوضح الأمثلة التى تدل

---

(١) ضحى الإسلام ٢ : ٢٩٤ – ٢٩٥ . وانظر أيضاً كتاب « العربية » ليوهان فك ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ص : ٦١ – ٦٣ .

(٢) ابن النديم ، الفهرست : ٨٦ .

(٣) المصدر السابق : ٨١ .

(٤) السيرافى ، أخبار النحويين البصريين : ٥٦ .

(٥) مراتب النحويين ، ورقة : ١٤٦ .

على مدى ما جرّت إليه هذه المنافسة بين المدرستين من خصومات واتهامات ـ ما قاله أبو حاتم السجستاني[١] : « لم يكن بلجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب ، ولولا أن الكسائي دنا من الخلفاء فرفعوا من ذكره لم يكن شيئاً ، وعلمه مختلط بلا حجج ، ولا يملك إلا حكايات عن الأعراب مطروحة لأنه كان يلقنهم ما يريد ، وهو على ذلك أعلم الكوفيين بالعربية والقرآن، وهو قدوتهم وإليـه يرجعون. . » وقال أبو حاتم أيضاً[٢]: « فإذا فسرت حروف القرآن المختلف فيها ، أوحكيت عن العرب شيئاً فإنما أحكيه عن الثقات عنهم مثل أبي زيد والأصمعي وأبي عبيدة ويونس وثقات من فصحاء الأعراب وحملة العلم ، ولا ألتفت إلى رواية الكسائي والأحمر والأموي والفراء ونحوهم ، وأعوذ بالله من شرهم ! ! »

وقد بادلهم الكوفيون اتهاماً باتهام وخصومة بخصومة ، فمن أمثلة ذلك أنه « لما مات المازني خلفه أبو العباس المبرد ، وبقي ذكره ببغداد وسائرا لا يغض أحد منه إلى أن ذكره ابن الأنباري في بعض مصنفاته ، وأراد أن يضع منه ، ويرفع من صاحبه أبي العباس ، أحمد بن يحيي ثعلب ، جارياً على عادته في العصبية للكوفيين على البصريين »[٣] . ومن ذلك أيضاً أن ابن الأعرابي الكوفي « كان يزعم أن الأصمعي وأبا عبيدة لا يحسنان قليلا ولا كثيراً»[٤] ، وأنه كان يقول في كلمة رواها الأصمعي « سمعت من ألف أعرابي خلاف ما قاله الأصمعي»[٥]. وقال ثعلب « انتهى علم اللغة والحفظ إلى ابن الأعرابي » . . . والشواهد على ذلك كثيرة وكلها تكشف عن مدى ما قادت إليه هذه الخصومة المنهجية من تبادل الاتهام والتضعيف .

ويعنينا من كل ذلك الأمران اللذان أشرنا إليهما عند حديثنا عن الحديث والفقه ، وأولهما : أن الكوفيين أكثر حرية في منهجهم وأكثر جرأة حيث يتقيد

(١) مراتب النحويين : ١٢١ .
(٢) المصدر السابق : ١٤٧ .
(٣) ياقوت ، إرشاد ٥ : ١١٥ .
(٤) المصدر السابق ١٨ : ١٩٠ .
(٥) المصدر السابق ١٨ : ١٩٠ .

غيرهم ويتوقف . ولسنا بسبيل المفاضلة بين المنهجين ، ولكنا لا نملك إلا أن نشير إلى أن مذهب البصريين بما فيه من ميل شديد إلى « التقعيد » و « التقنين » أقرب إلى الطريقة التعليمية ومذهب المعلمين والتلاميذ ، أما مذهب الكوفيين فهو أقرب إلى فهم طبيعة اللغة فهماً صحيحاً ، وهو بذلك مذهب العلماء لا المعلمين . ونحب أن نشير إلى أن هذا المنهج الذى اتبعه الكوفيون بعدُ كان موجوداً فى البصرة أيضاً مع وجود المذهب الثانى « وكانت هاتان النزعتان فى البصرة فى أيامها الأولى ، فهم يقولون : إن ابن أبى إسحق الحضرمى وتلميذه عيسى بن عمر كانا أشد ميلاً للقياس ، وكانا لا يأبهان بالشواذ ، وكانا لا يتحرجان من تخطئة العرب ؛ وكان أبو عمرو بن العلاء وتلميذه يونس بن حبيب البصريان أيضاً على عكسهما : يعظمان قول العرب ويتحرجان من تخطئتهم ، فغلبت النزعة الأولى على من أتى بعدُ من البصريين ، وغلبت النزعة الثانية على من أتى بعدُ من الكوفيين ... »(١)

والأمر الثانى فى اللغة والنحو كالأمر الثانى الذى ذكرناه فى الحديث والفقه ، وذلك أن اتهام البصريين للكوفيين بوضع الشواذ ونحلها وتضعيفهم إياهم ، لم يكن كله لأن الكوفيين كانوا حقًّا يضعون وينحلون ، وإنما كان بعضه لهذه العصبية التى قامت بين المدرستين ، وكان بعضه لاختلاف المصادر التى كان يأخذ عنها كل فريق ، واختلاف المنهجين فى استقاء مادة اللغة ، فقد كان البصريون يضيقون على حين كان الكوفيون يتوسعون .

فإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن الشعر وروايته ، وجدنا أن الأمرين اللذين أشرنا إليهما فى الحديث والفقه من جانب ، وفى اللغة والنحو من جانب آخر — قائمان فى الشعر أيضاً . فقد اتصف الكوفيون هنا بما اتصفوا به هناك من أنهم أكثر حرية وأكثر جرأة ، وأنهم قد توسعوا فى الأخذ عن مصادر أسقطها البصريون ، ومن هنا كثرت رواية الكوفيين فاتهمهم البصريون بالتزيد والوضع .

---

(١) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ٢ : ٢٩٦ ، وانظر طبقات فحول الشعراء : ١٥ .

قال ابن سلام فى حديثه عن الأسود بن يعفر بعد أن أورد قصيدة له[1]: « وله شعر كثير جيد ، ولا كهذه . وذكر بعض أصحابنا أنه سمع المفضل يقول : له ثلاثون ومئة قصيدة ». ونحن لا نعرف له ذلك ولا قريباً منه . وقد علمت أن أهل الكوفة يروون له أكثر مما نروى ويتجوزون فى ذلك بأكثر من تجوزنا » . وقال أيضاً[2]: « وأسمعنى بعض أهل الكوفة شعراً زعم أنه أخذه عن خالدبن كلثوم يرثى به حاجب بن زُرَارة . فقلت له : كيف يروى خالد مثل هذا وهو من أهل العلم ، وهذا شعر متداع خبيث ؟ فقال : أخذناه من الثقات . ونحن لا نعرف هذا ولا نقبله ». وقال أبو الطيب اللغوى[3]: « والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله ، وذلك بين فى دواوينهم ». وقال الثورى[4]: « اتكل أهل الكوفة على حماد وجناد ، ففسدت رواياتهم من رجلين ، كانا يرويان ولا يدريان ، كثرت رواياتهما وقل علمهما» . ومما ذكروه فى تعليل كثرة رواية الشعر فى الكوفة قصة اكتشاف الأشعار التى نسخت للنعمان فى الطنوج فقال ابن جنى بعد أن أورد هذه القصة[5]: « فمن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة » .

ونحب أن نعيد ما قررناه سابقاً من أن اتهام البصريين للكوفيين بوضع الشعر ونحله لم يكن مرده كله إلى أن الكوفيين كانوا يضعون وينحلون حقاً ، وإنما كان مرد بعضه إلى هذه العصبية وما سببته من منافسات وخصومات ، ثم كان مرد بعضه إلى اختلاف مصادر الفريقين وإلى اختلاف منهجيهما ، فقد توسع الكوفيون على حين ضيق البصريون .

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ١٢٣ .

(٢) المصدر السابق : ١٢٣ .

(٣) مراتب النحويين : ١١٩ .

(٤) ياقوت ، إرشاد : ٧ : ٢٠٧ .

(٥) الخصائص : ٣٩٢ — ٣٩٣ .

وبعد ؛

فقد سقنا هذا الحديث كله لنصل إلى ما بدأنا به حديثنا حينما قلنا إنه إنْ كان شيء أولى بالشك ، وأحرى بالتوقف ، وأجدر بالبحث والتمحيص ، فهو هذه الأخبار والروايات المتناثرة فى صفحات الكتب العربية ، التى تدور حول بعض رواة الشعر : تتهمهم بالوضع والنحل ، وترميهم بالكذب والافتعال. وأحسب أننا نستطيع الآن أن نتبين قيمة قولنا هذا بعد الذى بيّناه من أمر هذه العصبية بين البصرة والكوفة ، وهذا الخلاف فى المصادر التى استقى كل فريق مادته منها ، ثم هذا الخلاف فى المنهج الذى اتبعته كل مدرسة ، وما كان لكل ذلك من أثر فى اتهام كل فريق الآخر بالوضع والنحل ، ورميه بالكذب والتزيد . على أن هذا الحديث العام — على ما فيه من خطر وقيمة — لا تتكشف لنا جوانبه إلا حين ندعمه بالحديث عن بعض الرواة ، وعرض الأخبار والروايات التى تدور حولهم .

٢

وسنبدأ بالحديث عن حماد ثم نتلوه بالحديث عن خلف ، فقد نالهما من الاتهام بالوضع والكذب والنحل ما لم ينل غيرهما . ولعل خير ما نصنع أن نعرض الأخبار والروايات التى تولّت حماداً وتضعفه ، ونجعلها أقساماً يجتمع كل قسم منها فى قَرَن :

١ — المفضل وحماد :

(١) روى أبو الفرج [1] عن جماعة من الرواة أنهم كانوا فى دار أمير المؤمنين المهدى بعيساباذ ، وقد اجتمع فيها عدة من الرواة والعلماء بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها ، إذ خرج بعض أصحاب الحاجب ، فدعا بالمفضل الضبى الراوية فدخل ، فمكث مليّاً ثم خرج إلينا ومعه حماد والمفضل جميعاً ، وقد

(١) الأغانى ٦ : ٨٩ — ٩١ .

بان فى وجه حماد الانكسار والغم ، وفى وجه المفضل السرور والنشاط ، ثم خرج حسين الخادم معهما فقال : يا معشر من حضر من أهل العلم ، إن أمير المؤمنين يعلمكم أنه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم بجودة شعره وأبطل روايته لزيادته فى أشعار الناس ما ليس منها ، ووصل المفضل بخمسين ألفاً لصدقه وصحة روايته ، فمن أراد أن يسمع شعراً جيداً محدثاً فليسمع من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل . فسألنا عن السبب ، فأخبرنا أن المهدى قال للمفضل لما دعا به وحده : إنى رأيت زهير بن أبى سلمى افتتح قصيدته بأن قال :

دَعْ ذَا وَعَدِّ القَوْلَ فى هَرِمِ

ولم يتقدم له قبل ذلك قول ، فما الذى أمر نفسه بتركه ؟ فقال له المفضل : ما سمعت يا أمير المؤمنين فى هذا شيئاً إلا أنى توهمته كان يفكر فى قول يقوله ، أو يروِّى فى أن يقول شعراً فعدل عنه إلى مدح هرم ، وقال : دع ذا ، أو كان مفكراً فى شىء من شأنه فتركه وقال : دع ذا ، أى : دع ما أنت فيه من الفكر وعدّ القول فى هرم . فأمسك عنه ، ثم دعا بحماد فسأله عن مثل ما سأل عنه المفضل ، فقال : ليس هكذا قال زهير يا أمير المؤمنين . قال : فكيف قال ؟ فأنشده :

لِمَنِ الدِّيَارُ بِقُنَّــةِ الحَجْرِ ... أَقْوَيْنَ مُذْ حِجَجٍ وَمُذْ دَهْرِ
قَفْرٌ بِمُنْدَفَعِ النَّحَائِتِ مِنْ ... ضَفْوَى أُولَاتِ الضَّالِ والسِّدْرِ
دَعْ ذَا وَعدِّ القَوْلَ فى هَــرِمٍ ... خَيْرِ الكُهُولِ وَسَيِّدِ الحَضَرِ

قال : فأطرق المهدى ساعة ، ثم أقبل على حماد فقال له : قد بلغ أمير المؤمنين عنك خبر لا بد من استحلافك عليه . ثم استحلفه بأيمان البيعة وكل يمين محرجة ليصدقنه عن كل ما يسأله عنه . فحلف له بما توثق منه . قال له : أصدقنى عن هذه الأبيات ومن أضافها إلى زهير . فأقر له حينئذ أنه قائلها . فأمر فيه وفى المفضل بما أمر به من شهرة أمرهما وكشفه .

(ب) وروى أبو الفرج أيضاً [١] أن ابن الأعرابي قال : سمعت المفضل الضبيّ يقول : قد سُلّط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً . فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطئُ في روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردُّون من أخطأ إلى الصواب ، لا ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ، ويُحمَل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك!؟ .

٢ – الأصمعي وحماد :

روى أبو الفرج [٢] أن الرياشي قال ، قال الأصمعي : كان حماد أعلم الناس إذا نصح . وزاد ياقوت على ذلك بشرح قول الأصمعي [٣] : يعني إذا لم يزد وينقص في الأشعار والأخبار ، فإنه كان متّهماً بأنه يقول الشعر وينحله شعراء العرب .

وروى أبو الطيب اللغوي[٤] أن أبا حاتم السجستاني قال ، قال الأصمعي : جالست حماداً فلم أجد عنده ثلثمائة حرف ، ولم أرضَ روايته ، وكان قديماً . وذكر أبو الطيب أن الأصمعي روى عن حماد شيئاً من الشعر[٥] ، وأن أبا حاتم قال ، قال الأصمعي : كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا نتفاً سمعتها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء .

٣ – أبو عمرو بن العلاء وحماد :

روى أبو الفرج[٦] أن أبا عمرو الشيباني قال : ما سألت أبا عمرو بن العلاء

---

(١) الأغاني ٦ : ٨٩ .
(٢) المصدر السابق ٦ : ٧٠ .
(٣) إرشاد ١٠ : ٢٦٥ .
(٤) مراتب النحويين ، ورقة : ١١٨ .
(٥) المصدر السابق : ١١٦ .
(٦) الأغاني ٦ : ٧٣ .

قط عن حماد الزاوية إلا قدّمه على نفسه ، ولا سألت حماداً عن أبي عمرو إلا قدمه على نفسه .

٤ ـ ابن سلاّم وحماد :

قال ابن سلام[1] « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثوق به : كان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ، ويزيد في الأشعار ، أخبرني أبو عبيدة عن يونس قال : قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة ، وهو عليها ، فقال : ما أطرفتني شيئاً. فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة مديح أبي موسى . فقال . ويحك ، يمدح الحطيئة أبا موسى لا أعلم به ، وأنا أروي شعر الحطيئة ! ولكن دعها تذهب في الناس » .

وقال ابن سلام أيضاً : وسمعت يونس يقول : العجب لمن يأخذ عن حماد ، كان يكذب ويلحن ويكسر .

٥ ـ خلف الأحمر وحماد :

ذكر أبو الطيب اللغوي حماداً [2] فقال إنه كان من أوسع الكوفيين رواية ، « وقد أخذ عنه أهل المصرين ، وخلف الأحمر خاصة » .

وذكر أيضاً [3] أن أهل الكوفة قرأوا أشعارهم على خلف ، « وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية لأنه كان قد أكثر الأخذ عنه » .

ونقل ياقوت [4] أن خلفاً الأحمر أول من أحدث السماع بالبصرة ، وذلك أنه جاء إلى حماد الراوية فسمع منه . . .

وذكر أبو الفرج [5] أن أبا عبيدة قال ، قال خلف : كنت آخذ من

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ٤٠ – ٤١ .

(٢) مراتب النحويين : ١١٦ .

(٣) المصدر السابق : ٧٦ .

(٤) إرشاد ١١ : ٦٨ .

(٥) الاغاني ٦ : ٩٢

حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب وأعطيه المنحول ، فيقبل ذلك منى ويدخله فى أشعارها ؛ وكان فيه حمق .

٦ ـــ حماد ينتحل الشعر الجاهلى ويدعيه لنفسه :

ذكر أبو الفرج [١] عن رواته أن حماداً الراوية قدم على بلال بن أبى بردة البصرة ، وعند بلال ذو الرمة ، فأنشده حماد شعراً مدحه به . فقال بلال لذى الرمة : كيف ترى هذا الشعر؟ قال : جيداً وليس له . قال : فمن يقوله ؟ قال : لا أدرى إلا أنه لم يقله . فلما قضى بلال حوائج حماد وأجازه ، قال له : إن لى إليك حاجة . قال : هى مقضية . قال : أنت قلت ذلك الشعر ؟ قال : لا . قال : فمن يقوله ؟ قال : بعض شعراء الجاهلية ، وهو شعر قديم وما يرويه غيرى . قال : فمن أين علم ذو الرمة أنه ليس من قولك ؟ قال : عرف كلام أهل الجاهلية من كلام أهل الإسلام .

وبعد ؛

فهذه خلاصة شاملة لما فى المصادر العربية من أخبار حماد الراوية ، وهى تميل فى أكثرها إلى النيل منه وتضعيف روايته واتهامه بالوضع والنحل . ولكن كل خبر من هذه الأخبار يحمل فى تضاعيفه ما يستوقف الباحث ويسترعى انتباهه ويحمله على التقصى فى البحث والنقد . ومن أجل ذلك سنعود إلى هذه الأخبار خبراً خبراً نستنطقه لعله يكشف لنا عن شىء فيه ينتهى بنا إلى يقين أو ما يشبه اليقين .

١ ـــ المفضل وحماد :

(ا) أما الخبر الأول ففيه أمران [٢] ، يدعم ثانيهما أولهما ، وينتهيان بنا إلى أن نشك فى هذا الخبر شكاً يكاد يؤدى إلى رفضه . فالأمر الأول : أن الرواة

---

(١) الأغانى ٦ : ٨٨ .

(٢) انظر ما قدمناه من رأى ليال فى هذا الخبر فى الفصل الثالث من هذا الباب .

قالوا إنهم كانوا فى دار أمير المؤمنين المهدى ، وأن حسيناً الخادم قال : إن أمير المؤمنين يعلمكم ... فقد جرت هذه القصة إذن والمهدى خليفة ، أى بعد سنة ١٥٨ هـ ، وذلك لأن المهدى بويع بالخلافة فى آخر ذى الحجة من سنة ١٥٨ ولم يبق على انقضائها إلا إحدى عشرة ليلة [١] . ولكن حماداً توفى قبل أن يتولى المهدى الخلافة بنحو ثلاث سنوات. فقد ذكر ياقوت أن حماداً توفى سنة ١٥٥ [٢] وذكر ابن النديم أنه توفى سنة ١٥٦ [٣] . والأمر الثانى : أن الرواة ذكروا أنهم كانوا فى دار المهدى فى عيساباذ . ولكن المهدى لم يبن داره فى عيساباذ إلا بعد وفاة حماد بنحو تسع سنوات ، قال الطبرى فى حوادث سنة ١٦٤ [٤] « وفيها بنى المهدى بعيساباذ الكبرى قصراً من لبن إلى أن أسس قصره الذى بالآجر الذى سماه قصر السلامة ، وكان تأسيسه إياه فى يوم الأربعاء فى آخر ذى القعدة » .

(ب) أما الخبر الثانى فهو عندنا ضعيف متهم كذلك ؛ وذلك لأن فيه أن حماداً « رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ويحمل عنه ذلك فى الآفاق » . فقد كان حماد إذن شاعراً ، وأى شاعر ! كان شاعراً ذا قدرة على تصريف وجوه القول وفنون الشعر ، بل لقد كان شاعراً جُمعت فيه الشعراء ، إذا قال قصيدة بلغت من القوة والمتانة ومن الفحولة والجزالة ، بل بلغت من الفن الشعرى، منزلة تجعلها حقيقة بأن تكون من شعر إمرئ القيس أو النابغة أو طرفة أو سائر شعراء الجاهلية ، بحيث تُنسب إلى أى شاعر من هؤلاء الشعراء وتدخل فى شعره ويُحمل ذلك فى الآفاق ! وهذا وحده ، فى الفن ، باطل ؛ ولكنه باطل من وجه آخر ، وهو أن حماداً لم يُعرف بقول الشعر ، ولم نجد بين أيدينا مصدراً واحداً من هذه

---

(١) الطبرى ، تاريخ (سنة ١٥٨) ، وقد أورد كذلك خبراً آخر لايكاد يفترق عن هذا ، وهو أن المهدى بويع له بالخلافة لست ليال خلون من ذى الحجة سنة ١٥٨ .

(٢) إرشاد ١٠ : ٢٦٦ .

(٣) الفهرست : ١٣٥ .

(٤) تاريخ الطبرى (سنة ١٦٤) .

الكتب العربية ذكر لنا أن حماداً قال شعراً أو خلّف ديواناً رواه عنه غيره . ولو كان له شعر لحرصوا على ذكره لأنهم عُنوا بتسجيل الشعراء وشعرهم ودواوينهم أولاً ، ولأن ذلك كان يقوّى من رأى من اتهمه بالوضع والنحل ثانياً . فكيف لم يذكروا شعر حماد وديوانه ، وهم يذكرون أن « لخلف ديوان شعر حمله عنه أبو نواس » (١) ؟ ثم ، أيكون المرء شاعراً ، فى مثل هذه المنزلة من الفحولة والشاعرية ، فيصرف كل شعره إلى غيره وينحله إياه ، ويضن على نفسه بأن ينسب إليها بعضه ؟ ولسنا فى حاجة إلى إطالة القول وبين أيدينا خبر آخر إن لم يكن ذا دلالة قاطعة على أن حماداً لم يكن يحسن قول الشعر ، فهو على أقل تقدير مما يستأنس به فى هذه السبيل ؛ وذلك أن حماداً حين أراد أن يمدح بلال ابن أبى بردة ، لم يستطع أن ينظم شعراً فى مدحه ، وإنما انتحل لنفسه شعراً جاهلياً قديماً ووجهه فى مدح بلال ، ولم يكتشف ذلك إلا ذو الرمة حينما سمع حماداً ينشده ، ثم اعترف به حماد (٢) .

ومما يدعم هذا الذى نذهب إليه ويكشف عن مقدار التخبط الذى وقعت فيه هذه الأخبار والروايات ، ما ذكره ابن سلام ، قال « سمعت يونس يقول : العجب لمن يأخذ عن حماد ، كان يكذب ويلحن ويكسر » . فكيف يكون حماد بهذا القدر من الشاعرية الفذة التى حاولت الرواية أن تصوره بها ثم يكون بعد ذلك يكسر الشعر ولا يقيم وزنه ؟ لا شك أن أحد هذين الخبرين موضوع ، ولعلهما كليهما كذلك (٣) .

فإذا كان الأمر على ما بينا ، وكان هذان الخبران موضوعين ، فإن لهما مع ذلك دلالة لا يصح أن نغفلها ، وهى أن بين المفضل وحماد منافسة شديدة

(١) ياقوت ، إرشاد ١١ : ٦٨ .

(٢) الأغانى ٦ : ٨٨ .

(٣) انظر أيضاً كتاب « العربية » ، تأليف يوهان فك ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ص : ٦٢ - ٦٣ .

ربما بلغت حد الخصومة والاتهام ، ثم استغلها تلاميذ المفضل ورووا عنها الأخبار : يتهمون حماداً ويقوّون من مكانة أستاذهم المفضل فتقوّى بذلك مكانتهم. أما المنافسة بينهما فلعلها كانت لأن المفضل — على ما يروون من أنه كان ثقة كثير الرواية للشعر — كان لا يحسن شيئاً من الغريب ولا من المعانى ولا تفسير الشعر ، وإنما كان يروى شعراً مجرّداً(١) . أما حماد فقد تقدم أنه كان عالماً « بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم »(٢)، وكان « من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها » (٣) . فكان حماد إذن يروى ما لم يكن يرويه المفضل، ويعرف ما لم يكن يعرفه، فاتهمه بالتزيد بل اتهمه بالوضع والنحل . ولا ينبغى أن ننسى أن حماداً كان أموىّ الهوى وكانت « ملوك بنى أمية تقدمه وتؤثره وتستزيره، فيفد عليهم ، ويسألونه عن أيام العرب وعلومها ، ويجزلون صلته . . . » (٤) وجاءه يوماً صديقه مطيع بن إياس يدعوه إلى مجلس جعفر ابن أبى جعفر المنصور ، فقال له حماد(٥): « دعنى ، فإن دولتى كانت مع بنى أمية وما لى عند هؤلاء خير . . . » أما المفضل فقد كان عباسى الهوى ، وقد قربه المنصور وألزمه ابنه المهدى يؤدبه ؛ وللمهدى صنع المفضليات .

ونحسب أن ما بسطناه من وجوه هذه المنافسة والخصومة يزيدنا اطمئناناً إلى ما قدمناه فى أمر هذين الخبرين عن المفضل وحماد .

٢ — الأصمعى وحماد :

ولقد كان أمر المفضل وحماد بين رجلين من الكوفة نفسها جمعتهما عصبية بلدية واحدة ، ثم فرقتهما منافسات وخصومات شخصية وسياسية . أما الأمر بين

(١) مراتب النحويين : ١١٥ .
(٢) الأغانى ٦ : ٨٩ .
(٣) ياقوت ، إرشاد : ١٠ : ٢٥٨.
(٤) إرشاد ١٠ : ٢٥٨ .
(٥) الأغانى ٦ : ٨٢ .

الأصمعي وحماد فيعود بنا إلى المنافسة بين البصرة والكوفة ، فالأصمعي بصرى ، وهذه الأخبار الثلاثة يروى أحدها الرياشي ويروى اثنين منها أبو حاتم، وهما بصريان كذلك . ولم يكن شأن الرياشي وأبي حاتم في عصبيتهما للبصرة على الكوفة شأن الأصمعي ، وذلك لأنهما كانا من أكثر البصريين طعناً على الكوفيين واتهاماً لهم ، وقد مر بنا أن الرياشي قال : إنما أخذنا اللغة من حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، وهؤلاء أخذوا اللغة من أهل السواد وأكلة الكواميخ والشواريز(١) . ومر بنا كذلك تضعيف أبي حاتم للكوفيين وقوله (٢): «لم يكن بلجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب»، وقوله (٣): «فإذا فسرتُ حروف القرآن المختلف فيها أو حكيت عن العرب شيئاً فإنما أحكيه عن الثقات عنهم مثل أبي زيد والأصمعي وأبي عبيدة ويونس وثقات من فصحاء الأعراب وحملة العلم، ولا ألتفت إلى رواية الكسائي والأحمر والأموى والفراء ونحوهم ، وأعوذ بالله من شرهم ! »

فإذا لم يكف هذا الجانب في تضعيف هذه الأخبار ، فإن ما فيها من تناقض ليزيدنا اطمئناناً إلى أنها من هذه الأخبار التي ساقت إليها هذه العصبية والمنافسات . وذلك أن أبا حاتم يروى أن الأصمعي قال «جالست حماداً فلم أجد عنده ثلثمائة حرف ، ولم أرض روايته» . أما أنه لم يجد عنده ثلثمائة حرف فأمر لا شأن لنا به في هذا البحث ، وأما أنه «لم يرض روايته» فلا نراه يستقيم مع رواية أبي حاتم نفسه عن الأصمعي أنه قال إنه أخذ شعر امرئ القيس كله عن حماد «إلا نتفاً سمعتها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء» . ومما يؤيد هذا الذي نذهب إليه من تزيد التلاميذ على شيوخهم في أخبار منافستهم، بل وضعهم عليهم أخباراً في ذلك ، أن الأصمعي قال «كان حماد أعلم الناس إذا نصح» ولم يزد على ذلك، فجاء من يفسر قوله هذا ويشرحه فقال: «يعني إذا لم يزد

---

(١) ابن النديم – الفهرست : ٨٦ .

(٢) مراتب النحويين : ١٢١ .

(٣) المصدر السابق : ١٤٧ .

ويتقص فى الأشعار والأخبار ، فإنه كان متهماً بأنه يقول الشعر وينحله شعراء العرب» . وكل هذا تفسير لقوله « إذا نصح » . ونحن لا نكاد نطمئن إلى هذا التفسير بعد الذى علمناه من أن الأصمعى أخذ عن حماد «شيئاً من الشعر»، وأنه روى عنه ديوان امرئ القيس وأضاف إليه نتفاً سمعها من الأعراب وأبى عمرو ابن العلاء . والأصمعى مشهور بتشدده وتحريه وأنه « لا يفتى إلا فيما أجمع عليه العلماء، ويقف عما يتفردون به عنه، ولا يجوِّز إلا أفصح اللغات، ويلجُّ فى دفع ما سواه »[1]، « وأنه كان لا يفسر شعراً فيه هجاء ... وكان صدوقاً فى كل شىء »[2]، فمن كان هذا منهجه فإنه لا يأخذ إلا عن ثقة أو عمن يعرف أنه ثقة. والذى نراه فى تأويل قوله «إذا نصح» أنه يريد إذا نصح لمن يأخذ عنه وسمحت نفسه فى إعطائه وتعليمه ، وذلك لأن حماداً كان مشهوراً بأنه ضنين برواية الشعر وإنشاده [3] .

٣ ــ أبو عمرو بن العلاء وحماد :

أما الخبر الذى سقناه عن تقديم أبى عمرو بن العلاء حماداً على نفسه، وتقديم حماد أبا عمرو على نفسه ففيه توثيق لحماد ، وهو ــ إن صح ــ يدعم ما ذهبنا إليه من أن رأى العلماء الذين عاصروا حماداً وكانوا من طبقته ــ إذا ما جُرِّد من العصبية والتحامل ــ لم يكن كالرأى الذى شاع بعد أن شوهته الأخبار والروايات. ولرأى أبى عمرو فى حماد قيمة خاصة إذ أن أبا عمرو بصرى ، بل رأس علماء البصرة ، وكان ثقة مأموناً حتى عند الكوفيين وقد يضعِّف من هذا الخبر أن راويه أبو عمرو الشيبانى وهو كوفى ، ولكن أبا عمرو الشيبانى ثقة، لم يضعفه أحد فيما يروى ، وإن

---

(١) مراتب النحويين : ٨٠ .

(٢) المصدر السابق : ٧٩ .

(٣) نزهة الألباء : ٧٠ .

كانوا نالوا منه لاستهتاره فى الشراب . ومع ذلك فثمة خبر يدعم هذا الخبر وقد رواه عن أبى عمرو رأس من رؤوس علماء البصرة، هو تلميذه الأصمعى قال (١) ، قال أبو عمرو : ما سمع حماد الراوية حرفاً قط إلا سمعته . ومن أجل ذلك كله نميل إلى أن أبا عمرو بن العلاء، ومن فى منزلته من علماء الطبقة الأولى، كانوا يقدرون حماداً حق قدره، وكانوا يوثقونه ويعدلونه .

٤ – ابن سلام وحماد :

أما ما رواه ابن سلام عن يونس من أن حماداً وضع القصيدة الميمية فى مدح أبى موسى الأشعرى ونحلها الحطيئة ، فمردود من وجهين ، الأول: أن المدائنى ، وهو بصرى ، وكان معاصراً لابن سلام رد عليه وذكر « أن الحطيئة قال هذه القصيدة فى أبى موسى ، وأنها صحيحة ، قالها فيه وقد جمع جيشاً للغزو . . » (٢) والوجه الثانى : أن العلماء الذين جمعوا ديوان الحطيئة وشرحوه بعد حماد أثبتوا هذه القصيدة فى ديوانه ، ولم يأخذوا بالرأى الذى أورده ابن سلام عن يونس . فهذا ابن حبيب قد روى هذه القصيدة عن ابن الأعرابى وعن أبى عمرو الشيبانى معاً ، وأثبتها السكرى عن ابن حبيب فى شرحه لديوان الحطيئة (٣) .

ويدعم هذين الوجهين أن ابن سلام روى خبر وضع حماد لهذه القصيدة ونحلها الحطيئة عن يونس ، ويونس بصرى ، كابن سلام ، وكلاهما يضعف الكوفيين ويتهمهم بالكذب والوضع والتزيد . فيونس ذكر حماداً فى الخبر الثانى الذى أوردناه وقال : العجب لمن يأخذ عن حماد ، كان يكذب ويلحن ويكسر . وقد مر بنا أن ابن سلام قال فى معرض حديثه عن

---

(١) طبقات النحويين واللغويين : ٣١ .

(٢) الأغانى ٢ : ١٧٦ .

(٣) ديوان الحطيئة : ٣٤ – ٣٥ .

الأسود بن يعفر : « إن أهل الكوفة يروون له أكثر مما نروى ويتجوزون فى ذلك بأكثر من تجوزنا » . وقال أيضاً فى معرض شعر رواه بعض أهل الكوفة : ونحن لا نعرف هذا ولا نقبله .

ومن أجل هذا كله لا نملك أن نطمئن إلى ما رُوى من أن حماداً وضع تلك القصيدة ونحلها الحطيئة ، ولا نملك أن نطمئن إلى أحكام يونس وابن سلام على حماد .

٥ ــ خلف الأحمر وحماد :

أما الأخبار الأربعة التى أوردناها عن خلف وحماد فثلاثة منها توثق حماداً توثيقاً ما بعده من توثيق ، فقد جاء فى الخبر الأول أن حماداً « أخذ عنه أهل المصرين (البصرة والكوفة) ، وخلف الأحمر خاصة » . وأكد الخبر الثانى ما جاء فى هذا الخبر الأول ، فذكر أن أهل الكوفة قرأوا أشعارهم على خلف بعد وفاة حماد لأن خلفاً « كان قد أكثر الأخذ عنه » . وكذلك جاء فى الخبر الثالث أن خلفاً الأحمر أول من أحدث السماع بالبصرة ، وذلك أنه جاء إلى حماد الراوية فسمع منه . فإذا كان حماد بهذه المنزلة التى تذكرها هذه الأخبار ، وكان أستاذاً لأهل الكوفة ، وبعض أهل البصرة وخاصة خلفاً ــ فكيف يستقيم ذلك مع الخبر الرابع الذى يذكر فيه خلف أن حماداً « كان فيه حمق » ، وأن خلفاً قال : كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب وأعطيه المنحول ، فيقبل ذلك منى ويدخله فى أشعارها . وليس هذا التناقض وحده بين هذا الخبر والأخبار الثلاثة قبله هو الذى يكشف عن زيف هذا الخبر ، بل إنه كذلك ليتناقض مع ما قدمنا من رأى العلماء فى حماد وهو أنه كان عالماً بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فكيف يكون علمه هذا إذا جاز عليه ماتزعمه هذه الرواية من منحول الشعر الذى كان يعطيه إياه خلف ؟ بل ثمة

تناقض ثالث : فقد مر بنا أن حماداً اتهم بأنه — لكثرة علمه بلغات العرب وشعرهم ومذاهب الشعراء ومعانيهم — كان ينظم الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ويحمل عنه ذلك فى الآفاق . ولكن هذا الخبر يصور لنا حماداً ثقة فيما يروى لأن خلفاً يعترف بأنه كان يأخذ منه الصحيح من أشعار العرب ؛ ثم إنه يصور لنا حماداً فى صورة الجاهل الأحمق الذى يستجهله حتى تلميذه فيعطيه المنحول من الشعر فيقبله ويجوز عليه !

فنحن إذن — بعد ما عرضنا هذه الأخبار وبينا ما فيها من زيف — نميل إلى أن نعد أكثر ما اتهم به حماد موضوعاً ، دعت إلى وضعه عوامل عدة منها : هذه العصبية التى كانت متأججة بين البصرة والكوفة ؛ ومنها : تلك المنافسات والخصومات الشخصية كالتى كانت بين المفضل وحماد ؛ ومنها : العصبية السياسية ، فقد كان حماد أموى الهوى والنزعة ، وكانت دولة بنى أمية قد ولت وأقبلت دولة جديدة تناصبها العداء وتريد أن تمحو محاسنها وآثارها وتحط من قيمة من اشتهر فيها أو نال لديها حظوة ؛ ومنها : أن حماداً كان — باعتراف الرواة — كثير الرواية واسع الحفظ [١] : فكان يروى ما لا يعرفه غيره ، ويحفظ ما لا يحفظون ، فاتهموه بالتزيد والوضع . وقد ساعد على كيل هذا الاتهام له وتضعيفه وتجريحه أنه كان ماجناً مستهتراً بالشراب مفضوح الحال [٢] .

---

(١) انظر لذلك الأغانى ٦ : ٧١ ، ٩٢ — ٩٤ .

(٢) انظر المصدر السابق ٦ : ٨٠ ، ٨٤ .

٣

ولكن الروايات والأخبار التي بين أيدينا لا تقتصر على اتهام حماد الكوفي ، وإنما تتهم كذلك شيخاً من شيوخ البصرة المقدمين ، ورأساً من رؤوس الرواية فيها ، هو خلف الأحمر . وسنعرض هذه الأخبار والروايات في سمطين : ينتظم أولهما الأخبار التي تتهمه بالوضع والنحل ، وينتظم ثانيهما الأخبار التي توثقه وتعدله . ثم نعقب عليهما بمناقشة الأخبار الأولى ونقدها .

١ ـ الأخبار التي تتهمه بالوضع والنحل :

(ا) قال محمد بن يزيد (المبرد) [١] : « كان خلف أخذ النحو عن عيسى بن عمر ، وأخذ اللغة عن أبي عمرو ، ولم يُرَ أحد قط أعلم بالشعر والشعراء منه ، وكان به يضرَب المثل في عمل الشعر ؛ وكان يعمل على ألسنة الناس فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه ؛ ثم نسك فكان يختم القرآن في كل يوم وليلة ؛ وبذل له بعض الملوك مالاً عظيماً خطيراً على أن يتكلم في بيت شعر شكوا فيه فأبى ذلك ، وقال : قد مضى لي في هذا ما لا أحتاج إلى أن أزيد فيه . وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية لأنه كان قد أكثر الأخذ عنه ، وبلغ مبلغاً لم يقاربه حماد ، فلما تقرَّأ ونسَك خرج إلى أهل الكوفة ، فعرَّفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس ، فقالوا له : أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة . فبقي ذلك في دواوينهم إلى اليوم » .

---

(١) مراتب النحويين : ٧٥ — ٧٦ .

(ب) قال أبو حاتم عن الأصمعي[١] : « كان خلف مولى أبي بردة ابن أبي موسى الأشعري . . . وكان أعلم الناس بالشعر ، وكان شاعراً ، ووضع على شعراء عبد القيس شعراً موضوعاً كثيراً ، وعلى غيرهم ، عبثاً بهم ، فأخذ ذلك عنه أهل البصرة وأهل الكوفة » .

(حـ) قال أبو حاتم[٢] : « ولما قدم الأصمعي من بغداد دخلت إليه ، فسألته عمن بها من رواة الكوفة . قال : رواة غير منقّحين ، أنشدوني أربعين قصيدة لأبي دُؤاد الأيادي قالها خلف الأحمر . وهم قوم تعجبهم كثْرة الرواية ، إليها يرجعون ، وبها يفتخرون » .

(د) وقال أبو عبيدة[٣] : « قال خلف : كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب وأعطيه المنحول ، فيقبل ذلك مني ويدخله في أشعارها ، وكان فيه حمق » .

(هـ) قال أبو علي القالي[٤] : « كان أبو مُحرز أعلم الناس بالشعر واللغة ، وأشعر الناس على مذاهب العرب . حدثني أبو بكر بن دُريد : أن القصيدة المنسوبة إلى الشنفرى التي أولها :

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مطِيِّكُمْ   فَإِنِّي إلى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لَأَمْيَلُ

له ، وهي من المقدمات في الحسن والفصاحة والطول ، فكان أقدر الناس على قافية » .

(و) وقال ابن عبد ربه[٥] : « كان خلف مع روايته وحفظه يقول الشعر فيحسن وينحله الشعراء ، ويقال إن الشعر المنسوب إلى ابن أخت

---

(١) مراتب النحويين : ٧٥ .
(٢) المرزباني ، الموشح : ٢٥١ - ٢٥٢ .
(٣) الأغاني ٦ : ٩٢ .
(٤) الأمالي ١ : ١٥٦ .
(٥) العقد ٦ : ١٥٧ .

تأبط شرًّا ، وهو :

إن بالشِّعْبِ إلى جَنْبِ سَلْعٍ　　لَقَتِيلًا دَمُهُ ما يُطَلُّ

لخلف الأحمر ، وإنما ينحله إياه » . وكان الجاحظ قد ذكر[1] : « وقال تأبط شرًّا أو أبو محرز خلف بن حيان الأحمر :

مُسْبِلٌ بالحَيِّ أحْوَى رِفَلٌّ　　وإذَا يَغْـدُو فَسِمْعٌ أزَلُّ[2]

وكذلك قال ابن قتيبة إن خلفاً الأحمر هو القائل :

إنَّ بالشِّعْبِ إلى جنْبِ سَلْعٍ　　لَقَتِيلًا دَمُهُ مـا يُطَلُّ

« ونحله ابن أخت تأبط شرًّا . وكان يقول الشعر وينحله المتقدمين[3] » .

٢ ــ الأخبار التي توثِّقه وتعدِّله :

(ا) قال ابن سلام:[4] « خلف بن حيان ، أبو محرز ، وهو خلف الأحمر ــ اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر ، وأصدقه لساناً . كنا لا نبالي إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً ، ألا نسمعه من صاحبه » . وقال أبو زيد الأنصاري أيضاً[5] « أتيت بغداد حين قام المهدي محمد ، فوافاها العلماء من كل بلدة بأنواع العلوم ، فلم أر رجلاً أفرس ببيت شعر من خلف » .

---

(١) الحيوان ١ : ١٨٢–١٨٣ .

(٢) السمع : ولد الذئب والضبع . والأزل : الأرسح وهو خفيف العجز . يقول : إنه يسبل إزاره خيلاء وكبراً ويتبختر ذاهباً في الترفه إلى أرفع الدرجة ، أو إنه يسبل شعراً أحوى أي أسود .

(٣) الشعر والشعراء ٢ : ٧٦٥ .

(٤) طبقات الشعراء : ٢١ .

(٥) ابن النديم ، الفهرست : ٨١ .

(ب) قال أبو حاتم[١]: «قال الأصمعي: كأنما جُعل علم لغة ابنى نزار، ومن كان من بنى قحطان على لغة ابنى نزار، بين جوانح خلف الأحمر بمعانيها».

(ح) وقال عيسى بن إسماعيل[٢]: «سمعت الأصمعي — وذكر خلفاً الأحمر أبا محرز — فقال: ذهبت بشاشة الشعر بعد خلف الأحمر. فقيل له: كيف وأنت حيّ؟ فقال: إن خلفاً كان يحسن جميعه وما أحسن منه إلا الحواشي».

(د) قال أبو عبيدة[٣]: «خلف الأحمر معلم الأصمعي ومعلم أهل البصرة».

(هـ) وقال أبو علي القالي[٤]: «وكنت أنا كثير التعطف للأصمعي، فكنت أسأل أبا بكر بن دريد كثيراً عن خلف والأصمعي: أيهما أعلم؟ فيقول لي: خلف. فلما أكثرت عليه انتهرني، وقال: أين الثماد من البحور!».

(و) وقال الرياشي[٥]: «سمعت الأخفش يقول: لم ندرك ها هنا أحداً أعلم بالشعر من خلف والأصمعي. قلت: أيهما كان أعلم؟ قال: الأصمعي. قلت: لم؟ قال: لأنه كان أعلم بالنحو».

٣ — مناقشة ونقد:

(ا) ونحب أن نقف قليلاً عند هذا التناقض الواضح بين أخبار الطائفة الأولى وأخبار الطائفة الثانية: فخلف معلم الأصمعي ومعلم أهل البصرة؛ والأصمعي يقول بعد موت خلف: ذهبت بشاشة الشعر،

---

(١) طبقات النحويين واللغويين: ١٧٩.

(٢) المصدر السابق: ١٨٠.

(٣) نزهة الألباء: ٧٠.

(٤) طبقات النحويين واللغويين: ١٧٩.

(٥) المصدر السابق: ١٧٩.

ويقدمه على نفسه ثم يقول عنه كأنما جُعل علم لغة العرب بين جوانح خلف الأحمر بمعانيها . وأبو بكر بن دُرَيْد يفضل خلفاً على الأصمعي ويجعله بحراً والأصمعي ثماداً . ومع ذلك فهذا الأصمعي نفسه يذكر أن خلفاً كان يضع الشعر وأنه وضع على شعراء عبد القيس شعراً موضوعاً كثيراً وعلى غيرهم عبثاً بهم ، وأنه وضع أربعين قصيدة ونحلها أبا دؤاد الإيادي . وابن دريد — على تقديمه خلفاً — يذكر أن خلفاً هو قائل القصيدة المنسوبة إلى الشنفرى . ولرب معترض يقول : إن وصف أخبار الطائفة الثانية خلفاً بالعلم لا تعني توثيقه في الرواية ، وبذلك لا تتناقض مع أخبار الطائفة الأولى . وهذا القول مردود من وجهين ؛ الأول : أن من الجائز ألا يعني الوصف بالعلم أن الموصوف به مُوثَّق في الرواية لو نُص على ذلك في الخبر نفسه ، كما جاء في الخبر (ب) من الطائفة الأولى حيث قال الأصمعي عن خلف : « كان أعلم الناس بالشعر . . . ووضع على شعراء عبد القيس شعراً موضوعاً كثيراً » . أما أن يوصف بالعلم ويوقف عند ذلك ولا يُنص على تضعيفه في الرواية ، فإن في هذا الإغفال نفسه دليلاً على التوثيق والتعديل ، لأن الكلام حينئذ ملتبس ، ولا بد لإيضاحه من النص على التضعيف والاتهام لو قُصدا . على أن كلامنا هذا يزيد اتضاحه في الوجه الثاني من وجوه ردنا ، وذلك هو نص ابن سلام الذي أوردناه . فابن سلام ينص على علم خلف بالشعر وينص كذلك على توثيقه في الرواية ، ثم لا يكتفي بأن يجعل ذلك رأياً خاصاً به وإنما يذكر أن هذا الرأي هو إجماع علماء البصرة ، قال ابن سلام : « اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر ، وأصدقه لساناً ، كنا لا نبالي إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً ألا نسمعه من صاحبه » . ولرأي ابن سلام قيمة خاصة إذ أن ابن سلام هو من نعرف شكاً في بعض الشعر الجاهلي ، ونصاً على بعض المنحول منه ، وذكراً لبعض الرواة الوضاعين وأخبار

وضعهم . والحق أن ابن سلام لم يكتف بكل هذا الذى قاله فى توثيق خلف ، وإنما أضاف إليه أقوالاً أخرى ذهب فيها إلى أن خلفاً كان ناقداً للشعر الجاهلى ، يميز صحيحه من فاسده ، وينص على المنحول منه ، ويرد كثيراً مما كان يُروّى فى زمنه . ومن أجل هذا جاءه خلاد بن يزيد الباهلى — « وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله » — فقال له[1] : « بأى شىء ترد هذه الأشعار التى تُرْوَى؟ » فقال له خلف : « هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لاخير فيه ؟ قال : نعم . قال : أفتعلم فى الناس من هو أعلم بالشعر منك ؟ قال : نعم . قال : فلا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت » . وهو يصوره أيضاً أنه — فى شكه فى بعض الشعر الجاهلى — لا يقطع ولا يجزم ، وإنما يقول إن هذه الأبيات أو تلك القصيدة « يقال » إنها لفلان ؛ فمن ذلك أن ابن سلام سأله عن بيت من الشعر : من يقوله ؟ فأجابه: « يقال للزبير بن عبد المطلب »[2] .

(ب) وفى أخبار الطائفة الأولى ، وهى التى تتهم خلفاً بالوضع والنحل ، أمر غريب حقّاً : فخلف بصرىّ ، والعلماء الذين يروون أخبار وضعه ونحله بصريون كذلك — مما يكاد يوهم أن هذه الأخبار صحيحة ، فقد شهد بها بصريون على بصرىّ ، وبذلك فهى بعيدة عما ذكرناه آنفاً من أمر العصبية وما تدفع إليه من الاتهام . غير أننا حين ننعم فى هذه الأخبار النظر نجد أنها لاتتهم حقّاً إلا الكوفيين ، وأن خلفاً لايعدو أن يكون معبراً يجتازونه ليصلوا منه إلى اتهام علماء الكوفة ورواتها . واتخذوا خلفاً وسيلة لذلك لأنه — كما أسلفنا القول — قد أخذ عن حماد الكوفى ، ثم أخذ الكوفيون بعد ذلك عن خلف . ففى الخبر (١) « وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية لأنه كان قد أكثر الأخذ عنه ،

---

(١) طبقات الشعراء : ٨ .

(٢) المصدر السابق : ٢٠٥ .

وبلغ مبلغاً لم يقاربه حماد ، فلما تقرأ ونسك خرج إلى أهل الكوفة ، فعرفهم الأشعار التى قد أدخلها فى أشعار الناس ؛ فقالوا له : أنت كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة . فبقى ذلك فى دواوينهم إلى اليوم » .

وفى الخبر (حـ) جعل الرواةُ الأصمعيَّ يتهم خلفاً بالوضع ليصلوا إلى أن رواة الكوفة « رواة غير منقحين ، أنشدونى أربعين قصيدة لأبى دؤاد الإيادى قالها خلف الأحمر . وهم قوم تعجبهم كثرة الرواية، إليها يرجعون، وبها يفتخرون » .

وجعل الرواة ، فى الخبر (د) ، خلفاً يعترف بأنه كان ينحل الشعر ، ليصلوا إلى أنه أعطى هذا الشعر المنحول لحماد الراوية الكوفى ، فقبله ، ورواه ، وأدخله فى أشعار العرب .

ومن أجل هذا نجد أن كثيراً من هذه الأخبار — بالرغم من أن رواتها بصريون يتهمون راوية بصريًّا — قد انتهت إلى غايتها وكشفت بذلك عن عوارها .

(حـ) ومما يدلنا على مبلغ تجنى بعض الرواة على خلف ، ومدى ما انتهت إليه هذه الضروب المتعددة من العصبيات والخصومات — أنهم وضعوا شعراً ورجزاً على لسان خلف الأحمر وغيره من العلماء الرواة ، ثم نسبوا إليه أنه وضع ذلك الشعر ونحله القدماء . قال الجاحظ[1]: « ولقد ولَّدوا على لسان خلف الأحمر ، والأصمعى ، أرجازاً كثيرة ؛ فما ظنك بتوليدهم على ألسنة القدماء ؟ » . ولعل فى هذا ما يكشف لنا عن مدى الثقة التى يجب أن نوليها مثل هذه الروايات والأخبار التى تتهم خلفاً ، وعرضنا طرفاً منها .

---

(١) الحيوان ٤ : ١٨١ — ١٨٢ .

(د) ونحب أن نكشف عن أمر آخر ، يتصل بهذا الذى قالوه من أن خلفاً قال القصيدة اللامية :

إنَّ بالشِّعبِ إلى جَنْبِ سَلْعٍ   لَقَتِيلاً دَمُهُ ما يُطَلُّ

ونحلها تأبط شرًّا . فقد اختلف القدماء فى نسبتها : فنسبها بعضهم ، كأبى تمام فى حماسته(١)، إلى تأبط شرًّا ، ولم يشر إلى أنها قد تنسب إلى غيره . ونسبها بعضهم إلى الشنفرى(٢) ، ولم يشر كذلك إلى أنها قد تنسب إلى غيره . وقد يتداخل بعض شعر الشنفرى وتأبط شرًّا ، ويُنسب ما قاله أحدهما إلى الآخر لأنهما كانا من اللصوص وصعاليك العرب وفُتَّاكهم ، وأكثر ما يتحدثان عنه فى شعرهما متشابه . ونسبها بعضهم إلى ابن أخت تأبط شرًّا قالها فى خاله . ونحن، فى هذا المقام ، لا يعنينا التثبت من نسبتها إلى واحد من هؤلاء الثلاثة ، فسواء أكانت لتأبط شرًّا أم لابن أخته أم للشنفرى ، فهى عندنا — هنا — جاهلية صحيحة وليست منحولة . ولكننا نحب أن نقف قليلاً عند أقوال من ذهبوا إلى أنها منحولة . ولنبدأ بما أورده التبريزى ، قال(٣) : « قال النمرى (٤) : ومما يدل على أنها لخلف الأحمر قوله فيها : " جلَّ حتى دقَّ فيه الأجلُّ " فإن الأعرابى لا يكاد يتغلغل إلى مثل هذا . قال أبو محمد الأعرابى (٥) : هذا موضع المثل " ليس بعشك فادرجى " ، ليس هذا كما ذكره ، بل الأعرابى قد يتغلغل إلى أدقَّ من هذا لفظاً ومعنى . وليس من هذه الجهة عُرِف أنَّ الشعر

(١) ج ١ ص : ٣٤٨ .

(٢) الأغانى ٦ : ٨٦ — ٨٧ ، وأمالى المرتضى ١ : ٢٨٠ .

(٣) شرح الحماسة (تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد) ٢ : ٣١٣ — ٣١٤ .

(٤) أحد شراح حماسة أبى تمام المتقدمين ، قبل التبريزى .

(٥) هو الحسن بن أحمد ، المعروف بالأسود الغندجانى ، علامة نسابة ، عارف بأيام العرب وأشعارها ، من رجال آخر القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس . (ترجمته فى نزهة الألباء : ٢٣٩ ، ومعجم الأدباء ٧ : ٢٦١ — ٢٦٥) .

مصنوع ، لكنْ من الوجه الذى ذكره لنا أبو الندى [١] ، قال : مما يدل على أن هذا الشعر مولد أنه ذكر فيه سلعاً ، وهو بالمدينة ، وأين تأبط شرًّا من سلع ؟ وإنما قُتل فى بلاد هُذيل ورُمىَ به فى غار يقال له رخمان». أرأيت إلى إقامة الدليل كيف تكون ؟ لقد أحس الأقدمون أنفسهم بضعف قول من قال إن هذه القصيدة لخلف نحلها تأبط شرًّا أو ابن اخته ، فمضوا يعتسفون الطريق إلى دليل يدعمون به هذا القول ، فكان دليلهم ظنًّا وتوهماً لم يغنيا شيئاً . قال بعضهم إن فى هذه القصيدة نصف بيت - نصف بيت فى القصيدة كلها - فيه معنى فلسفى عميق لا يدركه الأعرابى ، وما هو هذا المعنى الفلسفى العميق ؟ قالوا إنه قوله : جل حتى دق فيه الأجلّ . فإذا كشفتَ عن عمق هذا المعنى لم تجده يعنى شيئاً غير قوله : إن وفاة هذا الرجل لأمر عظيم يصغر بإزائه كل عظيم من الأمور . فأى عمق فى هذا القول لا يدركه الأعرابى ومن هو دون الأعرابى [٢] ؛ فلما جاء من دفع هذا القول وردّه لم يلبث أن هوى فى مزلق دونه المزلق الأول . فقال : إن الدليل على أن هذه القصيدة مصنوعة أن الشاعر ذكر سلعاً ، وأن سلعاً جبل فى المدينة ، ولكن الرجل المذكور فى القصيدة قد قتل فى بلاد هُذَيل ! ! أى عجب يربى على هذا العجب ! وماذا يقول أبو الندى - الذى ذهب إلى هذا الرأى ونقله عنه أبو محمد الأعرابى

---

(١) هو محمد بن أحمد ، أبو الندى ؛ كان أبو محمد الأعرابى يكثر من الرواية عنه والاعتماد عليه . (ترجمته فى معجم الأدباء ١٧ : ١٥٩ - ١٦٤) . قال عنه ياقوت (٧ : ٢٦٢) إنه «رجل مجهول لا معرفة لنا به» . وقال : «وكان أبو يعلى بن المبارية الشاعر يعيره (أى : يعير أبا محمد الأعرابى) بذلك ، ويقول : ليت شعرى ، من هذا الأسود الذى قد نصب نفسه للرد على العلماء ، وتصدى للأخذ على الأئمة القدماء ؟ بماذا نصحح قوله ونبطل قول الأوائل ، ولا تعويل له فيما يرويه إلا على أبى الندى ، ومن أبو الندى فى العالم ؟ لا شيخ مشهور ، ولا ذو علم مذكور . . . !»

(٢) انظر كتاب المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، تأليف الدكتور عبد الله الطيب ص : ٧٦ - ٧٧ التعليق رقم : ١ .

– لو قيل له : إن سلعاً اسم لعدة مواضع ، ومنها – كما قال الأقدمون أنفسهم – « جبل لهذيل » [١] !!

فإذا شككتَ – كما نشك نحن الآن – فى أمر هذا الخبر الذى يتهم خلفاً بوضع هذه القصيدة ونحلها الشنفرى أو تأبط شرًّا أو ابن أخته ، وإذا رجع لديك – كما رجح لدينا – أن أكثر هذه القصيدة لا يمكن أن يكون موضوعاً مُتكلَّفاً منحولاً لما يظهره فيها النقد الفنى الداخلى من أصالة ، وصدق فنى ، وشخصية صادقة – فقد بقى إذن أن نعرف كيف التبس أمرها على القوم . وقد عثرنا على خبر طريف يوضح لنا الأمر من جميع أطرافه : فقد أورد الخالديان اثنى عشر بيتاً من هذه القصيدة ونسباها للشنفرى ، ثم قالا [٢] « وقد زعم قوم من العلماء أن الشعر الذى كتبنا للشنفرى هو لخلف الأحمر ، وهذا غلط . ونحن نذكر الخبر فى ذلك : أخبرنا الصولى عن أبى العيناء قال : حضرت مجلس العتبى ، ورجل يقرأ عليه الشعر للشنفرى ، حتى أتى على القصيدة التى أولها :

إن بالشِّعْبِ الذِى دُونَ سلْعٍ   لَقَتِيـلاً دَمُـهُ مَا يُطَلُّ

فقال بعض من كان فى المجلس : هذه القصيدة لخلف الأحمر . فضحك العتبى من قوله ، فسألناه عن سبب ضحكه فقال : والله ما لآل أبى محرز خلف من هذه القصيدة بيت واحد . وما هى إلا للشنفرَى . وكان لها خبر طريف لم يبقَ من يعرفه غيرى . قلنا : وما خبرها ؟ قال . جلسنا يوماً

---

(١) الفيروزبادى « القاموس (سلع) ؛ وكذلك ياقوت « معجم البلدان » وسلع جبل فى ديار هذيل » وأنشد ثلاثة أبيات للبريق الهذلى آخرها :

يحط العصم من أكناف شعر   ولم يترك بذى سلع حمارا

(٢) حماسة الخالديين (مخطوط فى دار الكتب المصرية رقم ٥٨٧ أدب) ورقة : ١٢٠ – ١٢٢ .

بالمربد ، ونحن جماعة من أهل الأدب ، ومعنا خلف الأحمر ، نتذاكر أشعار العرب ، وكان خلف الأحمر أروانا لها وأبصرنا بها ؛ فتذاكرنا منها صدراً ، ثم أفضينا إلى أشعارنا ، فخضنا فيها ساعة ، فبينا خلف ينشدنا قصيدة له فى روى قصيدة الشنفرى هذه وقافيتها يذكر فيها ولد أمير المؤمنين عليهم الرحمة ، وما نالهم وجرى عليهم من الظلم ، إذ هجم علينا الأصمعى ، وكان منحرفاً عن أهل البيت ، وقد أنشد خلف بعض الشعر ، فلما نظر الأصمعى قطع ما كان ينشده من شعره ودخل فى غيره إلا أنه على الوزن والقافية ، ولم يكن فينا أحد عرف هذا الشعر ولا رواه للشنفرى . فتحيرنا لذلك وظنناه شيئاً عمله على البديهة . فلما انصرف الأصمعى قلنا له : قد عرفنا غرضك فيما فعلت . وأقبلنا نطريه ونقرظه . فقال : إن كان تقريظكم لى لأنى عملت الشعر ، فما عملته والله ، ولكنه للشنفرى يرثى تأبط شرًّا ، ووالله لو سمع الأصمعى بيتاً من الشعر الذى كنت أنشدكموه ما أمسى أو يقوم به خطيباً على منبر البصرة فيتلف نفسى . فادعاء شعر لو أردت قول مثله ما تعذر على — أهون عندى من أن يتصل بالسلطان ، فألحق باللطيف الخبير . قال أبو العيناء : فسألنا العتبى شعرَ خلف الذى ذكر فيه أهل البيت فدافعنا مدة ثم أنشد :

قَدْكَ مِنِّى صَارِمٌ مَا يُفَــلُّ وابْنُ حَزْمٍ عَقْــدُه لَا يُحَلُّ
يَنْثَنِى باللَّوْمِ مِنْ عَاذِلِيــه مَا يُبالِى أَكْثَرُوا أَمْ أَقَلُّوا

(وهى ٤٧ بيتاً أوردها كلها ، ثم قال) : كتبنا هذه القصيدة بأسرها لأنها فى سادتنا عليهم السلام ، ولأنها أيضاً غريبة لا يكاد أكثر الناس يعرفها » .

(هـ) وأمر أخير نختم به حديثنا عن خلف الأحمر . وذلك هو الخبر الذى رووا فيه أنه وضع لأهل الكوفة شعراً كثيراً رووه عنه « فلما تقرّأ ونسك خرج إلى أهل الكوفة ، فعرّفهم الأشعار التى قد أدخلها فى أشعار الناس . فقالوا له :

أنت كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة، فبقى ذلك فى دواوينهم » .

وقد أشرنا إلى أن راوى هذا الخبر بصرى ممن كان يتعصب على الكوفيين ، وأن الغرض من هذا الخبر توهين رواية الكوفيين للشعر . ونحب فى هذا المكان أن نسأل : مَنْ مِنْ رواة الكوفة أبى أن يقبل من خلف اعترافه : أكلهم أم بعضهم ؟ فإذا كانوا جميعاً لم يقبلوا ذلك فهى الأمر إجماع واتفاق يعزُّ مثلهما فى أمر أيًّا كان ؛ وإن كان بعضهم لم يقبل، وبعضهم قبل ، فما هى القصائد التى اعترف بها خلف وأين ذكرها علماء الكوفة الذين قبلوا اعتراف خلف ؟ ولو تركنا أهل الكوفة وتساءلنا عن أهل البصرة : ألم يسمع بعضهم بما اعترف به خلف لأهل الكوفة ؟ فإذا كان أهل الكوفة لم يقبلوا اعترافه ، فهل قبل ذلك أهل البصرة؟ وأين نصُّوا على هذه القصائد التى وضعها ؟ ثم ، إذا كان أهل البصرة قد علموا بذلك وقبلوا اعتراف خلف فقد ثبت لديهم إذن أن خلفاً كان يكذب ويضع الشعر وينحله الأقدمين ؛ فكيف إذن وثقوه وقبلوا روايته ؟ بل كيف وثقه الأصمعى وابن سلام — وهما من هما — توثيقاً لم يوثقاه أحداً ؟ والجواب على ذلك واضح ، فقد وثقوه لأنه كان ثقة ، ولأن هذا الخبر الذى رواه المبرد أو نسب إليه — خبر لم يقبله أحد لأنه مما دعت إليه العصبيات والخصومات . . .

وبعد ؛

فلسنا نقصد إلى الحديث عن سائر العلماء من رواة الشعر ، فإن حديثنا حينئذ لا ينتهى بنا إلى غاية نقف عندها ، ونحن نرى أن فى حديثنا عن حماد وخلف — وهما أشهر من رُمى بالوضع وأكثر من اتهم بالنحل — ما يغنى عن الاستقصاء والإفاضة . غير أننا نحب أن نشير إلى عالم ثالث من رواة الشعر واللغة ، ثقة أىّ ثقة عند الكثيرين ، ومع ذلك لم يعدم من يضطغن عليه فيرميه بالوضع والتزيد : ذلك هو الأصمعى . وسنقتصر على خبرين فيهما تأييد لما ذهبنا إليه من أمر هذه الخصومات والمنافسات والعصبيات وما تدعو إليه من اتهام بالوضع ورمى بالكذب . فقد كان ابن الأعرابى ، وهو كوفى ، ينتقص الأصمعى

ـ وهو بصرى ـ ويرميه بمثل ما قدمنا ؛ وكان يصح أن نرى مرد هذا الاتهام إلى العصبية التى أشرنا إلى بيان أمرها ؛ ولكننا نجد خبراً ذا قيمة كبيرة لنا فى هذا المجال يرجع اتهام ابن الأعرابى الأصمعى إلى خصومة شخصية . قالوا[١] : « كان أول من أغرى ابن الأعرابى بالأصمعى أن الأصمعى أتى ولد سعيد بن سَلْم الباهلى ، فسألهم عما يروونه من الشعر ، فأنشده بعضهم القصيدة التى فيها :

سَمِينُ الضَواحِي لَمْ تُؤَرِّقْهُ ـ لَيْلَةً   وأَنْعَمَ ـ أَبكارُ الهُمُومِ وَعُونُهَا[٢]

فقال الأصمعى : من روّاك هذا الشعر؟ قال : مؤدب لنا يعرف بابن الأعرابى . فقال : أحضروه . فأحضروه ، فقال له : هكذا روّيتهم هذا البيت برفع «ليلة»؟ قال : نعم . فقال الأصمعى : هذا خطأ ، إنما الرواية « ليلةً » بالنصب ، يريد : لم تؤرقه أبكار الهموم وعونها ليلةً من الليالى . فقال الأصمعى لسعيد : من لم يحسن هذا القدر فليس موضعاً لتأديب ولدك ! فنحّاه سعيد . فكان ذلك سبب طعن ابن الأعرابى على الأصمعى » .

وأما الخبر الثانى فهو حديث لأبى الطيب اللغوى فيه بيان جوانب كثيرة من حديثنا الذى قدمناه ، قال فى معرض حديثه عن الأصمعى[٣] : « فأما ما يحكيه العوام وسُقّاط الناس من نوادر الأعراب ، ويقولون : هذا مما افتعله الأصمعى ، ويحكون أن رجلاً رأى عبد الرحمن ابن أخيه فقال : ما فعل عمك ؟ فقال : قاعد فى الشمس يكذب على الأعراب . فهذا باطل ، ما خلق الله منه شيئاً ، ونعوذ بالله من معرة جهل قائليه وسقوط الخائضين فيه . وكيف يقول ذلك عبد الرحمن ولولا عمه لم يكن شيئاً ؟ وكيف يكذّب عمه وهو لا يروى شيئاً إلا عنه ؟ وأنّى يكون الأصمعى كما زعموا وهو لا يفتى إلا فيما أجمع عليه العلماء ويقف عما يتفردون

---

(١) السيوطى ، المزهر ٢ : ٣٢٢ و ٣٨٠ .
(٢) الضواحى : ما بدا من الجسد . وأنعم : زاد فى هذه الصفة .
(٣) مراتب النحويين ورقة: ٨٠ – ٨٣ .

به عنه ولا يجوّز إلا أفصح اللغات ويلجّ فى دفع ما سواه . . ؟ . . وكان أبوزيد وأبو عبيدة يخالفانه ويناوئانه كما يناوئهما ، فكلهم كان يطعن على صاحبيه بأنه قليل الرواية ولا يذكره بالتزيد ؛ وكان أبو زيد أقلهم طعناً على غيره ؛ وكان أبو عبيدة يطعن على الأصمعى بالبخل وضيق العطن ؛ فكان الأصمعى إذا ذكر أبا عبيدة قال : ذاك ابن الحائك . . . فانظر إلى هذا الإنصاف بينهم مع شدة المنافسة ، ثم لا يتهم أحدهم صاحبه بالكذب ولا يقرفه بالتزيد ، لأنهم يبعدون عن ذاك . . . . »

وقد ذهب ابن جنى إلى مثل ذلك ، فقد عقد فصلاً عنوانه « باب فى صدق النقلة وثقة الرواة والحملة » قال فيه : « هذا موضع من هذا الأمر لا يعرف صحته إلا من تصور أحوال السلف ، وعرف مقامهم من التوقير والجلالة » ، ثم ذكر من أخلاق بعض الرواة العلماء مثل أبى عمرو بن العلاء والأصمعى وأبى زيد وأبى عبيدة وأبى حاتم — ما يوثقهم به ويدفع عنهم ما رُموا به . وقد قال عن الأصمعى : « وهذا الأصمعى ، وهو صناجة الرواة والنقلة ، وإليه محط الأعباء والثقلة ... كانت مشيخة القراء وأماثلهم تحضره وهو حدث لأخذ قراءة نافع عنه ؛ ومعلوم قدر ما حذف من اللغة فلم يثبته ، لأنه لم يقوَ عنده إذ لم يسمعه . وأما إسفاف من لا علم له ، وقول من لا مُسكة به : إن الأصمعى كان يزيد فى كلام العرب ويفعل كذا ويقول كذا — فكلام معفو عليه ، غير معبوء به . . . » ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عما قدمنا من أمر العصبية بين البصرة والكوفة والخصومات التى نشأت بين العلماء الرواة ، فيرى فيها رأياً لا بأس من إيراده ، إذ يرى فى هذا الاتهام الذى كانوا يتبادلونه دليلاً على مدى تحريهم الدقة وتشددهم فى الرواية ، قال : « فإن قلت : فإنا نجد علماء هذا الشأن من البلدين ، والمتحلِّين به من المصرين ، كثيراً ما يهجِّن بعضهم بعضاً ، فلا يترك له فى ذلك سماء ولا أرضاً . قيل : هذا أدل دليل على كرم هذا الأمر ونزاهة هذا العلم ؛ ألا ترى إذا سبق إلى أحدهم ظنَّة ، أو توجهت نحوه شبهة ، سُبَّ

بها ، وبَـرِئٌ إلى الله منه لمكانها . ولعل أكثر ما يرى بسقطة فى رواية ، أو غمزة فى حكاية ، محمىّ جانب الصدق فيها ، برىء عند الله من تبعتها ؛ لكن أخذت عنه إما لاعتنان شبهة عرضت له ، أو لمن أخذ عنه ، وإمّا لأن ثالبه ومعيّبه مقصر عن مغزاه ، مغضوض الطرف دون مداه ؛ وقد عرض الشبهة للفريقين ، ويعترض على كلا الطريقين . فلولا أن هذا العلم فى نفوس أهله والمتفيئين بظله كريم الطرفين . . . لما تسابّوا بالهجنة فيه ، ولا تنابزوا بالألقاب فى تحصين فروجه ونواحيه . . . وإذا كانت هذه المناقضات والمنافسات موجودة بين السلف القديم . . . ثم لم يكن ذلك قادحاً فيما تنازعوا فيه ، ولا عائداً بطرف من أطراف التبعة عليه جاز مثل ذلك أيضاً فى علم العرب الذى لا يخلص جميعه للدين خلوص الكلام والفقه له ، ولا يكاد يعدم أهله الأنس به والارتياح لمحاسنه » .

٤

ومع ذلك كله فنحن لا نذهب — ولا يصح لأحد أن يذهب — إلى أن جميع ما فى تضاعيف الكتب العربية من شعر منسوب إلى الجاهلية — صحيح مبرأ من الوضع والنحل ، ولكننا أردنا فى حديثنا الذى قدمناه أن نفحص مواطئ أقدامنا حتى نمضى فى يقين وثقة ، ونصدر عن بصيرة وهدى ، وأن نضع فى الطريق أعلاماً ، حتى لا نضل فيها ولا تعمى علينا معالمها . وقد قادنا البحث إلى أن هذا الشعر المنسوب إلى الجاهلية على ثلاثة أضرب :

١ — فضرب موضوع منحول ، إما على وجه اليقين القاطع وإما على وجه الترجيح الغالب . وأكثر شعر هذا الضرب ما وضعه القُصّاص ليُحَلّوا به قصصهم ، أو يكسبوه فى نفوس السامعين والقارئين شيئاً من الثقة ، وما وضعه هؤلاء القصاص على لسان آدم وغيره من الأنبياء أو على لسان بعض العرب البائدة ، وما وضعه

بعض الرواة ليثبتوا به نسباً أو يَدلّوا به على أن لبعض العرب قُدْمة وسابقة . وقد أشرنا إلى بعض هذا الحديث في فصل مضى ، وأشار إليه غيرنا في مواطن متفرقة ، بحيث لا نحتاج إلى إعادة القول فيه ؛ إذ أننا نراه أيسر هذه الضروب الثلاثة وأهونها لسهولة انكشافه ويسر افتضاحه ، بحيث لا يكاد يعمى على أحد .

٢ ــ وضرب صحيح لاسبيل إلى الشك فيه أو الطعن عليه . وذلك هو الذى أجمع العلماء الرواة على إثباته بعد أن تدارسوا هذا الشعر وفحصوه ومحصوه . وقد مر بنا أن القدماء كانوا يميزون الراوية من العالم بالرواية والشعر ، فيأخذون قول الأول فى حذر واحتياط ، ولا يقبلون منه إلا ما يطمئنون إلى صحته ، ثم يأخذون قول الثانى واثقين مطمئنين إلا أن يظهر لهم من وجوه النقد ما يضعف من ثقتهم واطمئنانهم . وقد فصلنا القول فى أمر هؤلاء العلماء بالرواية والشعر ، وكيف كانوا ــ على اختلاف مدارسهم ــ يجدُّون فى الجمع والاستقصاء ، ثم فى البحث والتمحيص حتى يميزوا الموضوع من الصحيح ، فلا يحفلوا بالموضوع ويسقطوه من مروياتهم وكتبهم ، أو يثبتوه وينبهوا عليه . ويحسن بنا أن نذكّر بثلاثة أخبار كنا قد قدمناها شاهدة على ما نقول . الأول : أن خلفاً الأحمر كان رأساً من رؤوس الرواية ، أخذ عنه البصريون جميعاً ، وكان من هؤلاء العلماء الذين لايقبلون من الشعر إلا ما ميزوا صحته ، ولا يروون منه إلا ما اطمأنوا إلى أنه غير موضوع ؛ حتى لقد جاءه يوماً خلاد بن يزيد الباهلى ، « وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله» ، فقال له : « بأى شىء تردهذه الأشعار التى تروى؟ قال له : هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لا خير فيه ؟ قال : نعم . قال : أفتعلم فى الناس من هو أعلم بالشعر منك ؟ قال : نعم . قال : فلا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت »[1] وحتى لقد قال له قائل يوماً [2] « إذا سمعت أنا بالشعر أستحسنه فما أبالى ما قلت فيه أنت وأصحابك . قال له :

---

(١) ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء : ٨ .

(٢) المصدر السابق : ٨ .

إذا أخذت أنت درهماً فاستحسنته ، فقال لك الصراف إنه ردىء ، هل ينفعك استحسانك له ؟ » .

ومن هؤلاء العلماء الرواة الذين جدّوا فى فحص الشعر الجاهلى ودراسته وروايته وتمييز موضوعه من صحيحه : أبو عبيدة معمر بن المثنى . فقد أتى — هو وابن نوح العطاردى — ابنَ داوود بن متمم بن نويرة لما قدم البصرة . فسألاه عن شعر أبيه متمم ، وقاما له بحاجته ، فلما نفد شعر أبيه جعل يزيد فى الأشعار ويضعها لهما ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التى ذكرها متمم ، والوقائع التى شهدها . فلما توالى ذلك علما أنه يفتعله [1] . وقد قدمنا فى الفصل الثانى من هذا الباب بعض تحقيقات أبى عبيدة فى كتاب الخيل .

وقد بلغ رواة الشعر وعلماؤه من التحقيق والتمحيص ، وتمييز منحوله ، والنصّ على الموضوع منه ، منزلةً جعلت بعض العلماء يفضلونهم على رواة الحديث ، فقد قال محمد بن سلام [2] « حدثنى يحيى بن سعيد القطان قال : رواة الشعر أعقل من رواة الحديث ، لأن رواة الحديث يروون مصنوعاً كثيراً ، ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون : هذا مصنوع » .

وإذا ما سألنا — كما سأل خلاد بن يزيد الباهلى خلفاً الأحمر — عن مقاييس هؤلاء العلماء الرواة فى نقد الشعر وتمييز صحيحه من منحوله — ظننّا بادئ الرأى أنه لم يكن لهؤلاء القوم مقاييس ثابتة معروفة ، وأنهم ، إذا ما أجابونا عن هذا السؤال ، سيفرّون من الإجابة الشافية كما فرّ منها خلف حينما قال لخلاد إنه إذا كان يعلم أن فى الشعر ما هو مصنوع ، وإذا كان يعلم أن فى الناس من هو أعلم بالشعر منه ، فعليه ألا ينكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما يعلم . وكذلك حين شبّه الناقد للشعر بالصراف من غير أن يذكر لنا مقياساً واضحاً . ولكننا

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ٤٠ .

(٢) ذيل الأمالى : ١٠٥ .

— حين نتعمق البحث ونستقصيه — لا نلبث أن نكتشف أنه كانت بين أيديهم ثلاثة مقاييس :

(ا) ذوقهم الشعرى الذى اكتسبوه عن علم ودراية بعد طول معاناة ودرس هذا الشعر ، شأنهم فى ذلك شأن الصراف الذى أشار إليه خلف ، والذى لا يكاد الدرهم يقع بين يديه حتى يميزه لكثرة ما مرن على هذا الضرب من المعاناة والمعرفة . ولكنهم لم يكونوا يستخدمون هذا المقياس وحده ، وإنما كانوا يدعمونه ويقوّونه بأحد المقياسين التاليين .

(ب) إجماع الرواة : ولكن هل وقع هذا الإجماع فى شىء من الشعر الجاهلى ؟ أجل ، لقد وقع فى كثير منه ولم يختلفوا إلا فى بعضه ، وقد بينّا طرفاً من ذلك فيما مضى ، وسنبين طرفاً آخر منه فى هذا الفصل وما سيتلوه من فصول . ويتبين لنا مدى إجلالهم لإجماع الرواة فى مثل قول ابن سلام [1] « وقد اختلفت العلماء فى بعض الشعر كما اختلفت فى بعض الأشياء ، أما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج منه » وقوله فى إجماعهم على الموضوع من الشعر [2] « وليس لأحد — إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شىء منه — أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى » . ومن هنا أوردوا ما أجمع عليه العلماء على أنه صحيح لا سبيل إلى الطعن فيه ، فقال ابن سلام [3] « وأجمع الناس على أن الزبير بن عبد المطلب شاعر ، والحاصل من شعره قليل ، فما صح عنه قوله : . . . » وأورد الواقدى أبياتاً بعد أن قال [4] « وهى ثبت لم أرَ أحداً يدفعها » . وأورد رجزاً فى موطن آخر وقال [5] : « ما رأيت من أصحابنا أحداً يدفعه » . وإجماع الرواة الثقات هو الذى ذكره

---

(١) طبقات الشعراء : ٦ .

(٢) المصدر السابق : ٦ .

(٣) المصدر السابق ٢٠٥ .

(٤) المغازى : ١٥٠ .

(٥) المصدر السابق : ٢٧٧ .

الجاحظ فى قوله[١] : « فالعلماء الذين اتسعوا فى علم العرب ، حتى صاروا إذا أخبروا عنهم بخبر كانوا الثقات فيما بيننا وبينهم ، هم الذين نقلوا إلينا . وسواء علينا جعلوه كلاماً وحديثاً منثوراً ، أو جعلوه رجزاً أو قصيداً موزوناً » .

(حـ) والمقياس الثالث الذى كان يعتمد عليه العلماء فى القرنين الثالث والرابع ويزنون به هو : وجود الشعر فى ديوان الشاعر أو ديوان القبيلة ، فقد دوّن هذه الدواوين الثقاتُ من العلماء الرواة ، ولذلك قبلوا ما جاء فيها حين يجىء فى صورة اليقين والقطع ، وأما ما ذكره هؤلاء العلماء أنفسهم فى تلك الدواوين على أنه مما يُشك فيه أو يتوقف عنده ، فقد كانوا ينقلونه كما ذكروه بألفاظهم ، وقد يبيحون لأنفسهم بحثه والنظر فيه . ومما يدل على مدى ثقتهم بما دونه العلماء فى الدواوين الشعرية أن أبا الفرج ذكر شعراً لامرئ القيس وقال[٢] : « وهى قصيدة طويلة وأظنها منحولة » ثم قدم لظنه هذا بسببين الأول : « لأنها لا تشاكل كلام امرئ القيس » ، وهو نقد داخلى ، والثانى : لأنه « ما دونها فى ديوانه أحد من الثقات » ، وهو هذا النقد الخارجى الذى نحن بسبيله ، وكذلك أورد أبو الفرج أشعاراً لدُرَيد بن الصمة رواها ابن الكلبى ، ثم قال أبو الفرج إنها « موضوعة كلها » ، واستدل على ذلك بقوله[٣] : « ما رأيت شيئاً منها فى ديوان دريد بن الصمة على سائر الروايات » . وأورد الآمدى أبياتاً نسبها إلى امرئ القيس بن مالك الحميرى ، ثم قال[٤] : « وهى أبيات تُروَى لامرئ القيس بن حُجر الكندىّ ، وذلك باطل ، إنما هى لامرئ القيس هذا الحميرى » ، ثم يقدم على ذلك دليله وهو أن هذه الأبيات مذكورة فى ديوان القبيلة ، قال : « وهى ثابتة فى أشعار حمير » .

---

(١) الحيوان ٤ : ١٨٤ .
(٢) الأغانى ٩ : ٩٧ .
(٣) المصدر السابق ١٠ : ٤٠ .
(٤) المؤتلف والمختلف : ١٢ .

فإذا ما استخدم العلماء هذه المقاييس الثلاثة ، أو اكتفوا ببعضها — وكثيراً ما يكون الثانى أو الثالث — اطمأنوا إلى ما يوردون ، وثبتت عندهم صحته وقدمه . فمن ذلك أنك ترى أبا عبيدة يورد شعراً جاهلياً ويصفه بقوله إنه[١] « الشعر الثابت الذى لا يُرَدُّ » . ومن ذلك أيضاً أن الواقدى يورد شعراً لحسان ويصفه بقوله[٢] : « ثبت قديمه » . وأن الجاحظ يطمئن إلى أنه يستشهد على بعض الأخبار « بالشاهد الصادق » [٣] و « بالأشعار الصحيحة » [٤] ، ويصف بعض ما يذكر من أشعار العرب وأخبارهم بأنها « أشعارهم المعروفة وأخبارهم الصحيحة » [٥] .

٣ — وأما الضرب الثالث من ضروب الشعر الجاهلى ، فهو المختلف عليه ، الذى قال عنه ابن سلام « وقد اختلفت العلماء فى بعض الشعر ، كما اختلفت فى بعض الأشياء » . وفى هذا الضرب الثالث نقاط ينبغى أن ننبه عليها لنحيط بالموضوع من أطرافه .

(ا) أولها أن هذا الضرب يبدو — للقارئ العابر للكتب العربية — عظيماً كبير القدر ، وذلك لكثرة ما يقرأ من النص على أن هذا البيت موضوع وأن تلك الأبيات منحولة ، ولكثرة ما يمر به من اتهام للرواة بالوضع والكذب والتزيد . ولكن الحقيقة التى لا مراء فيها عند من ينعم النظر ويستقصى فى البحث — أن هذا الضرب ليس بالكثرة التى يبدو بها ، وسيمر بنا فى الباب التالى عند حديثنا عن الدواوين أن الراوية العالم من الطبقة الثانية أو الثالثة ، يروى ديوان شاعر عن راويتين أو ثلاثة من الطبقة الأولى ، فيورد كثيراً من قصائد الديوان والإجماعُ منعقدٌ على صحتها ، ثم يشير فى قصائد قليلة إلى أن هذه القصيدة قد رواها فلان

---

(١) النقائض : ٢٣٨ .

(٢) المغازى : ٢٨٢ .

(٣) البيان والتبيين ٢ : ٤ .

(٤) الحيوان ٢ : ١٠٧ .

(٥) المصدر السابق ٢ : ٣٢٠ .

ولم يروها فلان ، أو أن تلك القصيدة قد تُنسب إلى فلان وهو غير صاحب الديوان . وقد يجمع هذا الراوية – الذى قلنا إنه من الطبقة الثانية أو الثالثة – أبياتاً متفرقة ومقطعات صغيرة يضمها عنوان هو « المنحول من شعر فلان » . وهو يقصد بالمنحول ما لم يروه هؤلاء الرواة العلماء الذين رووا هذا الديوان . فإذا ما أحصيت هذه الأبيات التى نص فى تضاعيف الديوان أنها مما رواه فلان دون فلان ، وضَممتَ إليها ما جُمع فى آخر الديوان بعنوان « المنحول من شعره » وجدتها كلها لا تكاد تعد شيئاً مذكوراً إذا قيست بالقصائد التى أجمع الرواة على صحتها – وسنبين تفصيل الأمر حينما نتحدث عن هذا الموضوع فى حينه .

أما ما يمر به القارئ من كثرة الروايات التى ترمى الرواة بالوضع والكذب والتزيد ، فقد تحدثنا عنها حديثاً مفصلاً . ولكننا نحب هنا أن نزيد أمراً جديداً ، وهو أن هذا القدح وذلك التهجين لم يمنعا العلماء والرواة من الأخذ عن بعضهم ، فكأنما كان المقصود بأكثر هذا القدح والتهجين النيلَ من الرواة أنفسهم – لأسباب قد بيّناها – دون أن ينال ذلك مما يروون من شعر . وقد مر بنا طرف من اتهام البصريين للكوفيين وإسقاطهم روايتهم ورميهم بالكذب والوضع والنحل ، ولكن ذلك لم يحُلْ بين البصريين والأخذ عن الكوفيين بل إن رأسين من رؤوس الرواية البصرية قد أخذوا عن أكثر الكوفيين حظّاً من الاتهام ، ونقصد خلفاً الأحمر والأصمعى وأخذَهما عن حماد الراوية – كما قدمنا – بل إن اتهام البصريين لخلف نفسه – وقد عرضنا هذا الاتهام وفندناه – لم يمنعهم من الأخذ عنه ، ولم يحلْ دون أن يكون خلف « معلم أهل البصرة » ! ! والأمثلة على ذلك كثيرة . ولكننا نحب أن نشير إلى مثل أخير يكشف لنا عن حقيقة هذا الاتهام ، وكيف أن المقصود منه الزراية بالشخص نفسه والنيل منه فى حياته للأسباب التى ذكرناها ، حتى إذا مات ، وانتفت تلك الأسباب ، عاد الذى أزرى به ونال منه وهجنه ، فإذا به يقر له بالعلم ويوثقه . فهذا أبو محمد يحيى بن مبارك اليزيدى يتعصب للبصريين على الكوفيين ، وقد نظم قصيدة يمدح

نحوى البصرة ويهجو الكوفيين ، وخاصة الكسائى ، ويعيب مذهبهم ، قال فيها بعد أن مدح نحاة البصرة [(١)] :

وَقُلْ لِمَنْ يطْلُبُ عِلْماً ألا ... نادِ بأعْلَى شَرَفٍ نَادِ :
يا ضَيْعَةَ النَّحْوِ بهِ مُغْرِبٌ ... عَنْقَاءُ أوْدَتْ ذَاتُ إصْعَادِ
أفْسدَهُ قَوْمٌ وَأزْرَوْا بِهِ ... مِنْ بَيْنِ أغْتَامٍ وَأوْغَادِ
ذَوِى مِرَاءٍ وَذَوِى لُكْنَةٍ ... لِئَامِ آباءٍ وَأجْدَادِ
لَهُمْ قِيَاسٌ أحْدَثُوهُ هُمُ ... قِيَاسُ سَوْءٍ غَيْرُ مُنْقَادِ
فَهُمْ مِنَ النَّحْوِ - وَلَوْ عُمِّرُوا ... أعْمَارَ عَادٍ - فى أبِى جَادِ
أمَّا الكِسائىُّ فَذَاكَ امْرُؤٌ ... فِى النَّحْوِ حَارٍ غَيْرَ مُرادِ[(٢)]
وَهْوَ لِمَنْ يَأْتِيهِ جَهْلاً بِهِ ... مِثْلُ سَرابِ البِيدِ لِلصَّادِى

وهجا الكسائى وأصحابه من الكوفيين بقصيدة أخرى منها [(٣)] :

كُنَّا نَقِيسُ النَّحْوَ فِيما مَضَى ... عَلَى لِسَانِ العَرَبِ الأُوَلِ
فَجَاءَنَا قَوْمٌ يَقِيسُونَهُ ... عَلَى لُغَى أشْيَاخِ قُطْرُبُّلِ
فَكُلُّهُمْ يَعْمَلُ فى نَقْضِ ما ... بهِ يُصَابُ الحَقُّ لاَ يَأْتَلِى
إنَّ الكسائىَّ وَأشْيَاعَهُ ... يَرْقَوْنَ فى النَّحْوِ إلَى أسْفَلِ

فإذا ما بحثتَ عن سبب هذا الهجاء ، ولم تكتف بهذه العصبية البصرية ، وجدتَ أن بين اليزيدى والكسائى خصومة شخصية ومنافسة ، وذلك لأن اليزيدى « كان مؤدب المأمون ، والكسائى مؤدب أخيه محمد الأمين ، وبينه وبين الكسائى مقارضة بسبب تأديبهما الأخوين » [(٤)] . ومن أجل هذا كان كل همه فى أن

---

(١) السيرافى ، أخبار النحويين البصريين : ٤١ — ٤٤ .
(٢) مراد : هكذا فى الأصل ، ولعل صوابها : حار غير مزداد ، أى ينقص ولا يزيد ، والحور : النقصان بعد الزيادة .
(٣) السيرافى : ٤٠ .
(٤) المصدر السابق : ٤٤ — ٤٥ .

يعيبه وينال منه ، فلما مات الكسائى وانقضت تلك المنافسة والخصومة — عاد اليزيدى واعترف للكسائى بالعلم ، فقال ، فى أبيات ، يرثيه ويرثى محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة [١] :

وَأَقْلَقَنِي مَوْتُ الكِسَائِيِّ بَعْدَهُ ... وَكَادَتْ بِيَ الأَرْضُ الفَضَاءُ تَمِيدُ
فَأَذْهَلَنِي عَنْ كُلِّ عَيْشٍ وَلَذَّةٍ ... وَأَرَّقَ عَيْنِي وَالعُيُونُ هُجُودُ
هُما عالِمَانَا أَوْدَيَا وَتُخُرِّمَا ... وَمَا لَهُمَا فى العالَمِينَ نَدِيدُ

(ب) وأمر آخر جدير بالعناية ، وهو أن كثيراً من النص على « النحل » لا يعنى أن هذا الشعر منحول موضوع حقًّا ، وإنما غاية ما يعنى أن هذا الراوية العالم يذهب إلى أن هذا الشعر منحول على حين يذهب غيره إلى أنه صحيح . فرد الأمر إذن إلى خلاف فى الحكم والرأى ، مرجعه إلى اختلاف المصادر التى كان يأخذ عنها الرواة ، وإلى اختلاف المناهج التى كان يحتكم إليها العلماء . وسنضرب لذلك بعض الأمثلة :

١ — فقد مر بنا أن ابن سلام روى عن أبى عبيدة عن يونس بن حبيب أن حماداً الراوية قال قصيدة فى مدح أبى موسى الأشعرى ، وأنشدها بين يدى بلال بن أبى بردة بعد أن نحلها الحطيئة[٢] . ولكن المدائنى ، وهو بصرى مثل هؤلاء الثلاثة ، يخالفهم فى الرأى ، وقد ذكر « أن الحطيئة قال هذه القصيدة فى أبى موسى ، وأنها صحيحة ، قالها فيه وقد جمع جيشاً للغزو »[٣] .

٢ — وقد ذكر أبو خليفة الفضل بن الحباب أنه رُوى لعباس بن مرداس بيت فى عدنان ، قال[٤] :

---

(١) السيراف : ٤٦ .
(٢) طبقات الشعراء : ٤١ .
(٣) الأغانى ٢ : ١٧٦ .
(٤) طبقات الشعراء : ١٠ — ١١ .

وعَكُّ بن عدْنَانَ الَّلِينَ تَلَعَّبُوا بِمَذْحِجَ ، حتى طُرِّدُوا كلَّ مَطْرَدِ

ثم قال « والبيت مريب عند أبى عبد الله » يعنى ابن سلام . ولعل ابن سلام ارتاب فى البيت لذكره عدنان « ولم يذكر عدنان جاهلى غير لبيد بن ربيعة » . على حين أورده ابن هشام على أنه صحيح غير مريب ، وذكر أنه أخذه عن أبى محرز خلف الأحمر وعن أبى عبيدة [1] . وكذلك أورده أبو عبد الله المصعب الزبيرى على أنه صحيح ولم يشر إلى ارتيابه فيه كما أشار إلى ارتيابه فى غيره من الأبيات التى تذكر الأنساب[2] .

٣ – وقد أورد المصعب الزبيرى أبياتاً من الرجز تجعل نسب قضاعة فى حمير لا فى معدّ [3] ، وذهب إلى أن هذه الأبيات موضوعة فقال « وزوروا فى ذلك شعراً » . وأورد الأبيات أيضاً أبو الفرج وروى عن مؤرج بن عمرو أنه قال[4] : « هذا قول أحدثوه بعدُ وصنعوا شعراً ألصقوه به ليصححوا هذا القول .. وهذا شىء قيل فى آخر أيام بنى أمية » . ومع ذلك فابن هشام – الذى ولد بعيد أيام بنى أمية ، والذى تعقب ابن إسحق فيما أورد من الشعر ونقده وأسقط بعضه لأنه لم ير « أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها » – ابن هشام هذا يورد الأبيات السابقة على أنها صحيحة ، وعلى أنه يستدرك بها ما فات ابن إسحق ذكره[5] .

٤ – وأورد ابن هشام قصيدة لأبى الصلت بن أبى ربيعة الثقفى ، آخرها قوله [6] :

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لاَ قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ شِيبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالاَ

---

(١) السيرة ١ : ٩ .
(٢) نسب قريش : ٥ .
(٣) المصدر السابق : ٥ .
(٤) الأغانى ٨ : ٩١ .
(٥) السيرة ١ : ١١ – ١٢ .
(٦) المصدر السابق : ٦٧ – ٦٩ .

وقال ابن هشام إن هذه القصيدة تُروى لأمية بن أبي الصلت ، وبعد أن أورد الأبيات مع هذا البيت الأخير قال « هذا ما صح له مما روى ابن إسحق منها ، إلا آخرها بيتاً . . . فإنه للنابغة الجعدي » . ولكن ابن سلام يذهب إلى غير هذا المذهب فقد عرض لهذا البيت وقال [1] « ترويه عامر للنابغة ، والرواة مجمعون أن أبا الصلت بن أبي ربيعة قاله » . وقد أتى به مثلاً على أن الشاعر قد يستزيد في شعره بيتاً قاله مَن قبله كالمتمثل حين يجيء موضعه من غير أن يقصد اجتلابه أو سرقته .

٥ ــ وقد قال الرياشي [2] : « يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس ليس له ، وإنما هو لفتيان كانوا يكونون معه مثل عمرو بن قميئة وغيره » . ولكن ابن سلام ينفي ذلك ويقول [3] : « وبنو قيس تدعي بعض شعر امرئ القيس لعمرو بن قميئة ، وليس ذلك بشيء » .

(حـ) ومما قد يوهم بالنحل والوضع أيضاً اختلاف الرواة في نسبة الشعر ، فتراهم ينسبون بعضه إلى شاعرين أو ثلاثة شعراء جاهليين ؛ والأمثلة على ذلك كثيرة جداً لا يعنينا إلا ما سنذكره بعد أن نورد مثلين عليها : الأول ــ أن الأبيات التي في وصف المطر ومنها :

دانٍ مُسِفٌّ فُوَيْقَ الأَرْضِ هَيْدَبُهُ   يَكَادُ يَدْفَعُــهُ مَنْ قَامَ بالرَّاحِ

نسبها يونس بن حبيب لعبيد بن الأبرص ، وعلى ذلك كان إجماع أهل البصرة [4] « فلما قدم المفضل صرفها إلى أوس بن حجر » . والثاني ــ أن القصيدة التي منها :

مِنْ سَبَإِ الحَاضِرِينَ مأْرِبَ إذْ   يَبْنُونَ مِنْ دُونِ سَيْلِهِ العَرِمَا

نسبها يونس للنابغة الجعدي ، ونسبها أبو عبيدة لأمية ، ثم سئل خلف الأحمر

---

(١) طبقات الشعراء : ٤٨ — ٤٩ .

(٢) الموشح : ٣٤ .

(٣) طبقات الشعراء : ١٣٤ .

(٤) المصدر السابق : ٧٦ — ٧٧ .

عنها فقال : « للنابغة ، وقد يقال لأمية »[١] .

ونحب أن نلحظ أن الشعر في هذين المثلين — وفي كثير من الأمثلة غيرهما — نُسب إلى شعراء جاهليين ، وأن الخلاف في نسبته لم يخرجه عن نطاق الشعر الجاهلي . فجاهلية هذا الشعر إذن ثابتة لا شك فيها عند هؤلاء الرواة العلماء ، وإن كانوا اختلفوا في الشاعر الجاهلي نفسه — ربما لاختلاف المصادر التي استقى منها كل راوية منهم نسبة الشعر — وقد كان هؤلاء الرواة العلماء ، لطول تمرسهم بالشعر الجاهلي ومدارستهم إياه ، يعرفون الشعر الجاهلي ويميزونه من الإسلامي بمجرد سماعهم إياه — وإن كانوا يختلفون أحياناً في نسبته ، بل إنهم أحياناً ليعرفون أنه شعر جاهلي ولكنهم يعجزون عن ذكر الشاعر نفسه ، ومثال ذلك ما رُوي من أن حماداً أنشد بلال بن أبي بُرْدَة شعراً مدحه به ، فقال بلال لذي الرمة : كيف ترى هذا الشعر؟ قال ذو الرمة : جيداً وليس له. قال بلال : فمن يقوله؟ قال : لا أدري إلا أنه لم يقله . . . فلما قضى بلال حوائج حماد وأجازه قال له : أنت قلت ذلك الشعر ؟ قال : لا . قال : فمن يقوله ؟ قال : بعض شعراء الجاهلية وهو شعر قديم وما يرويه غيري . قال : فمن أين علم ذو الرمة أنه ليس من قولك ؟ قال : عرف كلام أهل الجاهلية من كلام أهل الإسلام[٢] .

وكانوا أحياناً — حينما يطمئنون إلى أن الشعر جاهلي — ينسبونه إلى شاعر بعينه ، وربما كان ذلك لأنهم عرفوا أن هذا الشعر أقرب إلى روح ذلك الشاعر لكثرة ما درسوه وعرفوه ، وعلى هذا الضوء نستطيع أن نفسر بعض الروايات التي قد يُفهم منها الاتهام بالوضع أو الرمي بالكذب ، في حين لا وَضعَ ولا كذب إذا فهمناها على ما قدمنا . فمن ذلك أن حماداً جاءه أعرابي فأنشده قصيدة لم يُدْرَ لمن هي . فقال حماد : اكتبوها ، فلما كتبوها وقام الأعرابي ، قال حماد : لمن ترون أن نجعلها ؟ فقالوا أقوالاً ، فقال حماد : اجعلوها لطرفة [٣] . وقال

---

(١) طبقات الشعراء : ١٠٦ .

(٢) الأغاني ٦ : ٨٨ .

(٣) مراتب النحويين ورقة : ١١٧ - ١١٨ .

الأصمعي : ما أروى للأغلب إلا اثنتين ونصفاً . . . قال أبو حاتم : طلب إسحق بن العباس الهاشمي من الأصمعي رجز الأغلب ، فطلبه مني ، فأعرته إياه ، فأخرج منه نحواً من عشرين قصيدة . فقلت للأصمعي : ألم تزعم أنك لم تعرف إلا اثنتين ونصفاً ؟ فقال : بلى ، ولكن انتقيت ما أعرف ، فإن لم يكن له فهو لغيره ممن هو ثبت أو ثقة [1] .

(د) وبعد ،

فمنذ مطلع القرن الثاني الهجري ، وبعده بقليل ، قامت طائفة من العلماء الرواة من أمثال أبي عمرو بن العلاء وحماد الزاوية ثم المفضل وخلف الأحمر — وهم الطبقة الأولى من العلماء الذين عرفتهم العربية في تاريخها الحافل ، فتلقوا تراث الجاهلية : شعرها وأخبارها وأنسابها ؛ وصلهم بعضه مدوناً في دواوين كاملة ضمت تراث القبيلة كله أو شعر شاعر فرد من شعرائها ، ووصلهم بعضه مكتوباً في صحف متفرقة ، ثم وصلهم بعضه عن طريق الرواية الشفهية التي كان يتناقلها الخلف عن السلف . فحملوا الأمانة ، ومضوا يجمعون ما تفرق من هذا التراث ، وينظمون منه ما تجمع ، يضيفون إليه ما لم يكن فيه مما ثبتت لهم صحته ، وينفون عنه ما ثبت لهم زيفه وفساده . ولم يألوا جهداً في التثبت والتحقيق والتمحيص والمدارسة ، حتى استقام لكل منهم ما تيقن صحته ، فمضى يذيعه على تلامذته في حلقات درسه ، ويشيعه في رواد مجالس علمه ، فخلف من بعدهم خلف هم الطبقة الثانية من العلماء الرواة تأسَّوْا بشيوخهم واقتفوا سبيلهم ، يجمعون ويدرسون ويمحصون ويفحصون ، ثم يستقيم لكل منهم ما يتيقن صحته ، فيذيعه على تلاميذه من علماء الطبقة الثالثة .

ومع ذلك فقد كان لا بد لبعض هؤلاء العلماء من أن يختلفوا : فقد وقع لبعضهم من الصحف المكتوبة ، أو الدواوين المدونة ، أو الرواة من الشيوخ العلماء ومن الأعراب الفصحاء — ما لم يقع كله لغيره ، ثم كان لكل طائفة من

---

(١) الموشح : ٢١٣ .

هؤلاء العلماء منهج فى الأخذ والتلقى — على ما بيّناه فى صفحات تقدمت . ولكن هذا الخلاف فى المصادر أولاً وفى المنهج ثانياً لم يمنع العلماء من أن يأخذ بعضهم عن بعض ، ومن أن يرحل علماء المصر إلى المصر المجاور ليأخذوا منهم ويرووا عنهم ، ثم ينقلوا ما تيقنوا صحته إلى تلاميذهم ويكتبوه فيما يجمعون من دواوين . فهذه الدواوين المنسوبة المسندة التى يرتفع إسنادها إلى الطبقة الأولى أو إلى تلاميذهم من علماء الطبقة الثانية — هى التى تحوى بين دفتيها الشعر الجاهلى الذى تيقنوا صحته بعد تحرٍّ واستقصاء وجمع وتمحيص ونقد . وسيكون كل ذلك موضوع حديثنا فى الباب التالى من هذا البحث .

* * *

الباب الخامس

دواوين الشعر الجاهلى

الفصل الأول

الدواوين المفرودة

١

كان حديثنا – فيما مرّ بنا من أبواب هذا البحث وفصوله – عن المصادر الأولى التي استقى منها العلماء الرواة في القرن الثاني الهجري ما بين أيديهم من شعر جاهلي. وبيان ذلك أننا – حين قطعنا شوطاً في دراسة هذا الموضوع – وجدنا أن أخطر ما فيه وأشده غموضاً – على خطره كله وغموضه – هو تلك الفترة التي انقضت على نظم الشاعر الجاهلي لشعره إلى أن دُوّن هذا الشعر في القرن الثاني الهجري في هذه الدواوين التي وصلت إلينا روايتها. هذه الفجوة الزمنية التي امتدت قرناً وبعض قرن – من آخر العصر الجاهلي إلى مطلع القرن الثاني الهجري – هي التي استنفدت القسم الأعظم من جهدنا واستغرقت الجزء الأكبر من بحثنا هذا. وذلك لأن موضوعنا « مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية » فلم نجد من المعقول ولا من المقبول أن نسقط من حسابنا تلك الفترة التي سبقت تدوين هذه المصادر التي بين أيدينا، ولا أن نمر بها مرًّا هيناً عابراً، بل لقد استبان لنا أننا مضطرون – من أجل معرفة هذه المصادر معرفة حقة وبيان قيمتها التاريخية بياناً واضحاً – إلى أن نكشف عن الموارد التي استقت هذه الدواوين منها، والمناهل التي اغترف منها جامعوها وصانعوها.

فدرسنا آخر العصر الجاهلي والقرن الأول الهجري دراسة نرجو أن تكون دقيقة عميقة، وجمعنا ما عثرنا عليه متفرقاً في المظان العربية مما يتصل ببحثنا هذا، ثم انتهينا إلى نتائج ثلاث :

الأولى : أننا رجحنا أن هذا الشعر الجاهلي – أو بعضه – قد كُتِب ، في صحائف متفرقة أو في دواوين مجموعة ، منذ عهد مبكر جداً ، وربما كتب بعضه منذ العصر الجاهلي ، ونحب أن نؤكد أننا لا نلقي الكلام على عواهنه ، ولا نعتسف الطريق إليه اعتسافاً ، وأن هذه النتيجة الأولى ليست مجرد افتراض نفترضه ، ولا مجرد ظن توهمناه ، ولكنها نتيجة علمية نهجنا إليها منهجاً سليماً بعد أن حشدنا لها حشداً كبيراً من المقدمات التي تتمثل فيما عثرنا عليه من نصوص وأخبار ؛ فهي إذن ترجيح قوي له مرجّحاته الكثيرة ، بل لقد كدنا أن نقول إنها يقين قاطع لولا هذا المنهج الذي نلتزمه والذي يفرض علينا الحذر في التعبير . وأين اليقين القاطع في مثل هذه الأبحاث الأدبية وخاصة في مثل هذا الموضوع وفي مثل ذلك العصر ! !

والثانية : أن بعض هذه المدونات الشعرية الأولى قد وصلت إلى علماء الطبقة الأولى من الرواة ، وأنهم قد اعتمدوها مصدراً من مصادر تدوينهم لهذه الدواوين التي رواها عنهم تلاميذهم ، وأن هؤلاء العلماء الرواة في القرن الثاني الهجري كانوا يعتمدون – هم وتلاميذهم – نسخاً مكتوبة من هذه الدواوين في مجالس علمهم وحلقات دروسهم ، وأن الشيخ منهم كان يقرأ شعر الشاعر من نسخته ، أو يقرأها أحد تلاميذه ، ثم يعقّب الشيخ على الشعر بالشرح والنقد والتحقيق والتمحيص . وقد بيّنا عند حديثنا عن هذا الموضوع أن هذه المدونات لم تكن هي المصدر الوحيد ، وإنما كانت أحد مصدرين . أما المصدر الثاني فقد كان الرواية الشفهية . وذلك أن العالم الراوية كان يأخذ بعض الشعر الجاهلي عن الرواة من الأعراب الذين كان يطمئن إلى صدقهم ويعتمدهم مصدراً من مصادره ، وبعض هؤلاء الرواة الأعراب كانوا من قبيلة الشاعر الذي يروون شعره ، تناقلوه جيلاً بعد جيل ، وتوارثوه خلفاً عن سلف ؛ أو كان ذلك العالم الراوية يسمع بعض الشعر الجاهلي من غيره من العلماء ، يرحل إليهم أو يرحلون إليه إن كانوا في بلدين متباعدين ، أو يفد عليهم ويفدون عليه

إن كانوا فى بلد واحد ، وكان عند هؤلاء العلماء الآخرين بعض ما لم يكن عنده ، أو كان عنده بعض ما لم يكن عندهم ، وذلك لاختلاف النسخ المدونة التى بين أيديهم، أو لاختلاف الرواة من الأعراب الذين سمعوهم واعتمدوهم مصدراً من مصادرهم ، أو لاختلاف الشيوخ الذين أخذوا عنهم . فكان من نتيجة ذلك أن كل عالم يعود على ما بين يديه من نسخة لديوان الشاعر الجاهلى بالتصحيح والتحقيق، فيضيف إليها بعض ما وجده عند غيره واطمأن إلى صحته، ويحذف منها بعض ما انتهى إلى أنه قد نسب إلى ذلك الشاعر خطأ أو نُحِله عمداً ، ويكتب من كل ذلك نسخته التى اطمأن إليها ، ثم يقرأها لتلاميذه أو يقرأونها عليه ، فإذا ما انتهوا منها أجاز لهم أو لبعضهم أن يرووها عنه . ثم يرويها هؤلاء لتلاميذهم بعد أن يجروا فيها بعض ما أجراه شيخهم فى نسخته الأولى من تحقيق وتمحيص . ثم جاء علماء الطبقة الثالثة ومن تلاهم من العلماء — بين منتصف القرن الثالث ونهاية القرن الخامس الهجرى — فوجدوا بين أيديهم نسخاً متعددة لديوان واحد ، رُوِيت كل نسخة عن واحد من علماء الطبقة الأولى فى البصرة أو الكوفة ، فصنع هؤلاء العلماء المتأخرون نسخاً جديدة أفرغوا فيها جميع روايات العلماء السابقين ، وأشاروا فى مواطن كثيرة إلى أن هذه القصيدة من رواية فلان أو فلان ، أو أن هذه الأبيات لم يروها فلان ، أو أن فلاناً قال إن هذه القصيدة أو تلك الأبيات ليست لهذا الشاعر وتنسب إلى شاعر غيره يسمّيه .

والثالثة : أن رواية هذه الدواوين التى بين أيدينا — حينما يكون الديوان مسنداً — تنتهى إلى أحد هؤلاء العلماء من رواة الطبقة الأولى أو إلى أحد تلاميذهم ، ثم تقف عندهم ولا تتجاوزهم . ومن أجل هذا ذهب كثير من الباحثين إلى أن ثمة فجوة واسعة — تزيد على القرنين — تفصل بين زمن الشعر الجاهلى نفسه وزمن تدوينه ، وإلى أن العلماء الرواة الذين دوّنوا ذلك الشعر بعد تلك الفجوة الزمنية الواسعة لم يجدوا إلا أبياتاً متفرقة أو مقطعات قصيرة ،

أشبه ما تكون بالأوصال الممزقة ، التقطوها التقاطاً من أفواه بعض الأعراب والرواة ، وأن هذا الزمن الطويل الذى انقضى قبل تدوين الشعر الجاهلى — كفيل وحده بأن يجعلنا نشك فى الكثير مما دوِّن منه . ولكننا نحن ، بعد هذه الدراسة التى بذلنا فيها الجهد لملء تلك الفجوة — نذهب إلى أن هذه الدواوين المسندة إلى العلماء من رواة الطبقة الأولى ، والتى لا تتجاوزهم فى الإسناد ، موصولة الأسباب بالعصر الجاهلى وبالشاعر الجاهلى نفسه ، وأن تلك الحقبة — التى بدت لبعض الباحثين فجوة فارغة — تبدو لنا سلسلة ذات حلقات متصلة ، لم تنقطع فيها قط حلقة من حلقات المصدرين اللذين وردهما علماء الطبقة الأولى ، واستقوا منهما فى تدوين دواوين الشعر الجاهلى ، وهما : الرواية الشفهية ، والمدونات : سواء أكانت صحائف متفرقة أم دواوين مجموعة . وكل ذلك قد بينَّاه وفصلنا فيه القول تفصيلاً . أما السبب الذى من أجه وقف إسناد هذه الدواوين عند علماء الطبقة الأولى ولم يتجاوزهم ، فقد أشرنا إليه أيضاً فى فصل مضى ، وهو — فى رأينا — أن دراسة الشعر الجاهلى دراسة تقوم على التحقيق والتمحيص والبحث اللغوى والتتبع المستقصى والشرح والنقد ، ثم الاقتصار على ذلك اقتصاراً يكاد يكون تخصصاً — هذا الضرب من الدراسة لم يوجد قبل مطلع القرن الثانى أو منتصفه عند علماء الطبقة الأولى . وأما قبل ذلك فقد كانت العناية بالشعر الجاهلى مقصورة على مجرد روايته وجمع بعضه ، وكثيراً ما تكون تلك الرواية وذلك الجمع وسيلة لما كان معروفاً آنئذ من العلوم ، فكان يُتَّخذ الشعر الجاهلى وسيلة للاستشهاد والتمثل والاحتجاج والزينة ؛ ولم يكن من بين علماء القرن الأول الهجرى من نصب نفسه لتدريس الشعر الجاهلى والبحث فيه وتحقيقه وتمحيصه ؛ ولذلك كان جميع ما خلفه هذا القرن الأول من شعر الجاهلية مرويًّا أومكتوباً ، عناصرَ أولية ومواد خامة ، تسلمها علماء الطبقة الأولى فى القرن الثانى فصاغوا منها الدواوين التى نسبت إليهم ورويت عنهم .

وسنعرض فى الصفحات التالية ديوانين من هذه الدواوين الجاهلية التى

بقيت على الزمن وغالبت صروفه وأحداثه حتى وصلت إلينا ، هما : ديوان امرئ القيس ، وديوان زُهير بن أبى سلمى . وسيكون عرضنا مبنيًّا على دراسة مفصلة تكشف فى وضوح المنهجَ الذى نرى أن يُنهجَ فى تناول هذه الدواوين ، وتؤيد ما انتهينا إليه من نتائج بسطنا القول فيها ، بحيث يكون حديثنا عن هذين الديوانين تطبيقاً لما سقناه من حديث فى الفصول السابقة .

٢

أما ديوان امرئ القيس فقد وجدنا أمامنا ثلاث سبل لتتبع رواياته ورواته :

السبيل الأولى : ما ذكرته المصادر العربية ، وخاصة كتاب الفهرست لابن النديم ، فى مواطن متفرقة عن روايات هذا الديوان وهى :

(١) رواية الأصمعى [١]
(٢) رواية أبى عمرو الشيبانى [٢]
(٣) رواية خالد بن كلثوم [٣]
(٤) رواية محمد بن حبيب [٤]
(٥) عمل ابن السكيت [٥]
(٦) صنعة أبى سعيد السكرى [٦]
(٧) صنعة أبى العباس الأحول [٧]
(٨) صنعة أبى الحجاج الأعلم الشنتمرى وشرحه [٨]
(٩) صنعة الوزير أبى بكر عاصم بن أيوب البطليوسى وشرحه [٩]

---

(١) ابن النديم — الفهرست : ٢٢٣ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق .
(٥) المصدر السابق .
(٦) المصدر السابق : ١١٧ و ٢٢٣ و ٢٢٤ ، ونزهة الألباء ١٤٥ ، وإنباه الرواة ١ : ٢٩٢
(٧) المصدر السابق .
(٨) فهرس ابن خير : ٣٨٨ .
(٩) فهرس ابن خير : ٣٨٩ .

والسبيل الثانية :

ما بقى مخطوطاً إلى يومنا هذا وعثرنا عليه مما لم تذكره المصادر العربية التى اطلعنا عليها ، فعرفناه عن طريق الرؤية والمشاهدة لا عن طريق القراءة فى المصادر. ولم نعثر — فى هذه السبيل الثانية — إلا على روايتين لهذا الديوان هما :

١٠ — رواية أبى الحسن الطوسى [١] .

١١ — صنعة ابن النحاس وشرحه[٢] .

والسبيل الثالثة :

ما عثرنا عليه من إشارات إلى روايات هذا الديوان ورواته ، متفرقاً فى مواطن مختلفة من هذه الدواوين نفسها التى قدمنا ذكرها ، مما لم نعثر له على ذكر فيما اطلعنا عليه من مصادر عربية ، ولم نعثر له على أثر فيما بين أيدينا من فهارس للمكتبات . فوجدنا لهذا الديوان الروايات التالية :

١٢ — رواية المفضل الضبى وهى الرواية التى اعتمدها أبو الحسن الطوسى أصلاً من أصول نسخته التى صنعها لديوان امرئ القيس ، فأورد فى نسخته اثنتين وأربعين قصيدة ومقطعة ثم قال[٣]: « هذا آخر رواية المفضل » . وقد أكد أن هذا الجزء من الديوان هو من رواية المفضل فى موطنين ، الأول فيه تأكيد إيجابى حين قال فى القصيدة الأولى : « أحارِ بنَ عَمرو كأنى خَمِرْ » إنها : « رواها أبو عمرو والمفضل » .

والثانى فيه تأكيد سلبى ، حين ذكر فى القصيدة العشرين وهى : « أذودُ عنِ القوافِى ذِياداً » أنها : « ليست فى رواية المفضل » .

---

(١) معهد المخطوطات العربية — رقم : ٨٦٠ .
(٢) معهد المخطوطات العربية — رقم : ١٤٣ .
(٣) ورقة : ٩١ (ظ) .

ومن الأدلة أيضاً على رواية المفضل لديوان امرئ القيس أن الأعلم الشنتمرى، بعد أن يورد فى نسخته رواية أبى حاتم السجستانى عن الأصمعى، يورد « قصائد متخيرات مما لم يرو أبو حاتم ورواه أبو عمرو الشيبانى والمفضل وغيرهما »[1] .

١٣ — رواية ابن الأعرابى : وقد ذكرها الطوسى أيضاً ، فقد قال فى نسخته بعد القصيدة التاسعة والثلاثين « إلى ها هنا قرأت على أبى عبد الله ابن الأعرابى »، ثم أورد بعد ذلك ثلاث قصائد : نص فى الأولى على أن ابن الأعرابى لم يعرفها ، ونص فى الثانية على أنه قرأها على ابن الأعرابى وعرفها ، ونص فى الثالثة على أن ابن الأعرابى لم يروها .

١٤ — رواية أبى عبيدة : وتبدو لنا رواية أبى عبيدة لديوان امرئ القيس واضحة مما ذكره الطوسى وابن النحاس . أما الطوسى فقد ذكر — بعد أن انتهى من رواية المفضل — أن « الذى يلى هذا ما رواه أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى والأصمعى » . ثم قال فى القصيدة التالية إنها « من رواية أبى عبيدة وأبى سعيد عبد الملك بن قُرَيب الأصمعى ». وأما ابن النحاس فقد بيّن روايات أبى عبيدة لأبيات كاملة فى ديوان امرئ القيس، أو لألفاظ فى أبيات، فى أكثر من خمسين موضعاً فى صفحات مختلفة من نسخته ، لعل أوضحها أنه أورد بعد قوله[2] :

لَهُ أُذُنَانِ تَعْرِفُ الْعِتْقَ فِيهِمَا ۝ كَسَامِعَتَىْ مَذْعُورَةٍ وَسْطَ رَبْرَبِ

بيتين قال إنهما رواهما الأصمعى وأبو عبيدة ، ثم أورد بعدها بيتاً قال عنه إن أبا عبيدة وحده رواه ، ثم أورد بعده أبياتاً قال إن أبا عبيدة والأصمعى روياها . وفضلاً عن ذلك فقد أورد ابن النحاس شروحاً وافية لأبى عبيدة على

(١) الأعلم، ورقة : ٦٤ ، وورقة : ٨١ .
(٢) السكرى : ٩٨ .

أبيات كاملة أو ألفاظ متفرقة من ديوان امرئ القيس فى أكثر من عشرين موضعاً من نسخته .

١٥ – رواية اليزيدى : أبى عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن يحيى بن المبارك اليزيدى (المتوفى سنة ٣١٠) . وقد اعتمد ابن النحاس – فيما يبدو لنا – نسخة اليزيدى أصلاً لنسخته التى بين أيدينا ، فنراه يشير إليها إشارات كثيرة فى مواطن متعددة ، وهى إشاراته تدل على أنه يرجع فى كتابة نسخته إلى نسخة اليزيدى ليثبت ما فيها من اختلاف عما يورد ، أو ما فيها من زيادة ونقص . فهو يقول مثلاً إن هذه اللفظة أو تلك هى كذا فى نسخة اليزيدى [١] . أو أنه كان فى نسخة اليزيدى كذا وهو خطأ[٢] . أو أن هذا البيت أو ذاك ليس فى نسخة اليزيدى[٣] . أو أن هذا البيت زيادة على اليزيدى[٤]. أو أن هذه القصيدة دفعها فلان ، وهى فى أصل اليزيدى[٥]. أو أن هذا البيت فى نسخة اليزيدى قبل ذلك البيت[٦].

١٦ – رواية ابن دريد : أبى بكر محمد بن الحسن بن دريد (المتوفى سنة ٣٢١). ولابن دريد رواية أيضاً لديوان امرئ القيس ، وقد نص على وجودها ابن النحاس فى نسخته التى بين أيدينا ، وذكر أن أبا عمران قرأ ديوان امرئ القيس على ابن دريد ، ثم أورد ما وجده فى رواية ابن دريد زائداً على نسخة اليزيدى أو مخالفاً لها ، وقد تكرر استدراكه على ما فى اليزيدى من أبيات ناقصة رواها ابن دريد ، وأثبتها ، فمن ذلك قوله[٧]: « هذا البيت ليس فى نسخة اليزيدى ، وقد قرأه

(١) ابن النحاس ، شرح ديوان امرئ القيس ورقة : ٥٣ و ١٢٦ .
(٢) المصدر السابق : ٤٩ .
(٣) المصدر السابق: ٥٨ ، ٩١ .
(٤) المصدر السابق : ١٠٩ .
(٥) المصدر السابق : ٥٣ .
(٦) المصدر السابق : ٣٨ .
(٧) المصدر السابق : ٩١ .

أبو عمران على ابن دريد »، وقوله[١] : « زيادة على اليزيدى قرأها أبو عمران »، وقوله[٢] : « وروى الأصمعى وقرأه أبو عمران على ابن دريد » . وقوله[٣] : « هذا البيت ليس فى اليزيدى ، وقد قرأه أبو عمران » . وفضلاً عن ذلك فقد أورد فى ثنايا نسخته روايات متعددة لألفاظ مختلفة قال إنها رواية ابن دريد .

* * *

فإذا ما عدنا إلى هذه الروايات الست عشرة لديوان امرئ القيس ، وحاولنا أن نصنفها وفق أوليتها وأصالتها من جانب وتدرجها التاريخى من جانب آخر ، وجدنا أنها تقسم ثلاثة أقسام :

(أولا) الأصول : وهى على ضربين كذلك : أصول بصرية ، وأصول كوفية .

١ — الأصول البصرية :

ولم يبق لنا منها إلا رواية واحدة كاملة هى رواية الأصمعى ، وستتحدث عنها حديثاً مفصلاً بعد صفحات ، ورواية أخرى ناقصة بقيت منها أجزاء مبعثرة أشير إليها إشارات عابرة فى مواطن متفرقة ، هى رواية أبى عبيدة . وإذ كنا نعتقد أن روايتى الأصمعى وأبى عبيدة فى جوهرها رواية واحدة أو روايتان متقاربتان ، وأن الخلاف بينهما لا يعدو قصائد قليلة أو أبياتاً من قصيدة ، لذلك سنكتفى بالإشارة إلى مواطن الاختلاف بين هذه الرواية ورواية الأصمعى حين نتحدث عن رواية الأصمعى .

٢ — الأصول الكوفية :

وقد بقيت لنا منها رواية واحدة هى رواية المفضل بن محمد الضبى (المتوفى سنة ١٦٨) ، ولم تصل إلينا هذه الرواية مستقلة وحدها قائمة بنفسها ، ولكنها جاءتنا عن طريق تلميذيه : أبى عمرو إسحاق بن مرار الشيبانى (المتوفى سنة ٢٠٦) ،

---

(١) المصدر السابق : ١٠٩ .

(٢) المصدر السابق : ١٢٢ .

(٣) المصدر السابق : ٥٨ .

وأبي عبد الله محمد بن زياد الأعرابي (المتوفى سنة ٢٣١)، ثم حفظها لنا أبو الحسن علي بن عبد الله بن سنان الطوسي (المتوفى نحو سنة ٢٥٠) في نسخته التي سنتحدث عنها بعد قليل . وقد أورد الطوسي اثنتين وأربعين قصيدة ومقطعة لامرئ القيس ثم قال بعدها[١] : « هذا آخر رواية المفضل » . غير أنه ذكر في المقطعة رقم ٢٠ وهي ثلاثة أبيات مطلعها « أذود عن القوافي ذياداً » أنها «ليست في رواية المفضل»[٢]. وبذلك تكون رواية المفضل إحدى وأربعين قصيدة ومقطعة . قرأ منها الطوسي تسعاً وثلاثين على أبي عبد الله ابن الأعرابي كما ذكر[٣]. ويبدو أن هذه الأبيات الثلاثة التي ذكر أنها ليست في رواية المفضل كان الطوسي قرأها — فيما قرأ — على ابن الأعرابي فأقرّها، فلذلك أدخلها في نسخته وأشار إلى أنها ليست في رواية المفضل . أما القصائد الثلاث الأخيرة من رواية المفضل في نسخة الطوسي فقد ذكر أنه عرض اثنتين منها على ابن الأعرابي فلم يعرفهما[٤]، أما الثالثة فقد قرأها عليه وعرفها[٥]. أما أبو عمرو الشيباني فلا يذكره الطوسي في نسخته إلا في موضعين ، الأول : عند حديثه عن قصيدة امرئ القيس الرائية « أحار بن عمرو كأني خمر » فقد قال[٦]: « رواها أبو عمرو والمفضل وغيرهما » ، والثاني : عند حديثه عن قصيدته « أمن ذكر سلمى أن رأتك تنوص» فقد قال[٧]: « وليست في رواية الأصمعي ، وإنما هي من رواية أبي عمرو الشيباني » .

ويبدو لنا من هذا العرض الموجز لنسخة الطوسي أنها اعتمدت رواية المفضل في جوهرها أصلاً ، وأن الطوسي قد أخذ هذه الرواية عن تلميذي المفضل :

---

(١) ورقة : ٩١ (ظهر) .
(٢) ورقة : ٧٣ — ٧٤ .
(٣) ورقة : ٨٥ .
(٤) ورقة : ٨٦ ، ورقة : ٨٩ (ظهر) .
(٥) ورقة : ٨٩ .
(٦) ورقة : ١ .
(٧) ورقة : ٥٤ (ظهر) .

أبي عمرو الشيباني ، وأبي عبد الله ابن الأعرابي ، والمعروف عن ابن الأعرابي أنه كان « ربيباً للمفضل الضبي ،وسمع منه الدواوين وصححها»[١].أما أبو الحسن الطوسي فمع أنه أخذ عن مشايخ الكوفيين والبصريين[٢]، إلا أن « أكثر مجالسته وأخذه عن ابن الأعرابي »[٣] وسنعود إلى الحديث عن نسخة الطوسي بعد قليل .

(ثانياً) روايات التلاميذ :

وهي أيضاً على ضربين : روايات بصرية ، وروايات كوفية . فقد كان علماء البصرة يقرأون دواوين الشعراء على شيوخهم البصريين ويروونها عنهم ، وكان علماء الكوفة يقرأون دواوين الشعراء على شيوخهم الكوفيين ويروونها عنهم ، فمن علماء البصريين من رجال الطبقة الثانية الذين أخذوا عن الأصمعي: أبو نصر أحمد بن حاتم الباهلي ، وأبو حاتم سهل بن محمد السجستاني . أما أبو نصر فقد كان صاحب الأصمعي ،وحين قدم إلى أصبهان «نقل معه مصنفات الأصمعي وأشعار شعراء الجاهلية والإسلام مقروءة على الأصمعي »[٤].وكان مما أخذه أبو نصر عن الأصمعي ديوان امرئ القيس غير أن روايته لم تبق لنا كاملة ، وإنما بقيت لنا منها إشارة عابرة حفظت في النسخة التي سميناها نسخة الطوسي . وأما أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني (المتوفى سنة ٢٥٥) فقد بقيت لنا روايته لديوان امرئ القيس عن الأصمعي كاملة في نسخة الأعلم الشنتمري ، فقد أورد الأعلم ثماني وعشرين قصيدة ومقطعة ،ثم قال[٥]: « قال أبو حاتم : هذا آخر ما صح الأصمعي من شعر امرئ القيس » . ثم قال: « كملت رواية أبي حاتم عن الأصمعي والحمد لله » . ومن تلامذة أبي حاتم الذين أخذوا عنه رواية دواوين الشعر : أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد

---

(١) نزهة الألباء : ١٠٦ ، وياقوت – إرشاد ١٨ – ١٩٠ .

(٢) الفهرست : ١٠٦ ، ونزهة الألباء : ١٢٥ – ١٢٦ .

(٣) المصدران السابقان .

(٤) ياقوت إرشاد ٢ : ٢٨٥ .

(٥) ورقة : ٦٤ .

(المتوفى سنة ٣٢١)، وقد أخذ ابن دريد عن غير أبي حاتم من علماء البصريين مثل : الرياشي والتوّزيّ والزيادي[1]. وسنرى — عند حديثنا عن نسخة الأعلم ورواية الأصمعي أن أبا علي القالي هو الذي أدخل رواية الأصمعي هذه لديوان امرئ القيس إلى الأندلس، وأنه أخذها عن شيخه ابن دريد تلميذ أبي حاتم السجستاني . وكذلك بقيت لنا إشارات متفرقة من رواية ابن دريد في نسخة ابن النحاس على ما سنبينه بعد قليل .

أما رواة الكوفيين فقد حدثنا منهم عن المفضل وتلميذيه : أبي عمرو الشيباني ، وأبي عبد الله ابن الأعرابي . وقد خلف بعد هذين خلف أخذوا عنهم ، منهم : محمد بن حبيب (المتوفى سنة ٢٤٥) ، ويعقوب بن السكّيت (المتوفى سنة ٢٤٦) ، وقد مر بنا أن النديم ذكر في فهرسته أن ممن روى ديوان امرئ القيس : محمد بن حبيب ويعقوب بن السكيت[2] ، وهما من علماء بغداد الذين أخذوا عن الكوفيين خاصة [3] ، ولاسيما أبي عمرو الشيباني وابن الأعرابي[4] ولم تصل إلينا رواية هذين العالمين لديوان امرئ القيس إلا إشارات عابرة لبعض رواية ابن حبيب وشرحه أوردها ابن النحاس في نسخته [5] ، وإن كنا نرجح أن السكري قد اعتمد روايتهما أو رواية أحدهما أصلاً من أصول نسخته على ما سنبينه عند حديثنا عن رواية السكري .

ومن هذا العرض الموجز لروايات التلاميذ يبدو لنا — مما بقي لنا من رواياتهم — أنهم لم يدخلوا أنفسهم فيما رووه عن شيوخهم من علماء الطبقة الأولى ، بل اكتفوا بمجرد الرواية والنقل ، كما رأينا في حديثنا عن أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي وأبي حاتم السجستاني في روايتهما لديوان امرئ القيس عن الأصمعي ؛

---

(١) الفهرست : ٩١ .

(٢) الفهرست : ٢٢٣ .

(٣) الفهرست : ١٠٨ ، وطبقات اللغويين والنحويين : ١٥٣ حيث عد ابن حبيب من الكوفيين .

(٤) نزهة الألباء : ١٢٣ ، وياقوت ، إرشاد ١٨ : ١١٢ .

(٥) انظر مثلا ورقة : ٦ و ١٠ و ١٢ و ١٥ و ١٩ .

أو أنهم قد علقوا تعليقات يسيرة — حين كانت تقرأ عليهم هذه الدواوين من رواية شيوخهم — وكانوا فى بعض هذه التعليقات ينصون على أنهم لا يعرفون هذه القصيدة ، أو تلك الأبيات ، أو أنهم يشكون فيها أو ينكرونها ، ولكنهم مع ذلك يبقونها كما جاءت عن شيوخهم ويثبتون معها تعليقاتهم ، كما رأينا عند حديثنا عن رواية أبى عمرو الشيبانى لديوان امرئ القيس وقراءة الطوسى هذا الديوان برواية المفضل الضبى على أبى عبد الله ابن الأعرابى . ومن هنا حق لنا أن نذهب إلى أن هؤلاء التلاميذ قد حفظوا لنا روايات شيوخهم لدواوين الشعراء كما خلفها أولئك الشيوخ ، وأن عمل التلاميذ فى رواية هذه الدواوين ونقلها وشرحها والتعليق عليها ، لم يطمس معالم الرواية الأصلية التى صنعها علماء الطبقة الأولى من الرواة .

(ثالثاً) الروايات المجموعة :

ونقصد بها نسخة الديوان التى ضم فيها جامعها روايات مختلفة لرواة مختلفين من مدرستى البصرة والكوفة معاً . وقد رأينا بعد درسها أنها ضربان ، الضرب الأول : ما جُمعت فيه قصائد من روايات مختلفة جمعاً مختلطاً متداخلاً ، فترى قصيدة من رواية أبى عبيدة بين قصائد من رواية الأصمعى ، تكتنفها جميعاً قصائد من رواية المفضل وأبى عمرو الشيبانى ، ثم قصيدة أو قصائد من رواية الأصمعى وهكذا . . . ولا ينص فى الغالب على رواية القصيدة نفسها ، وإنما عرفنا ذلك من النسخ الأخرى التى عنيت بالنص على الرواية ، ويكثر فى هذا الضرب النصُّ على روايات بعض الألفاظ فى الأبيات المختلفة . ومن أجل هذا نرى أن الغاية من هذا الضرب الأول الجمعُ والاستقصاء وحدهما ، وتتبع كل ما نسب من الشعر لامرئ القيس وحشره بين دفتى ديوان ، من غير عناية برواية القصيدة فى مجموعها .

والضرب الثانى : ما جُمعت فيه قصائد رواية واحدة فى نسق متتابع ، ينص

فى أولها على أنها رواية فلان ، وينص فى آخرها على أنه « كمل شعر امرئ القيس من رواية فلان ». ثم يختار الجامع قصائد من روايات أخرى يضعها بعد القصائد الأولى ، وينص كذلك على أنها من رواية فلان أو فلان . ومع أن شرط الجمع متوافر فى هذا الضرب إلا أنه ليس غاية فى ذاته ، وإنما الغاية جمع رواية بعينها ثم اختيار قصائد من روايات أخرى .

الضرب الأول — الروايات المختلفة المتداخلة :

١ — نسخة السكرى :

أبو سعيد الحسن بن الحسين السكرى (ولد سنة ٢١٢ وتوفى سنة ٢٧٥)، وهو ممن خلط المذهبين[١] : البصرى والكوفى ، فأخذ عن أبى حاتم السجستانى والعباس بن الفرج الرياشى ، وهما من علماء المذهب البصرى ، وأخذ عن محمد بن حبيب ويعقوب بن السكيت ، وهما من علماء المذهب الكوفى . وكان مشهوراً بكثرة الجمع والاستقصاء فيه ، حتى قالوا عنه إنه « كان إذا جمع جمعاً فهو الغاية فى الاستيعاب والكثرة »[٢]. وعرّفوه بأنه « الراوية الثقة المكثر[٣] ». أما نسخته من ديوان امرئ القيس فليست — لسوء الحظ — بين أيدينا حتى ندرسها عن عِيان ويقين . غير أن أهلوارد الذى طبع « العقد الثمين » ذكر فى مقدمته أنه اطلع على هذه النسخة واعتمدها أصلاً فى طبع شعر امرئ القيس الذى فى مجموعته . ومخطوطة هذه النسخة موجودة فى مكتبة ليدن وقد ذكر أهلوارد أنها كتبت سنة ٥٤٥ هـ[٤]، وأن لكثير من القصائد التى تضمها مقدمات . غير أن طبعة أهلوارد قد خلت من هذه المقدمات التى تسبق عادة القصائد ،

---

(١) الفهرست : ١١٧ .

(٢) ياقوت ، إرشاد ٨ : ٩٤ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) مقدمة العقد الثمين : ٢١ .

وإن كان أهلوارد جمعها ، أو جمع بعضها ، فى آخر الديوان[1]. غير أن هذه المقدمات التى جمعها فى آخر الديوان قد خلت خلوًّا تامًّا من الإشارة إلى الرواية والرواة ، وهى لا تعدو أن تكون شرحاً مقتضباً لمناسبة بعض القصائد أو سبب نظمها . ومع هذا كله فقد قال أهلوارد فى مقدمة طبعته[2] « يبدو أن نسخة السكرى مروية عن أبى عبيدة معمر بن المثنى البصرى الذى يحتمل أنه رواها عن شيخه أبى عمرو بن العلاء » . ولسنا ندرى ما الذى حمل أهلوارد على هذا الظن فليس فيما أورده فى طبعته أية إشارة إلى إسناد أو رواية . ومع أن النسخة الأصلية ليست بين أيدينا ، فإننا نرجح أن الأمر قد التبس على أهلوارد ، ونكاد نذهب إلى أن نسخة السكرى هذه ذات روايات مختلفة أكثرها كوفية ، ولنا على ذلك ثلاثة أدلة : أولها جوهرى ويكاد يكون يقيناً ، وهو أن فى هذه النسخة سبعاً وستين قصيدة ومقطعة لامرئ القيس ، بينما شعر امرئ القيس فى رواية الأصمعى ثمان وعشرون قصيدة ومقطعة فقط ، وهو فى نسخة الطوسى من الرواية الكوفية سبع وأربعون قصيدة ، منها اثنتان وأربعون من رواية المفضل نفسه ، والخمس الأخرى جمعها الطوسى من رواية غيره من الكوفيين ، ونص فى إحداها على أنها من رواية أبى عمرو الشيبانى . وشعره فى نسخة ابن النحاس ٥٦ قصيدة ومقطعة ، وفى النسخة التى سميناها نسخة الطوسى قصائد كثيرة ألحقها جامع مجهول بنسخة الطوسى فجاء شعر امرئ القيس فى هذه النسخة فى ست وسبعين قصيدة .

فإذا علمنا أن منهج البصريين التضييق فى الرواية والتحرى والتدقيق فى مصادرها ، وأن منهج الكوفيين التوسع فى الرواية والمصادر معاً ، وإذا قرنّا هذا بما رأيناه من أن رواية الأصمعى البصرى لشعر امرئ القيس جاءت فى ثمان وعشرين قصيدة ومقطعة فقط — وهى أقل روايات هذا الشعر كافةً — علمنا

---

(١) العقد الثمين : ٢٢٠ - ٢٢٣ .

(٢) مقدمة العقد الثمين : ٦ .

أن نسخة السكرى بقصائدها ومقطعاتها السبع والستين لا يمكن أن تكون عن بصرى أو عن أبى عبيدة عن أبى عمرو بن العلاء .

والدليل الثانى : هذا النصّ الصريح الواضح الذى ذكره ابن النديم فى معرض حديثه عن ديوان امرئ القيس ورواياته المختلفة، فقد قال[1] : « وصنعه من جميع الروايات أبو سعيد السكرى فجود » .

وأما الدليل الثالث : فهو أن السكرى – على أخذه عن البصريين – قد كان ، فيما يبدو لنا ، أميل إلى الكوفيين وأكثر أخذاً عنهم ، فهو متفق معهم فى المنهج الذى يرمى إلى التوسع فى المصادر ، والتكثر فى الرواية والجمع على ما بيناه فى صدر حديثنا عن السكرى . ومن أجل هذا نراه أكثر الأخذ عن محمد ابن حبيب كما ذكر ياقوت[2]. ومحمد بن حبيب روى كتب ابن الأعرابى تلميذ المفضل .

ودليل رابع : فرع للدليل الثالث يدعمه ويقويه ، وهو أن الدواوين التى بين أيدينا من صنعة السكرى إنما رواها كلها عن محمد بن حبيب الكوفى المذهب ، ومنها ديوان حسان بن ثابت[3]، وديوان الحطيئة[4]، وديوان جِرَان العَوْد[5].

ومن أجل هذا كله – وخاصة من أجل الدليل الأول والثانى – نرجح أن نسخة السكرى هذه صنعها من جميع الروايات كما ذكر ابن النديم ، وأن معتمد هذه النسخة – لكثرة قصائدها – على الروايات الكوفية ، وأنها لا يمكن أن تكون كلها من رواية أبى عبيدة وحده .

٢ – نسخة ابن النحاس :

وهى مما صوره – على ميكروفيلم – معهد إحياء المخطوطات العربية

---

(١) الفهرست : ٢٢٣ .

(٢) إرشاد ١٨ : ١١٢ .

(٣) طبعة ليدن سنة ١٩١٠ .

(٤) طبعة مطبعة التقدم بتصحيح أحمد بن الأمين الشنقيطى .

(٥) طبعة دار الكتب سنة ١٩٣١ .

بجامعة الدول العربية من مكتبة الأسكوريال ، وأوراقها ١٥١ ورقة مكتوبة بخط النسخ ، وليس عليها تاريخ كتابتها ولا اسم كاتبها ، وإن كان الأرجح أنها كتبت فى القرن السابع أو الثامن .

وأول إشكال يفجؤنا فى هذه النسخة هو تحقيق اسم صاحبها . فقد جاء فى الورقة الأولى : « شرح ديوان امرئ القيس المسمى بالتعليقة للعلامة ابن النحاس » ثم كتب بجوار هذه الكنية بخط مائل « بهاء الدين أبى العباس أحمد » ، وبجانبه علامة التصحيح والاستدراك « صح » . وقد بذلنا جهدنا لمعرفة صاحب هذا الاسم ، فلم نعثر له على أثر فيما بين أيدينا من كتب الرجال والتراجم والطبقات . وليس فى هذه الكتب ممن يسمى ابن النحاس إلا اثنان ، أولهما أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس . والثانى : أبو عبد الله بهاء الدين ابن النحاس محمد بن إبراهيم بن محمد . فرجحنا أن يكون الكاتب الذى استدرك فى نسختنا على اسم ابن النحاس فجعله أبا العباس أحمد — قد أخطأ وأنه كان يقصد أبا عبد الله محمداً هذا الذى ذكرناه ، ولقبه بهاء الدين كما أثبته كاتب الاستدراك . فإذا كان ترجيحنا هذا صحيحاً — إذ لم نعثر على بهاء الدين أبى العباس أحمد ، ولعله لا وجود له — فإننا نريد أن نرجح ترجيحاً آخر وهو أن صاحب هذا الشرح هو أبو جعفر ابن النحاس المشهور ، وليس البهاء ابن النحاس . وتفصيل ذلك أن البهاء ابن النحاس (ولد سنة ٦٢٧ وتوفى سنة ٦٩٨) كان شيخ الديار المصرية ، وأكثر شهرته فى النحو — و « لم يصنف شيئاً إلا ما أملاه شرحاً لكتاب المقرب »[١] . فهو إذن من رجال القرن السابع ، بينما لا نجد فى النسخة التى بين أيدينا ذكراً لأحد من الرواة بعد النصف الأول من القرن الرابع . بل إن فى هذه النسخة نصين جديرين بالوقوف عندهما ودرسهما . الأول قوله[٢] : « قال أصحابنا البصريون » . والثانى قوله[٣] : « سمعت ابن دريد

(١) بغية الوعاة : ٦ .
(٢) تعليقة ابن النحاس ورقة : ٥ .
(٣) المصدر السابق : ٤٤ .

قال : . . . . » . وهما من أسباب ترجيحنا أن أبا جعفر ابن النحاس هو صاحب هذه التعليقة ، وذلك أن أبا جعفر قد رحل إلى بغداد ، وروى عن المبرد ، والأخفش على بن سليمان، والزجّاج[1]، وهم جميعاً من علماء المذهب البصرى. وروى من الأخبار ما فيه تضعيف للكوفيين ونيل منهم[2] . فمن المعقول إذن أن يقول من كان هذا شأنه « قال أصحابنا البصريون » . ثم إن أبا جعفر بن النحاس توفى سنة ٣٧٧ هـ ، وتوفى ابن دريد سنة ٣٢١ ، وأخذ أبو جعفر عن شيوخ ابن دريد وعمن هم فى طبقته مثل المبرد والأخفش والزجاج ، وابن دريد بصرى المذهب مثل ابن النحاس وشيوخه ، فمن المعقول إذن لمن كان هذا شأنه أن يأخذ عن ابن دريد ، وأن يقول « سمعت ابن دريد » .

وشىء ثالث فى النسخة نفسها ، وذلك كثرة ما يرويه من شرح للألفاظ والأبيات عن أبى الحسن . ونحن نستبعد أن يعنى بأبى الحسن : الطوسى ، وذلك لأنه ذكر الطوسى صراحة فى مواطن كثيرة ولم يكنه . أما هذه الكنية التى تدل على الألفة والشهرة بحيث يكتفَى بها ويستغنَى عن التسمية فالمقصود بها — فى رأينا — على بن سليمان الأخفش ، وهو أستاذ أبى جعفر بن النحاس « وله سماع كثير عنه »[3] .

فإذا أضفنا إلى هذا كله ما ذكرناه من أن البهاء ابن النحاس « لم يصنف شيئاً إلا ما أملاه شرحاً لكتاب المقرب» ، بينما نجد أن أبا جعفر ابن النحاس يعنَى عناية كبيرة بالشعر ويؤلف فيه ، فله « شرح المعلقات » و « شرح المفضليات »[4]، و« فسر عشرة دواوين وأملاها »[5]، وله « كتاب أخبار

---

(١) طبقات اللغويين والنحويين : ٢٣٩ ، وياقوت ، إرشاد ٤ : ٢٢٤ .

(٢) طبقات اللغويين والنحويين : ٩٤ .

(٣) إنباه الرواة ١ : ١٠١ .

(٤) السيوطى ، البغية .

(٥) إنباه الرواة ١ : ١٠١ .

الشعراء»[١] ـ إذا ذكرنا ذلك كله استبانت لنا الأسباب التى من أجلها رجحنا أن يكون أبو جعفر بن النحاس هو صاحب هذه النسخة وليس البهاء بن النحاس .

أما النسخة نفسها ففيها ست وخمسون قصيدة ومقطعة لامرئ القيس ، وهى مجموعة من روايات مختلفة متداخلة : بصرية وكوفية ، وفى كثير منها نص على راويها ، أو نص على أن فلاناً معها وأنكر نسبتها لامرئ القيس ، أو أن فلاناً لم يعرفها . ويبدو أن ابن النحاس قد اعتمد نسخة اليزيدى من ديوان امرئ القيس أصلاً ، وهو أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن يحيى ابن المبارك اليزيدى المتوفى سنة ٣١٠ هـ . ويبدو كذلك أن نسخة اليزيدى هذه قد قرئت على ابن دريد ، قرأها رجل كنيته أبو عمران فاعتمد ابن النحاس نسخة اليزيدى أصلاً ثم أضاف إليها ما ذكره ابن دريد وغيره من الزيادات أو الشروح أو الاستدراكات . وحديث ابن النحاس عن هذه النسخة يدل على هذا الذى ذكرناه ، فهو يقول[٢] : « كان فى نسخة اليزيدى كذا وهو خطأ وحقه كذا ... » ، و « فى نسخة اليزيدى كذا ...[٣] » ، و « قال ابن دريد : دفعها الأصمعى ورواها قوم لابن أحمر ، وهى فى أصل اليزيدى »[٤] ، و « هذا البيت ليس فى اليزيدى . . . وقد قرأه أبو عمران »[٥] ، و « هذا البيت ليس فى نسخة اليزيدى وقد قرأه أبو عمران على ابن دريد »[٦] ، و « زيادة على اليزيدى قرأها أبو عمران »[٧] ، و « روى الأصمعى وقرأه أبو عمران على ابن دريد »[٨] ، و « كذا هو فى اليزيدى[٩] » .

---

(١) المصدر السابق ١ : ١٠٣ .
(٢) تعليقة ابن النحاس ورقة : ٤٩ .
(٣) المصدر السابق : ٥٢ .
(٤) المصدر السابق : ٥٣ .
(٥) المصدر السابق : ٥٨ .
(٦) المصدر السابق : ٩١ .
(٧) المصدر السابق : ١٠٩ .
(٨) المصدر السابق : ١٢٢ .
(٩) المصدر السابق : ١٢٦ .

أما الرواة العلماء الذين يرد ذكر رواياتهم أو شروحهم فى هذه النسخة فهم : الأصمعى وأبو عبيدة وأبو حاتم والفرّاء والطوسى وأبو سعيد السكرى وابن حبيب والمفضل وأبو عمرو الشيبانى وابن الأعرابى وابن دريد واليزيدى .

وفى هذه النسخة أمر جدير بالنظر انفردت به نسخة ابن النحاس دون غيرها من النسخ والروايات ، وهو ترتيب القصائد على حروف الرَّوىّ . غير أنه بدأ بالمعلقة ، ثم أورد جميع القصائد اللامية ، ثم أتبعها بالرائيات ، ثم البائيات ، ثم تسلسل مع حروف الهجاء إلى الياء ، غير أنه قدم الضاد على الصاد . ويبدو أن سبب هذا الترتيب أنه بدأ بالمعلقة لشهرتها وقيمتها، ولما كانت المعلقة لامية فقد أتبعها بجميع القصائد اللاميات ، ثم ثنّى بالرائيات لأنها أكثر عدداً من قصائد الحروف الأخرى ، فلما انتهى منها تساوت عنده القصائد الباقية فسردها على تتابع حروف الهجاء .

وأمر آخر جدير بالنظر ويدل على عناية ابن النحاس بالترتيب والتبويب والتقسيم : أنه يذكر بعد كل بيت ثلاثة عناوين : « ما فيه من الغريب » ، و « ما فيه من الروايات » ، و « ما فيه من المعنى .. »، ثم يذكر بعد كل عنوان ما يجده فى بابه ، وهو يتبع هذا التقسيم بعد كل بيت ولا يكاد يخرج عنه إلا حيث لا يجد شيئاً يذكره بعد أحد هذه العناوين .

الضرب الثانى : أما الضرب الثانى من هذه الروايات المجموعة فهو ما جمع فيه أحد العلماء الرواة شعر امرئ القيس من الروايات المختلفة للرواة البصريين والكوفيين معاً ، غير أنه بدأ مجموعته برواية واحدة لعالم راوية واحد، حتى إذا استقصى ما جاء فى هذه الرواية من شعر امرئ القيس نص ذلك العالم على أن رواية فلان قد انتهت ، ثم يورد لنا مختارات انتقاها من الروايات الأخرى . وبذلك يختلف هذا الضرب عن الضرب السابق فى أنه يقدم لنا رواية واحدة مستقلة قائمة بنفسها واضحة المعالم . وقد بقى لنا من هذا الضرب ثلاث نسخ :

١ – نسخة الطوسى :

وفى تسميتنا لها بنسخة الطوسى شىء من التجاوز ، وذلك لأن هذه النسخة – وهى مكتوبة فى سنة ٤٠٣ هـ، وعدد أوراقها ١٠٤ ، ومحفوظة فى مكتبة لاله لى فى تركيا، ومصورة على ميكروفيلم فى معهد إحياء المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية – قد جمعها جامع مجهول ليس فى النسخة ما يدل عليه . وقد عثر – فيا يبدو – على نسخة الطوسى فجعلها الأصل الذى اعتمد عليه فى نسخته، ثم أضاف إلى نسخته بعد ذلك ستًّا وعشرين قصيدة ومقطعة مما لم يذكره الطوسى فى نسخته، وقد ميز بين نسخة الطوسى وما أضافه هو من الشعر بقوله : « تمت نسخة أبى الحسن الطوسى من القديم الصحيح والمنحول، ومما كتبناه عن غيره من منحول شعره، وهو المنحول الثانى : . . . . » ثم جعل عنوان مجموعته كلها : « ديوان امرئ القيس ، رواية أبى الحسن الطوسى وأبى نصر أحمد ابن حاتم عن الأصمعى عبد الملك بن قريب عن أبى عمرو الشيبانى ». وهو عنوان غير مستقيم وصحته – فيا نرى – : « ديوان امرىء القيس رواية أبى الحسن الطوسى عن أبى عمرو الشيبانى ، وأبى نصر أحمد بن حاتم عن الأصمعى عبد الملك ابن قريب » . وقد وجدنا بعد دراسة هذه النسخة وما فيها من روايات – أنها أصلاً نسخة الطوسى وروايته ، وأن جامع النسخة المجهول قد علق على بعض القصائد التى وجدها فى نسخة الطوسى تعليقات أخذها من نسخة أخرى رواها أحمد بن حاتم عن الأصمعى ، ومع تداخل هذه التعليقات والإشارات إلا أن الفصل بين الروايتين وتمييزهما سهل .

أما نسخة الطوسى (أبو الحسن على بن عبد الله بن سنان المتوفى فى نحو سنة ٢٥٠هـ) فهى قسمان ، أورد فى القسم الأول منهما رواية المفضل بن محمد الضبى – الكوفى (المتوفى سنة ١٦٨) لشعر امرئ القيس ، وقد درسنا هذا القسم حين تحدثنا عن الأصول الكوفية لرواية ديوان امرئ القيس ، ولا حاجة

بنا إلى إعادة هذا الحديث . وأما القسم الثانى من نسخة الطوسى فهو مختارات انتقاها من غير رواية المفضل ، فقد قال بعد القصيدة الثانية والأربعين من نسخته « هذا آخر رواية المفضل ، والذى يلى هذا ما رواه أبو عبيدة معمر ابن المثنى التيمى والأصمعى » ثم يذكر سبع قصائد . ويبدو أن فى هذه الجملة التى أنهى بها رواية المفضل نقصاً لا بد من إثباته حتى يستقيم الكلام مع رواية القصائد السبع التالية . وذلك لأن ثلاث قصائد فقط من هذه السبع رواها الأصمعى حقًّا ، أما الأربع الأخرى فلم ترد فى رواية الأصمعى ، وإنما ذكر اثنتين منها الأعلم فى نسخته بعد أن أورد رواية الأصمعى لشعر امرئ القيس ، ونص على أن هاتين القصيدتين ــ مع قصائد أخرى ذكرها ــ هما من القصائد المتخيرات مما لم يرو أبو حاتم عن الأصمعى ، وإنما « مما روى أبو عمرو والمفضل وغيرهما . . . » ، وإذ قد نص الطوسى فى نسخته ، وكذلك الأعلم فى نسخته ، على أن إحدى هاتين القصيدتين وهى : « جزعت ولم أجزع من البين مجزعاً » من رواية أبى عمرو الشيبانى ، فلعل هذه القصائد الأربع الأخيرة ــ من القصائد السبع التى أوردها الطوسى فى نسخته من غير رواية المفضل ــ هى من رواية بعض الكوفيين ، أو لعلها مما روى أبو عمرو الشيبانى ذاته . ومن أجل هذا قلنا إن فى عبارة الطوسى التى أنهى بها رواية المفضل نقصاً ، ونرى أن هذه العبارة تكمل وتستقيم مع رواية القصائد التالية لو أضفنا إليها كلمة « وغيرهما » فتصبح عبارته « هذا آخر رواية المفضل ، والذى يلى هذا ما رواه أبو عبيدة معمر ابن المثنى التيمى والأصمعى وغيرهما » .

٢ ـ نسخة عاصم :

هو الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسى البلوىّ النحوى ، المتوفى فى سنة ٤٦٤ هـ . ونسخته من ديوان امرئ القيس جزء من مجموعته لدواوين الشعراء الستة : امرئ القيس والنابغة وعلقمة وزهير وطرفة وعنترة . وهذه المجموعة

قد وصلتنا كاملة ، ومخطوطاتها موجودة فى بعض المكتبات ، ومنها مخطوطة فى مكتبة فيض الله بتركيا صورها على ميكروفيلم معهد إحياء المخطوطات العربية. أما ديوان امرئ القيس وحده من هذه المجموعة فقد طبع عدة طبعات : طبع فى تونس سنة ١٢٨٢ هـ ، وطبع فى القاهرة بمطبعة هندية مرتين : سنة ١٩٠٦ م وسنة ١٩٢٨ م . وسنتحدث عن شعر الشعراء الستة وعن نسخة عاصم من شعر امرئ القيس ،حين نتحدث عن نسخة الأعلم فإن النسختين : نسخة عاصم والأعلم ، قد اتخذتا من رواية الأصمعى لشعر امرئ القيس أصلاً اعتمدتاه، وقد اتفقت النسختان فى هذا القسم من الشعر ، غير أن الأعلم اختار بعد ذلك ست قصائد من غير رواية الأصمعى ، بينما لم يختر عاصم إلا قصيدة واحدة من رواية المفضل وأبى عمرو الشيبانى بدأ بها الديوان هى « أحار بن عمرو كأنى خمر » ، ثم أورد القصائد التى أوردها الأعلم من رواية الأصمعى غير أن فى ترتيب بعض القصائد اختلافاً . ثم إن الأعلم نص على أن ما أورده هو من رواية الأصمعى ، وميز بين هذه الرواية ورواية غيره ، ولكن عاصماً لم يشر إلى رواية الأصمعى بل لم يُعنَ بالرواية جملةً. وسبب هذا الاتفاق بينهما أنهما أخذا عمن أخذ عن أبى على القالى — على ما سنبينه حين نتحدث عن الأعلم. وقد ذكر الوزير أبوبكر عاصم أنه اطلع على نسخة لهذا الديوان قوبلت بنسخة أبى على[1]، وأشار فى موطن آخر — فى معرض حديثه عن لفظ — إلى أنه وجده فى النسخة الصحيحة[2]، فلعله يقصد نسخة أبى على أيضاً .

٢ — نسخة الأعلم :

هو العالم اللغوى يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمرى، أبو الحجاج الأعلم، المتوفى سنة ٤٧٦ هـ . وله هذه المجموعة الشعرية التى تشتمل على دواوين الشعراء الستة الذين ذكرناهم ، ومنها نسخ كثيرة فى مكتبات العالم : ففى مكتبة باريس

(١) شرح ديوان رئيس الشعراء ، ط . هندية ١٩٠٦ ص : ١٣٥ .
(٢) المصدر السابق : ١٠٧ .

مخطوطتان هما رقم ١٤٢٤ و ١٤٢٥ ، وقد اعتمدهما دى سلان أصلاً فى طبعته لديوان امرئ القيس التى طبعت فى باريس سنة ١٨٣٦ – ١٨٣٧ م، وسماها « نزهة ذوى الكيس وتحفة الأدباء فى قصائد امرئ القيس »، وكذلك اعتمدها أهلوارد أصلاً فى طبعته لدواوين الشعراء الخمسة – عدا امرأ القيس – التى طبعت فى لندن سنة ١٨٧٠ وسماها « العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين » . وقد وصفهما دى سلان وأهلوارد فى مقدمتيهما وصفاً مفصلاً . وكتبت أولاهما سنة ٥٧١ ، وثانيتهما فى القرن الحادى عشر الهجرى . وفى مكتبة غوطة مخطوطة أخرى رقمها ٥٤٧ وصفها أهلوارد ورجع إليها . وفى دار الكتب المصرية مخطوطتان من هذه المجموعة الأولى رقمها ٤٥٠ تيمور وكتبت سنة ١٢٦٨ هـ ، والثانية رقمها ٨١ ش . وقد اتبع الأعلم فى جميع دواوين مجموعته خطة واحدة ، فكان يبدأ فى كل ديوان برواية الأصمعى حتى إذا استوفاها نص على انتهائها وميز آخرها ، ثم يذكر قصائد يختارها من رواية الكوفيين لشعر ذلك الشاعر ، قد ذكر خطته هذه ذكراً واضحاً فى مقدمته ، قال[1] . « واعتمدت فيما جلبته من هذه الأشعار على أصح رواياتها وأوضح طرقاتها ، وهى رواية عبد الملك بن قريب الأصمعى ، لتواطؤ الناس عليها واعتيادهم لها ، واتفاق الجمهور على تفضيلها . وأتبعت ما صح من رواياته قصائد متخيرة من رواية غيره ، وشرحت جميع ذلك شرحاً يقتضى تفسير جميع غريبه ، وتبيين معانيه وما غمض من إعرابه . . . »

أما سبب اختيار هؤلاء الشعراء الستة بدواتهم فقد أشار إليه الأعلم كذلك فى مقدمته قال[1] « . . . رأيت أن أجمع من أشعار العرب ديواناً يعين على التصرف فى جلة المنظوم والمنثور ، وأن أقتصر منها على القليل ، إذ كان شعر العرب كله متشابه الأغراض ، متجانس المعانى والألفاظ ، وأن أوثر بذلك من الشعر ما أجمع الرواة على تفضيله ، وإيثار الناس استعماله على غيره . . . ». وقد بحث

(١) شرح الأعلم ورقة : ١ .

ذلك أيضاً أهلوارد فى مقدمته ، فذهب إلى أن اختيار هؤلاء الستة يعود إلى ثلاثة أمور[1]: قيمة شعرهم الفنية ، وكثرة قصائدهم وطولها إذا قيست بقصائد معاصريهم ، وعنايتهم بالحوادث ذات الذكريات المجيدة وبالأشخاص ذوى المكانة التاريخية السامية ، فلم تطغ على شعرهم وحياتهم الحوادث المحلية الصغيرة كما طغت على حياة الشعراء الذين سبقوهم أو عاصروهم .

أما رواية الأعلم لهذه الدواوين فهى متصلة السند إلى الأصمعى نفسه ، وقد ذكر ابن خير الأموىّ إسناد هذه الرواية فى فهرسته[2] فقال: « كتاب الأشعار الستة الجاهلية شرح الأستاذ أبى الحجاج يوسف بن سليمان النحوى الأعلم ، رحمه الله — حدثنى بها أيضاً قراءة منى عليه لها ولشرحها : الوزير أبو بكر محمد بن عبد الغنى بن عمر بن فندلة رحمه الله — عن الأستاذ أبى الحجاج الأعلم مؤلفه رحمه الله — يرويها الأستاذ أبو الحجاج الأعلم المذكور ، عن الوزير أبى سهل بن يونس بن أحمد الحرانى ، عن شيوخه أبى مروان عبيد الله ابن فرج الطوطالقى وأبى الحجاج يوسف بن فضالة وأبى عمر بن أبى الحباب ، كلهم يرويها عن أبى على القالى ، عن أبى بكر بن دريد ، عن أبى حاتم ، عن الأصمعى رحمه الله » .

أما نسخة الأعلم من ديوان امرئ القيس — وهو أول دواوين هذه المجموعة — فتضم أربعاً وثلاثين قصيدة ومقطعة جعلها قسمين ، الأول: ما رواه أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى ، وهى ثمان وعشرون قصيدة ومقطعة — استثنينا منها واحدة ، وهى « ألا إلاّ تكن إبل فمعزى » ، وذلك لأن الأعلم نفسه ذكر أن الأصمعى كان يقول : « امرؤ القيس ملك ولا أراه يقول هذا ، فكأن الأصمعى أنكرها » . ولأن الوزير أبا بكر عاصم بن أيوب ذكر حين أورد هذه المقطعة أن الأصمعى قال[3]: « امرؤ القيس لا يقول مثل هذا ، وأحسبه للحطيئة » .

(١) سالعقد الثمين — المقدمة : ٢ - ٣ .
(٢) فهرست ابن خير : ٣٨٨ .
(٣) شرح ديوان امرىء القيس : ١٦٥ .

فرأينا أن قول الأصمعي يسقط هذه الأبيات من جملة ما رواه له ، ويسلكها فى عداد الأبيات والقصائد التى كان يشرحها ، ولكنه ينص على أنها ليست لامرئ القيس — وبذلك تكون رواية الأصمعي لشعر امرئ القيس سبعاً وعشرين قصيدة فقط ، قال فى ختامها : « قال أبو حاتم : هذا آخر ما صحح الأصمعي من شعر امرئ القيس ، والناس يحملون عليه شعراً كثيراً وليس له ، إنما هو لصعاليك كانوا معه » ثم قال : « كملت رواية أبى حاتم عن الأصمعي والحمد لله » . أما القسم الثانى من نسخة الأعلم فيشتمل على ست قصائد لختارها من رواية الكوفيين ، ونص فى ثلاث منها على أنها مما روى أبو عمرو الشيبانى . وقد قدم لهذا القسم بقوله « قال أبو الحجاج يوسف بن سليمان : ونذكر قصائد متخيرات مما لم يرو أبو حاتم ... » ، وقد ذكر الطوسى فى نسخته أربعاً من هذه القصائد من رواية المفضل ، ثم ذكر اثنتين من رواية غيره من الكوفيين .

رواية الأصمعي والمفضل :

رأينا من كل ما قدمنا من حديث عن نسخ ديوان امرئ القيس ورواياته — أن الأصلين الأوليَّيْن والمصدرين الرئيسيَّيْن اللذين اعتمدت عليهما هذه النسخ هما : رواية الأصمعي البصرى ورواية المفضل الكوفى ، وأن ما جاء فى بعض النسخ من القصائد الزائدة على هاتين الروايتين مما جمعه بعض الجامعين ، فقليل جداً منها مروى عن أبى عمرو الشيبانى ، أما الباقى فقد نُصَّ على كثير منه بأنه منحول لامرئ القيس ، وأن صحة نسبته إلى فلان أو فلان من الشعراء . ومن أجل هذا سنقصر حديثنا الآن على هاتين الروايتين ، وبيان مصادرهما ، ووصف طبيعتهما ، ثم نعقب بذكر مطالع القصائد التى رواها الأصمعي أولاً ، والتى رواها المفضل ثانياً ، ونذكر فى كل مطلع النسخ الأخرى التى ترد فيها هذه القصيدة .

مصادر الروايتين :

فإذا كانت نسخ ديوان امرئ القيس المسندة تنتهي روايتها — كما رأينا — عند الأصمعي البصري ، وعند المفضل الكوفي ، فمن أين انحدرت إليهما قصائد هذا الديوان؟ وكيف وصلهما هذا الشعر الذي حُفِظ لنا في روايتيهما ؟

أما الأصمعي فيبدو أن طريقنا إلى معرفة مصادره أوضح من طريقنا إلى معرفة مصادر المفضل ، لأن الأصمعي قد نص على هذا الطريق وكشف لنا عن تلك المصادر ، وذلك أن أبا حاتم قال[1] : « قال الأصمعي : كل شيء في أيدينا من شعر امرىء القيس فهو عن حماد الراوية ، إلا نتفاً سمعتها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء » . فقد استقى الأصمعي إذن شعر امرئ القيس من ثلاثة مصادر : حماد ، وهو المصدر الأكبر ، والأعراب ، وأبي عمرو بن العلاء . فإذا كان ذلك صحيحاً — وليس بين أيدينا ما يدفعه — فعلينا أن نقبله جملةً كما هو ، إذ من العسير أن نعرف القصائد التي استقاها من كل مصدر من هذه المصادر الثلاثة . ومع ذلك فقد بقيت لنا بعض الإشارات التي تؤيد هذا القول ، وذلك أن الأصمعي يشير في روايته المحفوظة في نسخة الأعلم — إلى أبي عمرو ابن العلاء في موضعين ، الأول : حين روى عنه قصيدة امرئ القيس التي مطلعها :

دِيمَةٌ هَطْلاءُ فِيها وَطَفٌ طَبَقُ الأَرْضِ تَحَرَّى وَتَدُرّْ

فقد ذكر الأصمعي أن أبا عمرو بن العلاء أخذ هذه القصيدة من ذي الرمة . والموضع الثاني : حينما روى عنه أيضاً خبر منازعة امرئ القيس والتوءم اليشكري وأنصاف أبياتهما . وفي نسخة الطوسي يشير الأصمعي أيضاً إلى أبي عمرو بن العلاء في معرض حديثه عن القصيدة التي نسبها المفضل الضبي وأبو عمرو الشيباني وغيرهما من الكوفيين إلى امرىء القيس ومطلعها :

أَحَارِ بنَ عَمْرٍو كَأَنِّي خَمِرْ وَيَعْدُو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتَمِرْ

---

(١) مراتب النحويين ، ورقة ١١٦ — ١١٧ ، والمزهر ٢ : ٤٠٦ .

فقد أنكرها الأصمعي وقال: « أنشدنيها أبو عمرو بن العلاء لرجل من النمر ابن قاسط يقال له ربيعة بن جشم » . وأشار الأصمعي أيضاً إلى بعض ما أخذه عن الأعراب من شعر امرئ القيس ، فمن ذلك أن التبريزي حينما أورد بيت المعلقة :

تَرَى بَعَرَ الأَرْآمِ فِي عَرَصَاتِهَا وَقِيعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ

قال[1]: « وهذا البيت وما بعده مما يزاد في هذه القصيدة »، ثم قال: « قال الأصمعي : والأعراب ترويهما » .

وقد تكون ثمة إشارات أخرى — لم نعثر نحن عليها — إلى أبي عمرو بن العلاء وإلى الأعراب في رواية الأصمعي ، غير أنها مع ذلك لا تعدو أن تكون أمثلة ونماذج تدعم القول الذي سقناه للأصمعي يبين فيه مصادر روايته لشعر امرئ القيس ، ولكنها لا يمكن أن تبين — على وجه الحصر — ما أخذه الأصمعي عن أبي عمرو ، وما أخذه عن الأعراب ، ثم ما أخذه عن حماد . ومن أجل هذا قلنا قبل قليل إنه لا مفر لنا من أن نقبل قوله هذا جملة كما هو ، فتكون بذلك أكثر رواية الأصمعي لشعر امرئ القيس عن حماد الراوية ثم أضاف إليها نتفاً أخذها عن أبي عمرو بن العلاء وسمعها من الأعراب .

وقد تحدثنا في الفصل الثاني من الباب الثاني عن عناية أبي عمرو بن العلاء وحماد الراوية بالتدوين والمدونات ، ورجحنا أن يكون قد وصلت إليهما بعض مدونات الشعر الجاهلي من العصور التي سبقتهما ، ولا نحب أن نعيد هنا ما ذكرناه هناك ، غير أننا نريد أن نذكّر بأن حماداً كان في بيته كتابا قريش وثقيف ، وأنه نظر فيهما ليستذكر ما فيهما من شعر حين استقدمه الخليفة الأموي الوليد بن يزيد[2]. وأنه كان في بيته كذلك ديوان العرب ، فلما أراد هذا الخليفة نفسه « أن يجمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها ، استعار من حماد ، ومن جناد بن واصل الكوفي ، ما عندهما من الكتب والدواوين فدوّنها

(١) شرح القصائد العشر : ٧ .

(٢) الأغاني ٦ : ٩٤ .

عنده ، ثم ردّ إليهما كتبهما »[١] . وأن حماداً كان عنده جزء من شعر الأنصار[٢]. وأن أبا حاتم السجستانى رأى بعض كتب حماد فى الشعر الجاهلى فرجع إليها وأثبت ما وجده فيها زائداً على ما جمع من الشعر وإنْ كان نصَّ على أن هذه الزيادات هى من الشعر المصنوع[٣].

فرواية الأصمعى لشعر امرئ القيس — حين يرتفع سندها إلى حمادِ الرواية وأبى عمرو بن العلاء — إنما تعتمد ، بعض الشيء ، على صحائف متفرقة ، أو دواوين مجموعة ، كانت عند هذين العالمين ، وربما وصلتهما من العصور السابقة على عصرهما ، فضلاً عن اعتمادها على السماع والرواية الشفهية .

غير أن الأصمعى لا يمكن أن يكون قد قبل كل ما سمعه من حماد ، فإن ذلك مخالف لمنهج الأصمعى وطبيعة روايته مما سنتحدث عنه بعد قليل . إنما المرجح أن الأصمعى قد سمع ما عند حماد من شعر امرئ القيس ودوّنه ، ثم سمع ما عند شيخه أبى عمرو بن العلاء وعرض عليه بعض ما سمعه من حماد ودوّن رواية أبى عمرو وتعليقاته ، ثم دوّن النتف التى سمعها من الأعراب ، وعاد على كل ذلك بالنقد والتحقيق والتمحيص ، فأسقط منه ما أسقط ، ولعله كثير جداً ، ثم دوّن نسخته الخاصة من شعر امرئ القيس وأثبت فيها ما اطمأن هو نفسه إلى صحة نسبته إلى هذا الشاعر ، وهذه النسخة هى التى حفظها لنا الأعلم والتى ذكر أبو حاتم فى نهايتها أن « هذا آخر ما صحح الأصمعى من شعر امرئ القيس » .

ومما يؤيد ما نذهب إليه من اتصال رواية الأصمعى بالمدونات أننا نجد الأصمعى ينكر أن تكون القصيدة جملة لامرئ القيس ، وينسبها لشاعر آخر ، أو يقبل القصيدة وينكر أبياتاً منها ، ومع ذلك نجده يشرح هذه القصائد التى

---

(١) الفهرست : ١٣٤ .

(٢) الأغانى ٦ : ٨٧ .

(٣) مختارات ابن الشجرى : ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٣٦ .

أنكرها ، وتلك الأبيات التى دفعها ؛ وتعليل ذلك — فيما نرجح — أن ديوان امرئ القيس قد وصل مدوناً مكتوباً إلى عصر الأصمعى ، وأن الأصمعى — وغيره من الرواة العلماء — كانوا يقرأون هذا الديوان الذى وصلهم مدوناً ، أو يقرؤه عليهم بعض تلاميذهم ، فيضطرون إلى التعرض لكل قصيدة فى ذلك الديوان بالنقد والتعليق : يدفعون من قصائده أو أبياته ما يشكُّون فيها ، وقد ينسبونها إلى الشاعر الذى يرجحون أنه قالها ، ويثبتون منها ما يطمئنون إلى صحته ، ولكنهم مع ذلك يشرحون لتلاميذهم فى مجالس علمهم جميع ما فى ذلك الديوان من شعر صحيح ومنحول . ومن هنا وجدنا شرحاً للأصمعى على قصائد وأبيات أنكر نسبتها لامرئ القيس .

أما المفضل الضبى فيبدو كذلك أن روايته متصلة بالمدوّنات التى وصلت إليه من العصور السابقة ، وسنفصل القول فى ذلك حين نتحدث عن المفضليات فى الفصل الثالث من هذا الباب ؛ وسنجد هناك أن المفضل قد اختار قصائده من الدواوين المدونة ، واستخرجها من الكتب التى كانت فى مكتبته . وإنْ كان يعوزنا النص الصريح على ذلك فى روايته لديوان امرئ القيس ذاته ، إلا أننا نحمل هذا على ذاك .

طبيعة الروايتين ومنهجهما :

وكان من نتيجة ما قام به الأصمعى من نقد وتحقيق ونخل وتمحيص لما استقاه من شعر امرئ القيس من تلك المصادر الثلاثة — أن جاءت روايته لديوانه فى سبع وعشرين قصيدة ومقطّعة فقط ، وهى أقل الروايات التى عثرنا عليها كافة . وتعليل ذلك فى هذا المنهج الذى أخذ به البصريون عامة أنفسهم ولا سيا الأصمعى . وهو منهج يقوم — كما قدمنا فى غير هذا الفصل — على التضييق فى المصادر التى يستقون منها ، والتحرّى فى الرواية التى يقبلونها . وأخذ الأصمعى نفسه — فى حدود هذا المنهج — بأكثر مما أخذ به البصريون عامة

نفوسهم، فقد قال ابن مناذر[١]: « كان الأصمعي يجيب فى ثلث اللغة، وكان أبو عبيدة يجيب فى نصفها ، وكان أبو زيد يجيب فى ثلثيها ، وكان أبو مالك (عمرو بن كركرة الأعرابى) يجيب فيها كلها » . وقد فسر أبو الطيب اللغوى المقصود بهذا الكلام، فقال « وإنما عنى ابن مناذر توسعهم فى الرواية والفتيا ، لأن الأصمعى كان يضيّق ولا يجوّز إلا أفصح اللغات، ويلحّ فى ذلك ويمحك، وكان مع ذلك لا يجيب فى القرآن وحديث النبى صلى الله عليه وسلم . فعلى هذا يزيد بعضهم على بعض » .

ومع أن الكوفيين عامةً كانوا أكثر توسعاً فى المصادر — على ما ذكرناه فى فصل سابق — وأكثر تساهلاً وتجوزاً فى قبول الروايات ، غير أن المفضل بن محمد كان يأخذ نفسه بمثل المنهج البصرى من التضييق والتحرى ، ومن أجل هذا وثّقه البصريون أنفسهم وأخذوا عنه[٢] . وكان من نتيجة تضييقه وتحريه أن جاءت روايته لديوان امرئ القيس فى أربعين قصيدة ومقطعة : وهى أكثر من رواية الأصمعى ، ولكنها تقل كثيراً عما جاء فى النسخ التى جمعت روايات ديوان امرئ القيس المختلفة — وأكثرها روايات كوفية — مثل نسخة السكرى ونسخة ابن النحاس .

والحق أن هذه الزيادة فى رواية بعض الكوفيين لا تعنى أنهم كانوا يضعون ويصنعون ، أو ينحلون ويتزيدون ، ونحن نقصد بطبيعة الحال الثقات منهم من أمثال : المفضل الضبى وأبى عمرو الشيبانى ومحمد بن زياد الأعرابى . فلقد مر بنا توثيق البصريين أنفسهم للمفضل وأخذهم عنه ، وأما أبو عمرو الشيبانى فقد كان ثقة ثبتاً عند أصحاب المذهبين ،ما يوثقونه جميعهم : ولم نجد لأحد طعناً عليه فى روايته أو توهيناً له؛ وأما ابن الأعرابى فكان ربيب المفضل وتلميذه وقد أخذ عنه دواوين الشعر وصححها ، وقالوا فيه إنه « لم يكن فى الكوفيين أشبه

(١) مراتب النحويين : ٦٧ .

(٢) أخبار النحويين البصريين : ٥٦ — ٥٧

برواية البصريين منه »[1]. وإنما مرد هذه الزيادة فى الرواية — كما ذكرنا من قبل فى مواطن متعددة — إلى اختلاف مصادر المدرستين واختلاف منهجيهما ، فقد ذكرنا أن الكوفيين كانوا يأخذون عن أعراب رواة لم يكن البصريون يأخذون عنهم ، وأخذ الكوفيون عن علماء وشيوخ من أهل البصرة وزادوا فأخذوا عن علماء وشيوخ لم يأخذ عنهم البصريون ، ووقع بين أيدى أهل الكوفة من الصحف المدونة ما لم يقع مثله لأهل البصرة . وكان من نتيجة هذا الاختلاف فى المصادر وفى المناهج أن اختلف بعض الشعر الذى رواه علماء كل من المدرستين ، وأن جاء الشعر فى رواية الكوفيين أكثر منه فى رواية البصريين .

وكما كان البصريون ينقدون ويمحصون كان كذلك الكوفيون ينقدون ويمحصون ، وكان علماء المدرستين معاً لا يقبلون كل ما يسمعون أو يقرأون ، وإنما كانوا يعرضونه على محك النقد والتمحيص. حتّى إن الكوفيين — على توسعهم فى المصادر وتكثرهم فى الرواية — أسقطوا بعض القصائد التى رواها الأصمعى لامرىء القيس وأنكروها.فلم يرو المفضل سبع قصائد ومقطعات رواها الأصمعى ، وإسقاطها من روايته دليل على أنه لم يعدّها من شعر امرئ القيس الصحيح فى رأيه ، وكذلك روى الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء قصيدة لامرئ القيس مطلعها :

أَمَاوِىَّ هَلْ لِى عِنْدَكُمْ مِنْ مُعَرَّسِ　　　أَمِ الصَّرْمَ تَخْتارِينَ بِالْوَصْلِ نَيْئَسِ

فأنكرها أبو عمرو الشيبانى — أو غيره من الكوفيين — وقال إنها ليست لامرئ القيس وإنما هى لبشر بن أبى خازم[2] . وكذلك أنكر الكوفيون قصيدة أخرى رواها الأصمعى وأبو عبيدة ومطلعها :

يا هِنْدُ لاَ تَنْكِحِى بُوْهَةً　　　عَلَيْــهِ عَقِيقَتُهُ أَحْسَــبَا

---

(١) طبقات النحويين واللغويين : ٢١٣ .

(٢) القصيدة : ٤٤ من نسخة الطوسى .

وقالوا إنها منحولة .

ولقد كانت كثرة رواية الكوفيين مطعناً عليهم عند البصريين ، فاتهموهم بالتكثر والتزيد ، غير أننا رأينا أنها كثرة لا تكثر ، وزيادة لا تزيُّد ، وأن الثقاتِ الأثباتَ من الكوفيين كانوا كالثقات الأثبات من البصريين : ينقلون ويمحصون ويتحرّون ، غير أن اختلاف المصدرين واختلاف المنهجين أدّيا إلى أن يكون ما عند الكوفيين أكثر مما عند البصريين . ومع ذلك فإن ثمة أمراً نحسبه من الوضوح والبداهة بحيث لا يحتاج إلى تفصيل فى القول طويل ، وهو أن توثيقنا للعلماء الرواة من الكوفيين وللعلماء الرواة من البصريين لا يعنى أن كل ما يروون شعر صحيح مقطوع بصحته ، لا سبيل إلى الشك فيه أو الطعن عليه . وإنما أردنا أن نؤكد تأكيداً واضحاً أن هؤلاء العلماء الرواة لا يمكن أن يكونوا كذابين يتعمدون الكذب ، ولا وضاعين يحترفون الوضع ، وأن رواية هؤلاء العلماء الرواة فى مجموعها رواية صحيحة أو قريبة من الصحة ، وأن هؤلاء العلماء الرواة قد أفرغوا جهدهم وبذلوا أقصى طاقتهم فى النقد والتمحيص حتى استقام لهم ما استقام من شعر اطمأنوا إلى صحته وفقاً لمنهجهم العلمى فرووه ، ورواه عنهم تلاميذهم ، حتى وصل إلينا منسوباً إليهم ، مروياً عنهم .

فحديثنا إذن عن الرواية فى مجموعها ، وأحكامنا على الرواية فى جملتها ، أما أجزاؤها ومفرداتها فلا بد لها من أن تخضع لنقد مفصل ذى شقين : خارجى يبحث فى سند الرواية وتوثيق الرواة ، وداخلى يبحث فى الخصائص الفنية للشاعر ومدى تحققها فى قصائده . فالأصمعى وتلميذه أبو حاتم السجستانى البصريان من جانب ، والمفضل وتلميذاه أبو عمرو الشيبانى وابن الأعرابى الكوفيون من جانب آخر — كلهم ثقات أثبات مأمونون ، مختصون فى موضوعهم ، لهم منهجهم فى النقد والتحقيق والتمحيص ، وروايتهم لديوان امرئ القيس — من أجل ذلك — رواية لها قيمتها العلمية التاريخية . ولو اتفقوا جميعاً على رواية واحدة لأخذنا بها وقبلناها ، ولكن روايتهم مختلفة ، تتسع رقعة الخلاف حين يكون الرواة

من مدرستين مختلفتين ، وتضيق حين يكونون من مدرسة واحدة . ومن أجل هذا الخلاف كان لا بد لنا من أن نتوقف ونتريث ، ونصطنع لأنفسنا منهجاً كما اصطنعوا ، ونحتكم إلى قاعدة إن لم تنته بنا إلى يقين نقطع به ، فستنتهي بنا إلى شبه يقين نطمئن إليه .

ونحسب أن خير منهج نملك الآن أسبابه — بعد هذه القرون التي باعدت بيننا وبين عصر الشعر الجاهلي وعصر العلماء الذين دونوه ورووه — هو أن نسلّم بصحة ذلك القدر من الشعر الذي اتفق عليه العلماء الرواة جميعهم واشتركوا في روايته ، وأن نتخذ من هذا القدر المشترك المتفق عليه — أصلاً لديوان الشاعر : ندرسه دراسة دقيقة لنستشف منه روح الشاعر وخصائصه الفنية ، ثم نتخذ من هذا المقياس الفني الذي نستخرجه محكّاً نعرض عليه القصائد المتفرقة التي انفرد كل راوية عالم بروايتها ، فما استقام منها مع مقياسنا رجحنا صحته وضممناه إلى الديوان ، وما لم يستقم رجحنا أنه مما اختلطت نسبته على ذلك الراوية العالم .

فلو طبقنا هذا المنهج على شعر امرئ القيس لوجدنا أن المفضل الكوفي والأصمعي البصري قد اتفقا معاً على رواية عشرين قصيدة ومقطعة لامرئ القيس — وهي موضحة في الثبت الملحق بهذا الفصل ، ثم لوجدنا أيضاً أن هذه القصائد العشرين التي اتفق على روايتها المفضل والأصمعي قد برئت من طعن الرواة الآخرين ، وأن الإجماع بذلك منعقد على صحتها . ومن هنا جاز لنا أن نتخذها أصلاً صحيحاً — أو أقرب ما يكون إلى الصحة — لديوان امرئ القيس ، ثم نعود على هذه القصائد العشرين بالدراسة النقدية لنستخرج منها روح الشاعر وخصائصه الفنية ، ونتخذ من ذلك مقياساً فنيّاً نعرض عليه القصائد السبع التي انفرد بروايتها الأصمعي ، والقصائد العشرين التي انفرد بروايتها المفضل ، والقصائد المتفرقة القليلة التي انفرد بروايتها أبو عبيدة أو أبو عمرو الشيباني أو ابن الأعرابي ، فما وجدناه منها متفقاً مع مقياسنا رجحنا صحته وأدخلناه في الديوان ، وإلا شككنا فيه ودفعناه .

قصائد امرئ القيس ومقطعاته

مرتبة كما جاءت فى رواية الأصمعى
ومقارنتها بما فى الروايات الأخرى

١ - قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ وَحَوْمَلِ

(١) القصيدة رقم ٣ فى نسخة الطوسى من رواية المفضل الضبى .

(٢) وهى القصيدة الأولى فى نسختى السكرى وابن النحاس .

٢ - ألاعِمْ صَبَاحاً أيُّهَا الطَّلَلُ البَالِى وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كانَ فى العُصُرِ الخالى

(١) القصيدة الثانية فى نسخة الطوسى من رواية المفضل الضبى .

(٢) وهى كذلك الثانية فى نسختى السكرى وابن النحاس .

٣ - خَلِيلَىَّ مُرَّا بِى عَلَى أُمِّ جُنْدَبٍ نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤَادِ المُعَذَّبِ

(١) القصيدة الرابعة فى نسخة الطوسى من رواية المفضل .

(٢) القصيدة السادسة فى نسخة السكرى .

(٣) القصيدة السادسة والعشرون فى نسخة ابن النحاس .

٤ - سَمَا لَكَ شَوْقٌ بَعْدَمَا كانَ أقْصَرَا وَحَلَّتْ سُلَيْمَى بَطْنَ قَوٍّ فَعَرْعَرَا

(١) القصيدة الخامسة فى نسخة الطوسى من رواية المفضل، وفى نسخة السكرى .

(٢) والسادسة عشرة فى نسخة ابن النحاس .

٥ - أعِنِّى عَلَى بَرْقٍ أرَاهُ وَمِيضِ يُضِىءُ حَبِيًّا فى شَمَارِيخَ بِيضِ

(١) فى نسخة الأعلم قبل القصيدة « ويقال إنها لأبى دؤاد الإيادى » ،
ونحن نرجح أن هذا ليس من كلام الأصمعى نفسه، وأن الأصمعى لم يكن

يشك فيها ، وإنما نسبها إلى امرئ القيس . وليس فى الروايات والنسخ الأخرى ما يشير إلى شك الأصمعى فيها . فلعل هذا من كلام الأعلم نفسه .

(٢) القصيدة التاسعة فى نسخة الطوسى من رواية المفضل، وفى نسخة السكرى .

(٣) القصيدة التاسعة والثلاثون فى نسخة ابن النحاس .

٦ـ غَشِيتُ دِيَارَ الحَىِّ بِالْبَكَرَاتِ فَعَـارِمَةٍ فَبُرْقَةِ العِـيَرَاتِ

(١) القصيدة الثالثة عشرة فى نسخة الطوسى من رواية المفضل .

(٢) القصيدة الثامنة والثلاثون فى نسخة السكرى ، والحادية والثلاثون فى نسخة ابن النحاس .

٧ـ ألَا إنَّ قَوْماً كُنْتُمُ أمْسِ دُونَهُمْ هُمُ مَنَعُوا جَارَاتِكُمْ آلَ عَنْوَانِ

(١) لم يروها المفضل ولا أبو عمرو الشيبانى ولا ابن الأعرابى ولم ترد أصلاً فى نسخة الطوسى فكأن الكوفيين كانوا يدفعونها .

(٢) القصيدة الثالثة والخمسون فى نسختى السكرى وابن النحاس .

٨ـ لِمَنْ طَلَلٌ أبْصَرْتُهُ فَشَجَانِى كَخَطِّ زَبُورٍ فِى عَسِيبِ يَمَانِ

(١) القصيدة السابعة فى نسخة الطوسى من رواية المفضل .

(٢) والثالثة عشرة فى نسخة السكرى ، والخمسون فى نسخة ابن النحاس .

٩ـ قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَعِرْفَانِ وَرَسْمٍ عَفَتْ آيَاتُهُ مُنْذُ أزْمَانِ

(١) القصيدة الثامنة فى نسخة الطوسى من رواية المفضل .

(٢) والحادية عشرة فى نسخة السكرى ، والثانية والخمسون فى نسخة ابن النحاس .

١٠ـ دَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ فِى حَجَرَاتِهِ وَلٰكِنْ حَدِيثاً مَا حَدِيثُ الرَّوَاحِلِ

(١) القصيدة السادسة والثلاثون فى نسخة الطوسى من رواية المفضل .
(٢) والثانية والثلاثون فى نسخة السكرى ، والرابعة فى نسخة ابن النحاس .

١١ ـ أَرَانَا مُوضِعِينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ وَنُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ

(١) لم يروها المفضل ولا أبو عمرو الشيبانى ولا ابن الأعرابى وأوردها الطوسى فى نسخته (رقم ٤٥) مما اختاره من رواية الأصمعى ، فكأن الكوفيين كانوا يدفعونها .

(٢) القصيدة الثامنة عشرة فى نسخة السكرى .

(٣) والتاسعة والعشرون فى نسخة ابن النحاس ونص على أن الأصمعى أنشدها عن أبى عمرو بن العلاء .

١٢ ـ أَمَاوِىَّ هَلْ لِى عِنْدَكُمْ مِنْ مُعَرَّسِ أَمِ الصَّرْمَ تَخْتَارِينَ بِالْوَصْلِ نَيْأَسِ

(١) لم يروها المفضل ولا أبو عمرو الشيبانى ولا ابن الأعرابى ودفعها الكوفيون ، وقالوا إنها لبشر بن أبى خازم الأسدى ، وقد أوردها الطوسى (رقم ٤٤) مما أختاره من رواية الأصمعى .
(٢) القصيدة السادسة عشرة فى نسخة السكرى ، والسابعة والثلاثون فى نسخة ابن النحاس .

١٣ ـ أَلِمَّا عَلَى الرَّبْعِ الْقَدِيمِ بِعَسْعَسَا كَأَنِّى أُنَادِى أَوْ أُكَلِّمُ أَخْرَسَا

(١) القصيدة رقم ١٤ فى نسخة الطوسى من رواية المفضل ومطلعها عنده :

تَأَوَّبَنِى دَائِى الْقَدِيمُ فَغَلَّسَا أُحَاذِرُ أَنْ يَرْتَدَّ دَائِى فَأُنْكَسَا

وهو البيت الخامس من القصيدة فى رواية الأصمعى .
(٢) جاءت فى نسختى السكرى وابن النحاس على الرواية الكوفية ، رقم ١٩ فى السكرى ، ورقم ٣٦ فى ابن النحاس .

١٤ـلَعَمْرُكَ مَا قَلْبِي إِلَى أَهْلِهِ بِحرّْ   وَلَا مُقْصِرٍ يَوْماً فَيَأْتِينِى بِقرّْ

(١) القصيدة السادسة عشرة فى نسخة الطوسى من رواية المفضل .

(٢) والثامنة فى نسخة السكرى ، والثامنة عشرة فى نسخة ابن النحاس .

١٥ـلِمَنِ الدِّيَارُ غَشِيتُهَا بِسُحَامِ   فَعَمَايَتَيْنِ فَهُضْبِ ذِى إِقْدَامِ

(١) القصيدة الحادية عشرة فى نسخة الطوسى من رواية المفضل .

(٢) والعاشرة فى نسخة السكرى ، والخامسة والأربعون فى نسخة ابن النحاس .

١٦ـيَا دَارَ مَاوِيَّةَ بِالْحَائِلِ   فَالسُّهْبِ فَالْخَبْتَيْنِ مِنْ عَاقِلِ

(١) القصيدة الثامنة عشرة فى نسخة الطوسى من رواية المفضل ولم يرو الطوسى منها غير بيتين مطلعهما :

وَهُنَّ أَرْسَالٌ كَمِثْلِ الدَّبَا   أَو كَقَطَا كَاظِمَةَ النَّاهِلِ

وقال جامع نسخة الطوسى إن أبا نصر أحمد بن حاتم قال : روى الأصمعى أول هذه الأبيات :

يَا دَار سَلْمَى دارِساً رَسْمُهَا   بِالرَّمْلِ فَالْخَبْتَيْنِ مِنْ عَاقِلِ

وهو البيت السابع فى رواية الأصمعى . ومن أجل هذا ذكرها جامع نسخة الطوسى فيما سماه « المنحول الثانى من شعر امرئ القيس » ورقمها فيه ٥٢ ، فكأن الكوفيين كانوا يدفعونها .

(٢) القصيدة الخامسة عشرة فى نسخة السكرى ، والثانية عشرة فى نسخة ابن النحاس .

١٧ـرُبَّ رَامٍ مِنْ بَنِى ثُعَـلٍ   مُتْلِجٍ كَفَّيْــهِ فِى قُتَرِهْ

(١) القصيدة السابعة عشرة فى نسخة الطوسى من رواية المفضل .
(٢) والسابعة فى نسخة السكرى ، والسابعة عشرة فى نسخة ابن النحاس .

١٨– يَا هِنْدُ لَا تَنْكِحِي بُـوهَةً عَلَيْـهِ عَقِيقَتُـهُ أَحْسَبَا

(١) لم يروها المفضل ولا أبو عمرو الشيبانى ولا ابن الأعرابى ولم ترد أصلاً فى نسخة الطوسى ، فكأن الكوفيين كانوا يدفعونها . وذكر الآمدى أنها لامرئ القيس بن مالك الحميرى .
(٢) القصيدة السابعة عشرة فى نسخة السكرى .
(٣) والثامنة والعشرون فى نسخة ابن النحاس وذكر فيها « وزعموا أنها منحولة ، ورواها أبو عبيدة » .

١٩ – أَلَا قَبَحَ اللهُ البَرَاجِمَ كُلَّهَا وَجَدَّعَ يَرْبُوعاً وَعَفَّرَ دَارِما

(١) القصيدة الأربعون فى نسخة الطوسى من رواية المفضل ، ونص على أن ابن الأعرابى لم يعرفها .
(٢) التاسعة والثلاثون فى نسخة السكرى ، والثامنة والأربعون فى نسخة ابن النحاس .

٢٠ – إِنَّ بَنِي عَوْفٍ ابْتَنَوْا حَسَبًا ضَيَّعَهُ الدُّخْلُلُوْنَ إِذْ غَدَرُوا

(١) لم يروها المفضل ولا أبو عمرو الشيبانى ولا ابن الأعرابى ، وذكرها الطوسى فى نسخته رقم (٤٣) فيما اختاره من رواية أبى عبيدة والأصمعى . فكأن الكوفيين كانوا يدفعونها .
(٢) القصيدة الرابعة عشرة فى نسخة السكرى ، والتاسعة عشرة فى نسخة ابن النحاس .

٢١ – واللهِ لا يَذْهَبُ شَيْخِي بَاطِلَا (رجز)

(١) القصيدة التاسعة والعشرون فى نسخة الطوسى من رواية المفضل، ومطلعها عنده : « يا لهف هند إذ خطئن كاهلا » وهو البيت الخامس فى رواية الأصمعى .

(٢) القصيدة الخامسة والعشرون فى نسخة السكرى ، والحادية عشرة فى نسخة ابن النحاس ، وهما يوردان مطلعها كما فى الرواية الكوفية .

٢٢ـ أَلَا يَا لَهْفَ هِنْدٍ إِثْرَ قَوْمٍ هُمُ كَانُوا الشِّفَاءَ فَلَمْ يُصَابُوا

(١) القصيدة التاسعة عشرة فى نسخة الطوسى من رواية المفضل .

(٢) والسادسة والعشرون فى نسخة السكرى ، والسابعة والعشرون فى نسخة ابن النحاس، وقال « رواها الأصمعى وأبو عبيدة » .

٢٣ـ كَأَنِّى إِذْ نَزَلْتُ عَلَى المُعَلَّى نَزَلْتُ عَلَى البَوَاذِخِ مِنْ شَمَامِ

(١) القصيدة الثانية والثلاثون فى نسخة الطوسى من رواية المفضل .

(٢) والتاسعة والعشرون فى نسخة السكرى .

(٣) لم يوردها ابن النحاس فى نسخته .

٢٤ـ لَنِعْمَ الفَتَى تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ طَرِيفُ بنُ مالٍ لَيْلَةَ الجُوعِ وَالخَصَرْ

(١) القصيدة الخامسة والثلاثون فى نسخة الطوسى من رواية المفضل .

(٢) القصيدة الثلاثون فى نسخة السكرى ، والعشرون فى نسخة ابن النحاس .

٢٥ـ أَبَعْدَ الحَارِثِ المَلِكِ بنِ عَمْرٍو لَهُ مُلْكُ العِرَاقِ إِلَى عُمَانِ

(١) القصيدة الرابعة والثلاثون فى نسخة الطوسى من رواية المفضل .

(٢) والسادسة والثلاثون فى نسخة السكرى، والرابعة والخمسون فى نسخة ابن النحاس .

٢٦ - دِيمَة هَطْلَاءُ فِيهَا وطَفٌ طَبَقُ الأَرْضِ تَحَرَّى وَتَدُرّ

(١) رواها الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء عن ذي الرمة .
(٢) القصيدة الثالثة والثلاثون في نسخة الطوسي من رواية المفضل .
(٣) والرابعة في نسخة السكري ، والخامسة عشرة في نسخة ابن النحاس .

٢٧ - أَحَارِ تَرَى بُرَيْقاً هَبَّ وَهْنَا . . . .

(١) أنصاف أبيات لامرئ القيس أكمل أعجازها التوءم اليشكري في منازعتهما الشعر ؛ وقد رواها الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء .
(٢) لم يروها المفضل ، ولا أبو عمرو الشيباني ، ولا ابن الأعرابي ، ولم ترد أصلا في نسخة الطوسي ، فكأن الكوفيين كانوا يدفعونها .
(٣) القصيدة الثانية عشرة في نسخة السكري ، والثالثة والعشرون في نسخة ابن النحاس .

قصائد امرئ القيس ومقطعاته
من رواية المفضل

مرت بنا — في رواية الأصمعي — جملة قصائد مما رواه المفضل لامرئ القيس ، فهي بذلك مما اتفق الشيخان : الأصمعي البصري ، والمفضل الكوفي ، على روايتها وصحة نسبتها . وهي : القصائد الست الأولى ، ثم الثامنة ، والتاسعة ، والعاشرة ، ثم الثالثة عشرة ، والرابعة عشرة ، والخامسة عشرة ، ثم السابعة عشرة ، ثم التاسعة عشرة ، ثم من القصيدة الحادية والعشرين إلى القصيدة السادسة والعشرين . وبذلك يكون ما اتفق الشيخان على روايته عشرين قصيدة ومقطعة لامرئ القيس . ونذكر الآن سائر رواية المفضل من القصائد التي لم يوردها الأصمعي في روايته ، وهي :

١ - أَحَارِ بن عَمْرو كَأَنِّي خَمِرْ وَيَعْدُو عَلَى المَرْءِ مَا يَأْتَمِرْ

(١) رواها المفضل وأبو عمرو الشيباني ، أما الأصمعي فقد أنكر نسبتها لامرئ القيس ، وقال : أنشدنيها أبو عمرو بن العلاء لرجل من النمر بن قاسط يقال له ربيعة بن جشم . وأولها عن الأصمعي :

لَا وَأَبِيكِ ابْنَةَ العامِرِ ... ىِّ لَا يَدَّعِي القَوْمُ أَنِّي أَفِرّْ

(٢) اختارها الأعلم فيما اختاره من رواية المفضل وأبي عمرو ، وهي القصيدة التاسعة والعشرون في نسخته. وأوردها الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب في نسخته لديوان امرئ القيس وهي أول ما أورده له .

(٣) القصيدة الثالثة في نسخة السكري ، ومطلعها عنده من رواية الأصمعي ، والقصيدة الرابعة عشرة في نسخة ابن النحاس .

٢ – أَلَا انْعَمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الرَّبْعُ وَانْطِقِ
وَحَدِّثْ حَدِيثَ الرَّكْبِ إِنْ شِئْتَ فَاصْدُقِ

(١) اختارها الأعلم فيما اختار من رواية المفضل وأبي عمرو ، وهي القصيدة الثلاثون في نسخته .

(٢) القصيدة الثانية والأربعون في نسخة السكري ، والثالثة والأربعون في نسخة ابن النحاس .

٣ – أَمِنْ ذِكْرِ سَلْمَى أَنْ نَأَتْكَ تَنُوصُ
فَتَقْصُرُ عَنْهَا خُطْوَةً أَوْ تَبُوصُ

(١) اختارها الأعلم فيما اختار من رواية المفضل وأبي عمرو ، ورقمها في نسخته الحادية والثلاثون .

(٢) القصيدة الثامنة والأربعون في نسخة السكري ، والأربعون في نسخة ابن النحاس .

٤ ـ تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالإِثْمِدِ وَنَامَ الخَلِيُّ وَلَمْ تَرْقُدِ

(١) اختارها الأعلم فيما اختار من رواية المفضل وأبي عمرو، وهي القصيدة الثانية والثلاثون في نسخته.

(٢) القصيدة التاسعة والأربعون في نسخة السكري، والثالثة والثلاثون في نسخة ابن النحاس.

٥ ـ عَيْنَاكَ دَمْعُهُمَا سِجَالُ كَأَنَّ شَأْنَيْهِمَا أَوْشَالُ

(١) القصيدة الواحدة والأربعون في نسخة السكري، والسابعة في نسخة ابن النحاس وقد نص على أن الأصمعي لم يعرفها.

٦ ـ لَا تُسْلِمَنِّي يَا رَبِيعُ لِهَذِهِ وَكُنْتُ أَرَانِي قَبْلَهَا بِكَ وَاثِقًا

(١) القصيدة السابعة والأربعون في نسخة السكري، والرابعة والأربعون في نسخة ابن النحاس.

٧ ـ يَا ثُعَلاً وَأَيْنَ مِنِّي بَنُو ثُعَلْ أَلَا حَبَّذَا قَوْمٌ يَحِلُّونَ بِالْجَبَلْ

(١) القصيدة الرابعة والثلاثون في نسخة السكري، والسادسة في نسخة ابن النحاس.

٨ ـ أَحْلَلْتُ رَحْلِي فِي بَنِي ثُعَلٍ إِنَّ الكِرَامَ لِلْكَرِيمِ مَحَلُّ

(١) القصيدة الثالثة والثلاثون في نسخة السكري، والخامسة في ابن النحاس.

٩ ـ أَلَا يَا عَيْنُ بَكِّي لِي شَنِينَا وَبَكِّي لِي المُلُوكَ الذَّاهِبِينَا

(١) القصيدة الواحدة والخمسون في نسخة السكري، والخامسة والخمسون في ابن النحاس.

١٠ - عَفَا شَطِبٌ مِنْ أَهْلِهِ وَغُرُورُ ... فَمَرْبُولَةٌ إِنَّ الدِّيَارَ تَدُورُ

(١) القصيدة الخامسة والخمسون فى نسخة السكرى ، ولم يوردها ابن النحاس فى نسخته .

١١ - إِذَا مَا لَمْ تَكُنْ إِبِلٌ فَمِعْزَى ... كَأَنَّ قُرُونَ جِلَّتِهَا العِصِىُّ

(١) أوردها الطوسى (رقم ٢٢) فى نسخته فيما أورده من رواية الأصمعى، غير أنه قال : « كان الأصمعى يقول : امرؤ القيس ملك ولا أراه يقول هذا » فكأن الأصمعى أنكرها. وأوردها كذلك الوزير أبو بكر فى نسخته ص ١٦٥ ولكنه قال : « قال الأصمعى : امرؤ القيس لا يقول مثل هذا وأحسبه للحطيئة » . ومن أجل هذا أسقطناها من رواية الأصمعى .

(٢) القصيدة الخامسة والثلاثون فى نسخة السكرى ، والسادسة والخمسون فى نسخة ابن النحاس .

١٢ - أَبَعْدَ زُبْدَانَ أَمْسَى قَرْقَرًا جَلَدًا ... وَكَانَ مِنْ جَنْدَلٍ أَصَمَّ مَنْضُودَا

(١) القصيدة الستون فى نسخة السكرى ، ولم يوردها ابن النحاس فى نسخته .

١٣ - تَنَكَّرَتْ لَيْلَى عَنِ الوَصْلِ ... وَنَأَتْ وَرَثَّ مَعَاقِدُ الحَبْلِ

(١) القصيدة الخامسة والأربعون فى نسخة السكرى .

(٢) والتاسعة فى نسخة ابن النحاس ، وذكر فيها « قال ابن دريد: دفعها الأصمعى ، ورواها قوم لابن أحمر ، وهى فى أصل اليزيدى » .

١٤ - أَرَى نَاقَةَ القَيْسِ قَدْ أَصْبَحَتْ ... عَلَى الأَيْنِ ذَاتَ هِبَابٍ نَـوَارَا

(١) القصيدة الرابعة والأربعون فى نسخة السكرى ، والخامسة والعشرون فى نسخة ابن النحاس .

١٥ ـ ولَقَدْ بَعَثْتُ العَنْسَ ثُمَّ زَجَرْتُهَا وَهْناً وَقُلْتُ عَلَيْكِ خَيْرَ مَعَدّ

(١) القصيدة الثانية والثلاثون فى نسخة ابن النحاس، ولم يوردها السكرى.

١٦ ـ أَنى عَلَى ٱسْتَتَبٌ لَوْمُكُمَا وَلَمْ تَلُومَا حُجْرًا وَلَا عُصُمَا

(١) القصيدة السابعة والثلاثون فى نسخة السكرى ، والسادسة والأربعون فى نسخة ابن النحاس .

١٧ ـ لَعَمْرِى لَقَدْ بَانَتْ بِحَاجَةِ ذِى هَوًى

سُعَادُ وَرَاعَتْ بِالْفِرَاقِ مُرَوَّعَا

(١) القصيدة الخمسون فى نسخة السكرى ، والحادية والأربعون فى نسخة ابن النحاس .

١٨ ـ أَبْلِغْ شِهَاباً وَأَبْلِغْ عَاصِماً وَمَالِكاً هَلْ أَتَاكَ الخَبْرُ مَالِ

(١) القصيدة الثالثة والأربعون فى نسخة السكرى ، والثامنة فى نسخة ابن النحاس ، ووزن هذه الأبيات مختلط ، ويختلف فى النسخ المختلفة .

١٩ ـ أَلاَ أَبْلِغْ بَنِى حُجْرِ بنِ عَمْرٍو وَأَبْلِغْ ذلكَ الحَىَّ الحَرِيدَا

(١) القصيدة السادسة والخمسون فى نسخة السكرى، والرابعة والثلاثون فى نسخة ابن النحاس .

٢٠ ـ قَدْ أَتَانِى عَنْ مَرِىءٍ مَأْلكٌ لابنـة الحصاء أن هبها فجد

(١) آخر رواية المفضل . وقد قال الطوسى عن هذه القصيدة « لم يروها ابن الأعرابى » فكأنها من القصائد التى أسقطها ابن الأعرابى حينما كان يصحح رواية شيخه المفضل .

(٢) لم ترد فى نسخة السكرى ، ولا فى نسخة ابن النحاس .

• • •

وبذلك تكون قصائد امرئ القيس ومقطعاته فى رواية المفضل بن محمد الضبى — الكوفى — أربعين قصيدة ومقطعة ، اتفق هو والأصمعى على رواية عشرين منها ، وانفرد برواية العشرين الأخرى .

٣

وقد كفانا مؤونة تفصيل الحديث عن سائر دواوين الجاهلية ما قدمناه من حديث عن ديوان امرئ القيس ، حيث فصلنا القول تفصيلاً يكشف عن المنهج الذى نرى أن ينهج فى تتبع روايات هذه الدواوين الجاهلية ، وإرجاعها إلى أصولها ، وتفسير ما فى رواياتها من اختلاف .

أما ديوان زهير بن أبى سلمى فلا تذكر لنا المصادر العربية — من العلماء الذين جمعوا هذا الديوان — غير ستة ، هم :

١ — يعقوب بن إسحق السكّيت [١] .

٢ — أبو الحسن على بن عبد الله بن سنان الطوسى [٢] .

٣ — محمد بن هبيرة الأسدى المعروف بصعوداء [٣] .

٤ — أبو سعيد الحسن بن الحسين السكرى [٤] .

٥ — أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى [٥] .

٦ — يوسف بن سليمان ، الأعلم الشنتمرى [٦] .

والعجيب أنه ليس من بين هذه الأسماء عالم واحد من رواة الطبقة الأولى

---

(١) ابن النديم : ٢٢٤ .

(٢) المصدر السابق : ٢٢٤ .

(٣) البغدادى ، الخزانة ٣ : ٢ .

(٤) ابن النديم : ١١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ؛ — ونزهة الألباء : ١٤٥ ، وإنباه الرواة ١ : ٢٩٣ .

(٥) ابن النديم : ١١٢ ، وياقوت ، إرشاد ١٩ : ٣١٣ .

(٦) الخزانة ٣ : ٢ .

ممن يعدُّون أصولاً ، وإنما هم جميعاً إما من تلاميذ هذه الطبقة : مثل ابن السكيت — وهو كوفى المذهب أخذ عن أبى عمرو الشيبانى والفراء وابن الأعرابى ، وإما من الجُمَّاع الذين جمعوا بين الروايات المختلفة ، فرجحوا كفة الكوفيين حيناً مثل : صعوداء والطوسى وابن الأنبارى ، أو رجحوا كفة البصريين حيناً آخر مثل : السكرى والأعلم .

فأين إذن روايات ديوان زهير التى تعد أصولاً ؟ لقد أغفلت ذكرها المصادر العربية ، ولكنها بقيت ، مع ذلك ، فيما وصل إلينا من نسخ هذا الديوان ، أو فيما تضمنته هذه النسخ من إشارات للرواة والروايات . وهذه الأصول لديوان زهير — كما كانت أصول ديوان امرئ القيس — قسمان : أصول بصرية ، وأصول كوفية .

الأصول البصرية :

وهى أصلان : رواية أبى عبيدة معمر بن المثنى التيمى ، ورواية أبى سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى .

٧ — رواية أبى عبيدة :

أما رواية أبى عبيدة فلم تُحفظ لنا كاملة ، ولم يبق لنا منها إلا قصائد متفرقة ذُكر فى مقدمتها أنها من رواية أبى عبيدة ، أو ألفاظ فى أبيات من قصائد أشير فيها إلى رواية أبى عبيدة كما أشير فيها إلى رواية غيره من العلماء . فقد ذكر الأعلم عند حديثه عن قصيدة زهير :

أَبْلِغْ بَنِى نَوْفَلٍ عَنِّى فَقَدْ بَلَغُوا   مِنِّى الحَفِيظَةَ لَمَّا جَاءَنِى الخَبَرُ

أن أبا حاتم قال « لم يعرفها الأصمعى ، وعرفها أبو عبيدة » . وكذلك ذكر عند حديثه عن قصيدته :

أَبْلِغْ لَدَيْكَ بَنِى الصَّيْدَاء كُلَّهُمُ   أَنَّ يَسَارًا أَتَانَا غَيْرَ مَغْلُولِ

أن أبا حاتم قال : « لم يعرفها الأصمعي ، وعرفها أبو عبيدة » . وذكر ثعلب عند حديثه عن قصيدته :

قَطَّتْ أُمَيْمَةُ بَعْدَمَا صَقَبَتْ   وَنَأَتْ وَمَا فَنِيَ الجِنَابُ فَيَذْهَبُ

أنه « لم يروها أبو عمرو لزهير ولا لكعب ، ورواها أبو عبيدة لزهير » [١] . وذكر عند حديثه عن قصيدته :

فَعَدِّ عَمَّا تَرَى إِذْ فَاتَ مَطْلَبُهُ   أَضْحَى بِذَاكَ غُرَابُ البَيْنِ قَدْ نَعَقَا

أن هذه الأبيات لم يعلها أبو عمرو ولا أبو نصر ، ولم يعرفها الأصمعي ، ولكن « رواها أبو عبيدة وهي صحيحة عنده » [٢] . وأنكر أبو عبيدة قصيدة زهير :

إِنَّ الرَّزِيَّةَ لاَ رَزِيَّةَ مِثْلُهَا   مَا تَبْتَغِي غَطَفَانُ يَوْمَ أَضَلَّتِ

وقال إنها لقُرَاد بن حنش من شعراء غطفان ، وأن زهيراً ادعى هذه الأبيات [٣] .

أما روايات أبي عبيدة لبعض الألفاظ في أبيات من قصائد زهير فكثيرة جداً وقد أشار إليها الأعلم وثعلب في مواطن كثيرة من شرحيهما .

٨ — رواية الأصمعي :

أما رواية الأصمعي فقد حُفظت لنا كاملة ، حفظها الأعلم الشنتمري في مجموعته « دواوين الشعراء الستة » [٤] . وقد مر بنا أن الأعلم ذكر في مقدمة

---

(١) شرح ديوان زهير (ط . دار الكتب) ص : ٣٦٨ .

(٢) معهد إحياء المخطوطات العربية ، فيلم ٨٢٢ ، ورقة : ١٣٣ . انظر ديوان زهير (دار الكتب) : ٤١ .

(٣) ابن سلام ، طبقات الشعراء : ٥٦٨ .

(٤) طبع ديوان زهير — من نسخة الأعلم — ثلاث طبعات ، الأولى : ضمن كتاب العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهلية ، تحقيق أهلوارد ط . لندن سنة ١٨٧٠ ، وهو شعر مجرد من غير شرح . والثانية : أصدرها لاندبرج G. Landberg وهي « الطرفة التالية » من سلسلة =

مجموعته أنه اعتمد — فى نسخته لدواوين هؤلاء الشعراء — على أصح رواياتها ، وهى رواية الأصمعى ، قال : « واعتمدت فيا جلبته من هذه الأشعار على أصح رواياتها ، وأوضح طرقاتها ، وهى رواية عبد الملك بن قريب الأصمعى ، لتواطؤ الناس عليها ، واعتيادهم لها ، واتفاق الجمهور على تفضيلها ؛ وأتبعت ما صح من رواياته قصائد متخيرة من رواية غيره . . » ومن عادة الأعلم فى مجموعته هذه أنه يستوفى رواية الأصمعى كاملة فى كل ديوان من هذه الدواوين ، ثم يتبعها بقصائد مختارة للشاعر يختارها من غير رواية الأصمعى ، ثم ينص على هذه المختارات من رواية الكوفيين وخاصة المفضل وأبا عمرو الشيبانى .

وعلى هذا الأساس الواضح أورد الأعلم ثمانى عشرة قصيدة ومقطعة لزهير ثم ذكر فى ختامها ما يلى[1] : « كمل جميع ما رواه الأصمعى من شعر زهير ، ونتصل به بعض ما رواه غيره إن شاء الله » . ثم يورد قصيدتين ذكر أنهما مما رواه أبو عمرو والمفضل ، ويختم نسخته بقوله[2] : « كمل جميع شعر زهير مما رواه الأصمعى وأبو عمرو والمفضل . . » . وسنورد مطالع هذه القصائد فى ثبت نلحقه بهذا الحديث .

غير أن الأعلم قد أورد — فيا أورده من رواية الأصمعى لشعر زهير — ثلاث قصائد ليست من رواية الأصمعى ، وقد نص فى الأوليين منها — وقد مر ذكرهما قبل قليل — على أن أبا حاتم السجستانى قال : « لم يعرفها الأصمعى وعرفها أبو عبيدة » . وذكر فى حديثه عن القصيدة الثالثة ، وهى :

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِى هَلْ يَرَى النَّاسُ مَا أَرَى
مِنَ الأَمْرِ أَوْ يَبْدُو لَهُمْ مَا بَدَا لِيَا

= طرف عربية » ، ط . ليدن سنة ١٨٨٩ وفيها شرح الأعلم ، والثالثة : طبعت بالمطبعة الحميدية بمصر سنة ١٣٢٣ هـ : وفيها شرح الأعلم كذلك . أما نسخة الأعلم من مجموعة الدواوين الستة الكاملة ، فقد ذكرنا عند حديثنا عنها قبل صفحات أن منها مخطوطتين فى دار الكتب المصرية برقم ٤٥٠ تيمور عـ١ ٨١ ش — وذلك غير النسخ التى ذكرها أهلوارد فى طبعته وأشرنا إليها فى حديثنا عن ديوان امرئ القيس .

(١) شرح ديوان زهير للأعلم . المطبعة الحميدية سنة ١٣٢٣ هـ ، ص : ٩٠ .
(٢) المصدر السابق : ٩٨ .

أن الأصمعي قال[1]: «ليست لزهير ، ويقال : هي لصرمة الأنصاري ولا تشبه كلام زهير . » فإذا كانت هذه القصيدة الثالثة من رواية أبي عبيدة أيضاً ، جاز لنا أن نفرض أن الأعلم قد أورد في القسم الأول من نسخته ما صح من رواية شيخي البصرة : الأصمعي وأبي عبيدة ، وإن كان قد جعل جُلّ اعتماده على رواية الأصمعي . وسنعود إلى الحديث عن رواية الأصمعي بعد أن نستوفي حديثنا عن الأصول الكوفية .

الأصول الكوفية :

٩ — ١١ — أما علماء الكوفة من الطبقة الأولى من الرواة الذين رووا ديوان زهير فهم : حماد الراوية ، والمفضل بن محمد الضبي ، وأبو عمرو الشيباني . غير أن روايات هؤلاء العلماء لم تصلنا منفردة ، مستقلة ، بل جاءتنا مختلطة متداخلة في مجموعة نُسبت مع شرح أبياتها إلى ثعلب ، وقد طبعت هذه المجموعة من الروايات بدار الكتب المصرية ، وفي مقدمتها حديث مفصل عن ترجيح نسبتها إلى أبي العباس ثعلب . وقد اعتمدت هذه الطبعة على عدة نسخ خطية ذكرت أوصافها وأرقامها في مقدمتها . ودراسة هذه الطبعة تدلنا على أن ثعلباً قد جمع في مجموعته بين الروايات الكوفية والروايات البصرية ، فكثيراً ما يورد في شرحه شروحاً للأصمعي وأبي عبيدة ، وكثيراً ما يورد روايتهما المختلفة في الألفاظ والأبيات ، وحسبنا أمثلة قليلة على ذلك : فقد أورد سبعة وثلاثين بيتاً من قصيدة زهير :

صَحَا القَلْبُ عَنْ سَلْمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهْ   وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ الصِّبَـا وَرَوَاحِلُهْ

ثم قال[2]: «وهذه آخر رواية أبي عمرو ، وروى أبو عبيدة والأصمعي . . »

(١) شرح ديوان زهير للأعلم : ٨٦

(٢) ص: ١٤٢ .

ثم يورد سبعة أبيات من روايتهما . أما فى قصيدته :

إنَّ الخَلِيطَ أَجَدَّ البَيْنَ فَانْفَرَقَا وَعُلِّقَ القَلْبُ مِنْ أَسْمَاءَ مَا عَلِقَا

فهو يثبت فى أصل أحد أبياتها وهو قوله :

وَقَابِلٌ يَتَغَنَّى كُلَّمَا قَدَرَتْ عَلَى العَرَاقِى يَدَاهُ قَائماً دَفَقَا

رواية أبو عبيدة ، وينص على ذلك بقوله[1] : « روى أبو عبيدة قائماً بالنصب ، وروى غيره بالرفع » .

ثم يذكر بيت زهير[2] :

وذاك أَحْزَمُهُم رأياً إذا نبأٌ من الحوادث آبَ النَّاس أو طَرَقا

وهو من غير رواية أبى عمرو ، ثم ينص على أن البيت فى رواية أبى عمرو هو :

وَمَن يَفوقهمُ أمرًا إذا فَرِقُوا من الحوادثِ أمرًا آبَ أو طَرَقا

ثم يورد ستة أبيات ينص على أنها من رواية أبى عمرو[3] ، وأربعة أبيات أخرى ينص على أنها مما روى أبو عمرو والأصمعى[4] ، ويورد فى آخرها بيتين يذكر أنهما « من غير هذه الرواية » و « أن الأصمعى لم يروها » [5] . وكذلك ذكر ستة عشر بيتاً من قصيدة زهير :

لِمَنِ الدِّيارُ بِقُنَّةِ الحِجْرِ أَقْوَيْنَ مِنْ حِجَجٍ وَمِنْ دَهْرِ

ثم يقول [6] : « هذا آخر رواية أبى عمرو » ، ويكمل القصيدة فى اثنين وعشرين

---

(١) ص : ٤٠ .
(٢) ص : ٤٨ .
(٣) ص : ٤٩ — ٥٢ .
(٤) ص : ٥٣ — ٥٤ .
(٥) ص : ٥٥ .
(٦) ص : ٩٤ .

بيتاً من غير رواية أبي عمرو . وكثيراً ما يثبت في أصل البيت لفظة أو ألفاظاً من غير رواية أبي عمرو ، وينص على ذلك، ثم يذكر روايته في تلك الألفاظ [١]. وأكثر من ذلك أنه يورد قصيدة «لم يروها أبو عمرو لزهير ولا لكعب ، ورواها أبو عبيدة لزهير» [٢] .

فيتضح لنا من كل ذلك أن هذه النسخة قد جمعت من قصائد زهير ما رواه البصريون وما رواه الكوفيون . غير أن هذا الجمع بين روايات المدرستين لا ينفي نسبة هذه النسخة إلى أبي العباس ثعلب . وذلك أن ثعلباً — مع أنه كان كوفي المذهب بل إمام أهل الكوفة في زمنه — قد روى كتب علماء البصرة أيضاً ، فروى «عن ابن نجدة كتب أبي زيد ، وعن الأثرم كتب أبي عبيدة ، وعن أبي نصر كتب الأصمعي . . »[٣] وقد ذكر أبا نصر والأثرم في مواطن كثيرة من نسخته هذه [٤].

وقد تضمنت هذه النسخة ثلاثاً وخمسين قصيدة ومقطعة لزهير ، روى خمساً منها عن حماد الراوية[٥] ؛ ونص على واحدة منها بقوله: «وهي متّهمة عند المفضل ، ومع ذلك رواها أبو عمرو[٦] . وذكر في أربع أخر منها أنها يُشك في نسبتها إلى زهير ، وأنها قد تروى لغيره[٧] .

ويبدو أن هذه النسخة — بالرغم من جمعها بين روايات مختلفة — قد اتخذت من رواية أبي عمرو الشيباني أصلاً ، ثم أضاف جامع هذه النسخة عليها

---

(١) انظر مثلا ص : ٧٠ — ٧١ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ١٢٥ ، ١٢٩ .

(٢) ص : ٣٦٩ .

(٣) ياقوت ، إرشاد ٥ : ١١٩ .

(٤) انظر مثلا ص : ٨١ ، ١٢٣ ، ١٧٢ ، ٢٢٥ ، ٣٠٩ ، ٣٣٩ ، ٣٥٠ .

(٥) ص : ٢٦٠ ، ٢٦٨ ، ٢٨٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٧ .

(٦) ص : ٢٦٥ .

(٧) ص : ٢٥٣ ، ٢٨٣ ، ٣٥٨ ، ٣٦٩ .

ما وجده عند غيره من تعليقات أو اختلاف في روايات الألفاظ . وقد جعلنا نذهب إلى هذا الافتراض أننا عثرنا على نسخة مصورة على ميكروفيلم في معهد إحياء المخطوطات العربية — وأصلها محفوظ في مكتبة نور عثمانية بتركيا [١] — وقد نص في آخر هذه النسخة على ما يلي :

« فهذا جميع ما رواه أبو عمرو ، وأبو نصر ، والأصمعي ، لزهير من الشعر . . . وكتب محمد بن منصور بن مسلم رحمه الله بمنبج سنة خمسة (كذا) وسبعين وخمسمائة ، والأصل الذي نقله منه كتب من أصل ابن كيسان النحوي رحمه الله في سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة ، وكان قد قرأ جميعه على أحمد بن يحيى ثعلب ، وكان قد قرئ على أبي عمرو الشيباني . . . » وفي هذه النسخة سبع وخمسون قصيدة ، خمس منها غير موجودة في النسخة المطبوعة ، وتمتاز هذه النسخة — على النسخة المطبوعة — بكثرة ما فيها من إشارات إلى الشك في صحة نسبة بعض القصائد إلى زهير . فقد ذكر قصيدته :

أثَوَيْتَ أمْ أجْمَعْتَ أنَّكَ غَادِ   وَعَدَاكَ عَنْ لُطْفِ السُّؤَالِ عوَادِ

وقال : « أبو عمرو لم يرو هذه القصيدة وقال إنها لكعب ابنه » . مع أن هذه التعليقة غير مذكورة في المطبوعة . وذكر كذلك قصيدته :

ألاَ أبْلِغْ لَدَيْكَ بَنِي سُبَيْعٍ   وأيَّامُ النَّوائبِ قَدْ تَدُورُ

وقال : إن أبا عمرو قال : « هذه لرجل من بني عبد الله بن غطفان » . وليست هذه التعليقة في المطبوعة .

وذكر قصيدته :

وَخَالِي الجَبَا أوْرَدْتُهُ القَوْمَ فاستَقَوْا   بِسُفْرَتِهِمْ من آجِنِ الماءِ أصْفَرَا [٢]

---

(١) فيلم رقم : ٨٢٢ .

(٢) مطلعها في ديوان كعب المطبوع ص : ١٢٢ :

أبَتْ ذِكْرَةٌ مِنْ حُبِّ لَيْلَى تَعُودُنِي   عِيادَ أخِي الحُمَّى إذا قلتُ أقْصَرَا

وقال: « قال أبو عمرو الشيبانى : هذه لكعب ابنه » . وليست فى المطبوعة أيضاً .

وذكر مقطعته :

أَرَادَتْ جَوازًا بالرُّسَيْسِ فَصَدَّها ‌ ‌ ‌ ‌ رِجَالٌ قُعُودٌ فى الدُّجَى بِالْمَعَابِلِ

وقال : « ويروى أنها لكعب بن زهير ، وهى فى شعره طويلة » . وليست هذه التعليقة فى المطبوعة .

وذكر قصيدته :

هل تُبْلِغَنِّى إلى الأَخْبارِ نَاجِيَةٌ ‌ ‌ ‌ ‌ تَخْدِى كَوَخْدِ ظَلِيمٍ خاضِبٍ زَعِرِ

وقال: « ويقال هى منحولة » .

وذكر قصيدته :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ ‌ ‌ ‌ ‌ قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمِ قَعَدُوا[1]

وقال: « ولم يملها أبو نصر ، ويقال هى لأبى الجويرية العبدى، وهى فى شعره طويلة » .

وذكر قوله :

هاجَ الفُؤَادَ مَعارِفُ الرَّسْمِ ‌ ‌ ‌ ‌ قَفْرٌ بِذِى الهَضَباتِ كَالْوَشْمِ

وقال: « ولم يملها أبو نصر . قال أبو عمرو الشيبانى : هى لأوس بن أبى سلمى » .

وجميع هذه التعليقات ، زيادة فى هذه النسخة ، غير مذكورة فى النسخة المطبوعة . أما التعليقات المذكورة فى المطبوعة فموجودة أيضاً فى هذه النسخة . فإذا أضفنا هذه القصائد التى نص على الشك فى صحة نسبتها لزهير — وهى سبع — إلى القصائد الخمس التى نص فى المطبوعة على هذا الشك فيها ، كان مجموع هذه

---

(١) مطلعها فى المطبوعة :

هَلْ فِى تَذَكُّرِ أَيَّامِ الصِّبَا فَنَدُ ‌ ‌ ‌ ‌ أَمْ هَلْ لِمَا فَاتَ مِنْ أَيَّامِه رِدَدُ

القصائد المشكوك فيها اثنتى عشرة قصيدة من ثلاث وخمسين . وبذلك تكون رواية الكوفيين — فى مجموعها — لقصائد زهير إحدى وأربعين قصيدة ومقطعة ، وهى تتضمن القصائد التى أوردها الأعلم من رواية الأصمعى وأبى عبيدة، والقصيدتين اللتين اختارهما من رواية أبى عمرو والمفضل .

• • •

فإذا عدنا إلى الحديث عن رواية الأصمعى ، وجدنا أنها خمس عشرة قصيدة ومقطعة فقط ، وذلك أن الأعلم قد أورد — كما مر بنا ، وكما سيمر بعد قليل — ثمانى عشرة قصيدة ذكر فى ختامها أنها رواية الأصمعى ، ولكن الأعلم ذكر — فى معرض حديثه عن ثلاث من هذه القصائد — أن الأصمعى لم يعرفها وأنه أسقطها من روايته . وبذلك يكون ما صححه الأصمعى ، فى روايته ، من شعر زهير خمس عشرة قصيدة ومقطعة . وقد وجدنا أن هذه القصائد الخمس عشرة كلها مضمنة فى القصائد التى رواها علماء الكوفة لزهير ، وأن أحداً من العلماء لم يطعن عليها فى صحة نسبتها بشىء ، وإن كان ثمة خلاف فى نسبة أبيات قليلة من بعض هذه القصائد . وبذلك نستطيع أن نطمئن إلى أن هذه القصائد الخمس عشرة هى التى أجمع الرواة ، من البصريين والكوفيين ، على صحة نسبتها لزهير ، فنتخذها أصلاً صحيحاً لديوانه ، ندرسها دراسة فنية تكشف خصائصها وتبين ما فيها من عناصر شخصية الشاعر ، لنتخذ من كل ذلك مقياساً فنياً نحتكم إليه فى القصائد الأخرى التى رواها الكوفيون ، فما انطبق منها على هذا المقياس رجحنا صحة نسبته إلى زهير وضممناه إلى ديوانه ، وما لم يستقم منها مع هذا المقياس رجحنا أنه مما نسب خطأ إلى زهير أو وضع عليه .

فإذا ما بحثنا عن الجذور الأولى لديوان زهير ، وجدناها جذوراً عميقة تضرب فى القدم حتى لتكاد تتصل بزهير نفسه ، ثم تمتد منه خلال القرن الأول حتى تتصل — فى مطلع القرن الثانى — بأبى عمرو بن العلاء ، وبحماد الراوية ، ثم من

بعدها بالأصمعي ، وسائر علماء البصرة والكوفة . فقد ذكر البكرى [١] أن ديواني زهير وكعب كانا عند بني غطفان ، فكانوا يحفظون شعرهما ، وذلك لأن زهيراً وابنه كعباً كانا مقيمين في بني عبد الله بن غطفان . وكان عمر بن الخطاب يقدم زهيراً ويفضله، وقد حكم على شعره حكماً يدل على معرفة به ودراسة له، قال [٢]: « كان لا يعاظل بين الكلام، ولا يتتبع حوشيه ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه » . وكان يحب أن يسمع شعره، واستنشد ليلةً ابنَ عباس شعر زهير فأنشده حتى برق الفجر [٣] ؛ وكان جرير أيضاً يقدم زهيراً ويفضله وقال عنه إنه أشعر أهل الجاهلية [٤] . ولا تعنينا هذه الأحكام إلا من حيث دلالتها على معرفة القوم آنذاك بشعر زهير معرفة تتيح لهم الحكم عليه .

وقد مر بنا كذلك أن الحطيئة كان راوية زهير ، وأن الشعر اتصل في ابنه كعب بن زهير ، وابن كعب : عقبة المضرّب ، وابن ابنه : العوام بن عقبة ، حتى لقد قرأ أبو عمرو الشيباني شعر زهير أو بعضه على بعض بني زهير [٥] ، وحتى لقد روى التبريزي قصيدة كعب : « بانت سعاد » من طريق أحد أبنائه سنداً ، وهو : الحجاج بن ذى الرقيبة بن عبد الرحمن بن عقبة بن كعب بن زهير .

وكان ممن درس شعر زهير ودرّسه منذ مطلع القرن الثاني : أبو عمرو بن العلاء؛ قال المازني [٦]: « قال لى أبو زيد : قرأت هذه القصيدة — يعني معلقة زهير — على أبي عمرو بن العلاء ، فقال لى: قرأت هذه القصيدة منذ خمسين

---

(١) أشار إلى ذلك كرنكو Krenko في مقالته عن « استعمال الكتابة في حفظ الشعر العربي القديم » ص ٢٦٦ ؛ ولم يشر إلى مصدره ، ولم نجد هذا النص فيما بين أيدينا من مصادر ، فلعل كرنكو اطلع عليه في إحدى مخطوطات ديوان زهير أو كعب التي كانت بين يديه .

(٢) طبقات فحول الشعراء:٥٢ .

(٣) الأغاني ١٠ : ٢٩١ .

(٤) المصدر السابق ١٠ : ٢٨٩ .

(٥) مصورة معهد إحياء المخطوطات العربية فيلم رقم ٨٢٢، في معرض الحديث عن البيت الأول من المعلقة ، وانظر أيضاً الأغاني ١٠ : ٢٨٧ .

(٦) التبريزي، شرح المعلقات : ١٢٦ ، وانظر كذلك شرح ديوان زهير لثعلب: ٣٢ .

سنة فلم أسمع هذا البيت إلا منك » – يعنى بيته :

وَمَنْ لاَ يَزَلْ يَسْتَحْمِلُ النَّاسَ نَفْسَهُ وَلَمْ يُغْنِها يَوْماً مِنَ النَّاسِ يُسْأَمِ

ولم يكن أبو زيد وحده هو الذى قرأ شعر زهير على أبى عمرو بن العلاء ، وإنما قرأه أيضاً الأصمعى ، وقد روى عن أبى عمرو فى مواطن متعددة ، بعضها فيه نقد أدبى طريف ، فمن ذلك أنه يذكر بيت زهير :

إِذَا لَقِحَتْ حَرْبٌ عَوَانٌ مُضِرَّةٌ ضَرُوسٌ تُهِرُّ النَّاسَ أَنيابُهَا عُصْلُ

ثم يقول [1] : « سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : قال زهير " حرب مضرة " ، ولو كان إلىّ لقلت " حرب مصرّة " أى تحتزم وتمضى » . ومن أمثلة ذلك أيضاً أنه يذكر بيته :

هُنالك إنْ يُسْتَخْبَلُوا المالَ يُخْبِلُوا وإنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وإنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا

ثم يقول الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء [2] « ولو أنشدتُها لأنشدتُها :

هنالك إنْ يُسْتَخْوَلُوا المالَ يُخْوِلُوا »

ويبدو أن الأصمعى لم يكتفِ برواية شعر زهير عن أبى عمرو بن العلاء وحده – كما لم يكتف بروايته شعر امرئ القيس على ما مر بنا – وإنما أضاف إلى روايته ما أخذه عن غيره من العلماء أو ما سمعه من الأعراب الرواة ، ثم قرأ ذلك كله وقرئ عليه ، وآية ذلك أننا نجد للأصمعى روايات لبعض الألفاظ وشروحاً لبعض الأبيات فى القصائد التى أسقطها من روايته ونص على أنها ليست لزهير [3] . ولذلك فنحن نرجع هنا – كما رجعنا فى حديثنا عن رواية الأصمعى للديوان

---

(١) شرح ديوان زهير لثعلب : ١٠٤ .

(٢) المصدر السابق : ١١٢ .

(٣) المصدر السابق : ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ٢٠٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ وغيرها . . .

امرئ القيس — أن الأصمعى قد وجد أمامه ديوان امرئ القيس تراثاً يتناقل ويروَى ويتداوس، فكان لا بد له — فى مجالس علمه — من أن يقرأه جميعه ، ويقرئه تلامذته ، ولكنه كان كلما مر بقصيدة نص على رأيه فى صحة نسبتها إلى زهير ، إثباتاً أو نفياً ، ثم يشرح القصيدة فى الحالتين ، ويذكر بعض روايات ألفاظها ، غير أنه لم يثبت فى نسخته من ديوان زهير التى رواها عنه تلاميذه ، إلا ما ثبت لديه أنه لزهير حقًّا ، فكان مجموع ذلك هذه القصائد الخمس عشرة التى أشرنا إليها .

قصائد زهير ومقطعاته

مرتبة كما جاءت فى رواية الأصمعى

ومقارنتها بما فى النسخ الأخرى

١ ـ أمِنْ أمِّ أوْفَى دِمْنَةٌ لمْ تَكَلَّمِ بِحَـوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فالمُتَثَلَّمِ

(١) القصيدة الأولى فى ثعلب .

(٢) والأولى كذلك فى مخطوطة نور عثمانية، وفيها بعد البيت الأول « قال أبو عمرو : قرأت على بعض بنى زهير : الدُّراج برفع الدال » .

٢ ـ صحَا القَلْبُ عَنْ سَلْمَى وقَدْ كَاد لَا يَسْلُو
وَأقْفَـرَ مِنْ سَلْمَى التَّعَـانِيقُ فالثُّقْـلُ

(١) القصيدة الخامسة فى ثعلب .

(٢) والسادسة عشرة فى نور عثمانية، إلا أنها هنا شطرت شطرين، فجعلت قصيدتين لا قصيدة واحدة، وذلك بأن ذكرت بعض أبياتها الأخيرة فى هذه المخطوطة (ورقمها ٥٤) وقبلها قوله : « وهذه الأبيات زيادة لم يروها أبو نصر ،

وليست فى روايته ، أنشدها بعض العلماء ! » .

٣ ـ صَحَا الْقَلْبُ عن سَلْمَى وَأَقْصَر بَاطِلُهْ
وَعُــرِّىَ أفْرَاسُ الصِّبَــا وَرَوَاحِلُهْ

(١) آخرها فى رواية الأصمعى :
يهــد له مادون رمــلة عالج ومن أهله بالغور زالت زلازله
قال الأعلم ص ٣٣: « وهذا البيت آخر القصيدة فى رواية الأصمعى، ويلحق بالقصيدة البيتان اللذان بعده وهما لحوّات بن جبير الأنصارى ... »
(٢) القصيدة السابعة فى ثعلب ، وقد قال فى ص ١٤٢ :
« وهذه آخر رواية أبى عمرو ، وروى أبو عبيدة والأصمعى . . » ثم يذكر سبعة أبيات .
(٣) القصيدة التاسعة فى نور عثمانية .

٤ ـ إنَّ الْخَلِيطَ أَجَدَّ الْبَيْنَ فانْفَرَقَا وَعُلِّقَ الْقَلْبُ منْ أَسْمَاء مَا عَلِقَا

(١) آخرها فى رواية الأصمعى :

يَطْعنهم ما ارْتَمَوْا حَتَّى إذَا اطَّعَنُوا ضَارَبَ حَتَّى إذا ما ضارَبُوا اعْتَنَقَا

وذكر الأعلم ص ٤١ بيتين بعده عن غير الأصمعى .
(٢) القصيدة الثانية فى ثعلب ، وقد أورد قبيل آخرها ستة أبيات نص على أنها من رواية أبى عمرو (ص ٤٩ ـ ٥٢) ثم أربعة أبيات نص على أنها مما روى أبو عمرو والأصمعى (ص ٥٣ ـ ٥٤) ، ثم بيتين فى آخرها نص على أنهما « من غير هذه الرواية » وأن الأصمعى لم يروها (ص ٥٥) .
(٣) القصيدة الثانية كذلك فى نور عثمانية ، وقد ذكر أن أبا عمرو لم يرو آخرها بيتاً .

٥ ـ بَانَ الْخَلِيطُ وَلَمْ يَأْوُوا لِمَنْ تَرَكُوا وَزَوَّدُوكَ اشْتِيَـاقاً أَيَّةً سَلَـكُوا

(١) القصيدة التاسعة فى ثعلب .

(٢) والخامسة فى نور عثمانية .

٦ ـ تَعَلَّمْ أَنَّ شَرَّ النَّاسِ حَيٌّ يُنَادَى فِى شِعَارِهِمُ يَسَارُ

(١) القصيدة الخامسة والعشرون فى ثعلب .

(٢) والثامنة والعشرون فى نور عثمانية .

٧ ـ [1] قِفْ بالدِّيارِ التى لم يَعْفُهَا القِدَمُ بَلَى ، وَغَيَّرَها الأَرْوَاحُ والدِّيَمُ

(١) الثامنة فى ثعلب ، والسابعة عشرة فى نور عثمانية .

٨ ـ لِمَنِ الدِّيَارُ بِقُنَّةِ الحِجْرِ أَقْوَيْنَ مِنْ حِجَجٍ وَمِنْ شَهْرِ

(١) ذكر الأعلم آخرها بيتاً عن غير الأصمعى ، ص ٦٤ .

(٢) القصيدة الرابعة فى ثعلب ، وهو يورد منها ستة عشر بيتاً ثم يقول : « هذا آخر رواية أبى عمرو » ص ٩٤ ، ويكمل عدة القصيدة اثنين وعشرين بيتاً .

(٣) القصيدة العشرون فى نور عثمانية .

٩ ـ عَفَا مِنْ آلِ فَاطِمَةَ الجِوَاءُ فَيُمْنٌ فالقَـوَادِمُ فالحِسَاءُ

(١) ذكر الأعلم البيت السابع منها عن غير الأصمعى ، ص ٦٥ .

(٢) القصيدة الثالثة فى ثعلب .

(٣) والثالثة أيضاً فى نور عثمانية .

---

(١) جاء فى أصل الأعلم – بعد القصيدة السادسة – قصيدتان لم يروهما الأصمعى ، ولذلك أسقطناهما ، وهما قوله :

١٠ـ لِمَنْ طَلَلٌ بِرامَةَ لَا يَرِيمُ عَفَا وَخَلَا لَهُ حُقُبٌ قَدِيمُ

(١) القصيدة الثانية عشرة فى ثعلب ، والتاسعة عشرة فى نور عثمانية .

١١ـ أَلَا أَبْلِغْ لَدَيْكَ بَنِى تَمِيمٍ وَقَدْ يَأْتِيكَ بِالْخَبَرِ الظُّنُونُ

(١) القصيدة العاشرة فى ثعلب ، ولم يرو أبو عمرو فيها الأبيات الثلاثة الأخيرة فى رواية الأصمعى .

(٢) القصيدة الرابعة فى نور عثمانية .

١٢ـ رأيتُ بَنِى آل امرئ القَيْسِ أَصْفَقُوا

عَلَيْنَا وقالوا إننا نَحْنُ أَكْثَرُ

(١) القصيدة الثالثة عشرة فى ثعلب ، والثانية عشرة فى نور عثمانية .

١٣ـ إِنَّ الرَّزِيَّةَ لَا رَزِيَّةَ مِثْلُهَا مَا تَبْتَغِى غَطَفَانُ يَوْمَ أَضَلَّتِ

(١) القصيدة الثامنة والثلاثون فى ثعلب ، والسادسة والعشرون فى نور عثمانية .

(٢) رواها الأصمعى ــ فى الأعلم ــ فى ثلاثة أبيات ، وجاءت فى ثعلب ونور عثمانية فى خمسة أبيات ، ووردت فى طبقات ابن سلام فى أربعة أبيات (ص ٥٦٨ ــ ٥٦٩) وقال ابن سلام: «حدثنى أبو عبيدة قال: كان قراد ابن حنش من شعراء غطفان وكان جيد الشعر قليله ، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه ، منهم زهير بن أبى سلمى ادعى هذه الأبيات» .

= أَبْلِغْ بَنِى نَوْفَلٍ عَنِّى فَقَدْ بَلَغُوا مِنِّى الْحَفِيظَةَ لَمَّا جاءَنِى الْخَبَرُ

(١) روى الأعلم (ص ٤٩) خبرها عن أبى حاتم وقال: «لم يعرفها الأصمعى وعرفها أبو عبيدة» .

(٢) القصيدة السادسة والعشرون فى ثعلب ، والسادسة فى نور عثمانية . وقوله :

أَبْلِغْ لَدَيْكَ بَنِى الصَّيْدَاءِ كُلَّهُمُ أَنَّ يَسَارًا أَتَانَا غَيْرَ مَغْلُولِ

(١) قال الأعلم ص ٥٠ : «قال أبو حاتم : لم يعرفها الأصمعى: وعرفها أبو عبيدة» .

(٢) القصيدة السابعة والعشرون فى ثعلب .

(٣) القصيدة السابعة فى نور عثمانية .

ولما كان إجماع الرواة منعقداً على أن زهيراً قال هذا الشعر فإننا نرجح أن الأبيات الثلاثة التي رواها الأصمعي صحيحة النسبة لزهير ، أما البيتان الآخران فلعلهما من شعر قُرَاد بن حَنَش الذي أدخل في شعر زهير .

١٤ـ لَعَمْرُكَ والخُطُوبُ مُغَيِّرَاتٌ   وفي طُولِ المُعاشَرَةِ التَّقَالِي

(١) الثالثة والأربعون في ثعلب ، والخامسة والثلاثون في نور عثمانية .

١٥ـ [1]وقالت أُمُّ كَعْبٍ لَاتزرْنِي   فَلَا وَاللهِ مَا لَكَ مِنْ مَزَارِ

(١) التاسعة والثلاثون في ثعلب .

(٢) والسابعة والعشرون في نور عثمانية .

---

(١) جاء بعد القصيدة الرابعة عشرة – في أصل الأعلم – قصيدة أنكرها الأصمعي ولذلك أسقطناها من روايته وهي :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَرَى النَّاسُ مَا أَرَى   مِنَ الْأَمْرِ أَوْ يَبْدُو لَهُمْ مَا بَدَا لِيَا

(١) في الأعلم ص ٨٦ « قال الأصمعي : ليست لزهير ويقال : هي لصرمة الأنصاري ولا تشبه كلام زهير » .

(٢) القصيدة الثالثة والعشرون في ثعلب ، وقد رواها عن حماد ، ثم قال (ص ٢٨٣) : « وزعم بعض الناس أنها لصرمة بن أبي أنس الأنصاري » . وانظر كذلك كتاب المعمرين لأبي حاتم السجستاني : ٦٦ – ٦٧ .

(٣) القصيدة العاشرة في نور عثمانية .

الفصل الثانى

دواوين القبائل

١

إن أول ما يستوقف الباحث فى دواوين القبائل هذا الحشد الهائل من أسماء كتب القبائل ودواوين شعرها ، الذى تزخر به بعض كتب القرن الرابع الهجرى وخاصةً كتابى : الفهرست لابن النديم ، والمؤتلف والمختلف للآمدى .

فقد ذكر أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى (المتوفى سنة ٣٧٠ هـ) ستين ديواناً من دواوين القبائل ، هى فى ترتيبنا لها على حروف الهجاء كما يلى :

١ ـ أشعار الأزْد	٢ ـ كتاب بنى أسد
٣ ـ كتاب أسلم	٤ ـ كتاب أشجع
٥ ـ كتاب بنى أعصُر	٦ ـ كتاب إياد
٧ ـ كتاب باهلة	٨ ـ كتاب بَجيلة
٩ ـ كتاب بَلِىّ	١٠ ـ أشعار بنى تَغلب
١١ ـ كتاب جَرْم	١٢ ـ كتاب بنى جُعفىّ
١٣ ـ كتاب جُهينة	١٤ ـ كتاب بنى الحارث بن كعب
١٥ ـ أشعار حِمْير	١٦ ـ كتاب بنى حَنيفة
١٧ ـ كتاب خَثعم	١٨ ـ كتاب خُزاعة
١٩ ـ كتاب بنى ذُهْل بن ثَعلبة	٢٠ ـ أشعار الرِّباب
٢١ ـ كتاب بنى رَبيعة بن ذُهْل	٢٢ ـ كتاب بنى سَعد
٢٣ ـ كتاب بنى سعيد	٢٤ ـ كتاب بنى سُليْم

٢٥ ـ كتاب السَّكون	٢٦ ـ كتاب بنى شَيبان
٢٧ ـ كتاب بنى ضَبَّة	٢٨ ـ كتاب بنى ضُبيعة
٢٩ ـ كتاب بنى طُهيَّة	٣٠ ـ كتاب طيّ
٣١ ـ أشعار بنى عامر بن صَعصعة	٣٢ ـ شعر عبد القيس
٣٣ ـ كتاب بنى عبد الله بن غَطفان	٣٤ ـ كتاب بنى عَبس
٣٥ ـ كتاب بنى عجل	٣٦ ـ كتاب عَدْوان
٣٧ ـ كتاب بنى عُذْرَة	٣٨ ـ كتاب بنى عُقيل
٣٩ ـ كتاب عنزة	٤٠ ـ أشعار بنى عَوْف بن همام
٤١ ـ كتاب غنى	٤٢ ـ كتاب فَزَارة
٤٣ ـ أشعار فَهم	٤٤ ـ كتاب بنى قُريظة
٤٥ ـ كتاب بنى قُشير	٤٦ ـ كتاب بنى قيس بن ثعلبة
٤٧ ـ كتاب بنى القين	٤٨ ـ كتاب بنى كلاب
٤٩ ـ كتاب كلب بن وَبرة	٥٠ ـ كتاب كنانة
٥١ ـ كتاب بنى مُحارب	٥٢ ـ كتاب بنى مُرَّة بن عوف
٥٣ ـ كتاب مُزَينة	٥٤ ـ كتاب نَهد
٥٥ ـ كتاب بنى نَهشل	٥٦ ـ كتاب بنى هاشم
٥٧ ـ كتاب بنى الهُجيم	٥٨ ـ شعر هُذَيل
٥٩ ـ شعر بنى يَشكر	٦٠ ـ مُقطعات الأعراب

ولم ينسب الآمدىّ شيئاً من هذه الدواوين إلى جامع أو صانع من الرواة العلماء ، بل أرسلها هكذا غُفلاً ، إلا ديوانين منها ، الأول : أشعار بنى تغلب ، فقد قال فى معرض حديثه عن ابن جُعَيل التغلبى (١) «وله فيما تنخلته من أشعار بنى تغلب مقطعات حسان» . وذلك لا ينفى أنه كان بين يديه ديوان

(١) ص : ٨٣ .

لبنى تغلب ، وأنه قد اختار من هذا الديوان قصائد ومقطعات تنخلها . والثانى : أشعار الرِّباب ، وذلك قوله(١) : « ووجدت فى أشعار الرباب عن المفضل وحماد » ، ثم يذكر شعراً . وهذه الإشارة قد تحتمل أن ديوان الرباب كله عن المفضل وحماد ، وقد تعنى أن فى هذا الديوان شعراً عنهما كان من جملته هذا الشعر الذى أورده .

والعجيب أن الآمدى يذكر أحياناً فى سياق حديثه أن بين يديه ديوانين لقبيلة واحدة : أحدهما صنعه السكرى ، والآخر يغفل ذكر صانعه . فمن ذلك مثلاً قوله(٢) : « وذكر أبوسعيد السكرى بعد حَرْملة بن عَسَلة : عبد المسيح ابن عسلة والمسيِّب بن عسلة . . . وأنشد لعبد المسيح بن عَسلة (ويذكر شعراً) ، وأنشد للمسيِّب بن عسلة (ويذكر شعراً) . . . وأنشد أبو سعيد لهما مقطعات أخر ، ولم أرَ لهما فى قَبيل شَيبان ذكراً وإنما المذكور هناك حرملة وحده » . فبين يدى الآمدى إذن ديوانان لقبيلة شيبان ، أحدهما صنعه السكرى وذكر فيه عبد المسيح بن عسلة وأخاه المسيب بن عسلة ، وأورد لهما فيه شعراً . والثانى لم يُسمِّ لنا الآمدىّ صانعه ، ولم يرد فيه ذكر لهذين الشاعرين ولا شعر لهما ، وإنما المذكور فيه أخوهما حرملة بن عسلة وحده .

أما أبو الفرج محمد بن إسحق النديم (المتوفى سنة ٣٨٥) ، فقد ذكر فى فهرسته ثمانية وعشرين ديواناً من دواوين القبائل ، وكلها منسوبة إلى صانعها ؛ وهو فى أكثرها أبو سعيد السكرى ، ما عدا ديواناً واحداً منها نسبه إلى ابن الكلبى ، وسنذكر هذه الدواوين كما رتبناها على حروف الهجاء ونضيف إليها بعض ما وجد فى غير الفهرست :

١ ــ أشعار الأزْد ــ عمله السكرى
٢ ــ أشعار بنى أسد ــ عمله السكرى

(١) ص : ٢٢ .
(٢) ص : ١٥٨ .

٣ ــ أشعار أشجع ــ عمله السكرى

٤ ــ أشعار بَجِيلة ــ عمله السكرى

٥ ــ أشعار تغلب ــ عمله السكرى [١] ، وعمله أيضاً أبو عمرو الشيبانى [٢] .

٦ ــ أشعار بنى تميم ــ عمله السكرى

٧ ــ أشعار بنى الحارث ــ عمله السكرى

٨ ــ كتاب أخبار الحر وأشعارهم ــ هشام بن محمد الكلبى

٩ ــ أشعار بنى حنيفة ــ السكرى

١٠ ــ أشعار بنى ذُهْل ــ السكرى

١١ ــ أشعار بنى ربيعة ــ السكرى

١٢ ــ أشعار بنى شيبان ــ السكرى ، ومحمد بن حبيب [٣] .

١٣ ــ أشعار الضِّباب ــ السكرى

١٤ ــ أشعار ضَبَّة ــ السكرى

١٥ ــ أشعار طيئ ــ السكرى

١٦ ــ أشعار بنى عبد ودّ ــ السكرى

١٧ ــ أشعار بنى عدوان ــ السكرى

١٨ ــ أشعار بنى عَدِىّ ــ السكرى

١٩ ــ أشعار بنى فَزَارة ــ السكرى

٢٠ ــ أشعار الفِنْد ــ السكرى

٢١ ــ أشعار فهم ــ السكرى

٢٢ ــ أشعار كِنانة ــ السكرى

---

(١) زيادة من الخزانة ٢ : ١٥٠ ــ ١٦١ .

(٢) الخزانة ١ : ٣٣ .

(٣) زيادة من الخزانة ٤ : ٢٣١ .

٢٣ ـ أشعار بنى محارب ـ السكرى ، وأبوعمرو الشيبانى [١] .

٢٤ ـ أشعار بنى مخزوم ـ السكرى

٢٥ ـ أشعار مُزَيْنة ـ السكرى

٢٦ ـ أشعار بنى نَهْشل ـ السكرى

٢٧ ـ أشعار هُذَيْل ـ السكرى ، والأصمعى ، وابن الأعرابى [٢] ، وإسحق بن إبراهيم الموصلى .

٢٨ ـ أشعار بنى يَرْبوع ـ السكرى

٢٩ ـ أشعار بنى يشكر ـ السكرى

ومع هذه الوفرة العددية لدواوين القبائل التى حفظت لنا المصادر العربية أسماءها ، فهى لا تعدو أن تكون جزءاً مما ذكرت المصادر نفسها أن العلماء الرواة قد صنعوه من دواوين القبائل. فقد عددنا للسكرى وحده من هذه الدواوين ـ كما ذكر ابن النديم ـ ثمانية وعشرين ديواناً لثمانى وعشرين قبيلة ، ومع ذلك فالمعروف أن السكرى لم يستوعب القبائل كلها ، وأنه لم يصنع إلا « قطعة » منها فقط [٣] . وهذا أبوعمرو الشيبانى لم يذكر له ابن النديم ـ على سبيل المثال ـ ديواناً واحداً من دواوين القبائل التى صنعها ، وذكر له صاحب الخزانة ديوانين فقط هما : ديوان بنى تغلب ، وديوان بنى محارب ، ومع ذلك فقد ذكر ابنه عمرو أن أباه جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة ، كل قبيلة وحدها فى ديوان مستقل [٤]. وذكرت لنا المصادر ـ فضلاً عن ذلك ـ أن من العلماء الرواة من جمعوا أشعار القبائل، بهذا الإطلاق والتعميم . وممن ذكروهم ـ غير من قدمنا ـ : أبو عبيدة

---

(١) زيادة من الخزانة ١ : ٣٢ ـ ٣٣ .

(٢) زيادة من مروج الذهب للمسعودى ٤ : ٧٣ قال إن الطوسى قرأ شعر هذيل على ابن الاعرابى .

(٣) الفهرست : ١١٧ .

(٤) المصدر السابق : ١٠١ .

معمر بن المثنى[١] ، وخالد بن كلثوم الكلبي[٢] ، ومحمد بن حبيب[٣] .

ومع كل هذا الجهد الخصب الذى بذله كثير من العلماء الرواة فى جمع أشعار القبائل ، ومع كثرة الدواوين التى ذكرت المصادر أن هؤلاء العلماء قد صنعوها ، فقد قال ابن قتيبة[٤]: « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم فى الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط ، أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفد عمره فى التنقير عنهم ، واستفرغ مجهوده فى البحث والسؤال . ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ولا قصيدة إلا رواها . . » فإذا كان ذلك كذلك فما أشدّ حسرة الباحث فى دواوين القبائل ورواياتها إذا علم أن صروف الدهر لم تُبق لنا إلا على ديوان واحد فقط من هذه الدواوين الكثيرة التى زخرت بأسمائها المصادر العربية ، وهى ليست إلا جزءاً مما صنعه الرواة ، وكل ذلك ليس أيضاً إلا جزءاً مما قاله شعراء القبائل — هذا الديوان الوحيد الذى بقى لنا هو : ديوان هُذَيْل .

غير أن حظ قبائل العرب من الشعر لم يكن واحداً ، وإنما كانوا يتفاوتون فى كثرة شعرائهم وشعرهم ، وفى ذلك يذكر الجاحظ حديثاً طريفاً ، قال[٥]: « وبنو حنيفة — مع كثرة عددهم ، وشدة بأسهم ، وكثرة وقائعهم ، وحسد العرب لهم على دارهم وتخومهم وسط أعدائهم ، حتى كأنهم وحدهم يعدلون بكراً كلها — ومع ذلك لم نر قبيلة قط أقلّ شعراً منهم . وفى إخوتهم عجل قصيد ورجز وشعراء ورجازون . وليس ذلك لمكان الخصب وأنهم أهل مدر وأكالو تمر ، لأن الأوس والخزرج كذلك وهم فى الشعر كما قد علمت . وكذلك

(١) ياقوت ، إرشاد ١٩ : ١٦١ .
(٢) الفهرست : ٩٨ .
(٣) المؤتلف والمختلف : ٧١ – ٧٢ ، ١١٩ ، ١٢٠ .
(٤) الشعر والشعراء ١ : ٤ .
(٥) الحيوان ٤ : ٣٨٠ – ٣٨٢ .

عبدالقيس النازلة قرى البحرين، فقد تعرف أن طعامهم أطيب من طعام أهل اليمامة. وثقيف أهل دار ناهيك بها خصباً وطيباً ، وهم – وإن كان شعرهم أقل – فإن ذلك القليل يدل على طبع فى الشعر عجيب . وليس ذلك من قِبَل رداءة الغذاء، ولا من قلة الخصب الشاغل والغنى عن الناس ، وإنما ذلك عن قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز ، والبلاد والأعراق مكانها . وبنو الحارث بن كعب قبيل شريف ، يجرون مجارى ملوك اليمن ، ومجارى سادات أعراب أهل نجد ، ولم يكن لهم فى الجاهلية كبير حظ فى الشعر ، ولهم فى الإسلام شعراء مفلقون . وبنو بدر كانوا مفحمين ، وكان ما أطلق الله به ألسنة العرب خيراً لهم من تصيير الشعر فى أنفسهم . وقد يحظى بالشعر ناس ويخرج آخرون، وإن كانوا مثلهم أو فوقهم . وقد كان فى ولد زُرَارة لصلبه شعر كثير ، كشعر لقيط وحاجب وغيرهما من ولده . ولم يكن لحذيفة ولا حصْن ولا عيينة بن حصن ، ولا لحمل بن بدر – شعر مذكور » .

فإذا ما عدنا إلى قول ابن قُتيبة الذى ذكرناه وهو « ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه، ولا قصيدة إلا رواها » ، استبان لنا صدق هذا القول من الإشارات المبثوثة فى صفحات المصادر التى بين أيدينا. فقد رأينا أن الآمدى يذكر فى كتابه « المؤتلف والمختلف » ستين ديواناً لستين قبيلة ، وقد رأى هذه الدواوين كلها ورجع إليها ، وأخذ منها شعراً كثيراً للشعراء الذين أوردهم فى كتابه . ومع ذلك فهو كثيراً ما يذكر أسماء شعراء جاهليين وإسلاميين ، ثم ينص على أنه لم يجد لهم – فيما بين يديه من دواوين قبائلهم – ذكراً أو شعراً . فمن ذلك أنه يذكر الأغلب الكلبى ثم يقول(١): « لم أجد له فى أشعار كلب شعراً ، وأظن شعره درس فلم يُدْرَك » . ويذكر ابن أحمر الإيادى ثم يقول إنه لم يجد له فى كتاب إياد إلا بيتاً واحداً

(١) ص : ٢٣ .

ذكره [١] . ويذكر الحارث بن البرصاء ثم يقول[٢]: « وليس له عندى فى كتاب كنانة ذكر » . ويذكر عبد المسيح بن عسلة وأخاه المسيب بن عسلة ثم يقول[٣]: « ولم أر لهما فى قبيل شيبان ذكراً ، وإنما المذكور هناك حرملة وحده » . ويذكر أبا الغول النهشلى ثم يقول[٤]: « ذكر أبو اليقظان . . . أنه شاعر . . . . ولم أر له ذكراً فى كتاب بنى نهشل » . ويذكر الكيذبان المحاربى ويقول[٥]: « ليس له فى كتاب محارب ذكر ولا أدرى من أين نقلته وليس له عندى شعر ! » ويذكر ملاعب الأسنة الحارثى ويقول[٦]: « ولم أر له شعراً فى كتاب بنى الحارث» ويذكر الحارث بن بكر الذبيانى ويقول [٧]: « وجدت فى كتاب بنى مرة بن عوف أنه أحد الشعراء النوابغ ولم يذكر له شعراً وأظن شعره درس » . والأمثلة على ذلك كثيرة لا داعى لاستقصائها .

وبعد ،

أفيكون ذلك معنى قول أبى عمرو بن العلاء[٨]: « ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » ؟

---

(١) ص : ٣٨ .
(٢) ص : ٦٨ .
(٣) ص : ١٥٨ .
(٤) ص : ١٦٣ .
(٥) ص : ١٧١ .
(٦) ص : ١٨٧ .
(٧) ص : ١٩٢ – ١٩٣ .
(٨) طبقات الشعراء : ٢٣ .

٢

وأمام الباحث سؤالان ، فى الإجابة عنهما جماع البحث عن دواوين القبائل ، هما : ما معنى ديوان القبيلة ، وماذا كان يحوى بين دفتيه ؟ ثم : متى نشأت دواوين القبائل ، ومتى جمعت أول مرة ، وما المصادر التى أخذ منها الرواة والعلماء من الطبقة الأولى ما جمعوه من هذه الدواوين ؟

أما السؤال الأول فليس من سبيل إلى الإجابة عنه إلا بتتبع ما ورد فى المصادر العربية من إشارات تذكر فيها دواوين القبائل ، ودراسة هذه الإشارات دراسة تعين على استنباط صورة واضحة تبين معنى ديوان القبيلة ؛ وذلك لأننا ذكرنا من قبل أن هذا الحشد الزاخر من دواوين القبائل قد أتى عليه الدهر ، ولم يبق لنا منه إلا ديوان واحد هو ديوان هذيل — وسنخصه بحديث مستقل بعد صفحات. فلا أقل إذن ، بعد أن عزّت دراسة الدواوين نفسها ، من أن ندرس ما بقى بين أيدينا من أخبار عن هذه الدواوين وإشارات إليها .

وأول ما نلحظه فى هذه الدراسة هى تسمية الديوان ؛ فقد كانوا يطلقون على ديوان القبيلة : « أشعار بنى فلان » ، أو « شعر بنى فلان » ، أو « كتاب بنى فلان » . فالآمدى مثلا يذكر فى موطن من كتابه « شعر فزارة »[١] ، ويذكر فى موطن آخر « كتاب فزارة » [٢] وهما بمعنى ؛ ويذكر « كتاب بنى يشكر » [٣] و « شعر بنى يشكر »[٤] ، ويذكر « كتاب بنى عقيل »[٥]

---

(١) المؤتلف والمختلف : ٥٩ .
(٢) ص : ٦٥ ، ٧٦ .
(٣) ص : ١٨٦ .
(٤) ص : ٤٠ .
(٥) ص : ١١٨ .

و «شعر بنى عقيل»[١] ، و «كتاب بنى أسد[٢]» و «أشعار بنى أسد»[٣]، و «كتاب طيء»[٤] و «أشعار الطائيين»[٥] ، و «كتاب بنى سليم»[٦] و «أشعار بنى سليم» [٧] ، وهكذا .

وكتاب القبيلة أو ديوانها يضم بين دفتيه ثلاثة أشياء :

١ — يضم شعر شعراء القبيلة أو بعضهم ، وفى ذلك يقول الآمدى فى سياق حديثه عن بعض الشعراء: «وله أشعار فى كتاب بنى ربيعة بن ذهل» [٨] ، و «له فى كتاب أسد أشعار» [٩] ، «وهى أبيات من كتاب خزاعة»[١٠]، «وله أشعار فى كتاب بنى عجل» [١١]، «وله فى كتاب بنى سليم أشعار حسان»[١٢] ، «وله أشعار جياد فى كتاب بنى ربيعة بن ذهل وفى بطون قريش» [١٣]، «وله فى كتاب بنى ذهل بن ثعلبة مقطعات حسان» [١٤] ، «وشعرهم فى كتاب بنى عقيل» [١٥] ، «وهذه الأبيات ثابتة فى كتاب بجيلة»[١٦] ، «ووجدت فى كتاب طيء الذى نقلت منه شعر الطرماح بن جهم

---

(١) ص : ١٢٨ .
(٢) ص : ٣٤ .
(٣) ص : ١٨ :
(٤) ص : ١٤٨ .
(٥) ص : ٥٠ .
(٦) ص : ٧٦ .
(٧) ص : ١٧ .
(٨) ص : ١٣ .
(٩) ص : ١٥ .
(١٠) ص : ٥٢ .
(١١) ص : ٧١ .
(١٢) ص : ٧٦ .
(١٣) ص : ٧٩ .
(١٤) ص : ٨٨ .
(١٥) ص : ١١٨ .
(١٦) ص : ١١٩ .

السنبسي » [١] ، « وله في كتاب كلب أشعار » [٢] ، « وله في كتاب بني ضبيعة أشعار حسان جياد » [٣] . إلى آخر ما يشبه هذه من إشارات .

٢ – ويضم كتاب القبيلة أو ديوانها أخباراً وقصصاً وأحاديث ؛ وفي ذلك يقول الآمدي : « وهو القائل : مكره أخوك لا بطل ، في قصة . . . وشرح ذلك في كتاب فزارة » [٤]، « وقتل أخواه في قصة مذكورة في كتاب بني سعد » [٥] ، « وله في كتاب فزارة خبر وأشعار ورجز جياد » [٦] ، « وله في كتاب بني أسد أشعار وأخبار حسان » [٧]، « وقصتهما مذكورة في كتاب بني شيبان » [٨] ، « وخبره مع جاهمة في كتاب بني أعصر » [٩] ، « وله في كتاب بني إياد أشعار وأخبار وقصة مع أبيه » [١٠]، « وله في هذا حديث وخبر في كتاب بني طهية » [١١]، « والقصة مذكورة في كتاب بني شيبان » [١٢]، « في قصة مذكورة في كتاب مزينة » [١٣] ، « وله أشعار وأخبار في قبيل بلي » [١٤] ، إلى آخر ما يشبه هذه الإشارات ، ويبدو منها أن تلك الأخبار والأحاديث والقصص إنما وردت في كتاب القبيلة لبيان حادثة تاريخية ذكرت في الشعر ، أو لتوضيح المناسبة التي

---

(١) ص : ١٤٨ .
(٢) ص : ١٥٣ .
(٣) ص : ١٩٨ .
(٤) ص : ٦٥ .
(٥) ص : ٦٩ .
(٦) ص : ٧٦ .
(٧) ص : ٨٥ .
(٨) ص : ١٠٢ .
(٩) ص : ١٠٢ .
(١٠) ص : ١١٧ .
(١١) ص : ١٦٣ .
(١٢) ص : ١٧٤ .
(١٣) ص : ١٨٢ .
(١٤) ص : ١٨٢ .

نُظمت فيها القصيدة ، أو لتفسير بيت من أبياتها .

٣ — وفى كتاب القبيلة أو ديوانها — فضلاً عن ذلك — نسب أيضاً . ويبدو ذلك واضحاً من هذه الإشارات التى أوردها الآمدى ينبئ بها أنه وجد نسب فلان أو فلان فى كتاب هذه القبيلة أو تلك ، مما يدل على أن نسب غيرهم — ممن لم ينص عليهم — موجود مرفوع فى كتب قبائلهم، فهو يقول: «لم يُرفع فى كتاب عذرة نسبه»[١] ، و «لم يرفع نسبه فى كتاب عنزة» [٢] ، «ولم يرفع فى كتاب بنى الهجيم نسبه»[٣] ، «ولم يرفع فى كتاب جهيّنة نسبه» [٤] ، «وجدته فى بنى الحارث بن كعب لم يرفع نسبه . .» [٥]، و «لم يرفع نسبه فى كتاب السكون» [٦] ، و «لم يرفع فى كتاب بنى عجل نسبه» [٧] ، و «لم يرفع نسبه فى كتاب جرم» [٨] . وأمر النسب فى هذه الكتب كأمر الأخبار والأحاديث والقصص ، لم يُذكر لذاته ، وإنما ذكر لذكر الشاعر نفسه وشعره .

فكتب القبائل إذن — فى جوهرها — مجموعات شعرية ، تضم بين دفتيها قصائد كاملة ، ومقطعات قصيرة ، وأبياتاً متفرقة ، لشعراء تلك القبيلة أو لبعض شعرائها ، وربما ضمت أكثر شعر هؤلاء الشعراء ، بل ربما ضمت جميع شعر شاعر منهم وديوانه كاملاً . ثم تضيف إلى ذلك من الأخبار والنسب والقصص والأحاديث ما يتصل بالشاعر نفسه ، أو ببعض أفراد قبيلته ، وما يوضح مناسبات القصائد ، ويفسر بعض أبياتها ، ويبين ما فيها من حوادث تاريخية . فيجىء

(١) ص : ٦٥ .
(٢) ص : ٨٠ .
(٣) ص : ٨٨ .
(٤) ص : ٨٩ .
(٥) ص : ١٠٠ .
(٦) ص : ١٦٧ .
(٧) ص : ١٧٩ .
(٨) ص : ١٩٦ .

كتاب القبيلة بذلك سجلاً لحوادثها ووقائعها ، وديواناً لمفاخرها ومناقبها ، ومعرضاً لشعر شعرائها .

فإذا كان ذلك كذلك، فمتى جُمعت هذه الدواوين أول مرة ؟ وإلى أى مدى نستطيع أن نتتبع تاريخ تدوينها حتى نصل إلى بداية هذا التدوين ، أو إلى قريب من بدايته ؟ والإجابة عن ذلك تضطر الباحث إلى أن يسلك مجاهل وقفاراً ، تحمله على أن يصطنع الحذر ، وأن يتثبت من مواطئ قدميه قبل المضىّ وفى أثنائه، ولكنه مع ذلك لايعدم بعض المعالم يقيمها على جانبى الطريق، وينصبها بين يديه ومن خلفه يهتدى بها فى سيره ؛ ولا عليه بعد ذلك إن لم يبلغ أقصى الغاية ، فحسبه أنه قد بذل الجهد وأخلص النية .

وأسلم ما يبدأ به الباحث : هذه الدواوين التى ذكرتها المصادر ، ورفعت إسناد روايتها إلى الطبقة الأولى من الرواة العلماء . فقد مر بنا أن أبا عبيدة معمر ابن المثنى قد جمع أشعار القبائل فى كتاب واحد أو كتب عدة[1]. وأن الأصمعى قد جمع أيضاً بعض أشعار القبائل ، ومنها ديوان هُذَيْل الذى سنتحدث عنه بعد قليل. وأبو عبيدة والأصمعى بصريّان . أما علماء الكوفة من رجال الطبقة الأولى الذين جمعوا أشعار القبائل ودواوينهم فهم : حماد الراوية (المتوفى سنة ١٥٦هـ)، والمفضل الضبى (المتوفى سنة ١٦٨ أو ١٧٨)، وقد ذكرهما الآمدى كما مر بنا[2]، وخالد بن كلثوم الكلبى — وهو فى طبقة أبى عمرو الشيبانى[3] — قال عنه ابن النديم ، فيما نقله من خط ابن الكوفى[4]، إنه من علماء الكوفيين و « من رواة الأشعار وعارف بالأنساب والألقاب وأيام الناس ، وله صنعة فى الأشعار والقبائل . . . وله من الكتب . . . كتاب أشعار القبائل ويحتوى على عدة قبائل » . غير أن أشهر من جمع دواوين القبائل من الكوفيين :

---

(١) ياقوت ، إرشاد ١٩ : ١٦١ .

(٢) المؤتلف والمختلف : ٢٢ .

(٣) السيوطى ، البغية : ٢٤١ .

(٤) الفهرست : ٩٨ .

أبو عمرو الشيبانى الذى جمع أشعار العرب حتى صنع شعر نيف وثمانين قبيلة ، « فكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها إلى الناس كتب مصحفاً وجعله فى مسجد الكوفة حتى كتب نيفاً وثمانين مصحفاً بخطه »[١] ، « وكان يكتب بيده إلى أن مات »[٢] . وقد قرأ دواوين الشعراء على المفضل[٣] . وبلغ من شهرته فى جمع دواوين القبائل أن الناس أخذوا « عنه دواوين أشعار القبائل كلها »[٤] ، ولم يبق لنا من هذه الدواوين التى صنعها وجمعها شىء ، بل لم تحفظ لنا المصادر من أسمائها إلا ديوانين : أشعار تغلب[٥] ، وأشعار قبيلة محارب بن خصفة ابن قيس عيلان ، وقد رآه عبد القادر البغدادى ، وكانت لديه منه نسخة قديمة ، قال[٦]: « وهى عندى فى نسخة قديمة تاريخ كتابتها فى صفر سنة إحدى وتسعين ومائتين ، وكاتبها أبو عبد الله الحسين بن أحمد الفزارى ، قال : نقلتها من نسخة أبى الحسن الطوسى ، وقد عرضت على ابن الأعرابى » .

ثم أخذ عن هذه الطبقة الأولى من الرواة العلماء تلاميذهم من علماء الطبقة الثانية ، فأخذ ابن الأعرابى عن المفضل وعن أبى عمرو الشيبانى حتى اشتهر أيضاً بأنه « راوية لأشعار القبائل »[٧] ، وأخذ محمد بن حبيب عن أبى عمرو الشيبانى ، ولم يبق لنا ذكر شىء من دواوين القبائل التى صنعها ابن الأعرابى وابن حبيب إلا « ديوان أشعار بنى شيبان » صنعه محمد بن حبيب[٨] . ثم أخذ عن هؤلاء من تلاهم مثل السكرى — وقد مر بنا ذكر دواوين القبائل التى صنعها ، وسنفصل القول فيه حين نتحدث عن ديوان هذيل .

---

(١) الفهرست : ١٠١ .
(٢) المصدر السابق : ١٠٢ .
(٣) وفيات الأعيان ١ : ٦٥ .
(٤) الفهرست : ١٠١ .
(٥) الخزانة ١ : ١٠ .
(٦) المصدر السابق ٢ : ١٦٥ .
(٧) طبقات النحويين واللغويين : ٢١٣ .
(٨) الخزانة ٤ : ٢٣١ .

هذا هو المَعْلَم الأول فى سبيل دراستنا لدواوين القبائل، ونرى منه أن هذه الدواوين كانت موجودة — مكتوبة مدونة — فى القرن الثانى الهجرى ، أى من نهاية الربع الأول من القرن الثانى على التقريب إلى مطلع القرن الثالث ، وهى الحقبة التى كان يحيا فيها هؤلاء العلماء الرواة من رجال الطبقة الأولى ، ويبلغ فيها نشاطهم ذروته . غير أن ذلك لا يعنى أن هذه الكتب قد دُوِّنت فى تلك الحقبة لأول مرة . فقد كانت تلك الدواوين هى النسخ الخاصة بهؤلاء العلماء : كتبوها بأنفسهم ، بعد أن نظروا فى هذا التراث الشعرى الذى وصل إليهم ، ومحّصوه ونقدوه ونخلوه ، واستخرجوا ما صح منه لكل واحد منهم ، ثم صاروا يُقرئون هذه النسخة تلامذتهم فى مجالس علمهم ، ويقرأها عليهم أولئك التلاميذ ، ويتناقلونها جيلاً بعد جيل على أنها رواية ذلك العالم الأول . ولقد ذكرنا فى حديثنا عن تدوين الشعر الجاهلى ، فى الباب الثانى ، وعن الدواوين المفردة ، فى الفصل الأول من هذا الباب — أن هؤلاء العلماء الرواة من رجال الطبقة الأولى كانوا يئولون إلى نسخ مدونة وصلت إليهم من العصور التى سبقتهم ، وأنهم كانوا أحياناً يجمعون بين هذه النسخ ، ويضيفون إليها ما يصلهم بالرواية الشفهية عن شيوخ مدرستهم أو شيوخ المدرسة المخالفة ، وعن الأعراب الرواة ، ثم ينظرون فى كل ذلك نظرة تمحيص ونقد ، حتى يستخرجوا منه ما ترجَّح لديهم صحته ، فيضمِّنوه فى نسخهم التى يرويها عنهم تلاميذهم . ذلك فى الدواوين المفردة ، فهل الأمر نفسه فى دواوين القبائل ؟

إن بين أيدينا ثلاثة أخبار يحسن بنا أن نعرضها ولاءً لنستبين دلالتها :

الأول : ما ذكره أبو العباس ثعلب قال[1] : « جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها : الوليدُ بن يزيد بن عبد الملك ، وردَّ الديوان إلى حماد وجناد » .

والثانى : ما ذكره حماد نفسه قال[2] : « أرسل الوليد بن يزيد إلىَّ بمائتى

---

(١) الفهرست : ١٣٤ .

(٢) الأغانى ٦ : ٩٤ .

دينار ، وأمير يوسف بن عمر بحمل إليه على البريد . قال ، فقلت : لا يسألني إلا عن طرفيه : قريش وثقيف ؛ فنظرت في كتابيْ قريش وثقيف ، فلما قدمت عليه سألني عن أشعار بليّ ، فأنشدته منها ما استحسنه . . »

والثالث : ما ذكره ابن النطاح من أن حماداً عثر على ديوان فيه « جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد فاستحلاه وتحفّظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك[1] . . . . . »

ومهما تكن قيمة هذه الأخبار ، ومهما يكن مدى الثقة في صحتها ، فإن لها — لا شك — دلالتها التي تتسق مع ما قدمنا ، في مواطن متفرقة ، عن انتشار التدوين واتصاله في تلك الحقبة . ودلالة هذه الأخبار في أنها تصل دواوين القبائل بالدواوين المفردة — التي تحدثنا عنها — في قِدَم تدوينها ، فهي تدل على أن كتب القبائل كانت مكتوبة مدونة قبل مطلع القرن الثاني الهجري ، وأن العلماء الرواة من رجال الطبقة الأولى — في القرن الثاني — قد وصلتهم هذه المدونات من القرن الأول الهجري ، فاعتمدوها مصدراً من مصادر تدوينهم نسختهم الخاصة التي نُسبت روايتها إليهم .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الوليد بن يزيد لم يكن وحده الذي عُني بجمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها ، وإنما شاركه في كل ذلك بعض خلفاء بني أمية ، وخاصة عبد الملك بن مروان ومن قبله معاوية بن أبي سفيان ؛ وأن هؤلاء الخلفاء كانوا — كما مر بنا — يطلبون من رواة الشعر والأخبار ، من تعمر بهم مجالسهم الخاصة والعامة ، وأنهم كانوا يأمرون غلمانهم وكتّابهم بكتابة ما ينشده هؤلاء الرواة والعلماء من الشعر وما يقصونه من الأخبار [2] ؛ إذا أضفنا هذا إلى ما قدمنا رجحت لدينا صحة الأخبار الثلاثة التي ذكرناها ، ورجح عندنا أن هذه الدواوين كانت مدونة في القرن الأول نفسه . ونكون بذلك قد

---

(١) الأغاني ٦ : ٨٧ .

(٢) انظر ص : ١٩٦ — ٢٠٢ من هذا الكتاب .

نصبنا المعلم الثانى الذى نستأنس به فى سبيل بحثنا هذا .

وبقى معلم ثالث إذا أقمناه ، استقام لنا وجه الطريق ، وانتهى عنده مطافنا ، هذا المعلم الثالث قوامه خبران ، أو خبر ونص شعرى :

١ ــ أما الخبر ففيه تأييد لما قدمناه من أمر عثور حماد على جزء من شعر الأنصار ، وذلك أن أبا الفرج الأصفهانى يروى عن شيوخه فى إسناد طويل قوله[١]: « نهى عمر بن الخطاب الناس أن ينشدوا شيئاً من مناقضة الأنصار ومشركى قريش ، وقال : فى ذلك شتم الحى بالميت وتجديد الضغائن ، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الإسلام » . ثم يروى لنا فى خبر طويل أن عبد الله بن الزِّبَعْرَى السهمىّ وضرار بن الخطاب الفهرىّ أنشدا حسان بن ثابت شعراً مما كانا قالاه قبل الإسلام ، فشكاهما حسان إلى عمر . . . وكان من نتيجة ذلك أنْ قال عمر لمن حضر مجلسه : « إنى كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً دفعاً للتضاغن عنكم وبث القبيح فيما بينكم ، فأما إذ أبوا ، فاكتبوه واحتفظوا به » قال : « فدوّنوا ذلك عندهم . قال خلاد بن محمد : فأدركته والله وإن الأنصار لتجدده عندها إذا خافت بلاه » .

٢ ــ أما النص الشعرى ، فقول بشر بن أبى خازم ــ وهو شاعر جاهلى لم يدرك الإسلام ــ قال[٢] :

وَجَدْنَا فِى كِتَابِ بَنِى تَمِيمٍ : « أَحَقُّ الخَيْلِ بالرَّكْضِ المُعَارُ »

وقد تحدثنا عن هذا البيت ، وعن ترقيمنا إياه ووضعنا شطره الثانى بين علامتى اقتباس ــ فى الباب الثانى من هذا البحث [٣] . ولكننا نحب أن نضيف إلى قولنا السابق شيئاً جديداً ، وهو : أن بعض الباحثين قد شك فى هذا البيت ،

---

(١) الأغانى ٤ : ١٤٠ ــ ١٤١ .

(٢) المفضليات : ٩٨ .

(٣) انظر ص : ١٦٣ ــ ١٦٤ من هذا الكتاب .

فقد كتب جولدتسيهر فى مجلة الجمعية الآسيوية الملكية — عدد إبريل سنة ١٨٩٧ — يقول[1]: «ولا بد أن كتاب بنى تميم — الذى وجهت الأنظار إليه فى مناسبة سابقة — قديم جداً، ومع ذلك فإن هذه العبارة من شعر بشر التى يذكر فيها هذا الكتاب، إذا كانت تشير حقيقة إلى مجموعة مدونة عن مآثر بنى تميم وأشعارها، تجعل نسبة البيت إلى بشر بن أبى خازم واهية الأساس. فليس من المحتمل — بل من المستحيل — أن توجد مثل هذه المجموعة فى عصر مبكر كهذا العصر الذى عاش فيه بشر».

ولا نحب أن نطيل فى الحديث عن هذا البيت، غير أننا لا نملك أنفسنا من أن نلحظ أن كلام جولد تسيهر ليس إلا افتراضاً لم يقدم عليه دليلاً، ولم يدعمه بما يقيمه؛ وأن الأساس الوحيد الذى بنى عليه هذا الافتراض هو أنه «ليس من المحتمل — بل من المستحيل — أن توجد مثل هذه المجموعة فى عصر مبكر كهذا العصر الذى عاش فيه بشر». وقد قلنا من قبل، فى إسهاب وتفصيل، إن هذا الأساس واهٍ لأنه يعتمد على فكرة شاعت بين جمهرة الباحثين من العرب والمستشرقين، وهى: أن الجاهلية كانت أمية جاهلة — وهو ما سميناه «تجهيل الجاهلية». وقد بينا خطأ هذه الفكرة بما يغنى عن إعادة القول فيها. وقد قصدنا أن نؤخر الحديث عن هذا البيت، وأن نقدم الحديث عن الأخبار والنصوص التى تحدثنا عنها قبله، مبتدئين بالحقبة الواضحة بعض الشىء وهى النصف الثانى من القرن الثانى — ثم نعود أدراجنا إلى الوراء: إلى العصر الأموى، ثم عصر صدر الإسلام، ثم العصر الجاهلى نفسه، نقول: قصدنا أن نسير فى هذه السبيل حتى نمهد بين يدى هذا النص بأخبار وروايات تكشف عن اتصال تدوين هذه الكتب الشعرية، وحتى يبدو هذا البيت متصلاً اتصالاً طبيعياً بما تدل عليه تلك الأخبار. ثم إنه من التأويل الواهى الذى لا سند له يدعمه أن

(١) انظر ترجمة المقال بقلم الدكتور حسين نصار فى مجلة الثقافة عدد ٦٣٣، ١٢ فبراير سنة ١٩٥١.

يشك فى أن لفظة «كتاب» فى هذا البيت «تشير حقيقة إلى مجموعة مدونة من مآثر بنى تميم وأشعارها»، وذلك لأن اللفظة صريحة واضحة وقد فهمها الأقدمون أيضاً على وجهها الصحيح، فقال المرزبانى بشرح بيت بشر بعد أن أورده، قال[1]: «ومعناه: وجدنا هذه اللفظة مكتوبة».

ومع ذلك فقد أوضحنا من قبل أنه ليس من منهجنا فى هذا البحث أن نعتسف الطريق اعتسافاً، ولا أن نحمّل النصوص فوق ما تحتمل، بل إن منهجنا يقوم على جمع مادة البحث وتتبع نصوصه، ثم ترتيب هذه النصوص، واستنطاقها واستخراج دلالاتها.

ونحسب أننا غير مغالين — بعد أن جمعنا هذه النصوص ورتبناها واستنبطنا منها دلالاتها — إذا ذهبنا إلى أن العلماء الرواة فى القرن الثانى قد كانت بين أيديهم دواوين القبائل مكتوبة مدونة، وأنهم اعتمدوا هذه المدونات مصدراً من مصادر تدوينهم نسختهم الخاصة من كتب القبائل التى نسبت بعد روايتها إليهم. ونحسب أننا كذلك غير مغالين إذا رجحنا — مجرد ترجيح، ولكنه ترجيح قوى تدعمه الأخبار والنصوص التى قدمناها — أن هذه المدونات التى وصلت إلى علماء القرن الثانى قد كتب بعضها منذ مطلع القرن الأول ولعل بعضها الآخر قد كتب منذ الجاهلية نفسها.

٣

أما شعر هذيل — وهو الديوان الوحيد الذى وصل إلينا من دواوين القبائل — فنحب، قبل الحديث عن رواياته ونسخه، أن نبدأ بالحديث عن عدد ما فيه من الشعراء وأبيات الشعر، ومدى موافقته لما رواه لنا العلماء. فقد قال

(١) الموشح: ١٧٩.

أبو سعيد[١]: « قيل لحسان بن ثابت الأنصارى – رضى الله عنه – : أى الناس أشعر ؟ فقال : رجل بأذنه ، أم قبيل بأسره ؟ قال : هذيل فيهم نيف وثلاثون شاعراً أو نحو ذلك ، وبنو سنان مثلهم مرتين ليس فيهم شاعر واحد » . فإذا كان المقصود من هذه العبارة أن جميع من رُوى له شعرٌ من هذيل « نيف وثلاثون شاعراً أو نحو ذلك » ، يكون ديوان هذيل الذى بين أيدينا قد ضم بين دفتيه جميع هؤلاء الشعراء ، إذ أن الشعراء الهذليين فيه نحو أربعين شاعراً . غير أن أكثر من نصفهم قد رُوى لكل منهم أقل من خمسة وعشرين بيتاً ، بل إن بعض هؤلاء لم يُروَ له إلا بيتان أو ثلاثة أو أربعة . أما الشعراء الذين تجاوز شعرهم مائة بيت فسبعة فقط . وإذ كان غير محتمل أن يسمّى حسان – فى عبارته المتقدمة – من لم يقل إلا البيتين أو الثلاثة أو الأربعة – شاعراً ، فنحن إذن بين اثنتين : إما أن يكون عدد الشعراء كاملاً أو مقارباً ، ولكن ما روى لهم من الشعر ناقص غير مستوفًى ؛ وإما أن يكون كثير من الشعراء لم يُذْكروا فى الديوان الذى بين أيدينا .

وكلا الأمرين ينتهيان بنا إلى نتيجة واحدة ، هى : أن ما بين أيدينا من شعر هذيل غير كامل . وثمة دليلان على ذلك – غير ما تقدم – أولهما : ما قيل عن الإمام الشافعى أنه [٢] « كان يحفظ عشرة آلاف بيت من شعر هذيل ، بإعرابها وغريبها ومعانيها » . والذى بين أيدينا من هذا الشعر – فى أطول رواياته – لا يكاد يبلغ ثلاثة آلاف بيت . ولعل قائل هذا القول لا يقصد بالعدد الذى ذكره إلى التعيين الدقيق ، وإنما قصد إلى كثرة ما كان يحفظه الشافعى من هذا الشعر ، ومع ذلك فإن الشعر الذى بين أيدينا سيبقى أقل من

(١) ديوان الهذليين (ط . دار الكتب) ٢ : ٣٨ ، والكنية « أبو سعيد » مبهمة قد تعنى السكرى ، وقد تعنى الأصمعى ! !

(٢) ابن حجر : توالى التأسيس بمعالى ابن إدريس ، المطبعة العامرة ببولاق سنة ١٣٠١ ص : ٥٩ .

نصف ما كان يحفظه الشافعي . وكان الشافعي إماماً في الحفظ والرواية ، وكان صحاب الأدب يأتونه فيقرأون عليه الشعر فيفسره ، وذكر الأصمعي أنه قرأ شعر هذيل عليه [1] .

والدليل الثاني أن بعض العلماء قد استدركوا ما فات السكريَّ ذكره من شعر هذيل ، ومنهم أبو الفتح عثمان بن جنّي (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) الذي ألف « كتاب التمام في تفسير أشعار هذيل مما أغفله أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري — رحمه الله — وحجمه خمسمائة ورقة بل يزيد على ذلك [2] » .

وقد طُبع ديوان هذيل في مجموعتين : الأولى في أوربا ، والثانية في مصر .

الطبعة الأوربية : أما الطبعة الأوربية ، فقد جاءت في أربع مجموعات :

١ — « شرح أشعار الهذليين صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري » ، طبعت في لندن سنة ١٨٥٤ م ، وقد حققها وقدم لها بمقدمة قصيرة باللغة الإنجليزية المستشرق جودفري كوزجارتن .

٢ — « أشعار الهذليين ما بقي منها في النسخة اللغدونية غير مطبوع » ، طبعت في برلين سنة ١٨٨٤ م ، وفيها تعليقات وترجمة للشعر باللغة الألمانية للمستشرق فلهاوزن .

٣ — « ديوان أبي ذؤيب » ، وهو الجزء الأول من « مجموع دواوين من أشعار الهذليين » اعتنى بنشره واستخراجه لأول مرة المستشرق الألماني يوسف هل ، وطبعه في هانوفر سنة ١٩٢٦ .

٤ — « أشعار ساعدة بن جُؤَيَّة وأبي خراش والمتنخل وأسامة بن الحارث » ، وهو الجزء الثاني من « مجموعة أشعار الهذليين » ، اعتنى بنشرها كذلك يوسف هل وطبعها في ليبزج سنة ١٩٣٣ .

وقد طُبعت المجموعتان الأولى والثانية عن نسخة مخطوطة مضبوطة قديمة

---

(١) المزهر ١ : ١٦٠ .

(٢) ياقوت ، إرشاد ١٢ : ١٠٩ .

مخطوطة فى ليدن كتبت فى سنة ٥٢٩ – ٥٣٩ ﻫ ، كتبها محمد بن على بن إبراهيم ابن زبرج العتّابى (ولد سنة ٤٨٤ وتوفى سنة ٥٥٦ ، وكان إماماً فى النحو وعلوم العربية مشهوراً بجودة الخط مع الصحة والضبط ، قرأ النحو على أبى السعادات ابن الشجرى ، واللغة على الجواليقى)[١]. وقد نقلها من نسخة بخط السمسمى (هو أبو الحسن على بن عبيد الله بن عبد الغفار ، كان صدوقاً صاحب خط متقن مرغوب فيه لتحقيقه ، تصدر ببغداد للرواية وأقرأ الأدب. توفى سنة ٤١٥)[٢]. وذكر العتابى فى آخر المخطوطة أنه قابلها أيضاً بنسخ أخرى ، منها نسخة بخط شيخه الجواليقى ، ونسخة بخط الحميدى[٣] .

وقد روى هذه النسخة أبو الحسن على بن عيسى بن على بن عبد الله الرمّانى (كان فى طبقة الفارسى والسيرافى ، وأخذ عن الزجّاج وابن السراج وابن دُريد ، ولد سنة ٢٩٦ وتوفى سنة ٣٨٤)[٤] ، عن أبى بكر أحمد بن محمد بن عاصم الحلوانى (بينه وبين أبى سعيد السكرى نسب قريب ، فروى عنه كتبه وكانت كثيراً ما توجد بخطه)[٥] ، عن أبى سعيد الحسن بن الحسين السكرى (المتوفى سنة ٢٧٥) .

فهذه النسخة إذن تنتهى فى روايتها إلى السكرى ، غير أنها ناقصة ، والموجود منها هو الجزء الثانى فقط ، وهو المطبوع فى لندن سنة ١٨٥٤ م ، وفى برلين سنة ١٨٨٤ م .

ولهذه النسخة قيمة كبيرة لمن يدرس تاريخ الرواية وتسلسل الإسناد فى الشعر ، وهى تكشف ، فى وضوح ، عن طريقة السكرى فى الجمع بين الروايات المختلفة ، والنص عليها . وتظهر لنا صدق الأقدمين فى وصفهم السكرىّ بأنه

---

(١) إرشاد ١٨ : ٢٥١ .
(٢) إنباه الرواة ٢ : ٢٨٨ .
(٣) انظر وصف المخطوطة فى مقدمة « شرح أشعار الهذليين » ص : ٤ .
(٤) نزهة الألباء : ٢١٠ – ٢١١ ، وإنباه الرواة ٢ : ٢٩٤ .
(٥) ياقوت ، إرشاد ٤ : ١٨٧ – ١٨٨ ، وإنباه الرواة ١ : ٩٨ .

كان الغايةَ في الجمع . وتفصيل ذلك أننا وجدنا — بعد دراسة النسخة — أن السكري قد اعتمد — في جمعه ديوان هذيل — على ثلاث روايات ، هي الروايات التي نص عليها نصًّا صريحاً في مطلع ديوان أبي ذؤيب ، وهي :

(ا) رواية بصرية : الرياشيّ ، عن الأصمعي ، عن عمارة بن أبي طرفة الهذلي [1] .

(ب) ورواية كوفية : محمد بن حبيب ، عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني .

(حـ) ورواية جمعت بين الروايتين : محمد بن الحسن الأحول [2] ، عن عبد الله بن إبراهيم الجمحي [3] .

ومع أن السكري قد جمع بين هذه الروايات المختلفة إلا أنه كان حريصاً في جمعه على ألا تضيع معالم كل رواية وعلى ألا تختلط بغيرها — فنصَّ من أجل ذلك على كل قصيدة انفرد بها بعض هؤلاء الرواة دون غيرهم ، وترك القصائد التي أجمعوا جميعاً عليها من غير أن ينص على روايتها ، وحسبنا أمثلة قليلة توضح ذلك :

(ا) فقد أورد تسعة عشر بيتاً لمالك بن الحارث ، اتفق الرواة جميعاً على نسبة الأبيات التسعة الأولى منها له ثم اختلفوا بعد ذلك ، فمنهم من جعل بقيتها قصيدة منفصلة نسبوها لتأبط شرًّا يرد بها على مالك بن الحارث ، ومنهم من جعلها كلها قصيدة واحدة منسوبة إلى مالك ، ولذلك قال السكري عند البيت التاسع منها [4]

---

(١) لم نعثر لعمارة هذا على ترجمة في كتب الطبقات والرجال ، غير أن الأصمعي قد روى عنه أخباراً وشعراً ، (انظر : ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ : ٦٨ ، والشعر والشعراء ١ : ٢٧١) .

(٢) في ديوان أبي ذؤيب ط هانوفر ص ١ «محمد بن الحسن» فقط ، وقد استقصينا من اسمه محمد بن الحسن ممن يصح أن يروي عنه السكري ، فرجحنا أنه : محمد بن الحسن بن دينار الأحول ، وهو ممن جمع بين المذهبين وخلطهما (ابن النديم : الفهرست : ١١٧) وكان العلماء يقرأون عليه دواوين الشعراء في سنة خمسين ومائتين (ياقوت : إرشاد ١٨ : ١٢٥) وجمع دواوين مائة وعشرين شاعراً (المصدر السابق ١٨ : ١٢٦) .

(٣) ذكره الجاحظ في الحيوان ٥ : ٥٨٧ ، وروى عنه خبراً حدثه به .

(٤) شرح أشعار الهذليين ط . لندن ص : ٤ .

« هذا آخرها في رواية الجمحي وأبي عبد الله ، قالا : فأجابه تأبط شرًّا الفهمي ثم العدوي ؛ وأما أصحاب الأصمعي فيجعلونها قصيدة واحدة ويروونها لمالك ابن الحارث إلى آخرها » .

(ب) وأورد قصيدة لحبيب الأعلم ، وقال في مقدمتها[١] : « لم يروها أبو نصر ، ولا أبو عبد الله ، ولا الأخفش ورواها الباهلي والجمحي » .

(ح) وأورد قصيدة لساعدة بن العجلان ، وقال في مقدمتها[٢] : « رواها الأصمعي ، ولم يروها ابن الأعرابي » .

(د) وأورد عشرة أبيات لساعدة بن العجلان ، قال عند البيت السادس منها[٣] : « هذا آخرها في رواية الأصمعي ، والباقي عن الجمحي والباهلي ونصران وأبي عمرو ، قال أبو نصر : لم يرو الأصمعي من هاهنا إلى آخرها » .

(هـ) وأورد قصيدة لأبي جندب ، قال عند البيت الرابع منها[٤] : « هذا أولها عند أبي عبيدة » .

(و) وأورد قصيدة لأبي جندب أيضاً قال في مقدمتها[٥] : « رواها الأصمعي ، ولم يروها ابن الأعرابي ولا أبو عمرو ولا الجمحي » .

(ز) وقصيدة أخرى لأبي جندب قال في مقدمتها[٦] : « قال الأصمعي : وتروى لأبي ذؤيب » .

(ح) وقصيدة رابعة لأبي جندب قال في مقدمتها[٧] : « لم يروها أبو عبد الله ولا أبو نصر ولا الأخفش ، ورواها نصران والجمحي » .

---

(١) شرح أشعار الهذليين : ٦٦ .
(٢) المصدر السابق : ٧٠ .
(٣) المصدر السابق : ٧٧ .
(٤) المصدر السابق : ٨٠ .
(٥) المصدر السابق : ٨٣ .
(٦) المصدر السابق : ٩٤ .
(٧) المصدر السابق : ٩٦ .

والأمثلة على ذلك كثيرة ليس من غايتنا استقصاؤها ، وإنما بحسبنا أمثلة توضح ما ذكرنا . وقد بالغ السكرى فى التحرى والتحقيق ، فلم يكتف بالنص على رواية القصيدة فى جملتها ، وإنما زاد على ذلك أن نص على رواية الأبيات التى اختلفوا عليها ؛ فكان يذكر البيت — فى القصيدة — ثم ينص على أن فلاناً لم يروه ، وأن فلاناً رواه ، فمن ذلك :

(ا) أنه أورد بيتاً فى قصيدة لصخر الغى ثم قال[1] : « لم يرو هذا البيت والبيتين بعده الأصمعى ، ورواها الجمحى وابن الأعرابى » .

(ب) وأورد بيتاً فى قصيدة أخرى لصخر أيضاً ، ثم قال [2] : « رواه أبو عبد الله والجمحى » .

(حـ) وأورد بيتاً لأبى المثلّم ، ثم قال[3] : « لم يرو هذا البيت والبيتين اللذين بعده أحد غير الباهلى عن الأصمعى ، ولم يرو هذا أبو عمرو ولا أبو عبد الله ولا أبو نصر ولا الأخفش » .

(د) وأورد بيتاً فى قصيدة لصخر الغىّ ، وقال[4] : « لم يرو هذا البيت والبيت الذى بعده الأصمعى وأبو عبد الله » .

(هـ) وأورد بيتاً فى قصيدة لأبى المثلم ، وقال[5] : « رواه الجمحى وأبو عمرو وأبو عبد الله » .

(و) وذكر بيتاً آخر من القصيدة نفسها وقال[6] : « لم يروه والبيت الذى بعده إلا أبو عمرو وأبو عبد الله والجمحى » .

(ز) وأورد أرجوزة لصخر الغىّ قال عنها[7] : « وروى الأصمعى من

---

(١) شرح أشعار الهذليين : ١٦ .

(٢) المصدر السابق : ١٩ .

(٣) المصدر السابق : ٢١ .

(٤) المصدر السابق : ٢٥ .

(٥) المصدر السابق : ٢٧ .

(٦) المصدر السابق : ٣٠ .

(٧) المصدر السابق : ٣٢ .

هذه الأرجوزة ثلاثة أبيات عليها صح صح ، وسائرها عن أبى عبدالله والجمحى ».

(ح) وقال عن بيت فى قصيدة أخرى لصخر[١] : « لم يروه الأصمعى ورواه أبو عبد الله والجمحى » .

(ط) وقال عن بيت آخر فى القصيدة نفسها[٢] : « لم يروه إلا عبد الله وأبوعمرو والجمحى » .

(ى) وأورد بيتاً فى قصيدة لعامر بن العجلان ثم قال[٣] : « لم يروه والبيت الذى بعده الأصمعى ، ورواهما أبو عمرو والجمحى وأبوعبد الله » .

(ك) وأورد بيتاً فى قصيدة لأبى جندب ثم قال [٤] : « لم يروه أبو عبد الله ولا أبو نصر ولا الأخفش ورواه الجمحى وأبوعمرو والأصمعى . . »

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً أيضاً ، وقد اجتزأنا منها بما قدمنا ، وما نحسبها إلا واضحة الدلالة على ما ذكرناه من مبالغة السكرى فى التحرى والتحقيق ، بل إن السكرى لم يكتف بالنص على رواية القصيدة فى جملتها ، ولا بالنص على رواية الأبيات التى اختلف عليها الرواة ، وإنما ذهب إلى أبعد من ذلك فى تحريه ودقته ، فقد نص ، فى داخل البيت نفسه ، على روايات ألفاظه المختلفة ، فذكر فى كثير من الأبيات رواية الأصمعى أو أبى عمرو أو ابن الأعرابى أو ابن حبيب أو الجمحى أو الأخفش لهذه اللفظة أو لتلك ، وما نحسب أن المجال هنا يتسع لعرض أمثلة من ذلك ، وبحسبنا أن نفتح كتاب « شرح أشعار الهذليين » على أية صفحة لنجد الأمثلة وافرة على ذلك .

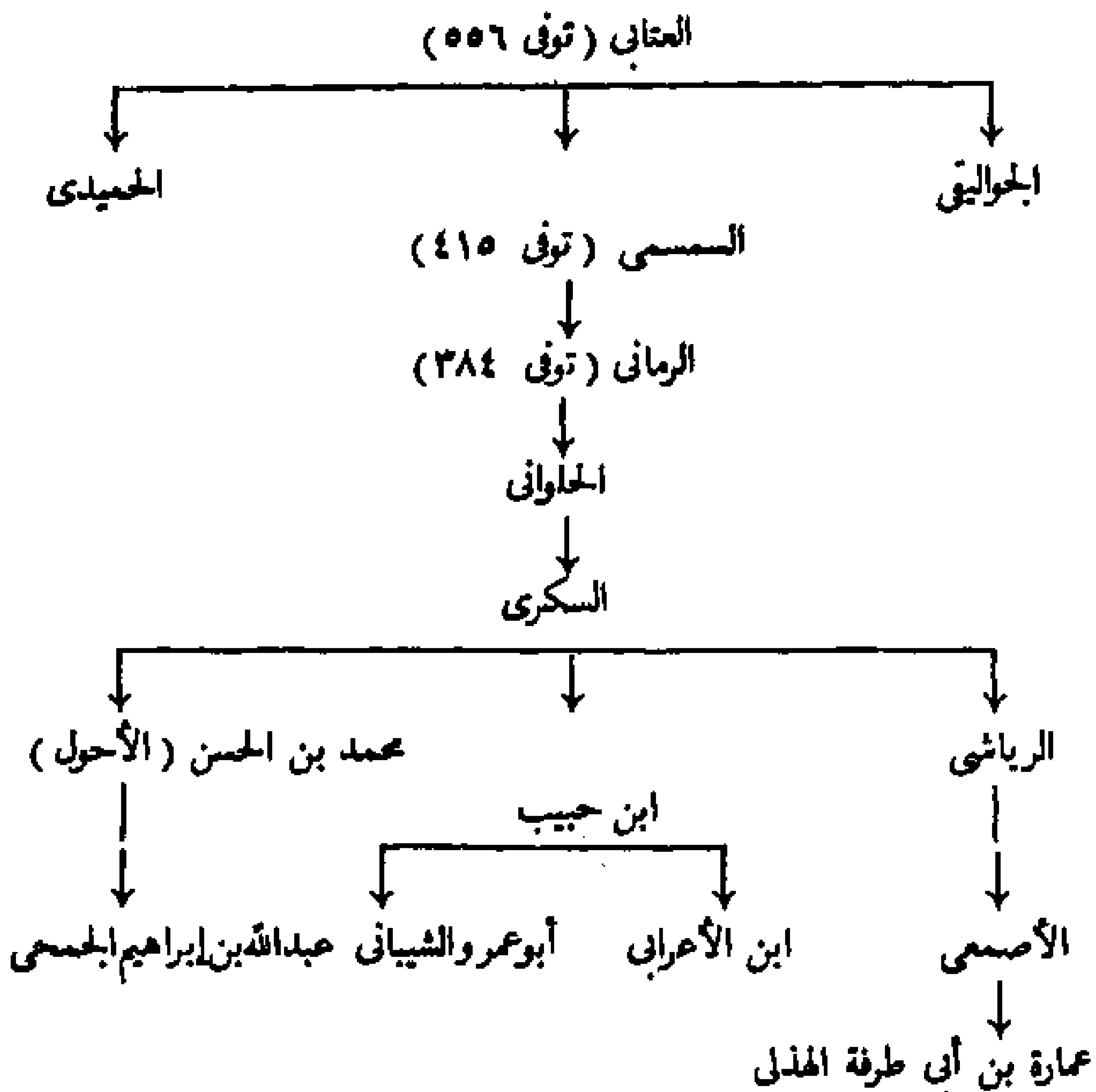
وقد قدم السكرى بذكره رواية الديوان فى مجموعه ، ثم رواية القصيدة فى جملتها ، ثم رواية الأبيات المفردة فى القصيدة الواحدة ، ثم رواية الألفاظ فى البيت الواحد — قدم السكرى بذلك كله للدارس مادة خصبة ، فيستطيع الدارس

---

(١) شرح أشعار الهذليين : ٤٧ .
(٢) المصدر السابق : ٤٨ .
(٣) المصدر السابق : ٥٠ .
(٤) المصدر السابق : ٨٧ .

المتتبع ، إذا اهتدى بضوء هذه الروايات ، أن يستخرج رواية الديوان البصرية : أى رواية الأصمعى ، ويفردها وحدها ، ويستطيع كذلك أن يستخرج رواية الديوان الكوفية : أى رواية ابن الأعرابى وأبى عمرو الشيبانى ، ويفردها وحدها ، ثم يثبت ما بينهما من اختلاف واتفاق ، وينتهى من كل ذلك إلى دراسة ممتعة لهذا الديوان .

ونحسب أننا نزيد الأمر وضوحاً إذا لخصنا إسناد هذه النسخة الثمينة ورواياتها فى الجدول الآتى :



وبعد ، فهذه هى النسخة الليدنية التى طُبعت منها المجموعتان الأولى والثانية من الطبعة الأوربية ، وأما المجموعة الثالثة ، وهى « ديوان أبى ذؤيب » التى طبعها

يوسف هل فى هانوفر سنة ١٩٢٦ ، فمع أنه طبعها عن نسخة فى دار الكتب – رقمها ١٩ أدب ش – إلا أن هذه النسخة أيضاً من رواية السكرى ، ونحن نرجح أنها منقولة عن النسخة الليدنية أو عن نسخة منقولة عنها ، فتكون بذلك جزءاً من القسم الأول المفقود من النسخة الليدنية ، وترجيحنا قائم على السببين التاليين :

(ا) أن السكرى يذكر فى مطلع الديوان الرواة الذين أخذ عنهم ، وهم أنفسهم الذين ذكرناهم فى النسخة الليدنية وكانوا ثلاثة أصناف : رواة بصريين : الرياشى عن الأصمعى عن عمارة بن أبى طرفة الهذلى ؛ ورواة كوفيين : ابن حبيب عن ابن الأعرابى وأبى عمرو الشيبانى ؛ ورواة جمعوا بين المذهبين : محمد بن الحسن (الأحول) عن عبد الله بن إبراهيم الجمحى .

(ب) جاء فى هذه النسخة أيضاً أنها أخذت عن نسخة الحلوانى ، وذلك قوله[1]: « ليس ذكر الأصمعى ها هنا فى كتاب الحلوانى » .

ومن أجل هذا كنا فى غنى عن أن نتحدث عن هذه النسخة إذ أن ما ذكرناه عن النسخة السابقة ينطبق عليها أيضاً .

وأما المجموعة الأخيرة من الطبعة الأوربية ، وهى « مجموعة أشعار الهذليين – الجزء الثانى » المطبوعة فى ليبزج سنة ١٩٣٣ بتحقيق يوسف هل ، وتشتمل على أشعار ساعدة ابن جؤية وأبى خراش والمتنخل وأسامة بن الحارث – فتفقة فى إيراد الشعر وترتيبه وشرحه مع ما ورد من أشعار هؤلاء الشعراء الأربعة فى طبعة دار الكتب ، ولذلك سنستغنى عن الحديث عنها بما سنورده من حديث عن هذه الطبعة .

طبعة دار الكتب :

وأما طبعة دار الكتب فمأخوذة من نسخة خطية محفوظة فى الدار برقم ٦ أدب ش ، مكتوبة بخط مغربى ، وكانت ملك الشيخ محمد الشنقيطى ، وقد كتب

(١) ديوان أبى ذؤيب : ٢٥ .

عليها « ملك هذا المجموع ... محمد محمود بن التلاميد الشنقيطي المدني ثم المكي ، ثم وقفه على عصبته بعده كسائر كتبه وقفاً مؤبداً ، فمن بدله أو غيره فإثمه عليه والله تعالى حسيبه ، وكتبه مالكه واقفه محمد محمود سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف » . وقد كتبت هذه النسخة من أصل بخط يحيي بن المهدي الحسيني كتبه سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة .

وفي أول الأصل هذه المقدمة « كتاب ديوان الهذليين ، وهو يشتمل على ثمانية أجزاء : خمسة منها من رواية أبي سعيد عن الأصمعي ، وهي الثاني والثالث والرابع والخامس والسابع . ولم نظفر من نسخة رواية أبي سعيد إلا بهذه الخمسة ، وضاع الثاني ، وهي ثلاثة من نسخة الأصل ، ثم وقفنا بعد ذلك على نسخة أخرى ليست من رواية أبي سعيد — وهي كتاب واحد غير مجزأ يخالف نسخة رواية أبي سعيد في الترتيب وفي رواية بعض الأشعار ونسبتها إلى قائليها ، فأخذنا ما وجدناه فيها مما ليس في رواية أبي سعيد ، وقسمناه إلى ثلاثة أجزاء وهي : الأول والسادس والثامن ، وجعلناه تماماً لهذه النسخة ، وألحقنا كل شيء من ذلك بموضعه اللائق به حسبما أمكن ، وبالله تعالى التوفيق » .

ومع اختلاط هذه النسخة وتداخلها فإن الشرح فيها مختصر موجز ، والرواية قليلة لا تكاد تسعف الدارس ، وذكر أبي سعيد فيها فيه لبس وإبهام ، فهو أحياناً أبو سعيد السكري ، كما في قوله[1] : « قال أبو سعيد . . . وحدثني الرياشي قال : قال الأصمعي . . . » ، وأحياناً أخرى أبو سعيد عبد الملك ابن قُرَيب الأصمعي ، ونستدل على ذلك ممن يروي عنهم ، وذلك مثل قوله[2] : « وأنشدنا أبو سعيد . . . قال : وأنشدنا أبو عمرو بن العلاء » ، وكثيراً ما يورد شروحاً أو استشهادات شعرية يرويها عن أبي عمرو بن العلاء . ومثل قوله[3] : « وجمعت

---

(١) ديوان الهذليين ٢ : ٢٣٦ .

(٢) المصدر السابق ١ : ٢١٥ .

(٣) المصدر السابق ١ : ١٨٧ و ٢ : ٩٢ .

عيسى بن عمر يقول » ، أو « حدثنى عيسى بن عمر »[١] ، وقوله[٢] : « قال أبو سعيد : حدثنا شعبة عن سماك بن حرب » . وقوله[٣] : « قال أبو سعيد : سألت ابن أبى طرفة عن هذا فلم يعرفه ، ولم يكن عند أبى عمرو فيها إسناد » ؛ وقوله[٤] : « قال أبو سعيد . . . وأنشدنا المذلى » .

فهذه كلها قاطعة الدلالة على أن أبا سعيد هنا هو الأصمعى . وهذه الأمثلة التى قدمناها تكشف عن المصادر التى استقى منها الأصمعى وروى عنها . غير أننا لا نريد أن نمضى فى دراسة هذه النسخة بأكثر من هذا فقد أغنتنا عنها النسخة الليدنية التى درسناها آنفاً .

(١) ديوان الهذليين ١ : ١٤٩ ، ١٨٧ .
(٢) المصدر السابق ١ : ٢١٣ .
(٣) المصدر السابق ١ : ١٥٩ .
(٤) المصدر السابق ٣ : ١٧ .

الفصل الثالث

المختارات

١

أما مختارات الشعر العربي فأقدم ما وصل إلينا منها المجموعة التي اختارها المفضل بن محمد الضبي — رأس علماء الكوفة في عصره — والتي عرفت بالمفضليات. ولم يبلغنا أن أحداً قبل المفضل اختار شيئاً من الشعر وجمعه في مجموعة مستقلة — إلا ما قدمناه من أمر المعلقات.

وتحتوي المفضليات التي بين أيدينا على مائة وست وعشرين قصيدة — أضيف إليها أربع قصائد وجدت في إحدى النسخ — لسبعة وستين شاعراً، منهم ستة شعراء إسلاميون، وأربعة عشر مخضرمون، والباقون وهم سبعة وأربعون شاعراً جاهليون لم يدركوا الإسلام.

ويبدو أن كثيرين من تلامذة المفضل رووا هذه المختارات عنه، ولذلك اضطربت روايتها بعض الشيء، وأصح رواياتها هي التي رواها أبو عبد الله محمد ابن زياد الأعرابي — تلميذ المفضل وربيبه، قال ابن النديم [1] «وهي مائة وثمانية وعشرون قصيدة، وقد تزيد وتنقص، وتتقدم القصائد وتتأخر بحسب الرواية عنه، والصحيحة التي رواها عنه ابن الأعرابي . . .». ولم يشرح المفضل هذه المختارات، إذ أن المعروف عنه أنه «إنما كان يروي شعراً مجرداً، ولم يكن بالعالم بالنحو ولا كان يشدو منه شيئاً [2]»، «وكان يقول: إني لا أحسن شيئاً

(١) الفهرست : ١٠٢ .

(٢) مراتب النحويين : ١١٥ .

من الغريب ولا من المعاني ولا تفسير الشعر»(١) .

وما في هذه المفضليات من شرح إنما صنعه أبو محمد القاسم بن محمد ابن بشار الأنباري (المتوفى سنة ٣٠٤) وقد أخذها إملاءً مجلساً مجلساً عن أبي عكرمة عامر بن عمران الضبي (المتوفى سنة ٢٥٠) ، وأخذها أبو عكرمة عن ابن الأعرابي (المتوفى سنة ٢٣٢) ؛ ولم يكتف أبو محمد ابن الأنباري بذلك ، وإنما كان يرجع إلى علماء آخرين مثل : أبي عمرو بندار الكرخي ، وأبي بكر العبدي ، وأبي عبد الله محمد بن رستم ، وأبي الحسن علي بن سنان الطوسي ، فيسألهم عن الشيء بعد الشيء منها ؛ فلما فرغ منها كلها عرضها على أبي جعفر أحمد ابن عبيد بن ناصح (المتوفى سنة ٢٧٣) وقرأها عليه : شعرها وغريبها . فلما تمّ له ذلك أقرأها تلامذته ، فكان ممن قرأها عليه ابنه أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري ، وقرأها على أبي بكر هذا أبو بكر أحمد بن محمد الجراح الخزاز ؛ وبذلك تمت لهذه المجموعة روايتها في إسناد متصل من ابن الجراح إلى المفضل الضبي . وقد فُصِّل ذلك كله تفصيلاً دقيقاً في مطلع النسخة التي بين أيدينا ، وهذا نصه «أخبرنا أبو بكر أحمد بن محمد الجراح الخزاز قراءةً عليه ، قال : حدثنا أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري ، قال : قرأت على أبي هذا الكتاب : الشعرَ والتفسيرَ ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلم كثيراً سرمداً دائماً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . قال أبو محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري : أملى علينا عامر بن عمران أبو عكرمة الضبي هذه القصائد المختارة المنسوبة إلى المفضل بن محمد الضبي إملاءً مجلساً مجلساً من أولها إلى آخرها ، وذكر أنه أخذها عن أبي عبد الله محمد بن زياد الأعرابي ، وذكر أنه أخذها عن المفضل الضبي . قال أبو محمد : وكنت أسأل أبا عمرو بندار الكرخي ، وأبا بكر العبدي ، وأبا عبد الله محمد بن رستم ، والطوسي وغيرهم ، عن الشيء

(١) مراتب النحويين : ١٠٤ .

بعد الشيء منها ، فيزيدوننى على رواية أبى عكرمة البيتَ والتفسيرَ ، وأنا أذكر ذلك فى موضعه إن شاء الله . فلما فرغنا منها صرت إلى أبى جعفر أحمد بن عبيد بن ناصح فقرأتها عليه من أولها إلى آخرها شعرها وغريبها ، فأنكر على أبى عكرمة أشياء أنا مبيّنها فى مواضعها ومُسند إلى أبى جعفر ما فسّر وروى فى موضعه إن شاء الله ؛ والمعين الله جل وعز والحول له والقوة به . ونعود الكتاب على نسق أبى عكرمة وروايته » .

ومع هذا الإسناد ، والرواية الكاملة ، والتحقيق والاستقصاء اللذين بلغا الغاية فى الدقة ، فإن هذه المجموعة من المختارات لم تسلم مَن الشك فى عدد قصائدها وفى أنها جميعاً مما روى المفضل . وتفصيل ذلك : أن أبا على القالى قال[1] : « وقرأت على أبى الحسن على بن سليمان الأخفش فى المفضليات قصيدة عبديغوث بن وقاص الحارثى ... وقال أبو الحسن على بن سليمان : حدثنى أبو جعفر محمد بن الليث الأصفهانى قال : أملى علينا أبو عكرمة الضبى المفضليات من أولها إلى آخرها ، وذكر أن المفضل أخرج منها ثمانين قصيدة للمهدى ، وقرئت بعدُ على الأصمعى فصارت مائة وعشرين . قال أبو الحسن : أخبرنا أبو العباس ثعلب : أن أبا العالية الأنطاكى والسدرى ، وعافية بن شبيب — وهؤلاء كلهم بصريون من أصحاب الأصمعى — أخبروه أنهم قرأوا عليه المفضليات ، ثم استقرأوا الشعر فأخذوا من كل شاعر خيار شعره ، وضموه إلى المفضليات ، وسألوه عما فيه مما أشكل عليهم من معانى الشعر وغريبه فكثرت جداً » .

ونحن نرى من هذا النص أموراً ، منها : أن ثمة تلميذاً غير أبى محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنبارى ، أخذ المفضليات إملاءً عن أبى عكرمة ، وهو أبو جعفر محمد بن الليث الأصفهانى . وأن أبا جعفر هذا قال إن أبا عكرمة ذكر أن أصل المفضليات التى اختارها المفضل ثمانون قصيدة فقط ، ثم قرئت

---

(١) الأمالى ٣ : ١٢٠ .

على الأصمعي فصارت مائة وعشرين . ثم إن ثعلباً روى عن ثلاثة من أصحاب الأصمعي أنهم قرأوا عليه المفضليات ، وأنهم بعد ذلك استقرأوا الشعر فأخذوا من كل شاعر خيار شعره وضموه إلى المفضليات ــ وسألوا الأصمعي عن معانيه وغريبه ، وبذلك كثرت المفضليات جداً .

فإذا صحت هذه الرواية ، فمعنى ذلك أن ثلثي القصائد المذكورة في هذه المجموعة فقط من اختيار المفضل ، وأن سائرها من الزيادات التي أضافها الأصمعي وتلاميذه . غير أن في هذا الخبر ما يستوقف الباحث ، وذلك أن أبا محمد القاسم ابن محمد بن بشار الأنباري قد أخذ هذه المفضليات إملاء مجلساً مجلساً عن أبي عكرمة الضبي ، فلو أن أبا عكرمة ذكر في مجالسه « أن المفضل أخرج ثمانين قصيدة للمهدي ، وقرئت بعدُ على الأصمعي فصارت مائة وعشرين » لسمعها ابن الأنباري ــ كما سمعها محمد بن الليث الأصفهاني فيما روى الأخفش ــ ولأثبتها في هذه المقدمة المفصلة التي بيّن لنا فيها كيف أخذ المفضليات وشرحها . هذه واحدة ؛ ثم إن أبا عكرمة ذكر أنه أخذ هذه القصائد عن ابن الأعرابي ــ ما عدا ستًّا منها وهي في المطبوعة بتحقيق ليـّل رقم ٣ و١٣ و١٦ و ١٩ و ٣٠ و ٣٢ ، إذ أن ابن الأنباري لم يروها عن أبي عكرمة وإنما ذكر أنه رواها عن أبي جعفر أحمد بن عبيد بن ناصح ، وأبو جعفر هذا سمع ابن الأعرابي وأخذ عنه ــ وقد عاصر ابنُ الأعرابي الأصمعيّ ، ولكنه كان شديد العصبية للكوفيين ، ولشيخه المفضل خاصة ، خصماً للأصمعي كثير النيل منه والتنقص له . فإذا كانت هذه القصائد الست والعشرون كلها رواها ابن الأعرابي عن المفضل كما ذكر ابن الأنباري ؛ فإن من غير المحتمل أن يكون ابن الأعرابي قد روى ــ زيادة على ما اختاره المفضل ــ الإضافات التي زادها الأصمعي وتلامذته . هذه ثانية ؛ وأما الثالثة : فإن ابن النديم قد ذكر في كتابه (الذي كتبه سنة ٣٧٧) أن المفضليات[1] « مائة وثمانية وعشرون قصيدة . . . والصحيحة التي رواها عنه ابن الأعرابي » .

---

(١) الفهرست : ١٠٢ .

وقد تنبه ليبَل لكل ذلك وأورده في مقدمة طبعته من المفضليات [١] ، وانتهى من ذلك إلى قوله « ولهذه الأسباب يبدو أننا لا نستطيع أن نسلم بالخبر الذى رواه الأخفش ؛ ومع ذلك فإن هذه المسألة ليست مما يمكن حله حلاً قاطعاً ؛ أما مسألة صحة هذا الشعر ونسبة قصائده إلى قائليها ، فإن مكانة الأصمعى فى الرواية والحكم على مثل هذه الأمور لا تقل فى قيمتها وعلوها عن مكانة المفضل ».

ولكن يبدو أن الأستاذين أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون لم يطمئنا إلى ما اطمأن إليه ليبَل ، وإنما أعادا — فى طبعتهما للمفضليات — هذا الموضوع جذعاً ، فأكدا « أن هذه الثمانين هى أصل الكتاب عن المفضل ، لم يتجاوزها ، ثم قرئت على الأصمعى ، فأقرها وزادها قصائد ، وزاد فى بعض قصائدها أبياتاً ، واختار قصائد أخر . ثم جاء مَن بعد الأصمعى ، وزادوا فى القصائد — أصلها ومزيدها — أبياتاً دخلت فى روايتَى المفضل والأصمعى ، حتى اختلطت كلها ، فلم يكن ميسوراً أن يجزم جازم بما كان أصلاً وما كان مزيداً ، إلا قليلاً ، ونحن موقنون أن السبعين التى بُنِى عليها الكتاب ، والعشرة التى زادها المفضل ، ليست الثمانين الأولى من هذه المجموعة ، وإنما هى ثمانون قصيدة مفرقة فى الكتاب ، لا نوقن فى قصيدة بعينها أنها منها أو من غيرها إلا قليلاً أيضاً [٢] » .

وواضح أن هذا الكلام مأخوذ من الخبر الذى رواه الأخفش وأورده القالى فى أماليه ، ولكن الأستاذين المحققين ، قد بحثا بحثاً طويلاً ، فيه استقصاء دقيق ، عن أدلة يؤيدان بها هذا الخبر ، وأن قصائد من الأصمعيات أدخلت فى المفضليات . وقد فصلا القول فى ذلك فى مقدمة طبعتهما ، ولسنا بحاجة إلى أن نعيده هنا فليراجَع فى موطنه ؛ غير أننا قد نذكر بعضه موجزاً فى الحديث التالى .

---

(١) ص : ١٥ — ١٦ .

(٢) المفضليات ط . دار المعارف : ١٢ .

٢

أما الأصمعيات فالثتان وتسعون قصيدة ومقطعة [١] ، لواحد وسبعين شاعراً ؛ منهم ستة شعراء إسلاميون ، وأربعة عشر شاعراً مخضرمون ، وأربعة وأربعون جاهليون ، وسبعة مجهولون ليست لهم في المظان تراجم تكشف عن عصرهم .

وليس في النسخة الخطية التي طبع عنها وليم بن الورد الطبعة الأوربية ، ولا في النسخة الخطية المحفوظة في دار الكتب التي طبع عنها الأستاذان عبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر الطبعة المصرية — إسناد يكشف عن الرواية التي انتقلت بها هذه المختارات من الأصمعي . وذلك — في رأينا — عيب النسختين الخطيتين نفسهما ، أو عيب النسخة أو النسخ التي نقلت عنها هاتان النسختان ، وليس عيباً في تاريخ الرواية الأدبية ، لأننا قد رأينا حرص العلماء الرواة على ذكر الإسناد الذي انتقلت إليهم به الدواوين والمجموعات الشعرية ؛ ولو وصلت إلينا النسخ الأصلية القديمة التي كتبها العلماء أنفسهم لرأينا في كل نسخة — على عادتهم التي لا يشذون عنها — إسناداً متصلاً ، ورواية تامة يكونان مصدراً خصباً للدراسة والبحث .

أما إسناد الأصمعي عمن قبله ، فقد ذكرنا من قبل أن الأصمعي ومن في طبقته من علماء المدرستين : البصرية والكوفية ، كانوا الطبقة الأولى من الرواة العلماء ، وأن من بعدهم قد روى عنهم وأسند روايته حتى ارتفعت إليهم ثم انتهت عندهم ، وأنهم هم لم يكونوا يُسندون إلا في القليل النادر ، وأضفنا إلى ذلك أن إغفال الطبقة الأولى للإسناد لا يعني انقطاع الرواية ، بل لقد وضحنا أن الرواية كانت متصلة مسلسلة من آخر العصر الجاهلي وصدر الإسلام حتى

---

(١) ذلك عددها في الطبعة المصرية بتحقيق الأستاذين عبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر ، وأما الطبعة الأوربية بتحقيق وليم بن الورد فليس فيها إلا سبع وسبعون قصيدة ومقطعة .

زمن هؤلاء الرواة العلماء من رجال الطبقة الأولى ، لم تنقطع خلال هذا الزمن فترة مهما تكن قصيرة . وذكرنا فى مواطن متفرقة من هذا البحث أن مصادر هذه الطبقة الأولى من العلماء كانت ثلاثة : الصحف والمدونات التى وصلت إليهم من العصور السابقة ؛ والأخذ عن الشيوخ العلماء من رجال المدرسة الواحدة أو المدرستين معاً بالرواية الشفهية وبالقراءة وبالإملاء ، ثم الرواية عن الرواة من الأعراب. ثم قلنا إن هؤلاء العلماء كانوا يجمعون كل ذلك وينقدونه ويمحصونه ثم يبقون منه ما رجحت لهم صحته ، فيدونونه فى نسخهم الخاصة التى يرويها عنهم تلاميذهم .

ومع هذا كله ، فقد كان علماء الطبقة الأولى يسندون أحياناً ، وكذلك فعل الأصمعى فى بعض مختاراته هذه ، فنص فى ست منها على أنه رواها عن أبى عمرو بن العلاء وهى :

١ — « قال المنخل بن عامر . . . اليشكرى ،قال أبو سعيد : قرأتها على أبى عمرو بن العلاء » [١] .

٢ — « قال أبو الفضل الكنانى ، قال أبو سعيد : أنشدنيها أبو عمرو بن العلاء » [٢] .

٣ — « قال أبو سعيد ، قال أبو عمرو بن العلاء : قال عمرو بن الأسود هذه القصيدة يوم ذى قار » [٣] .

٤ — « قال أبو سعيد : سمعت أبا عمرو بن العلاء ينشد هذه القصيدة لامرئ القيس » [٤] .

٥ — « قال الأصمعى ، سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : سباب يزيد

---

(١) الأصمعيات — ط . دار المعارف : ٥٢ .
(٢) المصدر السابق : ٧٥ .
(٣) المصدر السابق : ٧٧ .
(٤) المصدر السابق : ١٤٢ .

ابن الصعق رجلاً من بنى أسد ، فقال يزيد فى ذلك ... ، فأجابه الأسدى [١].

٦ ـ « وأنشدنى أبو عمرو بن العلاء لطرفة بن العبد . . [٢] » .

ونص فى واحدة منها على أنه رواها عن خلف الأحمر « قال عبد الله بن جِنْح النُّكْرى ـ قال الأصمعى : أنشدنيها خلف الأحمر [٣] » .

ونص فى أخرى على أنه رواها عن أعرابى سماه من أهل نجد عن أبيه عن الشاعر نفسه ، وذلك قوله [٤] : « قال أبو سعيد ، عن حبيب بن شوذب ، رجل من أهل نجد مُسنّ ، عن أبيه ، أنشدنيها كعب بن سعد موافقاً لى براذان » .

وكذلك نص فى واحدة على أنه رواها عن راوية من قبيلة الشاعر نفسه ، وذلك قوله [٥] : « قال الأصمعى : حدثنا رجل من بنى رياح قال : جاء رجل إلى الأخوص والأبيرد ـ وهما من ولد عتاب بن هرمى ـ يطلب هِنَاءً ، فقالا : إن بلّغت عنا سُحيم بن وثيل بيتاً وأتيتنا بجوابه . قال : نعم ، هاتياه . فأنشداه :

إنَّ بُدَاهَتِى وَجِسرَاءَ حَوْلِى لَذُو شِقٍّ عَلَى الحُطَمِ الحَرُونِ

فلما أنشده إياه أخذ عصاه ، وجعل يهدج فى الوادى ويقول :

أنا ابنُ جَلا وَطلاعِ الثنايا . . . . (القصيدة)

ونص فى الأخيرة منها على أنه أخذها عن الحارث بن مطرف ، وذلك قوله [٦] : « قال الأصمعى ، خبرنى الحارث بن مطرف قال : استبَّ حجل ومعاوية بن شكل عند بعض الملوك . . فقال حجل » .

بقى أمر آخر يتصل برواية الأصمعيات ، وهو ما ذكره ابن النديم فى

---

(١) الأصمعيات : ١٦١ – ١٦٢ .
(٢) المصدر السابق : ١٦٦ .
(٣) المصدر السابق : ١٢٠ .
(٤) المصدر السابق : ٩٤ .
(٥) المصدر السابق : ٣ – ٥ .
(٦) المصدر السابق : ١٠٣ – ١٠٤ .

قوله[1]: « وعمل الأصمعي قطعة كبيرة من أشعار العرب ليست بالمرضية عند العلماء لقلة غريبها واختصار روايتها » . وفي هذا الحكم — الذي انفرد بذكره ابن النديم —إشكالان يبدو أنه لا سبيل إلى حلهما حلاً قاطعاً يقينياً . الأول: ما الذي يقصده ابن النديم بهذه القطعة الكبيرة من أشعار العرب ؟ أهي القصائد التي اختارها الأصمعي فنسبت إليه وسميت الأصمعيات ؟ أم هي جميع الدواوين الشعرية التي عملها الأصمعي ؟ ولقد كان من الجائز أن يكون المقصود بها الأصمعيات — كما ذهب إلى ذلك ليال[2] — لولا أمران ، الأول : أنه وصفها بأنها « قطعة كبيرة » والأصمعيات ليست كذلك ، أو على الأقل ما بين أيدينا منها ليس كذلك ، والمفضليات أكبر منها كثيراً[3] . أما الدواوين التي عملها الأصمعي فهي « قطعة كبيرة » حقاً . ثم إن ابن النديم يستخدم أحياناً لفظة « القطعة » من الأشعار ويقصد بها دواوين الشعر ، فمن ذلك قوله عن السكري إنه عمل « قطعة من القبائل »[4] . والأمر الثاني الذي يجعلنا نشك في أنه يريد بقوله هذا الأصمعيات هو أنه ذكره في آخر حديثه عن الأصمعي ، بعد أن ذكر أسماء كتبه في اللغة والحديث ، ولم يذكر له مما عمله من الشعر إلا كتاب « القصائد الست ! »[5] ، فلعله أغفل ذكر الدواوين التي عملها الأصمعي ليجملها في هذا اللفظ العام « قطعة كبيرة من أشعار العرب » .

هذا هو الإشكال الأول في نص ابن النديم ، أما الإشكال الثاني ففي قوله « واختصار روايتها » . ونحن نرى أن « الرواية » هنا قد تعني أحد أمرين : إما إسناد الرواية ، وإما الشعر المروي نفسه . فإذا كان المقصود : الإسناد ، فله وجهان أيضاً :

---

(١) الفهرست : ٨٣ .

(٢) مقدمة المفضليات ٢ : ١٦ .

(٣) الأصمعيات ٩٢ قصيدة فيها ١٤٣٩ بيتاً ، والمفضليات : ١٣٠ قصيدة فيها ٢٦٦٤ بيتاً .

(٤) الفهرست : ١١٧ .

(٥) المصدر السابق : ٨٢ .

١ — إسناد الأصمعى عن قبله من العلماء الذين أخذ عنهم ؛ وقد فهمه بهذا المعنى ليـَل فى مقدمة طبعة المفضليات[1] . غير أننا نستبعد أن يكون هذا المعنى هو الذى ذهب إليه ابن النديم ، لأننا قد عرفنا من دراستنا المفصلة أن علماء الطبقة الأولى كانوا منتهى الإسناد ، وأنهم لم يكونوا يسندون إلى من قبلهم من العلماء إلا فى القليل النادر ، وأن ذلك لم يكن عيباً ولا نقصاً فيهم ، ولا فيما يروون حتى تكون « ليست بالمرضية عند العلماء » .

٢ — إسناد الرواية بعد الأصمعى حتى زمن ابن النديم ، ويكون معنى ذلك — إذا كان المقصود به الأصمعيات — أن هذه القصائد المختارة لم يروها عن الأصمعى تلامذُته ، وأن إسناد الرواية بعد الأصمعى غير مكتمل الحلقات .

وأما الأمر الثانى الذى قد تعنيه لفظة « الرواية » فى هذا النص ، وهو الشعر المروى نفسه ، فلعل معناه — إذا كان المقصود به الأصمعيات — أن الأصمعى حين اختار هذه الأشعار ، لم يرو فى كثير منها القصيدة كاملة ، وإنما اختار منها أبياتاً أو قطعة صغيرة ، وأغفل ذكر سائرها . وفى الأصمعيات التى بين أيدينا شعراء لم يورد لهم الأصمعى إلا بيتين أو ثلاثة أو أربعة . فلعل هذا معنى قوله « اختصار روايتها » .

٣

وثمة ضرب آخر من المختارات يختلف عن المفضليات والأصمعيات فى أنه بُنى على أساس معلوم فى اختياره ، ثم فى تقسيمه وتبويبه . وهذا الضرب مجموعتان : حماسة أبى تمام ، وجمهرة أشعار العرب .

أما الحماسة فقد بُنى اختيار ما فيها من الشعر على أبواب المعانى : فباب لشعر الحماسة وهو أول الأبواب وأكبرها وبه سميت المجموعة كلها ، وباب للمراثى ، وباب للأدب ، وباب للنسيب ، وباب للهجاء ، وباب للأضياف والمديح ، وباب للصفات ، وباب للسير والنعاس ، وباب للملح ، وباب لمذمة

(١) ص : ١٦ .

النساء . وأما جمهرة أشعار العرب فقد قُسم ما فيها من الشعر سبعة أقسام هي : السموط ، المجمهرات ، المنتقيات ، المذهبات ، المراثى ، المشوبات ، الملحمات.

أما المفضليات والأصمعيات فلم يبيّن فيهما أساس الاختيار ، وليس فيهما تبويب وتقسيم ، وقد التقت الحماسة والجمهرة فى هذه الصفة وحدها — ثم اختلفتا فى غيرها ؛ فانضمت الجمهرة إلى المفضليات والأصمعيات فى أنها قصائد كاملة طوال[1]. أما الحماسة فأبيات مقتطفات ومقطعات قصار ؛ ولذلك قال التبريزى[2] : « ومن أجود ما اختاروه من القصائد المفضليات ، ومن المقطعات الحماسة » .

وليس من شأننا فى هذا البحث أن نتناول بالحديث الشعر نفسه من حيث خصائصه وميزاته ، وإنما هدفنا أن نقصر الحديث على رواية القصائد ورواية المجاميع جملةً . ونرى أن حديثنا عن هاتين المجموعتين من المختارات حديث موجز نتخذه معبراً نصل منه إلى ما سنجمله فى آخر هذا الفصل من رواية كتب المختارات وقيمتها التاريخية من حيث هى مصدر من مصادر الشعر الجاهلى .

أما الحماسة فليست لها رواية انتقلت بها إلى أبى تمام ، ولا رواية أُخذت بها عن أبى تمام ، وإنما أخذها أبو تمام من الكتب ، وانتقاها من الدواوين والمجاميع ، فى حديث طويل سنذكره بعد قليل . ثم كتب أبو تمام ما اختاره ، وبقى كتابه دهراً مطوياً لم يقرأه عليه أحد ، كما لم يقرأه هو على أحد ، إلى أن أتيح له أن يُنشر ويظهر بعد وفاة أبى تمام[3] ؛ فأُخِذ ما فيه من الصحف المكتوبة نفسها لا عن العلماء . وهذا المرزوقى شارح الحماسة ، وبينه وبين أبى تمام نحو مائتى عام ، لا يذكر إسناداً انتقل إليه به الكتاب ، بل إنه لينص على أنه أخذه من الكتب ، وأنه كانت بين يديه نسخ عدة منه فهو يقابل بينها ويثبت ما يجدفيها[4].

وليس فقدان الرواية والإسناد هو الأمر الوحيد الذى يباعد بين الحماسة

---

(١) ليست كل الأصمعيات قصائد ، بل فيها مقطعات قصار ، وإن كانت القصائد أكثر عدداً .

(٢) شرح ديوان الحماسة : ٣ .

(٣) مروج الذهب ٤ : ٧٤ .

(٤) شرح ديوان الحماسة ١ : ٢٥٥ .

وبين بحثنا هذا ، بل إن ثمة شيئاً آخر لا يقل عن سابقه فى المباعدة بين هذا الكتاب وبين بحثنا ، وهو صنيع أبى تمام فيما اختاره من تغيير للنص الشعرى مما أوضحه المرزوقى فى مقدمته ، قال[1] : « وهذا الرجل لم يعمد من الشعراء إلى المشتهرين منهم دون الأغفال ، ولا من الشعر إلى المتردد فى الأفواه ، المجيب لكل داع ، فكان أمره أقرب ؛ بل اعتسف فى دواوين الشعراء جاهليهم ومخضرمهم وإسلاميهم ومولدهم ، واختطف منها الأرواح دون الأشباح ، واخترف الأثمار دون الأكمام ، وجمع ما يوافق نظمه ويخالفه ، لأن ضروب الاختيار لم تخفَ عليه ، وطرق الإحسان والاستحسان لم تستتر عنه ، حتى إنك تراه ينتهى إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه ، فيجبر نقيصته من عنده ، ويبدل الكلمة بأختها فى نقده . وهذا يبين لمن رجع إلى دواوينهم ، فقابل ما فى اختياره بها » .

من أجل هذا كله رأينا أننا لا نستطيع أن نتحدث عن الحماسة حديثاً يتصل بموضوعنا ، فأوجزنا الكلام إيجازاً يغنى عن التطويل ، ويكفى لأن نصل به بعد قليل ما يدخل فى بحثنا إلى الصميم .

* * *

وأما الجمهرة فتحتاج إلى بحث مستفيض قائم بذاته مستقل عن بحثنا هذا ، فنسبتها إلى صاحبها عقدة تحتاج إلى حل ، والتعريف بصاحبها وترجمته عقدة أخرى لا تقل عن الأولى ، وأكثر الرواة الذين يروى عنهم مجاهيل لم نجد لهم ذكراً فيما بين أيدينا من كتب الرجال والطبقات ، وهى عقدة ثالثة تنافس فى الصعوبة سابقتيها . وتفصيل ذلك أن هذا الكتاب — فى طبعاته الثلاث : طبعة بولاق سنة ١٣١١ هـ ، وطبعة المطبعة الخيرية سنة ١٣٣١ هـ ، وطبعة المطبعة التجارية — وهى كلها عن أصل واحد ولا اختلاف بينها — قد نُسب إلى أبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى ؛ وهو مجهول ليس له أدنى ذكر فى جميع كتب

(١) شرح ديوان الحماسة : ١٣ — ١٤ .

الطبقات والرجال ، فلم يذكر مع المحدّثين ورواة الحديث ، ولا مع اللغويين والنحويين ، ولا مع الشعراء والأدباء ، ولا مع مؤلفي الكتب وجامعي الدواوين .

ثم تتبعنا ذكره وذكر جمهرته فيما بين أيدينا من كتب الأدب عامة ، فوجدناه مذكوراً في خزانة الأدب للبغدادي[١] ، وفي المزهر للسيوطي[٢] ، وفي العمدة لابن رشيق[٣] . أما في الخزانة فقد ذكره البغدادي ست مرات لم يسمه في أربع منها ، وإنما ذكر الكتاب من غير نسبة مرة ، وقال في مرة أخرى : صاحب جمهرة أشعار العرب . وقال في المرتين الأخريين : شارح جمهرة أشعار العرب . وسماه في الموطنين الباقيين باسم محمد بن أبي الخطاب ، من غير كنية ومن غير نسبة بعد الاسم . غير أنه في أحد هذين الموطنين نقل اسمه من العمدة، فقال: « وفي العمدة لابن رشيق : قال محمد بن أبي الخطاب في كتابه الموسوم بجمهرة أشعار العرب » . فلعله في الموطن الثاني الذي سماه فيه قد تأثر بتسمية ابن رشيق له ، ولعله أيضاً كان بين يديه كتاب الجمهرة فنقل منه ما نقل من غير أن يسميه لأنه كان في شك من أمر نسبته إلى صاحبه .

وأما السيوطي في المزهر فقد ذكره في موطن واحد ، ونقل ما جاء في العمدة عنه .

فرد تسمية صاحب الجمهرة في هذين الكتابين — كما رأينا — إلى ابن رشيق في العمدة حيث سماه في موطنين ، فقال مرة : « وقال محمد بن أبي الخطاب في كتابه الموسوم بجمهرة أشعار العرب » ، وقال مرة أخرى : « وزعم ابن أبي الخطاب » . وعنده كتاب العمدة ينتهي بحثنا عن صاحب كتاب الجمهرة ، ويكون بذلك ابن رشيق أقدم من ذكر محمد بن أبي الخطاب ونسب إليه الجمهرة ، فإذا كانت تسمية هذا الرجل مما جرى به قلم ابن رشيق حقّاً ، ولم يكن زيادة أقحمها

---

(١) ١ : ١٠ ، ٦١ ؛ ٢ : ٥٥ ؛ ٤ : ١٦٣ ، ٥٣٨ ، ٥٤٥ .

(٢) ٢ : ٤٨٠ .

(٣) ١ : ٧٨ — ٧٩ .

أحد النساخ ، فإن معنى ذلك أن محمد بن أبي الخطاب قد عاش قبل منتصف القرن الخامس الهجرى (مات ابن رشيق سنة ٤٦٣ هـ) .

ثم إننا وجدنا فى معهد إحياء المخطوطات العربية صورة من نسخة أصلها فى مكتبة كوبريلى ، وعنوانها « جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام ، وما وافق القرآن على ألسنتهم واشتقت بهم لغتهم وألفاظهم » . والنسخة مكتوبة فى سنة ٦٨٣ هجرية كما هو مذكور فى آخرها. وهى تتفق مع النسخة المطبوعة فى العنوان وفى المحتويات ، وإن كان بينهما من الاختلاف ما يكون عادة بين النسخ الخطية المتعددة للكتاب الواحد . غير أن هذه النسخة المصورة مذكور فى أولها أن مؤلفها وشارحها هو : محمد بن أيوب العزيزى ثم العمرى ! ! وهو مجهول أيضاً لم نعثر له على ترجمة ، أفيكون رجلاً آخر غير محمد بن أبي الخطاب ؟ أم أنه هو هو ؟ ويكون بذلك أبوه أيوب هو أبا الخطاب كنيةً ؟

وأمر ثالث : هل محمد بن أبي الخطاب أو محمد بن أيوب هو مؤلف هذا الكتاب ، أو شارحه وراويه ؟ ولرب قائل يقول : إن محمد بن أبي الخطاب أو محمد بن أيوب هو مؤلف الكتاب من غير ريب . وأن على ذلك دليلين ؛ الأول : نص واضح فى أول الكتاب ، ففى المطبوعة « هذا الكتاب جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام . تأليف أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشى .. » ، وفى المخطوطة « ألفه وشرحه محمد بن أيوب العزيزى ثم العمرى » . والدليل الثانى : أن أكثر الأخبار والروايات فى القسم الأول من الكتاب وهو مقدمته ، مصدَّرة بقوله « قال محمد » ثم يذكر إسناد الرواية .

ومع أن هذين الدليلين كان يصح أن يكفيا للتدليل على أن هذا الرجل هو مؤلف الكتاب — إلا أننا لا نستطيع ، بعد الدرس ، أن نسلم بهذه النتيجة وذلك لأننا وجدنا أن محمداً هذا يروى الكثرة الغالبة من أخبار مقدمته عن رجل بعينه هو « أبو عبد الله المفضل بن عبد الله بن محمد بن المجبَّر[1] بن

(١) فى المطبوعات الثلاث « المحبر » وهو تصحيف ، صوابه « المجبر » بالجيم المعجمة =

عبدالرحمن بن عمر بن الخطاب » . حتى إذا وصل فى مقدمته إلى القسم المهم منها ، وهو هذا التقسيم السباعى للشعر الذى يورده — وهو تقسيم لم يرد فى غير هذا الكتاب فيما نعرف — ذكر هذا التقسيم وذكر سبعة شعراء سماهم بأسمائهم فى كل قسم ، ثم قال[1] ، « قال المفضل : فهذه التسع والأربعون قصيدة عيون أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام ، وأنفس شعر كل رجل منهم . » فيكون إذن هذا التقسيم ، مع النص على الشعراء بأسمائهم وذكر القصائد بذواتها ، من صنع المفضل هذا ، لا من صنع محمد ، ويكون فضل محمد فى أنه روى هذا التقسيم والشعر عن المفضل ، ثم شرحه ذلك الشرح الموجز الموجود فى الكتاب .

والمفضل بن عبد الله المجبرى هذا مجهول كذلك لم تذكره كتب الرجال والطبقات ، غير أنه فى هذا الكتاب يروى « عن أبيه عن الأصمعى »[2] ، و « عن أبيه عن جده عن أبى عبيدة »[3] ، فيكون المفضل بذلك من رجال القرن الثالث ومطلع القرن الرابع ، ويكون محمد راوى الجمهرة وشارحها من رجال القرن الرابع ؛ وسائر الأسانيد التى عن غير المفضل فى المقدمة تتفق فى هذه النتيجة على وجه التقريب . أما ما ذكره سركيس فى معجم المطبوعات من أن محمداً توفى فى سنة ١٧٠ هـ فأمر عجيب لا ندرى كيف وصل إليه ، ولعله استنتجه استنتاجاً حين رأى محمداً فى أول النسخة يروى عن المفضل بن محمد الضبى ، وهو خطأ محض ، صوابه ما فى المخطوطة الأخرى المثبت على هامش الصفحة الثالثة من أنه « المفضل بن عبد الله المجبرى » ويؤيد ذلك تكرار هذا

= فى نسب قريش لمصعب الزبيرى ص٣٥٦ «وأما عبد الرحمن الأصغر "ابن عمر بن الخطاب" لهلك وترك ابناً له ، فسمى به ، فسمته حفصة بنت عمر : عبد الرحمن ، ولقبته "المجبر" ، قالت "يجبره الله" فولده يعرفون ببنى المجبر» . وانظر أيضاً جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص : ١٤٦ .

(١) جمهرة أشعار العرب : ٣٥ .

(٢) المصدر السابق : ١٦ .

(٣) المصدر السابق : ١٧ هامش : ٤ .

الاسم بهذا النسب في صفحات المقدمة .

وهذا التاريخ التقريبي الذي وصلنا إليه من رواية المقدمة — وهو أن محمداً هذا قد عاش في خلال القرن الرابع الهجري — يؤيده، بعض الشيء ، ما ذكرناه من أن مؤلف كتاب جمهرة أشعار العرب لا بد أن يكون قد عاش قبل منتصف القرن الخامس لأن ابن رشيق القيرواني روى عنه في العمدة، وابن رشيق مات سنة ٤٦٣ هـ .

ونحب أن نكتفي بهذا القدر من بحث هذا الكتاب ودراسته ، ونترك مواصلته وإكماله لمن سيستقل في المستقبل بعبء تحقيقه ونشره. فإذا أضفنا إلى ذلك أن جميع ما في كتاب جمهرة أشعار العرب من إسناد ورواية محصور في المقدمة نفسها وما فيها من أخبار وأحكام نقدية ، وأما القسم الثاني من الكتاب وهو الشعر نفسه فخال من أي إسناد ورواية — إذا أضفنا هذا إلى كل ما تقدم تبين لنا في وضوح أن فيما أسلفنا من حديث ما يغني عن الإطالة .

٤

وبعد ، فإننا لم نتحدث عن أخطر ما في مجموعات القصائد المختارة من دلالات تتصل ببحثنا عن تاريخ الرواية ومصادر الشعر ، وقد اقتطعنا هذا الجزء من البحث من مواضعه المتفرقة وادخرناه لنختم به هذا الفصل، ولا نريد أن نستعجل ذكره وبيانه، وإنما نريد أن نمهد بإيراد بعض النصوص والأخبار التي تنتهي بنا إلى ما نريد :

١ — قال التبريزي[١] : «وكان سبب جمع أبي تمام الحماسة أنه قصد عبد الله بن طاهر ، وهو بخراسان، فمدحه، وكان عبد الله لا يجيز شاعراً إلا إذا

(١) شرح ديوان الحماسة ١ : ٣ — ٤ .

رضيه أبو العميثل وأبو سعيد الضرير ، فقصدهما أبو تمام وأنشدهما القصيدة التي أولها :

أهُنّ عَوَادِى يُوسُفٍ وَصَوَاحِبُــهْ فَعَزْماً فَقِدْماً أَدْرَكَ السُّؤْلَ طَالِبُهْ

فلما سمعا هذا الابتداء أسقطاها ، فسألهما استتمام النظر فيها ، فقرأ بقوله :

وَرَكْبٍ كأطرافِ الأسِنَّةِ عَرَّسُوا على مثلها والليلُ تَسْطُو غَيَاهِبُهْ
لأمر عليهم أن تتمَّ صُدورُهُ وليس عليهم أنْ تتمَّ عواقبُهْ

فاستحسنا هذين البيتين وأبياتاً أخرى . . . فعرضا القصيدة على عبد الله ، وأخذا له ألف دينار . وعاد من خراسان يريد العراق ، فلما دخل همذان اغتنمه أبو الوفاء ابن سلمة ، فأنزله وأكرمه ، فأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم قطع الطرق ومنع السابلة ، فغمَّ أبا تمام ذلك وسرَّ أبا الوفاء ، فقال له : وطّن نفسك على المقام فإن هذا الثلج لا ينحسر إلا بعد زمان . وأحضره خزانة كتبه ، فطالعها واشتغل بها ، وصنف خمسة كتب فى الشعر ، منها : كتاب الحماسة ، والوحشيات وهى قصائد طوال ، فبقى كتاب الحماسة فى خزانة آل سلمة ، يضنون به ، ولا يكادون يبرزونه لأحد ، حتى تغيرت أحوالهم ، وورد همذان رجل من أهل دينور يعرف بأبى العواذل ، فظفر به ، وحمله إلى أصبهان ، فأقبل أدباؤها عليه ، ورفضوا ما عداه من الكتب المصنفة فى معناه ، فشهر فيهم ثم فيمن يليهم » .

٢ — وروى عن المفضل أنه قال[1] : « كان إبراهيم بن عبد الله بن الحسن متوارياً عندى ، فكنت أخرج وأتركه ، فقال لى : إنك إذا خرجت ضاق صدرى ، فأخرجْ إلىَّ شيئاً من كتبك أتفرج به . فأخرجت إليه كتباً من الشعر ، فاختار منها السبعين قصيدة التى صدَّرتُ بها اختيار الشعراء ، ثم أتممت عليها باقى الكتاب » .

---

(١) مقاتل الطالبيين : ٣٧٢ — ٣٧٣ .

٣ — وروى التجيرمى أن العباس بن بكار قال للمفضل[١]: «ما أحسن اختيارك للأشعار؛ فلو زدتنا من اختيارك! فقال: والله ما هذا الاختيار لى، ولكن إبراهيم بن عبد الله استتر عندى، فكنت أطوف وأعود إليه بالأخبار، فيأنس ويحدثنى. ثم عرض لى خروج إلى ضيعتى أياماً، فقال لى: اجعل كتبك عندى لأستريح إلى النظر فيها، فتركت عنده قمطرين فيهما أشعار وأخبار، فلما عدت وجدته قد علّم على هذه الأشعار، وكان أحفظ الناس للشعر، فجمعته وأخرجته، فقال الناس: اختيار المفضل».

٤ — وقال أبو عكرمة الضبى[٢]: «مر أبو جعفر المنصور بالمهدى وهو ينشد المفضل قصيدة المسيّب التى أولها: أرحلت، وهى هذه:

أَرَحَلْتَ مِنْ سَلْمَى بِغَيْرِ مَتَاعِ ... قَبْلَ العُطَاسِ وَرُعْتَها بِوَدَاعِ

فلم يزل واقفاً من حيث لا يشعر به، حتى استوفى سماعها؛ ثم صار إلى مجلس له وأمر بإحضارهما. فحدّث المفضل بوقوفه واستماعه لقصيدة المسيب واستحسانه إياها، وقال له: لو عمدت إلى أشعار الشعراء المقلّين واخترت لفتاك لكل شاعر أجود ما قال لكان ذلك صواباً؛ ففعل المفضل».

* * *

وأحسب أن هذه النصوص، بهذا النسق الذى أوردناها فيه، وبهذه الخطوط التى وضعناها تحت بعض عباراتها — قد دلت على ما نريد أن ننتهى إليه؛ وخلاصته: أن العلماء فى القرن الثانى كانوا قد فرغوا من تدوين أشعار الشعراء المكثرين، ومن دراسة دواوين الشعراء المشهورين، ومن أجل هذا كان لابد لهم من أن يعمدوا «إلى أشعار الشعراء المقلّين» فيختاروا منها «لكل شاعر أجود ما قال». ثم إن الرواية عن الشيخ: قراءةً وإملاءً، كانت وسيلة من وسائل

---

(١) المزهر ٢ : ٣١٩.

(٢) القالى : الأمالى ٣ : ١٣٠.

اختيار بعض هذه المختارات – كما رأينا في بعض القصائد الأصمعيات – غير أن الوسيلة الكبرى التي كانت أكثر اتباعاً في اختيار المختارات كانت الرجوع إلى دواوين الشعراء وكتب الشعر التي كانت متوفرة بين يدى علماء القرن الثاني. فأبو تمام (المتوفى في نحو سنة ٢٢٨ هـ) يجد أمامه في همذان – في شرق الدولة الإسلامية – خزانة كتب ، لا كتاباً أو كتابين ، فيطالعها ويشتغل بها ويختار منها قصائد ومقطعات تكفى لأن يؤلف منها خمسة كتب . وإذا كان الباحث في تاريخ الرواية الأدبية وتدوين الشعر يأسى لأن الأخبار التي بين يديه لا تعينه على معرفة تاريخ كتابة هذه الكتب الموجودة في خزانة آل سلمة في همذان ، ولا تدله على أكثر من أن هذه الكتب كانت مدونة في آخر القرن الثاني الهجرى، فإن مما يخفف أسى هذا الباحث أن بين يديه نصاً آخر ، لا يحتمل الشك ولا التأويل ، يشير إلى أن خزائن كتب الشعر ودواوين الشعراء كانت موجودة منذ مطلع القرن الثاني وربما نهاية القرن الأول الهجرى ، وبذلك استطاع المفضل الضبي أن يترك بين يدى إبراهيم بن عبد الله (في نحو سنة ١٤٥ هـ) « قمطرين فيهما أشعار وأخبار » . وأن يعلّم إبراهيم على سبعين قصيدة منها يصدّر بها المفضل اختياره ، ثم يتمّ عليها باقي كتابه حين يدعوه المنصور إلى تأديب ابنه المهدى ، ويطلب منه أن يعمد إلى أشعار الشعراء المقلين فيختار لكل شاعر أجود ما قال .

إن هذا المعلم الواضح الذى نصبناه – في طريق بحثنا في نهاية القرن الأول الهجرى ومطلع القرن الثاني ليكشفَ لنا عن وجود دواوين الشعراء وكتب الشعر منذ هذا العهد المبكر – هذا المعلم الواضح يدعم ما قدمنا الحديث عنه من معالم ، استخرجناها من النصوص الكثيرة التي جمعناها في طريق بحثنا لتحدد لنا اتجاهه ، ولتبين لنا أن مدونات الشعر الجاهلي قد انتقلت إلى القرن الثاني والطبقة الأولى من الرواة العلماء – من القرن الأول الهجرى ، وأن بعضها ربما كتب منذ صدر الإسلام . وبذلك يكون التدوين : في الصحف المتفرقة وفي الدواوين المجموعة – رافداً كبيراً يساير الرافد الآخر ، وهو الرواية الشفهية ، ويعاصره ، ولايقل عنه قيمةً ، وهما معاً يكوّنان هذا الجدول العظيم الذى نسميه : الرواية الأدبية .

الفصل الرابع

الشعر الجاهلي في غير الدواوين

١

فى الكتب العربية ، على اختلاف موضوعاتها وفنونها ، شعر كثير ، بعضه جاهلى .. ولو قصرنا حديثنا على ما أُلِّف منها فى القرنين الثانى والثالث واستخرجنا ما تفرق فى صفحاتها من شعر جاهلى وحده ، ثم جمعناه معاً ، لجاء كثيراً غزيراً بحيث يملأ أسفاراً عدة . ومن هنا كانت هذه الكتب جديرة بأن نقف عندها وقفة قصيرة ، نختم بها حديثنا عن مصادر الشعر الجاهلى . وإذ كنا نرى أن هذه الكتب ليست مصدراً أوليًّا من مصادر الشعر الجاهلى — على ما سنبينه بعد قليل — فلم نرَ ما يدعونا إلى الإحاطة بها كلها والاستقصاء فى بحثها ، وإنما بحسبنا نماذج قليلة ندل بها على طريقة هذه الكتب فى إيراد الشعر الجاهلى ، ونخلص منها إلى ما نريد من نتائج تتصل بموضوعنا الأصيل .

وقد اخترنا من كتب النحو كتاب سيبويه ، ومن كتب اللغة كتابَىْ يعقوب ابن السكّيت : « إصلاح المنطق » و « تهذيب الألفاظ » .

أما كتاب سيبويه فقد كان أول ما استوقفنا فيه ما ذكره أبو عمر الجرمى من قوله[١]: « نظرت فى كتاب سيبويه فإذا فيه ألف وخمسون بيتاً ، فأما الألف فعرفت أسماء قائليها ، وأما الخمسون فلم أعرف قائليها » . ثم جاء عبد القادر البغدادى فأورد قول الجرمى هذا وذكر ما يوضحه قال[٢]: « فإن سيبويه إذا

---

(١) طبقات النحويين واللغويين : ٧٧ .

(٢) الخزانة ١ : ٣٣٣ — ٣٣٤ .

استشهد ببيت لم يذكر ناظمه ، وأما الأبيات المنسوبة فى كتابه إلى قائليها فالنسبة حادثة بعده ، اعتنى بنسبتها أبو عمر الجرمى . . . وإنما امتنع سيبويه من تسمية الشعراء لأنه كره أن يذكر الشاعر ، وبعض الشعر يروَى لشاعرين وبعضه منحول لا يعرف قائله لأنه قدم العهد به . وفى كتابه شىء مما يروى لشاعرين ، فاعتمد على شيوخه ونسب الإنشاد إليهم فيقول : أنشدنا ، يعنى الخليل ؛ ويقول : أنشدنا يونس ، وكذلك يفعل فيما يحكيه عن أبى الخطاب وغيره ممن أخذ عنه . وربما قال : أنشدنى أعرابى فصيح . وزعم بعض الذين ينظرون فى الشعر أن فى كتابه أبياتاً لا تعرف ، فيقال له : لسنا ننكر أن تكون أنت لا تعرفها ولا أهل زمانك ، وقد خرج كتاب سيبويه إلى الناس والعلماء كثير ، والعناية بالعلم وتهذيبه أكيدة ، ونُظر فيه وفُتش فما طعن أحد من المتقدمين عليه ، ولا ادعى أنه أتى بشعر منكر . وقد روى فى كتابه قطعة من اللغة غريبة لم يدرك أهل اللغة معرفة جميع ما فيها ولا رووا حرفاً منها » .

وكلام البغدادى — على ما فيه من فائدة وَغناء — غير ملزِم للجرمى ، ولا يُفهَم بالضرورة من كلامه الذى أوردناه . فكلام الجرمى لا يفيد أن سيبويه لم ينسب شيئاً من أبياته التى استشهد بها ، وكل ماذكره الجرمى أنه وجد فى كتاب سيبويه ألفاً وخمسين بيتاً ، عرف أسماء قائلى ألف منها فأثبتها ، ولم يعرف أسماء قائلى الخمسين الباقية . وهذا القول يحتمل أن يكون سيبويه قد عزا بعض هذه الأبيات الألف إلى قائليها ثم جاء الجرمى ونسب ما لم ينسبه سيبويه . ويحتمل أيضاً أن سيبويه لم يعزُ شيئاً منها وإنما الفضل فى نسبتها إلى الجرمى . ولا سبيل إلى ترجيح أحد هذين الاحتمالين من كلام الجرمى وحده . ولكن البغدادى قطع قطعاً يقينيًّا بأن سيبويه لم يعزُ شيئاً من أبياته وإنما كان الجرمى هو الذى عزاها . ثم مضى البغدادى فعلل لنا امتناع سيبويه من تسمية الشعراء .

فإذا عدنا نحن إلى كتاب سيبويه وجدنا فيه نحو تسعمائة وخمسة وأربعين بيتاً ، تكرر منها بعضها مرة أو مرتين فى نحو مائة وخمسة مواضع ، فيكون بذلك

مجموع الأبيات التى استشهد بها ألفاً وخمسين بيتاً مع المكرر منها . وقد تتبعنا الأبيات التى لم تُعزَ إلى قائل فوجدنا أنها نحو من مائتى بيت وسبعين بيتاً . فكان لا بد لنا أن نتساءل هل معنى ذلك أن سيبويه قد نسب نحو ثمانين وسبعمائة بيت إلى قائليها ، ثم جاء أبو عمر الجرمى فتتبع الأبيات التى لم ينسبها سيبويه فاستطاع أن ينسب منها نحو عشرين ومائتى بيت ، فيكون بذلك قد عرف نسبة ألف بيت وعجز عن معرفة قائلى الخمسين الباقية ؟

ولقد كان من الجائز أن نجيب عن هذا التساؤل بالإثبات ، وأن نقبل هذه النتيجة التى وصلنا إليها عن طريق العد والإحصاء لولا شكنا فى أصالة النسخة الخطية التى طُبع عنها كتاب سيبويه . فقد رأينا فى هذه الطبعة من الكتاب مواضع كثيرة تجعلنا نقطع بأن نسخته الخطية ليست النسخة الأصلية التى كتبها سيبويه ، وإنما أضيف إليها وأقحم عليها من أقوال تلاميذه ومَنْ بعدهم ممن رووا هذا الكتاب ما لا يجوز بحال أن يكون من أقوال سيبويه نفسه ، وخاصة فى نسبة الشعر والتعقيب عليه . فمن ذلك ما جاء فى صلب الكتاب[١] « واعلم أنه ليس شىء من هذا يمتنع من أن يُجمع بالتاء ، وزعم الخليل أن قولهم ظريف وظروف لم يكسَّر على ظريف كما أن المذاكير لم تكسر على ذ كَر . وقال أبو عمر أقول فى ظروف هو جمع ظريف ، كسِّر على غير بنائه وليس مثل مذاكير ، والدليل على ذلك أنك إذا صغّرت قلت ظُرَيِّفُون ولاتقول ذلك فى مذاكير » . وأبو عمر هذا هو أبو عمر الجرمى ، وواضح أنه ممن لم يرو عنهم سيبويه فقد « أخذ أبو عمر النحو عن الأخفش وغيره ، وقرأ كتاب سيبويه على الأخفش ولقى يونس بن حبيب ولم يلق سيبويه . . » [٢] ومات سنة خمس وعشرين ومائتين[٣] . فإذن كان جميع ما قاله أبو عمر فى هذه العبارة مقحماً على كتاب سيبويه .

---

(١) الكتاب ٢ : ٢٠٨ .
(٢) أخبار النحويين البصريين : ٧٢ .
(٣) إنباه الرواة : ٨١ .

ومن ذلك أيضاً ما جاء فى الكتاب من قوله[1]: « وقد جاء فى الشعر ، فزعموا أنه مصنوع » ، ثم استشهد ببيتين من الشعر . ونحن نرجح أن قوله « فزعموا أنه مصنوع » مما أضيف على الكتاب وليس فى أصله . ومما يجعلنا نرجح ذلك أن المبرد قال عن هذين البيتين[2]: « وقد روى سيبويه بيتين محمولين على الضرورة ، وكلاهما مصنوع ، وليس أحد من النحويين المفتشين يجيز مثل هذا فى الضرورة » . ولو رأى المبرد فى أصل الكتاب قوله « فزعموا أنه مصنوع » لما قال ما قال ، أو لكان على الأقل أشار إليه . وهذا أبو جعفر النحاس قد وقعت بين يديه نسخة من الكتاب أضيفت إليها هذه العبارة فظن أنها من الأصل ولذلك قال يرد على المبرد[3]: « وهذا لا يلزم سيبويه منه غلط ، لأنه قد قال نصاً : وزعموا أنه مصنوع . فهو عنده مصنوع لا يجوز ، فكيف يلزمه منه غلط ؟ » . ونحن نرى أن كلام أبى جعفر النحاس مردود لأنه لو كان البيت عند سيبويه مصنوعاً لا يجوز لما استشهد به .

ومما نرجح ترجيحاً يقرب إلى اليقين أنه مضاف إلى الكتاب مقحم عليه قوله يستشهد[4]: « وقال وهو مصنوع على طرفة وهو لبعض العباديين :

أَسَعْدَ بنَ مالٍ أَلَمْ تَعْلَمُوا ... وَذُو الرَّأْيِ مَهْما يَقُلْ يَصْدُقِ

ونحن نرى أن الأصل : « وقال : البيت . . . » أما عبارة « وهو مصنوع على طرفة وهو لبعض العباديين » فما زيد على الكتاب بعدُ . ومن أوضح الأمثلة على الزيادة والإقحام أيضاً قوله[5]: « وقال الآخر (ويقال وضعه بعض النحويين) ». فإذا كانت الأمثلة التى أوردناها مما زيد على الكتاب ، فإننا نرى أن كثيراً

---

(١) الكتاب ١ : ٩٦ .
(٢) الكامل (ليبسك) : ٢٠٥ — ٢٠٦ .
(٣) الخزانة : ٤ : ٢٠١ — ٢٠٢ .
(٤) الكتاب ١ : ٣٣٦ — ٣٣٧ .
(٥) الكتاب ١ : ٤٣٤ .

من نسبة الشعر قد استحدثت بعد سيبويه وأضيفت إلى كتابه ، وجاءت فى هذه الطبعة كأنها من الأصل ، وإن وضعت أحياناً بين قوسين . فن ذلك [١] « وقال أيضاً . . وهو الشماخ » و « قول الشاعر وهو مقاس العائذى » [٢] و « قول الشاعر وهو كعب بن جعيل »[٣] و « قول الشاعر وهو أبو ذؤيب »[٤] و « قال الشاعر بشر بن أبى خازم »[٥] . والأمثلة على ذلك كثيرة لا مجال لاستقصائها . غير أن من أوضح الدلائل التى قد تجعل الباحث يرجح ما ذهب إليه البغدادى فى خزانته من أن سيبويه لم ينسب الشعر الذى استشهد به فى كتابه ما جاء فى الكتاب[٦]: « وقال المرار الأسدى » ثم يورد بيتين ويقول: « حدثنا به أبو الخطاب عن شاعره » . ونحن نرجح أن كلمتى « المرار الأسدى » مضافتان ، وأنه اكتفى بقوله «وقال» ثم أورد البيتين ، وأسند الرواية إلى أبى الخطاب عن الشاعر الذى لم يسمه ، ولو كان من منهجه أن يعزو الشعر إلى قائله لقال « حدثنا به أبو الخطاب عن المرار الأسدى » .

ونحن نرى ألا سبيل إلى القطع الجازم فى هذا الأمر إلا إذا عثرنا على النسخة الخطية الأصلية التى كتبها سيبويه أو رواها عنه أحد تلاميذه ولم يضف إليها شيئاً . ومع ذلك فإنه سيان عندنا ــ فى هذا البحث ــ أن يكون سيبويه قد أهمل نسبة جميع الشعر الذى أورده أو أهمل نسبة بعضه ، فإن ما نريد أن نستنتجه من كتابه هو أن الشعر لم يكن عنده إلا وسيلة للاستشهاد أو الاستئناس ، ومن هنا لم يكن هذا الشعر غاية يقصد إليها فينص على نسبته إلى قائله وتحقيق هذه النسبة ، وإنما كان يكفيه أن يكون هذا الشعر من القديم الذى يصح أن

---

(١) الكتاب ١ : ١١ .
(٢) المصدر السابق ١ : ٢١ .
(٣) المصدر السابق ١ : ٢٤ — ٢٥ .
(٤) المصدر السابق ١ : ٦١ .
(٥) المصدر السابق ١ : ٢٩٠ .
(٦) المصدر السابق ١ : ٤٠ .

يستشهد به على لغة العرب . ولا عليه بعدُ أن يكون قائله امرأ القيس أو طرفة أو عبيداً أو رجلاً غير معروف من إحدى القبائل العربية . ومن أجل هذا نجد فى الكتاب شعراً غير منسوب إلى شاعر بعينه بل إلى رجل من القبيلة ، ففيه : « وقال رجل من باهلة »[١] ، و « قال بعض السلوليين »[٢] ، أو « قال رجل من بنى سلول »[٣] ، و « قال الهذلى »[٤] ، و « قال القرشى »[٥] ، و « قول رجل من عمان »[٦] ، و « قال رجل من قيس عيلان »[٧] ، وغيرها كثير .

* * *

أما كتابا ابن السكيت : إصلاح المنطق ، وتهذيب الألفاظ ، فإنهما لا يكادان يختلفان عن كتاب سيبويه فيما عرضنا من أمور . ففى الكتابين إضافات وإقحام وضع بعضها بين علامتين مميزتين ؛ وأرسل بعضها إرسالاً يوهم أنها من أصل الكتاب . ومع ذلك فى الكتابين شعر كثير غير معزو إلى قائله ، وإنما اكتفى ابن السكيت بقوله « قال الشاعر »[٨] ، أو « قال الآخر »[٩] ، أو « قال الراجز »[١٠] ، أو « قال »[١١] . وربما أسند إلى من روى عنه مع إهمال النسبة إلى الشاعر مثل « أنشد أبو زيد »[١٢] ، أو « أنشد الأصمعى »[١٣] ،

(١) ١ : ١١ — ١٢ ، ٣٩ .
(٢) ١ : ٤٣٤ .
(٣) ١ : ٣٥٨ .
(٤) ١ : ١٢٤ ، ٢/٢٦١ : ٣٠٧ .
(٥) ١ : ٢٩٠ .
(٦) ١ : ٨٢ .
(٧) ١ : ٨٦ — ٨٧ .
(٨) إصلاح المنطق ١٠ ، ٢٢ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ١٠١ ، ٣٢٠ وغيرها كثير ؛ وتهذيب الألفاظ ١ : ٣٨ ، ٤٠ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١١٧ ، ١٣٤ إلخ .
(٩) إصلاح : ٢٩ ، ٣٤ ، ٤١ — ٤٢ ، ١٦٣ .
(١٠) إصلاح : ١٩ ، ٢٣ ، ٢٩ ، وتهذيب ١ : ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ١٣٠ إلخ .
(١١) إصلاح : ٢٥ ، ١٨٥ وتهذيب ١ : ٨٨ .
(١٢) إصلاح : ٦٤ ، ١٢٤ ، ١٦٤ ، وتهذيب ٢ ، ٨٦ .
(١٣) إصلاح : ١١ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٩٥ .

أو « أنشد الكسائى » [١] ، أو « أنشدنى ابن الأعرابى[٢] » . وربما أورد البيت منسوباً مرة وأهمل نسبته مرة أخرى[٣] .

وكما ورد فى كتاب سيبويه شعر معزو إلى رجل من إحدى القبائل العربية مع إغفال النص على الشاعر نفسه ، كذلك ورد مثل ذلك فى « إصلاح المنطق » و « تهذيب الألفاظ » ؛ مثل « قال الهذلى »[٤] ، أو « قال الأسدى »[٥] أو « قال رجل من ربيعة »[٦] ، وغيرها كثير .

والناظر فى كتب النحو واللغة فى القرنين الثانى والثالث يجد أنها كلها تسير على هذا النهج ، وقد قدمنا أننا سنستغنى عن الإحاطة بها واستقصائها — بالبحث فى هذه الكتب الثلاثة وحدها إذْ أنها تدل على غيرها .

وخلاصة بحثنا هذا أن الشعر عامة ومنه الشعر الجاهلى لا يعدو أن يكون فى كتب النحو واللغة وسيلة للاستشهاد والاحتجاج ، ومن هنا أهملت نسبة الكثير منه إلى قائله ، أو نُصّ على نسبة البيت إلى رجل غير مسمى من إحدى القبائل العربية ، ولذلك فنحن نرى أن كتب النحو واللغة ليست مصدراً أولياً من مصادر الشعر الجاهلى التى تثبت بها نسبة البيت أو الأبيات إلى شاعر بعينه .

---

(١) إصلاح : ١١٣ .

(٢) إصلاح : ٣٤ ، ٥٠ .

(٣) إصلاح : ٣٤ ، ٣٥ .

(٤) إصلاح : ٨ ، ٤٥ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٧٠ ، ٧٤-٧٥ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ٣٢٠ ، ٤٤٩ ؛ وتهذيب ١ : ٧٨ ، ٨٦ ، ٢٢٢ ، ٢٤٠ .

(٥) إصلاح : ٨٠ وتهذيب ٨٦ ، ٢٤١ .

(٦) إصلاح : ٣٩ ، ٤٠١ — ٤٠٢ .

٢

وأمر الشعر الجاهلي في كتب السيرة والتاريخ لا يكاد يختلف — في جوهره — عما قدمنا من حديث عن كتب النحو واللغة . ولو أننا قصرنا حديثنا على كتاب واحد هو ماحفظه لنا ابن هشام من السيرة التي صنعها محمد بن إسحق لوجدنا فيه شعراً كثيراً جديراً بالبحث والدرس. وأول مايبدو لنا من شأنه أن محمد بن إسحق لم يكن أول من أدخل الشعر فيما يروى من أخبار ، بل لقد سبقه إلى ذلك كل من كتب في السيرة قبله ، مثل : عروة بن الزبير ، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم ، وابن شهاب الزهري ، وغيرهم ؛ فإن الأخبار التي تروى عنهم تدل على أنهم كانوا من رواة الشعر وحفاظه ومتذوقيه ، وما بقي لنا من آثار السيرة التي كتبوها — متفرقة في مواطن عدة من كتب التاريخ والسيرة — يدل على أنهم كانوا يوردون في كتبهم الأشعار التي قالها الرجال الذين يرد ذكرهم في حوادث السيرة[١].
وقد مر بنا في فصل مضى أن السيرة والتاريخ والقصص عامة كانت مجالاً واسعاً للاستشهاد بالشعر ، بل لقد كان الشعر ضرورة لازمة لها يزينها ويكسبها ثقة وقوة في نفوس المستمعين والقارئين ، كأنما كان الشعر دليلاً على صدق ما يروى من خبر ، حتى لقد رووا أن معاوية بن أبي سفيان طلب من عبيد بن شرية — حينما كان يقص عليه أخباره المتضمنة في كتاب « أخبار عبيد بن شرية » — أن يورد في أخباره وقصصه كل ما يتصل من شعر وقال له[٢]: « وسألتك ألا تمر بشعر تحفظه فيما قاله أحد إلا ذكرته » . ومع أن عبيداً كان لا يقصر في الاستشهاد بالشعر ، فقد عاد معاوية يلحف عليه بقوله[٣] : « سألتك إلا شددت

---

(١) انظر هوروفتس المغازي الأولى ومؤلفوها : ٢٤ ، ٤٤ ، ٦٨ .
(٢) أخبار عبيد بن شرية : ٣١٤ .
(٣) المصدر السابق : ٣١٨ .

حديثك ببعض ما قالوا من الشعر ولو ثلاثة أبيات! » ، وحينما ذكر عبيد أن يعرب كان يقول الشعر قال له معاوية[١]: « اذكر الشعر الذى قال يعرب » . وكان معاوية كلما سمع الشعر الذى قيل فى إحدى الحوادث اطمأن إلى صحة الخبر وقال لعبيد[٢]: « لقد جئت بالبرهان فى حديثك يا عبيد » ، أو « لله درك فقد جئت بالبرهان »[٣] . ونحن لا يعنينا من كل ذلك تحقيق هذه الأخبار والأقوال ، وإنما نريد أن نقول إن الاستشهاد بالشعر فى التاريخ عامةً والقصص التاريخية خاصةً كان من مألوف عادة القوم منذ أقدم ما نعرف من آثارهم .

وقد استتبع ذلك أن بعض القصاصين كانوا يجتلبون الشعر اجتلاباً ليضعوه فى المكان المناسب له من قصصهم ، ويطلبون المصنوع ليكثّروا به الأحاديث ويستعينوا به على السمر عند الملوك ، والملوك لا تستقصى[٤] ، أو عند عامة الناس وهم أقل استقصاءً وتدقيقاً .

ولم يكن جميع كتّاب السيرة والتاريخ ممن يجتلبون المصنوع اجتلاباً ويطلبون من يصنعه لهم ويضعه ، ولكنهم — مع ذلك — اتفقوا جميعاً فى إيراد شعر موضوع كثير ، بعضهم يعمد إليه عمداً لما قدمنا من أسباب ، وبعضهم يجد هذا الشعر أمامه مرويًّا أو مدوناً ، فيضطر إلى الوفاء بواجبه وهو الجمع والتأليف ، من غير تحقيق لصحة الشعر ونسبته ، ويعتذر عن ذلك — حينما يلام عليه — بأنه لا علم له بالشعر وإنما جمع منه ما يجده أمامه أو ما رُوِىَ له .

من هذا الضرب الثانى محمد بن إسحق صاحب السيرة . فقد كان مشهوداً له بالعلم بالمغازى والسيرة حتّى قال عنه ابن سلام[٥]: « كان من علماء الناس بالسير » ، وقال الزهرى[٦] « لا يزال فى الناس علم ما بقى مولى آل مخرمة ، وكان

---

(١) أخبار عبيدة : ٣١٦ .
(٢) المصدر السابق : ٣٣٠ .
(٣) المصدر السابق : ٣٤٩ .
(٤) طبقات الشعراء : ٥٠ .
(٥) المصدر السابق : ٩ .
(٦) المصدر السابق : ٨ .

أكثر علمه بالمغازى والسير وغير ذلك » . ومع ذلك فإنه لم يكن له علم بالشعر ، وكان يعتذر عن الأشعار التى أوردها فى سيرته بقوله[١] : « لا علم لى بالشعر ، أوتَى به فأحمله » ، ولم يقبل منه ابن سلاّم هذا العذر ، وذلك لأنه « كتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط ، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعاراً كثيرة . . . أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أدّاه منذ آلاف السنين ؟ . . فكأن ابن سلام كان يفترض أن هذا القدر من التمييز والعلم بالشعر مما لا يجوز لأحد من العلماء أن يجهله . ومن أجل ذلك نرى فى أحكام ابن سلام على ابن إسحق شيئاً من القسوة والتعميم فهو يقول[٢] : « وكان ممن أفسد الشعر وهجّنه وحمل كل غُثاء منه : محمد بن إسحق » . وقال[٣] : « فلو كان الشعر مثل ما وُضع لابن إسحق ، ومثل ما رواه الصحفيون ، ما كانت إليه حاجة ولا فيه دليل على علم » . وقال أيضاً فى معرض حديثه عن أبى سفيان بن الحارث[٤] : « ولسنا نعد ما يروى ابن إسحق له ولا لغيره شعراً ، ولأنْ لا يكون لهم شعر ، أحسن من أن يكون ذاك لهم » .

ومع ذلك كله فإن الأمر فى حاجة إلى التقييد بعد هذا الإطلاق الذى ذهب إليه ابن سلام فى أمر الشعر الذى أورده ابن إسحق . فإذا ما عرضنا الشعر الذى أورده ابن إسحق فى سيرته — وبقى لنا بعد تهذيب ابن هشام — وجدنا أن الشعر عنده على ثلاثة ضروب :

الأول : الشعر الذى لا خلاف فى أنه موضوع مصنوع ، وهو الذى نُسب إلى آدم وإسماعيل والأمم القديمة والعرب البائدة . وليس فى السيرة التى بين أيدينا إلا القليل منه ، وإن كان قسم كبير منه قد حفظ فى كتب التاريخ مروياً عن

---

(١) طبقات فحول الشعراء : ٩ .

(٢) المصدر السابق : ٨ .

(٣) المصدر السابق : ١١ .

(٤) المصدر السابق : ٢٠٦ .

ابن إسحق، وذلك لأن ابن هشام قد حذف هذا القسم فى تهذيبه للسيرة ونص على ذلك فى مقدمته[١] . ومع ذلك فإن الأمثلة التى بقيت فى السيرة من هذا القسم تدل على أن ابن إسحق نفسه لم يكن يثق فى صحة هذه الأشعار بل فى صحة الأخبار نفسها ، ولكنه وجدها أمامه مدونة أو مروية ، فأثبتها كما قرأها أو سمعها . وكان يذكر من العبارات ما يبرئ به نفسه من تبعتها ، فهو مثلاً حين يذكر خبر انتشار النصرانية فى نجران ينص على أن « هذا حديث محمد بن كعب القرظى ، وبعض أهل نجران »[٢] عن ذلك ، فليس عليه إذن من تبعته شيء وإنما هو يرويه كما سمعه ، وكأنه يؤكد براءته من هذه التبعة بقوله بعد ذلك « والله أعلم أى ذلك كان » . وهو يذكر خبر سامة بن لؤى ثم يورد له شعراً قاله حين أحس بالموت ، ولكنه لا يتحمل تبعته ، ومن هنا ذكر أن سامة قال ذلك الشعر « فيما يزعمون »[٣] . ويورد رجزاً لثعلبة بن سعد بن ذبيان فيقيده أيضاً بهذا القيد نفسه قال[٤]: « وثعلبة — فيما يزعمون — الذى يقول لعوف حين أبطئ به فتركه قومه » . ويروى رجزاً للغوث بن مرّ، ويحتاط لنفسه فيقول[٥]: « فيما زعموا » . ويورد خبر عثور بعض الناس على حجر فى الكعبة قبل الإسلام بأربعين سنة مكتوب عليه بعض الحكم ، فيُدخل بين الكلام قيده الذى يقيّد به مثل هذه الروايات فيقول[٦]: « وزعم ليث بن أبى سليم . . . إن كان ما ذكر حقًّا . . » . فكأن ابن إسحق يرى — بمثل هذا الاحتياط الذى كان يصطنعه — أن هذه الأخبار والأشعار أصبحت من التراث المروىّ ، وأن لا سبيل إلى البحث العلمى فى صحتها وصدق نسبتها ، بل لو كان إلى ذلك سبيل ، فليس هو ذاك الرجل الذى يضطلع بهذا

---

(١) السيرة ١ : ٤ .

(٢) المصدر السابق ١ : ٣٦ .

(٣) المصدر السابق ١ : ١٠١ .

(٤) المصدر السابق ١ : ١٠٢ .

(٥) المصدر السابق ١ : ١٢٥ .

(٦) المصدر السابق ١ : ٢٠٨ .

العبء ، فهو ليس عالماً بالشعر ، على حفظه له وروايته إياه — وليس من عمله أن يحققه ويمحصه ؛ وإنما عمله فى أن يورد الأخبار إيراداً ، ويسرد الروايات سرداً ، ويزين كل خبر بما يستطيع أن يعثر عليه من شاهد شعرى . وكل ما يستطيع أن يأخذ به نفسه فى مثل هذا الموضوع هو أن ينثر فى حديثه مثل هذه العبارات التى قدمناها كقوله « فيما يزعمون » ، أو « إن صح ما قالوه » ، ليبرئ نفسه من تبعة ما يروى .

الثانى : أما القسم الثانى من الشعر الذى تضمنته السيرة فهو الذى قيل قُبيل البعثة أو فى السنوات الأولى منها ، فهو بذلك أقرب إلى الصحة ، بل إن بعضه صحيح لا شك فيه وإن اختلف بعض الرواة فى نسبته . وهنا يتجلى لنا أيضاً حذر ابن إسحق وحيطته ، وتبرؤه من التبعة ، فكأنه يريد أن يؤكد المعنى الذى لمحناه فى القسم الأول وهو أنه ليس من علماء الشعر المحققين له ، وإنما يروى منه ما وجده أمامه وينقل ما نقله إليه غيره . ولذلك نراه يتبع إحدى طريقتين فى هذا القسم من الشعر ؛ الأولى : أنه يستعمل القيود نفسها التى استعملها فى القسم الأول ، فهو ينقل الخبر أو الشعر ويبدؤه أو يعقّب عليه بقوله « فيما يزعمون »[1] ، أو « كما يذكرون »[2] ، أو « فزعم بعض أهل الرواية »[3] ، أو « فهذا الذى بلغنى من هذا الحديث »[4] ، أو « فهذا حديث الرواة من أهل المدينة »[5] أو ما شاكل هذه العبارات . وأما الطريقة الثانية التى اتبعها فى هذا القسم من الشعر فهى نسبة الشعر إلى شاعر بعينه والتعقيب على ذلك بأنها قد تروَى لغيره . فمن ذلك أنه يورد شعراً نسبه إلى أبى بكر الصديق ثم يقول[6] « ويقال : بل عبد الله

(١) السيرة ١ : ١٤٣ ، ١٤٧ / ٢ : ٢٤٦ .
(٢) المصدر السابق ٢ : ٣/٢٤٢ : ٥ .
(٣) المصدر السابق ١ : ٢٠٩ .
(٤) المصدر السابق ١ : ١٥٣ .
(٥) المصدر السابق ١ : ٣٧١ .
(٦) المصدر السابق ٢ : ٢٥٦ .

ابن جحش قالها » . ويورد شعراً آخر ويقول(١) : « فقال عبد الله بن رواحة أو أبو خيثمة » . ويقول(٢) : « وكان مما قيل فى بنى النَّضير من الشعر قول ابن لُقيم العبسى ، ويقال : قاله قيس بن بحر بن طريف » . ويقول(٣) : « وقال قائل من بنى جذيمة ، وبعضهم يقول امرأة يقال لها سلمى » ثم يقول : « فأجابه عباس بن مرداس ، ويقال بل الجحاف بن حكيم السلمى » .

الثالث : وأما القسم الثالث من الشعر الذى أورده ابن إسحق فى السيرة فهو هذه الأبيات المجاهيل والقصائد التى لا يعرف اسم قائلها أو لا ينص عليه ؛ ومع أن القسمين الأولين واضحا الدلالة على ما نذهب إليه فى أمر الشعر الجاهلى الذى يرد فى مثل هذه الكتب ، فإن هذا القسم أوضح منهما دلالةً لأنه يصلنا بكثير من الشعر الذى ورد فى بحثنا عن كتب اللغة والنحو والذى سيرد فى بحثنا عن كتب الأدب عامة . ووجه الدلالة فى هذا القسم أن قائل الشعر أو تحقيق نسبته ليس من الأمور التى يشغل بها المؤرخ أو كاتب السيرة نفسه ، كما لم يشغل بها نفسه اللغوى أو النحوى . فيحسب المؤرخ أو كاتب السيرة أن يجد شعراً قيل فى حادثة من الحوادث أو فى رجل من الرجال الذين يذكرهم حتى يسارع إلى إيراده فى كتابه ، وليس يعنيه بعد ذلك شىء ، فقد كفاه أن يجد ما يزين قصته أو يؤيد الخبر الذى ذكره . ومن أجل هذا نرى ابن إسحق فى سيرته يورد شعراً « لشاعر من العرب »(٤) ، أو « رجل من العرب »(٥) ، أو « شاعر من قريش أو من بعض العرب »(٦) ، أو « قال قائل من العرب »(٧) ، أو

(١) السيرة ٢ : ٣١٠ .

(٢) المصدر السابق ٣ : ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٣) المصدر السابق ٤ : ٧٤ — ٧٥ .

(٤) المصدر السابق ١ : ٨٦ ، ٢٠٦ .

(٥) المصدر السابق ١ : ٨٨ .

(٦) المصدر السابق ١ : ١٤٣/١٤٤ .

(٧) المصدر السابق ١ : ٢١٥ .

« فقالت امرأة من العرب »[١]، أو « قال رجل من بنى جذيمة »[٢]، أو « قال الآخر »[٣] . وأكثر هذا الشعر الذى لا ينص ابن إسحق على قائله هو ما قيل فى رجل من الرجال الذين يرد ذكرهم فى السيرة . فيذكر مثلاً جرير بن عبد الله البجلى، فيريد أن يزيده تعريفاً بقوله[٤] : « وهو الذى يقول له القائل » ، ويذكر هاشم بن حرملة فيقول[٥] : وهو « الذى يقول له القائل »، ويعرّف سعد بن سيَل بقوله[٦] : « ولسعد بن سيل يقول الشاعر »، ويذكر أبا سيّارة عُميلة بن الأعزل فيقول[٧] : « ففيه يقول شاعر من العرب »، ويذكر المطلب ووفاته فيقول[٨] : « فقال رجل من العرب يبكيه » ؛ ومثل ذلك كثير .

فنحن نرى إذن أن الشعر فى كتب التاريخ والسيرة ليس هدفاً يقصد لذاته ، ولم يكن موضعاً للتحقيق والتمحيص ، وإنما كان حلية أحياناً ، ودليلاً على القصة أو الخبر أحياناً أخرى ، وكان فى جميع هذه الأحايين يُقصَد منه التأثير فى نفوس السامعين أو القارئين حتى يندمجوا فى جوّ الحوادث نفسها وتصغو إليها أفئدتهم فيصدّقوها ، أو على الأقل لا يناقشوا أمر صحتها . ومن أجل هذا رأينا أصحاب التاريخ أو السيرة يروون شعرًا لا يكاد يشك أحد فى أنه مختلق موضوع ، بل إنهم هم أنفسهم — كما رأينا فى سيرة ابن إسحق — يشكّون فى هذا الشعر ، ويوردونه بعد عبارات تكشف عن بعض هذا الشك ، ولكنهم مع ذلك لا يملكون إلا أن يوردوه لأنه — كما ذكرنا — أصبح تراثًا شعبيًّا ، وأصبح لا مفر للمؤرخ من أن يجمعه ويورده مع كل حادثة قيل فيها . ومن أجل هذا وجدنا أيضاً أن

---

(١) السيرة ١ : ٢١٥ .
(٢) المصدر السابق ٤ : ٧٧ .
(٣) المصدر السابق ٤ : ٧٨ .
(٤) المصدر السابق ١ : ٧٦ .
(٥) المصدر السابق ١ : ١٠٥ .
(٦) المصدر السابق ١ : ١١٠ .
(٧) المصدر السابق ١ : ١٢٨ .
(٨) المصدر السابق ١ : ١٤٥ .

بعض الشعر الذى ورد فى كتب التاريخ والسيرة أرسل إرسالاً ، ولم ينسب إلى شاعر ، أو لم ينص على نسبته لشاعر ، وذلك لأن ما يعنى المؤرخ أو كاتب السيرة هو هذا الشعر نفسه وأنه قيل فى حادثة بعينها أو فى رجل بذاته ، أما تحقيق نسبة الشعر فليس مما يصرفون إليه جهدهم .

وما أحسبنى بعد ذلك مغالياً إذا ضممت كتب التاريخ أو السيرة إلى كتب اللغة والنحو — ولم أعدّها كلها مصدراً من مصادر الشعر الجاهلى يطمأن فيه إلى صحة ذلك الشعر الوارد فيه أو إلى نسبته إلى شاعر بعينه .

٣

وكتب الأدب العامة لا تختلف ، فى طريقة إيراد الشعر ، عن كتب النحو واللغة والسيرة والتاريخ ، ولو اقتصرنا فى حديثنا على كتابين من كتب الجاحظ هما : البيان والتبيين ، والحيوان ، لوجدنا فيهما مصداق ما نذهب إليه .

فالجاحظ — شأنه كشأن جميع من ألّف فى الأدب العام — لا يورد الشعر على أنه غاية تقصد لذاتها ، فلا يكلّف نفسه مشقة تمحيصه وتحقيقه والتثبت من نسبته وروايته ، وإنما يورد الشعر ليكون مثلاً أو شاهداً يتوسّل بهما لتوضيح ما يسوق من أخبار ، أو لدعم ما يذهب إليه من مناظرات ومناقشات . ومن أجل ذلك نراه — حين يذكر عادات العرب فى الخطابة ويردُّ على الشعوبية فى ذلك — يقول[١] : « وفى كل ذلك قد روينا الشاهد الصادق والمثل السائر » . وحين يتحدث عن أنواع الشعراء وطبقاتهم ، يورد على كل نوع وطبقة بيتاً أو أبياتاً من الشعر فيها ذكر لهذه الأنواع والطبقات أو لبعضها متخذاً من هذا الشعر دليلاً على صدق قوله[٢] . والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى ، بل إننا

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ٤ .

(٢) المصدر السابق ٢ : ٩ — ١٢ .

لنكاد نلهب إلى أن جميع ما أورده الجاحظ فى كتابيه هذين إنما ينهج فيه هذا النهج .

وإذا كان الجاحظ ومؤلفو كتب الأدب العامة يشتركون مع مؤلفى كتب النحو واللغة والسيرة والتاريخ فى هذه الخاصة وهى : إيراد الشعر على أنه دليل أو شاهد، فإن الجاحظ ومعه مؤلفو كتب الأدب العامة ينفردون عن مؤلفى الكتب التى ذكرناها بخاصة أخرى، وهى : أنهم لا يرمون من وراء كتبهم التى يؤلفونها فى الأدب العام إلى الفائدة العلمية وحدها، ولا يقتصرون فيها على التعليم والتثقيف وحدهما، أو قل إنهم لا ينهجون فيما ينقلون من العلم نهج الأسلوب العلمى الجاف الذى يرمى إلى القارئ بالقول من أقرب السبل ، وإنما ينهجون فى ذلك نهج الأسلوب الأدبى ، ويلجأون إلى الاستطراد والتنويع والتنقل من باب إلى باب ، ومن موضوع إلى موضوع ، ثم يعودون إلى ما بدأوا به ، ولا يكادون يمضون فيه قليلاً حتى يتجاوزوه إلى حديث آخر . فهم بذلك يجمعون بين التعليم والتسلية ، وبين التثقيف والإمتاع . ومن كان هذا شأنه لا يعنيه أن يقف عند موضوع بعينه وقفة طويلة يستغرق فيها جميع أطرافه ، وليس من شأنه أن يأخذ نفسه ويأخذ القارئ بالتحقيق والتمحيص . ومن أجل هذا نرى الجاحظ حريصاً على أن يوضح طريقته هذه توضيحاً لا لبس فيه فيقول[1] : « وقد ذكرنا من مقطعات الكلام وقصار الأحاديث بقدر ما أسقطنا به مؤونة الخطب الطوال. وسنذكر من الخطب المسندة إلى أربابها مقداراً لا يستفرغ مجهود من قرأها ، ثم نعود بعد ذلك إلى ما قصر منها وخف » . ويقول أيضاً[2]: « هذا — أبقاك الله — الجزء الثالث من القول فى البيان والتبيين ، وما شابه ذلك من غرر الأحاديث ، وشاكله من عيون الخطب ، ومن الفقر المستحسنة — والنتف المستخرجة ، والمقطعات المتخيرة ، وبعض

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ١١٧ .

(٢) المصدر السابق ٣ : ٥ .

ما يجوز فى ذلك من أشعار المذاكرة، والجوابات المنتخبة » . ويقول[١] : « كانت العادة فى كتب الحيوان أن أجعل فى كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار ، لما ذكرت عجبك بذلك . . . »

ويعلل الجاحظ اتباعه هذه الطريقة بقوله[٢] : « وجه التدبير فى الكتاب إذا طال أن يداوى مؤلفه نشاط القارئ له ، ويسوقه إلى حظه بالاحتيال له ، فن ذلك أن يخرجه من شىء إلى شىء ومن باب إلى باب . . . ونقصد من ذلك إلى التخفيف والتقليل، فإنه يأتى من وراء الحاجة، ويعرف بجملته مراد البقية ». ويقول بعد أن يورد بعض الأخبار والنوادر[٣] : «فجعلنا بعضها فى باب الاتعاظ والاعتبار وبعضها فى باب الهزل والفكاهة . ولكل جنس من هذا موضع يصلح له . ولا بد لمن استكدّه الجد من الاستراحة إلى بعض الهزل » .

ومن كانت هذه غايته ، كان خليقاً أن يجمع بين دفّتى كتابه ما يحقق له هذه الغاية ، يستوى عنده فى ذلك الخبر الصحيح والزائف ، والشعر الثابت والمشكوك فيه والموضوع ، وربما أورد من الأخبار والأشعار ما يعرف يقيناً زيفها ووضعها ، ولكنه يسوقها لأنه يستحسنها أو لأن فيها نادرة تناسب ما قبلها ، فمن ذلك أن الجاحظ يورد خبراً فيه شعر ثم يقول[٤] : « وأخلق بهذا الحديث أن يكون مولّداً ، ولقد أحسن من ولّده » .

ومن أجل هذا كله نرى الجاحظ لا يكلف نفسه مشقة التثبت والتمحيص ، والرجوع إلى ما بين يديه من كتب ومصادر ، وإنما يرتجل القول ارتجالاً ، ويسوقه فى كثير من التجاوز والتسامح ، ويدفعه إلينا كما ورد فى خاطره ساعة كتابته أو إملائه ، فهو يورد بيتاً من الشعر ثم يقول[٥] : « وهى أبيات لم أحفظ منها إلا هذا البيت » . ويقول أيضاً فى باب الخطب[٦] : « وخطبة أخرى ذهب عنى

(١) البيان والتبيين ٣ : ٣٠٢ .
(٢) المصدر السابق ٣ : ٢٦٦ — ٢٦٧ .
(٣) المصدر السابق ٢ : ٢٢٢ .
(٤) المصدر السابق ٤ : ٣٦ .
(٥) الحيوان ٢ : ١٣ .
(٦) البيان والتبيين ٢ : ١٢١ .

إسنادها » . ويقول[١] : « وإذا صرنا إلى ذكر الخطباء والنسابين ذكرنا من كلام كل واحد منهم بقدر ما يحضرنا » . ويقول بلسان صاحب الكلب وهو يردُّ على صاحب الديك[٢] : « لعلنا إن تتبعنا ذلك وجدناه كثيراً ، ولكنك تقدمت فى أمر ولم تشعر بالذى تعنى فنلتقط من الجميع أكثر مما التقطت . . . وما حضرنا من الأشعار إلا قوله . . . »

ولم يكن ارتجال الجاحظ للكلام ، ولا إلقاؤه إياه كما حضره فى ذاكرته ، عن قلة الكتب التى بين يديه ، وإنما كان ذلك لأن طريقة التأليف فى مثل كتب الأدب العامة لا تستدعى التثبت والتحقيق والرجوع إلى المصادر — كما بينّا فى مواطن كثيرة فى هذا الفصل . وإلا فقد عُرف الجاحظ بكثْرة ما لديه من كتب وبكثْرة ما قرأه واطلع عليه منها ، حتى لقد قال أبو هفان[٣] : « ثلاثة لم أرقط ولا سمعت أحبَّ إليهم من الكتب والعلوم : الجاحظ ، والفتح بن خاقان ، وإسماعيل بن إسحاق القاضى . فأما الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قطّ إلا استوفى قراءته كائناً ما كان حتى إنه كان يكترى دكاكين الورّاقين ويثبت فيها للنظر ... » بل إن فى كتابيه هذين ذكراً لبعض الكتب التى استمد منها بعض ما فيهما من أخبار وخطب وأشعار[٤] .

ومع كل ذلك فقد نثر الجاحظ فى كتابيه إشارات متفرقة عبّر بها عن شكه فيما أورد من شعر ، وهو شك قد يوهم بالتحقيق والتمحيص ، ولكن السياق الذى ورد فيه هذا الشك سياق له دلالة خاصة ، فالجاحظ مثلاً يورد بيتاً من الشعر ثم يقول[٥] : « فخبرنى أبو إسحق أن هذا البيت فى أبيات أخر كان أسامة صاحب روح بن أبى همام هو الذى كان ولّدها . فإن اتّهمت خبر أبى إسحق فسمِّ الشاعر ،

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٩٧ .

(٢) الحيوان ١ : ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(٣) ابن النديم ، الفهرست : ١٦٩ .

(٤) انظر مثلا : البيان والتبيين ١ : ٩٢ ، ١٣٥/١٣٦ ، ٣٣٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٨ ؛ ٣ : ٥٧ — ٥٨ .

(٥) الحيوان ٦ : ٢٧٨ .

وعات القصيدة ، فإنه لا يقبل فى مثل هذا إلا بيت صحيح ، صحيح الجوهر ، من قصيدة صحيحة لشاعر معروف » . ويورد بيتاً لأوس بن حجر ثم يقول : « وهذا الشعر ليس يرويه لأوس إلا من لا يفصل بين شعر أوس بن حجر وشريح ابن أوس » . ويورد بيتاً لبشر بن أبى خازم ويقول[1] : « وقد طعنت الرواة فى هذا الشعر الذى أضفتموه إلى بشر بن أبى خازم . . . وقالوا : فى شعر بشر مصنوع كثير مما قد احتملته كثير من الرواة على أنه من صحيح شعره . » ويورد شعراً للأفوه الأودى ثم يقول[2] : « وما وجدنا أحداً يشك فى أن القصيدة مصنوعة » .

وعلى الإشارات الكثيرة إلى وضع الشعر وردت كلها فى موطن واحد ، وهو حديثه عن علامات النبوة وانقضاض الكواكب ، فى معرض ردّ الجاحظ على من يزعم أن انقضاض الكواكب أمر معروف فى الجاهلية وقد ذكره الشعراء الجاهليون فى شعرهم ، ومن هنا ذهب بعضهم إلى أنه : ليس فى انقضاض الكواكب دلالة على النبوة . فكان من بين ما رد به الجاحظ على هؤلاء أن شك فى هذا الشعر ودفعه وذهب إلى أنه مصنوع . فالجاحظ إذن لم يشك فى هذا الشعر لأن تحقيق الشعر وتمحيصه غايتُه ومقصده ، وإنما اتخذ ذلك سبيلاً ، من سبل كثيرة اصطنعها ، للرد على مناظريه أو المخالفين له فى الرأى . ومن أجل هذا نراه لا ينقد الشعر الذى يورده ابتداءً ، إلا فى مواطن قليلة جداً حيث يورد عبارة واحدة متكررة هى قوله « إنْ كان قالها » . فهو يقول[3] : « وقال أمية — إن كان قالها » ثم يورد شعراً ، ويقول[4] : « وقال تأبط شرًّا — إن كان قالها » . ثم يورد أبياتاً ، ويقول[5] : « وقال العبدى — إنْ كان قاله . » وربما كانت هذه العبارة تفيد شكه فى نسبة الشعر الذى يورده للشاعر الذى ذكَره ، ولكنها أيضاً

---

(١) الحيوان ٦ : ٢٧٩ .

(٢) المصدر السابق ٦ : ٢٨٠ .

(٣) المصدر السابق ٣ : ٤٩ .

(٤) المصدر السابق ٣ : ٦٨ .

(٥) المصدر السابق ٤ : ٢٤٨ .

قد تفيد ، فيا نرى ، شكه فى ذاكرته وحفظه ، فقد ذكرنا قبل قليل أن الجاحظ لا يكاد يرجع إلى ما بين يديه من كتب ومصادر ، وإنما يكتب أو يُملى ما يرد فى خاطره وما يحضر فى ذاكرته ، فلعله أيضاً فى هذه المواطن يقصد بهذه العبارة المتكررة أنه إنما يكتب من ذاكرته ، ولذلك فهو يشك فى حفظه لنسبة الشعر الذى يورده ، فإن كان ذلك كذلك ، يكنْ هذا دليلاً جديداً على ما نذهب إليه من أن الجاحظ إنما يورد الشعر وسيلة لا غاية ، وأنه لا يتكلف مشقة تحقيقه وتمحيصه والتثبت من نسبته وصحته .

ومن الأدلة على هذا الذى نذهب إليه ما ورد فى الكتابين : الحيوان ، والبيان والتبيين ، من أخطاء فى نسبة الشعر . وهى أخطاء لا يصح أن تقع إلا من السرعة أو الاعتماد على الحافظة لأنها فى أغلبها نتيجة لتشابه فى الأسماء ، فمن ذلك أن الجاحظ ينسب فى الحيوان شعراً لخُفَاف بن نُدْبة [1]، وينسبه فى البيان والتبيين للبُرْجمى [2]، والصواب أن هذا الشعر لخفاف بن عبد قيس البرجمى [3]. ومن ذلك أيضاً أنه ينسب بيتين فى البيان والتبيين لحميد بن ثور الهلالى، والصواب أنهما لحميد الأرقط [4] . ونسب فى الحيوان لخفاف بن ندبة البيت التالى [5] :

أَبَا خُرَاشَةَ إمَّا كنتَ ذَا نفرٍ فإنَّ قَوْمِىَ لم تأْكُلْهُمُ الضَّبُعُ

وأبو خُراشة هى كنية خُفاف بن نُدْبة ، فليس هو إذن صاحب هذا البيت وإنما هو المخاطَب به ، وقائله العباس بن مرداس السلمى .

ودليل آخر على ما نذهب إليه هو هذا الاختلاف فى نسبة الشعر بين الحيوان والبيان والتبيين فمن أمثلة ذلك أن شعراً نسب فى الحيوان إلى أبى ذؤيب الهذلى [6] ، ولكنه نسب فى البيان والتبيين إلى المتنخل الهذلى [7] . ونسب

---

(١) الحيوان ١ : ١٣٣ .
(٢) البيان والتبيين ٢ : ١١ .
(٣) المصدر السابق ، هامش : ٦ .
(٤) المصدر السابق ١ : ٦ .
(٥) الحيوان ٥ : ٢٤ ، وهامش : ٢ .
(٦) الحيوان ٥ : ٢٨٥ .
(٧) البيان والتبيين ١ : ١٧ .

الجاحظ بيتين فى البيان والتبيين للفزارى[١] ، وكان نسبهما فى الحيوان لحريز ابن نشبة العدوى[٢] . ونسب أبياتاً فى البيان لسالم بن وابصة [٣] ، بينما نسبها فى الحيوان للعرجى [٤] . إلى آخر ما فى الكتابين من خلاف فى نسبة الشعر .

وآخر هذه الأدلة ما ذكرناه آنفاً عند حديثنا عن كتب النحو واللغة والسيرة والتاريخ ، وهو : إغفال اسم الشاعر ، والاقتصار على قوله « قال الشاعر »[٥] ، أو « قال آخر »[٦] ، أو « قال أعرابى »[٧] ، أو ما شابه ذلك من العبارات التى تدل على أن المؤلف غير حريص على تحقيق نسبة الشعر ولا يعنيه من أمره إلا أنه وجد بيتاً أو أبياتاً تناسب ما أورد من حديث . وكثيراً ما يغفل اسم الشاعر ويكتفى بذكر القبيلة وحدها مثل قوله « قال بعض القرشيين »[٨] ، أو « قال الأسدى »[٩] ، أو « قالت امرأة من بنى أسد »[١٠] ، أو « قال الفزارى »[١١] ، أو « قال بعض القيسيين »[١٢] ، أو « قال العبدى »[١٣] ، وكثيراً ما يقول فى مواطن متفرقة « قال الهذلى » ثم يورد أبياتاً من الشعر لشعراء مختلفين من هذه

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ١٦٠ .
(٢) الحيوان ٤ : ١٥١ .
(٣) البيان والتبيين ١ : ٢٣٣ .
(٤) الحيوان ٣ : ١٢٧ .
(٥) الأمثلة على ذلك كثيرة انظر مثلا البيان والتبيين ١ : ٩٤ ، ١٠٩ ، ٢/٢٧٤ : ٣٢٩ والحيوان ٣ : ٣١٠ ، ٣١٧ ، ٤٤٤ .
(٦) انظر مثلا البيان والتبيين ١ : ٧٨ ، ١٩٠ ، ٢١٢ ، ٢٣١ ، ٢/٢٣٣ : ٢٨٤ . والحيوان ٣ : ٣١٧ ، ٣٨٨ ، ٤١٧ ، ٤٢٣ .
(٧) انظر مثلا البيان والتبيين ١ : ٢١٢ ، ٢١٣ .
(٨) البيان والتبيين ١ : ١٨ .
(٩) البيان والتبيين ١ : ١٥٩ / ٢ : ١٦٠ ، ٢٨٠ .
(١٠) المصدر السابق ١ : ١٨٠ .
(١١) المصدر السابق ٢ : ١٦٠ .
(١٢) الحيوان ١ : ١٣٤ .
(١٣) الحيوان ٤ : ٢٤٨ .

القبيلة ، فحيناً يكون البيت لأبى العيال الهذلى[١] ، وحيناً ثانياً لحبيب بن عبد الله الهذلى [٢] ، وحيناً ثالثاً لأبى ذؤيب الهذلى[٣] ، وحينا رابعاً لأبى خراش الهذلى [٤]، وهكذا . .

• • •

وخلاصة كل ما تقدم فى هذا الفصل أن الشعر فى هذه الضروب المختلفة من الكتب ليس غاية ً تُقصَد، وإنما هو وسيلة تُلتمَس لغيرها من الغايات، فهو يساق حيناً للاستدلال والاحتجاج كما فى كتب النحو واللغة ، وهو يساق حيناً آخر للاستشهاد والتمثل وتقوية الخبر وتزيينه كما فى كتب السيرة والتاريخ والأدب العام . وبذلك لا يُعْنى مؤلفو هذه الكتب بتحقيق نسبة الشعر إلى شاعر بذاته ، وإنما حسبهم أن يكون هذا الشعر قديماً قيل فى عصر يصح الاستشهاد والاحتجاج به، أو قالته قبيلة من القبائل بحيث يكون شاهداً على لهجتها – كما هو الشأن فى كتب النحو واللغة ؛ أما كتب السيرة والتاريخ والأدب العام فبحسب مؤلفيها أن يجدوا لديهم شعراً قيل فى الحادثة التى يروونها، أو أبياتاً تناسب الحديث الذى يسوقونه ، وليس يعنيهم بعد ذلك تحقيق نسبة الشعر إلى شاعر بعينه ، بل لا يعنيهم التثبت من صحة الشعر نفسه ، وربما أوردوا شعراً يدركون هم أنفسهم أنه زائف موضوع ، ولكن ذلك لا يمنعهم من إيراده لما فيه من نادرة أو حديث مستطرف . ومن أجل هذا كله لا نحسبنا مغالين إذا قلنا إن هذه الكتب كلها ، بأنواعها المختلفة ، ليست بطبيعتها مصدراً أصيلاً من مصادر الشعر التى يُعتمَد عليها ؛ وإنما المصدر الأصيل الذى يصح للباحث المحقق أن يطمئن إليه ويعتمد عليه ،

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٣ .

(٢) المصدر السابق ١ : ٢٧٥ .

(٣) المصدر السابق ١ : ٢٧٧ .

(٤) المصدر السابق ١ : ٢٢٩ .

هو هذه الدواوين الشعرية التى اقتصرت على الشعر نفسه واتخذته غايةً لذاته، وأفرغ جامعوها وصانعوها وشرّاحها جهدهم فى التثبت من صحة كل قصيدة بل كل بيت، والتحقق من نسبة كل ذلك إلى شاعره، ودفع ما لا تثبت لهم صحته أو نسبته، والنص على ما يشكُّون فيه منه. هذا الجهد الخصب المثمر الذى بذله العلماء الرواة منذ مطلع القرن الثانى الهجرى، وبلغ غاية نشاطه فى النصف الأخير من القرن الثانى ومطلع القرن الثالث — هذا الجهد الخصيب المثمر من التنقيب والتدقيق والتحقيق والتمحيص للتثبت من صحة الشعر وأصالته ونسبته — هو الذى أخرج لنا هذه الدواوين التى تناقلها التلاميذ من الرواة العلماء عن شيوخهم بالرواية جيلاً بعد جيل حتى وصلت إلينا مروية عن هؤلاء العلماء، مسندةً إلى عالم راوية من علماء الطبقة الأولى فى النصف الأخير من القرن الثانى. هذه الدواوين وحدها هى المصدر الأولىّ الوحيد الذى يُعتمد عليه فى إثبات صحة الشعر وفى التحقق من نسبته إلى شاعر بذاته. وقد وفينا كل ذلك حقه من البحث فى الفصول الثلاثة السابقة من هذا الباب.

الخاتمة

خلاصة البحث

خاتمة

الخلاصة :

لهذا البحث — على تشعُّب طُرُقه وتباعد أطرافه — وحدة عامة تنتظمه كلَّه : تقرِّب منه ما تباعد، وتجمّع ما تفرّق . ولهذه الوحدة العامة دعائم ترتكز عليها وتقوم بها :

١

أولها : أن هذا الموضوع ، كغيره من الموضوعات ، يدور فى نطاق إطار معيّن من الزمان والمكان والسكان . فكان لا بدّ لنا من أن نمهِّد بين يدى بحثنا بتحديد معالم هذا الإطار . وخلصنا من كل ذلك إلى أن موطن العرب ، فى جاهليّتهم ، كان متفاوتاً فى طبيعة أرضه ، وفى طبيعة مُناخه ، وفى طبيعة سكّانه . أما السكان أنفسهم فكانوا طوائف ثلاثاً : أعراباً موغلين فى الصحراء ، يرتادون الكلأ ، وينتجعون مواقع القَطْر ، ويحيون حياةً لا تكاد تعرف من أسباب الحضارة والمدنية شيئاً . ثم سكان الحواضر من أهل المدَر الذين كانوا يحيون حياة مستقرة ثابتة ، فى المدن والقرى ، فى داخل الجزيرة العربية وعلى أطرافها : فى مكة والمدينة والطائف والحيرة والأنبار وقرى اليمامة. ثم طائفة ثالثة هم سكان البادية الذين ابتعدوا عن جوف الصحراء واستوطنوا مشارف المدن والقرى فى ظواهرها وضواحيها ، يحيون حياة فيها شىء من الاستقرار ، وشىء من الأخذ بأسباب الحضارة والمدنية .

والقبيلة العربية نفسها لم تكن شيئاً غير هذا ، بل إن هؤلاء العرب بطوائفهم الثلاث لم يكونوا إلا قبائل عربية ؛ فليست القبيلة كلها إذن أعراباً

موغلين فى الصحراء ، بعيدين عن كل أسباب الحضارة والمدنية ، وإنما كانت القبيلة الواحدة فى الجاهلية — كما كانت فى صدر الإسلام ، بل كما هى لعهدنا هذا — ثلاثة أقسام : قسم ما زال ضارباً فى جوف الصحراء ، وقسم تحضر واستقرّ وسكن المدن والقرى ، وقسم بين هذين القسمين : يبتعد عن جوف الصحراء ولكنه لا ينزل قلب المدن والقرى ، وإنما يستوطن باديتها وظاهرها . وعلى ذلك كانت : قريش والأوس والخزرج وهُذَيل وعبد القيس وبكر وتغلب وأكثر قبائل العرب ، يتحضر بعضها ويسكن المدر فى : مكة ويثرب والطائف وقرى اليمامة والجزيرة ، ويبدو بعضها فينزل فى ظواهر هذه المدن والقرى وضواحيها ، ثم يبقى بعضها على ما كان عليه أصلاً فى جوف الصحراء .

وكما انقسمت القبيلة العربية الواحدة ثلاثة أقسام فى موطنها وحياتها الاجتماعية ، كانت كذلك فى دينها : فقد كانت أكثر القبائل فى الصحراء وثنية مشركة ، وكان كذلك بعض هذه القبائل فى البادية والحواضر ، ولكن من هذه القبائل نفسها من كان يعبد الله ، إما لأنه دخل فى النصرانية أو اليهودية ، وإما لأنه ما زال مقيماً على بعض دين إبراهيم . فاليهود والنصارى فى بلاد العرب كانوا فى أكثرهم قبائل عربية تهوّدت أو تنصّرت .

وكانت هذه المدنية التى عرفها سكان الحواضر وقُطّان البوادى المطيفة بها — على تفاوت نصيبهم منها فى الجاهلية الأخيرة القريبة من الإسلام — نتاجَ عاملين كبيرين : عامل تليد موروث يحسّون به ولا يكادون يستبينونه فى وضوح ، ويدركون أطرافاً منه ، ولكنهم لا يقوون على بعث الحياة فيه ، وكانت آثار هذه المدنية الموروثة بشواهدها ماثلة أمام أعينهم ، يرونها فى حِلّهم وترحالهم ، حتى إذا نزل القرآن ذكّرهم بها واستمدّ منها العظة والعبرة . وعامل طريف مقبوس يستمدونه من اتصالهم الوثيق بالحضارات القائمة من حولهم فى بلاد فارس والروم ومصر .

ومن أجل ذلك كله كان لا بد للباحث من أن يتنبّه لهذه الفروق الكبيرة فى

حياة العرب ومجتمعاتهم في الجاهلية ، فلا يُلقي القول إلقاءً عامًّا يشمل عرب الجاهلية كلهم . فإن من الخطأ أن نعمّم على سكان الحواضر والبوادي أحكاماً يتّصف بها قطان الصحارى وحدهم ، أو أن نَصِمَ أهل المدر بالجهل والبداثية اللذين كانا من صفات بعض أهل الوبر .

وإذْ كان ذلك كذلك ، كان لا بدّ لسكان الحواضر المستقرّين في مدنهم وقراهم ، ولقطان البادية القريبة من الحواضر ، المطيفة بها — من أن يأخذوا بنصيب متفاوت من مظاهر الحضارة التي كانت تعرفها الأمم المجاورة لهم .

٢

ومن هنا كان حديثنا في الباب الأول من بحثنا عن أهم مظهر من مظاهر هذه الحضارة — وهو الكتابة والتدوين . فاستقرَيْنا في الفصل الأول النقوش الجاهلية الشمالية ، وانتهينا إلى أن هذا الخط العربي — الذي عُرِف في الإسلام بالخط الكوفي — قد كان معروفاً في الجاهلية منذ مطلع القرن الرابع الميلادي على أقل تقدير ، وأن عرب الجاهلية قد كتبوا بهذا الخط الذي كان المسلمون يستطيعون قراءته في يُسْر ، ونستطيع نحن الآن أن نقرأه بعد شيء من المرانة والدربة — ثلاثةَ قرون قبل الإسلام أو تزيد . ثم جمعنا قدراً صالحاً من النصوص والروايات — بعضها يكاد يكون قاطع الدلالة — وخلصنا منها إلى ترجيح معرفة عرب الجاهلية بالنَّقْط والإعجام . ثم عرضنا آراء بعض القدماء الذين عمموا الحكم على عرب الجاهلية فوصموهم بالجهل والأمية ، ورددنا هذه الأحكام ردًّا اطمئننا إلى صوابه ، وزاد اطمئناننا حين جمعنا بعض أسماء المعلمين في الجاهلية ، وبعض النصوص والأخبار التي تشير إلى قيام مدارس لتعليم الكتابة في الحواضر العربية في الجاهلية نفسها ، وزدنا على ذلك أن بعض عرب الجاهلية لم يكونوا يكتفون بتعليم الكتابة العربية وحدها ، وإنما كانوا يتعلمون أيضاً لغات الأمم التي تربطهم بهم روابط كثيرة ،

فكان من العرب من يكتب العربية والسريانية والعبرية والفارسية ، وكان فى بلاد فارس وفى بلاط النجاشى مترجمون من العرب يكتبون بالعربية حين يحتاج الأمر إلى أن يترجموا إليها ويكتبوا بها .

واستوفينا فى الفصل الثانى بحث هذا الموضوع حين تحدثنا عن الموضوعات التى كان يكتبها عرب الجاهلية ، والمواد والأدوات التى كانوا يستخدمونها فى كتابتهم ؛ فجمعنا من النصوص والروايات ما يشير إلى أن عرب الجاهلية كانوا لا يكادون يتركون شأناً من شئون حياتهم الخاصة والعامة إلا سجّلوه وقيّدوه ، ولم يتركوا مادة ولا أداة عرفها العالم من حولهم آنذاك إلا استخدموها فى كتابتهم . فكانوا يدوّنون كتبهم الدينية بالعربية وبالعبرية والسريانية ، وكانوا يكتبون عهودهم ومواثيقهم وأحلافهم ، ويسجّلون فى الصكوك حسابَ تجارتهم وحقوقَهم ويكتبون رسائلهم فى جليل أمورهم وصغيرها ، بل كانوا يكتبون مكاتبات رقيقهم وينقشون خواتمهم وشواهد قبورهم .

واستخدموا فى كتابتهم الجلد : من رَقّ وأديم وقضيم ؛ والقماشَ المصنوع من القطن الأبيض يصقلونه ويُعدّونه للكتابة ويسمونه المهارق ؛ وأنواعَ النبات وخاصة العُسُب ، والخشب ؛ واستخدموا العظام بأنواعها المختلفة. ثم تحدثنا عن الورق حديثاً مفصلاً انتهينا منه إلى ترجيح استخدام عرب الجاهلية لورق البرديّ فى الكتابة .

وكان ختام هذا الباب حديثاً موجزاً عن وصف الخط والكتابة فى الجاهلية . وبذلك نكون قد رجحنا ثلاثة أمور لها قيمتها وخطرها ؛ أولها : قِدَمُ معرفة عرب الجاهلية بالخطّ العربى معرفةً لا تقلّ عن ثلاثة قرون قبل الإسلام ؛ وثانيها : نقط الحروف وإعجامها فى الكتابة منذ الجاهلية نفسها ، وثالثها : قيام المدارس ووجود المعلمين لتعليم الخط وانتشار الكتابة بين عرب الجاهلية انتشاراً أتاح لهم أن يسجّلوا بها كثيراً من شئونهم وأن يستخدموا لذلك كثيراً من الأدوات .

٣

وكان من الطبيعي بعد ذلك أن نخصص الحديث ، في الباب الثاني ، بكتابة الشعر الجاهلي وحده . ورأينا أن هذه الكتابة ذات صورتين مختلفتين : صورة ضيقة محدودة لا تعدو مجرَّد التسجيل على صحيفة واحدة قد تزيد أو تنقص ، وسميناها التقييد ؛ وصورة واسعة تُضَمُّ فيها هذه الصحف إلى بعضها حتى يكون منها كتاب أو ديوان ، وسميناها : التدوين .

ثم رأينا أن بين أيدينا ضربين من الأدلَّة على تقييد الشعر الجاهلي منذ الجاهلية نفسها ؛ وهما : أدلة عقلية استنباطية ، وأدلة صريحة نصيَّة .

أما الأدلة العقلية الاستنباطية فأربعة : أولها استنتجناه من كل ما قدمناه في الباب الأول عن معرفة عرب الجاهلية بالكتابة ، ورأينا أن الشعر كان للقبيلة وللفرد العربي في الذروة العليا من القيمة والخطر : إذ هو ديوان أمجادهم وأحسابهم ، وسجل مفاخرهم ومآثرهم . وكانت القبيلة تحرص أشد الحرص على فخر الشاعر إذا كان منها ، وعلى مدحه إذا كان من غيرها ، وتخشى أشدَّ الخشية هجاءه ، تبذل من ذات نفسها ومالها ما تطيق وفوق ما تطيق لتدفعه عن نفسها ؛ وكذلك كان الرجل العربي في حرصه على المدح وخوفه من الهجاء . فإذا كان العرب آنذاك يقيِّدون عهودهم ومواثيقهم ورسائلهم وصكوك حسابهم وسواها من الموضوعات التي تتصل بشئون حياتهم ، ألا يرجِّح ذلك أنهم كانوا كذلك يقيِّدون هذا الشعر الذي يخلِّد أمجادهم وأحسابهم ويسجِّل مفاخرهم ومآثرهم ؟ وإذا كان أمر الشعر بهذا الخطر للممدوحين ، فهل كان ملوك الحيرة وملوك غسان وأشراف مكة والمدينة والطائف وساداتها وأثرياؤها ، وسادات نجران واليمن ، هل كان كل أولئك لا يقيِّدون ما يُمْدَحون به من الشعر — أو بعضه — مع أنهم كانوا يقيِّدون سائر أمورهم ؟

وثانيها : أن الشعر كان له من القيمة والخطر للشعراء أنفسهم ما كان للقبيلة والممدوحين . فقد كان هذا الشعر عند غير المتكسّبين بالمدح واجباً قَبَلِيًّا تفرضه على الشاعر طبيعة ارتباطه بقبيلته ، أو واجباً خلقيًّا تمليه عليه مآثر سلفت من صاحبها لقبيلة الشاعر أو للشاعر نفسه ، وأما المتكسبون بالمدح فقد كان الشعر مورداً من موارد ارتزاقهم ، أو لعله المورد الوحيد . أليس عجيباً بعد ذلك ألا يعنَى الشاعر ، وهذه قيمة الشعر عنده ، بأن تحفظ الكتابةُ شعرَه أو بعضه ؟ ولا سيما الشعراء الذين كانوا يعرفون الكتابة ويستخدمونها ، وقد عددنا منهم فى هذا الفصل طائفة ليست قليلة .

وثالث هذه الأدلة العقلية يتناول ضرباً خاصًّا من الشعر الذى وصفه فى شعره : امرؤ القيس بن بكر ، وكعب بن زهير ، ثم وصفه الجاحظ وابن جنِّى — والذى هو نتاج عمل عقلىٍّ مركَّب .

فإذا كنا لا ننكر أن بعض الشعراء كانوا يرتجلون الشعر ارتجالاً ، وأن بعضهم كان ينديلث منهم الشعر اندلاثاً هيِّناً سمحاً ، وأن هاتين الطائفتين أو بعض رجالهما لا تضطرهم طبيعة هذا الضرب من الشعر إلى تقييده وإثباته بالكتابة — إذا كنا لا ننكر ذلك ، فإنه لا بد لنا من أن نتريَّث قليلاً عند الفئة الأخرى من الشعراء وشعرهم ، وأن نتوقَّف عن أن نسحب عليهم حكم الضرب الأول . ويبدو لنا أنه لا بد من أن نرجِّح أن الشاعر الذى كانت تمكث عنده القصيدة حولاً كاملاً أو زمناً طويلاً ، يردِّد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلِّب فيها رأيه ؛ والشاعر الذى كان يعرض له فى الشعر من الصبر عليه ، والملاطفة له ، والتلوُّم على رياضته ، وإحكام صنعته نحوٌ مما يعرض لكثير من المولَّدين ؛ والشاعر الذى كانت تكثر عليه القوافى فيذودها عنه ذياداً ، ثم ينتقى منها الجيِّد انتقاءً ، وينظر إلى قوافيه وألفاظه نظرة الجوهرىِّ إلى لآلئه ، يعزل مرجانها جانباً ، ويأخذ المستجاد من درِّها ؛ والشاعر الذى يتنخَّل كلامه تنخلاً ، ويثقِّف ألفاظه وقوافيه حتى تلين متونها — نرجِّح أن هؤلاء الشعراء لم

يكونوا ليستطيعوا أن يقوموا بهذا العمل العقلى الذى يستغرق هذا الوقت الطويل دون أن يكون الشعر مقيَّداً أمامهم على صحيفة يرجعون إليها بين وقت وآخر : يزيدون عليه أو ينقصون منه ، ويستبدلون لفظة بلفظة ، وقافية بقافية .

وآخر هذه الأدلة العقلية هو ما وجدناه من شعر جاهلى يحفل بذكر الكتابة وصورها ، والإشارة إلى أدواتها ، وتشبيه الأطلال والرسوم ببقايا الخطوط على الرّقّ والمهارق وسائر أنواع الصحف . ولم نذكر من هذا الشعر إلا ما فيه صُوَر شعرية مركَّبة تنبئ عن أن قائلها لا بد أن يكون عالماً بهذه الصور ، وأن الجاهل بها لا يتأتّى له ذكرها ووصفها على هذا الوجه المفصّل .

وبعد أن استوفينا هذه الأدلة العقلية التى استنتجنا منها أن بعض شعراء الجاهلية ربما استخدموا الكتابة فى تقييد بعض شعرهم ، انتقلنا إلى ذكر الأدلة الصريحة المباشرة ، فأوردنا ما يزيد على عشرين نصاً ورواية ، لممنا شتاتها ، وجمعنا متفرّقها ، ونظمناها فى سلك واحد لنرى أنها واضحة صريحة فى أن بعض الشعر الجاهلى كان يقيَّد ، سواء أكان الشعراء الجاهليون أنفسهم هم الذين يقيدونه بخط أيديهم ، أم كانوا يستكتبون غيرهم لتقييد شعرهم .

أما تدوين الشعر الجاهلى فقد وجدنا أننا لا تستقيم لنا طرائق بحثه إلا إذا عبّدنا من حوله سبل الحديث عن نشأة التدوين العام وأوائل المؤلفات المدوّنة ، وذلك لأنه لا تخصيص إلا بعد تعميم ، فإذا كان الأصل الكلى — وهو التدوين عامةً — ما زال غامض النشأة ، مشكوكاً فى بداياته ، منكوراً قِدَمُه وسبقه ، فإن الفرع الجزئى — وهو تدوين الشعر الجاهلى بخاصة — لا يصح أن يقوم وحده معلّقاً فى الفضاء وحوله سحب الشك والإنكار . ومن أجل ذلك مهّدنا بحديث موجز انتهى بنا إلى ثلاثة أمور :

الأول : ان صحف الكتابة كانت — منذ ظهور الإسلام وفى القرن الأول الهجرى — من الكثرة والشيوع بمنزلة يتيسّر معها ، لمن أراد ، أن يشترى منها ما يفى بحاجته ، فيستطيع أن يضمّ بعضها إلى بعض ، ويؤلّف أجزاءها ، ويجعل من

مجموعة هذه الصحف كتاباً أو ديواناً مؤلَّفاً .

والثانى : استيفاءٌ للأول ، وهو بيان المظهر اللغوى ، أو الصورة اللغوية للتدوين فى ذلك العصر المبكر ، فجمعنا من الألفاظ التى وردت فى نصوصهم وأخبارهم والتى كانوا يطلقونها ليدلُّوا بها على مجموعة الصحف المدوَّنة ، والتى كانت تختلف عن ألفاظهم الدالَّة على الصحيفة المفرَدة — جمعنا من كل ذلك ما يدعم معرفتهم بالتدوين .

والثالث : أننا عرضنا من الروايات والنصوص عن تدوين الحديث والفقه ، والتفسير ، والمغازى والسيرة ، ما لا يبقى معه شك فى أن بعضها كان يدوَّن منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعهد صحابته .

أما الشعر الجاهلى نفسه فقد دوِّن منذ هذا العهد المبكر تدويناً عامًّا ضمن هذه الموضوعات التى ذكرناها للاستشهاد به ، أو الاحتجاج ، أو التمثُّل ، أو تفسير الألفاظ وشرح غريبها . وكان مدوِّنو الحديث والتفسير والمغازى والسيرة هم من رواة الشعر وحفَّاظه . ودوِّن فضلا عن ذلك تدويناً خاصًّا مستقلاً . فجمعنا من الأخبار والروايات ما تقطع بأن الشعر الجاهلى كان مدوناً فى القرن الأول الهجرى ، وأن العلماء الرواة فى القرن الثانى قد وصلهم بعض هذه المدونات الشعرية واعتمدوها أصلاً من الأصول التى استقوا منها ما جمعوا من هذا الشعر . ثم أضفنا إلى هذه الأخبار والروايات الصريحة دليلاً ثانياً على أن العلماء الرواة فى القرن الثانى قد أخذوا من المدوَّنات ، وهو ما وقعوا فيه من تصحيف ، ثم جمعنا أمثلة على التصحيف الذى لا يمكن أن يكون من خطأ فى السماع ، وإنما ينشأ من خطأ فى القراءة .

وإذا كان ذلك كله ينتهى بنا إلى أن هذا الشعر الجاهلى قد كان مدَوَّناً فى القرن الأول الهجرى ، فقد قطعنا شوطاً آخر قبله ، وجمعنا من النصوص والأخبار ما يرجِّح أن بعض هذا الشعر قد كان مدوَّناً منذ الجاهلية نفسها ، وحين استوى بين أيدينا كل ذلك زدنا عليه حديثاً موجزاً عن كتب القبائل والنسب ، وعن كتب العلم التى كانت تشتمل على بعض الحكم والأمثال وجوامع الكَلِم ، وأن

بعضها كان كذلك يدوّن فى الجاهلية .

ثم تساءلنا عن السبب الذى جعل علماء القرن الثانى يُغفلون ذكر مصادرهم المدوّنة إذا كانوا قد أخذوا عن الصحف حقًّا . وقد وجدنا جواب ذلك فى هذه النصوص والأخبار الكثيرة التى أوردناها ، والتى تدلّ على أن القوم آنذاك كانوا يضعّفون كلّ من يأخذ عن صحيفة أو ينقل من كتاب ، وكانوا يلمزونه ويدْعونه صحفيًّا ، فكان لا بد إذن لهذا العالم من أن يأخذ علمه من مجالس العلماء الشيوخ . وحين وصفنا هذه المجالس وضّحنا معنى الرواية الأدبية ، وقلنا إن الرواية كانت طريقة علمية متكاملة تقوم على دعامتين : الكتاب والسماع . فقد كان العالم الحقّ الجدير بالثقة هو الذى يتصل بالعلماء من ذوى السن ، فيحضر مجالسهم ويلازمهم ويستمع إليهم ويأخذ عنهم ، والكتاب فى كل ذلك، أو فى أكثره ، هو الوسيلة أو الأداة : يقرأه على شيخه ، أو يستمع إلى بعض من يقرأه ، وقد تكون فى يده نسخة أخرى من الكتاب يتابع قراءة القارئ ، والشيخ يستمع : يصحّح الخطأ ، ويشرح الغريب ، ويذكر من وجوه الخلاف فى الألفاظ ما بلغ إليه علمه ، ويتحدّث عما حول النص من جوّ تاريخى ، وقد يقوده اللفظ أو الخبر إلى لفظ فى بيت آخر ، أو إلى خبر فى حادثة أخرى ، فيستطرد ، ثم يعود إلى حيث كان . ثم إذا بلغ هذا المتعلم من العلم مبلغاً يتيح له أن يجلس منه المتعلمون مجلسَه من أولئك العلماء ، لم يذكر الصحيفة التى أخذ منها أو الكتاب ، لئلا يُتوهَّم فيه أنه صحفى اكتفى بالأخذ عن الصحف — وإنما أسند ما يلقيه من العلم إلى شيوخه ، فيقول : حدثنا فلان ، وأخبرنا فلان ، وسمعت فلاناً يقول . وهذه الصيغ المختلفة للتحديث ُموهِمةٌ أنها كانت روايةً شفهيةً ، وأن مجلس العلم كان كله حديثاً لا كتاب فيه . ولكن الأمر على غير ذلك ، فإن هذه الصيغ كلها إنما تدلّ على ما ذكرناه من حديث العالم الشيخ فى مجلسه ، والمتعلمون والعلماء من حوله يقرأون أو يستمعون إلى ما يقرأ ، والشيخ العالم يشرح . ثم أوردنا أخباراً وروايات كثيرة تدل على أن مجالس العلم كانت

تقوم على قراءة الكتاب وحديث الشيخ معاً ، بل لقد جمعنا أخباراً أخرى تدل على أن الإسناد وصيغ التحديث قد تُوهِم السَّماع على حين لا سماع ، وإنما هو أخذ من الصحيفة وحدها من غير قراءة على الشيخ وسماع منه .

٤

وبعد أن استوفينا — فى كل ما تقدم — الحديث عن الدعامة الأولى للرواية الأدبية : وهى الصحيفة المدوَّنة ، كان لا بد لنا من أن نتحدث عن الدعامة الثانية وهى الرواية الشفهية أو السماع . فانتهينا إلى ثلاثة أمور فصَّلناها فى ثلاثة فصول :

أولها : بحث لغوى فى دلالة لفظَىْ : رواية وراوية ، وأطوارهما اللغوية التاريخية ؛ دخلنا منه إلى تفصيل الحديث عن التدوين والرواية فى حفظ الشعر ، وذكرنا أن هذا التدوين الذى ذكرناه — على ما كان من وجوده بل من انتشاره — لم يكن له من سعة هذا الانتشار ما يتيح وجود نسخ كثيرة من الديوان الواحد تفى بحاجة القارئين آنذاك . لقد كان هذا الشعر — أو بعضه — مُدَوَّناً ، ولكن تدوينه كان مقصوراً على نسخ معدودة — هى الأمهات أو المراجع ، ينسخها أفراد قلائل من الرواة أو الشعراء أو أبناء قبيلة الشاعر أو الممدوحين من السادة والأشراف ، ثم يحفظ هؤلاء جميعاً ، أو بعضهم ، هذا الشعر ، ويتناقلونه إنشاداً — لا قراءةً — فى مجالسهم ومشاهدهم وأسواقهم ، ويردِّدونه شفاهاً فى سَمَرِهم ومحافلهم ومُنافراتهم ومواقف فخرهم ؛ فيشيع بين العرب ، ويتناقله الرُّكبان ، عن هذا الطريق من الرواية الشفهية ، من فرد إلى فرد ، ومن جيل إلى جيل ؛ لا عن طريق القراءة والمدارسة من الكتاب أو الديوان .

ثم انتهينا إلى الحديث عن أمر له قيمته وخطره ، وذلك هو اتصال رواية الشعر الجاهلىِّ من الجاهلية نفسها إلى عصر التدوين العلمى فى القرن الثانى .

ومهّدنا لحديثنا بقول عمر بن الخطاب : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه » ، وتعقيب محمد بن سلاّم عليه بقوله : « فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار ؛ راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب ، وألفَوْا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير » .

وقلنا إن كلام ابن سلاّم هذا ثلاثة أشطر : آخرها حق ، ومُوَسّطها باطل ، وأولها يحتاج إلى فضل بيان يوضّحه . أما الحق الذى لا مرية فيه فقوله : « فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير » . وقد فصلنا وجه الحق فيه . وأما الباطل الذى لم نعد نشك فى بطلانه وفساده فهو هذا التعميم الواسع فى قوله : « فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن ، ولا كتاب مكتوب » . ولم نكتف بالتدليل على بطلان ذلك بما أوردناه فى البابين الأولين من حديث مفصل ، وإنما جمعنا من كتاب ابن سلام نفسه نصوصاً تنقض قوله هذا ، أو — على الأقل — تضيّق ما فيه من تعميم واسع . وأما الشطر الثالث الذى يحتاج إلى فضل بيان يوضحه فهو قوله : « فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهتْ عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر . . . وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل » . وفصلنا الرد على ذلك باستقراء تاريخى تتبعنا فيه حياة الرواية عند القوم ، مبتدئين بالمعالم الواضحة فى منتصف القرن الثانى الهجرى ، ومتدرّجين فيها إلى الوراء حتى وصلنا إلى أقصى ما استطعنا الوصول إليه من معالم حياة الرواية الأدبية .

فجمعنا من الروايات والأخبار ما يدل على أن القوم فى القرن الأول الهجرى لم يكونوا يكتفون برواية الشعر الجاهلى وإنشاده فى المجالس والمحافل ، وإنما كانوا

كذلك يعلّمونه الصبيان تعليماً: يروّونهم إياه ويؤدّبونهم به . ثم وقفنا وقفةً فيها شيء من التفصيل عند شعراء العصر الأموى — وخاصة جرير والفرزدق وسراقة البارق — وبينّا، من شعرهم ، أنهم كانوا حلقة من حلقات الرواية الأدبية للشعر الجاهلى ولأخبار الجاهلية وأنسابها عامة . وانتقلنا إلى الحديث عن صدر الإسلام عصر الرسول الكريم وصحابته ، وفصلنا القول فى اتصال رواية الشعر الجاهلى فى زمنهم تفصيلاً وافياً ، وحين انتقلنا إلى الجاهلية ذكرنا من الروايات والأخبار ما انتهى بنا إلى أن إنشاد الشعر وروايته كانا دأب العرب فى جاهليتهم القريبة المتصلة بالإسلام ، حتى حين كانوا — وهم مشركون — يحاربون رسول الله . وبذلك قدمنا من الشواهد والأمثلة ما بيّن فى وضوح أن رواية الجاهلية : أشعارها وأخبارها ، لم تنقطع منذ الجاهلية ، بل لقد اتصلت فى زمن رسول الله وصحابته وخلفائه الراشدين ، واستمرّت طوال القرن الأول حتى تسلمها العلماء الرواة من رجال القرن الثانى . ولم تكن ثمة فجوة تفصل هؤلاء الرواة العلماء عن العصر الجاهلى ، وإنما تلقّوه عمن تقدمهم ، وورثوه عمن سبقهم ، روايةً متصلةً وسلسلة محكمة ، يأخذها الخلف عن السلف ، ويرويها الجيل بعد الجيل ، حريصين عليها ، معنيّين بها .

وعقدنا الفصل الثانى من هذا الباب على طبقات الرواة ، فرأيناهم ستّ طبقات : الشعراء الرواة ، ورواة القبيلة ، ورواة الشاعر ، ورواةٌ مصلحين للشعر ، ورواة وضّاعين ، ورواة علماء . وفصلنا القول فى كل طبقة تفصيلاً ، ووقفنا عند الطبقة الأخيرة ، وهم : الرواة العلماء ، وقلنا إنها طبقة متميّزة من الطبقات السابقة ، ومدار تميّزها وتفرّدها على أنها اتخذت من الشعر موضوعاً علمياً ، تدرسه دراسةً ، بعد أن تأخذه عن شيخ أو أستاذ فى مدرسة من مدارس علم الشعر وروايته آنذاك، ونعنى بها تلك المجالس والحلقات التى كانت تُعقد فى المساجد أو فى منازل الشيوخ ، ويجتمع فيها التلاميذ من العلماء والمتعلمين ، يتحلّقون حول شيخ شُهِد له بالحفظ والرواية ومعرفة كلام العرب والإحاطة

الواسعة بشعرهم ، وذلك بالاطلاع الواسع على ما سبق عصره من جهود الرواة فى حفظ الشعر وتدوينه ، وتكون طريقة الدرس هى الرواية الأدبية بدعامتيها : الكتاب ، والسماع . وقلنا إن هذه الطبقة من الرواة العلماء كانت تجمع ما استطاعت جمعه من الشعر الجاهلى من الشيوخ المختلفين ، ومن أفواه الرواة من الأعراب ، ومن بعض الصحف المدوّنة ثم تدرسه ، وتمحّصه ، وتفحصه ، وتميز صحيحه من فاسده ، والثابتَ النسبة من المشكوك فيه ، وتنتّهى من ذلك إلى تسجيل ما ترجح لديها صحته فى نسخة خاصة تصبح هى رواية ذلك الشيخ الراوية العالم ، ينقلها عنه تلاميذه وينسبونها إليه . وذكرنا أن هذه الطبقة من الرواة العلماء — بهذا التعريف الذى قدمناه والتحديد الذى قيدناها به — لم تكن موجودة فيما يبدو قبل مطلع القرن الثانى الهجرى ، وربما كان أولَ شيوخها الذين مهدوا الطريق لمن تبعهم فكانوا هم الرواد السابقين : أبو عمرو بن العلاء (المتوفى سنة ١٥٤) وحماد الراوية (المتوفى سنة ١٥٦) . ومن هنا كان قول ابن سلام « وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها : حماد الراوية » ، ومن هنا أيضاً قالوا : « كان خلف الأحمر أول من أحدث السماع بالبصرة ، وذلك أنه جاء إلى حماد الراوية فسمع منه » .

وخصصنا آخر فصول هذا الباب بالحديث عن الإسناد فى الرواية الأدبية ، وقابلنا بينه وبين الإسناد فى الحديث ، وشرحنا سبب التزام السند فى رواية الحديث والتحلل منه أحياناً فى رواية الشعر والأخبار . ثم عرضنا أمثلة من الأخبار المسندة التى يرتفع إسنادها إلى العصر الجاهلى بل إلى الشعراء الجاهليين أنفسهم ؛ ونماذج أخرى يسند فيها العلماء الرواة من الطبقة الأولى إلى من سبقهم وكان فيهم من أدرك الجاهلية . ثم قلنا إن الإسناد فى الرواية الأدبية قد أصبح فى الغالب قاعدة عامة بعد القرن الثانى الهجرى ، وأنه كان ينتّهى إلى شيخ من شيوخ الطبقة الأولى من العلماء الرواة ، وأما هؤلاء العلماء الرواة من الطبقة الأولى فلم يكونوا فى الغالب يُسنِدون إلى من قبلهم ، مع وجود الإسناد نفسه مما مثلنا له بالشواهد والأمثلة .

٥

ثم كان لا بد لنا أن نعرض آراء القدماء والمحدثين فى صحة الشعر الجاهلى ، فمهّدنا لهذا الباب بحديث موجز عن « المشكلة الهومرية »، وعرضنا للوجوه الكثيرة من التشابه القريب بين الشعرين : العربى الجاهلى والهومرى ، وانتهينا إلى بيان جهود الدارسين الأوربيين فى ثلاثة أمور ؛ أولها : من نظم الإلياذة والأوديسة ، وصحة نسبتهما إلى هومر . وثانيها : وسيلة حفظ الشعر الهومرى : أكانت الرواية الشفهية أم الكتابة . وثالثها : المدارس اللغوية القديمة التى درست شعر هومر ونقدته بعد أن جمعته ودونته .

ثم تحدثنا فى الفصل الثانى عن آراء القدماء ، من علماء العرب ، فى الوضع والنحل ، وألممنا بما جاء فى كتبهم من إشارات متفرقة إلى ذلك ورتّبناها ، ثم فصلنا القول فى كتاب السيرة لابن إسحق واستدراكات ابن هشام عليه ؛ وفى كتاب طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام .

وعقدنا الفصل الثالث لبيان آراء المستشرقين فى صحة الشعر الجاهلى ، فعرضنا عرضاً مفصلاً آراء مرجوليوث ، وليال ، ودلافيدا ، وبذلنا أقصى الجهد فى نقل أدلتهم وبراهينهم وردودهم مفصلة واضحة .

ثم انتقلنا فى الفصل الرابع إلى الحديث عن آراء المحدثين : فعرضنا رأى المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى وهو أول من طرق هذا الموضوع من المحدثين . ثم أسهبنا فى بيان رأى الدكتور طه حسين ، وردود الذين ألّفوا كتباً فى الرد عليه . واستغنينا بردودهم عن التفصيل فى الرد لسببين :

أولهما : أننا التزمنا — كما نبهنا على ذلك فى مواطن متفرقة — منهجاً واضحاً فى كتابة هذا البحث ، يقوم على الدراسة الخارجية لمصادر الشعر الجاهلى من غير أن نخوض فى تفصيلات الدراسة الداخلية وأجزائها ، والكثرةُ الغالبة من

..

شواهد الدكتور طه حسين إنما تعتمد على الدراسة الداخلية .

وثانيهما : أننا رتّبنا آراء الذين ردّوا على الدكتور ترتيباً مفصلا واضحاً بحيث يقابل كلّ رأى من آرائه ردّه المفصل ، فجاء هذا الترتيب — فى جملته ومجموعه — معبّراً عن رأينا ، فاستغنينا به عن الإعادة والتكرار .

ثم ختمنا هذا الباب بحديث مفصل عن توثيق الرواة وتضعيفهم وعن مدرستى البصرة والكوفة . وجمعنا بعض الروايات والأخبار التى يتّهم فيها القدماء بعضهم بعضًا بالكذب والنحل والوضع ، وخاصة الأخبار الكثيرة عن حماد الكوفى وخلف الأحمر البصرى ، ودرسناها دراسة مفصلة انتهينا منها إلى إظهار الوضع والتلفيق فى كثير من هذه الأخبار ، ثم بينّا أسباب تحامل تلاميذ كل مدرسة على تلاميذ المدرسة الأخرى ، بل تضعيف تلاميذ المدرسة الواحدة أحياناً لبعض زملائهم . وأرجعنا كل ذلك إلى عصبيات قبلية حيناً ، وسياسية حيناً آخر ، وخلافات منهجية بين مدرستين مختلفتين حيناً ثالثاً ، وخصومات شخصية حيناً رابعاً .

وكان لا بد لنا من أن نفصل القول فى منهجى هاتين المدرستين والمصادر التى استقى منها علماء كل مدرسة الحديثَ واللغة والشعر الجاهلى ، فوجدنا أن المذهب البصرى قائم فى جملته على التشدُّد والتضييق والميل إلى التقعيد والقياس ، وأن الكوفيين كانوا أكثر حرية ، وأكثر جرأة ، وأنهم قد توسّعوا حين ضيّق البصريون وتوقّفوا ، وأخذوا عن مصادر لم يرتضها البصريون . ومن هنا كثرت رواية الكوفيين فاتّهمهم البصريون بالتزيد والوضع . وقلنا إن رواية اللغة والشعر عند الكوفيين كان فيها كثرة لا تكثُّر وزيادة لا تزيُّد ؛ وانتهينا إلى نفى تهمة الوضع المتعمَّد والكذب عن هؤلاء العلماء من المدرستين معاً ، ومع ذلك فإننا لم ننفِ أن فى الشعر الذى رووه ما هو موضوع منحول ، غير أنهم لم يكونوا هم الذين وضعوه ونحلوه ، وإنما رواه بعضهم كما وجده ، ثم قاسه على ما بين يديه من مقاييس نقدية تتفق مع منهجه ، فأسقط بعضه وصحّح بعضه ، واختلف

علماء المدرستين فيما أسقطوا وفيما صححوا لما بيّنّاه من اختلاف مناهجهم واختلاف مصادرهم .

ثم وقفنا عند كلمة « منحول » ، وفرّقنا بينها وبين كلمة « موضوع » ، وقلنا إن هؤلاء العلماء كانوا يقولون أحياناً إن هذا الشعر منحول لامرئ القيس ، ويقصدون أنه شعر قديم جاهلي لا يشكُّون في قِدَمه وجاهليته ، ولكنهم يشكُّون في نسبته إلى امرئ القيس بعينه مثلاً . وذكرنا أيضاً أن هؤلاء العلماء كانوا أحياناً يسمعون قصيدة جاهلية يرويها أحد الرواة ولكنه لا ينسبها ، لأنه نسي نسبتها أو لأنه رواها من غير نسبة ، فيستمع إليها العالم الراوية ويرجِّح نسبتها إلى شاعر جاهلي بعينه ، لأنه رآها أقرب إلى روح ذلك الشاعر وطابعه الفني لكثرة دراسته لشعره ومعرفته بخصائصه . وأوردنا لكل ذلك من الشواهد والأمثلة ما يوضحه .

٦

وبعد أن اطمأننا إلى المحاولة التي أفرغنا فيها جهدنا لملء هذه الفجوة بين الشاعر الجاهلي نفسه ، والطبقة الأولى من العلماء الرواة ، وأظهرنا أن الرواية الشفهية والتدوين كانا يسيران معاً جنباً إلى جنب في حلقة متصلة من الجاهلية — أو على الأقل من صدر الإسلام — إلى القرن الثاني ، كان لا بدّ لنا أن نتحدث عن هذه الدواوين التي رواها هؤلاء العلماء الرواة ، ونقلها عنهم تلاميذهم ، حتى وصلت إلينا .

وكان ذلك موضوع حديثنا في الباب الخامس من هذا البحث ؛ فقسمناه إلى أربعة فصول : تحدثنا في الفصل الأول عن الدواوين المفردة بعامة ، وديواني امرئ القيس وزهير بخاصة ، وتحدثنا في الفصل الثاني عن دواوين القبائل ، وأفردنا ديوان هذيل بحديث مفصل . وتحدثنا في الفصل الثالث عن مجموعات المختارات كالمفضليات والأصمعيات وحماسة أبي تمام وجمهرة أشعار العرب . ثم

تحدثنا فى الفصل الرابع عن الشعر الجاهلى فى غير الدواوين ، فاستقرأناه فى بعض كتب التفسير والحديث ، واللغة والنحو ، والتاريخ والمغازى ، وكتب الأدب العامة.

وانتهينا من هذا الباب إلى أمرين :

الأول : أن هذه الكتب التى ذكرناها فى الفصل الأخير — على كثرة ما فيها من الشعر الجاهلى الصحيح — ليست مصدراً من مصادر هذا الشعر ، وذلك لأن مؤلفيها لم يقصدوا إلى أن يجعلوها مصدراً يستقى منه الباحثون شعر الشاعر ، ولم يتخذوا من الشعر الجاهلى هدفاً لهم : يجمعونه ويدرسونه ويصححونه ، وإنما اتخذوا هذا الشعر وسيلة يتوسلون بها إلى الاستشهاد به أو التمثل أو الاحتجاج أو تزيين ما يوردون من قصص وأخبار . وقد درسنا هذه الكتب دراسة مفصلة واستخرجنا منها مناهج مؤلفيها فى إيراد الشعر الجاهلى بحيث انتهينا إلى هذه النتيجة.

والثانى : أن مصدر الشعر الجاهلى هو الدواوين نفسها ، وكتب المختارات الموثوق بروايتها ، ولا يعنينا من الدواوين إلا المروية ذات الإسناد إلى عالم راوية . وقد وجدناها على ضربين :

ضرب تستقلُّ فيه رواية مفردة قائمة بذاتها : كرواية الأصمعى وحده أو المفضل وحده .

وضرب تجتمع فيه روايات مختلفة لعلماء من مدرسة واحدة أو من المدرستين معاً ، كتلك الدواوين التى جمعها علماء الطبقة الثانية وعلماء الطبقة الثالثة ، فأوردوا فيها روايات متعددة ، ولكنهم كانوا ينصُّون على أن هذه القصيدة من رواية الأصمعى وأن تلك من رواية المفضل ، وأن فلاناً انفرد برواية هذا الشعر أو ذلك ، أو أنه قد دفع هذه القصيدة أو أنكر تلك . بل لقد نصُّوا على الاختلاف فى رواية الأبيات والألفاظ . والدارس المتتبع يستطيع ببعض الجهد والعناء أن يجرِّد من هذه الروايات المجتمعة رواياتٍ منفردة قائمة بذاتها ترجع ، كالضرب الأول ، إلى عالم من الطبقة الأولى من الرواة ، وخاصة الأصمعى والمفضل .

* * *

وبذلك نكون قد وضعنا أصول مقياس واضح المعالم لدراسة الشعر الجاهلي ومعرفة صحيحه ، وذلك بأن نأخذ من شعر الشاعر القدر الذي اتفقت عليه المدرستان البصرية والكوفية معاً ، فنطمئن إلى أن هذا القدر المشترك هو أقرب ما يكون إلى الصحة ، ثم ندرسه دراسة فنية داخلية بحيث نستشفُّ روح الشاعر ، وطابعه وخصائصه الفنية واللغوية ، حتى إذا أقمنا هذا المقياس الداخلي ، احتكمنا إليه في صحة الشعر الباقي الذي انفرد بروايته أحد الرواة الأثبات ، ثم الذي انفرد بروايته راوٍ آخر ، ثم ما رواه غيرهما ، فما استقام على هذا المقياس الداخلي رجّحنا صحته وضممناه إلى القدر المشترك الأول ، وما لم يستقم نفيناه وطرحناه .

* * *

أما ما حقّقه هذا البحث من جديد فأرجو أن يكون واضح المعالم بارز القسمات في ما قدمت من فصول وأبواب ، بحيث يغنيني عن إعادة الحديث فيه ، ويجنّبني مزالق الإدلال به والاستكثار بذكره .

مصادر البحث ومراجعه

المصادر والمراجع

(ا) المطبوعة

١ ـ الآمدى ـ أبو القاسم ، الحسن بن بشر (ـ ٣٧٠ هـ)
المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم ـ تصحيح كرنكو ، القدسى سنة ١٣٥٤ هـ .
٢ ـ أحمد أمين
ضحى الإسلام .
٣ ـ أحمد محمد الحوفى
المرأة فى الشعر الجاهلى ـ مطبعة نهضة مصر ، سنة ١٩٥٤ .
٤ ـ الأصفهانى ـ أبو الفرج ، على بن الحسين بن محمد الأموى (ـ٣٥٦ هـ)
(١) الأغانى ـ ط . دار الكتب ، وبولاق ، والساسى بحسب ما يذكر فى الهامش .
(٢) مقاتل الطالبيين ـ تحقيق السيد صقر .
٥ ـ الأصمعى ـ أبو سعيد ، عبد الملك بن قريب (ـ نحو ٢١٥ هـ)
الأصمعيات ـ ط . برلين ١٩٠٢
ط . دار المعارف ـ تحقيق الأستاذين عبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر .
٦ ـ الأعشى ـ ميمون بن قيس
ديوانه ـ شرح م . محمد حسين ، نشر مكتبة الآداب بالجماميز .
٧ ـ امرؤ القيس بن حجر الكندى
ديوانه ـ طبعة هندية سنة ١٩٠٦ .
« ـ جمع حسن السندوبى ، ط . الاستقامة .

٨ – ابن الأنبارى – أبو البركات، عبد الرحمن بن محمد (– ٥٧٥ هـ)
نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ، نشر على يوسف .

٩ – البطليوسى – أبو محمد ، عبد الله بن محمد بن السيد (– ٥٢١ هـ)
الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب – المطبعة الأدبية ، بيروت ١٩٠١

١٠ – البغدادى – أبو بكر ، أحمد بن على بن ثابت الخطيب البغدادى (– ٤٦٣ هـ)
تقييد العلم – تحقيق يوسف العش ، دمشق ١٩٤٩ .

١١ – البغدادى – عبد القادر بن عمر (– ١٠٩٣ هـ)
خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب – السلفية ١٣٤٧ هـ ، وبولاق .

١٢ – بلاشير – الدكتور ريجيس بلاشير
تاريخ الأدب العربى – ترجمة الدكتور إبراهيم الكيلانى ، مطبعة الجامعة السورية ، دمشق ١٩٥٦ .

١٣ – البلاذرى – أحمد بن يحيى بن جابر (– ٢٧٩ هـ)
فتوح البلدان ، مصر ، ١٩٠١ .

١٤ – التبريزى – أبو زكرياء ، يحيى بن على (– ٥٠٢ هـ)
(١) شرح القصائد العشر – الطبعة الثانية ، المطبعة المنيرية سنة ١٣٥٢ .
(٢) شرح الحماسة – تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

١٥ – الجاحظ – أبو عثمان ، عمرو بن بحر بن محبوب (– ٢٥٥ هـ)
(١) البيان والتبيين – تحقيق عبد السلام هارون ، ١٩٤٨ .
(٢) الحيوان – تحقيق عبد السلام هارون ، ١٩٣٨ .
(٣) المحاسن والأضداد – الخانجى ، ١٣٢٤ .

١٦ – ابن الجزرى – شمس الدين ، محمد بن محمد (– ٨٣٣ هـ)
النشر فى القراءات العشر – ط . دمشق ١٣٤٥ هـ .

١٧ ـ ابن جلجل ـ أبو داود ، سليمان بن حسان الأندلسى (القرن الرابع)
طبقات الأطباء والحكماء ـ تحقيق فؤاد سيد ، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى سنة ١٩٥٥ .

١٨ ـ ابن جنى ـ أبو الفتح ، عثمان بن جنى (ـ ٣٩٢) هـ
الخصائص ـ ط . الهلال ١٩١٣ .

١٩ ـ الجهشيارى ـ أبو عبد الله ، محمد بن عبدوس (ـ ٣٣١ هـ)
كتاب الوزراء والكتاب ـ تحقيق الأساتذة السقا والأبيارى وشلبى .
الطبعة الأولى ، مصطفى البابى الحلبى .

٢٠ ـ جواد على
تاريخ العرب قبل الإسلام ـ مطبوعات المجمع العلمى العراق .

٢١ ـ الجواليقى ـ أبو منصور ، موهوب بن أحمد (ـ ٥٣٩ هـ)
المعرب ـ ط . ليبزج .

٢٢ ـ جورجى زيدان (ـ ١٩١٤)
العرب قبل الإسلام ـ الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٩ .

٢٣ ـ جولد تسيهر
المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ـ ترجمة : على حسن عبد القادر.

٢٤ ـ حاتم الطائى
ديوانه ـ لندن ١٨٧٢ ، وضمن « خمسة دواوين العرب » .

٢٥ ـ ابن أبى حاتم ، محمد بن عبد الرحمن (ـ ٣٢٧ هـ)
(١) آداب الشافعى ومناقبه . القاهرة ١٩٥٣ هـ .
(٢) الجرح والتعديل ، الهند .

٢٦ ـ حاجى خليفة ـ مصطفى بن عبد الله كاتب حلبى (ـ ١٠٦٦ هـ)
كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ـ مصر ١٢٧٤ هـ .

٢٧ ــ ابن حبيب ــ أبو جعفر ، محمد بن حبيب بن أمية (ــ ٢٤٥ هـ)
المحبر ــ طبع الهند ، ١٩٤٢ .

٢٨ ــ ابن حجر ــ شهاب الدين ، أبو الفضل ، أحمد بن على العسقلانى (ــ ٨٥٢ هـ) .
(١) فتح البارى ــ بولاق .
(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ــ مطبعة السعادة ١٣٢٣ .
(٣) تهذيب التهذيب ــ الهند ، ١٣٢٥ هـ .

٢٩ ــ ابن حزم ــ أبو محمد ، على بن سعيد (ــ ٤٥٦ هـ)
جمهرة أنساب العرب ــ تحقيق وتعليق بروفنسال ط . دار المعارف بمصر ، ١٩٤٨ .

٣٠ ــ حسان بن ثابت
ديوانه ــ ط . النيل ، ١٩٠٤ .

٣١ ــ الحطيئة
ديوانه ــ شرح أبى سعيد السكرى ، مطبعة التقدم بمصر .

٣٢ ــ حميد بن ثور
ديوانه ــ دار الكتب ١٩٥١ .

٣٣ ــ أبو حنيفة الدينورى ــ أحمد بن داود (ــ ٢٨٢ هـ)
الأخبار الطوال ــ ط . السعادة سنة ١٣٣٠ هـ .

٣٤ ــ خليل يحيى نامى
أصل الخط العربى وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام ــ مجلة كلية الآداب ــ جامعة القاهرة ، مايو ١٩٣٥ .

٣٥ ــ ابن أبى داود السجستانى ــ عبد الله بن سليمان بن الأشعث (ــ ٣١٦ هـ)
كتاب المصاحف ، مصر ١٩٣٦ .

٣٦ ــ ابن رشيق ــ أبو علي، الحسن بن رشيق القيرواني (ــ ٤٦٣ وقيل ٤٥٦هـ)
العمدة في محاسن الشعر وآدابه ــ تحقيق محي الدين عبد الحميد ١٩٣٤ .
العمدة في محاسن الشعر وآدابه ــ تصحيح النعساني ١٩٠٧ .
٣٧ ــ الزبيدي ــ أبو بكر ، محمد بن الحسن (ــ ٣٧٩ هـ)
طبقات النحويين واللغويين ــ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٩٥٤.
٣٨ ــ الزبيري ــ أبو عبد الله ، المصعب بن عبد الله بن المصعب (ــ ٢٣٦ هـ)
كتاب نسب قريش ــ تحقيق بروفنسال . ط . دار المعارف بمصر .
٣٩ ــ الزجاجي ــ أبو القاسم ، عبد الرحمن بن إسحق (ــ ٣٣٧) هـ
الأمالي ــ الخانجي ١٣٢٤ .
٤٠ ــ الزمخشري ــ جار الله محمود بن عمر (٥٨٣ هـ)
(١) الفائق في غريب الحديث ــ تحقيق البجاوي وأبو الفضل إبراهيم ، القاهرة سنة ١٩٤٥ .
(٢) أساس البلاغة .
٤١ ــ زهير بن أبي سلمى
ديوانه ــ دار الكتب ١٩٤٤ .
٤٢ ــ الزوزني ــ أبو عبد الله ، الحسين بن أحمد (ــ ٤٨٦ هـ)
شرح المعلقات السبع ــ التجارية ١٩٣٨ .
٤٣ ــ أبو زيد القرشي ــ محمد بن أبي الخطاب
جمهرة أشعار العرب ــ بولاق .
٤٤ ــ سراقة البارقي
ديوانه ــ تحقيق حسين نصار ــ ١٩٤٧ .
٤٥ ــ السجستاني ــ أبو حاتم ، سهل بن محمد (ــ ٢٥٥ هـ)
كتاب المعمرين من العرب ــ تصحيح الخانجي ، ١٩٠٥ .

٤٦ – ابن سعد – أبو عبد الله ، محمد بن سعد بن منيع الزهرى (– ٢٣٠ هـ)
كتاب الطبقات الكبير – ط . بريل فى ليدن سنة ١٣٢٢ .

٤٧ – ابن السكيت – أبو يوسف ، يعقوب بن إسحق (– ٢٤٤ هـ)

(١) إصلاح المنطق – تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف .

(٢) تهذيب الألفاظ – تحقيق الأب شيخو ، بيروت ١٨٩٥ .

٤٨ – ابن سلام – محمد بن سلام الجمحى (– ٢٣١ هـ)
طبقات فحول الشعراء – تحقيق محمود محمد شاكر ، ط . دار المعارف .

٤٩ – سلامة بن جندل .
ديوانه – تحقيق الأب شيخو ، بيروت ١٩١٠ .

٥٠ – سيبويه – أبو بشر ، عمرو بن عثمان (– ١٨٠ هـ)
الكتاب ، المطبعة الأميرية ببولاق .

٥١ – ابن سيده – أبو الحسن ، على بن إسماعيل (– ٤٥٨ هـ)
المخصص – المطبعة الأميرية ببولاق ١٣١٦ هـ .

٥٢ – السيرافى – أبو سعيد ، الحسن بن عبد الله (– ٣٦٨ هـ)
كتاب أخبار النحويين البصريين – تحقيق كرنكو سنة ١٩٣٦ .

٥٣ – السيوطى – جلال الدين ، عبد الرحمن بن أبى بكر (– ٩١١ هـ)

(١) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ، عيسى البابى الحلبى ، الطبعة الثانية .

(٢) الأشباه والنظائر فى النحو – الهند ، ١٣٥٩ هـ

(٣) شرح شواهد المغنى ، مصر ١٣٢٢ .

٥٤ – ابن الشجرى – أبو السعادات ، هبة الله بن على بن محمد بن حمزة (– ٥٤٢ هـ) .

(١) مختارات شعراء العرب – المطبعة العامرة ١٣٠٦ هـ .
(٢) الحماسة – الهند ، ١٣٤٥ هـ .
٥٥ – شوقى ضيف
الفن ومذاهبه فى الشعر العربى – الطبعة الثانية .
٥٦ – شيخو – الأب لويس شيخو اليسوعى (– ١٩٢٧ م)
(١) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ، طبعة ثانية ، بيروت ١٩٣٣ .
(٢) شعراء النصرانية – بيروت ١٩٢٦ .
٥٧ – صاعد الأندلسى – القاضى أبو القاسم ، صاعد بن أحمد الأندلسى (– ٤٦٢ هـ)
طبقات الأمم – مطبعة السعادة بمصر .
٥٨ – الصفدى – صلاح الدين ، خليل بن أيبك (– ٧٦٤ هـ)
نكت الهميان ، مصر ، ١٩١١ .
٥٩ – الصولى – أبو بكر ، محمد بن يحيى (– ٣٣٦ هـ)
أدب الكتاب – تصحيح الأثرى ، السلفية ١٣٤١ .
٦٠ – طاش كبرى زاده – المولى أحمد بن مصطفى (– ٩٦٨ هـ)
مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم – الهند .
٦١ – الطبرى – أبو جعفر ، محمد بن جرير (– ٣١٠ هـ)
(١) التاريخ – تاريخ الأمم والملوك ، طبعة مصر – وطبعة بريل فى ليدن .
(٢) جامع البيان عن تأويل آى القرآن – تحقيق محمود محمد شاكر ط . دار المعارف بمصر .
٦٢ – طرفة بن العبد
ديوانه – ط . شالون سنة ١٩٠٠ .

٦٣ — طه حسين
(١) فى الشعر الجاهلى — دار الكتب المصرية ، ١٩٢٦ .
(٢) فى الأدب الجاهلى — الطبعة الرابعة ، دار المعارف .
٦٤ — ابن عبد البر — أبو عمر ، يوسف بن عبد البر النمرى القرطبى (—٤٦٣هـ)
(١) القصد والأمم — القدسى ، ١٣٥٠ .
(٢) مختصر جامع بيان العلم وفضله — مصر ، ١٣٢٠ .
٦٥ — ابن عبد الحكم — أبو محمد ، عبد الله بن عبد الحكم (— ٢١٤ هـ) .
فتوح مصر وأخبارها — ط . بريل ١٩٢٠
٦٦ — ابن عبد ربه — أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى (— ٣٢٨ هـ) .
العقد — تحقيق محمد سعيد العريان — ط . الاستقامة ، ١٩٤٠ .
٦٧ — ابن العبرى — أبو الفرج ، غريغوريوس بن هارون الملطى (— ٦٨٥ هـ)
مختصر الدول — ط . بيروت .
٦٨ — عبيد بن الأبرص
ديوانه — دار المعارف .
٦٩ — عبيد بن شرية الجرهمى
أخبار عبيد — ط . الهند ، ١٣٤٧ .
٧٠ — أبو عبيد — عبد الله بن عبد العزيز البكرى الأندلسى (— ٤٨٧ هـ)
(١) معجم ما استعجم — تحقيق مصطفى السقا ، ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٥ .
(٢) اللآلى فى شرح أمالى القالى — تحقيق عبد العزيز الميمنى سنة ١٩٣٦ .
٧١ — أبو عبيدة — معمر بن المثنى (— ٢٠٨ ، ٢١٣ هـ)
(١) النقائض — تحقيق بيفان ، بريل ١٩٠٥
النقائض — طبع الصاوى ١٩٣٥ م .
(٢) كتاب الخيل — الهند ، ١٣٥٨ .

٧٢ ــ ابن العربي ــ القاضي أبو بكر ، محمد بن عبد الله (ــ ٥٤٦ هـ)
العواصم من القواصم ــ ط . الجزائر .
٧٣ ــ عرام بن الأصبغ السلمي (القرن الثالث ؟)
كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها ــ تحقيق عبد السلام هارون ، ١٣٧٣هـ .
٧٤ ــ ابن فارس ــ أبو الحسين ، أحمد بن فارس بن زكريا (ــ ٣٩٥ هـ)
الصاحبي في فقه اللغة ــ المكتبة السلفية سنة ١٩١٠ .
٧٥ ــ الفراء ــ أبو زكرياء ، يحي بن زياد (ــ ٢٠٤ هـ)
معاني القرآن ــ ط . دار الكتب .
٧٦ ــ فيليب حتى
تاريخ العرب (مطول) .
٧٧ ــ القالي ــ أبو علي ، إسماعيل بن القاسم بن عيذون (ــ ٣٥٦ هـ)
الأمالي ــ دار الكتب .
٧٨ ــ ابن قتيبة ــ أبو محمد ، عبد الله بن مسلم (ــ ٢٧٦ هـ)
(١) مختلف الحديث ــ ط . مصر ١٣٢٦ .
(٢) تأويل مشكل القرآن ــ تحقيق السيد أحمد صقر ــ مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٥٤ .
(٣) الشعر والشعراء ــ تحقيق أحمد محمد شاكر ــ مطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٣٦٤ .
(٤) الميسر والقداح ــ تحقيق محب الدين الخطيب ــ السلفية سنة ١٣٤٣ .
(٥) المسائل والأجوبة في الحديث واللغة ــ مكتبة القدسي ، سنة ١٣٤٩ .
(٦) المعارف ــ تصحيح الصاوي ، المطبعة الرحمانية سنة ١٩٣٥ .
٧٩ ــ القفطي ــ الوزير جمال الدين ، أبو الحسن ، علي بن يوسف (ــ ٦٤٦هـ)

إنباه الرواة على أنباه النحاة — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، سنة ١٩٥٥ .

٨٠ — القلقشندى — أحمد بن على بن أحمد (— ٨٢١ هـ)

صبح الأعشى .

٨١ — قيس بن الخطيم

ديوانه — ليبزج ١٩١٤ .

٨٢ — لبيد بن ربيعة العامرى

ديوانه — فينا ، ١٨٨٠ م .

« بريل ، ١٨٩١م .

٨٣ — المبرد — أبو العباس ، محمد بن يزيد (— ٢٨٥ هـ)

(١) الفاضل — ط . دار الكتب (تحت الطبع) .

(٢) الكامل — ط . ليبزج .

٨٤ — محمد أحمد الغمراوى

النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى ، السلفية ، ١٩٢٩ .

٨٥ — محمد حميد الله الحيدر آبادى

مجموعة الوثائق السياسية — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ .

٨٦ — محمد الخضر حسين

نقض كتاب فى الشعر الجاهلى .

٨٧ — محمد الخضرى

محاضرات فى بيان الأخطاء العلمية التاريخية التى اشتمل عليها كتاب فى الشعر الجاهلى .

٨٨ — محمد فريد وجدى

نقد كتاب الشعر الجاهلى .

٨٩ — محمد لطفى جمعة

الشهاب الراصد .

٩٠ ـ المرتضى ـ الشريف المرتضى ، على بن الحسين (ـ ٤٣٦ هـ)
أمالى المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم : الحلبى ١٩٥٤

٩١ ـ المرزبانى ـ أبو عبيد الله ، محمد بن عمران (ـ ٣٨٤ هـ)
(١) الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ، السلفية ١٣٤٣ .
(٢) معجم الشعراء ـ تصحيح كرنكو ، القدسى ١٣٥٤ .

٩٢ ـ المرزوقى ـ أبو على ، أحمد بن محمد بن الحسن (فى القرن الخامس)
(١) الأزمنة والأمكنة ، ط . الهند ١٣٣٢ .
(٢) شرح ديوان الحماسة ـ نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون ، ١٩٥١

٩٣ ـ المسعودى ـ أبو الحسن ، على بن الحسين (ـ ٣٤٥ هـ)
(١) التنبيه والإشراف ـ تصحيح الصاوى ـ مصر ١٩٣٨ .
(٢) مروج الذهب ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ المكتبة التجارية ـ ١٩٤٨ (الطبعة الثانية) .

٩٤ ـ مصطفى صادق الرافعى
(١) تاريخ آداب العرب ـ إخراج محمد سعيد العريان .
(٢) تحت راية القرآن ، مصر ١٩٢٦ .

٩٥ ـ المفضل بن محمد الضبى
المفضليات ـ تحقيق جيمس شارل ليال .
المفضليات ـ تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف .

٩٦ ـ المقريزى ـ تقى الدين أحمد بن على (ـ ٨٤٥ هـ)
إمتاع الأسماع ـ تصحيح محمود محمد شاكر ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ .

٩٧ ـ النابغة الذبيانى
ديوانه ـ التوضيح والبيان عن شعر نابغة ذبيان ـ مطبعة السعادة بمصر .

٩٨ — ابن النديم — أبو الفرج ، محمد بن إسحق بن يعقوب (— ٣٨٥ هـ)
كتاب الفهرست — المكتبة التجارية ، مصر .

٩٩ — أبو نعيم — أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهانى (— ٤٣٠ هـ)
حلية الأولياء ، مصر ١٩٣٢ .

١٠٠ — أبو نواس — الحسن بن هانئ (—١٩٨)
ديوانه — الطبعة الأولى بالمطبعة العمومية بمصر ، ١٨٩٨ .

١٠١ — الواقدى — أبو عبد الله ، محمد بن عمر (— ٢٠٧ هـ)
مغازى رسول الله — جماعة نشر الكتب القديمة سنة ١٩٤٨ .

١٠٢ — ولفنسون — إسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب)
تاريخ اللغات السامية — الطبعة الأولى ١٩٢٩ .

١٠٣ — هذيل

(١) ديوان الهذليين — ط . دار الكتب .

(٢) شرح أشعار الهذليين — لندن ١٨٥٤ .

(٣) أشعار الهذليين ما بقى منها فى النسخة اللغدونية غير مطبوع — برلين ، ١٨٨٤ .

(٤) ديوان أبى ذؤيب — هانوفر ١٩٢٦ .

(٥) أشعار ساعدة بن جؤية وأبى خراش — ليبزج سنة ١٩٣٣ .

١٠٤ — ابن هشام — أبو محمد ، عبد الملك بن هشام (— ٢١٨ هـ)
السيرة النبوية — تحقيق مصطفى السقا وآخرين — ط . مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٣٦ .
السيرة النبوية — ط . بولاق .

١٠٥ — الهمدانى — أبو محمد ، الحسن بن أحمد بن يعقوب ، المعروف بابن الحائك (— ٣٣٤ هـ)
صفة جزيرة العرب — بريل ١٨٨٤ .

١٠٦ ــ ياقوت ــ أبو عبد الله ، ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى (ــ٦٢٦هـ)
(١) معجم البلدان ــ الخانجى .
(٢) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ــ الرفاعى .

١٠٧ ــ يوسف هوروفتس
المغازى الأولى ومؤلفوها ــ ترجمة حسين نصار ، ١٩٤٩

(ب) المخطوطة

١٠٨ ــ امرؤ القيس
(١) شرح ديوانه : تعليقة ابن النحاس ــ معهد إحياء المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية ميكروفيلم ، رقم ١٤٣ .
(٢) شرح ديوانه للطوسى ــ ميكروفيلم فى معهد إحياء المخطوطات العربية ، رقم ٨٦٠ .
(٣) شرح ديوانه للأعلم ، مخطوطتان بدار الكتب ، ٤٥٠ تيمور و ٨١ ش .

١٠٩ ــ البصرى ــ أبو القاسم ، على بن حمزة البصرى (ــ ٣٧٥ هـ)
التنبيهات على أغاليط الرواة ــ رقم (٥٠٢ لغة) دار الكتب المصرية.

١١٠ ــ حسان بن ثابت
ديوانه ــ ميكروفيلم فى معهد إحياء المخطوطات العربية ، رقم ٣٠٢ .

١١١ ــ حمزة بن الحسن الأصفهانى (ــ ٣٦٠ هـ)
التنبيه على حدوث التصحيف ــ مصورة فوتوغرافية بدار الكتب المصرية ، رقم ٨٩٦ أدب تيمور .

١١٢ ــ الخالديان ــ أبو عثمان ، سعيد (ــ ٣٥٠) ؛ وأبو بكر محمد بن هاشم (ــ ٣٨٠)
حماسة الخالديين ــ مخطوط فى دار الكتب رقم ٥٨٧ أدب .

١١٣ — زهير بن أبي سلمى
شرح ديوانه لثعلب عن أبي عمرو — ميكروفيلم في معهد إحياء المخطوطات العربية ، رقم ٨٢٢ .
١١٤ — أبو الطيب اللغوي — عبد الواحد بن علي (—٣٥١ هـ)
مراتب النحويين — مخطوط محفوظ بمكتبة أحمد تيمور — دار الكتب.

(ـه) الإنجليزية

1. Abbot, Nabia — The Rise of The North Arabic Script ..., Chicago, 1939.
2. Allen, Thomas W. — Homer: The Origins and The Transmission, Oxford, 1924.
3. Bowra, C.M. — Tradition and Design in The Iliad, Oxford, 1930.
4. Della Vida, Giorgio Levy — Pre-Islamic Arabia; The Arab Heritage, New Jersy, 1944.
5. Diodorus Siculus — History, William Heinemann, London.
6. Farmer, H.G. — History of Arabian Music, Luzac, London, 1929.
7. Geddes, W.D. — The Problem of The Homeric Poems, London, 1878.
8. Grohmann, Adolf — From The World Of Arabic Papyri, Cairo, 1952.
9. Hamidullah, M. — Some Inscriptions of Medinah of The Early Years of Hijrah; Islamic Culture, Vol. 13 No. 4, October 1939.
10. Jebb, R.C. — Homer : Introduction To The Iliad and The Odyssey, Glasgo, 1894.
11. Krenkow—The Use of Writing For The Preservation of Ancient Arbic Poetry; Á Volume of Oriental Studies to E.G. Browne, Edited By J.W. Arnold.
12. Margoliouth, D.S. — The Origins of Arabic Poetry; JRAS, July 1925 P. 417-449.
13. Miles, G.C. — Early Islamic Inscriptions Near Ta'if in The Hijaz, JNES, Vol. 7, 1948.
14. O'Leary, De Lacy — Arabia Before Mohammad, 1927.
15. Olinder, Gunnar — Kings of Kinda.

الفهارس

فهرس الأعلام

ا

ت

ث

ج

خ

ر

ش

ص

ظ

ع

غ

ن

و

فهرس الأماكن

فهرست الكتب

ا

ب

ت

ز

س

ش

ص

ط

ع

ن

و

فهرس الشعر

ن

ى

المدىُ	أبو ذؤيب الهذلي	٣٩
الحميرى	=	٦٩، ٩٦، ١٢٣
عمى	=	٩١

العصى	امرؤ القيس	٥٢٤
لسانيا	عبد يغوث	١١١
المتاليا	زهير بن أبي سلمى	١٨٧
ليا	=	٥٢٩
ناجيا		٢٤٦

مَصَادِرُ الشِّعرِ الجَاهِلِيّ

وَقيمتهَا التَّارِيخيَّة

الدكتور ناصِر الدين الأسد

دار الجيل
بيروت - لبنان

مَصَادِرُ الشِّعرِ الجَاهِلِيّ

وَقيمتها التّارِيخيّة

الدّكتور ناصِر الدّين الأسَد

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى ١٩٥٦
الطبعة الثانية ١٩٦٢
الطبعة الثالثة ١٩٦٦
الطبعة الرابعة ١٩٦٩
الطبعة الخامسة ١٩٧٨
الطبعة السادسة ١٩٨٢
الطبعة السابعة ١٩٨٨

بحث نال به مؤلفه درجة الدكتوراه في الآداب
من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز سنة ١٩٥٥

دار الجيل ــ لبنان ــ بيروت ــ ص.ب. ٨٧٣٧ ــ تلكس ٤٢٦٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

صلتي بالشعر الجاهلي قديمة ، ترجع إلى أكثر من عشرين سنة ، أيام كنّا نُحفّظ المعلّقات . فاستهوتني كما لم يستهوني سائر الشعر الذى كنّا نحفّظه . ثم تدرجت فى مراحل الدراسة ، وزاد محفوظي من الشعر العربى على اختلاف عصوره ، ولكن استهواء الشعر الجاهلي كان يزداد حتى ليطغى على غيره . وكان شعوراً ساذجاً غير معلّل ، وما كنت مستطيعاً تعليله ولو أردت .

ثم قرأت — قبيل دخولى الجامعة — كتاب الأستاذ الدكتور طه حسين « فى الشعر الجاهلى » ، ففتح أمامى آفاقاً فسيحة من التفكير ، ودفعنى إلى أن أنظر فى هذا الشعر نظر المتسائل عن قيمته وصحته ، وحملنى على أن أستقصى الموضوع من جذوره ، وأتتبعه من جميع أطرافه .

وصرت — كلما قطعت شوطاً فى دراستى الجامعية — أستبين جوانب جديدة من قيمة العصر الجاهلى وشعره ، وخطرهما فى دراسة الأدب العربى فى عصوره الإسلامية . فالعصر الجاهلى — فى حساب الزمن — أول عصور التاريخ العربى ، ونحن لا نستطيع أن نعرف قومنا فى مراحل تطورهم ، ومواطن انتشارهم ، إذا لم نعرفهم فى موطنهم الأصيل وفى عصرهم الأول . ثم إن الشعر الجاهلى هو الأصل الذى انبثق منه الشعر العربى فى سائر عصوره ، وهو الذى أرسى عمود الشعر ، وثبّت نظام القصيدة ، وصاغ المعجم الشعرى العربى عامة ؛ ولست أفهم كيف نستطيع أن نحكم على ما فى شعر العصور الإسلامية من تطور وتجديد إذا لم نصل من أمر الشعر الجاهلى إلى مفصل نطمئن عنده .

ثم إن فى هذا الشعر الجاهلى وفرةً من القيم الفنية الأصيلة لم يحظَ بها كثير من الشعر العربى بعده : ففيه من خصب الشعور ، ودقة الحس ، وصدق الفن ، وصفاء التعبير ، وأصالة الطبع ، وقوة الحياة ، ما يجعله أصفى تعبير عن نفس العربى ، وأصدق مصدر للدراسة حياته وحياة قومه من حوله .

من أجل ذلك كله عزمت ، حين أنهيت دراستى الجامعية الأولى ، على مواصلة بحث الشعر الجاهلى ودراسته . فقضيت أربع سنوات أبحث فيها بعض هذا الشعر ، وبعض ما كتبه القدماء والمحدثون عنه وعن العصر الجاهلى عامةً ، وخرجت من هذه الدراسة برسالتى الأولى لدرجة (الماجستير) عن « القيان وأثرهن فى الشعر العربى فى العصر الجاهلى » . ومع ما بذلت من جهد ، وأنفقت من وقت ، وحققه البحث من نتائج ، فقد كنت أحس أننى أسير فى طريق لا أكاد أستبين فيها مواطئ قدمىَّ ، وأن علىَّ أن أعود أدراجى ، ثم أبدأ بداية جديدة لا أخطو فيها خطوة إلا بعد تثبُّت وتيقُّن .

وعدت ، وبدأت الطريق من أوله ، وقضيت أربع سنوات أخرى ، خرجت منها بهذا البحث للدرجة (الدكتوراه) ، وأنا مقتنع بأن هذا الموضوع الذى أبحثه هو الخطوة الأولى الصحيحة التى تسبق كل خطوة غيرها — فى سبيل دراسة الشعر الجاهلى ؛ وأن بحث هذا الشعر بحثاً مجدياً لا يتمُّ إلا عن طريق دراسة خارجية أولاً ، تعنَى بمصادره جملة فى مجموعها ، وتبحث رواية هذه المصادر وتسلسلَها ، ورواتَها ومدى الثقة بهم ، ثم تتتبع المصادر الأولى التى استقى منها أولئك الرواة ، خطوةً خطوةً ، حتى تصل بين هؤلاء الرواة والشاعر الجاهلى نفسه . وكل دراسة قبل هذه إنما هى تجاوزٌ عن الأصل الأول الذى لابدَّ من البدء به ، وأحسب أن كثيراً من الخطأ الذى وقع فيه من ضعَّفوا وسيلة حفظ هذا التراث الخالد ، ووهَّنوا طريقة نقله وروايته ، إنما أتَوا من هذا التجاوز والإغفال لنقطة البدء الصحيحة .

* * *

وقد بذلت أقصى الجهد فى أن أنهج نهجاً علمياً خالصاً: لا أميل مع هوى ، ولا أتعصب لرأى ، ولا أعتسف الطريق من أمامى اعتسافاً . بل لعل من الصواب أن أذكر أنى ، حين دخلت فى الموضوع ، لم يكن يحفزنى إلا الموضوع نفسه ؛ ولم يكن نصب عينىّ غاية بذاتها أتوخاها وأرمى إلى إقامة الدليل عليها ، غير الغاية المجردة التى سينتهى إليها البحث الموضوعى وحده ؛ فقد كان قلبى مع هذا الشعر حين كنت أقرأه ، وكان عقلى عليه حين كنت أقرأ عنه ، فأردت أن أصل إلى يقين يجتمع عنده اقتناع العقل واطمئنان القلب معاً . ولم يكن أمامى سبيل لذلك إلا أن آخذ نفسى بتحرّى المنهج العلمى الدقيق ، والتزام حدوده التزاماً لا ترخُّص فيه :

فشرعت أقرأ ، والغموض يحيط بى ، والحيرة تأخذنى من كل جانب . وقضيت نحو ثلاث سنوات لا أكتب فى الموضوع شيئاً غير ما كنت أدوّنه فى جزازات متفرقة من نصوص وأخبار وروايات ، تتصل بالموضوع فى صميمه ، أو تدور عليه من حوله . وكنت كلما قطعت شوطاً اتضح لى جانب ، فأضطر أحياناً إلى أن أقرأ مرة أخرى بعض ما كنت قرأت ، لأسجل منه — على ضوء فهمى الجديد — بعض ما كنت أغفلت . ولم أبدأ الكتابة إلا بعد أن جمعت من النصوص ما أتاح لى تمثُّل الموضوع تمثلاً كاملاً أو مقارباً .

ثم عدت إلى النصوص : أستكمل جمعها وتقييدها ، وأرتبها فى مجموعات ، ينتظم كلّ مجموعة منها موضوع واحد، وتلتقى الموضوعات فى فصول ، والفصول فى أبواب . ثم مضيت أفحص هذه النصوص ، وأدرسها دراسة دقيقة : تقوم على استقراء النص واستنطاقه ، واستشفاف دلالاته ، فى حدود ألفاظه ومراميه ، من غير تحميل له فوق ما يحتمل ، ولا توجيه وجهة بعينها لا تتضمنها ألفاظه .

ولم أكن أكتفى بوجه واحد من الأمر حين يكون له وجهان أو وجوه ، وإنما كنت أعرض كلّ وجه ، وأقلّبه على جوانبه ، وأستوفى أدلته وشواهده ، ثم أقابل بين هذه الوجوه المختلفة وأناقشها ، وأنتهى إلى ترجيح واحد منها حين يتيسّر الترجيح .

وإذ كانت نتائج البحث الأدبي والتاريخي عامةً تعتمد — في أغلبها — على الروايات والأخبار والنصوص ، فإن من الطبيعي أن تجيء نتائجَ ظنيةً ترجيحيةً ؛ لا سبيل إلى الوصول إليها إلا بجمع هذه الروايات والأخبار والنصوص ، واستقصائها ، ودراستها دراسةً قوامها : مقابلة بعضها ببعض ، ومناقشتها ، ونقد إسنادها ومتنها ، بحيث ينتهي كل ذلك إلى تغليب نص على آخر ، أو ترجيح رواية على غيرها ، أو تفضيل خبر على سائر الأخبار . ولا سبيل في مثل هذه الأبحاث إلى اليقين القاطع ، والقول الفصل ، اللذين لا يتوافران إلا في العلم التجريبي وحده ، حين يستطيع المرء ، في معمله أو مختبره ، أن يعيد التجربة عمليًّا ليقيم البرهان على صحة ما يذهب إليه . ومن أجل ذلك تجنبت أن ألقى الأحكام إلقاءً عامًّا قاطعاً ، وإنما سقتها في صيغ ترجيحية غالبة .

ومع هذا كله ، ففي البحث حماسة أحياناً ، وإلحاح على مسائل بعينها أحياناً أخرى ، ولكن ذلك كله إنما هو نتيجة طبيعية لاحقة ، وليس مقدمة مفتعلة سابقة . فإن من الطبيعي ، في المنهج العلمي نفسه ، أن يندفع الباحث — في غير مغالاة ولا إسراف — في حماسته لبحثه وآرائه ، بعد أن يكون قد وصل — عن طريق هذا المنهج العلمي — إلى أدلة يقتنع بصوابها ، وحجج يطمئن إلى سلامتها ، فيؤكدها كلما سنحت له فرصة للتأكيد ، ويلحُّ عليها كلما أمكنه الإلحاح . وأحسب أن الفرق واضح بين الحماسة البصيرة للرأى حين يصل إليه المرء بعد بحث وتحرٍّ وتحقيق ، وبين التعصب الأهوج للفكرة التي يدخل المرء بها في بحثه ابتداءً . فالحماسة الأولى من أمارات الحياة السليمة في البحث والباحث ، والتعصب الثاني من علامات عجز الفكر وضيق الأفق . ومن هنا أرجو ألا أبعد عن الحق حين أقول : إن كل رأى في هذا الكتاب قد قامت من بين يديه وفرة من النصوص قادت إليه وانتهت به ، وأن النص هو الذى وجَّه البحث إلى ما فيه من آراء ، وليست الآراء هي التي وجهت البحث إلى النصوص : يجتلبها ، ويقتنصها ، ويستكثر منها ، ويقسرها قسراً لما يريد .

* * *

والباحث في العصر الجاهلي يلقى عناء كبيراً من مصادر بحثه ، وذلك لأن الحديث عن الجاهلية — في المصادر العربية — لم يكن يُقصد لذاته : فتُستَبرَ أغواره ويلمّ شتاته ، وإنما كان يقصد لغيره من موضوعات العصور الإسلامية التي كان المؤلفون يكتبون فيها ، فيستطردون للحديث عن الجاهلية : للتمثيل والاستشهاد ، أو للمقابلة والموازنة ، أو للوعظ والإنذار ، أو التمهيد بين يدى حديثهم الأصيل تمهيداً موجزاً يدخلون منه إلى الحديث عما يقصدون . فيكاد يكون حديثهم عن الجاهلية حديثاً عابراً ، منثوراً نثراً متباعداً في تضاعيف كتبهم وثنايا رسائلهم . ومن هنا كان لا بد للباحث في العصر الجاهلي من أن يقرأ الكتاب العربي قراءة متمعنة دقيقة ، يجرُدُه فيها جرداً كاملاً من عنوانه حتى ختامه ، لا يغنيه عن ذلك تبويب الكتاب ، ولا هذه الفهارس الدقيقة الشاملة التي يصنعها المحدثون للطبعات الحديثة من تلك الكتب القديمة . وقد يقرأ الدارس الكتاب ثم لا يخرج منه بشيء ، أو يخرج بخبر أو خبرين لعله كان قد استخرجهما من كتاب غيره ، فلا يضيفان إليه جديداً .

ولا يقف بحثنا عند حدود الجاهلية ، وإنما يتجاوزها حتى يشمل القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، وذلك لأننا ندرس الشعر الجاهلي في الجاهلية نفسها ، ثم نتتبعه خلال هذه القرون حتى نصل به إلى مرحلة التدوين العلمي عند رجال الطبقة الأولى من الرواة العلماء ، ثم تلاميذهم من رجال الطبقة الثانية والثالثة . ومن أجل ذلك اقتضى هذا البحث دراسة تلك القرون ، والرجوع إلى مصادرها ، بالإضافة إلى دراسة الجاهلية نفسها .

وقد ألحقنا بآخر هذا البحث جريدة مفصلة فيها أسماء المؤلفين مرتبة على حروف المعجم ، وسنوات وفياتهم ، وأسماء كتبهم وطبعاتها التي رجعنا إليها .

* * *

أما أساتذتي الدكتور شوقي ضيف المشرف على هذا البحث ، والدكتور إبراهيم سلامة ، والأستاذ مصطفى السقا ، والدكتور عبد اللطيف حمزة ، والأستاذ السباعي بيومي ، أعضاء لجنة المناقشة — فلهم الشكر صادقاً كفاء

ما أنفقوا من وقت فى قراءة هذا البحث ، ومن جهد فى مناقشة صاحبه ، وكفاء ما حبَوْنى به من رعاية وتشجيع ، وأسبغوه على البحث من ثناء وتقدير .

أما أخى الصديق الأستاذ محمود محمد شاكر فإن فضله لا يقتصر على هذا البحث وحده ، فلطالما اغترفت من علمه ، وأفدت من مكتبته ، وانتفعت بنصحه وتوجيهه ؛ وما أكثر ما كان ينفق من وقت يناقش معى فيه بعض وجوه الرأى ، ويبصّرنى بما لم أكن لأصل إليه لولا غزير علمه وسديد نصحه . ولقد كان له أكبر الفضل — بإخائه وعونه الكريم — فى حثّى على مواصلة العمل، وفى إخراج هذا البحث فى كتاب يتداوله القرّاء .

* * *

وبعد :

فإن هذا البحث — كما ذكرت — هو الخطوة الأولى فى سبيل دراسة هذا الموضوع ، وأرجو أن تتلوها خطوات ، تكمّل ما فيه من نقص ، وتقوّم ما قد يكون فيه من عوَج ، وحسب هذا البحث أنه شقّ الطريق ، وألقى فيها من المعالم ما يهدى السالكين ، وحسبى منه أنى أخلصت النية ، وبذلت أقصى الجهد . ومن الله الهداية وبه التوفيق .

ناصر الدين الأسد

فهرست الموضوعات

الباب الثانى

كتابة الشعر الجاهلى وتدوينه

الباب الثالث
الرواية والسماع

الباب الرابع

الشك فى الشعر الجاهلى

(الوضع والنحل)